الجزء الاول

من الفتوحات الاسلامية * بعد مضى الفتوحات
النبوية * لمؤلفها فريد العصر والأوان * على
الهمة عظيم الشان * شيخ الاسلام بالأقطار
الحجازية * ومفتى السادة الشافعية بمكة
المحمية * الاستاذ السيد أحمد بن
السيد زيني دحلان * أسكنه
الله بحبوحة الجنان
آمين آمين
آمين

طبع على نفقة

مصطفى فهمى الكتبي بمصر

بمطبعة السعاده بجوار محافظة مصر
(سنة ١٣٣٠ هجريه)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين
﴿أما بعد﴾ فيقول العبد الفقير خادم طلبة العلم بالمسجد الحرام كثير الذنوب والآثام المرتجي من ربه الغفران أحمد بن زيني دحلان غفر الله له ولوالديه ومشايخه ومحبيه والمسلمين أجمعين هذه وريقات جمعت فيها بغاية الاختصار الفتوحات الاسلامية التي افتتحها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعدهم من الخلفاء والملوك فابتدأت بما كان منها في زمن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه وسميتها (الفتوحات الاسلامية) بعد مضي الفتوحات النبوية فأولها بعث جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما لأن النبي صلى الله عليه وسلم جهزه في زمنه الذي توفي فيه وأمره أن يسير الى الموضع الذي استشهد فيه أبوه زيد بن حارثة رضي الله عنه وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ومشارق الشام وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مسير جيش أسامة فلما استخلف أبو بكر رضي الله عنه وارتد كثير من العرب أشار عليه بعض الصحابة رضي الله عنهم بتأخير جيش أسامة رضي الله عنه فامتنع وقال أول شيء أنفذه سير الجيش الذي جهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة الذي جهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار أسامة رضي الله عنه بجيشه كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبث الجنود في بلاد قضاعة التي ارتدت وأغار على ابنى فسبي وقتل وغنم ورجع لأربعين يوما ولم يحدث أبو بكر رضي الله عنه في مغيبه شيأ وكان انفاد جيش أسامة من أعظم الامور نفعا

للمسلمين فان العرب قالوا لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه ولما ارتد كثير من العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ثبتت قريش وثقيف على الاسلام ولم يرتد أحد منهم وأما قريش فثبتهم الله بسهيل بن عمرو العامري رضي الله عنه فانه خطب أهل مكة خطبة تشبه خطبة أبي بكر رضي الله عنه التي خطب بها يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وثبت أهل المدينة بها فلما جاء خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى أهل مكة ارتجت مكة كاد أهلها يرتدون فقام سهيل بن عمرو رضي الله عنه على باب الكعبة وصاح بهم اجتمعوا اليه فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وقال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ألم تعلموا أن الله قال انك ميت وانهم ميتون * وقال وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل * وتلا آيات أخر ثم قال والله اني أعلم أن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما وقال أيضا يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمن الله هذا الامر كما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقد رأيته قائما مقامي هذا وحده وهو يقول قولوا معي لا اله الا الله تدين اليكم العرب وتؤدي اليكم العجم الجزية والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله فمن بين مستهزئ ومصدق فكان ما رأيتم فوالله ليكونن الباقي ثم ذكر لهم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلاف أبي بكر رضي الله عنه وقال ان ذلك لم يزد الاسلام الا قوة فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه فتوكلوا على ربكم فان دين الله قائم وكلمته تامة وان الله ناصر من نصره ومقو دينكم وأن الله جمعكم على خيركم يعني أبا بكر رضي الله عنه فتراجع الناس وكفوا عما هموا به وهذه الخطبة هي المقام الذي أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غزوة بدر لما أسر سهيل بن عمرو مع من أسر من كفار قريش يوم بدر وكان فصيحا بليغا يخطبهم ويحثهم ويحرضهم على قتال النبي صلى الله عليه وسلم فلما أسر قال عمر رضي الله عنه يا رسول الله دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو فلا يقوم عليك خطيبا في

مواطن أبدا الان سهيلا كان أعلم أى مشقوق الشفة العليا والاعلم اذا نزعت ثنيتاه لم يستطع الكلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه دعه يا عمر فعسى أن يقوم مقاما تحمده عليه ولا تذمه فكان ذلك المقام هذه الخطبة التى قام بها حين جاءهم بمكة خبر وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وثبت الله بها أهل مكة وكان إسلام سهيل بن عمرو عام فتح مكة واستشهد يوم اليرموك سنة ثنتى عشرة وقيل مات فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة ويجتمع نسبه مع النبى صلى الله عليه وسلم فى لؤى بن غالب لانه من بنى عامر بن لؤى والنبى صلى الله عليه وسلم من بنى كعب بن لؤى وكان سهيل رضى الله عنه من أشراف قريش وله ترجمة واسعة وأما ثقيف فثبتهم الله بعثمان بن أبى العاص الثقفى رضى الله عنه فانه قام فيهم بمثل ما قام به سهيل بن عمرو فى مكة فثبتوا * وكان قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ظهور مسيلمة الكذاب ودعواه النبوة باليمامة وظهور طليحة بن خويلد الاسدى ودعواه النبوة فى بنى أسد وغطفان وظهور الاسود العنسى ودعواه النبوة باليمن فاما الاسود العنسى فسلط الله عليه فيروزا الديلمى فقتله وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله قبل وفاته ثم جاءتهم الاخبار بقتله فى أول خلافة أبى بكر رضى الله عنه * وأما مسيلمة وطليحة الاسدى فسيأتى الكلام عليهما * ولما ارتد كثير من العرب بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم عظمت مصيبة المسلمين واشرأبت اليهودية والنصرانية وعم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية واضطرمت الارض نارا وكانت ردتهم مختلفة فنهم من قال لو كان نبيا ما مات ومنهم من قال انقضت النبوة بموته فلا نطيع أحدا أبدا ومنهم من قال نؤمن بالله ومنهم من قال نؤمن بالله ونشهد أن محمدا رسول الله ونصلى ولكن لا نعطيكم أموالنا فقال أبو بكر رضى الله عنه ان الزكاة مثل الصلاة والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه فجادله فى ذلك كثير من الصحابة منهم عمر وأبو عبيدة وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم ومن مجادلتهم له قول عمر رضى الله عنه له تألف الناس وارفق بهم فانهم

بمنزلة الوحش فقال له أبو بكر رضى الله عنه رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك أجبار فى الجاهلية وخوار فى الاسلام قد انقطع الوحى وتم الدين أينقص وأنا حى والله لأجاهدنهم مهما استمسك السيف فى يدى وان منعونى عقالا وقال له عمر أيضا انما نصت العرب على أموالها فلو تركت للناس صدقة هذه السنة فأبى الا قتالهم وقال له عمر أيضا كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله محمد رسول الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم فقال له أبو بكر رضى الله عنه أليس قد قال الا بحقها ومن حقها اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والله لو منعونى عقالا وفى رواية عناقا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ولو خذلنى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى فقال عمر رضى الله عنه فوالله ماهو الا أن رأيت أن شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق وقال عمر بعد ذلك والله لقد رجح ايمان أبى بكر بايمان هذه الامة فى قتال أهل الردة وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن الله منّ علينا بأبى بكر أجمعنا أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون ونعبد الله حتى يأتينا اليقين فعزم الله لأبى بكر على قتالهم ثم اتفق الصحابة كلهم رضى الله عنهم على قتالهم واستصوبوا ما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال أنس بن مالك رضى الله عنه كره الصحابة أولا قتال مانعى الزكاة وقالوا أهل القبلة فتقلد أبو بكر رضى الله عنه سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدا من الخروج على أثره وهذا دليل على كمال شجاعته وقال أبو بكر بن عياش سمعت أبا حصين يقول ماولد بعد النبيين مولود أفضل من أبى بكر رضى الله عنه لقد قام مقام نبى من الانبياء فى قتال أهل الردة

﴿ ذكر أول وقعة فى قتال أهل الردة ﴾

كان بعض أهل الردة طمعوا فى استيلائهم على المدينة واستئصال الصحابة ليرجعوا الامر جاهلية كما كانوا فتعجل جماعة من بنى عبس وذبيان ونزلوا فى الابرق ونزل آخرون بذى القصة ومعهم قوم من بنى أسد وكنانة وبعثوا وفدا الى

أبى بكر يطلبون الاقتصار على الصلاة دون الزكاة فأبى أبو بكر من ذلك وأخذ فى الاحتراس والحذر منهم فجعل على انقاب المدينة عليا والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وغيرهم ورجع وفد المرتدين فأخبروا قومهم بقلة أهل المدينة فأغاروا على من كان بأنقاب المدينة فبعثوا الى أبى بكر فخرج فى أهل المسجد الحاضرين فى ذلك الوقت على النواضح فهربوا والمسلمون فى أتباعهم الى ذى خشب وكان للمرتدين كمين فى ذى حسى فنفروا ابل المسلمين بشنان نفخوها وفيها حبال ثم دهدهوها على الارض فنفرت إبل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم الى المدينة ولم يصرع مسلم فظن المرتدون بالمسلمين الوهن وبعثوا الى أهل ذى القصة بالخبر فقدموا عليهم وبات أبو بكر رضى الله عنه يعبى الناس وخرج على تعبيته فاطلع الفجر الا وهم والعدو على صعيد واحد فاشعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف فادر قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم وقتلوا رجالا منهم وتبعهم أبو بكر رضى الله عنه ومن معه حتى نزلوا بذى القصة وكان ذلك أول الفتح ووضع بها النعمان بن مقرن فى عدد ورجع الى المدينة فذل له المشركون واعتز المسلمون بواقعة أبى بكر هذه واستبشروا ولما قدم أسامة بن زيد استخلفه أبو بكر رضى الله عنه على المدينة وخرج بمن معه من المسلمين الى ذى حسى وذى القصة حتى نزل بالابرق فقاتل من به فهزم الله المشركين وأخذ الحطيئة أسيرا فطأطأت بنو عبس وبنو بكر وأقام أبو بكر بالابرق أياما وغلب على بنى ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين وصدقاتهم ثم رجع الى المدينة ولما انهزم بنو عبس وذبيان رجعوا الى طليحة الاسدى وهو ببزاخة ثم قطع أبو بكر رضى الله عنه البعوث وعقد الالوية فعقد أحد عشر لواء وجعل لكل لواء أميرا وعزم أبو بكر على الخروج لقتال المرتدين بنفسه وأمر الناس بالجهاد فخرجوا وخرج هو فى مائة من المهاجرين والانصار وخالد بن الوليد يحمل اللواء حتى نزل بذى القصة ومكث أياما ينتظر الناس وبعث الى من كان حوله من أسلم وغفار

ومزينة وأشجع وجهينة فأقبلوا من كل ناحية حتى كثر الناس وجعل عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما يكلمان أبا بكر فى الرجوع الى المدينة لما رأيا عزمه على المسير بنفسه وقال عمر ارجع يا خليفة رسول الله تكن للمسلمين فئة وردأ فانك ان تقتل يرتد الناس ويعلو الباطل على الحق وأبو بكر يظهر المسير بنفسه وأخرج الدارقطني عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال لما برز أبو بكر واستوى على الراحلة أخذ على بن أبى طالب رضى الله عنه بزمامها وقال الى أين يا خليفة رسول الله أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك وارجع الى المدينة فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للاسلام نظام أبدا ولما ألحوا عليه فى الرجوع رجع بعد أن بعث الامراء فى كل ناحية لقتال أهل الردة

﴿ ذكر مسير خالد بن الوليد الى بزاخة لقتال طليحة بن خويلد الاسدى ﴾
﴿ من بنى أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس ﴾

ادعى النبوة قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وزعم أن جبريل يأتيه وسجع للناس الأكاذيب والخرافات التى تمجها الاسماع كقوله والحمام واليمام ومصر والصوام قدضمن قبلكم بأعوام ليبلغن ملكنا العراق والشام وكثر أتباعه من بنى أسد وغطفان وكان يأمرهم بترك السجود فى الصلاة ويقول ان الله ما يصنع بتعفر وجوهكم وتقبيح أدباركم شيأ اذكروا الله واعبدوه قياما فبعث أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد رضى الله عنه لقتال طليحة ومعه كثير من المهاجرين والانصار ومعه أيضا عدى بن حاتم فى ألف من طىء وكان طليحة قد أسلم ثم ارتد فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وكان كاهنا فادعى النبوة فلما توفى النبى صلى الله عليه وسلم استطار أمر طليحة واجتمعت اليه غطفان وهوازن وغيرهم وارتد أيضا عيينة بن حصن الفزارى وصار مع طليحة ونزلوا جميعا بزاخة فقصدهم خالد بن الوليد بمن معه وتقاتلوا واشتد القتال ثم انهزموا فقتل من قتل منهم وأسلم من أسلم فوثب طليحة على فرسه واحتقب امرأته ونجا بها الى الشام روى ان طليحة

قال لاصحابه لما رأى انهزامهم ويلكم ما يهزمكم فقال له رجل منهم أنا أخبركم انه ليس منا رجل الا وهو يحب ان صاحبه يموت قبله وانا نلقى قوما كلهم يحب ان يموت قبل صاحبه وكان خالد بن الوليد قبل القتال ولقاء القوم أرسل طليعة عكاشة بن محصن الأسدى وثابت بن أرقم الانصارى فلقيهما حبال أخو طليحة فقتلاه فبلغ خبره طليحة فخرج هو وأخوه سلمة فقتل طليحة عكاشة وقتل أخوه ثابتا وقيل ان حبالا أخا طليحة أسر فأرادوا ارساله الى أبى بكر رضى الله عنه فقال اضربوا عنقى ولا ترونى محمديكم هذا ولما وقع القتال من طليحة وقومه كان خالد رضى الله عنه يحرض المؤمنين ويقول يا معشر الانصار الله الله واقتحم وسط القوم وكر على أصحاب طليحة فاختلطت الصفوف واختلفت السيوف بينهم واشتد القتال وقاتل خالد يومئذ بسيفين حتى قطعهما وقاتل عيينة بن حصن مع طليحة قتالا شديدا وكذلك قومه وكان معه منهم سبعمائة ولما انهزم القوم أسر عيينة ابن حصن وقرة بن هبيرة القشيرى وأرسلا الى أبى بكر رضى الله عنه فرجعا الى الاسلام فقبله منهما وأما طليحة فانه لما انهزم الناس فر وبقى نحو الشام عند بنى غسان الى أن توفى أبو بكر رضى الله عنه ودخل بنو أسد وغيرهم فى الاسلام أسلم طليحة وحسن اسلامه ولقى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبايعه وقال له عمر رضى الله عنه أنت قاتل عكاشة وثابت والله لا أحبك أبدا فقال يا أمير المؤمنين ما يهمك من رجلين أكرمهما الله بالشهادة على يدى ولم يهنى بأيديهما ثم كان لطليحة آثار جميلة فى قتال الفرس لما فتح العراق وكان من الشجعان المشهورين استشهد رضى الله عنه بنهاوند سنة ثمان عشرة ولما أوقع الله ببنى أسد ما أوقع وانهزموا بث خالد السرايا ليصيبوا ما قدروا عليه فجعلت العرب تسير الى خالد راغبة فى الاسلام أو خائفة من السيف ومنهم من مضى الى أبى بكر ولم يأت خالدا ولما فرغ خالد من بنى أسد سار الى أرض بنى تميم فلما وصل الى البطاح من أرض تميم لم يجد بها جمعا ففرق السرايا فى نواحيها فلقوا اثنى عشر رجلا فيهم مالك بن نويرة التميمى وكانوا ممن ارتدوا ومنع الزكاة فأخذوهم وجاؤا بهم خالدا

واختلف الذين أخذوهم فى مالك بن نويرة ومن معه فقال قوم انهم أسلموا فمالنا عليهم من سبيل وقال قوم لم يسلموا وان قتلهم وسبيهم حلال وكان ذلك رأى خالد فيهم فأمر بهم خالد فقتلوا وقتل معهم مالك وتزوج خالد امرأته وقيل ان خالدا سمع من مالك كلاما استدل به على عدم اسلامه من ذلك انه قال ان صاحبكم قد توفى فعلم خالد أنه أراد أنه صلى الله عليه وسلم ليس بصاحب له فتيقن ردته فقتله بعد أن تكرر من مالك قوله فعل صاحبكم شأن صاحبكم فقال له خالد وليس بصاحبك وقيل انه لما قدم مالك بن نويرة ومعه الاسرى على خالد حبسهم على ضرار بن الازور وكانت ليلة ممطرة فنادى مناديه ان ادفئوا أسراكم وكانت فى لغة كنانة كناية عن القتل فبادر ضرار بقتلهم وكان كنانيا وسمع خالد الداعية فخرج متأسفا وقد فرغوا فقال اذا أراد الله أمرا أصابه ولما قدم خالد على أبى بكر رضى الله عنه سأله عن قتل مالك بن نويرة فأخبره بذلك واعتذر اليه فقبل عذره وأراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان أبا بكر رضى الله عنه يقتل خالدا قصاصا فى مالك بن نويرة فقال أبو بكر يا عمر تأول خالد فأخطأ فارفع لسانك عن خالد فانى لا أشيم سيفا سله الله على الكافرين ودفع أبو بكر رضى الله عنه ديات لأولياء مالك بن نويرة ومن قتل معه وكان مالك بن نويرة أسلم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وقدم فجعله النبى صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه فجمعها فلما بلغه وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ردها من حيث جاءت وكان أمره ما تقدم وكان خالد رضى الله عنه بعد وقعة مالك بن نويرة رجع من البطاح الى المدينة واجتمع بأبى بكر رضى الله عنه واعتذر مما كان فى أمر مالك بن نويرة فقبل عذره وأمره بالمسير الى قتال مسيلمة فسار خالد ومن معه لقتال أهل اليمامة التابعين لمسيلمة * ولنذكر قبل ذلك خبر سجاح بنت الحارث التميمية

﴿ ذكر خبر سجاح ﴾

لما ارتد كثير من العرب بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ادعت النبوة سجاح بنت الحارث التميمية وأقبلت من الجزيرة وتبعها كثير من قومها وقوم من بنى

تغلب وكانوا أخوالها وسجعت لهم أسجاع طليحة الاسدى ومسيلمة الكذاب من ذلك قولها أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب وأرادت أن تغزو بجموعها أبا بكر رضى الله عنه بالمدينة ثم أشاروا عليها بغزو مسيلمة باليمامة فخرجت بمن معها تريد اليمامة وقالت عليكم باليمامة ذوقوا ذفيف الحمامة فانها غزوة صرامة لا يلحقكم بعدها ملامة فبلغ ذلك مسيلمة فاحتال عليها وأرسل لها هدية ثم أرسل لها يستأمن على نفسه حتى يأتيها فأمنته فجاءها في أربعين من بني حنيفة وأرسل لها أبعدى أصحابك ففعلت وقد ضرب لها قبة فجمرها وأكثر فيها من رائحة الطيب المحرك للشهوة واجتمع بها في تلك القبة فقالت له ما أوحى اليك ربك فقال ألم تر الى ربك كيف فعل بالحبلى أخرج منها نسمة تسعى بين صفاق وحشى قالت وماذا أيضا قال ان الله خلق للنساء أفراجا وجعل الرجال لهن أزواجا فتولج فيهن إيلاجا وتخرجها اذا شاءت اخراجا فينتجن لهن سخالا انتاجا قالت أشهد أنك نبي قال هل لك أن أتزوجك وآكل بقومى وقومك العرب قالت نعم قال

ألا قومى الى النيك * فقد هيئ لك المضجع * فان شئت ففى البيت
وان شئت ففى المخدع * وان شئت سلقناك * وان شئت على أربع
وان شئت بثلثيه * وان شئت به أجمع * قالت بل به أجمع

فانه أجمع للشمل قال بذلك أوحى الى فأقامت عنده ثلاثا ثم انصرفت الى قومها فقالوا لها ما عندك قالت كان على الحق فتبعته وتزوجته قالوا هل أصدقك شيئا قالت لا قالوا فارجعي فاطلبي الصداق فرجعت فلما رآها أغلق باب الحصن وقال مالك قالت أصدقني قال من مؤذنك قالت شبث بن ربعي الرياحي فدعاه وقال له نادِ فى أصحابك ان مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما جاءكم به محمد صلاة الفجر وصلاة العشاء الاخيرة فانصرفت ومعها أصحابها فقال بعض منهم

أمست نبيتنا أنثى نطوف بها * وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

وصالحها مسيلمة على غلات اليمامة سنة تأخذ النصف والنصف الثانى تترك عنده

من يأخذه فأخذت النصف وانصرفت الى الجزيرة وتركت عنده من يأخذ النصف الباقي فلم يفاجئهم الا وقد جاء خالد اليهم فارفضوا قيل انها لما قتل مسيلمة سارت الى أخوالها تغلب بالجزيرة فماتت عندهم ولم يسمع لها ذكر وقيل انها أسلمت وحسن اسلامها وانتقلت الى البصرة وماتت بها وصلى عليها سمرة بن جندب وهو أمير على البصرة لمعاوية قبل قدوم عبيد الله بن زياد من خراسان وولايته البصرة

﴿ ذكر مسير خالد بن الوليد رضى الله عنه الى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب ﴾
(ابن حبيب الحنفى)

كان أبو بكر رضى الله عنه لما بعث السرايا لقتال المرتدين أرسل عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه فى عسكر الى مسيلمة وأتبعه بشرحبيل بن حسنة التميمى وقيل الكندى وكان حليفا لبنى زهرة رضى الله عنهما فعجل عكرمة فوافاهم فنكبوه فانهزم وأقام شرحبيل بالطريق حين أدركه الخبر وكتب عكرمة لأبى بكر بالخبر فكتب اليه أبو بكر أن لا ترجع فتوهن الناس امض الى قتال أهل عمان ومهرة وكان قد أرسل الى قتالهم حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة فأمر عكرمة باللحاق بهما ثم لما جاء خالد الى المدينة بعد قصة مالك بن نويرة أمره بالمسير الى اليمامة لقتال مسيلمة بن حبيب ومسيلمة من بنى حنيفة وهى قبيلة من قبائل ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان وكان مسيلمة رئيسا فى قومه فقدم مع وفد بنى حنيفة على النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم واجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم وسأله أن يجعل له الامر بعده وكان فى يد النبى صلى الله عليه وسلم عسيب من سعف النخل فقال لمسيلمة لو سألتنى هذا العسيب الذى فى يدى ما أعطيتكه فلما رجع الى اليمامة ارتد عدو الله وادعى النبوة وقال انى أشركت فى الامر مع محمد فاتبعه بنو حنيفة وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله أما بعد فانى قد أشركت فى الامر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون وبعث الكتاب مع رجلين من قومه فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قرأ كتابه أتشهدان انى رسول الله قالا نعم قال أتشهدان ان مسيلمة رسول الله قالا نعم اشترك معك فى الامر فقال أما والله لولا أن الرسل لاتقتل لضربت أعناقكما ثم كتب الى مسيلمة فى جوابه (بسم الله الرحمن الرحيم) من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب السلام على من اتبع الهدى أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقد أهلكت أهل الحجر أبادك الله ومن صوت معك فلما جاءه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخفاه وكتب عن رسول الله كتابا زعم أنه وصله بثبوت الشركة بينهما وأخرج ذلك الكتاب الى قومه فافتتنوا بذلك وكان ذلك فى آخر السنة العاشرة من الهجرة قال الزمخشرى فى ربيع الابرار قال الجاحظ كان مسيلمة قبل ادّعاء النبوة يدور فى الاسواق التى بين دور العرب والعجم يلتمس تعلم الحيل والنيرنجات واحتيالات أصحاب الرقى والنجوم ومما تعلمه من الحيل أنه صب على بيضة من خل حاذق قاطع فلانت حتى اذا مددتها استطالت واستدقت كالعلك ثم أدخلها قارورة ضيقة الرأس وتركها حتى انضمت واستدارت وعادت كهيئتها الاولى فأخرجها الى قومه وهم قوم أعراب وادعى النبوة فآمن به جماعة ووضع الصلاة عن قومه وأحل الخمر والزنا ونحو ذلك واتفق معه بنو حنيفة الا أفرادا منهم من ذوى عقولهم ومن أراد الله به الخير ثم اشتغل بتأليف سجعات يزعم أنه يعارض بها القرآن وهى ركيكة ضحكة للعقلاء منها قوله الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وبيل ومشفر وخرطوم طويل ان ذلك من خلق ربنا القليل ومنها قوله ياضفدع كم تنقنقين اعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين وروى ياضفدع بنت ضفدعين لحسن ماتنقنقين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين امكثى فى الأرض حتى يأتيك الخفاش بالخبر اليقين لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريش قوم لايعدلون وسجع اللعين على سورة انا أعطيناك الكوثر فقال انا أعطيناك الجواهر فصل لربك وهاجر ان مبغضك لفاجر وفى رواية انا أعطيناك الجماهر

نخذ لنفسك وبادر واحذر ان تحرص أو تكاثر وفى رواية انا أعطيناك الكوائر فصل لربك وبادر فى الليالى الغوادر ولما سمع اللعين والنازعات غرقا قال والزارعات زرعا فالحاصدات حصدا والذاريات قمحا والطابخات طبخا والخافرات حفرا والخابزات خبزا فالثاردات ثردا فاللاقمات لقما والآكلات أكلا لقد فضلتم على أهل الوبر وماسبقكم أهل المدر وله غير ذلك مما يدل على سخافة عقله وعقل من صدقه واتبعه روى ان امرأة أتت مسيلمة فقالت ادع الله لنا ولنخلنا ولمائنا فان محمدا دعا لقومه فجاشت آبارهم وكثر ماؤها قال كيف صنع قالت دعا بسجل فدعا لهم فيه ثم تمضمض ومج فيه فأفرغوه فى تلك الآبار ففعل مسيلمة كذلك فغارت تلك المياه ولما سمع اللعين أن النبى صلى الله عليه وسلم تفل فى عين على رضى الله عنه وكان أرمد فبرئ * تفل فى عين بصير فعمى ومسح بيده ضرع شاة حلوب فارتفع درها ويبس ضرعها وحفرت بنو حنيفة بئرا فاعذبوها منا حافجاؤا الى مسيلمة وطلبوا منه أن يأتيها وان يبارك فيها فأتاها فبصق فيها فعادت أجاجا وتوضأ مسيلمة فى حائط فصب وضوءه فيه فلم ينبت وقال له رجل بارك على ولدى فان محمدا يبارك على أولاد أصحابه فلم يؤت بصبى مسح مسيلمة رأسه أو حنكه الا قرع أولثغ وجاءه رجل فقال يا أبا ثمامة انى ذو مال وليس لى مولود يبلغ سنتين حتى يموت غير هذا المولود وهو ابن عشر بن ولى مولود ولد أمس أحب أن تبارك فيه وتدعو أن يطيل الله عمره فقال سأطلب لك الذى طلبت فجعل عمر المولود أربعين سنة فرجع الرجل الى أهله مسرورا فتردى الاكبر فى بئر ووجد الصغير ينزع فى الموت فلم يمس من ذلك اليوم حتى ماتا جميعا فقالت أمهما فلا والله مالأبى ثمامة عند الهه مثل منزلة محمد صلى الله عليه وسلم وكان مسيلمة قبيح الخلقة ودميم الصورة وصفته على عكس صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يزعم أن جبريل يأتيه بالوحى وكان اسمه هارون بن حبيب وكنيته أبو ثمامة ولقبه مسيلمة وكان يقال له رحمن اليمامة قيل انه كان يقول ان الذى يأتيه اسمه رحمن وقيل انه من باب تعنتهم فى كفرهم * ولما فرغ خالد من البطاح ورجع الى المدينة ورضى عنه أبو

بكر رضى الله عنه بعثه الى مسيلمة فتعجل الى البطاح وأمده أبو بكر رضى الله عنه بالرجال فانتظر البعوث حتى قدمت عليه فنهض الى اليمامة وكان جيشه أربعة آلاف وكان أهل اليمامة أربعين ألف مقاتل ولما بلغهم دنوّ خالد بن الوليد رضى الله عنه خرجوا وعسكروا فى منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفروا اليهم وأقبل خالد وجعل على مقدمته شرحبيل بن حسنة فهجم عليه من أصحاب مسيلمة ليلة سرية أربعون أو ستون قبض المسلمون عليهم وقتلوهم ثم سار خالد ونازل بنى حنيفة واشتدت الحرب ولم يلق المسلمون حربا مثلها قط وتذامرت بنو حنيفة وقاتلت قتالا شديدا وكانت الحرب يومئذ تارة للمسلمين وتارة للكافرين ثم أنزل الله نصره على المسلمين حتى ألجؤا بنى حنيفة الى حديقة احتشدوا فيها فدخلها المسلمون عليهم وقاتلوهم أشد القتال فلم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلمة واشترك فى قتله وحشى مولى جبير بن مطعم الذى قتل حمزة رضى الله عنه ورجل من الانصار أما وحشى فدفع اليه حربته فوقعت بين ثدييه وضربه الانصارى بسيفه واختلف فى هذا الانصارى فقيل هو أبو دجانة وقيل هو عبد الله بن زيد قال ابن عمر فصرخ رجل وقال قتله العبد الاسود وقالت جارية على ظهر بيت وا أمير المؤمنين قتله العبد الاسود فولت بنو حنيفة عند قتله مهزومة وأخذهم السيف من كل جانب ثم بقى منهم جماعة بالحصون فصالحهم خالد على كل شئ دون النفوس وفى رواية فصالحهم على الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع ونصف السبى وكان وحشى يقول قتلت خير الناس فى الجاهلية وشر الناس فى الاسلام يعنى حمزة ومسيلمة وفى تاريخ ابن الوردى لما عزى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمزة حين قتله وحشى بأحد قال بعضهم ويل لوحشى من النار فقال صلى الله عليه وسلم أما حمزة فأجله قد انقضى وأما وحشى فسوف يدرك الشرف من بعده فقالوا كيف يا رسول الله قال هو يقتل مسيلمة الكذاب فكان كما قال صلى الله عليه وسلم واستشهد فى هذه الوقعة كثير من مشاهير المهاجرين والانصار وفضلاء الصحابة يطول الكلام بتعداد أسمائهم وجملة من قتل من المهاجرين والانصار من المدينة

ثلثمائة وستون ومن المهاجرين من غير المدينة ثلثمائة رجل ومن بقية المسلمين ستمائة
فجملة من استشهد من المسلمين ألف ومائتان وقيل ألف وثمانمائة ومن المشركين
نحو عشرين ألفا قتل منهم فى الحديقة فقط سبعة عشر ألفا كما فى تاريخ ابن
خلدون وكانت هذه الوقعة فى ربيع الاول من سنة ثنتى عشرة من الهجرة كذا
فى تاريخ الخميس والذى يقتضيه تاريخ ابن الاثير وتاريخ ابن خلدون أنها كانت
فى أواخر السنة الحادية عشرة لانهم ذكروا ان مسير خالد الى العراق فى أول سنة
ثنتى عشرة وكان ذلك بعد فراغه من قتال أهل اليمامة وكان القتال يوما كاملا
من بكرة النهار الى بعد العصر وقاتل خالد بن الوليد فى ذلك اليوم قتالا شديدا
وكان يقول شهدت عشرين زحفا فلم أر قوما أصبر لوقع السيوف ولا اضرب
بها ولا أثبت اقداما من بنى حنيفة يوم اليمامة وقال أبو برزة الاسلمى لقد اقتحم خالد
حتى أعذر وصبر حتى ظفر وقال رافع بن خديج خرجنا ونحن أربعة آلاف
فانتهينا الى اليمامة فنتهى الى قوم هم الذين قال الله فيهم ستدعون الى قوم أولى بأس
شديد ثم ان الله بمنه وكرمه وفضله رزقنا عليهم الظفر وكان مع المسلمين امرأة وهى
أم عمارة نسيبة بنت كعب الانصارية وهى والدة عبد الله بن زيد الذى قتل مسيلمة
مع وحشى وشهدت أمه ذلك اليوم وقطعت يدها فى ذلك القتال وكانت أم عمارة
هذه جاءت الى أبى بكر رضى الله عنه لما تجهز القوم للخروج واستأذنته فى
الخروج فقال لها أبو بكر رضى الله عنه مامثلك يحال بينه وبين الخروج قد
عرفناك وعرفنا جراءتك فى الحرب فاخرجى على اسم الله وكان مسيلمة قبل
خروجهم قد ظفر بابن لها وهو حبيب بن زيد وكان مقبلا من عمان يريد المدينة
فسمع به مسيلمة فأرسل من قبض عليه وجىء به أسيرا فقال له مسيلمة أتشهد انى
رسول الله فقال لا أسمع فقال له أتشهد أن محمدا رسول الله قال نعم فأمر به فقتل
وكان كلما قال أتشهد انى رسول الله قال لا أسمع فاذا قال أتشهد أن محمدا رسول
الله قال نعم حتى قطعه عضوا عضوا حتى قطع يديه من المنكبين ورجليه من
الوركين ثم أحرقه بالنار وهو فى كل ذلك لاينزع عن قوله ولا يرجع عما بدأ به حتى

مات فى النار نخرجت أمه مع القوم لتأخذ بثار ابنها فلما انتهوا الى اليمامة فكانت تقاتل مع المسلمين قالت فلما انتهينا الى الحديقة ازدحمنا على الباب فاقتحما فضاربناهم ساعة وجعلت أقصد عدو الله مسيلمة لان أراه ولقد عاهدت الله لئن رأيته لا أكذب عنه أو اقتل دونه وجعلت الرجال تختلط والسيوف بينهم تختلف وخرس القوم فلاصوت الاوقع السيوف حتى بصرت بعدو الله فشددت عليه وعرض لى منهم رجل فضرب يدى فقطعها فوالله ماعرجت عليها حتى انتهيت الى الخبيث وهو صريع قد قتله ابنى عبد الله وفى رواية وابنى يمسح سيفه بثيابه فقلت أقتلته قال نعم يا أمه فسجدت شكر الله تعالى وقطع الله دابرهم فلما انقطعت الحرب ورجعت الى منزلى جاءنى خالد بن الوليد بطبيب من العرب فداوانى بالزيت المغلى وكان والله أشد على من القطع وكان خالد كثير التعاهد لى حسن الصحبة لنا يعرف لنا حقنا ويحفظ فينا وصية نبينا وعن محمد بن يحيى بن حبان قال جرحت أم عمارة يوم اليمامة أحد عشر جرحا بين ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح وقطعت يدها سوى ذلك ولما قدمت المدينة كان أبو بكر رضى الله عنه يأتيها ويسأل عنها وهو يومئذ خليفة وممن استشهد يوم اليمامة ثابت بن قيس ابن شماس وكان خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفاخر به وفود العرب اذا قدموا عليه يفتخرون بفصاحة خطبائهم وكان يوم اليمامة معه راية الانصار ولما استشهد ودفنه المسلمون سمعوه حين أدخلوه فى قبره يقول محمد رسول الله أبو بكر الصديق عمر الشهيد عثمان البر الرحيم فنظروه فاذا هو ميت ذكر ذلك القاضى عياض فى الشفاء وبعد وفاته رآه رجل من المسلمين فى منامه يقول له انى موصيك بوصية فاياك أن تقول هذا حلم فتضيعه انى لما قتلت بالامس جاء رجل من ضاحية نجد وعلى درعى فأخذها وأتى بها منزله فاكفأ عليها برمته وجعل على البرمة رحلا وخباؤه فى أقصى العسكر الى جنب خبائه فرس أبلق يستن فى طوله فائت خالد بن الوليد فأخبره فليبعث الى درعى فليأخذها واذا قدمت على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ان على من الدين

كذا ولى من الدين كذا وسعد ومبارك غلاما ى حران فاياك أن تقول هذا حلم فتضيعه فلما أصبح الرجل أتى خالدا رضى الله عنه فأخبره فبعث خالد الى الدرع فوجدها كما قال وأخبره بوصيته فأجازها ولا نعلم أن أحدا من المسلمين أجيزت وصيته بعد موته الا ثابت بن قيس بن شماس وقد روى أن بلال بن الحارث رضى الله عنه كان صاحب الرؤيا ولما انقضى القتال اجتمع خالد بن الوليد ببعض أهل اليمامة وسألهم عن أسجاع مسيلمة فقصوها عليه فقال سبحان الله هذا الكلام ماخرج من ال ولا برفأين يذهب بكم عن أحلامكم وقال أبو بكر رضى الله عنه فى حق أهل اليمامة لن يزالوا من كذابهم فى بلية الى يوم القيامة الا أن يعصمهم الله تعالى * وقصة يوم اليمامة طويلة وقع فيها عجائب من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانت معجزات له صلى الله عليه وسلم وكرامات لهم وكلها مذكورة فى التواريخ وفى هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم والكلام على بقية أهل الردة الذين قاتلهم غير خالد بن الوليد سيأتى الكلام عليه مؤخرا بعد اتمام الكلام على غزوات خالد بن الوليد بالمشرق والعراق

﴿ ذكر مسير خالد بن الوليد الى العراق ﴾

ولما فرغ خالد بن الوليد من أمر اليمامة بعث اليه أبو بكر رضى الله عنه فى المحرم من سنة اثنتى عشرة فأمره بالمسير الى العراق فسار من اليمامة وقيل قدم على أبى بكر رضى الله عنه ثم سار من المدينة وانتهى الى قرية بالسواد وصالحه أهلها على عشرة آلاف دينار فقبضها ووضع الجزية عليهم ثم سار الى الحيرة وخرج اليه أشرافها مع اياس بن قبيصة الطائى الأمير عليها بعد النعمان بن المنذر فدعاهم الى الاسلام أو الجزية أو مناجزة الحرب فاختاروا الجزية فصالحوه على تسعين ألف درهم ثم سار الى الابلة وكان معه عشرة آلاف وأمده أبو بكر رضى الله عنه بالمثنى بن حارثة الشيبانى ومعه ثمانية آلاف وكان قبل مجىء خالد استأذن أبا بكر رضى الله عنه أن يغزو العراق فلما قدم خالد أمر أبو بكر المثنى أن يكون مع خالد ونازلوا الحفير وكان ذلك الفرج أعظم فروج فارس وأشدها شوكة وكان صاحبه اسمه

هرمز فكان يحارب العرب فى البر ويحارب الهند فى البحر فلما سمع هرمز بهم
كتب الى كسرى ازدشير الملك بالخبر وتعجل هو الى الكواظم واقترن قومه
بالسلاسل لئلا يفروا فسمع بهم خالد وكانوا سبقوه فى النزول على الماء فنزل خالد
على غير ماء فقال له أصحابه فى ذلك فقال لهم لعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين
فحطوا أثقالهم وتقدم خالد الى الفرس فلاقاهم فأرسل الله سحابة فأغدرت وراء
صف المسلمين فقويت قلوبهم وخرج هرمز ودعا خالدا الى البراز وتواطأ مع
أصحابه على الغدر بخالد فبرز اليه خالد ومشى نحوه راجلا ونزل هرمز أيضا
وتضاربا فاحتضنه خالد وحمل أصحاب هرمز الذين تواطأ معهم فاشغل ذلك خالدا
عن قتله وحمل القعقاع بن عمرو عليهم فأزاحهم وانهزم أهل فارس وركبهم
المسلمون وقتل خالد هرمز وأخذ سلبه وكانت قلنسوته بمائة ألف وكانت هذه
عادتهم اذا تم شرف الانسان تكون قلنسوته بمائة ألف وبعث خالد بالفتح
والاخماس الى أبى بكر وسميت هذه الوقعة ذات السلاسل ثم سار خالد فنزل بمكان
البصرة وبعث المثنى بن حارثة فى آثار العدو فحاصر حصن المرأة وفتحه فأسلمت
وتزوجها وكان كسرى ازدشير لما جاءه كتاب هرمز بمسير خالد أمده بجيش فلقيه
المنهزمون فرجعوا ونزلوا الثنى وهو النهر وتعرف هذه الوقعة بوقعة الثنى وسار
اليهم خالد واقتتلوا وانهزم الفرس وقتل منهم نحو ثلاثين ألفا سوى من غرق
وغنم المسلمون غنيمة عظيمة وأخذ الجزية من الفلاحين وصاروا فى ذمة وكان فى
السبى والد الحسن البصرى وكان نصرانيا ولما جاء الخبر الى كسرى بعث جيشا
عظيما وعسكروا بالدلجة فسار اليهم خالد فقاتلهم وهزمهم وقتل كثيرا منهم ثم
اجتمعوا على مليس ومعهم كثير من نصارى العرب فسار اليهم خالد فبرز اليه مالك
ابن قيس فقتله خالد واشتد القتال ثم انهزموا واستأسر الكثير منهم وقتلهم خالد
حتى سال النهر بالدم وسمى نهر الدم وبلغ عدد قتلاهم سبعين ألفا ثم سار الى
أمغيشيا فغزا أهلها واعجلهم أن ينقلوا أموالهم فغنم جميع ما فيها وخربها فلما بلغ
ذلك أبا بكر رضى الله عنه قال عجزت النساء أن يلدن مثل خالد ثم سار الى الحيرة

وحمل الرجال والاثقال فى السفن فخرج مرزبان الحيرة فعسكر عند الغربين وأرسل ابنه ليقاطع الماء عن السفن فوقفت على الارض فسار اليه خالد فقتله وجميع من معه ثم سار خالد الى أبيه فى الحيرة فهرب من غير قتال وحاصر خالد قصور الحيرة وافتتحها وأكثر القتل فخرج ابن قبيصة من القصر الابيض وعمرو بن عبد المسيح بن بقيلة وكان معمرا فقال له خالد كم أتى عليك قال مئو سنين قيل ان عمره كان أربعمائة سنة قال فما أعجب ما رأيت قال رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة تخرج المرأة فلا تتزود الا رغيفا وكان معه خادم معه كيس فسأله خالد ما فى هذا الكيس قال فيه سم ساعة فأخذه خالد ونثره فى يده وقال لم تستصحب هذا معك قال خشيت أن يكون على غير ما رأيت فيكون الموت أحب الى من مكروه أدخله على قومى فقال له خالد لن تموت نفس حتى تأتى على أجلها ثم قال خالد بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ وابتلع السم فقال ابن عبد المسيح والله لتبلغن ما أردتم ما دام أحد منكم هكذا وأبى خالد أن يصالحهم الا على تسليم كرامة بنت عبد المسيح لصحابى اسمه سويل كما فى تاريخ ابن الاثير وقيل شريك كما فى تاريخ ابن خلدون وكرامة بنت عبد المسيح قيل اسمها الشيما وسبب اشتراط تسليمها له ان النبى صلى الله عليه وسلم لما ذكر استيلاء أمته على ملك فارس والحيرة سأله ذلك الصحابى أن يعطى كرامة بنت عبد المسيح قال ابن الاثير وكان رآها شابة فمال اليها فوعده النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فلما افتتحت الحيرة طلبها وشهد له شهود بوعد النبى صلى الله عليه وسلم فسلموها لخالد وسلمها خالد له وفاء لوعد النبى صلى الله عليه وسلم اياه فاشتروها منه بألف درهم وصالحهم خالد على مائتى ألف وتسعين ألفا وأهدوا له هدايا فبعث بالفتح والهدايا الى أبى بكر رضى الله عنه فقبلها أبو بكر من الجزية وكتب الى خالد أن يأخذ منهم بقية الجزية ❊ وقصة بنت عبد المسيح ذكرها الدميرى فى حياة الحيوان فى ترجمة البغلة فقال روى الطبرانى وأبو نعيم من طرق صحيحة عن خزيمة بن أوس قال هاجرت الى النبى صلى الله عليه وسلم فقدمت عليه عند منصرفه من تبوك فأسلمت فسمعته يقول

هذه الحيرة قد رفعت اليكم ستفتحونها وهذه الشيما بنت بقيلة الازدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار اسود فقلت يارسول الله ان نحن دخلنا الحيرة فوجدناها على هذه الصفة فهى لى قال عليه الصلاة والسلام هى لك فأقبلنا مع خالد بن الوليد نريد الحيرة فلما دخلناها كان أول من تلقانا الشيما بنت بقيلة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة شهباء معتجرة بخمار اسود فتعلقت بها وقلت هذه وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلب منى خالد عليها البينة فأتيته بها فسلمها لى ونزل الينا أخوها عبد المسيح فقال أتبيعنيها فقلت نعم فقال احتكم ما شئت فقلت والله لا أنقصها عن ألف درهم فدفع لى ألف درهم فقيل لى لو قلت مائة ألف درهم لدفعها لك فقلت لا أحسب مالا أكثر من ألف درهم قال الطبرانى و بلغنى ان الشاهدين كانا محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر و رضى الله عنهم انتهى وفى أسد الغابة ان اسم الصحابى المذكور خزيم بن أوس الطائى وان المرأة اسمها الشيما وان الشاهدين محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر و وقيل محمد بن مسلمة و محمد بن بشير فمن قال ان الصحابى شويل أو شريك فلعله يلقب بذلك وكذلك من قال ان اسم المرأة كرامة فلعله لقب لها لان القصة واحدة وهى من معجزاته صلى الله عليه وسلم وأعلام نبوته والحيرة مدينة بارض الكوفة على ساحل البحر كان بها ملك النعمان بن المنذر وغيره من ملوك العرب عمالا لكسرى ملك الفرس والآن لا أثر للمدينة المذكورة ومكان المدينة دجلة

﴿ ذكر فتح ما وراء الحيرة ﴾

كان الدهاقين يتربصون بخالد ما يصنع بأهل الحيرة فلما صالحهم واستقاموا له جاءته الدهاقين من كل ناحية فصالحوه عما يلى الحيرة من الفلالج على ألفى ألف وبث السرايا فى الثغور وأمرهم بالغارة فمخروا السواد كله الى شاطئ دجلة وكتب الى ملوك فارس يدعوهم الى الاسلام أو أداء الجزية وأقام بالحيرة سنة يصوب ويصعد والفرس حائرون فيمن يملكونه لان ملكهم مات فحصل اضطراب بينهم ثم سار خالد الى الانبار فحاصرهم وأمر الرماة أن يقصدوا عيونهم فرموا رشقا

واحداثم تابعوا فأصابوا ألف عين فسميت تلك الوقعة ذات العيون فأرسلوا يطلبون الصلح على أمر لم يرضه خالد فرد الرسل ونحر من ابل العسكر كل ضعيف وألقاه فى خندقهم ثم عبره فاجتمع المسلمون والكفار فى الخندق فبذلوا لخالد ماأراد وعقدوا الصلح معه وألحقهم بمأمنهم ليس معهم شئ غير المتاع ثم صالحه من حول الانبار وأهل كلواذا

﴿ ذكر فتح عين التمر ﴾

ولما فرغ خالد من الانبار سار الى عين التمر وبها جمع عظيم من العجم ومعهم جمع من العرب من بنى تغلب وغيرهم فقال لهم العرب نحن أعلم بقتال العرب فدعونا وخالدا فقالوا اصدقتم فتقدم العرب لقتال خالد فأسر أميرهم ثم قتله وهزمهم واسر كثيرا منهم فانهزم العجم وتركوا الحصن فتحصن المنهزمون من العرب فنازلهم خالد فطلبوا الامان فأبى فنزلوا على حكمه فأخذهم أسرى ثم قتلهم أجمعين وسبى كل من فى الحصن وغنم مافيه ووجد فى بيعتهم أربعين غلاما يتعلمون الانجيل فأخذهم فقسمهم على أهل البلاد منهم سيرين والد محمد بن سيرين ونصير والد موسى بن نصير وحمران مولى عثمان رضى الله عنه وأرسل الى أبى بكر بالخبر والخمس

﴿ ذكر خبر دومة الجندل ﴾

لما فرغ خالد من عين التمر جاء كتاب من عياض بن غنم رضى الله عنه وكان أميرا على جيش لقتال نصارى العرب الذين بدومة الجندل فكتب لخالد يستمده على من بازائه من نصارى العرب وكانوا قبائل كثيرة فسار اليه خالد فنزل دومة الجندل وعياض عليها من الجهة الاخرى فقاتلوا نصارى العرب من الجهتين فانهزموا الى الحصن فحاصروهم وافتتحوا الحصن عنوة وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية وأقام خالد بدومة الجندل فطمع الاعاجم فى الحيرة وكثرت جموعهم بالحصيد ومعهم كثير من نصارى العرب وكان خالد جعل على الحيرة القعقاع بن عمرو فقاتلهم بالحصيد وقتل من العجم مقتلة عظيمة وهزمهم وغنم المسلمون غنائم كثيرة ثم اجتمع الاعاجم بمضيخ بنى البرشاء وكثرت جموعهم فبلغ الخبر خالدا فكتب الى

القعقاع ومن معه من الامراء ووعدهم ساعة من ليلة يجتمعون فيها الى المضيخ وخرج خالد قاصدا اليهم فلما كانت تلك الساعة من ليلة الوعد اتفقوا جميعا فأغاروا عليهم وهم نائمون من ثلاثة أوجه فقتلوا كثيرا منهم وكان معهم عبد العزى ابن أبى رهم ولبيد بن جرير وكانا قد أسلما ومعهما كتاب من أبى بكر رضى الله عنه باسلامهما فقتلا فى المعركة فوداهما أبو بكر وأوصى باولادهما وكان عمر رضى الله عنه ينقد بقتلهما وقتل مالك بن نويرة على خالد فيقول أبو بكر كذلك يلقى من نازل أهل الشرك

﴿ ذكر وقعة الثنى والزميل ﴾

كان ربيعة بن بجير التغلبى بالثنى والزميل وهما شرقى الرصافة ومعه جموع يريد بها قتال خالد رضى الله عنه فلما أصاب خالد أهل المضيخ أمر القعقاع والامراء بالمسير ليغيروا عليهم وسار خالد من المضيخ واجتمع بالثنى فبيتوا القوم وأغاروا عليهم من ثلاثة أوجه وجردوا فيهم السيوف فلم يفلت منهم مخبر وغنم وسبى ولما انهزم من كانوا بالمضيخ كان فيهم الهذيل بن عمران فلحق بجندهم كان بالبشرفى عسكر ضخم فبيتهم خالد بغارة شعواء وقتل منهم مقتلة عظيمة وقسم الغنائم وبعث الخمس الى أبى بكر رضى الله عنه ثم سار خالد الى الرضاب وبها جمع من نصارى العرب فهربوا وتفرقوا لما سمعوا بمسير خالد فوصل اليها خالد ولم يلق كيدا

﴿ ذكر وقعة الفراض ﴾

ثم سار خالد من الرضاب الى الفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة وافطر بها رمضان لاتصال الغزوات وحميت الروم واستعانوا بمن يليهم من الفرس فأعانوهم واجتمع معهم من العرب تغلب واياد والنمر وساروا الى خالد واقتتلوا بالفراض قتالا عظيما وانهزمت الروم ومن معهم وأمر خالد المسلمين ان لا يرفعوا عنهم السيف فقتل فى المعركة وفى الطلب مائة ألف واقام خالد بالفراض عشرا ثم آذن بالرجوع الى الحيرة لخمس بقيت من ذى القعدة وخرج هو من الفراض حاجا سرا ومعه عدة من أصحابه يعسف البلاد فأتى مكة وحج ورجع فأتوا فى جنده

بالحيرة حتى وافاهم ولم يعلم بحجه الا من أعلمه ولم يعلم بذلك أبو بكر رضى الله عنه الا بعد رجوعه فعتب عليه فى ذلك وكانت عقوبته اياه ان صرفه الى الشام من العراق ممدا لجموع المسلمين باليرموك وكانت غزواته هذه كلها فى أقل من سنة لانه توجه الى العراق فى المحرم سنة ثنتى عشرة كما تقدم * ولنذكر بقية الكلام على قتال أهل الردة الذى جرى من الامراء غير خالد بن الوليد ثم نرجع لما كان فى فتوح الشام

﴿ ذكر ردة بنى عامر وهوازن وسليم ﴾

كانت بنو عامر تقدم الى الردة رجلا وتؤخر أخرى وتنظر أمر طليحة وما تصنع بنو أسد وغطفان حتى أحيط بهم وأوقع بهم خالد بن الوليد وكان رؤساء بنى عامر قرة بن هبيرة وعلقمة بن علاثة وكان علقمة أسلم ثم ارتد فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ولحق بالشام بعد فتح الطائف فلما توفى النبى صلى الله عليه وسلم أقبل مسرعا حتى عسكر فى بنى كعب فبلغ ذلك أبا بكر رضى الله عنه فبعث اليه سرية عليها القعقاع بن عمرو فأغار على الماء الذى عليه علقمة وكان لايبرح الا مستعدا فسابقهم على فرسه فسبقهم واسلم أهله وولده فأخذهم القعقاع وقدم بهم على أبى بكر رضى الله عنه فجحدوا أن يكونوا على ما كان علقمة ولم يبلغ أبا بكر رضى الله عنه انهم فارقوا دارهم وقالوا ما ذنبنا فيما صنع علقمة فأرسلهم ثم أسلم علقمة فقبل ذلك منه وأقبلت بنو عامر بعد هزيمة أهل بزاخة يقولون ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله وأتوا خالد بن الوليد فبايعهم على ما بايع أهل بزاخة وأعطوه أيديهم على الاسلام ولم يقبل من أحد من أسد وغطفان وطى وسليم وعامر الا أن يأتوه بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على الاسلام فى حال ردتهم فأتوه بهم فقتل بهم وحرقهم ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال ونكسهم من الآبار وأرسل الى أبى بكر رضى الله عنه يعلمه وأما قرة بن هبيرة فكان قد لقى عمرو بن العاص رضى الله عنه منصرفه من عمان بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فقال لعمرو اتركوا الزكاة فان العرب لاتدين لكم بالاتاوة فغضب عمرو وأسمعه كلاما

وأبلغ مقالته أبا بكر رضي الله عنه فكتب الى خالد بذلك فقبض على قرة بن هبيرة و بعث به الى أبي بكر فأسلم واعتذر فقبل ذلك منه أبو بكر وحقن دمه ثم اجتمع قبائل من غطفان وهوازن وطي وأسد الى سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر في الحوءب و بلغ ذلك خالدا بعد فراغه من أهل بزاخة فقاتلهم وسلمى واقفة على جملها حتى عقر وقتلت وقتل حول هودجها مائة رجل فانهزموا وأما بنو سليم فكان الفجاء بن عبد ياليل قدم على أبي بكر رضي الله عنه يستعينه مدعيا اسلامه و يضمن له قتال أهل الردة فأعطاه وأمره فخرج الى الجون وارتد و بعث نجبة ابن أبي المثنى من بني الشريد وأمره بشن الغارة على المسلمين في سليم وهوازن فبعث أبو بكر الى طريفة بن حاجز وعبد الله بن قيس الجاسي فنهضا اليه ولقياه فقتل نجبة وهرب الفجاء فلحقه طريفة فأسره وجاء به الى أبي بكر رضي الله عنه فأوقد له في مصلى المدينة حطبا ثم رمى به في النار مقموطا وفات بنو سليم كلهم ود خلوا في الاسلام وكان منهم أبو شجرة بن عبد العزى السلمي وهو ابن الخنساء وكان قد ارتد وقال شعرا منه قوله

فرويت رمحي من كتيبة خالد * واني لأرجو بعدها أن أعمرا

يعني عمر بن الخطاب فلما أسلم قبل أبو بكر رضي الله عنه منه الاسلام فلما كانت خلافة عمر رضي الله عنه قدم المدينة فرأى عمر يقسم مالا في المساكين فقال اعطني فاني ذو حاجة فقال ومن أنت فقال أبو شجرة بن عبد العزى السلمي قال أي عدو الله لا والله ألست الذي تقول

فرويت رمحي من كتيبة خالد * واني لارجو بعدها ان أعمرا

وجعل عمر يعلوه بالدرة على رأسه فسبقه عدوا الى ناقته فركبها ولحق بقومه وقال أبياتا منها قوله

ضنّ علينا أبو حفص بنائله * وكل مختبط يوما له ورق

﴿ ذكر ردة أهل البحرين ﴾

كانت عبد القيس و بكر بن وائل وغيرهم من أحياء ربيعة قد ارتدوا بعد وفاة

النبي صلى الله عليه وسلم فأما عبد القيس فردهم الجارود بن المعلى الى الاسلام وكان قد أسلم ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم فلما رجع الى قومه دعاهم الى الاسلام فأسلموا فلما توفى النبي صلى الله عليه وسلم ارتدوا وقالوا لو كان نبيا ما مات فقال لهم الجارود تعلمون أن لله أنبياء من قبله ولم تروهم وتعلمون أنهم ماتوا ومحمد صلى الله عليه وسلم قد مات وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فأسلموا وثبتوا على اسلامهم واجتمعت ربيعة بالبحرين على الردة الا الجارود ومن تبعه وخرج الحطم بن ضبيعة أخو بنو قيس بن ثعلبة فى بكر بن وائل فاجتمع اليه كثير من المرتدين وكثير ممن لم يزل مشركا حتى نزل القطيف وهجر اسم موضع واستغوى من بهما وبعث بعثا الى دارين والى جوانى فحصر المسلمون واشتد الحصر على من بهما فبعث أبو بكر رضى الله عنه العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه لقتال أهل الردة بالبحرين ومعه جموع من المسلمين فنزل هجر وبعث الى الجارود أن ينازل بعبد القيس الحطم بن ضبيعة وخندق العلاء والمسلمون على أنفسهم وقاتلوا المرتدين وكانوا يتراجعون القتال ويرجعون الى خندقهم فكانوا كذلك شهرا وسمعوا فى بعض الليالى ضوضاة شديدة أى جلبة وصياحا فى المشركين فبعثوا من يأتيهم بالخبر فجاءهم بأن القوم سكارى فبيتوهم ووضعوا السيوف فيهم وفر القوم هرابا واقتحموا الخندق فمن بين متردٍ وناج ومقتول وأسور وأبادوا القوم وكفى الله شرهم وقسموا الغنائم ثم ندب العلاء الناس الى دارين وقال لهم قد أراكم الله من آياته فى البر لتعتبروا بها فى البحر فانهضوا الى عدوكم واستعرضوا البحر وارتحل وارتحلوا وكان بينهم وبين دارين البحر فاقتحموا البحر على الخيل والابل والحمير وغير ذلك وفيهم الراجل ودعا ودعوا وكان من دعائهم يا أرحم الراحمين يا كريم يا حليم يا أحد يا صمد يا حى يا محيى الموتى يا حى يا قيوم لا اله الا أنت يا ربنا فاجتازوا ذلك الخليج باذن الله يمشون على مثل رملة فوقها ما يغمر أخفاف الابل وبين الساحل ودارين يوم وليلة بسفن البحر فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فظفر المسلمون وانهزم المشركون وأكثر

المسلمون فيهم القتل فانركوا بها مخبرا وغنموا وسبوا فلما فرغوا رجعوا حتى عبروا كما جاؤا وضرب الاسلام بجرانه فيها وكتب العلاء الى أبي بكر رضي الله عنه يعرفه هزيمة المرتدين وقتل الحطم بن ضبيعة ولما قسمت الغنيمة كان للفارس ستة آلاف وللراجل ألفان وكان مع المسلمين راهب من أهل هجر فأسلم فقيل له ماحملك على الاسلام قال ثلاثة أشياء خشيت أن يمسخني الله بعدها فيض في الرمال وتمهيد ثبج البحر ودعاء سمعته في عسكرهم في الهواء سحرا اللهم أنت الرحمن الرحيم لا اله غيرك البديع فليس قبلك شيء والدائم غير الغافل الحي الذي لا يموت وخالق مايرى ومالا يرى وكل يوم أنت في شان علمت كل شيء بغير معلم فعلمت ان القوم لم يعانوا بالملائكة الا وهم على حق فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسمعون هذا منه بعد والعلاء بن الحضرمي صحابي مشهور توفي سنة أربع عشرة من الهجرة وكان مجاب الدعوة وأصله من حضرموت ونزل جدة ومكة وكان حليفا لحرب بن أمية وكان له في هذه الغزوة آثار محمودة وكرامات كثيرة منها انهم سلكوا مفازة وعطشوا عطشا شديدا حتى خافوا الهلاك فنزل العلاء وصلى ركعتين ثم قال ياحليم ياعليم ياعلي ياعظيم اسقنا فجاءت سحابة كأنها جناح طائر فقعقعت عليهم وأمطرت حتى ملؤا الآنية وسقوا الركاب قال الراوي ثم انطلقنا حتى أتينا دارين والبحر بيننا وبينهم وفي رواية أتينا على خليج من البحر ماخيض فيه قبل ذلك اليوم فلم نجد سفنا وكان المرتدون قد أحرقوا السفن فصلى ركعتين ثم قال ياحليم ياعليم ياعلي ياعظيم أجزنا ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال جوزوا باسم الله قال أبو هريرة وكان مع القوم فمشينا على الماء فوالله ما ابتل لنا قدم ولا خف ولا حافر وكان الجيش أربعة آلاف وقال ابراهيم بن أبي حبيبة حبس لهم البحر حتى خاضوا اليهم وجاوزه العلاء وأصحابه مشيا على أرجلهم وكانت تجري فيه السفن قبل

﴿ ذكر ردة أهل عمان والمهرة ﴾

كان على أهل عمان والمهرة عاملان للنبي صلى الله عليه وسلم جيفر وعباذ ابنا الجلندي فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم قام بعمان رجل من الأزد يقال له لقيط

ابن مالك الأزدى فارتد وادّعى النبوة وتغلب على عمان ودفع عنها الملكين فبعث جيفر الى أبى بكر بالخبر فبعث أبو بكر رضى الله عنه حذيفة بن محصن الحميرى الى عمان وعرفجة البارقى الى المهرة وأمرهما أن يكاتبا جيفرا و يأخذا برأيه وكان قد بعث عكرمة بن أبى جهل الى اليمامة ومسيلمة و وقعت عليه النكبة كما مر فأمره بالمسير الى حذيفة وعرفجة ليقاتل معهما عمان والمهرة و يتوجه اذا فرغ من ذلك الى اليمن فمضى عكرمة فلحق بهما قبل أن يصلا عمان وقد عهد اليهم أبو بكر أن ينتهوا الى رأى عكرمة فراسلوا جيفرا وعيادا و بلغ لقيطا المتغلب مجىء الجيوش فعسكر بمدينة دبا وعسكر جيفر وعياد بصحار واستقدموا عكرمة وحذيفة وعرفجة وكانوا رؤساء الذين تقدموا بجيوشهم ثم عمدوا الى لقيط وأصحابه فقاتلوهم وقد أقام لقيط عياله وراء صفوفه وهم المسلمون بالهزيمة حتى جاءهم مددهم من بنى ناجية وعليهم الحريث بن راشد من بنى عبد القيس وسيحان بن صوحان فانهزم العدوّ وظفر المسلمون وقتلوا من العدوّ نحو عشرة آلاف وسبوا الذرارى والنساء وتم الفتح وقسموا الغنائم و بعثوا بالخمس الى أبى بكر رضى الله عنه وكان الخمس ثمانمائة رأس وأقام حذيفة بعمان وسار عكرمة الى المهرة فهزمهم وقتل رئيسهم وأصابوا منهم ألفى نجيبة وأجاب أهل تلك النواحى الى الاسلام و بعث الى أبى بكر رضى الله عنه بالفتح ثم سارعوا الى اليمن

﴿ ذكر ردة أهل اليمن ﴾

لما ظهر الاسود العنسى وادّعى النبوة قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ارتد كثير من أهل اليمن ثم لما قتل فيروز الديلمى الاسود العنسى رجع كثير منهم الى الاسلام فلما جاءهم خبر وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ارتد الناس الا القليل وكان أبو بكر رضى الله عنه أقام فيروزا الديلمى أميرا على صنعاء فكان يقاتل كل من قدر على قتاله وكان باليمن عمال للنبى صلى الله عليه وسلم أقامهم قبل وفاته منهم عمرو بن حزم على نجران للصلاة ومعه أبو سفيان بن حرب على الصدقات وعلى ما بين زمع وزبيد ونجران خالد بن سعيد بن العاص وعلى همدان كلها عامر بن شهر الهمدانى وعلى

الجند يعلى بن أمية وعلى مأرب أبو موسى الاشعرى وعلى عك الطاهر بن أبى هالة وعلى حضرموت زياد بن لبيد البياضى وعكاشة بن ثور الغوثى وعلى كندة المهاجر بن أبى أمية المخزومى وكان معاذ بن جبل يعلم القرآن باليمن ينتقد على هؤلاء وهؤلاء فى أعمالهم فلما ارتد الناس رجع عمرو بن حزم الى المدينة واتبعه خالد بن سعيد وأما المهاجر بن أبى أمية فانه لما ولاه النبى صلى الله عليه وسلم على كندة مرض ولم يصل اليها وأقام زياد بن لبيد ينوب عنه وكان أبو بكر رضى الله عنه قد حارب أهل الردة أولا بالكتب والرسل ولم يرسل الى من ارتد وابتدأ بالمهاجرين والانصار ثم استنفر كلا على من يليه حتى فرغ من آخر أمور الناس لا يستعين بمرتد فكتب الى عتاب بن أسيد بمكة وعثمان بن أبى العاص بالطائف بركوب من لم يرتد على من ارتد وكان قد اجتمع بتهامة أوباش من مدلج وخزاعة فبعث عتاب اليهم ففرقهم وقتلهم واجتمع بشنوءة جمع من الأزد وخثعم وبجيلة فبعث اليهم عثمان بن أبى العاص من فرقهم وقتلهم واجتمع بطريق الساحل من تهامة جموع من عك والأشعريين فسار اليهم الطاهر بن أبى هالة ومعه مسروق العكى فهزموهم وقتلوهم وأقام بالاجناد ينتظر أمر أبى بكر ومعه مسروق العكى وبعث أبو بكر رضى الله عنه الى نجران وكتب أبو بكر الى عثمان بن أبى العاص أن يضرب البعوث على مخاليف أهل الطائف فضرب على كل مخلاف عشرين وأمر عليهم أخاه عبد الرحمن وكتب الى عتاب بن أسيد أن يضرب على مكة وعملها خمسمائة ففعل وأمر عليهم أخاه خالد بن أسيد وأقاموا ينتظرون أمر أبى بكر رضى الله عنه فأمر المهاجر بن أبى أمية المخزومى أن يسير الى اليمن ليصلح من أمره ثم يسير الى عمله الذى ولاه النبى صلى الله عليه وسلم وأمره بقتال من بين نجران وأقصى اليمن ففعل ذلك ومر بمكة والطائف فسار معه خالد بن أسيد وعبد الرحمن ابن أبى العاص بمن معهما ومر بجرير بن عبد الرحمن وعكاشة بن ثور فضمهما اليه وكان عمرو بن معديكرب وقيس بن مكشوح ممن ارتدا فظفر بهما المهاجر فأوثقهما وبعث بهما الى أبى بكر فتابا فقبل توبتهما وردهما وسار المهاجر وقتل

كل من ظفر به من المرتدين وقاتل من قاتله وقبل توبة من يتوب الى أن وصل الى صنعاء وكتب الى أبي بكر بدخوله صنعاء فجاء الجواب أن يسير الى كندة مع عكرمة بن أبي جهل وقد جاءه من ناحية عمان ومعه خلق كثير من المهرة والأزد وناجية وعبد القيس وغيرهم فساروا مع المهاجر الى كندة وكتب زياد النائب على كندة الى المهاجر يستحثه فلقيه الكتاب بالمغارة بين مأرب وحضرموت فاستخلف عكرمة على الناس وتعجل الى زياد وشدوا الى كندة وكانوا قد ارتد كثير منهم وارتد الاشعث بن قيس السكسكى فجعلوه أميرا عليهم فقاتلهم المهاجر وهزمهم وقتل كثيرا منهم وفروا الى النجير حصن لهم فتحصنوا فيه مع من استغووه فحاصروهم وسدوا عليهم الطريق وقطعوا عنهم المدد ولحق عكرمة المهاجر وهم محاصرون القوم ثم استأمن الاشعث الى عكرمة فخرج اليه فجاء به الى المهاجر فأمنه فى أهله وماله وتسعة من قومه كانوا خرجوا معه فقال لهم المهاجر اكتبوا ما شئتم وهاموا الكتاب حتى أختمه واشترطوا على أنفسهم أن يفتحوا لهم باب الحصن ففعلوا فاقتحمه المسلمون وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية والنساء فكان فى السبي ألف امرأة وكان الاشعث بن قيس لما كتب الصحيفة وختم عليها المهاجر كتب التسعة ونسى أن يكتب نفسه فلما فرغوا من القتل والسبي طلب المهاجر الصحيفة التى كتبوها والتى ختم عليها فاذا الاشعث ليس مكتوبا معهم فقال المهاجر الحمد لله الذى أخطأ نال يا أشعث يا عدو الله قد كنت أشتهى أن يخزيك الله وشده كتافا فقيل له أخره وسيره الى أبي بكر فهو أعلم بالحكم فيه فسيره الى أبي بكر مع السبي فكان المسلمون يلعنونه ويلعنه سبايا قومه وسماه نساء قومه عرف النار وهو اسم الغادر عندهم فلما قدم المدينة قال له أبو بكر ما ترانى أصنع بك قال لا أعلم قال فانى أقتلك قال فأنا الذى راوضت القوم فى عشرة فما يحل دمى قال أبو بكر فأوجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من فيها وانما كنت قبل ذلك مراوضا فلما خشى القتل قال أو تحتسب فى خيرا فتطلق الأسارى وتقيلنى عثرتى وتفعل بى مثل ما فعلت بأمثالى وترد على زوجتى وقد كان خطب أم فروة أخت أبي بكر

لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وأخرها الى أن يقدم الثانية فتوفى النبي صلى الله عليه وسلم وارتد فان فعلت ذلك تجدنى خير أهل بلادى لدين الله فحقن دمه وزوجه أخته وحسن إسلامه وأقام بالمدينة حتى فتح العراق وشهد فتح القادسية واليرموك وكان مع على رضى الله عنه فى قتال صفين وتوفى بالكوفة سنة اثنتين وأربعين من الهجرة وقيل بعد على رضى الله عنه بأربعين يوما وصلى عليه الحسن ابن على رضى الله عنهما قال ابن الاثير قد اختلف فى تاريخ حرب المسلمين هؤلاء المرتدين فقال ابن اسحق كان فتح اليمامة واليمن والبحرين وبعث الجنود الى الشام سنة ثنتى عشرة وقال أبو معشر ويزيد بن عياض وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر ان فتوح الردة كلها لخالد وغيره كان سنة إحدى عشرة وكان مسير خالد الى العراق فى أول سنة ثنتى عشرة الى ذى القعدة منها وهذا القول هو الذى يدل عليه سياق تلك الوقائع

﴿ ذكر فتوح الشام ﴾

لما فرغ أبو بكر رضى الله عنه من أهل الردة واستقامت له العرب حدث نفسه بغزو الروم ولم يطلع عليه أحد فبينما هو كذلك إذ رأى شرحبيل بن حسنة فى المنام صورة غزو الشام وبعث الجند فجاءه شرحبيل وجلس اليه فقال يا خليفة رسول الله أحدثت نفسك بالغزو وأن تبعث الى الشام جندا قال نعم حدثت نفسى بذلك ولم يطلع عليه أحد وما سألتنى إلا لشئ فأخبره شرحبيل بما رأى فأوله أبو بكر ببعثه جندا الى الشام وقصها عليهم ثم انه بعد ذلك أمر الامراء وبعث الى الشام البعوث وعن عبد الله بن أبى أوفى الخزاعى رضى الله عنه قال لما أراد أبو بكر رضى الله عنه أن يجهز الجنود الى الشام دعا عمر وعثمان وعليا وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والانصار من أهل بدر وغيرهم وشاورهم وكلهم استصوبوا رأى أبى بكر رضى الله عنه وقالوا ما رأيت من الرأى فأمضه فانا سامعون لك مطيعون لا نخالف أمرك وعلى رضى الله عنه فى القوم لا يتكلم فقال له أبو بكر ماذا ترى

يا أبا الحسن فقال أرى أنك مبارك الامر ميمون النقيبة فانك ان سرت اليهم بنفسك أو بعثت عليهم نصرت ان شاء الله تعالى قال بشرك الله بخير ومن أين علمت هذا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يزال هذا الدين ظاهرا على كل من ناواه حتى تقوم الساعة وأهله ظاهرون فقال أبو بكر سبحان الله ما أحسن هذا الحديث لقد سررتنى سرك الله فى الدنيا والآخرة ثم انه قام فى الناس خطيبا ورغب الناس فى الجهاد ثم أمر بلالا فأذن فى الناس انفروا أيها الناس الى جهاد عدوكم الروم بالشام ثم شرع فى بعث الجيوش وكان ذلك فى افتتاح سنة ثلاث عشرة من الهجرة وقيل فى أول السنة التى قبلها حين بعث خالد ابن الوليد الى العراق وكتب الكتب الى أهل مكة والطائف واليمن وغيرها فكتب لهم جميعا بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليكم فانى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد عزمت ان أوجهكم الى ناحية بلاد الشام لتأخذوها من أيدى الكفار والطغاة فمن عول منكم على الجهاد والصدام فليبادر الى طاعة الملك العلام ثم كتب انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ثم بعث الكتب اليهم وأقام ينتظر قدومهم وكان الذى بعثه بالكتب التى لليمن أنس بن مالك رضى الله عنه فما مرت الايام حتى قدم أنس رضى الله عنه يبشره بقدوم أهل اليمن وقال يا خليفة رسول الله وحقك على الله ما قرأت كتابك على أحد إلا بادر لطاعة الله ورسوله وأجابوا دعوتك وقد تجهزوا فى العدد والعديد والزرد النضيد وقد أقبلت اليك يا خليفة رسول الله مبشرا بقدوم الرجال فسر أبو بكر رضى الله عنه بقوله سرورا عظيما ثم عقد الألوية وأمر الامراء وبعثهم الى الشام أفواجا يتبع بعضهم بعضا كلما اجتمع جماعة أمرهم بالتوجه فمن الامراء الذين عقد لهم الألوية أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وربيعة بن عامر وشرحبيل بن حسنة وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص وغيرهم وجعل كل واحد أميرا على جماعة وأمره بالتوجه الى الموضع الذى عينه له وجعل أبا عبيدة أميرا على الجميع وكلما توجه أمير

يودعه أبو بكر رضى الله عنه ويوصيه فكان يوصيهم بوصايا كثيرة منها تقوى الله وحسن الصحبة والمواظبة على الصلوات فى أوقاتها جماعة وأن يصلح كل منهم نفسه حتى يصلح الله له الناس وأن يكرموا رسل العدو اذا قدموا اليهم وأن يقللوا لبثهم عندهم حتى يخرجوا من عسكرهم وهم جاهلون لم يطلعوا على شئ من الخلل وأن يمنعوا عسكرهم من محادثتهم وأن يكون الامير هو المتولى لكلامهم وأن يكثروا الحرس ويفرقوهم فى العسكر وأن يكثروا مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم فمن وجدوه غفل يعاقب بغير افراط وأن يعاقب بينهم فى الليل ويجعل النوبة الاولى أطول من الاخيرة فانها أيسرهما لقرب الاخيرة من النهار وأن لا يغفلوا عن العسكر فيفسدوا ولا يجسسوا عليهم فيفضحوهم ولا يكشفوا على الناس أسرارهم بل يكتفوا بعلانيتهم وأن يكثروا من مجالسة أهل الصدق والوفاء وأن يشاوروهم وأن لا يجبنوا فيجبن الناس وأن يجتنبوا الغلول فان الغلول يقرب الفقر ويدفع النصر وقال ستجدون أقواما حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له الى غير ذلك مما أوصاهم به وكان أبو بكر رضى الله عنه يدعو لهم اذا خرجوا فمن دعائه اللهم احفظهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم واحطط أوزارهم وأعظم أجورهم ولما بلغ هرقل مسير جيوش المسلمين حشد جيوشه وكان بفلسطين فحث الناس وحرضهم على القتال عن دينهم وبلادهم ثم أتى دمشق ففعل مثل ذلك ثم أتى حمص ففعل مثل ذلك ثم أتى انطاكية فأقام بها وبعث الى الروم فحشدهم فجاءه منهم مالا يحصى ولما دنا أبو عبيدة من الجابية أتاه آت فأخبره ان هرقل بانطاكية وأنه جمع من الجموع مالم يجمعه أحد كان قبله من آبائه فكتب الى أبى بكر رضى الله عنه بذلك فجاءه الجواب بعده بالنصر ثقة بوعد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر له انه يمده بالرجال ثم أمدهم بجند مع هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وسعيد بن عامر وبجند مع معاوية مددا لأخيه يزيد وكان الناس أقبلوا من كل جهة يريدون الجهاد فكان أبو بكر رضى الله عنه كلما اجتمع أناس بعثهم مددا لمن سبقهم

﴿ ذكر أول وقعة بالشام ﴾

أول وقعة بالشام كانت بالعربة من أرض فلسطين خرج ستة قواد من الروم مع كل قائد خمسمائة فكانوا ثلاثة آلاف فبعث اليهم يزيد بن أبي سفيان أبا أمامة الباهلي في خمسمائة فحملوا عليهم وهزموهم وقتلوا كثيرا منهم وقائدا من قوادهم فاجتمع كثير من الروم بالدثنة فساروا اليهم فهزموهم وزحفت جيوش المسلمين حتى قربوا من الشام فعند ذلك فزع الروم وأرسلوا الى ملكهم فأمدهم بجموع كثيرة نحو تسعين ألفا فنزلوا بثنية جلق بأعلى فلسطين وعليهم أخو هرقل شقيقه ونزل هرقل بحمص وكان في جهة فلسطين عمرو بن العاص بمن معه من المسلمين وبعث هرقل ستين ألفا نحو أبي عبيدة بالجابية وبعث جيشا قريبا من ذلك نحو يزيد بن أبي سفيان وكان نازلا بالبلقاء وجيشا نحو شرحبيل بن حسنة وكان نازلا ببصرى فرأى المسلمون ان الاجتماع أليق بهم من التفرق فاجتمعوا باليرموك وهو واد بناحية الشام وجاء الروم أيضا واجتمعوا باليرموك وصار الوادي خندقا لهم وأقام الجميع شهر صفر وشهري ربيع لا يقدرون منهم على شيء من الوادي والخندق ولا يخرج الروم خرجة الا أخذهم المسلمون وأديلوا عليهم فكانت بينهم وقعات ومناوشات في تلك المدة ولما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدوا أبا بكر رضي الله عنه فكتب الى خالد بن الوليد وهو بالعراق يأمره بالمسير اليهم وأن يأخذ نصف الناس الذين عنده ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني فسار خالد من العراق في تسعة آلاف وقيل في ستة وأغار في طريقه على كثير من المشركين وأخذهم وناله مشقة كثيرة في مسيره هذا وسار في مفاوز ليس فيها ماء فأمر صاحب كل جماعة أن يعطشوا بعض الابل المسنة ثم يسقوها الماء عللا بعد نهل والعلل الشربة الثانية والنهل الاولى ثم يصروا آذان الابل ويشدوا مشافرها لئلا تجتر ثم ساروا يوما وليلة وشقوا بطون عشرة من الابل فمزجوا ما في كرشها من الماء بما كان من الالبان وسقوا ذلك للخيل فعلوا ذلك أربعة أيام ولما وصل ثنية العقاب وهي من أرض الشام ناشرا رايته وهي راية

سوداء كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب أغار على غسان وهم من نصارى العرب الذين بالشام فضجهم وقتل وسبى وأرسل سرية الى كنيسة بالغوطة فقتلوا الرجال وسبوا النساء وساقوا العيال الى خالد ثم سار حتى وصل الى بصرى فقاتل من بها فظفر بهم ثم صالحهم فكانت بصرى أول مدينة فتحت بالشام على يد خالد وأهل العراق وقيل ان فتح بصرى كان بعد اليرموك ثم سار خالد فطلع على المسلمين فى ربيع الآخر وكان أبو بكر رضى الله عنه كتب لخالد ان يسير من العراق الى الشام و يلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين فاذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام فكتب خالد كتابا لابى عبيدة وأرسله مع عمرو بن الطفيل الازدى وفيه أما بعد فانى أسأل الله لنا ولك الامن يوم الخوف والعصمة فى دار الدنيا من كل سوء وقد أتانى كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى بالمسير الى الشام و بالقيام على جندها والتولى لامرها والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته اذ وليته فأنت على حالك التى كنت عليه لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمرا فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك تم الله بنا و بك من احسان و رحمنا واياك من صلى النار والسلام عليك و رحمة الله و بركاته فلما قرأ أبو عبيدة كتاب خالد قال بارك الله لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رأى وحيا الله خالدا وكان أبو بكر رضى الله عنه كتب لأبى عبيدة رضى الله عنه أما بعد فانى قد وليت خالدا قتال العدو بالشام فلا تخالفه واسمع له وأطع فانى لم أبعثه عليك أن لا تكون عندى خيرا منه ولكنى ظننت ان له فطنة فى الحرب ليست لك أراد الله بنا وبك خيرا والسلام

﴿ ذكر وقعة اليرموك ﴾

لما وصل خالد بن الوليد وتكامل جمع المسلمين باليرموك وكانوا تسعة وثلاثين ألفا سوى ستة آلاف مع عكرمة بن أبى جهل وقيل كانوا ستة وثلاثين ألفا سوى من كان مع عكرمة فيكونون جميعا أربعين ألفا وكان فيهم ألف صحابى منهم نحو مائة ممن شهد بدرا وكان الروم فى مائتى ألف وأربعين ألف مقاتل منهم ثمانون ألف مقيد

وأربعون ألف مسلسل للموت وأربعون ألف مربوط بالعمائم لئلا يفروا وثمانون ألف راجل وكان قتال المسلمين لهم على التساند كل أمير على أصحابه لم يجمعهم أحد حتى قدم خالد من العراق وكان القسيسون والرهبان يحرضون الروم شهرا ثم خرجوا الى القتال الذى لم يكن بعده قتال فى جمادى الآخرة فلما أحس المسلمون بخروجهم أرادوا الخروج متساندين كما كانوا قبل ذلك فنعهم خالد وسار فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى اخلصوا فيه جهادكم وارضوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية وأنتم متساندون فان ذلك لا يحل ولا ينبغى وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون انه رأى قالوا هات فما الرأى قال ان أبا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى انا سنتياسر ولو علم بالذى كان لما جمعكم ان الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت ان الدنيا قد فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه ان دان من الامراء ولا يزيده عليه ان دانوا له ان تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم هلموا فان هؤلاء قد تهيؤا وان هذا يوم له ما بعده ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعده فهلموا فلنتناوب الامارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم ودعونى أتأمر اليوم فأمروه وهم يرون انها كخرجاتهم فخرجت الروم فى تعبية لم ير الراؤن مثلها قط وخرج خالد فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك فخرج فى ستة وثلاثين كردوسا فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبى سفيان وجعل القعقاع ابن عمرو على كردوس وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان وكان القاضى أبا الدرداء والقاص أبا سفيان بن حرب وعلى الطلايع قباث بن أشيم وعلى الاقباض عبد الله بن مسعود وقال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال

خالد ما أكثر المسلمين وأقل الروم انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان والله لوددت أن الاشقر يعني فرسه براء من توجيه وانهم أضعفوا في العدد وكان فرسه قد حفي في مسيره فأمر خالد عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان وتقاتلوا فاذا هم على ذلك اذ قدم البريد من المدينة واسمه محمية بن زنيم فسألوه الخبر فأخبرهم بسلامة وامداد مع انه انما جاء بخبر وفاة أبي بكر رضي الله عنه واستخلاف عمر بن الخطاب وعزل خالد وولاية أبي عبيدة فبلغه خالدا وأباعبيدة سرا وبينما هم كذلك اذ خرج فارس من فرسان الروم يقال له جرجة الى بين الصفين وطلب خالدا فخرج اليه وأمن كل منهما صاحبه فقال جرجة ياخالد اخبرني وأصدقني ولا تكذبني فان الحر لا يكذب ولا تخادعني فان الكريم لا يخادع المسترسل هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم الا هزمتهم قال لا قال ففيم سميت سيف الله فقال ان الله بعث فينا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فكنت فيمن كذبه وقاتله ثم ان الله هداني فتابعته فقال أنت سيف الله سله الله على المشركين ودعالي بالنصر قال فأخبرني الى ما تدعو قال خالد الى الاسلام أو الجزية أو الحرب قال فما منزلة الذي يجيبكم ويدخل فيكم قال منزلتنا واحدة قال فهل له مثلكم من الاجر والذخر قال نعم وأفضل لاننا اتبعنا نبينا وهو حي يخبرنا بالغيب ونرى منه العجائب والآيات وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ماسمعنا أن يسلم وأنتم لم تروا مثلنا ولم تسمعوا مثلنا فمن دخل منكم بنية وصدق كان أفضل منا فقلب جرجة فرسه وسار مع خالد وأسلم وعلمه الاسلام واغتسل وصلى ركعتين ثم خرج مع خالد فقاتل الروم وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقفهم الى المحامية وعليهم عكرمة بن أبي جهل وعمه الحرث بن هشام رضي الله عنهما فقال عكرمة قاتلت مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم أفر اليوم ثم نادى من يبايع على الموت فبايعه عمه الحرث بن هشام وضرار بن الازور في أربعة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعا جراحا فمنهم من برئ ومنهم من مات وقاتل خالد وجرجة قتالا شديدا فقتل جرجة عند آخر

النهار وصلى الناس الظهر والعصر إيماء وتضعضع الروم وحمل خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم فانهزم فرسانهم وتركوا الرجالة ولما رأى المسلمون خيل الروم قد توجهت للهرب افرجوا لها فتفرقت وقتل الرجالة واقتحموا فى خندقهم فاقتحموه عليهم وهوى فيه المقترنون وغيرهم ثمانون ألفا من المقترنين وأربعون ألف مطلق سوى من قتل فى المعركة وتجلل الفيقار وجماعة من أشراف الروم برانيسهم وجلسوا فقتلوا متزملين ودخل خالد الخندق ثم نزل فى خيمة تذارق أخى هرقل فلما أصبحوا أتى خالد بعكرمة بن أبى جهل جريحا فوضع رأسه على فخذه وبعمرو بن عكرمة فجعل رأسه على ساقه ومسح وجوههما وقطر فى حلوقهما الماء وكان مع المسلمين كثير من النساء فقاتلن فى ذلك اليوم قتالا كثيرا وفى السيرة الحلبية وكان أبو سفيان بن حرب فى ذلك اليوم يقاتل ويحرض المسلمين على القتال ويقول الله الله عباد الله انصروا دين الله ينصركم الله وأصيبت احدى عينيه فى ذلك اليوم فصار أعمى لانه أصيبت عينه الاخرى فى غزوة الطائف فجاء بها الى النبى صلى الله عليه وسلم وسأله أن يدعو الله ويردها له فقال له ان شئت دعوت الله وان شئت خيرا منها فى الجنة فرمى بها وقال خيرا منها فى الجنة قال أنس بن مالك رضى الله عنه رأيته فى خلافة عثمان رضى الله عنه وهو أعمى يقوده قائده فيدخل به على عثمان رضى الله عنه ولما انهزمت الروم كان هرقل بحمص فنادى بالرحيل عنها وجعلها بينه وبين المسلمين وأمر عليها أميرا كما أمر على دمشق وكان من أصيب من المسلمين ثلاثة آلاف منهم عكرمة وابنه عمرو وعمه الحارث بن هشام وسلمة بن هشام وعمرو بن سعيد وأبان بن سعيد والطفيل ابن عمرو وطليب بن عمير وهشام بن العاص أخو عمرو بن العاص وعياش بن أبى ربيعة وسعيد بن الحارث بن قيس بن عدى السهمى ونعيم بن النحام والنضير ابن الحارث العبدرى أخو النضر بن الحارث الذى قتل كافرا يوم بدر وأبو الروم بن عمير العبدرى أخو مصعب بن عمير وقيل قتلوا يوم أجنادين أخرج ابن عساكر عن الزهرى أن عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه كان يوم اليرموك

أعظم الناس بلاء وأنه كان يركب الأسنة ويقاتل قتالا شديدا حتى جرحت الأسنة صدره ووجهه فقالوا له اتق الله وارفق بنفسك فقال كنت أنا وأبى من أشد الناس على النبي صلى الله عليه وسلم وكنت أقاتل عن اللات والعزى فأبذل نفسي لها فكيف أستبقيها الآن عن الله ورسوله لا والله أبدا قال فلم يزدد الا إقداما حتى مات يومئذ ووجدوا به بضعا وسبعين ما بين ضربة وطعنة ورمية وأخرج ابن المبارك والبيهقي ان عكرمة بن أبى جهل ترجل يوم كذا يقاتل فقال خالد بن الوليد لا تفعل فان قتلك على المؤمنين شديد فقال خل عنى يا خالد فانه قد كان لك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة وانى وأبى كنا من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى وقاتل حتى قتل وكان عكرمة يعظم القرآن غاية التعظيم وذكر الامام الغزالى فى كتاب آداب تلاوة القرآن من إحياء علوم الدين ان عكرمة المذكور كان اذا نشر المصحف غشى عليه ويقول هو كلام ربى هو كلام ربى وروى أبو نعيم وابن منده وابن عبد البر عن حبيب بن أبى ثابت أن الحارث بن هشام وابن أخيه عكرمة بن أبى جهل وعياش بن أبى ربيعة أخا الحارث بن هشام لأمه جرحوا يوم اليرموك فلما أثبتوا دعى للحارث بن هشام بماء ليشربه فنظر اليه عكرمة فقال ادفعه الى عكرمة فلما أخذه عكرمة نظر اليه عياش فقال ادفعه الى عياش فما وصل الى عياش حتى مات ولا وصل الى واحد منهم حتى مات رضى الله عنهم وهذا شأنهم كلهم فى هذا الايثار * ومما يدل على ذلك أن مثل هذه القصة بعينها قد تكررت من كثير منهم فقد روى ابن المبارك عن أبى جهم بن حذيفة العدوى قال انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شنة من ماء وإناء فقلت ان كان به رمق سقيته من الماء ومسحت به وجهه فاذا أنا به ينشغ فقلت أسقيك فأشار أى نعم فاذا رجل يقول آه فأشار ابن عمى أن انطلق اليه فاذا هو هشام بن العاص أخو عمرو بن العاص رضى الله عنهما فأتيته فقلت أسقيك فسمع آخر يقول آه فأشار هشام أن انطلق اليه فجئت فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فأتيت ابن عمى فاذا هو قد مات رحمهم الله تعالى ورضى عنهم وهذا الذى ذكرناه فى وقعة

اليرموك هو أصح الاقوال وكذا كونها فى سنة ثلاث عشرة هو أصح الاقوال وأنها قبل فتح الشام وقيل بعد وقعة أجنادين و بعد فتح الشام وان وقعة اليرموك واجنادين كانا سنة خمس عشرة وقيل فى وقعة اليرموك ان جيش الروم كان ستمائة ألف وقيل ألف ألف وكان مع الروم من العرب المتنصرة ستون ألفا من غسان ولخم وجذام وان القتال كان بين المسلمين ومتنصرة العرب فلما هزموا زحف الروم بجيوشهم ودام الحرب أياما كثيرة الى أن تمت الهزيمة على الروم وكان القتلى من الروم لا يحصى عددهم وقيل كانوا مائة ألف وخمسة آلاف والاسرى كانوا أربعين ألفا وان قتلى المسلمين أربعة آلاف ولما قسمت الغنائم أصاب الفارس أربعة وعشرون ألف مثقال من الذهب الاحمر والراجل ثمانية آلاف وكذلك من الفضة واتبع خالد بن الوليد المنهزمين من الروم الى قريب دمشق الشام ومعه كثير من المسلمين يقتلون و يأسرون فيهم وكانت وقعة اليرموك من أعظم وقائع الاسلام ومن المعجزات الدالة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر وقعة أجنادين ﴾

الاكثرون على أنها بعد اليرموك وقيل انها كانت قبل اليرموك وحاصلها ان الروم اجتمع كثير من جنودهم قيل انهم كانوا تسعين ألفا بأجنادين فسار لهم جيوش المسلمين ونازلوهم وكان على الروم تذارق أخو هرقل لابويه وقيل كان على الروم القيقلان وأجنادين يروى بكسر الدال وفتحها بين الرملة و بيت جبرين من أرض فلسطين ولما نزلت الروم باجنادين واجتمعت المسلمون وعسكروا عليهم بعث القيقلان رجلا غريبا الى المسلمين يأتيه بخبرهم فدخل فيهم وأقام يوما وليلة ثم عاد اليه فقال ماوراءك قال وجدت قوما رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار ولو سرق ابن ملكهم قطعوه ولو زنى رجموه لاقامة الحق فيهم فقال ان كنت صدقتنى لبطن الارض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ثم انتشب القتال بين المسلمين والروم وكان قتالا شديدا اقتل فيه من المشركين فى المعركة ثلاثة آلاف وقيل ان قتلاهم بلغوا خمسين ألفا وقتلى المسلمين أربعمائة وخمسة وسبعين

وأتبعهم المسلمون يأسرون و يقتلون ثم تحصن المنهزمون منهم فى المدائن العظام كدمشق وحمص وايلياء وقيسارية واستشهد رجال من المسلمين منهم الفضل ابن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه وضرار بن الخطاب الفهرى وآخرون رحمهم الله ورضى الله عنهم وقتل تدارق أخو هرقل فى وقعة أجنادين وقيل فى وقعة اليرموك

﴿ ذكر فتح دمشق ﴾

لما انهزم الروم جاء الخبر لابى عبيدة انهم اجتمع لهم جيش بفحل بكسر الفاء وهو موضع بناحية الشام وأتاه الخبر أيضا بأن أهل دمشق جاءهم مدد من حمص فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذلك فجاءه الجواب بأمره فيه بأن يبدأ بدمشق فانها حصن الشام و بيت ملكهم وان يشغل أهل فحل بخيل تكون بازائهم واذا فتح دمشق سار الى فحل فاذا فتحت سار هو وخالد الى حمص وترك شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص بالاردن وفلسطين فامتثل أبو عبيدة أمر عمر رضى الله عنه فأرسل الى فحل طائفة من المسلمين فنزلوا قريبا منها و بثق الروم الماء حول فحل فوحلت الارض فنزل عليهم المسلمون فكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق وفلسطين و بعث أبو عبيدة جندا فنزلوا بين حمص ودمشق وأرسل جندا آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين وسار أبو عبيدة وخالد فقدموا على دمشق وعليها نسطاس فنزل أبو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية وعمرو بن العاص على ناحية و يزيد بن أبى سفيان على ناحية فحصرهم المسلمون سبعين ليلة حصارا شديدا وقاتلوهم بالزحف والمجانيق و جاءت خيول من هرقل مغيثة دمشق فمنعتها خيول المسلمين التى عند حمص فخذل أهل دمشق وطمع فيهم المسلمون واتخذ خالد بن الوليد حبالا كهيئة السلالم وادهاقا والدهق الحبل يرمى فى أنشوطة فتؤخذ به الدابة والانسان فلما أمسى ذلك اليوم نهض هو ومن معه من جنده الذين قدم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور وأثبتوا الحبال بالشرف وكان ذلك الموضع أحصن موضع بدمشق وأكثره ماء فصعد المسلمون ثم تحدر خالد وأصحابه وترك بذلك الموضع من يحميه وأمرهم بالتكبير فكبروا

فأتاهم المسلمون الى الباب والى الحبال وانتهى خالد الى من يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لا يدرون ما الحال وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم وفتح خالد الباب وقتل من عنده من الروم فلما رأى الروم ذلك قصدوا الجهة الاخرى التى فيها أبو عبيدة وقصدوا أبا عبيدة وبذلوا الصلح فقبل منهم وفتحوا له الباب الذى من جهته وقالوا له ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب ولم يعلم أبو عبيدة بما صنع خالد ودخل أهل كل باب بصلح مما يليهم غير الباب الذى دخل منه أصحاب خالد ودخل خالد عنوة فالتقى خالد وأبو عبيدة فى وسط المدينة هذا قتلا ونهبا وهذا صفحا وتسكينا فأمر أبو عبيدة خالدا أن يكف وقال انى صالحت القوم فقال خالد انى دخلتها عنوة فتنازعا فى ذلك ثم أجروا ناحية خالد مجرى الصلح وكان صلحهم على المقاسمة وقسموا معهم للجنود التى عند فحل وعند حمص وغيرهم ممن هو رد للمسلمين هذا هو الصحيح فى كيفية دخول خالد وأبى عبيدة وقيل ان خالدا ومن معه نقبوا جانبا من السور ودخلوا معه ويمكن ان جماعة منهم دخلوا بالحبال التى صنعها وجماعة آخرين نقبوا جانبا من السور وأما أبو عبيدة وبقية الامراء فانهم دخلوا بالصلح الذى عقد مع أبى عبيدة وقد تقدم ان خبر وفاة أبى بكر واستخلاف عمر وعزل خالد وتولية أبى عبيدة جاءهم وهم فى قتال اليرموك سنة ثلاث عشرة وفتح دمشق كان فى رجب سنة أربع عشرة فى خلافة عمر رضى الله عنه وقيل انما جاءهم خبر وفاة أبى بكر بعد فتح دمشق سنة ثلاث عشرة وان وفاة أبى بكر رضى الله عنه كان فى الليلة التى دخلوا فيها دمشق وكان ذلك لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة والقائلون بأن خبر وفاته انما جاء بعد فتح دمشق هم القائلون بأن وقعة اليرموك كانت بعد فتح دمشق وانها سنة خمس عشرة والقول الاول أصح وانما عزل عمر رضى الله عنه خالدا لانه كان ينقم عليه قتل مالك بن نويرة وقال أيضا ان خالدا فيه تبذير للمال يعطى الشاعر اذا مدحه ويعطى للمجاهد والفارس بين يديه فوق ما يستحق ولا يبقى لفقراء المسلمين ولا لضعفائهم شيأ وكان ذلك اجتهادا من عمر وما وقع من

خالد كان أيضا باجتهاد وكل منهما مأجور ولا يريد الا الحق ولما جاء أمر عمر رضى الله عنه بعزله امتثل أمره ومازال أبو عبيدة يستشيره ولا يعمل الا برأيه ومشورته وكان كل منهما يعرف قدر صاحبه وما خص به من الفضائل رضى الله عنهم ولما فتحت دمشق أرسل أبو عبيدة لعمر رضى الله عنهما بالفتح فكان لعمر وأهل المدينة سرور كثير عند ورود خبر الفتح وكتب له عمر أن يرسل الجند الذين جاؤا من العراق مع خالد فأرسلهم الى العراق وأمر عليهم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وبقى خالد مع أبى عبيدة وسيأتى ان شاء الله الكلام على بقية فتوحات العراق

﴿ ذكر غزوة فحل ﴾

بكسر الفاء وبالحاء المهملة * لما فتحت دمشق سار أبو عبيدة الى فحل واستخلف على دمشق يزيد بن أبى سفيان وبعث خالدا على المقدمة وعلى الناس شرحبيل بن حسنة وكان على المجنبتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص وعلى الخيل ضرار بن الازور وعلى الرجالة عياض بن غنم وتقدم ان الروم بثقوا الماء حول فحل فوحلت الارض فنازل المسلمون أهل فحل وبينهم وبين الروم تلك المياه والاوحال وكتب المسلمون الى عمر رضى الله عنه وأقاموا ينتظرون الجواب فاغترهم الروم فخرجوا عليهم وكان على الروم سقلار بن الخارق فأتوهم والمسلمون حذرون وكان شرحبيل بن حسنة لا يبيت ولا يصبح الا على تعبية فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشد القتال ليلتهم ويومهم وأظلم الليل عليهم فانهزم الروم وهم حيارى وقد أصيب رئيسهم سقلار والذى يليه نسطوس وظفر المسلمون بهم وركبوهم ولم تعرف الروم مأخذهم فانتهت بهم الهزيمة الى الوحل فركبوه ولحقهم المسلمون فأخذوهم بحيث انهم صاروا لا يمنعون يدلامس فوخزوهم بالرماح فكانت الهزيمة بفحل والقتل بالردغ فأصيب الروم وهم ثمانون ألفا لم يفلت منهم الا الشريد وقد كان الله يصنع بالمسلمين خيرا وهم كارهون كرهوا البثوق والوحل فكانت عونا لهم على عدوهم وغنموا أموالهم واقتسموها ثم سار أبو عبيدة وخالد ومن معهما الى حمص وسيأتى ذكر

ذلك

﴿ ذكر فتح بلاد ساحل دمشق ﴾

لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن سفيان على دمشق وسار الى فحل بعث يزيد دحية الكلبي الى تدمر وأبا الازاهر القشيري الى حوران فصالحوهما ووليا عليهما وسار يزيد الى مدينة صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل دمشق وعلى مقدمته أخوه معاوية ففتحها فتحا يسيرا وجلا كثيرا من أهلها وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه في ولاية أخيه يزيد ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وأول ولاية عثمان فقصدهم معاوية ففتحها ثم رمها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع ولما ولي عثمان الخلافة جمع لمعاوية الشام كله فوجه معاوية سفيان بن نجيب الازدي الى طرابلس وهي ثلاث مدن مجتمعة ثم بنى في مرج على أميال منها حصنا يسمى حصن سفيان قطع المادة عن أهلها من البر والبحر وحاصرهم فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا الى ملك الروم يسألونه أن يمدهم أو يبعث اليهم بمراكب يهربون فيها الى الروم فوجه اليهم بمراكب كثيرة وركبوا فيها ليلا وهربوا فلما أصبح سفيان وكان يبيت هو والمسلمون في حصنه ثم يغدوا على العدو فوجد الحصن خاليا فدخله وكتب بالفتح الى معاوية فأسكنه معاوية جماعة كثيرة من اليهود وهو الذي فيه المينا اليوم ثم بناه عبد الملك بن مروان وحصنه ثم نقض أهله أيام عبد الملك ففتحه ابنه الوليد في زمانه

﴿ ذكر فتح بيسان وطبرية ﴾

لما قصد أبو عبيدة حمص من فحل أرسل شرحبيل بن حسنة ومن معه الى بيسان فقاتلوا أهلها فقتلوا منهم خلقا كثيرا ثم صالحه من بقي مثل صلح دمشق فقبل ذلك منهم وكان أبو عبيدة قد بعث أبا الاعور السلمي الى طبرية يحاصرهم فصالحه أهلها على مثل صلح دمشق أيضا وان يشاطروا المسلمين المنازل فنزلها القوّاد وخيولها وكتبوا بالفتح الى عمر رضي الله عنه ولقرب الزمن في تلك الغزوات وقرب بعضها من بعض اختلفوا في تقدم بعضها على بعض والامر في ذلك سهل

﴿ ذكر الوقعة بمرج الروم ﴾

لما سار أبو عبيدة وخالد ومن معهما من فحل قاصدين حمص بلغ الخبر هرقل فبعث جيشا عليهم توزر البطريق فنزل بمرج الروم غربي دمشق ونزل أبو عبيدة أيضا بمرج الروم ونازله يوم نزوله شنش الرومي في مثل جيش توزر مددا لتوزر وعونا لأهل حمص فلما نزل أصبحت الارض من توزر بلاقع وكان خالد بازائه وأبو عبيدة بازاء شنش وسار توزر يطلب دمشق فلما علم خالد بمسيره سار خلفه في جمع ممن معه وبلغ يزيد بن أبي سفيان فعل توزر فخرج من دمشق واستقبله فاقتتلوا ولحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم الا الشريد وغنم المسلمون ما معهم فقسمه يزيد في أصحابه وأصحاب خالد وعاد يزيد الى دمشق ورجع خالد الى أبي عبيدة وقد قتل توزر وقاتل أبو عبيدة شنش فاقتتلوا بمرج الروم فقتلت الروم مقتلة عظيمة وقتل شنش وتبعهم المسلمون الى حمص فلما بلغ هرقل ذلك أمر بطريق حمص بالمسير اليها وكان عنده وسار هو الى الرها وسار أبو عبيدة الى حمص

﴿ ذكر فتح حمص وبعلبك وغيرهما ﴾

لما فرغ أمر مرج الروم سار أبو عبيدة والمسلمون الى حمص فنازلوها وقاتلوا أهلها فكانوا يغادونهم القتال ويراوحونهم في كل يوم بارد ولقي المسلمون بردا شديدا ولقي الروم حصارا طويلا فصبر المسلمون والروم وكان هرقل قد أرسل الى حمص يعدهم المدد وأمر أهل الجزيرة جميعها بالتجهز الى حمص فساروا نحو الشام ليمنعوا حمص عن المسلمين فسير سعد بن أبي وقاص من العراق السرايا الى هيت وحصروها وسار بعضهم الى قرقيسا فتفرق أهل الجزيرة وعادوا عن نجدة أهل حمص فكان أهلها يقولون تمسكوا بمدينتكم فانهم حفاة فاذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم فكانت أقدام الروم تسقط ولا يسقط للمسلمين أصبع فلما خرج الشتاء قام شيخ من الروم فدعاهم الى مصالحة المسلمين فلم يجيبوه وقام آخر فلم يجيبوه فناجزهم المسلمون فكبروا تكبيرة فانهدم كثير من دور حمص

وزلزلت حيطانهم فتصدعت فكبروا ثانية فأصابهم أعظم من ذلك فخرج أهلها اليهم يطلبون الصلح ولا يعلم المسلمون بما حدث فيهم فأجابوهم وصالحوهم على مثل صلح دمشق وأنزلها أبو عبيدة السمط بن الاسود الكندى فى بنى معاوية والاشعث بن ميناس فى السكون والمقداد فى بلى وأنزلها غيرهم أيضا وبعث بالاخماس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع عبد الله بن مسعود وكتب عمر الى أبى عبيدة أن أقم بمدينتك وادع أهل القوة من عرب الشام فانى غير تارك البعثة اليك ثم استخلف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت وسار الى حماه فتلقاه أهلها مذعنين فصالحهم أبو عبيدة على الجزية لرؤسهم والخراج على أرضهم ومضى نحو شيزر فخرج اليه أهلها يسألونه الصلح على ما صالح عليه أهل حماة فصالحهم وسار الى معره حمص وهى معرة النعمان نسبت معرة الى النعمان بن بشير الانصارى رضى الله عنه فاذعنوا له بالصلح على ما صالح عليه أهل حمص ثم أتى اللاذقية فقاتله أهلها وكان لها باب عظيم يفتحه جمع من الناس فعسكر المسلمون على بعد منها ثم أمر بحفر حفائر عظيمة تستر الحفرة منها الفارس راكبا ثم أظهروا أنهم عابرون عنها ورحلوا فلما جنهم الليل عادوا واستتروا فى تلك الحفائر وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون ان المسلمين قد انصرفوا عنهم فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد فلم يرعهم الا والمسلمون يصبحون بهم ودخلوا معهم المدينة وملكت عنوة وهرب قوم من النصارى ثم طلبوا الامان على أن يرجعوا الى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلوا أو كثروا وتركت لهم كنيستهم وبنى المسلمون باللاذقية مسجدا جامعا بناه عبادة بن الصامت ثم وسع فيه بعد ولما فتح المسلمون اللاذقية جلا أهل جبلة من الروم عنها فلما كان زمن معاوية بنى حصنا خارج الحصن الرومى وشحنه بالرجال وفتح المسلمون مع عبادة بن الصامت نطرسوس وكان حصنا فجلا عنه أهله فبنى معاوية مدينة نطرسوس ومصرها وأقطع بها القطائع للمقاتلة وكذلك فعل ببانياس وفتح سلمية أيضا

﴿ ذكر فتح قنسرين ودخول هرقل القسطنطينية ﴾

ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد الى قنسرين فلما نزل الحاضر زحف اليهم الروم وعليهم ميناس وكان من أعظم الروم بعد هرقل فاقتتلوا وقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها فاتوا على دم واحد وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنوا منه فقال المسلمون لهم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله اليكم أو لانزلكم الينا فنظروا فى أمرهم ورأوا مالقى أهل حمص فصالحوهم على مثل صلح حمص فأبى خالد الا على خراب المدينة فأخربها فعند ذلك دخل هرقل القسطنطينية وسببه ان خالدا وعياضا أدربا الى هرقل من الشام وأدرب عمرو بن مالك من الكوفة فخرج من ناحية قرقيسيا وأدرب عبد الله بن المعتمر من ناحية الموصل ثم رجعوا فعندها دخل هرقل القسطنطينية فلما بلغ عمر صنيع خالد قال أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى وقد كان عزله والمثنى بن حارثة وقال انى لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما ولما سار هرقل الى القسطنطينية خرج من الرها فنزل بشمشاط ثم أدرب منها الى القسطنطينية فلما أراد المسير من شمشاط علا على نشز ثم التفت الى الشام فقال السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده ولا يعود اليك رومى أبدا الا خائفا حتى يولد المولود المشؤم ويا ليته لم يولد فما أحلى فعله وأمر فتنته على الروم ثم سار فدخل القسطنطينية وأخذ أهل الحصون التى بين اسكندرونة وطرسوس معه لئلا يسير المسلمون فى عمارة ما بين انطاكية وبلاد الروم وشعث الحصون فكان المسلمون لا يجدون بها أحدا وربما كمن عندها الروم فأصابوا من المتخلفين فاحتاط المسلمون لذلك

﴿ ذكر فتح حلب وانطاكية وغيرهما من العواصم ﴾

لما فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار الى حلب فبلغه ان أهل قنسرين نقضوا وغدروا فوجه اليهم السمط الكندى فحصرهم رفتحها وأصاب فيها بقرا وغنما فقسم بعضه فى جيشه وجعل بقيته فى المغنم ووصل أبو عبيدة الى حاضر حلب وهو

قريب منها فجمع أصنافا من العرب المتنصرة فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك وأتى حلب فتحصن أهلها وحصرهم المسلمون فلم يلبثوا ان طلبوا الصلح والامان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنايسهم وحصرهم فأعطوا ذلك واستثنى عليهم موضع المسجد ثم سار أبو عبيدة الى انطاكية وقد تحصن بها كثير من الخلق من قنسرين وغيرها وحاصرها من جميع الجوانب ثم انهم صالحوه على الجلاء أو الجزية فجلا بعض وأقام بعض فأمنهم ثم نقضوا فوجه اليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحها على الصلح الاول وكانت انطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين فلما فتحت كتب عمر الى أبي عبيدة ان رتب بانطاكية جماعة من المسلمين واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء وبلغ أبا عبيدة أن جمعا من الروم بين معرة مصرين وحلب فسار اليهم فلقيهم فهزمهم وقتل عدة بطارقة وسبى وغنم وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب وجالت خيوله فبلغت بوقا وفتحت قرى الجومة وسرمين وتيزين وغلبوا على جميع أرض قنسرين وانطاكية ثم أتى أبو عبيدة حلب وقال الناث أهلها فلم يزل بهم حتى اذعنوا وفتحوا المدينة وسار أبو عبيدة يريد قورس فلقيه راهب من رهبانها يسأله الصلح فصالحه على مثل صلح انطاكية وبث خيله فغلب على جميع أرض قورس وفتح تل عزاز ثم سار الى منبج وصالحه أهلها على مثل صلح انطاكية وسير عياض ابن غنم الى ناحية دلوك وعبان فصالحه أهلها على مثل صلح منبج وولى أبو عبيدة كل كورة فتحها عاملا وضم اليه جماعة وشحن النواحي المخوفة وسار الى بالس وبعث جيشا مع حبيب بن مسلمة الى قاصرين فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء فجلا أكثرهم الى بلد الروم وأرض الجزيرة وقرية جسر منبج واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية الى الفرات وعاد أبو عبيدة الى فلسطين وكان بجبل اللكام مدينة يقال لها جرجومة وأهلها يقال لهم الجراجمة فسار اليهم حبيب بن مسلمة من انطاكية فافتتحها صلحا على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وسير أبو عبيدة جيشا مع ميسرة بن مسروق العبسي فسلكوا درب بغراس من أعمال انطاكية

الى بلاد الروم فلقى جمعا للروم ومعهم عرب من غسان وتنوخ واياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ولحق به مالك بن الحارث الاشتر النخعى مددا من قبل أبى عبيدة وهو بانطاكية فسلموه وعادوا وسير أبو عبيدة جيشا آخر الى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها على جلاء أهلها بالامان وأخربها وسير جيشا آخر مع حبيب بن مسلمة الى حصن الحدث فلكه وكل هذه الفتوحات كانت من سنة ثلاث عشرة الى سنة خمس عشرة يتلو بعضها بعضا فى أزمان متقارب وكان فيها أيضا فتح قيسارية وحصر غزة

﴿ ذكر فتح قيسارية وحصر غزة ﴾

فى سنة خمس عشرة على الصحيح كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى يزيد بن أبى سفيان أن يرسل معاوية الى قيسارية وكتب عمر أيضا الى معاوية يأمره بذلك فسار معاوية اليها فحصر أهلها فجعلوا يزاحفونه وهو يهزمهم و يردهم الى حصنهم ثم زاحفوه آخر ذلك مستميتين فهزمهم وقتل فيهم مقتلة عظيمة و بلغت قتلاهم فى المعركة ثمانين ألفا وكملها فى هزيمتهم مائة ألف وفتحها وكان علقمة بن مجزز قد حصر القيقار بغزة وجعل يراسله فلم يشفه أحد بما يريد فأتاه كأنه رسول علقمة فأمر القيقار رجلا أن يقعد له فى الطريق اذا رجع فاذا مر به قتله ففطن علقمة فقال للقيقار ان معى نفرا يشركوننى فى الرأى فانطلق فآتيك بهم فبعث القيقار الى ذلك الرجل أن لا يتعرض له فخرج علقمة من عنده فلم يعد فكان فعله هذا كما فعل عمرو بن العاص بالارطبون كما سيأتى ومجزز بجيم وزايين

﴿ ذكر فتح بيسان ووقعة أجنادين ﴾

لما انصرف أبو عبيدة وخالد رضى الله عنهما الى حمص نزل عمرو بن العاص وشرحبيل رضى الله عنهما على أهل بيسان فافتتحاها وصالحا أهل الاردن واجتمع عسكر الروم بغزة وأجنادين و بيسان وسار عمرو وشرحبيل الى الارطبون ومن معه وكان الارطبون باجنادين واستخلف على الاردن أبا الاعور السلمى وكان الارطبون أدهى الروم وأبعدها غورا وكان قد وضع جندا عظيما بايلياء وجندا عظيما بالرملة فلما بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخبر قال قد رمينا

أرطبون الروم بارطبون العرب يعني عمرو بن العاص فانظروا عم تنفرج وكان معاوية قد شغل أهل قيسارية عن عمرو وكان عمرو قد جعل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروقا العكي على قتال ايلياء فشغلوا من به عنه وجعل أيضا أبا أيوب المالكي على من بالرملة من الروم فشغلهم عنه وتتابعت الامدادات من عند عمر الى عمرو وأقام عمرو على اجنادين لا يقدر من الارطبون على شيء ولا تشفيه الرسل فسار اليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول ففطن به الارطبون وقال لا شك ان هذا هو الامير أو من يأخذ الأمير برأيه فأمر انسانا أن يقعد على طريقه اذا رجع ليقتله وفطن عمرو ولفعله فقال له قد سمعت مني وسمعت منك وقد وقع لك مني موقع وأنا واحد من عشرة بعثنا عمرو اليك فأرجع فآتيك بهم الآن فان رأوا الذي عرضت على الآن فقد رآه الامير وأهل العسكر وان لم يروه رددتهم الى مأمنهم فقال نعم ورد الرجل الذي أمره بقتله فخرج عمرو من عنده ثم علم الرومي انها خدعة اختدعه بها فقال هذا أدهى الخلق وبلغت خديعته عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لله در عمرو وعرف عمرو مأخذه اذا قاتله فقاتله باجنادين قتالا شديدا حتى كثرت القتلى بينهم وانهزم ارطبون الى ايلياء ونزل عمرو أجنادين وأفرج المسلمون الذين يحصرون بيت المقدس لارطبون فدخل بيت المقدس

﴿ ذكر فتح بيت المقدس ﴾

كان فتح بيت المقدس سنة خمس عشرة من الهجرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقيل سنة ست عشرة في ربيع الاول * وسبب ذلك انه لما دخل أرطبون بيت المقدس فتح عمرو بن العاص غزة ثم فتح سبطية وفيها قبر يحيي بن زكريا عليهما الصلاة والسلام وفتح نابلس بامان على الجزية وفتح مدينة لد ثم فتح تبق وعمواس وبيت جيرين ويافا وقيل فتحها معاوية وفتح عمرو مرج عيون فلما تم له ذلك أرسل الى أرطبون رجلا يتكلم بالرومية وقال له اسمع مايقول وكتب معه كتابا فوصل الرسول ودفع الكتاب الى أرطبون وعنده وزراؤه فقال أرطبون لا يفتح والله عمرو شيأ من فلسطين بعد أجنادين فقالوا له من أين علمت

هذا فقال صاحبها رجل صفته كذا وكذا وذكر صفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرجع الرسول الى عمرو بن العاص وأخبره بالخبر فكتب الى عمر بن الخطاب يقول له انى أعالج عدوا شديدا وبلادا قد ادخرت لك فرأيك فعلم ان عمرا لم يقل ذلك الا لشئ سمعه فسار عمر من المدينة وقيل ان الروم الذين كانوا ببيت المقدس طلبوا من المسلمين أن يروهم أميرهم فاروهم أباعبيدة وخالد بن الوليد فقالوا لا نسلم أحدا من هذين مدينة بيت المقدس ولو حاصرتمونا عشر سنين وانما نسلمها لرجل صفته كذا وكذا وذكروا صفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب أبو عبيدة وبقية الامراء بذلك لعمر بن الخطاب فقدم عليهم وكان أبو عبيدة رضى الله عنه لما حصر بيت المقدس أراد أن يصالحهم على مثل صلح أهل مدن الشام فقالوا لا نصالحهم الا أن يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب فكتب اليه بذلك فسار عن المدينة وأتى بيت المقدس * وفى تاريخ ابن الوردى وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال لعمر رضى الله عنه انك ستفتح بيت المقدس بلا قتال فكان فى مجيئه اظهار معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم فى اخباره بالغيب ففتحها بلا سيف كما أخبره به النبى صلى الله عليه وسلم ولما سار عمر من المدينة استخلف عليها على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال له على أين تخرج بنفسك انك تريد عدوا كلبا فقال عمر ابادر بالجهاد قبل موت العباس رضى الله عنه انكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض الحبل فمات العباس لست سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه فانتقض الناس وسار عمر رضى الله عنه من المدينة وهو على بعير له وعليه غرارتان فى احداهما سويق وفى الاخرى تمر وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد ومعه جماعة من الصحابة وكان اذا نزلوا منزلا لا يبرح به حتى يصلى الصبح ثم يأخذ الجفنة يملأها سويقا ويصف التمر حولها ويقرب للمسلمين ويقول كلوا هنيئا مريئا فيأكل ويأكل المسلمون ثم يرحل فما زال كذلك فى مسيره حتى قدم الشام * وقيل انه لما قدم الجابية كان على فرس وكان قدومه الى الشام أربع مرات الاولى على فرس والثانية على بعير والثالثة على بغل ورجع لأجل الطاعون والرابعة على

حار وكتب الى أمراء الاجناد أن يوافوه بالجابية ليوم سماه و يستخلفوا على أعمالهم فكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم تستقبلوني في هذا الزي وانما شبعتم منذ سنتين و بالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا يا أمير المؤمنين انها يلامعه وان علينا السلاح قال فنعم اذن والبلامع من السلاح ما برق فلما دخل الجابية جاءه أهل بيت المقدس وقد هرب عنهم ارطبون الى مصر فصالحوه على الجزية وفتحوها له و يروى ان الروم امتنعوا من فتح باب السور حتى يروا عمر و يجدوا فيه الصفة التي يجدونها في كتبهم فأمر عمر ببعيره فقدم اليه فاستوى الى ركوبه عليه وعليه مرقعة ليس عليه غيرها وعلى رأسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها رأسه وليس معه غير أبي عبيدة رضي الله عنهما سائرا بين يديه حتى قرب من السور ووقف بازاء السور فنظر اليه البطريق وهو خلف السور و زعق بأعلى صوته هذا والله الذي نجد نعته وصفته في كتبنا وهو الذي يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة ثم قال لاهل بيت المقدس ويحكم انزلوا اليه واعقدوا معه الامان والذمة ففتحوا الباب وخرجوا الى عمر يسألونه العهد والميثاق والذمة وعقد الجزية فخر ساجدا لله على قتب بعيره ثم نزل اليهم وقال ارجعوا الى بلادكم ولكن العهد والذمة اذا سألتمونا وأقر . بالجزية فرجع القوم ولم يغلقوا الأبواب و رجع عمر الى معسكره وبات

فلما كان من الغد قام فدخل اليها ومعه المسلمون وعقد الجزية

وجعل علقمة بن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه الرملة

على نصفها الآخر وأسكنه بيت المقدس وضم اليه

ولقياه بالجابية راكبا فقبلا ركبته وضم كلا

المقدس من الجابية فركب فرسه فرأى

فجعل يتجلجل به فنزل وضرب

يركب برذونا قبله ولا بعده و بقي أر

ولما دخل عمر بيت المقدس كشف عن الصخرة وأمر ببناء المسجد عليها وأ
عشرة أيام ثم رجع الى المدينة وكان فى هذه السنة والتى بعدها كثير
الفتوحات بالعراق وسنذكرها ان شاء الله بعد تمام الكلام على فتوح
الشام ومصر

﴿ ذكر خبر حمص حين قصد هرقل من بها من المسلمين ﴾

فى سنة سبع عشرة قصد الروم أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسل
بحمص وكان المهيج للروم أهل الجزيرة فانهم أرسلوا الى ملك الروم وحث
على ارسال الجنود الى الشام ووعدوا من أنفسهم المعاونة ففعل ذلك فلما
المسلمون باجتماعهم عسكروا بفناء مدينة حمص وأقبل خالد من قنسرين الى
فاستشارهم أبو عبيدة فى المناجزة والتحصين الى مجئ الغياث فأشار خ
بالمناجزة وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبة عمر فأطاعهم وكتب الى عمر بذ
فكتب عمر الى أمراء الاجناد بالعراق أن يبعثوا جند الاغاثة أبى عبيدة وك
عمر رضى الله عنه قد اتخذ فى كل مصر خيولا على قدر ذلك المصر من فضو
أموال المسلمين عدة تكون لهم فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فر
وكان القيم عليها سلمان بن ربيعة الباهلى ونفر من أهل الكوفة وفى كل مصر
الأمصار على قدره فان تأتهم آتية ركب الناس وساروا الى أن يتجهز بقية النا
فلما سمع عمر الخبر كتب الى سعد بن أبى وقاص بالعراق أن اندب الناس مع القعقا
ابن عمرو وسرحهم من يومهم فان أبا عبيدة قد أحيط به وكتب اليه أيضا سر
سهيل بن عدى الى الرقة وهى بلدة على الفرات بتشديد الراء والقاف المفتوحة
فان أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص وأمره أن يسرح عب
الله بن عتبان الى نصيبين ثم ليقصد حران والرها وان يسرح الوليد بن عقبة ع
عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأن يكون عياض بن غنم على أمراء الجزير
كانت حرب فضى القعقاع من يومه على أربعة آلاف الى حمص وسار عياض
ابن غنم وأمراء الجزيرة كل أمير الى كورته وسار عمر بن الخطاب رضى الله عنه

من المدينة بريد حمص مغيثا لأبي عبيدة ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص خبر الجنود الاسلامية فارقوا هرقل ورجعوا الى بلادهم وزحف أبو عبيدة الى الروم فانهزموا وقدم القعقاع من العراق بعد الوقعة بثلاث فكتبوا الى عمر بالفتح وبقدوم المدد اليهم فكتب اليهم أن اشركوهم فى الغنيمة فانهم نفروا اليكم وانفرق لهم عدوكم وقال جزى الله أهل الكوفة خيرا يكفون حوزتهم ويمدون أهل الامصار فلما فرغوا رجعوا وبلغ عمر فى مسيره هذا الى الجابية فوافاه خبر انهزام الروم فكتب الجواب لأبي عبيدة ورجع من الجابية وأصحب معه خالد بن الوليد ومن معه ولما قدم سهيل بن عدى على الرقة سرح الوليد بن عقبة الى عرب الجزيرة فقبض أهل الرقة عن هرقل وساروا مع سهيل ابن عدى الى اياد بن نزار فانهم دخلوا أرض الروم فكتب عمر الى هرقل بلغنى أن حيا من أحياء العرب تركوا دارنا وأتوا دارك فوالله لتخرجنهم أو لنخرجن النصارى اليك فاخرجهم هرقل وتفرق منهم أربعة آلاف فيما بين الشام والجزيرة

﴿ ذكر فتح الجزيرة وأرمينية ﴾

الجزيرة بلاد تشتمل على ديار بكر ومضر وربيعة بين دجلة والفرات اليها ينسب الامام الجزرى وارمينية كورة كانت للروم لما أرسل سعد العساكر الى الجزيرة ارفض به أهل الجزيرة عن الروم وساروا الى كورهم حين سمعوا بارسال العساكر من الكوفة فنزل عليهم سهيل بن عدى وحاصرهم حتى صالحوه ونازل عبد الله بن عتبان الموصل ونصيبين فصالحوه كصنع أهل الرقة وخرج الوليد بن عقبة فقدم على عرب الجزيرة فنهض معه مسلمهم وكافرهم الا اياد بن نزار فانهم دخلوا أرض الروم فكتب الوليد بذلك الى عمر فكتب عمر الى هرقل كما تقدم ولما أخذوا الرقة ونصيبين ضم عياض اليه سهيلا وعبد الله بن عتبان وسار بالناس الى حران فلما وصل أجابه أهلها الى الجزية فقبل منهم ثم ان عياضا سرح سهيلا وعبد الله الى الرها فاجابوهما الى الجزية وأجروا كل ما أخذوه من الجزيرة عنوة مجرى الذمة فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحا

ورجع سهيل وعبد الله الى الكوفة وكتب أبو عبيدة الى عمر بن الخطاب رضي
الله عنه بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضم اليه عياض بن غنم اذ أخذ خالد
الوليد معه الى المدينة فصرفه اليه فاستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة
وحربها والوليد بن عقبة على عربها وأبى الوليد بن عقبة أن يقبل من تغلب الجزية
وقال ليس الا الاسلام فكتب اليه عمر انما ذلك بجزيرة العرب لا يقبل منهم
الاسلام فدعهم على أن لا ينصروا وليدا ولا يمنعوا أحدا منهم من الاسلام وكان
فى تغلب عز وامتناع فهم بهم الوليد فخاف عمر أن يسطو عليهم فعزله وأمر
عليهم فرات بن حيان وهند بن عمر الجملى والصحيح الذى عليه الأكثر ان فتح
الجزيرة معدود من فتح أهل الشام وأنه سنة سبع عشرة وقيل انه من فتح العراق
وانه سنة تسع عشرة وانما أخذ عمر خالدا معه وعزله عن امارة الاجناد لانه رأى
منه تبذيرا وسرفا فى الاموال أعطى مرة للاشعث بن قيس عشرة آلاف و
عطايا كثيرة فلما قدم المدينة شكا خالد عمر على الناس وقال له انك فى أمرى غير
مجمل فقال له عمر من أين هذا الثراء فقال من الغنائم والسهمان ما زاد على ستين
ألفا فهو لك فقوم عمر ماله فزاد عشرين ألفا فجعلها فى بيت المال ثم قال يا خالد والله
انك على لكريم وانك الى لحبيب وكتب الى الامصار انى لم أعزل خالدا عن
سخطة ولا خيانة ولكن الناس فخموه وفتنوا به فخفت أن يوكلوا اليه فأحببت
أن يعلموا ان الله هو الصانع وان لا يكونوا بعرض فتنة وعوضه عما أخذ منه
وكان خالد ابن خال عمر رضى الله عنهما لان أم عمر حنتمة بنت هاشم بن المغيرة وخالد
ابن الوليد بن المغيرة وكان فى قلنسوة خالد التى يقاتل فيها أشعرات من شعر رسول
الله صلى الله عليه وسلم فيستنصر بها وببركته صلى الله عليه وسلم فلا يزال منصورا
وكان يقول اعتمرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمرة اعتمرها فحلق شعره
فاستبق الناس الى شعره فسبقت الى الناصية فأخذتها فاتخذت قلنسوة فجعلتها
فى مقدم القلنسوة فما وجهته فى وجه الا وفتح له وسماه النبى صلى الله عليه وسلم
سيفا من سيوف الله يوم غزوة مؤتة لما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه

بالمدينة بما وقع فى تلك الغزوة يوم وقوعها فذكر لهم استشهاد زيد بن حارثة وجعفر ابن أبى طالب وعبد الله بن رواحة وقال ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد ابن الوليد ففتح الله عليه ومناقبه كثيرة وله ترجمة واسعة توفى رضى الله عنه فى خلافة عمر رضى الله عنه بحمص وقيل بالمدينة سنة احدى وعشرين من الهجرة ولما حضرت خالدا الوفاة قال لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر الا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية وها أنا أموت على فراشى كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء وما من عمل عندى أرجى من لا اله الا الله وأنا متترس بها وفى سنة ثمان عشرة وقع بالشام الطاعون المسمى طاعون عمواس مات فيه خمسة وعشرون ألفا ومات فيه أبو عبيدة واستخلف معاذ بن جبل فطعن أيضا فيه ومات فاستخلف عمر على الناس عمرو بن العاص وطعن فيه يزيد بن أبى سفيان فاستعمل عمر بن الخطاب أخاه معاوية بن أبى سفيان على دمشق وخراجها واستعمل شرحبيل بن حسنة على جند الاردن وخراجها ولما حصل ذلك الطاعون قام أبو عبيدة خطيبا فى الناس فقال أيها الناس ان هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وان أبا عبيدة يسأل الله ان يقسم له منه حظه فطعن فمات واستخلف على الناس معاذ بن جبل فقام خطيبا بعده فقال أيها الناس ان هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وان معاذا يسأل الله أن يقسم لآل معاذ حظهم فطعن ابنه عبد الرحمن فمات ثم قال فدعا به لنفسه فطعن فى راحته فلقد كان يقبلها ثم يقول ما أحب ان لى بما فيك شيأ من الدنيا فلما مات واستخلف عمرو بن العاص خرج بالناس الى الجبال ورفعه الله عنهم وكان الناس قد أصابهم من الموت مالم يروا مثله قط وطمع فيهم العدو وطال مكث ذلك الطاعون فانه مكث شهورا وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدم الى الشام فى مدة ذلك الطاعون فلما كان بسرغ وهو موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك لقيه أمراء الاجناد فيهم أبو عبيدة بن الجراح فأخبروه بالوباء وشدته وكان معه كثير من المهاجرين والانصار لانه خرج بهم غازيا فجمع المهاجرين الاولين

والانصار فاستشارهم فاختلفوا عليه فنهم القائل خرجت لوجه الله فلا يصدك عنه هذا ومنهم القائل انه بلاء وفناء فلا نرى ان تقدم عليه فقال لهم قوموا ثم أحضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه وأشاروا بالعود فنادى عمر فى الناس انى مصبح على ظهر فقال أبو عبيدة أفرارا من قدر الله فقال لو غيرك قالها يا أبا عبيدة أى لانتقمت منه نعم نفر من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو كان لك ابل فهبطت واديا له عدوتان احداهما مخصبة والاخرى مجدبة أليس ان رعيت المخصبة رعيتها بقدر منه وان رعيت المجدبة رعيتها بقدر منه وكان عبد الرحمن بن عوف غائبا فحضر فأخبر انه سمع من النبى صلى الله عليه وسلم حديثا فى ذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم اذا سمعتم بهذا الوباء ببلدة فلا تقدموا عليه واذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فرارا منه فكان ذلك الحديث موافقا لما رآه عمر رضى الله عنه فانصرف بالناس الى المدينة ومات فى ذلك الطاعون كثير من الصحابة منهم الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو رضى الله عنهما ولما فرغ الطاعون كتب أمراء الاجناد الى عمر رضى الله عنه بما فى أيديهم من المواريث فسار عمر الى الشام واستخلف على المدينة على بن أبى طالب رضى الله عنه فلما قدم الشام قسم المواريث والارزاق وسد فروج الشام ومسالحها وأخذ بدورها ورجع الى المدينة فى ذى القعدة ولما كان بالشام وحضرت الصلاة قال له الناس لو أمرت بلالا فأذن فامره فاذن فما بقى أحد أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وبلال يؤذن الا بكى حتى بل لحيته وعمر أشدهم بكاء وبكى من لم يدركه ببكائهم لذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ ذكر فتح مصر والاسكندرية ﴾

كان ابتداء الامر وانتهاؤه فى ذلك من سنة ثمان عشرة الى سنة عشرين وقيل ان فتوح مصر كان فى سنة ست عشرة لان عمرو بن العاص رضى الله عنه حمل الطعام لاهل المدينة عام الرمادة التى اشتد القحط فيه فى بحر القلزم من مصر الى المدينة وعام الرمادة كان سنة ثمان عشرة * وقال الجلال السيوطى فى كتابه

المسمى بحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة لما كانت سنة ثمان عشرة وقدم عمر بن الخطاب الجابية قام اليه عمرو بن العاص رضى الله عنه فخلا به فقال يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أسير الى مصر وحرضه عليها وقال انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهى أكثر الارض أموالا وأعجزهم عن القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو بن العاص يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن عمر بن الخطاب لذلك فأذن له فى المسير * وسبب قوة رجاء عمرو بن العاص فى ان الله يفتح مصر على يديه قصة وقعت له فى الجاهلية ذكرها السيوطى أيضا فى حسن المحاضرة ولنذكرها وان كان فيها طول تتميما للفائدة قال اخرج ابن عبد الحكم عن خالد ابن يزيد أنه بلغه ان عمرو بن العاص قدم الى بيت المقدس بتجارة فى نفر من قريش واذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس فخرج فى بعض جبالها يسيح وكان عمرو بن العاص يرعى ابله وابل أصحابه وكانت رعية الابل نوبا بينهم فبينما عمرو يرعى ابله إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روى ثم نام الشماس فى مكانه وكان الى جانب الشماس فى مكانه حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها سهما فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد نجاه الله منها فقال لعمرو ما هذا فأخبره عمرو أنه رماها بسهم فقتلها فأقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال قد أحيانى الله بك مرتين مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية فما أقدمك هذه البلاد قال قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل من تجارتنا فقال له الشماس وكم ترجو أن تصيب من تجارتك قال رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيرا فانى لا أملك الا بعيرين فأملى أن أصيب بعيرا آخر فيكون لى ثلاثة أبعرة فقال له الشماس أرأيت دية أحدكم بينكم كم هى قال مائة من الابل فقال له الشماس لسنا أصحاب ابل نحن أصحاب دنانير قال عمرو تكون ألف دينار فقال له الشماس انى رجل غريب فى

هذه البلاد وانما قدمت أصلي فى كنيسة بيت المقدس وقد قضيت ذلك وأنا أريد الرجوع الى بلادى فهل لك أن تتبعني الى بلادى ولك عهد الله وميثاقه أني أعطيك ديتين لان الله تعالى أحيانى بك مرتين فقال له عمرو أين بلادك قال مصر فى مدينة يقال لها الاسكندرية فقال له عمرو لا أعرفها ولم أدخلها قط فقال له الشماس لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو وتفى لى بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق فقال الشماس نعم لك الله على بالعهد والميثاق انى أفى لك وأردك الى أصحابك فقال عمرو وكم يكون مكثى فى ذلك قال شهر تنطلق معى ذاهبا عشرا وتقيم عندنا عشرا وترجع فى عشر ولك على أن أحفظك ذاهبا وأبعث معك من يحفظك راجعا فقال له عمرو انتظرنى حتى أشاور أصحابى فانطلق عمرو الى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس وقال لا تخرجوا وأقيموا حتى أرجع اليكم ولكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبنى منكم رجل آنس به فقالوا نعم وبعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس الى مصر حتى انتهى الى الاسكندرية فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الاموال والخير ما أعجبه ذلك وقال ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الاموال ونظر الى الاسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الاموال فازداد تعجبا ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم أكرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم وفيما أخبروا عن تلك الأكرة على ما وضعها من مضى منهم ان من وقعت الأكرة فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم فلما قدم عمرو الاسكندرية أكرمه الشماس الاكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه اياه وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالاكرة وهم يتلقونها بأكمامهم فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو فتعجبوا من ذلك وقالوا ما كذبتنا هذه الاكرة قط الا هذه المرة أترى هذا الاعرابى يملكنا هذا لا يكون أبدا وان ذلك الشماس مشى فى أهل الاسكندرية واعلمهم ان عمرا

أحياه مرتين وانه قد ضمن له ألفى دينار وسألهم أن يجمعوا له ذلك فيما بينهم ففعلوا ودفعوها الى عمرو فانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا وزودهما وأكرمهما حتى رجع هو ومن معه الى أصحابه فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم انها أفضل البلاد وأكثرها مالا فلما رجع عمرو الى أصحابه دفع اليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفا قال عمرو فكان ذلك المال أول مال تأثلته فلما أكرمه الله بالاسلام وفتح على يديه كثيرا من أرض الشام مالت نفسه الى فتح مصر ورجا أن يتحقق له وقوع الاكرة فى كمه مع ما صح من قول النبى صلى الله عليه وسلم لتفتحن عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة فرغب عمر بن الخطاب فى أن يسيره اليها حتى وافقه على ذلك فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من علّ ويقال على ثلاثة آلاف وخمسمائة فقال عمر سر وأنا مستخير الله فى مسيرك وسيأتى كتابى اليك سريعا ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيأ من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين فى وجههم فكتب الى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين فأدرك الكتاب عمرا وهو برفح فتخوف عمرو بن العاص ان هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد اليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش فسأل عنها فقيل له انها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو أنتم تعلمون أن هذه القرية من مصر قالوا بلى فقال ان أمير المؤمنين عهد الىّ وأمرنى ان لحقنى كتابه ولم أدخل مصر أن ارجع وان لم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله فتقدم عمرو بن العاص فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو توجه الى الفسطاط فكان يجهز على عمرو الجيوش فكان أول موضع قوتل فيه الفرما قاتله الروم قتالا شديدا نحوا

من شهر ثم فتح الله على يديه فهزم الروم وكان بالاسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب الى القبط يعلمهم انه لا يكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا ثم توجه عمرو لا يدافع الا بالامر الخفيف حتى نزل القواصر فنزل ومن معه فقال بعض القبط لبعض ألا تعجبون من هؤلاء القوم يقدمون على جموع الروم وانما هم فى قلة من الناس فأجابه رجل آخر منهم ان هؤلاء القوم لا يتوجهون الى أحد إلا ظهروا عليه حتى يقتلوا الى آخرهم فتقدم عمرو لا يدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحوا من شهر حتى فتح الله عليه ثم مضى لا يدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالا شديدا وأبطأ عليه الفتح فكتب الى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن فحاصرهم بالقصر الذى يقال له باب اليون حينا وقاتلهم قتالا شديدا يصبحهم ويمسيهم فلما أبطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمده فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل وكتب اليه انى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد واعلم انه صار معك اثنا عشر ألفا ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق أبوابا وجعلوا سكك الحديد موتدة بأفنية الابواب فلما قدم المدد الى عمرو بن العاص أتى الى القصر ووضع عليه المنجنيق وكان على القصر رجل من الروم يقال له الاعرج واليا عليه وكان تحت يد المقوقس ودخل عمرو الى صاحب الحصن كأنه رسول فتناظر معه فى شئ مما هم فيه فقال أخرج واستشير أصحابى وكان صاحب الحصن أوصى الذى كان على الباب اذا مر به عمرو راجعا أن يلقى عليه صخرة فيقتله فمر عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب فقال قد دخلت فانظر كيف تخرج فرجع عمرو الى صاحب الحصن فقال انى أريد أن آتيك بنفر من أصحابى حتى يسمعوا منك مثل

الذى سمعت فقال العلج فى نفسه قتل جماعة أحب الىّ من قتل واحد فأرسل الى الذى أمره بقتل عمرو أن لا يتعرض له رجاء أن يأتى بأصحابه فيقتلهم وخرج عمرو فلما أبطأ عليه الفتح قال الزبير انى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد وأمرهم اذا سمعوا تكبيره أن يجيبوا جميعا فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا أن ينكسر فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر وكبر من معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن ان العرب قد اقتحموا جميعا فهربوا فعمد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن فخاف المقوقس على نفسه فحينئذ طلب الصلح من عمرو بن العاص على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو الى ذلك وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر وقال ابن عبد الحكم شهرا قال ان المسلمين لما حصروا باب أليون شهرا كان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس فلما رأوا حرص المسلمين على فتح الحصن ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا واقتضى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلي ودونهم جماعة يقاتلون العرب فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر وتخلف الاعرج فى الحصن بعد المقوقس فلما خاف فتح الحصن ركب هو وأهل القوة والشرف وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ثم لحقوا بالمقوقس فى الجزيرة فأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص انكم قوم ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وانما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وانما أنتم أسارى فى أيدينا فأرسلوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الامر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم أن تندموا ان كان الامر مخالفا لطلبتكم ورجائكم فابعث الينا رجالا من أصحابكم نعاملهم

على ما رضي نحن وهم به عن شيء فلما أتى الى عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فقال أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم يستحلون ذلك في دينهم وانما فعل عمرو ذلك لأجل أن يروا حال المسلمين وماهم فيه ثم ردّ عليهم عمرو مع رسله انه ليس بيني وبينك الا احدى ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وان أبيتم فاعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون واما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال كيف رأيتموهم قالوا رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة والتواضع أحب اليهم من الرفعة ليس لأحدهم رغبة في الدنيا ولا نهمة وانما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم فقال عند ذلك المقوقس والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم تغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم اذا أمكنتهم الارض وقدروا على الخروج من موضعهم فرد اليهم المقوقس رسله أن ابعثوا الينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم الى ما عسى أن يكون فيه صلاح لنا ولكم فبعث عمرو ابن العاص عشرة أنفار أحدهم عبادة بن الصامت وكان طوله عشرة أشبار وهو أحد الشجعان المشهورين والفصحاء المتكلمين وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم وأن لا يجيبهم الى شيء دعوه اليه الا احدى هذه الخصال الثلاث فان أمير المؤمنين أمرني أن لا أقبل شيأ سوى خصلة من هذه الثلاث خصال وكان عبادة بن الصامت رضي الله عنه أسود فلما دخلوا على المقوقس تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده فقال نحوا عني هذا الاسود وقدموا غيره يكلمني فقالوا ان هذا الاسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وانا نرجع جميعا الى قوله ورأيه وقد أمره الامير دوننا بما أمره به فقال المقوقس لعبادة تقدم يا أسود

وكلمني برفق فاني أهاب سوادك وان اشتد علىّ كلامك ازددت لك هيبة فتقدم اليه عبادة فقال قد سمعت مقالتك وان فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود وكلهم أشد سوادا مني وأفظع منظرا ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني وأنا قد وليت وأدبر شبابي وانى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى ولو استقبلوني جميعا وكذلك أصحابي وذلك لاننا انما رغبتنا وبغيتنا الجهاد في الله تعالى واتباع رضوان الله وليس غزونا عدونا من حارب الله رغبة في الدنيا ولا طلبا للاستكثار منها الا أن الله قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا وما يبالى أحدنا أكان له قنطار من الذهب أم كان لا يملك الا درهما لان غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها فيسد بها جوعته وشملة يلتحفها فان كان أحدنا لا يملك الا ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا لان نعيم الدنيا ورخاءها ليس برخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك أمرنا ربنا وأمر به نبينا وعهد الينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا الا فيما يمسك جوعته ويستر عورته وتكون همته وشغله في رضا ربه وجهاد عدوه فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لأهيب عندى من منظره وان هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب البلاد وما أظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها ثم أقبل المقوقس على عبادة فقال أيها الرجل قد سمعت مقالتك وما ذكرته عنك وعن أصحابك ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرته ولا ظهرتم على ما ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة من لا يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل وانا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد أقمتم بين ظهرنا شهرا وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرأف عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفوا الى بلادكم قبل أن يغشاكم

مالا قوة لكم به فقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه ياهذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك أما ما تخوفوننا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ماهذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه ان كان ماقلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لان ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا لان ذلك أمكن لنا في رضوانه وجنته وما من شئ أقر لأعيننا ولا أحب الينا من ذلك وانا منكم حينئذ على احدى الحسنيين اما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا وانها لأحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله تعالى قال لنا في كتابه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وما من رجل الا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده الى بلده ولا الى أهله وولده وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده وانما همنا ما أمامنا واما أنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا لأنفسنا منها أكثر مما نحن فيه فانظر الذي تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم ولا نجيبكم اليها الا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل بذلك أمرني الامير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الينا من قبل أما ان أجبتم الى الاسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه فان فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان أخانا في دين الله فان قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم وان أبيتم الا الجزية فأدوا الينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون نعاملكم على شئ نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم وتعرض لكم في شئ من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم اذا كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد الله علينا وان أبيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو

نصيب منكم مائر بدهـذا ديننا الذى ندين الله به ولا يجوز لنا فيما بيننا و بينه غيره فانظروا لأنفسكم فقال له المقوقس هذا مما لا يكون أبدا ما تريدون الا أن تأخذونا لكم عبيدا ما كانت الدنيا فقال له عبادة هو ذاك فاختر ما شئت فقال له المقوقس أفلا تجيبونا الى خصلة غير هذه الثلاث فرفع عبادة يديه فقال لا ورب السماء ورب هذه الارض ورب كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم فالتفت المقوقس عند ذلك الى أصحابه فقال قد فرغ القول فما تقولون فقالوا أو يرضى أحد بهذا الذل اذا ما أرادوا من دخولنا فى دينهم فهذا لا يكون أبدا أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل فى دين لا نعرفه وأما ما أرادوا من أن يسبونا و يجعلونا عبيدا أبدا فالموت أيسر من ذلك لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مرارا كان أهون علينا فقال المقوقس لعبادة قد أبى القوم فما ترى فراجع صاحبك على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون فقام عبادة وأصحابه فقال المقوقس لمن حوله عند ذلك أطيعونى وأجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة وان لم تجيبوا اليهم طائعين لتجيبونهم الى ما هو أعظم منها كارهين فقالوا أى خصلة نجيبهم اليها قال اذن أخبركم أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به وأما قتالهم فأنا أعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثلاث قالوا افنكون لهم عبيدا أبدا قال نعم تكونون عبيدا مسلطين فى بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيدا تباعوا وتمزقوا فى البلاد مستعبدين أبدا أنتم وأهلوكم وذراريكم قالوا فالموت أهون علينا وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة و بالقصر من الروم والقبط جمع كثير فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من فى القصر حتى ظفروا بهم ومكن الله منهم فقتل منهم خلق كثير وأسر من أسر وانحازت السفن كلها الى الجزيرة وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه لا يقدرون على أن ينفذوا و يتقدموا نحو الصعيد ولا الى غير ذلك من المداين والقرى والمقوقس يقول لاصحابه ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم ما تنتظرون فوالله

لتجيبونهم الى ما أرادوا طوعاً أو لتجيبونهم الى ما هو أعظم منه كرها فأطيعوني قبل أن تندموا فلما رأوا منهم ما رأوا وقال لهم المقوقس ما قال اذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يوفونه وأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص رضى الله عنه انى لم أزل حريصا على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت الىّ بها فأبى ذلك من حضرنى من الروم والقبط فلم يكن لى أن أفتات عليهم وقد عرفوا نصحى لك وحبى صلاحهم ورجعوا الى قولى فاعطنى أمانا أجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابى ونفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم ذلك لنا جميعا وان أبيتم رجعنا الى ما كنا عليه فاستشار عمرو أصحابه فى ذلك السؤال فقالوا لا نجيبهم الى شئ من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير كلها فيئا لنا وغنيمة كما صار القصر وما فيه فقال عمرو قد علمتم ما عهد الىّ أمير المؤمنين فى عهده فان أجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التى عهد الىّ فيها أجبتهم اليها وقبلت منهم مع ما قد حال من الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ وعلى ان للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك لهم ضيافة ثلاثة أيام وان لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شئ منها فشرط هذا كله على القبط خاصة وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية فرض الله عليهم الدينارين ورفع ذلك عرفاؤهم بالايمان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف وذلك ستة ملايين فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار أى اثنى عشر مليونا من الدنانير كل سنة وقيل بلغت غلتهم ثمانية آلاف ألف وشرط المقوقس للروم أن يتخير وا فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على هذا لازما له مفترضا عليه ممن أقام بالاسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن

أراد الخروج منها الى أرض الروم خرج على أن للمقوقس الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب الى ملك الروم يعلمه مافعل فان قبل ذلك ورضيه جاز عليهم والا كانوا جميعا على ما كانوا عليه وكتبوا به كتابا وكتب المقوقس الى ملك الروم يعلمه على وجه الامر كله فكتب اليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه مافعل ويقول فى كتابه انما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا وبمصر من بها من كثرة عدد القبط مالا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ماقد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط إذلا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظفر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة فناهضهم القتال ولا يكون لك رأى غير ذلك وكتب ملك الروم مثل ذلك الى جماعة الروم فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم والله انهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا ان الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا وذلك انهم قوم الموت أحب اليهم من الحياة يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل ويتمنى أن لا يرجع الى أهله ولا بلده ولا ولده ويرون أن لهم أجرا عظيما فيمن قتلوا منا ويقولون انهم ان قتلوا أدخلوا الجنة وليس لهم رغبة فى الدنيا ولا لذة الا على قدر بلغة العيش من الطعام واللباس ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها فكيف نستقيم نحن وهؤلاء وكيف صبرنا معهم واعلموا معشر الروم والله انى لا أخرج مما دخلت فيه وصالحت العرب عليه وانى لأعلم انكم سترجعون غدا الى قولى ورأيى وتتمنون ان لو كنتم أطعتمونى وذلك انى قد عاينت ورأيت وعرفت مالم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه ويحكم أما يرضى أحدكم أن يكون آمنا فى دهره على نفسه وماله وولده بدينارين فى السنة ثم أقبل المقوقس على عمرو بن العاص فقال له ان الملك قد كره مافعلت وعجزنى وكتب الىَّ والى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا

بك أو تظفر بهم ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن أطاعني وقد تم الصلح فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم وأما الروم فأنا منهم بريء وأنا أطلب منك أن تعطيني ثلاث خصال قال له عمرو وماهن قال لا تنقض بالقبط وأدخلني معهم وألزمني ما لزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك فهم متمون لك على ما تحب وأما الثانية فان سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئا وعبيدا فانهم أهل لذلك فاني نصحتهم فاستغشوني ونظرت اليهم فاتهموني وأما الثالثة فأطلب اليك ان أنا مت أن تأمرهم أن يدفنوني في أبي حنش بالاسكندرية فأنعم له عمرو بن العاص وأجابه الى ماطلب على أن يضمنوا له الجسر بن جميعا ويقيموا له الانزال والضيافة والاسواق والجسور مابين الفسطاط الى الاسكندرية ففعلوا وصارت لهم القبط أعوانا كما جاء في الحديث واستعدت الروم وجاشت وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم ثم انتقلوا ابسلطيس فاقتتلوا بها قتالا شديدا ثم هزمهم الله ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما وكان عبدالله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف ثم فتح الله يومئذ على المسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكانت عليهم حصون مبنية لاترام حصن دون حصن فنزل المسلمون مابين حلوه الى قصر فارس الى ماوراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والعلوفة ورسل ملك الروم تختلف الى الاسكندرية في المراكب بمادة الروم وكان ملك الروم يقول لئن ظفرت العرب على الاسكندرية ان ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية وانما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالاسكندرية فقال الملك لئن غلبوا على الاسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه الى الاسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه اعظاما لها وأمر أن

لا يتخلف أحد من الروم وقال ما بقى للروم بعد الاسكندرية حرمة فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى الله المسلمين مؤنته وكان موته سنة تسع عشرة * وقال الليث ابن سعد مات هرقل سنة عشرين فكسر الله بموته شوكة الروم فرجع كثير ممن قد توجه الى الاسكندرية وانتشرت العرب عند ذلك وألحت القتال على أهل الاسكندرية فقاتلهم قتالا شديدا وحاصروا الاسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك وفتحت يوم الجمعة فى شهر المحرم سنة عشرين وقال ابن عبد الحكم أقام عمرو بن العاص محاصرا الاسكندرية أشهرا ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ما أبطأ بفتحها الا لما أحدثوا وكتب الى عمرو بن العاص أما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر انكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذاك الا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم وان الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما الا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت اليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف الا أن يكون غيرهم ما غيرهم فاذا أتاك كتابى فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم فى الصبر والنية وقدم أولئك الاربعة فى صدور الناس وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة ابن الصامت ومسلمة بن مخلد وأمر الناس جميعا أن تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة فيها ووقت الاجابة وليعج الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم ففعلوا ففتح الله عليهم قال ابن عبد الحكم حدثنى أبى قال لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الاسكندرية استلقى على ظهره ثم جلس فقال انى فكرت فى هذا الامر فانه لا يصلح آخره الا من أصلح أوله يريد الانصار فدعا عبادة بن الصامت فعقد له ففتح الله على يديه الاسكندرية من يومهم ذلك ثم روى ابن عبد الحكم عن الامام مالك ان ذلك كان سنة عشرين ولما هزم الله الروم وفتحت الاسكندرية وهرب الروم فى البر والبحر خلف عمرو بن العاص بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر ورجع من كان هرب من الروم فى البحر الى

الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين الا من هرب منهم وبلغ عمرو بن العاص فكر راجعا ففتحها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب ان الله قد فتح علينا الاسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد فكتب اليه عمر بن الخطاب يأمره أن لا يجاوزها ويقبح رأيه فى اتباعه من هرب والذين قتلوا من المسلمين من حين حصار الاسكندرية الى أن فتحت عنوة اثنان وعشرون رجلا ولما فتحت بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافدا الى عمر بن الخطاب مبشرا له بالفتح فقال معاوية بن خديج لعمرو بن العاص ألا تكتب معى كتابا فقال عمرو وما تصنع بالكتاب ألست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت فلما قدم على عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وأخبره بفتح الاسكندرية خر عمر ساجدا وقال الحمد لله وقيل بل كتب عمرو بن العاص مع الرسول كتابا لعمر بن الخطاب وقال فيه أما بعد فانى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف منية وهى المكان الصلب المرتفع بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى وأربعمائة ملهى للملوك قال ابن عبد الحكم لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية وجد فيها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الاخضر ورحل منها سبعون ألف يهودى فى الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو بن العاص ٭ قيل ان سبب فتح الاسكندرية أن رجلا كان يقال له ابن بسامه كان بوابا فسأل عمرو بن العاص أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو الى ذلك ففتح له الباب فدخل وكان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتى ألف من الرجال فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والاهل وبقى من بقى من الاسارى ممن بلغ الخراج فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمرو فى قسمهم وكان أكثر الناس يريدون قسمها فقال عمرو لا أقدر أقسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين فكتب اليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسمها فكتب اليه عمر لا تقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئا

للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج فكانت مصر صلحا بفريضة دينار بن دينار بن على كل رجل لا يزاد على كل واحد فى جزيته أكثر من دينار بن الا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الارض والزرع الا الاسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم لان الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب قال كانت قرى من قرى مصر قاتلت ونقضوا فسبوا منها قرية يقال لها بلهيت وقرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس وقرطس وفرق سباياهم بالمدينة وغيرها فردهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل الذمة وأخرج عن يحيى بن أيوب أن أهل سلطيس وهصيل وبلهيت ظاهروا الروم على المسلمين فى جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنا فىء مع الاسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه أن يجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ويضربون عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلوا فيئا ولا عبيدا ففعلوا ذلك وأخرج ابن عبد الحكم عن هشام بن أبى رقية اللخمى أن عمرو بن العاص رضى الله عنه لما فتح مصر قال لقبط مصر من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته وان قبطيا من أهل الصعيد يقال له بطرس ذكروا لعمرو ان عنده كنزا فأرسل اليه فسأله فأنكر وجحد فحبسه فى السجن وعمرو يسأل عنه هل يسمعونه يسأل عن أحد فقالوا الا انما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور فأرسل عمرو الى بطرس فنزع خاتمه من يده فكتب عمرو الى ذلك الراهب أن ابعث الىّ بما عندك وختمه بخاتم بطرس فجاءه رسوله بقلة شامية مختومة بالرصاص ففضها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوبا فيها مالكم تحت الفسقية الكبيرة فأرسل عمرو الى الفسقية فحبس عنها الماء ثم قلع منها البلاط الذى تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين أردبا ذهبا مضروبة فضرب عمرو رأس بطرس عند باب المسجد فأخرج القبط

كنوزهم شفقة أن يسعى على أحد منهم فيقتل قتل بطرس ثم ذكر الجلال السيوطى فى حسن المحاضرة اختلاف العلماء فى ان مصر فتحت صلحا أو عنوة فنقل عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب ان مصر كلها صلح الا الاسكندرية فانها فتحت عنوة ونقل عن عون بن حطان انه كان بقريات من مصر منهن أم دنين عهد وأخرج عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد قال فتح الله أرض مصر كلها بصلح غير الاسكندرية وثلاث قريات ظاهروا الروم على المسلمين سلطيس وهصيل وبلهيت ونقل عن ابن هبيرة ان مصر فتحت عنوة وأخرج عن عبد الرحمن بن زياد قال سمعت أشياخنا يقولون ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد وأخرج عن أبى العالية انه سمع عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول لقد قعدت مقعدى هذا وما لاحد من قبط مصر على عهد ولا عقد الا أهل انطابلس فان لهم عهدا يوفى لهم به وزاد فى رواية عن ابن لهيعة ان عمرا قال ان شئت قتلت وان شئت خمست وان شئت بعت وفى رواية عن ربيعة بن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص ان عمر بن الخطاب حبس درها وصرها أن يخرج منه شئ نظرا للاسلام وأهله وأخرج عن زيد بن أسلم قال كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده فلم يوجد فيه لاهل مصر عهد وأخرج عن الصلت بن أبى عاصم أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز الى حيان بن شريح أن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد وأخرج نحو ذلك عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وعراك بن مالك وسالم بن عبد الله ابن عمر وأخرج ابن عبد الحكم ومحمد بن الربيع الجيزى من طرق عن سفيان بن وهب الخولانى قال لما افتتحنا مصر بغير عهد قام الزبير بن العوام فقال يا عمرو اقسمها فقال عمرو بن العاص لا أقسمها فقال الزبير والله لتقسمنها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر فقال عمرو لم أكن لاحدث حدثا حتى أكتب بذلك الى أمير المؤمنين فكتب اليه عمر بن الخطاب أقرها حتى يغدوا منها حبل الحبلة يعنى ولد الولد وروى ابن عبد الحكم عن ابن شهاب قال كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه جميعا ذمة وحملهم على ذلك

فمضى ذلك فيهم الى اليوم قال القضاعى ان فتح مصر كان يوم الجمعة فى شهر محرم سنة عشرين وانهم ساروا الى الاسكندرية فى شهر ربيع الاول سنة عشرين وقيل فى جمادى الآخرة وان عمرو بن العاص رضى الله عنه قفل من الاسكندرية بعد فتحها والمقام بها فى ذى القعدة سنة عشرين وقال الليث بن سعد أقام عمرو بالاسكندرية فى حصارها وفتحها ستة أشهر ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها دارا وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها هم أن يسكنها فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه فى ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بينى وبين المسلمين ماء قال نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل فكتب عمر الى عمرو لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فتحول عمرو من الاسكندرية الى الفسطاط وأخرج ابن عبد الحكم أيضا عن يزيد بن أبى حبيب ان عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى والى عامله بالبصرة والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية أن لا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم اليكم قدمت فتحول سعد من مدائن كسرى الى الكوفة وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط قال ابن عبد الحكم ان عمرو بن العاص لما كان بمصر كان له فسطاط فلما أراد التوجه الى الاسكندرية أمر بنزع فسطاطه فاذا فيه يمام قد فرخ فقال لقد تحرم بنا فأمر به فأقره كما هو حتى يطير الفراخ وأوصى به صاحب القصر فلما قفل المسلمون من الاسكندرية قالوا أين تنزل قال الفسطاط يعنى فسطاطه الذى خلعه وكان مضروبا فى موضع الدار الذى يعرف اليوم بدار الحصا فلذلك سميت مصر الفسطاط قال القضاعى لما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل موضع الفسطاط انضمت القبائل بعضها الى بعض وتنافسوا فى المواضع فولى عليهم أمراء فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وقال ابن قتيبة ان العرب تقول

لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط قال ابن فضل الله فى المسالك مسجد
عمرو بن العاص مسجد عظيم بمدينة الفسطاط بناه عمرو موضع فسطاطه و
جاوره وموضع فسطاطه حيث المحراب والمنبر و بنى عمرو بن العاص دار العمر
ابن الخطاب وكتب له انا قد اختططنا لك دارا عند المسجد الجامع فكتب الى
عمرو أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين قال
ابن لهيعة هى دار البركة فجعلت سوقا فكان يباع فيها الرقيق و بنى خارجة بن
حذافة غرفة عالية فكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك أما
بعد فقد بلغنى ان خارجة بن حذافة بنى غرفة وأراد أن يطلع على عورات جيرانه
فاذا أتاك كتابى هذا فاهدمها ان شاء الله والسلام فلما جاءه الكتاب هدمها وسأل
المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح الجبل المقطم بسبعين ألف دينار فعجب
عمرو من ذلك فكتب فى ذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر سله لم أعطاك
به ما أعطاك وهى لا تزرع وهى لا يستنبط بها ماء ولا ينتفع بها فسأله فقال انا لنجد
صفتها فى الكتب ان فيها غراس الجنة وفى رواية انا لنجد فى كتابنا أن ما بين هذا
الجبل وحيث نزلتم ينبت فيه شجر الجنة فكتب بقوله الى عمر بن الخطاب فقال
صدق فاجعلها مقبرة للمسلمين وفى رواية انا لا نعلم غراس الجنة الا للمؤمنين فاقبر فيها
من مات قبلك من المسلمين ولا تبعه بشئ فكان أول من دفن فيها رجل من معافر
يقال له عامر فقيل عمرت وروى عمرو بن العاص عن أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا فتح الله
عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الارض فقال أبو
بكر رضى الله عنه ولم يا رسول الله قال لانهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة
ثم قال عمرو بن العاص فاحمدوا الله معاشر المسلمين على ما أولاكم ه ولما فتح عمرو
مصر أتى أهلها اليه حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له أيها الامير ان لنيلنا
هذا سنة لا يجرى الا بها فقال لهم وماذاك قالوا اذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من
هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من

الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى هذا النيل فقال لهم عمرو ان هذا لا يكون فى الاسلام وان الاسلام يهدم ما قبله فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى لا يجرى النيل قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء فلما رأى ذلك عمرو كتب الى عمر بن الخطاب بذلك فكتب اليه قد أصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل اذا أتاك كتابى فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وان كان الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الواحد القهار أن يجريك فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا وقد زالت تلك السنة السوء عن أهل مصر وعن يزيد بن أبى حبيب ان موسى عليه السلام دعا على فرعون فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء حتى طلبوا من موسى أن يدعو الله رجاء أن يؤمنوا فدعا الله فأصبحوا وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا فاستجاب الله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام

﴿ ذكر فتوحات العراق بعد مسير خالد بن الوليد الى الشام ﴾

لما أراد خالد بن الوليد المسير الى الشام بأمر أبى بكر رضى الله عنه أخذ معه بعض الجند كما تقدم واستخلف على من بقى بالعراق المثنى بن حارثة الشيبانى وهو صحابى من نسل ذهل بن شيبان و ينتهى نسبه الى ربيعة بن نزار وفد المثنى على النبى صلى الله عليه وسلم سنة تسع مع وفود قومه وسيره أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى صدر خلافته الى العراق قبل مسير خالد بن الوليد الى العراق وهو الذى أطمع أبا بكر والمسلمين فى الفرس وهوّن أمر الفرس عندهم وكان شهما شجاعا ميمون النقيبة حسن الرأى أبلى فى قتال الفرس بلاء لم يبلغه أحد وكان استخلاف خالد له على جيش العراق بأمر من أبى بكر رضى الله عنه فلما توجه خالد الى الشام واستخلفه على الجند أقام بالحيرة وذلك سنة ثلاث عشرة وكان الفرس قد هلك ملكهم كسرى

كما تقدم ثم استقام أمرهم على تملك شهر زان بن ازدشير بن شهر يار بن سابور فوجه الى المثنى بن حارثة جيشا عظيما عليهم هرمز جاذويه فخرج المثنى من الحيرة نحوه فأقام ببابل فأقبل هرمز نحوه وكتب ملكهم كسرى الذى ملكوه عليهم الى المثنى كتابا انى قد بعثت اليكم جندا من وحش أهل فارس انما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلكم الا بهم فكتب اليه المثنى انما أنت أحد رجلين اما باغ فذلك شر لك وخير لنا واما كاذب فأعظم الكاذبين عند الله فضيحة وعند الناس الملوك وأما الذى يدلنا عليه الرأى فانكم انما أضررتم بهم فالحمد لله الذى رد كيدكم الى رعاة الدجاج والخنازير فجزع الفرس من كتابه فالتقى المثنى وهرمز ببابل فاقتتلوا قتالا شديدا وكان معهم فيل يفرق الناس فانتدب له المثنى ومعه ناس فقتلوه وانهزم الفرس وتبعهم المسلمون الى المدائن يقتلونهم ومات ملكهم كسرى شهرزان لما انهزم هرمز واختلف الفرس وبقى مادون دجلة بيد المثنى ثم اجتمعت الفرس وملكوا دخت زنان ابنة كسرى فلم ينفذ لها أمر فخلعوها وملكوا سابور بن شهرزان وقام بتدبير أمره الفراخزاد بن لبندوان فقتل وثارت بينهم فتنة وحصروا الملك سابور ثم قتلوه وملكوا ازرميد اخت بنت كسرى وتشاغلوا بتلك الفتنة وابطأ على المثنى خبر أبى بكر رضى الله عنه فاستخلف على المسلمين بشير بن الخصاصية وهو صحابى من نسل سدوس بن شيبان والخصاصية جدته نسب اليها وهى من الازد وأبوه يزيد بن سعيد قدم على النبى صلى الله عليه وسلم مع وفد الازد وكان اسمه زجا فسماه النبى صلى الله عليه وسلم بشيرا وكان سير المثنى الى أبى بكر رضى الله عنهما ليخبره خبر المشركين ويستأذنه فى الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين فانهم أنشط الى القتال من غيرهم فقدم المدينة وأبو بكر رضى الله عنه مريض قد أشفى فأخبره الخبر فاستدعى عمر وقال انى لارجو أن أموت يومى هذا فاذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم فقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وماصنعت وما أصيب الخلق بمثله واذا فتح الله على أهل الشام

فاردد أهل العراق الى العراق فانهم أهله وولاة أمره وأهل الجرأة عليهم ومات أبو بكر رضى الله عنه ليلا فدفنه عمر رضى الله عنه وندب الناس مع المثنى وكان الانتداب الى فارس أثقل الوجوه على المسلمين وأكرهها اليهم لشدة سلطانهم وقوة شوكتهم وقهرهم الامم فكان عمر رضى الله عنه يبايع الناس ثلاثة أيام وفى الرابع ندب الناس الى العراق فكان أول منتدب به أبو عبيد بن مسعود الثقفى وهو صحابى أسلم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وهو والد المختار وانتدب أيضا سعد بن عبيد الانصارى وسليط بن قيس الانصارى وكانا ممن شهد بدرا وتتابع الناس وتكلم المثنى فقال أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد قصنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد ونلنا منهم واجترأنا عليهم ولنا ان شاء الله ما بعدها فاجتمع الناس فقيل لعمر أمر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والانصار قال لا والله لا أفعل وانما رفعهم الله بسبقهم ومسارعتهم الى العدو فاذا فعل فعلهم قوم وتثاقلوا كان الذين ينفرون خفافا وثقالا ويسبقون الى الرفع أولى بالرياسة فيهم والله لا أؤمر عليهم الا أولهم انتدابا ثم دعا أبا عبيد وسعدا وسليطا وقال لهما لو سبقتما لوليتكما ولادركتما بها ما لكما من السابقة فأمر أبا عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الامر ولا يمنعنى ان أؤمر سليطا الا سرعته الى الحرب وفى التسرع الى الحرب ضياع الاعراب فانه لا يصلحها الا الرجل المكيث وأوصاه بجندل فكان بعث أبى عبيد أول جيش سيره عمر رضى الله عنه ثم بعده سير يعلى بن أمية الى اليمن وأمره باجلاء أهل نجران بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن لا يجتمع بجزيرة العرب دينان واعتذر عمر فى عزله المثنى عن الامارة بقوله انى لم أعزله وخالد بن الوليد عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة

﴿ ذكر خبر النمارق ﴾

فسار أبو عبيدة الثقفى وسعد بن عبيدة وسليط بن قيس الانصاريان ومن معهم

والمثنى بن حارثة وأمره عمر بالتقدم الى أن يقوم عليه أصحابه وأمرهم باستنفار من حسن اسلامه من أهل الردة ففعلوا ذلك وسار المثنى فقدم الحيرة وكان الفرس تشاغلوا عن المسلمين بما وقع بينهم ثم ملكوا عليهم بوران بنت كسرى بشرط أن تملك رستم بن الفرخزاد عشر سنين ثم يكون الملك في آل كسرى ان وجدوا من غلمانهم والا ففي نسائهم فدعت بوران مرازبة فارس وأمرتهم أن يسمعوا لرستم و يطيعوا وتوجته فدانت له فارس قبل قدوم أبي عبيدة ثم قدم المثنى الى الحيرة في عشر وقدم بعده أبو عبيدة بشهر فكتب رستم الى الدهاقين ان يثوروا بالمسلمين وبعث في كل رستاق رجلا يثور بأهله ووعدهم يوما وبعث جندا لمصادمة المثنى و بلغ المثنى الخبر فعجل فخرج من الحيرة ونزل خفان ونزل جيش الفرس النمارق فسار اليه أبو عبيد واقتتلوا بالنمارق قتالا شديدا فهزم الله أهل فارس وأسر رئيس جيشهم واسمه جابان ولحق المنهزمون بكسكر وبها نرسى ابن خالة الملك فسار اليهم أبو عبيد واقتتلوا قتالا شديدا ثم انهزم الفرس وهرب نرسى وغلب المسلمون على عسكره وأرضه وجمعوا الغنائم ولما بلغ بوران ورستم هزيمة جابان بعثا الجالينوس بجيش فنزل بباقسياثا فسار اليه أبو عبيد فهزمه وهرب الجالينوس وغلب أبو عبيد على تلك البلاد ثم ارتحل حتى قدم الحيرة وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال لأبي عبيد انك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية تقدم على قوم تجرؤا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون واحرز لسانك ولا تفشين سرك فان صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه واذا ضيعه كان بمضيعة فكان أبو عبيد شديد الحذر والتحفظ حسن التدبير محافظا على ما أوصاه به عمر رضي الله عنه

(ذكر وقعة قس الناطف و يقال لها الجسر واستشهاد أبي عبيدة رضي الله عنه)

ولما رجع الجالينوس الى رستم منهزما ومن معه من جنده قال رستم أي العجم أشد على العرب قالوا بهمن جادويه المعروف بذي الحاجب فوجهه ومعه فيله ورد الجالينوس معه وقال لبهمن ان انهزم الجالينوس ثانية فاضرب عنقه فأقبل بهمن

جاذويه فنزل بقس الناطف وأقبل أبو عبيد فنزل بالمروحة فرأت دومة امرأة أبي عبيد في منامها ان رجلا نزل من السماء بإناء فيه شراب فشرب أبو عبيد ومعه نفر فأخبرت بها أبا عبيد فقال هذه الشهادة ان شاء الله تعالى وعهد الى الناس فقال ان قتلت فعلى الناس فلان فان قتل فعليهم فلان حتى أمر الذين شربوا من الاناء وكلهم من قومه ثقيف ثم قال فان قتل فلان فعلى الناس المثنى بن حارثة ثم عبر على الجسر بجيوشه الى قس الناطف فالتقى مع بهمن وجيوشه واقتتلوا اقتتالا شديدا واشتد الأمر بالمسلمين فترجل أبو عبيد والناس ثم مشوا اليهم ثم صافحوهم بالسيوف فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة الا دفعتهم فنادى أبو عبيد احتوشوا الفيلة وقطعوا بطانها واقلبوا عنها أهلها ووثب هو على الفيل الابيض فقطع بطانه ووقع الذي عليه وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلا الا حطوا رحله وقتلوا أصحابه وأهوى الفيل لابي عبيد فضربه أبو عبيد بالسيف وخبطه الفيل بيده فوقع فوطئه الفيل وقام عليه فلما بصر به الناس تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم ثم أخذ اللواء الذي أمر به بعده فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد فأخذه المسلمون فأحرزوه ثم قتل الفيل الامير الذي بعد أبي عبيد وتتابع سبعة أنفس من ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يموت ثم أخذ اللواء المثنى بن حارثة فهرب عنه الناس فلما رأى عبد الله بن مرثد الثقفي مالقي أبو عبيد ومايصنع الناس بادرهم الى الجسر فقطعه وقال أيها الناس موتوا على مامات عليه أمراؤكم أو تظفروا وحاز المشركون المسلمين الى الجسر فتواثب بعضهم الى الفرات فغرق من لم يصبر وأسرعوا فيمن صبر وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس وقال انا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا ولا تغرقوا أنفسكم وقاتل عروة بن زيد الخيل وأبو محجن الثقفي قتالا شديدا وقاتل أبو زبيد الطائي قتالا شديدا حمية للعرب وكان نصرانيا قدم الحيرة لبعض أمره ونادى المثنى من عبر نجا وأمر بعقد الجسر فعبر الناس وكان آخر من قتل سليط بن قيس وعبر المثنى فلما عبر ارفض عنه أهل المدينة وبقي المثنى في قلة وكان قد جرح واثبت فيه حلق من درعه وكان

جملة من مات من المسلمين أربعة آلاف بين قتيل وغريق وقتل من الفرس ستة آلاف وأراد بهمن جاذويه العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر باختلاف الفرس وأنهم قد ثاروا برستم ونقضوا الذى بينهم وبينه وأنهم صاروا فريقين الفهلوج على رستم وأهل فارس على الفيرزان فرجع بهمن الى المداين

﴿ ذكر وقعة البويب ﴾

لما بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقعة أبى عبيد بالجسر ندب الناس الى المثنى وكان ممن ندب بجيلة وأمرهم الى جرير بن عبد الله البجلى فاجتمع كثير منهم فأمرهم عمر بالتوجه الى العراق فأبوا الا الشام فعزم عليهم عمر التوجه الى العراق وينفلهم ربع الخمس فأجابوا وسيرهم الى المثنى وكتب الى أهل الردة فلم يأته أحد الا بعثه الى المثنى وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب فتوافدوا اليه فى جمع عظيم وجاءه أنس بن هلال النمرى فى جمع عظيم من النمر نصارى وقالوا نقاتل مع قومنا وبلغ الخبر رستم والفيرزان فجمعوا جموعهم من وراء الفرات واجتمع المسلمون بالبويب وكان على جيش الفرس مهران الهمدانى فأرسل الى المثنى يقول اما أن تعبر الينا واما أن نعبر اليك فقال المثنى اعبروا فعبر مهران فنزل على شاطئ الفرات وعبى المثنى أصحابه وكان فى رمضان فأمرهم بالافطار ليقووا على عدوهم فأفطروا وأقبل الفرس فى ثلاثة صفوف مع كل صف فيل ولهم زجل فقال المثنى لاصحابه ان الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت ودنوا من المسلمين وطاف المثنى فى صفوفه يحرضهم وقال انى مكبر ثلاثا فتهيؤا ثم احملوا فى الرابعة فلما كبر أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم فلما طال القتال واشتد قال المثنى لانس بن هلال النمرى انك امرؤ عربى وان لم تكن على ديننا فاذا حملت على مهران فاحمل معى فاجابه فحمل المثنى على مهران فازاله حتى دخل فى ميمنته ثم خالطوهم واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنبتان تقتتل ولا يستطيعون ان يفزعوا لنصر أميرهم لا المسلمون ولا المشركون وأفنى المثنى قلب المشركين فلما رأوه قد أزال القلب وثب مجنبتا المسلمين على مجنبتى المشركين وجعلوا يردون

الاعاجم على أدبارهم حتى هزموا الفرس وسبقهم المثنى الى الجسر وأخذ طريق الاعاجم فافترقوا مصعدين ومنحدرين وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثثا بقيت عظام القتلى دهراطويلا وكانوا يحرزون القتلى مائة ألف وسمى ذلك اليوم يوم الاعشار أحصى مائة رجل من المسلمين قتل كل رجل منهم عشرة من الفرس وتبعهم المسلمون الى الليل ومن الغد الى الليل وغنم المسلمون غنائم كثيرة وأعطى بجيلة ربع الخمس كما شرط لهم عمر رضى الله عنه

﴿ ذكر خبر الخنافس وسوق بغداد ﴾

سوق الخنافس يجتمع بها تجار مدائن كسرى والسواد وقضاعة وربيعة بخفرونهم فركب المثنى وأغار على الخنافس يوم سوقها فانتهب السوق وما فيها وسلب الخضراء ثم رجع الى الانبار فتحصن أهلها منه فلما عرفوه نزلوا اليه وأتوه بالاعلاف والزاد وأخذ منهم الادلاء على سوق بغداد وهو موضع المدينة التى اختطها المنصور فيما بعد وصبحهم فى أسواقهم فوضع السيف فيهم وأخذ ماشاء ثم رجع الى الانبار وشن الغارات بخيول أصحابه على الاطراف وبعث خيلا على احياء تغلب بصفين فاغاروا عليهم وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية واستاقوا الاموال وأغاروا على قوم من تغلب والنمر بشاطئ دجلة ففروا وأدركوهم بتكريت فاصابوا ماشاؤا من النعم

﴿ ذكر الخبر الذى هيج أمر القادسية وتملك يزدجرد ﴾

لما رأى أهل فارس مايفعل المسلمون بالسواد قالوا لرستم والفيرزان وهما على أهل فارس لم يبرح بكما الاختلاف حتى رهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم ولم يبلغ من أمركما ان نقركما على هذا الرأى وان تعرضاها للهلكة مابعد بغداد وساباط وتكريت الا المداين والله لتجتمعان أولنبدأن بكما ثم نهلك وقد اشتفينا منكما ولم يبق من ولد كسرى من الذكور الاغلام عمره أحد وعشرون سنة يدعى يزدجرد فملكوه واجتمعوا عليه فاطمأنت فارس واستوثقوا وتبارى المرازبة فى طاعته ومعونته فجندوا اجنودا كثيرة فبلغ ذلك المثنى والمسلمين فكتبوا الى عمر بن

الخطاب ثم بلغهم ان أهل السواد كفروا وصار من له عهد كمن لا عهد له فلما وصل الكتاب الى عمر رضى الله عنه قال والله لاضربن ملوك العجم بملوك العرب فلم يدع رأسا ولا ذا رأى وشرف وبسطة ولا خطيبا ولا شاعرا الا ورماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم وكتب عمر الى المثنى ومن معه يأمره بالخروج من بين العجم والتفرق فى المياه التى تلى العجم وأن لا يدعوا فى ربيعة ومضر وحلفائهم أحدا من أهل النجدات ولا فارسا الا أحضروه اما طوعا أو كرها ففعلوا ذلك وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ثلاث عشرة وأرسل عمر فى الحجة عند مخرجه الى الحج الى عماله على العرب أن لا يدعوا من له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأى الا وجهوه اليه فامامن كان على النصف مابين المدينة والعراق فجاء اليه بالمدينة لما عاد من الحج وأما من كان أقرب الى العراق فانضم الى المثنى بن حارثة وجاءت امداد العرب الى عمر ولما اجتمع الناس استخلف على المدينة عليا رضى الله عنه وخرج من المدينة حتى نزل على ماء يدعى ضرارا فعسكر به فى ابتداء سنة أربع عشرة ولا يدرى الناس ماذا يريد أيسير أم يقيم فسأله عثمان عن سبب حركته فاحضر الناس فاعلمهم الخبر واستشارهم فى المسير الى العراق فقال العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم فى رأيهم وقال اغدوا واستعدوا فانى سائر الا أن يجىء رأى هو أمثل من هذا ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسل يطلب حضور على رضى الله عنه من المدينة فحضر فاجتمع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وعثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ثم استشارهم فاتفقوا على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرميه بالجنود فان كان الذى يشتهى فهو الفتح والا أعاد رجلا وبعث آخر ففى ذلك غيظ العدو فجمع عمر بقية الناس وقال لهم انى كنت عزمت على المسير حتى صرفنى ذوو الرأى منكم وقد رأيت انى أقيم وأبعث رجلا فاشيروا على برجل وكان سعد بن أبى وقاص بعثه لصدقات هوازن وكتب اليه بانتخاب ذوى الرأى والنجدة والسلاح فجاءه كتابه وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه يقول سعد فى كتابه قد انتخبت لك ألف فارس

كلهم ذو نجدة ورأى وصاحب حيطة يحفظ حريم قومه اليهم انتهت أحسابهم ورأيهم فلما وصل كتابه لعمر قالوا له قد وجدته يا أمير المؤمنين قال من هو قالوا سعد ابن مالك وهو سعد بن أبي وقاص فانتهى الى قولهم فأرسل اليه وطلبه وأقره على حرب العراق وأوصاه بوصايا كثيرة وسرحه فيمن اجتمع اليه من نفر المسلمين وهم أربعة آلاف ثم أمده بالفين من أهل اليمن وألفين من أهل نجد وكان المثنى فى ثمانية آلاف وكان سعد بن أبي وقاص من بنى زهرة بن كلاب وهم رهط آمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم فهو سعد بن مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وآمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب فيلتقى نسبه مع آمنة فى عبد مناف بن زهرة ومع النبي صلى الله عليه وسلم فى كلاب بن مرة وكان سعد رضى الله عنه من السابقين فى الاسلام ومن العشرة المبشرين بالجنة ومن الشجعان المشهورين. وهو أول من أراق دما فى سبيل الله وأول من رمى بسهم فى سبيل الله وشاهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبلى يوم أحد بلاء عظيما وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض وشهد له بالجنة ودعا له ان الله يجيب دعوته فكان مجاب الدعوة ومناقبه كثيرة رضى الله عنه وبه فتح الله العراق ولما طعن عمر رضى الله عنه جعله من الستة أصحاب الشورى المستحقين للخلافة ومما أوصاه به عمر رضى الله عنه لما جعله أميرا على جيوش العراق أن قال لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله لا يمحو بالسيء السيء ولكنه يمحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب الا طاعته فالناس فى ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الامر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه ووصاه بالصبر وسار سعد والمثنى قبله وصار ينتظر قدومه فمات المثنى قبل

قدوم سعد من جراحات كانت به انتقضت عليه ولما وصل سعد رتب الجيوش ولم يزل عمر رضى الله عنه يمده بالرجال حتى استكمل عنده ستة وثلاثون ألفا وأوصى المثنى قبل موته أخاه المعنى بن حارثة أن يبلغ سعدا اذا قدم أن يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ولا يقاتلوهم فى قعر دارهم فان يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم وان كانت الأخرى رجعوا الى فئة ثم يكون أعلم بسبيلهم واجرأ على أرضهم الى أن يرد الله الكرة عليهم فلما بلغ سعدا ذلك ترحم على المثنى ومن معه وكان مع سعد تسعة وتسعون من أهل بدر وثلثمائة وبضعة عشر ممن كانت لهم صحبة فيما بين بيعة الرضوان الى ما فوق ذلك وثلاثمائة ممن شهدوا فتح مكة وسبعمائة من أبناء الصحابة وقدم على سعد كتاب عمر بمثل رأى المثنى روى الطبرانى أن عمر رضى الله عنه كتب الى سعد بن أبى وقاص قد وجهت اليك أو أمددتك بالفى رجل عمرو بن معدى كرب وطليحة بن خويلد فشاورهما فى الحرب ولا توليهما وانما قال ولا توليهما لما يعلم فيهما من شدة الاقدام بالعسكر وعدم التأنى وكان كل منهما يعد بألف فارس لشجاعتهما وشدتهما وسيأتى ذكر شئ مما كان منهما مما يدل على ذلك وكان ملك العرب عامل كسرى بالحيرة قبيصة بن اياس الطائى فلما سمع بمجىء سعد سأل عنه وعنده عبد الله بن سنان الاسدى فاخبره أن سعدا رجل من قريش فقال قبيصة والله لا حاديه القتال فان قريشا عبيد من غلب والله لايخرجون من بلادهم الا بخفين فغضب عبد الله بن سنان من قوله وأمهله حتى دخل قبته فقتله ولحق بسعد فاسلم وسار سعد بالجيوش حتى نزل القادسية وهى قريب من موضع الكوفة وكتب عمر بن الخطاب لسعد رضى الله عنهما انكم اذا لقيتم العدو وهزمتموهم فتى لاعب أحد منكم أحدا من العجم بامان أو باشارة أو بلسان كان عندهم أمانا فأجروا لهم ذلك مجرى الامان والوفاء فان الخطا بالوفاء بقية وان الخطا بالغدر هلكة فيها وهنكم وقوة عدوكم وكان سعد قد جعل على مقدمة جيشه زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية التميمى وهو صحابى وفد على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم فلما نزل زهرة فى المقدمة وأمسى بعث سرية

فى ثلاثين معروفين بالنجدة وأمرهم بالغارة على الحيرة فلما جاوزوا السليحين سمعوا جلبة فكثوا حتى حاذوهم واذا أخت ازادمرد بن ازادبه مرزبان الحيرة تزف الى صاحب الصنين وهو من أشراف العجم فحمل بكير بن عبد الله الليثى أمير السرية على شيرزاد بن ازادبه فدق صلبه وطارت الخيل على وجوهها وأخذوا الاثقال وآنية ازادبه فى ثلاثين أمراء من الدهاقين ومائة من التوابع ومعهم مالا يدرى قيمته فاستاق ذلك ورجع به وأتى به سعدا فقسم ذلك على المسلمين ومكث سعد بالقادسية شهرا لم يأته أحد من الفرس وخيله تغير بالاطراف وتأتى بغنائم كثيرة حتى أخصب المسلمون ووصف بعض من كان مع سعد قوم سعد الذين كانوا معه فى الجيش للحجاج بن يوسف بقوله ما رأينا قط أزهد فى دنيامنهم ولا أشد بغضا لها وكانوا أبرارا أتقياء ليس فيهم جبان ولا غدار فاستغاث أهل السواد الى يزدجرد وأعلموه أن العرب قد نزلوا القادسية ولا يبقى على فعلهم شئ وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات ونهبوا الدواب والاطعمة وان أبطأ الغياث أعطيناهم بأيدينا وكتب له بذلك الذى لهم الضياع وهيجوه على ارسال الجنود فأرسل يزدجرد الى رستم وقال له انى أريد ان أوجهك فى هذا الوجه فأنت رجل فارس اليوم وقد ترى ما حل بالفرس مما لم يأتهم مثله فأظهر له الاجابة ثم قال له دعنى فان العرب لا تزال تهاب العجم مالم تضربهم بى ولعل الدولة ان تثبت بى اذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة والرأى فى الحرب أنفع من بعض الظفر والاناة خير من العجلة وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا فأبى عليه وأعاد رستم كلامه وقال قد اضطر تضييع الرأى الى اعظام نفسى وتزكيتها ولو أجد من ذلك بدا لم أتكلم به فأنشدك الله فى نفسك وملكك ودعنى أقم بعسكرى وأسرح الجالينوس فان تكن لنا فذلك والا بعثنا غيره حتى اذا لم نجد بدا صبرنا لهم وقد وهناهم ونحن حامون فانى لا أزال مرجوا فى أهل فارس مالم أهزم فأبى الا أن يسير فخرج حتى ضرب عسكره بساباط وعلى مقدمته الجالينوس فى أربعين ألفا وخرج هو فى ستين ألفا

وفى ساقته عشرون ألفا وجاءت الاخبار الى سعد بذلك فكتب الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر لا يكربنك ما يأتيك عنهم واستعن بالله وتوكل عليه وابعث اليه رجالا من أهل المناظرة والرأى والجلد يدعونه الى الله فان الله جاعل دعاءهم توهينا لهم فأرسل سعد نفرا ممن هم كذلك وأمرهم أن يأتوا يزدجرد فخرجوا من العسكر وتركوا رستم واستأذنوا على يزدجرد فأذن لهم فدخلوا وقد أحضر وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع ويقوله لهم واجتمع الناس ينظرون اليهم وتحتهم خيول كلها اصهال وعليهم البرود وبأيديهم السياط وأحضر الترجمان وقال سلهم ما جاء بكم وما دعاكم الى غزونا والولوع ببلادنا من أجل اننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فقال النعمان بن مقرن لاصحابه ان شئتم تكلمت عنكم ومن شاء آثرته فقالوا بل تكلم فقال ان الله رحمنا فأرسل الينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على اجابته خيرى الدنيا والآخرة فلم يدع قبيلة الا وقاربه منها فرقة وتباعد عنه منها فرقة ثم أمر ان نبتدىء الى من خالفه من العرب فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط وطامع فازداد فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ثم أمرنا أن نبتدىء بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزية فان أبيتم فالمناجزة فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا على ان تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وان بذلتم الجزية قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم فتكلم يزدجرد وقال انى لا أعلم أمة فى الارض كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفونا أمركم ولا تطمعوا أن تقدموا لفارس فان كان غرر لحقكم فلا يغرنكم منا وان كان الجهد فرضنا لكم قوتا الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فقام المغيرة بن زرارة الاسدى وقال أيها الملك ان هؤلاء رؤس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الاشراف وانما يكرم

الاشراف ويعظم حقهم الاشراف وليس كل ما أرسلوا به قالوه ولا كل ما تكلمت به أجابوك عنه فجاوبني لأكون الذي أبلغك وهم يشهدون على ذلك فأما ما ذكرت من سوء الحال فهي على ما وصفت وأشد ثم ذكر من سوء عيش العرب وارسال الله النبي صلى الله عليه وسلم اليهم نحو قول النعمان وقتال من خالفهم أو الجزية ثم قال له اختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وان شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك فقال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي ثم استدعى بوقر من تراب فقال احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ثم قال لرسل سعد ارجعوا الى صاحبكم فأعلموه انى مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور فقام عاصم بن عمرو الكناني الليثي ليأخذ التراب وقال أنا أشرفهم أنا سيد هؤلاء فحمله على عنقه وخرج الى راحلته فأخذ التراب وركبها وقال لسعد لما جاءه ابشر لقد أعطانا الله مقاليد ملكهم واشتد ذلك على جلساء الملك وقال الملك لرستم ما كنت أرى أن في العرب مثل هؤلاء ما أنتم بأحسن جوابا منهم ولقد صدقني القوم لقد وعدوا أمرا ليدركنه أو ليموتن عليه على أني وجدت أفضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه فقال رستم أيها الملك انه أعقلهم وتطير الى ذلك وأبصرها دون أصحابه وخرج رستم من عند الملك غضبان كئيبا وبعث في أثر الوفد وقال لثقته ان أدركهم الرسول تلافينا أرضنا وان أعجزوه سلبكم الله أرضكم فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم فقال ذهب القوم بأرضكم من غير مثال وكان منجما كاهنا وأغار سواد بن مالك التميمي بعد مسير الوفد الى يزدجرد على النجاف والفراض فاستاق ثلاثمائة دابة من بين بغل وحمار وثور وأوقروها سمكا وصبح العسكر فقسمه سعد بين الناس ويسمون ذلك اليوم يوم الحيتان وبعث سعد سرية أخرى فأصابوا إبلا لبني تغلب والنمر واستاقوها ومن فيها فنحر سعد الابل وقسمها في الناس فأخصبوا وغار عمرو بن الحارث على النهرين فاستاق مواشي كثيرة وعاد وسار رستم من ساباط وجمع

آلة الحرب وقال رستم للملك يشجعه بذلك ان فتح الله علينا توجهنا الى ملكهم فى دارهم حتى نشغلهم فى أهلهم و بلادهم الى أن يقبلوا المال ولما فصل رستم عن ساباط كتب الى أخيه البنذوان أما بعد فرموا حصونكم وأعدوا واستعدوا فكأنكم بالعرب قد قارعوكم عن أرضكم وأبنائكم وقد كان من رأبي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوسا فان السمكة قد كدرت الماء وان النعام حسنت والزهرة قد حسنت واعتدل الميزان وذهب بهرام ولا أرى هؤلاء القوم الا سيظهرون علينا و يستولون على مايلينا وان أشد ما رأيت ان الملك قال لتسيرن أو لأسيرن بنفسى ولقى جابان رستم على قنطرة ساباط وكانا منجمين فشكا اليه وقال له ألا ترى ما أرى فقال له رستم أما أنا فأقاد بخشاش وزمام ولا أجد بدا من الانقياد ثم سار فنزل بكوثى فاتى برجل من العرب فقال ماجاء بكم وماذا تطلبون فقال جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم ان أبيتم أن تسلموا قال رستم فان قتلتم قبل ذلك قال من قتل منا دخل الجنة ومن بقى منا أنجزه الله ما وعده فنحن على يقين فقال رستم قد وضعنا اذن فى أيديكم فقال أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك من ترى حولك فانك لست تحاول الانس وانما تحاول القدر فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس فغصب أصحابه الناس أبناءهم وأموالهم ووقعوا على النساء وشربوا الخمور فضج أهلها الى رستم فقال يامعشر فارس والله لقد صدق العربى والله ما أسلمنا الا أعمالنا والله ان العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرة منكم ان الله كان ينصركم على العدو و يمكن لكم فى البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والاحسان فاذا تغيرتم فلا أرى الله الا مغيرا ما بكم وما أنا بآمن من أن ينزع الله سلطانه منكم وأتى ببعض من يشكى منه فضرب عنقه ثم سار حتى نزل الحيرة ودعا أهلها وتهددهم وهم بهم فقال له ابن بقيلة لا تجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا ولما نزل رستم بالنجف رأى فى منامه كأن ملكا نزل من السماء ومعه النبى صلى الله عليه وسلم وعمر فأخذ الملك سلاح أهل فارس فختمه ثم دفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم فدفعه النبى صلى

الله عليه وسلم الى عمر فأصبح رستم حزيناً وأرسل سعد السرايا ورستم بالنجف والجالينوس بين النجف والسليحين فطافت في السواد فبعث سواداً وحميضة في مائة فأغاروا على النهرين وبلغ رستم الخبر فأرسل اليهم رستم خيلاً وسمع سعد أن خيله قد وغلت فأرسل عاصم بن عمرو وجابراً الاسدي في آثارهم فلقيهم عاصم وخيل فارس تحوشهم ليخلصوا ما بأيديهم فلما رأته الفرس هربوا ورجع المسلمون بالغنائم وأرسل سعد عمرو بن معدي كرب وطليحة الاسدي طليعة فساروا في عشرة فلم يسيروا الا فرسخا وبعض آخر حتى رأوا مسالحهم وسرحهم على الطفوف قد ملؤوها فرجع عمرو ومن معه وأبى طليحة الا التقدم فقالوا له أنت رجل في نفسك غدر ولن تفلح بعد قتل عكاشة بن محصن فارجع معنا فأبى فرجعوا الى سعد فأخبروه بقرب القوم ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه ويتوسم فهتك أطناب بيت رجل عليه واقتاد فرسه ثم هتك على آخر بيته وحل فرسه ثم فعل بآخر كذلك ثم خرج يعدو به فرسه ونذر به الناس فركبوا في طلبه فأصبح وقد لحقه فارس من الجند فقتله طليحة ثم آخر فقتله ثم لحق به ثالث فرأى مصرع صاحبيه وهما ابنا عمه فازداد فلحق طليحة فكر عليه طليحة وأسره ولحق الناس فرأوا فارسي الجند قد قتلا وأسر الثالث وقد شارف طليحة عسكره فأحجموا عنه ودخل طليحة على سعد ومعه الفارسي وأخبره الخبر فسال الترجمان الفارسي عن ذلك فطلب الامان فأمنه سعد فقال أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قبلي باشرت الحروب منذ أنا غلام الى الآن وسمعت بالابطال ولم أسمع بمثل هذا ان رجلا قطع فرسخين الى عسكر فيه سبعون ألفا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوت فلما أدركناه قتل الاول وهو يعد بألف فارس ثم الثاني وهو نظيره ثم أدركته أنا وخلفت من بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين فرأيت الموت واستؤسرت ثم أخبره عن الفرس وأسلم ولزم طليحة وكان من أهل البلاء بالقادسية وسماه سعد مسلما ثم سار رستم وقدم الجالينوس

وبهمن ذو الحاجب فنزل الجالينوس بحيار زهرة بن الحوية ونزل ذو الحاجب بطرناباذ ونزل رستم بالجزارة ثم سار رستم فنزل بالقادسية وكان بين مسيره من المدائن ووصوله القادسية أربعة أشهر لا يقدم لأجل أن يطاول المسلمين رجاء أن يضجروا بمكانهم فينصرفوا وكان قصده أن يطاولهم أكثر من ذلك لولا أن الملك يستعجله وينهضه وكان عمر قد كتب الى سعد يأمره بالصبر والمطاولة أيضا فاستعد للمطاولة ولم يتضرر بها وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا منها فيل سابور الابيض وكانت الفيلة تألفه فجعل فى القلب ثمانية عشر فيلا وفى المجنبتين خمسة عشر فيلا فلما أصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ثم صعد حتى انتهى الى القنطرة فتأمل المسلمين ووقف على موضع يشرف منه عليهم ووقف على القنطرة وأرسل الى زهرة فوافقه فأداره على أن يصالحه ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه من غير أن يصرح له بذلك بل يقول له كنتم جيراننا وكنا نحسن اليكم ونحفظكم ويخبره عن صنيعهم مع العرب فقال له زهرة ليس أمرنا أمر أولئك انا لم نأتكم لطلب الدنيا انما طلبتنا وهمتنا الآخرة وقد كنا كما ذكرت الى أن بعث الله فينا رسولا فدعانا الى ربه فأجبناه فقال الله لرسوله انى سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى فأنا منتقم بهم منهم وأجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد الا ذل ولا يعتصم به أحد الا عز فقال له رستم ما هو قال أما عموده الذى لا يصلح الا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قال وأى شئ أيضا قال واخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله والناس بنو آدم وحواء اخوة لأب وأم قال ما أحسن هذا ثم قال رستم أرأيت ان أجبت الى هذا ومعى قومى كيف يكون أمركم أترجعون قال أى والله قال صدقتنى أما ان أهل فارس منذ ولى ازدشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة وكانوا يقولون اذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم فقال زهرة نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كما تقولون بل نطيع الله فى السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا فانصرف عنه ودعا رجال فارس

فدا كرهم هذا فأنفوا فأرسل الى سعد أن ابعث الينا رجلا نكلمه و يكلمنا فدعا سعد جماعة ليرسلهم فقال له ربعى بن عامر متى نأتهم جميعا يروا انا قد احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل فأرسله وحده فسار اليهم فحبسوه على القنطرة وأعلم رستم بمجيئه فأظهر زينته وجلس على سرير من ذهب و بسط البسط والنمارق والوسائد المنسوجة بالذهب وأقبل ربعى على فرسه وسيفه فى خرقة ورمحه مشدود بعصب وقد فلما انتهى الى البسط قيل له انزل فحمل فرسه عليها ونزل وربطها بوسادتين شقهما وأدخل الحبل فيهما فلم ينهوه وأروه التهاون وعليه درع وأخذ عباءة بعيره فتدرعها وشدها على وسطه فقالوا ضع سلاحك فقال لم آتكم لأضع سلاحى بأمركم أنتم دعوتمونى فأخبروا رستم فقال ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه و يقارب خطوه فلم يدع لهم نمرقا ولا بساطا الا أفسده وهتكه برمحه فلما دنا من رستم جلس على الارض وركز رمحه على البسط فقيل له ما حملك على هذا قال انا لا نستحب القعود على زينتكم فقال له ترجمان رستم ما جاء بكم قال الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الاسلام فأرسلنا بدينه الى خلقه من قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا ومن أبى قتلناه حتى نفضى الى الجنة أو الظفر فقال رستم قد سمعنا قولكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الامر حتى ننظر فيه قال نعم وان مما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نمكن الاعداء أكثر من ثلاث فنحن مترددون عنكم ثلاثا فانظر فى أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الاجل اما الاسلام وندعك وأرضك أو الجزية فنقبل ونكف عنك وان احتجت الينا نصرناك أو المنابذة فى اليوم الرابع الا أن تبدأنا أنا كفيل بذلك عن أصحابى قال أسيدهم أنت قال لا لكن المسلمون كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجيز أدناهم على أعلاهم فخلا رستم برؤساء قومه فقال هل رأيتم كلاما قط أعز وأوضح من كلام هذا الرجل فقالوا معاذ الله أن نميل الى دين هذا الكلب أما ترى الى ثيابه فقال ويحكم لا تنظروا الى ثيابه ولكن انظروا الى الرأى والكلام والسيرة ان العرب تستخف

باللباس وتصون الاحساب ليسوا مثلكم فلما كان من الغد أرسل رستم الى سعد ابعث الينا ذلك الرجل فبعث اليهم حذيفة بن محصن فأقبل فى نحو من ذلك الزى ولم ينزل عن فرسه ووقف على رستم راكبا قال له انزل قال لا أفعل فقال له ماجاء بك ولم يجئ الاول قال له ان أميرنا يحب أن يعدل بيننا فى الشدة والرخاء وهذه نوبتى فقال ماجاء بكم فأجابه مثل الاول فقال رستم المواعدة الى يوم ماقال نعم ثلاثا من أمس فرده وأقبل على أصحابه وقال ويحكم أماترون ماأرى جاءنا الاول بالامس فغلبنا على أرضنا وحقر مانعظم وأقام فرسه على زبرجنا وجاء هذا اليوم فوقف علينا وهو فى يمن الطائر يقوم على أرضنا دوننا فلما كان الغد أرسل الى سعد ابعث الينا رجلا فبعث المغيرة بن شعبة فأقبل اليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة لا يوصل الى صاحبهم حتى يمشى عليها فأقبل المغيرة حتى جلس موضع رستم على سريره فوثبوا عليه وأنزلوه ومعكوه فقال قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أرى قوما أسفه منكم انا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضا فظننت انكم تواسون قومكم كما نتواسى فكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض فان هذا الامر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد وانى لم آتكم ولكن دعوتمونى اليوم علمت أنكم مغلوبون وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقالت السفلة صدق والله العربى وقالت الدهاقين والله لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله أولينا حيث كانوا يصغرون أمر هذه الامة ثم تكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وقال لم نزل متمكنين فى البلاد ظاهرين على الاعداء أشرافا فى الامم فليس لاحد مثل عزنا وسلطاننا ننصر عليهم ولا ينصرون علينا الا اليوم واليومين والشهر للذنوب فاذا انتقم الله منا ورضى علينا رد لنا الكرة على عدونا ولم يكن فى الامم أمة أصغر عندنا أمرا منكم كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة لا نراكم شيأ وكنتم تقصدوننا اذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشئ من التمر والشعير ثم نردكم وقد علمت انه لم يحملكم على ماصنعتم الا الجهد فى بلادكم فأنا آمر لاميركم بكسوة وبغل وألف درهم وآمر

لكل واحد منكم بوقر تمر وتنصرفون عنا فانى لست أشتهى ان اقتلكم فتكلم المغيرة فحمد الله وأثنى عليه وقال ان الله خالق كل شيء ورازقه فمن صنع شيأ فانما هو يصنعه وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك فنحن نعرفه فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم وأما الذى ذكرت فينا من سوء الحال والضيق والاختلاف فنحن نعرفه ولسنا ننكره والله ابتلانا به والدنيا دول ولم يزل أهل الشدائد يتوقعون الرخاء حتى يصيروا اليه ولم يزل أهل الرخاء يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر الى تغير الحال ولو كنا فيما ابتلينا به أهلا لكان عظيم ما ابتلينا به مستجلبا من الله رحمة ورأفة علينا ان الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولا ثم ذكر مثل ما تقدم من ذكر الاسلام والجزية والقتال وقال له وان عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم فقالوا لا صبر لنا عنه فقال رستم اذن تموتون دونها فقال المغيرة يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ويظفر من بقى منا بمن بقى منكم فاستشاط رستم غضبا ثم حلف أن لا يرتفع الصبح غدا حتى نقتلكم أجمعين وانصرف المغيرة وخلا رستم بأهل فارس وقال أين هؤلاء منكم هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين والله لئن كان بلغ من عقلهم وصونهم لسرهم أن لا يختلفوا فما قوم أبلغ لما أرادوا منهم ولئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء فلجوا وتجلدوا فأرسل رستم رسوله خلف المغيرة وقال له اذا قطع القنطرة فأعلمه أن عينه تفقأ غدا فأعلمه الرسول بذلك فقال المغيرة بشرتنى بخير وأجر ولولا أن أجاهد بعد هذا اليوم أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الاخرى ذهبت فرجع الى رستم فأخبره فقال أطيعونى يا أهل فارس انى لأرى فيكم نقمة لا تستطيعون ردها ثم أرسل اليه سعد بقية ذوى الرأى فساروا وكانوا ثلاثة فقالوا لرستم ان أميرنا يدعوك الى ما هو خير لنا ولك والعافية أن تقبل ما دعاك اليه ونرجع الى أرضنا وترجع الى أرضك وداركم لكم وأمركم فيكم وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا وكنا عونا لكم على أحد ان أرادكم فاتق الله ولا يكونن هلاك قومك على يديك وليس بينك وبين أن تغبط

بهذا الامر ألا أن تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك فقال لهم ان الامثال أوضح من كثير من الكلام انكم كنتم أهل جهد وقشف لا تنتصفون ولا تمتنعون فلم نسيء جواركم وكنا نميركم ونحسن اليكم فلما طعمتم طعامنا وشربتم شرابنا وصفتم لقومكم ذلك ووعدتموهم ثم أتيتمونا وانما مثلكم ومثلنا كمثل رجل كان له كرم فرأى فيه ثعلبا فقال وما ثعلب فانطلق الثعلب فدعا الثعالب الى ذلك الكرم فلما اجتمعوا اليه سد صاحب الكرم النقب الذى كن يدخلن منه فقتلهن فقد علمت أن الذى حملكم على هذا الحرص والجهاد فارجعوا ونحن نميركم لانى لا أشتهى أن أقتلكم ومثلكم أيضا كالذباب يرى العسل فيقول من يوصلنى اليه وله درهمان فاذا دخل غرق ونشب فيقول من يخرجنى وله أربعة دراهم وقال أيضا ان رجلا وضع سلة وجعل طعامه فيها فأتى الجرذان فخرقوا السلة فدخلوا فيها فأراد سدها فقالوا له لا تفعل اذن تخرقه ولكن انقب بحياله ثم اجعل قصبة مجوفة فاذا دخلها الجرذان وخرجن منها فاقتل كل ما خرج منها وقد سددت عليهم أن يقتحموا القصبة ولا يخرج منها أحد الا قتل فادعاكم الى ما صنعتم ولا أرى عددا ولا عدة قال فتكلم القوم وذكروا سوء حالهم وما من الله به عليهم من إرسال رسوله واختلافهم أولا ثم اجتماعهم على الاسلام وما أمرهم به من الجهاد قالوا وأما ما ضربت لنا من الامثال فليس كذلك ولكن انما مثلكم كمثل رجل غرس أرضا واختار لها أشجارا وأجرى اليها الانهار وزينها بالقصور وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ويقومون على جناتها فخلا الفلاحون فى القصور على ما لا يحب فأطال امهالهم فلم يستحيوا فدعا اليها غيرهم وأخرجهم منها فان ذهبوا عنها تخطفهم الناس وان أقاموا فيها صاروا خولا لهؤلاء فيسومونهم الخسف أبدا والله لو لم يكن ما نقول حقا ولم يكن الا الدنيا لما صبرنا عن الذى نحن فيه من لذيذ عيشكم ورأينا من زبرجكم ولقارعناكم عليه فقال رستم أتعبرون الينا أم نعبر اليكم فقالوا اعبروا الينا ورجعوا من عنده عشيا وأرسل سعد الى الناس أن يقفوا مواقفهم وأرسل اليهم شأنكم والعبور فأرادوا القنطرة فقال لا ولا كرامة

أماشيء غلبنا كم عليه فلا نرده عليكم فباتوا يسكرون (أي يسدون) العتيق حتى الصباح بالتراب والقصب والبرادع حتى جعلوه طريقا واستتم بعدما ارتفع النهار ورأى رستم من الليل كأن ملكا نزل من السماء فأخذ قسي أصحابه فختم عليها ثم صعد بها الى السماء فاستيقظ مهموما واستدعى خاصيته فقصها عليهم وقال ان الله ليعظنا لو اتعظنا ولما ركب رستم ليعبر كان عليه درعان ومغفر وأخذ سلاحه ووثب فاذا هو على فرسه ولم يضع رجله في الركاب وقال غدا ندقهم دقا فقال له رجل ان شاء الله فقال وان لم يشأ ثم قال انما صفا للثعلب حين مات الاسد يعني كسرى واني أخشى أن تكون هذه سنة القرود وانما قال هذه الاشياء توهينا للمسلمين عند الفرس والا فالمشهور عنه الخوف من المسلمين وقد أظهر ذلك الى من يثق به

﴿ ذكر يوم ارماث ﴾

لما عبر الفرس العتيق (اسم للماء مطلقا ويسمى به نهر هناك) وجلس رستم على سريره وضرب عليه طياره وعبى في القلب ثمانية عشر فيلا عليها صناديق ورجال وفي المجنبتين ثمانية وسبعة أفيال وأقام الجالينوس بينه وبين ميمنته والفيرزان بينه وبين ميسرته وكان الملك يزدجرد قد وضع بينه وبين رستم رجالا على كل دعوة (أي وظيفة) رجلا أولهم على باب إيوانه وآخرهم مع رستم فكل مافعل رستم شيأ قال الذي معه للذي يليه كان كذا وكذا ثم يقول الثاني ذلك للذي يليه وهكذا الى أن ينتهي الى يزدجرد في أسرع وقت وأخذ المسلمون مصافهم وكان أميرهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أصابه دماميل وعرق النسا فلا يستطيع الجلوس انما هو مكب على وجهه في صدره وسادة على سطح القصر يشرف على الناس والصف في أصل حائطه ولو تعداه الصف فواق ناقة لاخذ برمته وما نقص ذلك من شجاعة سعد رضي الله عنه وعابه بعض من كان يبغضه فقال

نقاتل حتى أنزل الله نصره ❊ وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ❊ ونسوة سعد ليس فيهن أيم

فبلغت أبياته سعدا وكان مجاب الدعوة فقال اللهم ان كان هذا كاذبا وقال الذي

قاله رياء وسمعة فقطع عنى لسانه فبينما هو واقف فى الصف يومئذ أتاه سهم غرب فأصابه فكان سبب الاعتقال لسانه فما تكلم بكلمة حتى لحق بالله تعالى ونزل سعد الى الناس فاعتذر اليهم وأراهم ما به من القروح فى فخذيه واليتيه فعذره الناس وعلموا حاله ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفطة على الناس فاختلف عليه فأخذ نفرا ممن شغب عليه فحبسهم فى القصر منهم أبو محجن الثقفى وقيدهم وقيل بل كان حبس أبى محجن بسبب شرب الخمر وأعلم الناس انه قد استخلف خالد ابن عرفطة فسمعوا وأطاعوا وخطب الناس يومئذ وهو يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة وحثهم على الجهاد وذكرهم ما وعدهم الله من فتح البلاد وما نال من كان قبلهم من المسلمين من الفرس وكذلك فعل أمير كل قوم وأرسل سعد نفرا من ذوى الرأى والنجدة منهم المغيرة وحذيفة وعاصم وطليحة وقيس الاسدى وغالب وعمرو بن معدى كرب وأمثالهم ومن الشعراء الشماخ والحطيئة وأوس بن مغراء وعبيدة بن الطيب وغيرهم وأمرهم بتحريض الناس على القتال ففعلوا وكان صف المسلمين مع حائط قديس والخندق فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق وقد تقدم ان جيش رستم كان مائة وعشرين ألفا وجيش المسلمين كان بضعة وثلاثين ألفا وكان مع الفرس ثلاثون ألف مسلسل وأمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد وهى الانفال فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها فلما فرغ القراء منها قال سعد الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر فاذا صليتم فانى مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا فاذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم فاذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا لا حول ولا قوة الا بالله فلما كبر سعد الثانية برز أهل النجدات فأنشبوا القتال وخرج اليهم من الفرس أمثالهم فاعتوروا الطعن والضرب وبرز غالب بن عبد الله الاسدى وأنشد أبياتا فخرج اليه هرمز وكان من ملوك الباب وكان متوجا فأسره غالب فجاء به سعدا ورجع وبرز عاصم بن عمرو التميمى وطارد فارسا فانهزم فتبعه عاصم

حتى خالط صفهم فحموه فأسر عاصم رجلا على بغل وعاد به واذا هو خباز الملك ومعه من طعام الملك وخبيصه فأتى به سعد فنفله أهل موقفه وخرج فارس فطلب البراز فبرز اليه عمرو بن معدى كرب فأخذه وجلد به الارض فذبحه وأخذ سوار به ومنطقته وحملت الفيلة على المسلمين ففرقت بين الكتائب فنفرت الخيل وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلا فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها عنها وعمن معها وأرسل سعد الى بنى أسد أن دافعوا عن بجيلة وعمن معها من الناس فخرج طليحة بن خويلد وحمال بن مالك فى كتائبهما فباشروا الفيلة وخرج الى طليحة فيل عظيم منهم فقتله طليحة وقام الاشعث بن قيس فى كندة فقال معشر كندة لله در بنى أسد أى فريفرون وأى هز يهزون عن مواقفهم أغنى كل قوم ما يليهم وأنتم تنتظرون من يكفيكم أشهد ما أحسنتم اسوة قومكم من العرب فنهضوا ونهض معه فأزالوا الذين بازائهم فلما رأى الفرس ما يلقى الناس والفيلة من أسد رموهم بجدهم وحملوا عليهم وفيهم ذو الحاجب والجالينوس والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد فاجتمعت جلبة فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة فثبتوا لهم وكبر سعد الرابعة وزحف اليهم المسلمون ورحا الحرب تدور على أسد وحملت الفيلة على الميمنة والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها فأرسل سعد الى عاصم ابن عمرو التميمى فقال يامعشر بنى تميم أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة قالوا بلى والله ثم نادى فى رجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة فقال يامعشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وقال يامعشر الثقافة استدبروا الفيلة فقطعوا وضنها (الوضين ما يربط به القتب) وخرج يحميهم ورحا الحرب تدور على أسد وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذناب توابيتها فقطعوا وضنها وارتفع عواؤهم فابقى لهم فيل الاعوى وقتل أصحابها ونفس عن أسد وردوا فارسا عنهم الى مواقفهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل ثم رجع هؤلاء وهؤلاء وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة وكانوا ردأ

للناس وكان عاصم حامية للناس وهذا اليوم الاول وهو يوم ارماث

﴿ ذكر يوم اغواث ﴾

ولما أصبح القوم وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم فسلم الجرحى الى النساء ليقمن عليهم وأما القتلى فدفنوا هنالك على شرف وهو واد بين العذيب وعين الشمس فلما نقل سعد القتلى والجرحى طلعت نواصي الخيل من الشام وكان فتح دمشق قبل القادسية فلما قدم كتاب عمر على أبي عبيدة بن الجراح بارسال أهل العراق سيرهم والامير عليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وكان من الشجعان المشهورين وكان له صحبة أسلم عام الفتح رضي الله عنه وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي وله صحبة روى عنه انه قال شهدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعجل القعقاع فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم اغواث وقد عهد الى أصحابه أن يتقطعوا اعشارا وهم ألف كل مابلغ عشرة مدى البصر سرحوا عشرة تقدم أصحابه في عشرة فأتى الناس فسلم عليهم وبشرهم بالجنود وحرضهم على القتال وقال اصنعوا كما أصنع وطلب البراز فقالوا فيه (أي القعقاع) يقول أبو بكر رضي الله عنه لا يهزم جيش فيهم مثل هذا فخرج اليه ذو الحاجب فعرفه القعقاع فنادى يالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر وتضاربا فقتله القعقاع وجعلت خيله ترد الى الليل وتنشط الناس وكأن لم يكن بالامس مصيبة وفرحوا بقتل ذي الحاجب وانكسرت الاعاجم بذلك وطلب القعقاع البراز فخرج اليه الفيرزان والبندوان فانضم الى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث أحد بني تيم اللات فتبارزوا فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحارث البندوان ونادى القعقاع يامعشر المسلمين باشروهم بالسيوف فانما يحصد الناس بها فاقتتلوا حتى المساء فلم ير أهل فارس في هذا اليوم مايعجبهم وأكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل لان توابيتها كانت قد تكسرت بالامس فاستأنفوا عملها فلم يفرغوا منها حتى كان الغد وكان القعقاع كلما طلعت قطعة من أصحابه كبر وكبر المسلمون ويحمل ويحملون وحمل بنو عم القعقاع عشرة عشرة على إبل

قد ألبسوها وهي مجللة مبرقعة وأطافت بهم خيولهم تحميهم وأمرهم القعقاع أن يحملوها على خيل الفرس يتشبهون بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم اغواث كما فعلت فارس يوم ارماث فجعلت خيل الفرس تفر منها وركبتها خيول المسلمين فلما رأى الناس ذلك سروا بهم فلقي الفرس من الابل أعظم مالقي المسلمون من الفيلة وحمل رجل من تميم على رستم يريد قتله فقتل دونه وخرج رجل من فارس يبارز فبرز اليه الأعرف بن الأعلم العقيلي فقتله ثم برز اليه آخر فقتله وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه وأخذوه بسلاحه فغبر في وجوههم التراب حتى رجع الى أصحابه وحمل القعقاع يومئذ ثلاثين حملة كلما طلعت قطعة حملت حملة وأصاب فيها وقتل فكان آخرهم بزرجمهر الهمداني وبارز الأسود بن قطبة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه وقاتلت الفرسان الى نصف النهار فلما اعتدل النهار تزاحف الناس فاقتتلوا حتى انتصف الليل فكانت ليلة أرماث تدعى الهدأة وليلة اغواث تدعى السواد ولم يزل المسلمون يرون يوم اغواث الظفر وقتلوا عامة اعلامهم وجالت فيه خيل القلب وثبت رجلهم فلولا أن خيلهم عادت أخذ رستم أخذا وبات الناس على مابات عليه القوم ليلة أرماث وقد ذكرنا أن أبا محجن الثقفي كان قد حبس بالقصر وقيد فلما كان يوم اغواث قال لسلمى زوج سعد بن أبي وقاص هل لك أن تخلين عني وتعيريني البلقاء وهي فرس سعد فلله علي ان سلمني الله أن أرجع اليك حتى أضع رجلي في قيدي فأبت فلم يزل بها حتى رضيت أن تطلقه فأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد فركبها وخرج للقتال ولم يعلم به أحد فلما كان بحيال الميمنة كبر ثم حمل على ميسرة الفرس ثم رجع خلف المسلمين وحمل على ميمنة الفرس فكان يقصف الناس قصفا منكرا وتعجب الناس منه وهم لايعرفون من هو فقال بعضهم هو من بعض أصحاب هاشم أوهاشم بنفسه وكان سعد يقول لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء وقال بعض الناس هذا الخضر وقال بعضهم لولا أن الملائكة لاتباشر الحرب لقلنا انه ملك فلما انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال

أقبل أبو محجن فدخل القصر وأعاد رجليه فى القيد فقالت له سلمى فى أى شئ حبسك سعد فقال والله ما حبسنى بحرام أكلته ولا شربته ولكننى كنت صاحب شراب فى الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى فقلت

إذا مت فادفنى الى أصل كرمة * تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى فى الفلاة فاننى * أخاف اذا مامت أن لا أذوقها

فلذلك حبسنى فلما أصبحت سلمى أتت سعدا فصالحته وكانت مغاضبة له وأخبرته بخبر أبى محجن فأطلقه فقال اذهب فما أنا مؤاخذك بشئ تقوله حتى تفعله فقال لاجرم لا أجيب لسانى الى قبيح أبدا وكان عدد قتلى المسلمين وجرحاهم يوم أغواث ألفين من جريح وميت ومن المشركين عشرة آلاف فجعل المسلمون ينقلون قتلاهم الى المقابر والجرحى الى النساء وكان النساء والصبيان يحفرون القبور وكان على الشهداء حاجب بن زيد وأما قتلى المشركين فبين الصفين وكان ذلك مما يقوى المسلمين وبات القعقاع تلك الليلة يسرب أصحابه الى المكان الذى فارقهم فيه وقال اذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فان جاء هاشم فذاك والا جدد تم للناس رجاء وجدا لا يشعر به أحد وأصبح الناس على مواقفهم فلما ذر قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فعبى أصحابه وكان المشركون قد باتوا يعملون توابيت الفيلة حتى أعادوها وأصبحوا على مواقفهم وأقبلت الرجالة مع الفيلة يحمونها أن تقطع وضنها ومع الرجالة فرسان يحمونهم فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالامس لان الفيل اذا كان وحده كان أوحش واذا أطافوا به كان أونس فلما انتشب القتال كبر المسلمون وتقدموا وكثر الطعن والضرب وأقبل هاشم والحرب قائم فعبى أصحابه سبعين سبعين وحمل حتى خالط القلب واشتد القتال وحمل عمرو بن معدى كرب وضرب فى الفرس حتى ستره الغبار وحمل أصحابه فأفرج المشركون عنه بعد ما صرعوه وان سيفه لفى يده يصادمهم وقد طعن فرسه فأخذ برجل فرس أعجمى فلم يطق الجرى فنزل عنه صاحبه وفر الى أصحابه وركبه عمرو وبرز فارس فبرز اليه رجل من المسلمين يقال له بشر بن علقمة وكان قصيرا فترجل الفارس

اليه فاحتمله وجلس على صدره ثم أخذ سيفه ليذبحه ومقود فرسه مشدود في منطقته فلما سل سيفه نفر الفرس فجذبه المقود فقلبه عنه وتبعه المسلم فقتله وأخذ سلبه فباعه باثني عشر ألفا فلما رأى سعد الفيول قد فرقت بين الكتائب وعادت لفعلها أرسل الى القعقاع وعاصم بن عمرو اكفياني الابيض وكانت كلها آلفة له وكان بازائهما وقال لحمال والربيل اكفياني الاجرب وكان بازائهما فأخذ القعقاع وعاصم رمحين وتقدما في خيل ورجل وفعل حمال والربيل مثل فعلهما فحمل القعقاع وعاصم فوضعا رمحيهما في عين الفيل الابيض فنفض رأسه فطرح سائسه ودلى مشفره فضرب به القعقاع فرمى به ووقع لجنبه وقتلوا من كان عليه وحمل حمال والربيل الاسديان على الفيل الآخر فطعنه حمال في عينه فأقعى ثم استوى وضربه الربيل فأبان مشفره وبصر به سائسه فبقر أنف الربيل وجبينه بالطبرزين فأفلت الربيل جريحا وبقي الفيل جريحا متحيرا بين الصفين كلما جاء صف المسلمين وخزوه واذا أتى صف المشركين نخسوه وولى الفيل وكان يدعى الاجرب وقد عور حمال عينه فالقى نفسه في العتيق فاتبعته الفيلة فخرقت صف الاعاجم فعبرت في أثره فأتت المدائن في توابيتها وهلك من فيها فلما ذهبت الفيلة وخلص المسلمون والفرس ومال الظل وتزاحف المسلمون فاجتلدوا حتى أمسوا فاشتد القتال وصبر الفريقان وجاء الليل وكانت تسمى تلك الليلة ليلة الهرير لتركهم الكلام وانما كانوا يهرون هريرا وأرسل سعد طليحة الاسدي وعمرو بن معدي كرب ليلة الهرير الى مخاضة أسفل العسكر ليقوموا عليها حرسا خشية أن يأتي القوم منها فلما أتياها قال طليحة لو خضنا وأتينا الاعاجم من خلفهم قال عمرو بل نعبر أسفل فافترقا وأخذ طليحة وراء العسكر وكبر ثلاث تكبيرات ثم ذهب وقد ارتاع أهل فارس وتعجب المسلمون وطلبه الاعاجم فلم يدركوه وأما عمرو فانه أغار أسفل المخاضة ورجع وخرج جماعة من فرسان المسلمين وطاردوا جماعة من الفرس فاذا هم لايشدون ولا يريدون غير الزحف فقدم المسلمون صفوفهم وزاحفوهم بغير إذن سعد وكان اول من زاحفهم القعقاع فقال سعد اللهم اغفرها

له وانصره فقد أذنت له ان لم يستأذنى ثم لحقهم أسد فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم حملت النخع فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم حملت بجيلة فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم حملت كندة فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم زحف الرؤساء ورحا الحرب تدور على القعقاع وكان سعد قال لهم اذا كبرت ثلاثا فاحملوا فكبر فى أثناء تلك الحملة تكبيرتين فلما كبر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضا وخالطوا القوم واستقبلوا الليل استقبالا بعد ما صلوا العشاء وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون * جمع قين وهو الحداد ليلتهم الى الصباح وأفرغ الله الصبر عليهم افراغا وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ورأى العرب والعجم أمرا لم يروا مثله قط وانقطعت الاخبار والاصوات عن سعد ورستم وأقبل سعد على الدعاء فلما كان عند الصبح انتمى الناس فاستدل بذلك على أنهم الأعلون وأصبح الناس ليلة الهرير وتسمى ليلة القادسية من بين تلك الليالى وهم حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها فسار القعقاع فى الناس فقال ان الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة فاحملوا فان النصر مع الصبر فاجتمع اليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح فلما رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا لا يكونن هؤلاء أجد فى أمر الله منكم ولا هؤلاء يعنى الفرس أجرأ على الموت منكم فحملوا فيما يليهم وخالطوا من بازائهم فاقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة فكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فتأخرا وثبتا حتى انتهيا وانفرج القلب وركد عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم عن سريره فهوت فى العتيق وهى دبور ومال الغبار عليهم وانتهى القعقاع ومن معه الى السرير فعثر وابه وقد قام رستم عنه حين أطارت الريح الطيارة الى بغال قد قدمت عليه بمال فهى واقفة فاستظل فى ظل بغل وحمله وضرب هلال بن علقمة الحمل الذى تحته رستم فقطع حباله ووقع عليه أحد العدلين ولا يراه هلال ولا يشعر به فأزال عن ظهره فقارا فرآه هلال فضربه ضربة فنفحت مسكا ومضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه واقتحمه هلال عليه وأخذ برجليه ثم خرج به فضرب جبينه بالسيف حتى قتله ثم ألقاه بين

أرجل البغال ثم صعد السرير وقال قتلت رستم ورب الكعبة الى الى فأطافوا به وكبروا فنفله سعد سلبه ولم يظفر بقلنسوته ولو ظفر بها لكانت قيمتها مائة ألف وقيل ان هلالا لما قصد رستم رماه رستم بنشابة أثبت قدمه بالركاب فحمل عليه هلال فضربه فقتله ثم احتز رأسه وعلقه ونادى قتلت رستم فانهزم قلب المشركين وقام الجالينوس على الردم (بالدال) ونادى الفرس الى العبور وكانت الهزيمة عليهم وأما المقترنون فانهم جشعوا فتهافتوا فى العتيق فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبر وهم ثلاثون ألفا وأخذ ضرار بن الخطاب العلم الاكبر الذى كان للفرس فعوض عنه ثلاثين ألفا وكانت قيمته ألف ألف ومائتى ألف وقتل من الفرس فى المعركة عشرة آلاف سوى من قتلوا فى الايام قبله وقتل من المسلمين قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمائة وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف وجمعت الاسلاب والاموال فجمع شىء لم يجمع قبله ولا بعده مثله وأمر سعد القعقاع وشرحبيل باتباع المنهزمين حتى بلغا مقدار الخرارة من القادسية وخرج زهرة ابن الحوية التميمى فى آثارهم فى ثلثمائة فارس ثم أدركه الناس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم فقتله زهرة وأخذ سلبه وقتلوا ما بين الخرارة الى السلحين الى النجف وعادوا من أثر المنهزمين ومعهم الأسرى فروى شاب من النخع وهو يسوق ثمانين رجلا أسيرا من الفرس واستكثر سعد سلب الجالينوس فكتب فيه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب عمر الى سعد تعمد الى مثل زهرة بن الحوية وقد صلى بمثل ما صلى به تفسد قلبه وقد بقى عليك من حربك ما بقى أمض له سلبه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة فلما اتبع المسلمون الفرس كان الرجل يشير الى الفارس فيأتيه فيقتله وربما أخذ سلاحه فقتله به وربما أمر رجلين فيقتل أحدهما صاحبه ولحق سلمان بن ربيعة الباهلى وعبد الرحمن بن ربيعة بطائفة من الفرس قد نصبوا راية وقالوا لا نبرح حتى نموت فقتلهم سلمان ومن معه وكان قد ثبت بعد الهزيمة بضعة وثلاثون كتيبة من الفرس استحيوا من الفرار فقصدهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين لكل كتيبة منها رئيس وكان

قتال أهل الكتائب من الفرس على وجهين منهم من هرب ومنهم من ثبت حتى قتل وكان ممن هرب من أمراء الكتائب الهرمزان ثم تراجع الناس من طلب المنهزمين وقد قتل مؤذنهم فتشاح المسلمون فى الأذان حتى كادوا يقتتلون وأقرع سعد بينهم فخرج سهم رجل منهم فأذن وفضل أهل البلاء من أهل القادسية عند العطاء بخمسمائة خمسمائة وهم خمسة وعشرون رجلا وأما أهل الايام قبلها فانه فرض لهم على ثلاثة آلاف وفضلوا على أهل القادسية فقيل لسعد لو ألحقت بهم أهل القادسية فقال لم أكن لالحق بهم من لم يدركهم وقيل له لو فضلت من بعدت داره على من قاتلهم بفنائه قال كيف أفضل عليهم وهم شجن العدو وهل فعل المهاجرون بالأنصار هذا وكانت العرب تتوقع وقعة العرب وأهل فارس بالقادسية فيما بين العذيب الى عدن أبين وفيما بين الابلة وايلة يرون ان ثبات ملكهم وزواله بها وكانت فى كل بلدة مصيخة اليها تنظر ما يكون من أمرها فلما كانت وقعة القادسية سارت بها الجن فأتت بها أناسا من الانس فسبقت أخبار الانس وكتب سعد الى عمر بالفتح وبعدة من قتلوا وبعدة من أصيب من المسلمين وسمى من يعرف مع سعد بن عميلة الفزارى وكان عمر يسأل الركبان من حين يصبح الى انتصاف النهار عن أهل القادسية ثم يرجع الى أهله ومنزله قال فلما لقى البشير سأله من أين فأخبره قال يا عبد الله حدثنى قال هزم الله المشركين وعمر يخب معه يسأله والآخر يخبره وهو يسير على ناقته لا يعرفه حتى دخل المدينة واذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين قال البشير هلا أخبرتنى رحمك الله انك أمير المؤمنين فقال عمر لا بأس عليك يا أخى وأقام المسلمون بالقادسية فى انتظار قدوم البشير وأمر عمر الناس أن يقوموا على أقباضهم ويصلحوا أحوالهم ويتابع اليهم أهل الشام ممن شهد اليرموك ودمشق بمدد لهم والصحيح ان وقعة القادسية كانت سنة أربع عشرة كما تقدم وقيل كانت سنة خمسة عشرة وقيل ستة عشرة والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر الوقائع بعد فتح القادسية الى أن فتحت مدائن كسرى ﴾

لما فرغ سعد رضي الله عنه من أمر القادسية أقام بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن وأن يخلف النساء والعيال بالعتيق وأن يجعل معهم جندا كثيفا وان يشركهم في كل مغنم ماداموا يخلفون المسلمين في عيالهم ففعل ذلك وسار من القادسية لأيام بقين من شوال فلما وصلت مقدمة المسلمين برس لقوا جندا من الفرس فقاتلهم المسلمون فهزم الله الفرس وقتل المسلمون كثيرا منهم وانحاز المنهزمون الى بابل وكان بها كثير من جندهم وعليهم الفيرزان فقصدهم المسلمون فقاتلوهم وقتلوا كثيرا منهم وهزموا الباقين فانطلقوا على وجوههم فسار الهرمزان نحو الاهواز فأخذ مافيها من الاموال لكسرى وسار الى نهاوند فأخذ مافيها من الاموال كلها وكان بها كنوز لكسرى وسار النخيرخان ومهران الرازى الى المدائن وقطعا الجسر فأقام سعد ببابل وأرسل زهرة بن الحوية الى نهر شير قبالة المدينة العتيقة من المدائن الغربية فتلقاه دهقان ساباط للصلح فأرسله الى سعد فصالحه على تأدية الجزية فوصل سعد والمسلمون الى نهر شير ليحاصروا المدائن فرأوا الايوان من بعد فقال ضرار بن الخطاب الله أكبر أبيض كسرى هذا ما وعد الله ورسوله وكبر الناس معه فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة محاصرين لها وكان نزولهم عليها في ذى الحجة فحاصروها شهرين ونصبوا عليها عشرين منجنيقا ودنوا اليهم بالدبابات وأرسل سعد الخيول فاغارت على من ليس له عهد فأصابوا مائة ألف فلاح فأرسل سعد الى عمر بالخبر فكتب له عمر ان من من جاءكم من الفلاحين ممن لم يعينوا عليكم فهو في أمان ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به فخلى سعد عنهم وأرسل الى الدهاقين ودعاهم الى الاسلام أو الجزية ولهم الذمة فتراجعوا فلم يبق في غربي دجلة الى أرض العرب سوادى الا آمن واغتبط بملك الاسلام واشتد الحصار بأهل المدائن الغربية حتى أكلوا السنانير والكلاب وصبروا من شدة الحصار على أمر عظيم فبينما هم يحاصرونهم اذ أشرف

عليهم رسول الملك فقال الملك يقول لكم هل لكم الى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة الى جبلنا ولكم ما يليكم من دجلة الى جبلكم وماشبعتم لا أشبع الله بطونكم فقال له أبو مقرن الاسود مقالة أنطقه الله بها ولا يدرى ما قال لهم لا هو ولا من كان معه فرجع الرجل فقطعوا دجلة الى المدائن الشرقية التى فيها الايوان فقال لأبى مقرن من كان معه ما قلت له فقال والذى بعث محمدا بالحق ما أدرى وأنا أرجو أن أكون نطقت بالذى هو خير وسأله سعد والناس عما قال فلم يعلم فنادى سعد فى الناس فنهضوا اليهم فما ظهر على المدينة أحد ولا خرج رجل الا رجل ينادى يطلب الامان فأمنوه فقال لهم ما بقى بالمدينة من يمنعكم فدخلوا فما وجدوا فيها شيأ ولا أحدا الا الأسارى وذلك الرجل فسألوه لأى شىء هربوا فقال بعث الملك اليكم يعرض عليكم الصلح فأجبتموه أنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدا حتى نأكل عسل افريدون بأترج كوثى فقال الملك يا ويلتا ان الملائكة تتكلم على ألسنتهم ترد علينا فساروا الى المدينة القصوى فدخل المسلمون المدينة الغربية وأنزلهم سعد المنازل

﴿ ذكر فتح المدائن التى فيها إيوان كسرى ﴾

لما دخل المسلمون المدائن الغربية كان البحر بينهم وبين المدائن الشرقية التى فيها الايوان وليس للمسلمين سفن يعبرون فيها ورأى سعد رؤيا أن خيول المسلمين اقتحمت دجلة فعبرت فعزم سعد لتأويل الرؤيا فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان عدوكم قد اعتصم بهذا البحر فلا تخلصون اليهم معه ويخلصون اليكم اذا شاؤا فى سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه قد كفاكم أهل الايام وعطلوا ثغورهم وقد رأيت من الرأى أن تجاهدوا العدو قبل أن تحصدكم الدنيا الا أنى قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم فقالوا جميعا عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل فندب الناس الى العبور وقال من يبدأ ويحمى لنا الفراض (وهى فريضة النهر ومن البحر محيط السفن) حتى تتلاحق به الناس لكى لا يمنعوهم من العبور فانتدب له عاصم بن عمرو وذووا البأس فى ستمائة من أهل النجدات فاستعمل عليهم عاصما فتقدمهم عاصم فى ستين فارسا وجعلهم على خيل

ذكور واناث ليكون أساسا لسباحة الخيل ثم اقتحموا دجلة فلما رآهم الاعاجم وماصنعوا أخرجوا للخيل التي تقدمت مثلها فاقتحموا عليها دجلة فلقوا عاصما وقددنا من الفراض فقال عاصم الرماح الرماح اشرعوا وتوخوا العيون فالتقوا فأطعنوا وتوخى المسلمون عيونهم فولوا ولحقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم ومن نجا منهم صار أعور من الطعن وتلاقوا الستمائة بالستين غير متعبين ولما رأى سعد عاصما على الفراض قدمنعها أذن للناس في الاقتحام وقال قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهزمن عدوه ولاقوة الا بالله العلي العظيم وتلاحق الناس في دجلة وأنهم يتحدثون كما يتحدثون في البر وطبقوا دجلة حتى مايرى من الشاطئ شيء وكان الذي يساير سعدا سلمان الفارسي رضي الله عنهما فعامت بهم خيولهم وسعد يقول حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهزمن عدوه ان لم يكن في الجيش بغي أوذنوب تغلب الحسنات فقال له سلمان الاسلام جديد ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجا كما دخل فيه أفواجا فخرجوا منه كما قال سلمان لم يفقدوا شيأ الا أن مالك بن عامر العنبري سقط منه قدح فذهبت به جرية الماء فقال الذي يسايره معيرا له أصابه القدر فطاح فقال والله انى لعلى حالة ما كان الله ليسلبني قدحي من بين العسكر فلما عبروا ألقته الريح الى الشاطئ فتناوله بعض الناس وعرفه صاحبه فأخذه صاحبه ولم يغرق منهم أحد غير أن رجلا من بارق يدعى عرقدة زال عن ظهر فرس له أشقر وكاد يغرق فثنى القعقاع عنان فرسه اليه فأخذه بيده فأخرجه سالما وخرج الناس سالمين وخيلهم تنفض أعرافها فلما رأى الفرس ذلك وأتاهم أمر لم يكن في حسابهم خرجوا هاربين نحو حلوان وكان يزدجرد قد قدم عياله الى حلوان قبل ذلك وخلف مهران والنخيرخان وكان على بيت المال بالنهروان وخرجوا معهم بما قدروا عليه من الثياب والمتاع والآنية والفصوص والألطاف مالايدري قيمته وخلفوا ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم

والأطعمة وكان فى بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ثلاث مرات أخذ منها رستم عند مسيره الى القادسية النصف وبقى النصف ولما دخلوا المدائن نزل سعد القصر الابيض وجاء جماعة من الفرس وعقدوا ذمة على تأدية الجزية وبعث سعد جماعة الى الاطراف من كل جهة يغيرون ويؤمنون من أراد الامان واتخذ سعد إيوان كسرى مصلى ولم يغير ما فيها ولما دخل سعد الايوان قال كم تركوا من جنات وعيون الى قوله قوما آخرين وصلى فيه صلاة الفتح ثمان ركعات ولم يكن بالمدائن أعجب من عبور الماء وكان يدعى يوم الجراثيم لايعيا أحد الا انشمخرت له جرثومة من الارض يستريح عليها ما يبلغ الماء حزام فرسه

﴿ ذكر ماجمع من غنائم أهل المدائن وقسمها ﴾

اجتمع عند سعد بعد دخوله المدائن من الغنائم والاموال مالا يحصى ورأوا بالمدائن قبابا مملوءة سلالا مختومة برصاص فحسبوه طعاما فاذا فيه آنية الذهب والفضة وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين ورأوا كافورا كثيرا فحسبوه ملحا فعجنوا به فوجدوه مرا وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر النهروان فازدحموا عليه فوقع منهم بغل فى الماء فعجلوا وكبوا عليه فقال بعض المسلمين ان لهذا البغل لشأنا فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه واذا هو يحمل عليه حلية كسرى ووشاحه ودرعه التى فيها الجوهر وكان يجلس فيها للمباهاة ولحق الكلج ببغلين معهما فارسان فقتلهما وأخذ البغلين فاذا عليهما سفطان فيهما تاج كسرى مرصعا وعلى البغل الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التى كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجا منظوما وأدرك القعقاع فارسيا فقتله وأخذ منه عيبتين فى احداهما خمسة أسياف وفى الأخرى ستة أسياف وأدراع منها درع كسرى ومغافره ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع النعمان ودرع داهر ملك الهند استلبها الفرس أيام غزاهم خاقان وهرقل وداهر وأيام هرب النعمان من كسرى وكذا الاسياف فأحضر القعقاع الجميع عند سعد فخيره بين الأسياف فاختار سيف هرقل وأعطاه

درع بهرام ونفل سائرها الا سيف كسرى والنعمان بعث بهما الى عمر بن الخطاب لتسمع العرب بذلك و بعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه الى عمر ليراه المسلمون وأدرك عصمة بن خالد الضبي رجلين معهما حماران فقتل أحدهما وهرب الآخر وأخذ الحمارين فاذا على أحدهما سفطان فى أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثفره ولبانه الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجام كذلك وفارس من فضة مكلل بالجوهر وفى الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب و بطان من ذهب ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر كان كسرى يضعهما على اسطوانة التاج وأقبل رجل بحق الى صاحب الاقباض فقال هو والذى معه ما رأينا مثل هذا ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه فقالوا هل أخذت منه شيأ فقال والله لولا الله ما أتيتكم به فقالوا من أنت فقال والله لا أخبركم فتحمدونى ولكن أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلا فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس وقال سعد والله ان الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لاهل بدر لقلت انهم على فضل أهل بدر لقد تتبعت منهم هناة ما أحسبها من هؤلاء وقال جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما والله الذى لا اله الا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأمانتهم وهم طليحة وعمرو بن معدى كرب وقيس بن المكشوح وقال عمر رضى الله عنه لما قدم عليه بسيف كسرى ومنطقته وزبرجده ان قوما أدوا هذا لذوو أمانة فقال على رضى الله عنه انك عففت فعفت الرعية فلما جمعت الغنائم قسم سعد الفىء بين الناس بعد ما خمسه وكانوا ستين ألفا فأصاب الفارس اثنا عشر ألفا وكلهم كان فارسا ليس فيهم راجل ونفل من الاخماس فى أهل البلاء وقسم المنازل بين الناس واحضر العيالات فأنزلهم الدور فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جلولاء وحلوان وتكريت والموصل ثم تحولوا الى الكوفة وأرسل سعد من الخمس كل شئ أراد أن يعجب منه العرب وما كان يعجبهم أن يقع وكان من جملة ما غنموه بساط كسرى ويقال له القطيف وهو من أعجب ما كان لملك الفرس وهو بساط واحد

طوله ستون ذراعا وعرضه ستون ذراعا كانت الاكاسرة تعده للشتاء اذا ذهبت الرياحين شربوا عليه فكأنهم فى رياض فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالانهار أرضها مذهبة وخلاف ذلك فصوص كالدر وفى حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهره الذهب والفضة وثمره الجوهر وأشباه ذلك وأراد سعد اخراج خمس القطيف فلم تعتدل قسمته فقال للمسلمين هل تطيب أنفسكم على أربعة أخماسه فنبعث به الى عمر يضعه حيث يشاء فانا لا نراه ينقسم وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقعا فقالوا نعم فبعث به الى عمر فلما قدم خمس الغنائم على عمر رضى الله عنه قسمه فى مواضعه ثم قال أشيروا على فى هذا القطيف فمن بين مشير بابقائه ذخيرة للملة وآخر مفوض اليه فأشار على رضى الله عنه بقسمته بين المسلمين وقال ان تبقه على هذا اليوم لم تعدم فى غد من يستحق به ما ليس له فقال صدقتنى اذ نصحتنى فقطعه بينهم فأصاب عليا قطعة منه قال ابن الاثير فباعها بعشرين ألفا وفى السيرة الحلبية بعشرين ألف دينار وكان النبى صلى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك الكنانى حين أراد التعرض للنبى صلى الله عليه وسلم وهو مهاجر الى المدينة كيف بك اذا لبست سوارى كسرى ومنطقته وتاجه فلما أتى بذلك كله لعمر بن الخطاب مع جملة ما أتى به من خمس الغنائم دعا سراقة بن مالك وألبسه اياهما وكان سراقة رجلا أزب أى كثير شعر الساعدين فقال عمر ارفع يديك وقل الله أكبر الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز الذى كان يقول أنا رب الناس وألبسهما سراقة رجلا أعرابيا من مدلج ورفع عمر صوته ثم أركب سراقة وطيف به فى المدينة اظهار المعجزة النبى صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بذلك قبل وقوعه ولم يأخذ عمر رضى الله عنه شيأ من تلك الغنائم التى قسمها بين الناس وكان يقرأ قوله تعالى زين للناس حب الشهوات الآية ويقول اللهم انه لا طاقة لنا أن نحب الا ما زينته فوفقنى أن أنفقه فى حقه وكان رضى الله عنه يبكى ويقول ان الله زوى الدنيا عن النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه وفتحها لى فأخاف

أن أكون مستدرجا وروى البخارى فى صحيحه فى كتاب الرقاق أن عمر رضى الله عنه قال اللهم انا لا نستطيع الا أن نفرح بما زينته لنا اللهم انى أسألك أن أنفقه فى حقه ورواه الدارقطنى بأبسط من هذا فقال ان عمر بن الخطاب أتى بمال من المشرق يقال له نفل كسرى فأمر به فصب وغطى ثم دعا الناس فاجتمعوا ثم أمر به فكشف عنه فاذا هو حلى وجواهر ومتاع فبكى عمر رضى الله عنه وحمد الله عز وجل فقالوا له ما يبكيك يا أمير المؤمنين هذه غنائم غنمها الله لنا ونزعها من أهلها فقال ما فتح الله من هذا على قوم الا سفكوا دماءهم واستحلوا حرمهم قال زيد بن أسلم فبقى من ذلك المال مناطق وخواتم فرفع فقال عبد الله بن أرقم لعمر رضى الله عنه حتى متى تحبسه لا تقسمه فقال اذا رأيتنى فارغا فآذنى به فلما رآه فارغا بسط شيأ فى حش نخلة ثم جاء به فى مكتل فصب فكأنه استكثره ثم قال اللهم أنت قلت زين للناس حب الشهوات فتلا الآية حتى فرغ منها ثم قال لا نستطيع الا أن نحب ما زينت لنا فقنى شره وارزقنى أن أنفقه فى حقه فما قام حتى ما بقى منه شئ

﴿ ذكر وقعة جلولاء وفتح حلوان فى سنة ست عشرة أيضا ﴾

لما انتهى الفرس الى جلولاء بعد الهرب من المدائن احتفروا وخندقوا واجتمعوا على مهران الرازى وتقدم يزدجرد الى حلوان وأحاطوا خندقهم بحسك الحديد الا طرقهم فبلغ ذلك سعدا فأرسل الى عمر فكتب اليه عمر أن سرح هاشم بن عتبة الى جلولاء واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو وان هزم الله الفرس فاجعل القعقاع بين السواد والجبل وليكن الجند اثنى عشر ألفا فيهم وجوه المهاجرين والانصار وأعلام العرب ففعل ذلك سعد وسار هاشم من المدائن فمر ببابل فصالحه دهقانها على أن يفرش له جريب الارض دراهم ففعل وصالحه ثم مضى حتى قدم جلولاء فحاصرهم فى خنادقهم وأحاط بهم وطاولهم الفرس وجعلوا لا يخرجون الا اذا أرادوا وزاحفهم المسلمون نحو ثمانين يوما كل ذلك ينصر المسلمون عليهم وجعلت الامداد ترد من يزدجرد الى مهران وامد سعد المسلمين وخرجت الفرس وقد احتفلوا فاقتتلوا فأرسل الله عليهم الريح حتى أظلمت عليهم البلاد فتحاجزوا

فسقط فرسانهم فى الخندق فجعلوا فيه طرقا مما يليهم ليصعد منه خيلهم فأفسدوا حصنهم وبلغ ذلك المسلمين فنهضوا اليهم وقاتلوهم قتالا شديدا لم يقتتلوا مثله ولا ليلة الهرير الا أنه كان أعجل وانتهى القعقاع بن عمرو من الوجه الذى زحف فيه الى باب خندقهم فأخذ به وأمر مناديا فنادى يامعشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق وأخذ به فاقبلوا اليه ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله وانما أمر بذلك ليقوى المسلمين فحملوا ولا يشكون بأن هاشما فى الخندق فاذاهم بالقعقاع ابن عمرو وقد أخذ به فانهزم المشركون عن المجال يمنة ويسرة فهلكوا فيما أعدوا من الحسك فعقرت دوابهم وعادوا رجالة واتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم الا القليل وقتل يومئذ منهم مائة ألف فجللت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه فسميت جلولاء بما جللها من قتلاهم فهى جلولاء الوقيعة فسار القعقاع بن عمرو فى الطلب حتى بلغ خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من حلوان نحو الرى وقدم القعقاع حلوان فنزلها فى جند ولما سار يزدجرد من حلوان استخلف عليها خسرسنوم وكان الزينبى دهقان حلوان فلما قرب القعقاع من حلوان خرج عليه خسرسنوم والزينبى بمن معهما فقتل الزينبى وهرب خسرسنوم واستولى المسلمون على حلوان وبقى القعقاع بها الى أن تحول سعد الى الكوفة فلحقه القعقاع واستخلف على حلوان قباذ وكان أصله خراسانيا وكتبوا الى عمر بالفتح وبنزول القعقاع حلوان واستأذنوه فى اتباعهم فأبى وقال لوددت ان بين السواد وبين الجبل سدا لا يخلصون الينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد انى آثرت سلامة المسلمين على الانفال وأدرك القعقاع فى اتباعه الفرس مهران بخانقين فقتله وأدرك الفيرزان فنزل وتوغل فى الجبل فتحامى وأصاب القعقاع سبايا فأرسلهن الى هاشم فقسمهن فاتخذن سرارى فولدن وممن ينسب الى ذلك السبى أم الشعبى وقسمت الغنيمة وأصاب كل واحد من الفوارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب وقيل ان الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألف وبعث سعد الاخماس الى عمر رضى الله عنه بعد أن قسم الاربعة الأخماس على الغانمين فلما قدم الخمس

على عمر رضى الله عنه قال والله لا يجنه سقف حتى أقسمه فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانه فى المسجد فلما أصبح جاء فى الناس فكشف عنه فلما نظر الى ياقوته وزبرجده وجواهره بكى فقال له عبد الرحمن بن عوف ما يبكيك يا أمير المؤمنين فوالله ان هذا الموطن شكر فقال عمر والله ما ذلك يبكيني وبالله ما أعطى الله هذا قوما الا تحاسدوا وتباغضوا ولا تحاسدوا الا ألقى الله بأسهم بينهم ومنع عمر من قسمة السواد لتعذر ذلك بسبب الآجام والغياض وتبعيض المياه وما كان لبيوت النار وسكك البرد وما كان لكسرى ومن جاء معه وما كان لمن قتل وخاف أيضا الفتنة بين المسلمين فلم يقسمه ومنع من بيعه لأنه لم يقسم وأقروها حبيسا يولونها من أجمعوا عليه بالرضا وكانوا لا يجمعون الا على الأمراء فلا يحل بيع شئ من أرض السواد ما بين حلوان والقادسية واشترى جرير أرضا على شاطئ الفرات فرد عمر ذلك الشراء وكرهه

﴿ ذكر اتخاذ البصرة والكوفة مصرا من الأمصار ﴾

اختلف فى السنة التى اتخذت البصرة فيها مصرا فقيل سنة ست عشرة بعد فتح جلولاء أرسل سعد عتبة بن غزوان رضى الله عنه بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاتخذها مصرا وخرج عليه أهل الابلة فقاتلهم عتبة فهزمهم واجتمع أهل دستميسان فقتلهم عتبة فهزمهم وأخذ مرزبانها أسيرا وكان من سبى ميسان يسار أبو الحسن البصرى وارطبان جد عبد الله بن عون بن ارطبان وقيل ان اتخاذ عتبة البصرة مصرا كان فى سنة أربع عشرة وقيل خمس عشرة وأما الكوفة فاتخذها سعد مصرا سنة خمس عشرة دلهم على موضعها ابن بقيلة قال لسعد الا أدلك على أرض الله ارتفعت عن القبة وانحدرت عن الفلاة فدله على موضعها فتحول سعد من المدائن اليها وسبب ذلك ان العرب استوخمت المدائن وبعث سعد أناسا يستطيبون لهم أرضا ينزلونها فاستطابوا الكوفة وهواءها فتحول اليها سعد ومن معه سنة سبع عشرة

﴿ ذكر فتح تكريت والموصل فى سنة ست عشرة أيضا ﴾

كان ذلك بعد فتح جلولاء وسبب ذلك أن الانطاق سار من الموصل الى تكريت

وخندق عليه ليحمي أرضه ومعه الروم وإياد وتغلب والنمر والشهارجة فبلغ ذلك سعدا فكتب الى عمر فكتب اليه عمر أن سرح اليه عبدالله بن المعتم واستعمل على مقدمته ربعي بن الافكل وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة فسار عبدالله الى تكريت ونزل على الأنطاق فحصره ومن معه أربعين يوما فتزاحفوا أربعة وعشرين زحفا وأرسل عبدالله بن المعتم الى العرب الذين مع الانطاق يدعوهم الى نصرته وكانوا لا يخفون عليه شيأ ولما رأت الروم المسلمين ظاهرين عليهم تركوا أمراءهم ونقلوا امتاعهم الى السفن فأرسلت تغلب وإياد والنمر الى عبد الله بالخبر وسألوه الامان وأعلموه أنهم معه فأرسل اليهم ان كنتم صادقين فأسلموا فأجابوه وأسلموا فأرسل اليهم عبدالله اذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا انا أخذنا أبواب الخندق فخذوا الأبواب التى تلى دجلة وكبروا واقتلوا من قدرتم عليه ونهض عبدالله والمسلمون وكبروا وكبرت تغلب وإياد والنمر وأخذوا الأبواب فظن الروم ان المسلمين قد أتوهم من خلفهم مما يلى دجلة فقصدوا الأبواب التى عليها المسلمون وأخذتهم سيوف المسلمين وسيوف الربعيين الذين أسلموا تلك الليلة فلم يفلت من أهل الخندق الا من أسلم من تغلب وإياد والنمر وأرسل عبدالله بن المعتم ربعي بن الافكل الى نينوى والموصل وقال اسبق الخبر وسرح معه تغلب وإياد والنمر فقدمهم ابن الافكل الى الحصين فسبقوا الخبر وأظهروا الظفر والغنيمة وبشروهم ووقفوا بالأبواب وأقبل ابن الافكل فاقتحم عليهم الحصين وكلبوا أبوابها فنادوا بالاجابة الى الصلح وصاروا ذمة وقسموا الغنيمة فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف درهم وسهم الراجل ألف درهم وبعثوا بالأخماس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وولى حرب الموصل ربعي بن الافكل والخراج عرفجة بن هرثمة ثم فتحت بقية أعمال الموصل وجميع معاقل الأكراد وصار الجميع للمسلمين

﴿ ذكر فتح ماسبذان فى سنة ست عشرة أيضا ﴾

لما انقضى فتح جلولاء بلغ سعدا ان آذين بن هرمزان قد جمع جمعا وخرج بهم الى السهل فأرسل اليهم ضرار بن الخطاب فى جيش فالتقوا بسهل ماسبذان فاقتتلوا

فأسرع المسلمون القتال فى المشركين وأخذ ضرار آذين أسيرا فضرب رقبته ثم خرج فى الطلب حتى انتهى الى السيروان فأخذ ماسبذان عنوة فهرب أهلها فى الجبال فدعاهم فاستجابوا له وأقاموا بها حتى تحول سعد الى الكوفة فأرسل اليه فنزل الكوفة واستخلف على ماسبذان ابن الهذيل الاسدى فكانت أحد فروج الكوفة

﴿ ذكر فتح قرقيسا فى سنة عشرة أيضا ﴾

لما انقضى أيضا فتح جلولاء أرسل سعد عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف فى جند نحو هيت فنازل من بها وقد خندقوا عليهم فلما رأى اعتصامهم بخندقهم ترك الاخبية على حالها وخلف عليهم الحارث بن يزيد يحاصرهم وخرج فى نصف الناس فجاء قرقيسا على غرة فأخذها عنوة فأجابوا الى الجزية ثم ان الحارث ابن يزيد راسل أهل هيت فأجابوا الى الجزية وكانت ثغور الكوفة أربعة حلوان وعليها القعقاع وماسبذان وعليها ضرار بن الخطاب وقرقيسا وعليها عمر بن مالك والموصل وعليها عبد الله بن المعتم وكان بها خلفاؤهم اذا غابوا عنها

﴿ ذكر غزوة فارس من البحرين فى سنة سبع عشرة ﴾

لما كان العلاء الحضرمى على البحرين فى خلافة أبى بكر ثم فى خلافة عمر رضى الله عنهما ندب الناس لغزو فارس فى البحر وقد كان عمر نهاه عن الغزو فى البحر خوف الغرق فخالفه وندب الناس الى قتال فارس فأجابوه ففرقهم أجنادا على أحدها الجارود بن المعلى وعلى الآخر سوار بن همام وعلى الآخر خليد بن المنذر ابن ساوى وخليد على جميع الناس وحملهم فى البحر الى فارس بغير اذن عمر فعبرت الجنود من البحرين الى فارس فخرجوا الى اصطخر وبازائهم أهل فارس وعليهم الهربذ فقاتلوهم قتالا شديدا بمكان يدعى طاوس فقتل سوار والجارود وقتل من اهل فارس مقتلة عظيمة ثم أراد المسلمون الرجوع الى البصرة فلم يجدوا الى الرجوع سبيلا وأخذت الفرس منهم طرقهم فعسكروا وامتنعوا ولما بلغ عمر رضى الله عنه صنيع العلاء أرسل الى عتبة بن غزوان يأمره بانفاذ جند كثيف الى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا وقال فانى ألقى فى روعى كذا وكذا نحو الذى كان

فأرسل عتبة جيشا كثيفا اثنى عشر ألف مقاتل وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم أحد بنى عامر بن لؤى فسار بالناس على الساحل لا يعرض له أحد حتى التقى أبو سبرة وخليد وكان أهل اصطخر حيث أخذوا الطريق على المسلمين جمعوا أهل فارس اليهم من كل وجهة فالتقوا هم وأبو سبرة بعد طاوس وقد توافت الى المسلمين أمدادهم فاقتتلوا ففتح الله على المسلمين وقتل المشركين وأصاب المسلمون منهم ماشاؤا وهى الغزوة التى شرفت بها نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الامصار ثم انكفوا بما أصابوا فرجعوا الى البصرة سالمين

﴿ ذكر الخبر عن فتح الاهواز ومناذر ونهر تيرى ﴾

فى سنة سبع عشرة فتحت الاهواز ومناذر ونهر تيرى وقيل سنة عشرين وكان السبب فى هذا الفتح انه لما انهزم الهرمزان يوم القادسية وهو أحد البيوتات السبعة فى أهل فارس قصد خوزستان فملكها وقاتل بها من أرادهم فكان الهرمزان يغير على أهل ميسان ودستميسان من مناذر ونهر تيرى فاستمد عتبة بن غزوان سعدا فأمده بجيوش والتقوا هم والهرمزان بين نهر تيرى وبين دلب وتوجه بعض جيوشهم لاخذ مناذر ونهر تيرى فبينما الهرمزان يقاتل الذين التقى معهم جاءه الخبر بأخذ مناذر ونهر تيرى فكسر ذلك قلب الهرمزان ومن معه فهزمه الله واياهم وقتل المسلمون منهم ماشاؤا وأصابوا ماشاؤا واتبعوهم حتى وقفوا على شاطئ دجيل وأخذوا مادونه وعسكروا بحيال سوق الاهواز وعبر الهرمزان جسر سوق الاهواز وأقام وصار دجيل بين الهرمزان والمسلمين فلما رأى الهرمزان مالا طاقة له به طلب الصلح فاستأمروا عتبة فأجاب الى ذلك على الاهواز كلها ماخلا نهر تيرى ومناذر وماغلب المسلمون عليه من سوق الاهواز فانه لا يرد عليهم ثم وقع اختلاف بين المسلمين والهرمزان فى حدود الارض فحاربهم الهرمزان ومنع ماقبله واستعان بالاكراد فكتب عتبة بذلك الى عمر فكتب اليه عمر يأمره بقصده وأمده بجنده فالتقوا مع الهرمزان عند جسر سوق الاهواز مما يلى السوق فانهزم الهرمزان وسار الى رامهرمز وفتح المسلمون

سوق الاهواز واتسعت لهم البلاد الى تستر ثم لم يزل القتال بينهم و بين الهرمزان الى أن طلب الصلح فأجاب عمر الى ذلك وأن يكون ما أخذه المسلمون بأيديهم واصطلحوا على ذلك وأقام الهرمزان والمسلمون يمنعونه اذا قصده الاكراد ويجبي اليهم

﴿ ذكر فتح رامهرمز وتستر وأسر الهرمزان ﴾

كان فتح رامهرمز وتستر والسوس في سنة سبع عشرة وكان سبب فتحها أن يزدجرد لم يزل وهو بمرو يثير أهل فارس أسفا على ما خرج من ملكهم فتحركوا وتكاتبوا هم وأهل الاهواز وتعاقدوا على النصرة فكتب الامراء بذلك الى سعد فكتب الى عمر فكتب اليه عمر أن ابعث الى الاهواز جندا كثيفا مع النعمان بن مقرن وعجل ولينزلوا بازاء الهرمزان و يتحققوا أمره وكتب الى أبي موسى الاشعري وكان على البصرة أن ابعث الى الاهواز جندا كثيفا وأمر عليهم سعد ابن عدي أخا سهيل وابعث معه البراء بن مالك ومجزاة بن ثور وعرفجة بن هرثمة وغيرهم وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعا أبا سبرة بن أبي رهم فخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة فسار الى الاهواز وسار نحو الهرمزان وهو برامهرمز فلما سمع الهرمزان بسير النعمان اليه بادره بالشدة ورجا أن يقتطفه ومعه أهل فارس فالتقى النعمان والهرمزان باربك فاقتتلوا قتالا شديدا ثم ان الله عز وجل هزم الهرمزان فترك رامهرمز ولحق بتستر وسار النعمان الى رامهرمز ونزلها وصعد الى ايذج فصالحه تيرويه على ايذج ورجع الى رامهرمز فأقام بها ووصل أهل البصرة فنزلوا سوق الاهواز وهم يريدون رامهرمز فأتاهم خبر الوقعة وهم بسوق الاهواز وأتاهم الخبر أن الهرمزان نزل بتستر فساروا نحوه وسار أيضا النعمان وغيره من الامراء فاجتمعوا على تستر و بها الهرمزان وجنوده من أهل فارس والجبال والاهواز وعليهم الخنادق وأمد عمر المسلمين أيضا بأبي موسى وجعله على أهل البصرة وعلى الجميع أبا سبرة فحاصروهم أشهرا وأكثروا فيهم القتل وزاحفهم المشركون أيام تستر ثمانين زحفا يكون لهم مرة وعليهم مرة فلما كان في آخر زحف منها واشتد القتال قال المسلمون للبراء بن مالك وهو أخو أنس

ابن مالك رضى الله عنهما يابراء اقسم على ربك ليهزمنهم وكان مجاب الدعوة فقال اللهم اهزمهم لنا واستشهدنى فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم ثم اقتحموها عليهم ثم دخلوا مدينتهم وأحاط بها المسلمون فبيناهم على ذلك وقد ضاقت المدينة بهم وطالت حربهم خرج رجل الى النعمان يستأمنه على أن يدله على مدخل يدخلون منه ورمى فى ناحية أبى موسى بسهم ان أمنتمونى دللتكم على مكان تأتون المدينة منه فأمنوه فى نشابة فرمى اليهم بأخرى وقال انهضوا من قبل مخرج الماء فانكم تفتحونها فندب الناس اليه فانتدب له عامر بن قيس وبشر كثير ونهضوا لذلك المكان ليلا وقد ندب النعمان أصحابه ليسير واسع الرجل الذى يدلهم على المدخل الى المدينة فانتدب له بشر كثير فالتقواهم وأهل البصرة على ذلك المخرج فدخلوا فى السرب والناس من خارج فلما دخلوا المدينة كبروا فيها وكبر المسلمون من خارج وفتحت الابواب فاجتلدوا فيها فأناموا كل مقاتل وقصد الهرمزان القلعة فتحصن بها وأطاف به الذين دخلوا فنزل اليهم على حكم عمر فأوثقوه واقتسموا ما أفاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وسهم الراجل ألفا وجاء صاحب الرمية والرجل الذى خرج بنفسه فأمنوهما ومن أغلق بابه معهما وقتل من المسلمين بشر كثير وممن قتله الهرمزان بنفسه مجزاة بن ثور والبراء بن مالك وخرج أبو سبرة بنفسه فى أثر المنهزمين الى السوس ونزل عليها ومعه النعمان بن مقرن وأبو موسى وكتبوا الى عمر فكتب الى أبى موسى برده الى البصرة فانصرف اليها من السوس وسار زر بن عبد الله الفقيمى الى جنديسابور فنزل اليها وأرسل أبو سبرة وفدا الى عمر بن الخطاب فيهم أنس بن مالك والاحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فقدموا به المدينة وألبسوه كسوته من الديباج الذى فيه الذهب وتاجه وكان مكللا بالياقوت وألبسوه حليته ليراه عمر والمسلمون فطلبوا عمر فلم يجدوه فسألوا عنه فقيل جلس فى المسجد لوفد من الكوفة فوجدوه فى المسجد متوسدا برنسه وكان قد لبسه للوفد فلما قاموا عنه توسده ونام فجلسوا دونه وهو نائم والدرة فى يده فقال الهرمزان أين عمر قالوا هوذا فقال أين حرسته

وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب قال فينبغي أن يكون نبيا قالوا بل يعمل بعمل الانبياء فاستيقظ عمر بجلبة الناس فاستوى جالسا ثم نظر الى الهرمزان فقال الهرمزان قالوا نعم فقال الحمد لله الذي أذل بالاسلام هذا وغير أشباهه فأمر بنزع ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوبا صفيقا فقال له عمر ياهرمزان كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله فقال يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم فلما كان الآن معكم غلبتمونا ثم قال له ما حجتك وما عذرك في انتقاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به في قدح غليظ فقال لو مت عطشا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا فأتى به في إناء يرضاه فقال اني أخاف أن أقتل وأنا أشرب فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفاه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا بين القتل والعطش فقال لا حاجة لي في الماء انما أردت أن أستأمن به فقال له عمر اني قاتلك فقال قد أمنتني فقال كذبت قال أنس صدق يا أمير المؤمنين قد أمنته قال عمر يا أنس أنا أؤمن قاتل مجزأة بن ثور والبراء بن مالك والله لتأتين بمخرج أو لأعاقبنك قال انك يا أمير المؤمنين قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني ولا بأس عليك حتى تشربه وقال لعمر من حوله مثل ما قال أنس فأقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا أنخدع الا أن تسلم فأسلم ففرض له فيمن فرض لهم ألفين وأنزله المدينة وكان المترجم بينهما المغيرة بن شعبة لانه كان يفقه بالفارسية الى أن جاء المترجم

﴿ ذكر فتح السوس ﴾

لما نزل أبو سبرة على السوس كان بها شهريار أخو الهرمزان فأحاط المسلمون بها وناوشوهم القتال مرات وحاصروهم ثم اقتحموا الباب ودخلوا عليهم فألقى المشركون بأيديهم ونادوا الصلح الصلح فأجابهم الى ذلك المسلمون بعدما دخلوها عنوة واقتسموا ما أصابوا وقيل في فتح السوس ان يزدجرد سار بعد وقعة جلولاء فنزل اصطخر ومعه سياه في سبعين من عظماء الفرس فوجهه الى السوس والهرمزان الى تستر ونزل سياه بين رامهرمز وتستر ودعا من معه من عظماء

الفرس وقال لهم قد علمتم أنا كنا نحدث ان هؤلاء القوم سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في ايوانات اصطخر ويشدون خيولهم في شجرها وقد غلبوا على ما رأيتم فانظروا لانفسكم فقالوا رأينا رأيك قال أرى أن ندخلوا في دينهم ووجهوا شيرويه في عشرة من الاساورة الى أبي موسى فشرط عليهم أن يقاتلوا معه العجم ولا يقاتلوا العرب وان قاتلهم أحد من العرب منعهم منهم وينزلوا حيث شاؤا ويلحقوا بأشرف العطاء ويعقد لهم ذلك عمر على أن يسلموا فأعطاهم عمر ما سألوا فأسلموا وشهدوا مع المسلمين حصار تستر ومضى سياه الى حصن قد حاصره المسلمون في زى العجم فألقى نفسه الى جانب الحصن ونضح ثيابه بالدم فرآه أهل الحصن صريعا فظنوه رجلا منهم ففتحوا له باب الحصن ليدخلوه اليهم فوثب وقاتلهم حتى خلوا عن الحصن وهربوا فملكه

﴿ ذكر مصالحة جنديسابور ﴾

ثم سار بعض المسلمين عن السوس فنزل بجنديسابور وزر بن عبد الله محاصرهم فأقاموا عليها يقاتلونهم فرمى الى من بها من عسكر المسلمين بالأمان فلم يفجأ المسلمين الا وقد فتحت أبوابها وأخرجوا أسواقهم فسألهم المسلمون فقالوا رميتم لنا بالامان فقبلناه وأقررنا بالجزية فقال المسلمون ما فعلنا وسأل المسلمون بعضهم من فعل ذلك فاذا هو عبد يدعى مكنفا كان أصله منها فعل هذا فقالوا هو عبد فقال أهلها لا نعرف العبد من الحر وقد قبلنا الجزية وما بدلنا فان شئتم فاغدروا فكتبوا الى عمر فأجاز أمانهم فأمنوهم وانصرفوا عنهم

﴿ ذكر مسير المسلمين الى كرمان وغيرها ﴾

قيل في سنة سبع عشرة أذن عمر للمسلمين في الانسياح في بلاد فارس وانتهى في ذلك الى رأى الاحنف بن قيس حيث قال له يا أمير المؤمنين نهيتنا عن الانسياح في البلاد وان فارس لا يزالون يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم فلا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا في الانسياح فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس فقال عمر صدقتني والله وأذن في الانسياح فأمر أباموسى أن يسير من

البصرة الى منقطع ذمة البصرة فيكون هناك حتى يأتيه أمره و بعث بألوية من ولى مع سهيل بن عدى فدفع لواء خراسان الى الاحنف بن قيس ولواء ازدشير وسابور الى مشاجع بن مسعود السلمى ولواء اصطخر الى عثمان بن أبى العاص الثقفى ولواء نساودار أبجرد الى سارية بن زنيم الكنانى ولواء كرمان الى سهيل ابن عدى ولواء سجستان الى عاصم بن عمرو ولواء مكران الى الحكم بن عمير التغلبى فخرجوا ولم يتهيأ مسيرهم فى ذلك الوقت وأمدهم بنفر من أهل الكوفة وسيأتى الكلام على تفصيل ذلك

﴿ ذكر وقعة نهاوند ﴾

قيل انها كانت سنة ثمان عشرة وقيل سنة تسع عشرة وقيل سنة احدى وعشرين وكان الذى هيج أمر نهاوند أن المسلمين لما خلصوا من جند العلاء من بلاد فارس وفتحوا الأهواز كاتبت الفرس ملكهم وهو بمرو فحركوه وكاتب الملوك بين الباب والسند وخراسان وحلوان فتحركوا وتكاتبوا واجتمعوا الى نهاوند ولما وصل أوائلهم بلغ سعدا الخبر فكتب الى عمر وثار بسعد قوم سعوا به وتعصبوا عليه ولم يشغلهم ما نزل بالناس وكان جماعة خالفوا سعدا وصاروا يشكون منه فمن تحرك فى أمره الجراح بن سنان الاسدى فى نفر فقال لهم عمر والله ما يمنعنى ما نزل بكم من النظر فيما لديكم فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس فى الاستعداد للفرس وكان محمد بن مسلمة صاحب العمال يقتص آثار من شكى زمان عمر فطاف بسعد على أهل الكوفة يسأل عنه فما سأل عنه جماعة الا أثنوا عليه خيرا سوى من مالأ الجراح الاسدى فانهم سكتوا ولم يقولوا سوأ ولا يسوغ لهم حتى انتهوا الى بنى عبس فسألهم فقال أسامة بن قتادة اللهم انه لا يقسم بالسوية ولا يعدل فى القضية ولا يغزو فى السرية فقال سعد اللهم ان كان قالها رياء وكذبا وسمعة فاعم بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن فعمى واجتمع عنده عشر بنات وكان يسمع بالمرأة فيأتيها حتى يجسها فاذا عثر عليها قال دعوة سعد الرجل المبارك ثم دعا سعد على أولئك النفر فقال اللهم ان كانوا خرجوا أشرا وبطرا ورياء فاجهد بلادهم فجهدوا وقطع الجراح بن سنان بالسيوف يوم بادر الحسن بن على

رضى الله عنهما ليغتاله بساباط وشدخ قبيصة بالحجارة وقتل أربد بالوجىء ونعال السيوف وكان سعد رضى الله عنه مجاب الدعوة لأن النبى صلى الله عليه وسلم دعا له بذلك وكان من العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين للاسلام ومن أخوال النبى صلى الله عليه وسلم وهو أول رجل رمى بسهم فى سبيل الله وأول رجل أهرق دما من المشركين فى سبيل الله وجمع له النبى صلى الله عليه وسلم أبويه فقال فداك أبى وأمى ثم ان محمد بن مسلمة رجع الى المدينة بسعد وبالقوم الذين شكوا منه فقدموا على عمر فأخبروه الخبر فقال كيف تصلى ياسعد قال أطيل الأوليين وأخفف الأخريين فقال هكذا الظن بك ياأبا اسحق ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا فأراد عمر رضى الله عنه الاحتياط وقطع النزاع لئلا يطول الشر ويتسع الأمر فقال من خليفتك ياسعد على الكوفة فقال عبد الله بن عبد الله بن عتبان فأقره وأمر سعدا بالبقاء معه فى المدينة ولما طعن عمر رضى الله عنه جعله من الستة أصحاب الشورى الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وقال ان تولوا سعدا فأهل هو والا فليستعن به الوالى فانى لم أعزله عن ضعف ولا خيانة هكذا كان سبب نهاوند فابتداء البعث كان فى زمن سعد وأما الوقعة فهى فى زمان عبد الله بن عبد الله بن عتبان فنفرت الأعاجم بكتاب يزدجرد فاجتمعوا بنهاوند على الفيرزان فى خمسين ألفا ومائة ألف مقاتل وكان سعد كتب الى عمر بالخبر ثم شافهه به لما قدم عليه وقال له ان أهل الكوفة يستأذنون فى الانسياح وأن يبدؤهم بالشدة ليكون أهيب لهم على عدوهم فجمع عمر الناس واستشارهم وقال لهم هذا يوم له ما بعده وقد هممت أن أسير فيمن قبلى ومن قدرت عليه فأنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين ثم أستنفرهم وأكون لهم ردأ حتى يفتح الله عليهم أو يقضى ما أحب فان فتح الله عليهم صببتهم فى بلدانهم فقال طلحة بن عبيد الله يا أمير المؤمنين قد أحكمتك الأمور وعجمتك البلابل واحتنكتك التجارب وأنت وشأنك ورأيك لا ينبو فى يديك ولا يكل عليه اليك هذا الأمر فمرنا نطع وادعنا نجب واحملنا نركب وقدنا ننقد فانك ولى هذا الأمر وقد بلوت وجربت واخترت فلم

ينكشف شئ من عواقب قضاء الله لك الاعن خيارهم ثم جلس فعاد عمر فقام عثمان فقال أرى يا أمير المؤمنين ان تكتب الى أهل الشام فيسير وامن شامهم والى أهل اليمن فيسير وامن يمنهم ثم تسير أنت بأهل الحرمين الى الكوفة والبصرة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين فانك اذا سرت قل عندك ماقد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز عدداً وأكثر يا أمير المؤمنين انك لاتستبقى بعد نفسك من العرب باقية ولا تمتع من الدنيا بعز بزولا تلوذ منها بحريز ان هذا يوم له مابعده من الايام فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه وجلس فعاد عمر فقام على بن أبى طالب فقال أما بعد يا أمير المؤمنين فانك ان أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم الى ذراريهم وان أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة الى ذراريهم وانك ان أشخصت من هذه الارض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ماتدع وراءك أهم اليك مما بين يديك من العورات والعيال أقرر هؤلاء فى أمصارهم واكتب الى أهل البصرة فليتفرقوا ثلاث فرق فرقة فى حرمهم وذراريهم وفرقة فى أهل عهدهم حتى لاينتقضوا ولتسر فرقة الى اخوانهم بالكوفة مدداً لهم ان الاعاجم ان ينظروا اليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصلها فكان ذلك أشد لكلبهم عليك وأما ماذكرت من مسير القوم فان الله هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره وأما عددهم فانا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكن بالنصر فقال عمر هذا هو الرأى كنت أحب أن أتابع عليه فأشيروا على برجل أوليه ذلك الثغر وليكن عراقياً فقالوا أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك فقال والله لأولين رجلا يكون أول الاسنة اذا لقيها غداً فقيل من هو فقال النعمان بن مقرن المزنى فقالوا هو لها وكان النعمان يومئذ معه جمع من أهل الكوفة قد اقتحموا جنديسابور والسوس فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى ماه لتجتمع الجيوش عليه فاذا اجتمعوا اليه سار بهم الى الفيرزان ومن معه وكتب عمر الى عبد الله بن عبد الله بن عتبان ليستنفر الناس مع النعمان ويجتمعوا عليه بماه فندب الناس فكان أسرعهم الى ذلك الروادليبلوا فى الدين وليدركوا حظاً فخرج

الناس وعليهم حذيفة بن اليمان ومعه نعيم بن مقرن أخو النعمان بن مقرن حتى قدموا على النعمان وكتب عمر الى الجند الذين كانوا بالأهواز ليشغلوا فارسا عن المسلمين وعليهم المقترب وحرملة وزر فأقاموا بتخوم أصبهان وفارس وقطعوا أمداد فارس عن أهل نهاوند واجتمع الناس على النعمان وفيهم حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عمرو جرير بن عبدالله البجلى والمغيرة بن شعبة وغيرهم فأرسل النعمان طليحة بن خويلد الاسدى وعمرو بن معدى كرب وعمرو بن ثنى وهو ابن أبى سلمى ليأتوه بخبر القوم فخرجوا وساروا يوما الى الليل فرجع اليه عمرو بن ثنى فقالوا ما أرجعك فقال لم أكن فى أرض العجم وقتلت أرض جاهلها وقتل أرضا عالمها ومضى طليحة وعمرو بن معدى كرب فلما كان آخر الليل رجع عمرو فقالوا ما أرجعك قال سرنا يوما وليلة ولم نر شيأ فرجعت ومضى طليحة حتى انتهى الى نهاوند وبين موضع المسلمين الذين هم به ونهاوند بضعة وعشرون فرسخا فقال الناس ارتد طليحة الثانية فعلم كلام القوم ورجع فلما رأوه كبروا فقال ماشأنكم فاعلموه بالذى خافوا عليه فقال والله لو لم يكن دين الا العربى ما كنت لاجزر العجم الطماطم هذه العرب العادية فاعلم النعمان أنه ليس بينهم وبين نهاوند شئ يكرهه ولا أحد فرحل النعمان وعبى أصحابه وهم ثلاثون ألفا فجعل على مقدمته أخاه نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن وعلى المجردة القعقاع بن عمرو وعلى الساقة مجاشع بن مسعود وقد توافت اليه امداد المدينة فيهم المغيرة بن شعبة فانتهوا الى اسبيذهان والفرس وقوف على تعبيتهم وأميرهم الفيرزان وعلى مجنبتيه الزردق وبهمن جاذويه الذى جعل مكان ذى الحاجب وقد توافى اليهم الامداد بنهاوند كل من غاب عن القادسية ليسوا بدونهم فلما رآهم النعمان كبر وكبر معه الناس فتزلزلت الأعاجم وحطت العرب الاثقال وضرب فسطاط النعمان فابتدر أشراف الكوفة فضربوا فساطيطهم ونشب القتال بعد حط الاثقال فاقتتلوا يوم الاربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم سجال وانهم انحجزوا فى خنادقهم يوم الجمعة وحاصرهم المسلمون وأقاموا عليهم ماشاء

الله والفرس بالخيار لا يخرجون الا اذا أرادوا الخروج فخاف المسلمون أن يطول أمرهم حتى اذا كان ذات يوم فى جمعة من الجمع اجتمع أهل الرأى من المسلمين وقالوا نراهم علينا بالخيار وأتوا النعمان فى ذلك فوافوه وهو يروى فى الذى رووا فيه فأخبروه فبعث الى من بقى من أهل النجدات والرأى فأحضرهم فتكلم النعمان فقال قد ترون المشركين واعتصامهم بخنادقهم ومدنهم وانهم لا يخرجون الينا الا اذا شاؤا ولا يقدر المسلمون على اخراجهم وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق فما الرأى الذى به نستخرجهم الى المناجزة وترك التطويل فتكلم عمرو بن غنم وكان أكبر الناس وكانوا يتكلمون على الاسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم وقاتل من أتاك منهم فردوا عليه رأيه وتكلم عمرو بن معدى كرب فقال ناهضهم وكابدهم ولا تخفهم فردوا جميعا عليه رأيه وقالوا انما ناطح بنا الجدران وهى أعوان علينا وقال طليحة أرى أن تبعث خيلا لينشبوا القتال فاذا اختلطوا بهم رجعوا الينا استطرادا فانا لم نستطردهم فى طول ما قاتلناهم فاذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضى الله فيهم وفيناما أحب فأمر القعقاع بن عمرو وكان على المجردة فأنشب القتال فأخرجهم من خنادقهم كأنهم جبال حديد وقد تواثقوا أن لا يفروا وقد قرن بعضهم بعضا كل سبعة فى قران والقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا فلما خرجوا نكص ثم نكص واغتنمها الاعاجم ففعلوا كما ظن طليحة وقالوا هى هى فلم يبق أحد الا من يقوم على الابواب وركبوهم ولحق القعقاع بالناس وانقطع الفرس عن حصنهم بعض الانقطاع والمسلمون على تعبية فى يوم جمعة صدر النهار وقد عهد النعمان الى الناس عهده وأمرهم أن يلزموا الارض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ففعلوا واستتروا بالحجف من الرمى وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراح وشكا الناس وقالوا للنعمان ألا ترى ما نحن فيه فما تنتظر بهم ائذن للناس فى قتالهم فقال رويدا رويدا وانتظر النعمان بالقتال أحب الساعات كانت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقى العدو فيها وذلك عند الزوال فلما

كان قريبا من تلك الساعة ركب فرسه وسار فى الناس ووقف على كل راية يذكرهم ويحرضهم ويمنيهم الظفر وقال لهم انى مكبر ثلاثا فاذا كبرت الثالثة فانى حامل فاحملوا وان قتلت فالأمر بيد حذيفة بن اليمان فان قتل ففلان حتى عد سبعة آخرهم المغيرة ثم قال اللهم اعزز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على اعزاز دينك ونصر عبادك وقيل بل قال اللهم انى أسألك أن تقر عينى اليوم بفتح يكون فيه عز الاسلام واقبضنى شهيدا فبكى الناس ورجع الى موقفه وكبر ثلاثا والناس سامعون مطيعون مستعدون للقتال وحمل النعمان والناس معه وانقضت رايته انقضاض العقاب والنعمان معلم ببياض القبا والقلنسوة فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع السامعون بوقعة كانت أشد منها وما كان يسمع الا وقع الحديد وصبر لهم المسلمون صبرا عظيما وانهزم الاعاجم وقتل منهم ما بين الزوال والاعتام ما طبق أرض المعركة دما يزلق الناس والدواب فلما أقر الله عين النعمان بالفتح استجاب له فقتل شهيدا رمى بسهم فى خاصرته فقتله وزلق به فرسه فصرع فسجاه أخوه نعيم بثوب وأخذ الراية وناولها حذيفة فأخذها وتقدم موضع النعمان وترك نعيما مكانه وقال لهم المغيرة اكتموا مصاب أميركم حتى تنظروا ما يصنع الله فينا وفيهم لئلا يوهن الناس فاقتتلوا فلما أظلم الليل عليهم انهزم المشركون وذهبوا وتبعهم المسلمون وعمى الله على المشركين قصدهم فتركوه وأخذوا نحو اللهب الذى كانوا دونه فوقعوا فيه فكان الواحد منهم يقع فيقع عليه ستة بعضهم على بعض فى قياد واحد فيقتلون جميعا وجعل يعقرهم حسك الحديد فمات منهم فى اللهب مائة ألف أو يزيدون سوى من قتل فى المعركة وقيل قتل فى اللهب ثمانون ألفا سوى من قتل فى الطلب ولم يفلت الا الشريد ونجا الفيرزان من الصرعى فهرب نحو همذان فتابعه نعيم بن مقرن وقدم القعقاع قدامه فأدركه بثنية همذان وهى اذ ذاك مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلا فحبسه الدواب على أجله فلما لم يجد طريقا نزل عن دابته وصعد الجبل فتبعه القعقاع راجلا فأدركه فقتل المسلمون الفيرزان على الثنية وقالوا

ان لله جنودا من عسل واستاقوا العسل وما معه من الاحمال وسميت الثنية ثنية العسل ودخل المشركون همذان والمسلمون فى آثارهم فنزلوا عليها وأخذوا ماحولها فلما رأى ذلك خسرشنوم استأمنهم ولما تم الظفر للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم النعمان بن مقرن فقال لهم أخوه معقل هذا أميركم قد أقر الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة فاتبعوا حذيفة ودخل المسلمون نهاوند يوم الوقعة بعد الهزيمة واحتوا على مافيها من الامتعة والاموال والاسلاب والاثاث وأتاهم الهربذ صاحب بيت النار على أمان فقال لحذيفة أتؤمنني ومن شئت على ان أخرج لك ذخيرة لكسرى تركت عندى لنوائب الزمان قال نعم فأحضر جوهرا نفيسا فى سفطين فأرسلهما حذيفة مع الاخماس الى عمر وكان حذيفة قد نفل منها وأرسل الباقى مع السائب بن الاقرع الثقفى وكان كاتبا حاسبا أرسله عمر اليهم وقال ان فتح الله عليكم فاقسم على المسلمين فيئهم وخذ الخمس وائتنى به وان هلك هذا الجيش فاذهب فبطن الارض خير من ظهرها قال السائب فلما فتح الله على المسلمين وأحضر الفارسى السفطين اللذين كانا عنده فاذا فيهما اللؤلؤ والزبرجد والياقوت فلما فرغت من القسمة احتملتهما معى وقدمت على عمر وكان عمر رضى الله عنه قد قدر الوقعة فبات يتململ ويخرج ويتوقع الاخبار فبينما رجل من المسلمين قد خرج فى بعض حوائجه فرجع الى المدينة ليلا فمر به راكب فسأله من أين أقبل فقال من نهاوند وأخبره بالفتح وقتل النعمان فلما أصبح الرجل تحدث بهذا بعد ثلاث من الوقعة فبلغ الخبر عمر فسأله فأخبره فقال ذلك بريد الجن ثم قدم البريد بعد ذلك فأخبره بما يسره ولم يخبره بقتل النعمان قال السائب فخرج عمر من الغد يتوقع الاخبار قال فأتيت فقال ماوراءك فقلت خير ياأمير المؤمنين فتح الله عليك وأعظم الفتح واستشهد النعمان بن مقرن فقال عمر انا لله وانا اليه راجعون ثم بكى فنشج حتى بانت فروع كتفيه فوق كتده فلما رأيت ذلك وما لقى قلت ياأمير المؤمنين ما أصيب بعده رجل يعرف وجهه فقال أولئك المستضعفون من المسلمين ولكن الذى أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم ومايصنع

أولئك بمعرفة عمر ثم أخبرته بالسفطين فقال أدخلهما بيت المال حتى ننظر فى شأنهما والحق بجندك قال ففعلت وخرجت سريعا الى الكوفة وبات عمر فلما أصبح بعث فى أثرى رسولا فما أدركنى حتى دخلت الكوفة فأنخت بعيرى وأناخ بعيره على عرقوب بعيرى فقال الحق بأمير المؤمنين فقد بعثنى فى طلبك فلم أقدر عليك الا الآن قال فركبت معه فقدمت على عمر فلما رآنى قال لى ومالى وللسائب قلت ولماذا قال ويحك والله ماهو الا ان نمت الليلة التى خرجت فيها فباتت الملائكة تسحبنى الى السفطين يشتعلان نارا يقولون لنكوينك بهما فأقول انى سأقسمهما بين المسلمين فخذهما عنى فبعهما فى أعطية المسلمين وأرزاقهم قال فخرجت بهما فوضعتهما فى مسجد الكوفة فابتاعهما منى عمرو بن حريث المخزومى بألفى ألف درهم ثم خرج بهما الى أرض الاعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف فما زال أكثر أهل الكوفة مالا وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف وسهم الراجل ألفين وكان المسلمون يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لانه لم يكن بعده للفرس اجتماع وملك المسلمون بلادهم ولم يزل يزدجرد أمره فى انتكاس ونقصان وكلما أخذت منه مدينة انتقل الى أخرى الى ان قتل فى خلافة عثمان رضى الله عنه سنة احدى وثلاثين وسيأتى تفصيل ذلك ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر فتح الدينور والصيمرة وغيرهما ﴾

لما انصرف أبو موسى من نهاوند وكان قد جاء مددا على بعث أهل البصرة مر بالدينور فأقام عليها خمسة أيام وصالحه أهلها على الجزية ومضى فصالحه أهل شيروان على مثل صلحهم وبعث السائب بن الاقرع الثقفى الى الصيمرة مدينة مهرجانقذق ففتحها صلحا

﴿ ذكر فتح همذان والماهين وغيرهما ﴾

لما انهزم المشركون دخل من سلم منهم همذان وحاصرهم نعيم بن مقرن والقعقاع ابن عمرو فلما رأى ذلك خسرشنوم استأمنهم وقبل منهم الجزية على ان يضمن منهم همذان ودستبى وأن لا يؤتى المسلمون منهم فاجابوه الى ذلك وأمنوه ومن

معه من الفرس وأقبل كل من كان هرب منهم و بلغ الخبر الماهين بفتح همذان وملكها فاقتدوا بخشر شنوم وكاتبوا حذيفة فاجابهم الى ماطلبوا وأجمعوا على القبول

﴿ ذكر فتح أصبهان ﴾

بعث عمر رضى الله عنه اليها عبد الله بن عبد الله بن عتبان وكان شجاعا من أشراف الصحابة ومن وجوه الانصار وأمده بأبى موسى وكان على جند أصبهان الاسبيذان وعلى مقدمته شهر يار بن جاذويه شيخ كبير فى جمع عظيم فاقتتلوا برستاق أصبهان قتالا شديدا ودعا الشيخ الى البراز فبرز له عبد الله بن ورقاء الرياحى فقتله وانهزم أهل أصبهان وسمى ذلك الرستاق رستاق الشيخ الى هذا اليوم وصالحهم الاسبيذان على رستاق الشيخ وهو أول رستاق أخذ من أصبهان ثم سار عبد الله الى مدينة جى وهى مدينة أصبهان والملك بأصبهان الفاذوسفان فنزل بالناس على جى وحاصرها وقاتلها ثم صالحه الفاذوسفان على أصبهان وعلى أن من أقام الجزية أقام على ماله وان يجرى من أخذت أرضه عنوة مجراهم ومن أبى وذهب كانت لكم أرضه فخرج الناس من جى ودخلوا فى الذمة الا ثلاثين رجلا من أهل أصبهان فلحقوا بكرمان ثم قدم كتاب عمر الى عبد الله يأمره بالمسير الى سهيل بن عدى ليكون معه على قتال من بكرمان فسار واستخلف على أصبهان السائب بن الاقرع ولحق بسهيل ونازلوا كرمان حتى نفوها وسيأتى ذكر ذلك فى فتوحات سنة ثلاث وعشرين

﴿ ذكر فتح زويلة ﴾

فى سنة احدى وعشرين بعث عمرو بن العاص من مصر عقبة بن نافع الفهرى بجيش فافتتح زويلة صلحا وما بين برقة وزويلة فصار سلما للمسلمين

﴿ ذكر فتح همذان ثانيا ﴾

قد تقدم مسير نعيم بن مقرن الى همذان وفتحها على يده و يد القعقاع بن عمرو فلما رجعا عنها كفر أهلها فرجع اليهم نعيم بن مقرن فى سنة اثنتين وعشرين وحاصرهم ثم سألوا الصلح ففعل وقبل منهم الجزية وقيل ان ذلك كان سنة أربع

وعشر ين بعد مقتل عمر رضي الله عنه لستة أشهر وان نعيما خرج اليهم في جيش كثيف وقاتلهم قتالا شديدا وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند فانهزم الفرس هزيمة قبيحة وقتل منهم مقتلة كبيرة لا يحصون وقيل ان المغيرة بن شعبة حين كان عاملا على الكوفة أرسل جرير بن عبد الله البجلي الى همذان فقاتله أهلها وأصيبت عين جرير بسهم فقال أحتسبها عند الله الذي زين بها وجهي وسلبنيها في سبيله ثم فتحها على مثل صلح نهاوند وغلب على أرضها قسرا وقيل كان فتحها على يد المغيرة بنفسه وكان جرير على مقدمته وقيل فتحها قرظة بن كعب الانصاري

﴿ ذكر فتح قزوين وزنجان ﴾

لما سير المغيرة جريرا الى همذان ففتحها سير البراء بن عازب في جيش الى قزوين فسار البراء حتى أتى أبهر وهو حصن فقاتلوه ثم طلبوا الامان فأمنهم وصالحهم ثم غزا قزوين فلما بلغ أهلها الخبر أرسلوا الى الديلم يطلبون النصرة فوعدوهم ووصل المسلمون اليهم فخرجوا لقتالهم والديلم وقوف على الجبل لا يمدون يدا فلما رأى ذلك أهل قزوين طلبوا الصلح على صلح أبهر ثم غزا البراء الديلم حتى أدوا اليه الاتاوة وغزا جيلان والطيلسان وفتح زنجان عنوة ولما ولي الوليد بن عقبة الكوفة غزا أيضا الديلم وجيلان وموقان والببر والطيلسان ثم انصرف

﴿ ذكر فتح الري ﴾

في سنة اثنتين وعشرين غزا نعيم بن مقرن الري وخرج من الري الزينبي أبو الفرخان فلقي نعيما طالبا الصلح ومسالمه ومخالفا ملك الري وهو سياوخش بن مهران بن بهرام فاستمد ملك الري أهل دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان فامدوه خوفا من المسلمين فالتقوا مع المسلمين في سفح جبل الري الى جنب مدينتها فاقتتلوا به وكان الزينبي قال لنعيم ان القوم كثير وأنت في قلة فابعث معي خيلا أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به وناهضهم أنت فانهم اذا خرجنا عليهم لم يثبتوا لك فبعث معه نعيم خيلا من الليل عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو فأدخلهم الزينبي المدينة ولا يشعر القوم وبيتهم نعيم بياتا فشغلهم عن مدينتهم

فاقتتلوا وصبروا حتى سمعوا التكبير من ورائهم فانهزموا فقتلوا مقتلة عظيمة وفاء الله على المسلمين بالرى نحوا مما فى المدائن وصالحه الزينبى على الرى ومرزبة عليهم نعيم وراسله المصمغان فى الصلح على شئ يفتدى به منه على دنباوند فاجابه الى ذلك وقيل ان فتح الرى كان سنة احدى وعشرين

﴿ ذكر فتح قومس وجرجان وطبرستان ﴾

لما أرسل نعيم الى عمر بالبشارة واخماس الرى كتب اليه عمر يأمره بارسال أخيه سويد بن مقرن ومعه هند بن عمرو الجملى وغيره الى قومس فسار سويد نحو قومس فلم يقم له أحد فأخذها سلما وعسكر بها وكاتبه الذين لجؤا الى طبرستان منهم أهل المفاوز فأجابهم الى الصلح والجزية ثم سار الى جرجان فعسكر بها فكاتبوه وصالحوه على الجزية وقيل ان ذلك كان سنة ثلاثين فى خلافة عثمان رضى الله عنه

﴿ ذكر فتح طرابلس الغرب وبرقة ﴾

فى سنة اثنتين وعشرين سار عمرو بن العاص من مصر الى برقة فصالحه أهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب فحاصرها شهرا فلم يظفر بها وكان قد نزل شرقيها فخرج رجل من المسلمين من بنى مدلج يتصيد فى سبعة نفر وسلكوا غربى المدينة فلما رجعوا اشتد عليهم الحر فأخذوا على جانب البحر ولم يكن السور متصلا بالبحر والبلد فدخلوا المدينة من ذلك الجانب وكبروا فلما سمع الروم التكبير فى البلد ظنوا ان المسلمين دخلوها فلم يكن لهم ملجأ الا سفنهم ونظر عمرو ومن معه فرأى السيوف فى المدينة وسمعوا الصياح فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد فلم يفلت من الروم الا القليل بما خف معهم فى مراكبهم وكان أهل حصن سبرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس فلما امتنع عليه فتح طرابلس أمنوا واطمأنوا فلما افتتحت طرابلس سير عمرو جندا الى سبرة فصبحوها وقد فتح أهلها الباب وأخرجوا مواشيهم لتسرح لانهم لم يكن بلغهم خبر فتح طرابلس فوقع المسلمون عليهم ودخلوا الحصن مكابرة وغنموا ما فيه وعادوا الى

عمرو ثم عاد عمرو الى برقة وقد اجتمع بها قوم من البربر فصالحوه على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها جزية وشرطوا أن يبيعوا من أرادوا من أولادهم في جزيتهم

﴿ ذكر فتح أذربيجان ﴾

لما فتح نعيم الري بعث سماك بن خرشة الانصاري وليس بابي دجانة ممدا البكير بن عبد الله بأذربيجان وكان بكير قد سار اليها بأمر عمر رضى الله عنه فأمر عمر نعيما أن يمد بكيرا بسماك بن خرشة وكان بكير حين بعث اليها سار حتى اذا طلع بجبال جرميدان طلع عليهم اسفنديار بن فرخزاد فاقتتلوا فانهزم الفرس وأخذ بكير اسفنديار أسيرا فقال له اسفنديار الصلح أحب اليك أم الحرب فقال بل الصلح فقال امسكني عندك فان أهل اذربيجان ان لم أصالح عليهم أو أجئ اليهم لم يقوموا لك وجلوا الى الجبال التي حولها ومن كان على التحصن تحصن فأمسكه عنده وصارت البلاد اليه الا ما كان من حصن وقدم عليه سماك بن خرشة ممدا واسفنديار في أمان وقد افتتح ما يليه وافتتح عتبة بن فرقد ما يليه وكتب بكير الى عمر يستأذنه في التقدم فأذن له أن يتقدم نحو الباب وأن يستخلف على ما افتتحه فاستخلف عليه عتبة بن فرقد فأقر عتبة سماك بن خرشة على عمل بكير الذي كان افتتحه وجمع عمر اذربيجان كلها لعتبة بن فرقد وكان بهرام بن فرخزاد قصد طريق عتبة وأقام به في عسكره حتى قدم عتبة فاقتتلوا فانهزم بهرام فلما بلغ خبره اسفنديار وهو في الاسر عند بكير قال الآن تم الصلح وطفئت الحرب فصالحه وأجاب الى ذلك أهل اذربيجان كلهم وعادت اذربيجان سلما وكتب بذلك بكير وعتبة الى عمر وبعثا بالخمس

﴿ ذكر فتح الباب ﴾

الباب مدينة عظيمة بناها كسرى ففي هذه السنة أعني سنة اثنتين وعشرين أمر عمر رضى الله عنه سراقة بن عمرو وكان يدعى ذا النور بالمسير الى الباب وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وكان له صحبة وكان أيضا يدعى ذا النور وجعل على أحد مجنبتيه حذيفة بن سعيد الغفاري وعلى الاخرى بكير ابن عبد الله الليثي وكان بكير سبقه الى الباب وجعل على المقاسم سلمان بن ربيعة

الباهلي فسار سراقة فلما خرج من اذربيجان قدم بكير الى الباب وكان الملك بها يومئذ شهريار وهو من ولد شهريار الذى أفسد بنى اسرائيل وغزا الشام بهم فلما أطل عبد الرحمن بن ربيعة على الباب كاتبه شهريار واستأمنه على أن يأتيه ففعل فأتاه فقال انى بازاء عدو كلب وأمم مختلفة ليست لهم احساب ولا ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعينهم على ذى الحسب ولست من القبج ولا الارمن فى شئ وانكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فانا منكم ويدى مع أيديكم وجزيتى اليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تسومونا الجزية فتوهنونا بعدوكم فسيره عبد الرحمن الى سراقة فلقيه بمثل ذلك فأجابه بقبول ذلك منه ثم قال له سراقة لا بد من الجزية ممن يقيم ولا يحارب العدو فأجابه الى ذلك وكتب سراقة فى ذلك الى عمر فأجازه عمر واستحسنه

﴿ ذكر فتح موقان ﴾

لما فرغ سراقة من الباب أرسل بكير بن عبد الله وحبيب بن مسلمة وحذيفة بن أسيد وسلمان بن ربيعة الى أهل تلك الجبال المحيطة بارمينية فوجه بكيرا الى موقان وحبيبا الى تفليس وحذيفة الى جبال اللان وسلمان الى الوجه الآخر وكتب سراقة الى عمر بفتح الباب وبارسال هؤلاء النفر الى الجهات المذكورة فأتى عمر أمرا لم يظن أن يستتم له بغير مؤنة لانه فرج عظيم وجند عظيم فلما استوثقوا واستحلوا الاسلام مات سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة ولم يفتح أحد من أولئك القواد الا بكير فانه فض أهل موقان ثم تراجعوا على الجزية على كل حالم دينارا ولما بلغ عمر موت سراقة واستخلافه عبد الرحمن بن ربيعة أقر عبد الرحمن على فرج الباب وأمره بغزو الترك

﴿ ذكر غزوة الترك ﴾

لما أمر عبد الرحمن بن ربيعة بغزو الترك وكانوا فى بلنجر بأقصى ولاية الباب وهم أمم كثيرة فخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع الباب فقال له شهريار ما تريد أن تصنع قال أريد غزو الترك فى بلنجر قال انا لنرضى منهم أن يدعونا من دون

الباب قال عبد الرحمن لكنا لا نرضى حتى نغزوهم فى ديارهم و بالله ان معنا أقواما لو يأذن لهم أميرنا فى الامعان لبلغت بهم الروم قال وما هم قال أقوام صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا فى هذا الأمر بنية ولا يزال هذا الامر لهم دائما ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يلفتوا عن حالهم فغزوا بلنجر غزاة فى زمن عمر فقالوا ما اجترأ علينا الا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت فهربوا منه وتحصنوا فرجع بالغنيمة والظفر وقد بلغت خيله البيضاء على رأس مائتى فرسخ من بلنجر وعادوا ولم يقتل منهم أحد ثم غزاهم أيام عثمان بن عفان غزوات فظفر كما كان يظفر حتى تبدل أهل الكوفة وظهر فيهم الاختلال فغزا عبد الرحمن ابن ربيعة بعد ذلك الترك فتذامرت عليه واجتمعوا فى الفيافى فرمى رجل منهم رجلا من المسلمين على غرة فقتله وهرب عنه أصحابه فخرجوا عليه عند ذلك فاقتتلوا واشتد قتالهم ونادى مناد من الجو صبرا عبد الرحمن وموعدكم الجنة فقاتل عبد الرحمن حتى قتل وانكشف أصحابه وأخذ الراية أخوه سلمان بن ربيعة فقاتل بها ونادى مناد من الجو صبرا آل سلمان فقال سلمان أوترى جزعا وخرج سلمان بالناس ومعه أبو هريرة الدوسى على جيلان فقطعوها الى جرجان ولم يمنعهم ذلك من انجاء جسد عبد الرحمن فهم يستسقون به الى الآن

﴿ ذكر فتح خراسان ﴾

كان فتح خراسان فى سنة ثلاث وعشرين على الصحيح وسبب ذلك أن يزدجرد سار الى الرى بعد هزيمة أهل جلولاء وانتهى اليها وعليها أبان جاذويه فوثب على يزدجرد فاخذه فقال يزدجرد يا ابان تغدرنى قال لا ولكن قد تركت ملكك فصار فى يد غيرك فاحببت أن أكتتب ما كان لى من شئ وأخذ خاتم يزدجرد واكتتب صكاكا بكل ما أعجبه ثم ختم عليها ورد الخاتم الى يزدجرد فسار يزدجرد من الرى الى أصبهان ثم منها الى كرمان والنار التى يعبدونها معهم ثم قصد خراسان فأتى مرو فنزلها وبنى للنار بيتا واطمأن وأمن من أن يؤتى وان له من بقى من الاعاجم وكاتب الهرمزان وأثار أهل فارس فنكثوا وأثار أهل الجبال والفيرزان

فنكثوا فاذن عمر للمسلمين فدخلوا بلاد الفرس وكتب للاحنف بن قيس بالمسير الى خراسان وكان قبل ذلك قد عقد له لواء عليها مع الالوية التى عقدها فسار بجيش كثيف فدخلها من الطبسين فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار بن فلان العبدى ثم سار نحو مرو الشاهجان فأرسل الى نيسابور مطرف ابن عبد الله بن الشخير والى سرخس الحارث بن حسان فلما دنا الاحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد الى مرو الرود حتى نزلها ونزل الاحنف مرو الشاهجان وكتب يزدجرد وهو بمرو الروذ الى خاقان والى ملك الصغد والى ملك الصين يستمدهم وخرج الاحنف من مرو الشاهجان واستخلف عليها حارثة بن النعمان الباهلى بعد ما لحقت به أمداد الكوفة وسار نحو مرو الروذ فلما سمع يزدجرد سار عنها الى بلخ ونزل الاحنف مرو الروذ وقدم أهل الكوفة الى يزدجرد واتبعهم الاحنف فالتقى أهل الكوفة و يزدجرد ببلخ وانهزم يزدجرد وعبر النهر ولحق الاحنف بأهل الكوفة وقد فتح الله عليهم فبلخ من فتوحهم وتتابع أهل خراسان فنهم من هرب ومنهم من شد على الصلح فيما بين نيسابور الى طخارستان وعمد الاحنف الى مرو الروذ واستخلف على طخارستان ربعى بن عامر وكتب الاحنف الى عمر بالفتح فقال عمر وددت أن بيننا وبينها بحرا من نار فقال على ولم يا أمير المؤمنين قال لان أهلها ينتقضون منها ثلاث مرات فيجتاحون فى الثالثة فكان ذلك باهلها أحب الى من أن يكون بالمسلمين وكتب عمر الى الاحنف ان يقتصر على مادون النهر ولا يجوزه ولما عبر يزدجرد النهر مهزوما أنجده خاقان من الترك وأهل فرغانة والصغد فرجع يزدجرد وخاقان الى خراسان فنزل بلخ ورجع أهل الكوفة الى الاحنف بمرو الروذ ونزل المشركون عليه بمرو أيضا وكان الاحنف لما بلغه خبر عبور يزدجرد وخاقان النهر اليه خرج ليلا يستمع هل يسمع برأى ينتفع به فمر برجلين ينقيان علفا وأحدهما يقول لصاحبه لو أسندنا الامير الى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقا وكان الجبل فى ظهورنا فلا يأتون من خلفنا وكان قتالنا من

وجه واحد رجوت ان ينصرنا الله عليهم فرجع فلما أصبح جمع الناس ورحل بهم الى سفح الجبل وكان معه من أهل البصرة عشرة آلاف ومن أهل الكوفة نحو منهم وأقبلت الترك ومن معها فنزلت وجعلوا يغادونهم القتال ويراوحونهم وفي الليل يتنحون عنهم فخرج الاحنف ليلة طليعة لاصحابه حتى اذا كان قريبا من عسكر خاقان وقف فلما كان في وجه الصبح خرج فارس الترك بطوقه فضرب بطبله ثم وقف قريبا من العسكر موقفا يقفه مثله فحمل عليه الاحنف فتقاتلا فطعنه الاحنف فقتله وأخذ طوق التركي ووقف فخرج آخر من الترك ففعل مثل فعل صاحبه فحمل عليه الاحنف فتقاتلا فطعنه فقتله وأخذ طوقه ووقف ثم خرج الثالث من الترك ففعل مثل فعل الرجلين فحمل عليه الاحنف فقتله ثم انصرف الاحنف الى عسكره وكانت عادة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم أكفاء كلهم يضرب بطبله ثم يخرجون بعد خروج الثالث فلما خرجوا تلك الليلة بعد الثالث فأتوا على فرسانهم مقتولين فقام خاقان وتطير فقال قد طال مقامنا وأصيب فرساننا مالنا في قتال هؤلاء القوم خير فرجعوا وارتفع النهار للمسلمين ولم يروا منهم أحدا وأتاهم الخبر بانصراف خاقان والترك الى بلخ وقد كان يزدجرد ترك خاقان مقابل المسلمين بمروالروذ وانصرف الى مرو الشاهجان فتحصن حارثة بن النعمان ومن معه فحصرهم واستخرج يزدجرد خزائنه من موضعها وخاقان مقيم ببلخ فلما جمع يزدجرد خزائنه وكانت كبيرة عظيمة وأراد ان يلحق بخاقان قال له أهل فارس أي شيء تريد ان تصنع قال أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين قالوا ان هذا رأي سوء ارجع بنا الى هؤلاء القوم فنصالحهم فانهم أوفياء وهم أهل دين وان عدوا يلينا في بلادنا أحب الينا مملكة من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا ندري ما وفاؤهم فأبى عليهم فقالوا دع خزائننا نردها الى بلادنا ومن يلينا لا تخرجها من بلادنا فأبى فاعتزلوه وقاتلوه وأخذوا الخزائن واستولوا عليها وانهزم منهم ولحق بخاقان وعبر النهر من بلخ الى فرغانة وأقام يزدجرد ببلد الترك فلم يزل مقيما

بهازمن عمركله الى ان كفر أهل خراسان زمن عثمان وكان يكاتبهم ويكاتبونه
وسيرد ذكر ذلك فى موضعه ثم أقبل أهل فارس بعد رحيل يزدجرد على الاحنف
فصالحوه ودفعوا اليه تلك الخزائن والاموال وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم
على أفضل ما كانوا عليه زمن الأكاسرة واغتبطوا بملك المسلمين وأصاب
الفارس يوم يزدجرد كسهمه يوم القادسية وسار الاحنف الى بلخ فنزلها بعد
عبور خاقان النهر منها ونزل أهل الكوفة فى كورها الاربع ثم رجع الى مرو
الروذ فنزلها وكتب بفتح خاقان ويزدجرد الى عمر ولما عبر خاقان ويزدجرد
النهر لقوا رسول يزدجرد الذى أرسله الى ملك الصين فأخبرهما أن ملك الصين
قال له صف لى هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم فانى أراك تذكر قلة
منهم وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل منكم مع كثرتكم الابخير فيهم وشر
فيكم فقلت سلنى عما أحببت فقال أيوفون بالعهد قلت نعم قال ومايقولون لكم
قبل القتال قلت يدعوننا الى واحدة من ثلاث اما دينهم فان أجبنا أجرونا مجراهم
أوالجزية والمنعة أوالمنابذة قال فكيف طاعتهم أمراءهم قلت أطوع قوم
وأرشدهم قال فما يحلون ومايحرمون فأخبرته قال هل يحلون ماحرم عليهم أو
يحرمون ماحلل لهم قلت لا قال ان هؤلاء القوم لا يزالون على ظفر حتى يحلوا
حرامهم ويحرموا حلالهم ثم قال أخبرنى عن لباسهم فأخبرته وعن مطاياهم فقلت
الخيل العراب ووصفتها له قال نعمت الحصون ووصفت له الابل وبروكها وقيامها
بحملها فقال هذه صفة دواب طوال الاعناق وكتب معه الى يزدجرد أنه لم يمنعنى
ان أبعث اليك بجند أوله بمرو وآخره بالصين الاجهالة بما يحق على ولكن هؤلاء
القوم الذين وصفهم لى رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها ولو خلالهم سربهم
أزالونى ماداموا على وصفهم فسالمهم وارض منهم بالمسالمة ولا تهيجهم مالم يهيجوك
فأقام يزدجرد بفرغانة ومعه آل كسرى بعهد من خاقان ولما وصل خبر الفتح الى عمر
ابن الخطاب جمع الناس وخطبهم وقرأ عليهم كتاب الفتح وحمد الله تعالى فى خطبته
على انجاز وعده ثم قال ألا وان ملك المجوسية قد هلك فليس يملكون من بلادهم

شبرا يضر بمسلم ألا وان الله أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون فلا تبدلوا فيستبدل الله بكم غيركم فانى لأخاف على هذه الامة ان تؤتى الامن قبلكم

﴿ ذكر فتح شهرزور والصامغان ﴾

استعمل عمر رضى الله عنه عزرة بن قيس على حلوان فحاول عزرة فتح شهرزور فلم يقدر عليها فغزاها عتبة بن فرقد ففتحها بعد قتال على مثل صلح حلوان فكانت العقارب تصيب الرجل من المسلمين فيموت وصالح أهل الصامغان ودارابا ذ على الجزية والخراج وقتل خلقا كثيرا من الاكراد وكتب الى عمران فتوحى قد بلغ أذربيجان فولاه اياها وولى هرثمة بن عرفجة الموصل ولم تزل شهرزور وأعمالها مضمومة الى الموصل حتى أفردت عنها آخر خلافة الرشيد

﴿ ذكر غزو معاوية بلاد الروم ﴾

فى هذه السنة أعنى سنة اثنتين وعشرين غزا معاوية بلاد الروم ودخلها فى عشرة آلاف من المسلمين فأثخن فيهم وغنم ورجع سالما

﴿ ذكر الخبر عن فتح توج ﴾

لما خرج أهل البصرة الذين توجهوا الى فارس أمراء عليها وكان فيهم سارية بن زنيم الكنانى فساروا وأهل فارس مجتمعون بتوج فلم يقصدهم المسلمون بل توجه كل أمير الى الجهة التى أمر عليها وبلغ ذلك أهل فارس فتفرقوا الى بلدانهم كما افترق المسلمون فكانت تلك هزيمتهم وتشتت أمورهم فقصد مجاشع بن مسعود السلمى سابور وازدشير فالتقى هو والفرس بتوج فاقتتلوا ماشاء الله ثم انهزم الفرس وقتلهم المسلمون كيف شاؤا كل قتلة وغنموا ما فى عسكرهم وحصروا توج فافتتحوها وقتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا ما فيها وكان ذلك افتتاح سنة ثلاث وعشرين وهذه توج الاخيرة والاولى هى التى استنقذتها جنود العلاء بن الحضرمى أيام طاوس ثم دعوا الى الجزية فرجعوا وأقروا بها وأرسل مجاشع بن مسعود السلمى بالبشارة والاخماس الى عمر رضى الله عنه

﴿ ذكر فتح اصطخر وجور وغيرهما ﴾

في سنة ثلاث وعشرين قصد عثمان بن أبي العاص الثقفي اصطخر وكان عمر رضي الله عنه عقد له لواء اصطخر لما عقد الالوية لمن أذن لهم في الانسياح الى بلاد فارس فالتقى عثمان هو وأهل اصطخر بجور فاقتتلوا وانهزم الفرس وفتح المسلمون جور ثم اصطخر وقتلوا ماشاء الله ثم فرّ منهم من فر فدعاهم عثمان الى الجزية والذمة فأجابه الهربذ اليها فتراجعوا وكان عثمان قد جمع الغنائم لما هزمهم فبعث بخمسها الى عمر وقسم الباقي في الناس وفتح عثمان كيزرون والنوبندجان وغلب على أرضها وفتح هو وأبو موسى مدينة شيراز وارجان وفتح شينيز على الجزية والخراج وقصد عثمان أيضا جنابا ففتحها ولقيه جمع الفرس بناحية جهرم فهزمهم وفتحها ثم ان شهرك خلع الطاعة في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان فوجه اليه عثمان بن أبي العاص ابنه وأتته الامداد من البصرة وأميرهم عبيد الله ابن معمر وشبل بن معبد فالتقوا بأرض فارس فقال شهرك لابنه وهما في المعركة وبينهما وبين قرية شهرك ثلاثة فراسخ وتسمى القرية أيضا شهرك يا بنيّ أين يكون غداؤنا ههنا أم بشهرك قال له يا أبت ان تركونا فلا يكون غداؤنا ههنا ولا بشهرك ولا يكون الا في المنزل وما أراهم يتركوننا فما فرغا من كلامهما حتى شب المسلمون الحرب فاقتتلوا قتالا شديدا وقتل شهرك وابنه وخلق كثير والذي قتل شهرك الحكم بن أبي العاص أخو عثمان وقيل قتله سوار بن همام العبدي حمل عليه فطعنه فقتله وحمل ابن شهرك على سوار فقتله وحوصر الفرس بمدينة سابور فصالح عليها ملكها ازرنبان وكان في جيوش المسلمين أبو صفرة والد المهلب قيل ان عبد الله بن معمر أمير الامداد التي جاءت لهذا الجيش من البصرة بلغه ان ازرنبان يريد الغدر به فقال له أحب أن تتخذ لأصحابي طعاما وتذبح لهم بقرة وتجعل عظامها في الجفنة التي تليني فاني أحب أن أتمشش العظام ففعل وجعل يأخذ العظم الذي لا يكسر الا بالفؤوس فيكسره بيده ويأخذ مخه وكان من أشد الناس فقام ازرنبان وقبل قدمه وقال هذا مقام العائذ بك وأعطاه

عهدا

﴿ ذكر فتح نساودارابجرد ﴾

قد تقدم ان عمر رضي الله عنه لما عقد ألوية لمن أذن لهم في الانسياح في بلاد فارس عقد لواء لسارية بن زنيم الكناني على نساودارابجرد في سنة ثلاث وعشرين فسار حتى انتهى اليهم فنزل عليهم وحاصرهم ماشاء الله ثم انهم استمدوا وتجمعوا وتجمعت اليهم أكراد فارس فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير وأتاهم الفرس من كل جانب فرأى عمر فيما يرى النائم تلك الليلة معركتهم وعددهم في ساعة من النهار فنادى من الغد الصلاة جامعة حتى اذا كان في الساعة التي رأى فيها مارأى خرج اليهم وكان ابن زنيم والمسلمون بصحراء ان أقاموا فيها أحيط بهم وان استندوا الى جبل خلفهم لم يؤتوا الا من وجه واحد فقام عمر على المنبر فقال ياأيها الناس اني رأيت هذين الجمعين وأخبر بحالهما وصاح عمر وهو يخطب ياسارية بن زنيم الجبل ياسارية الجبل ثم أقبل على الناس فقال ان لله جنودا ولعل بعضها أن تبلغهم فسمع سارية ومن معه الصوت فلجؤا الى الجبل ثم قاتلوهم فهزمهم الله تعالى كذا في الكامل لابن الاثير وهذه القصة رواها كثير من أئمة الحديث بأسانيد صحيحة منهم البيهقي وأبو نعيم وابن مردويه واللالكائي وابن الاعرابي والخطيب بألفاظ متعددة والمعاني متقاربة ففي رواية لابن عمر قال وجه عمر جيشا ورأس عليهم رجلا يدعى سارية فبينما عمر يخطب جعل ينادي ياسارية الجبل ثلاثا ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر فقال يا أمير المؤمنين هزمنا فبينا نحن كذلك اذ سمعنا صوتا ينادي ياسارية الجبل ثلاثا فأسندنا ظهورنا الى الجبل فهزمهم الله تعالى فان قيل لعمر انك تصيح بذلك وذلك الجبل الذي كان سارية عنده بنهاوند من أرض العجم وفي رواية لابن عمر أيضا كان عمر يخطب يوم الجمعة فعرض في خطبته أن قال ياسارية الجبل من استرعى الذئب ظلم فالتفت الناس بعضهم لبعض فقال لهم علي رضي الله عنه ليخرجن مما قال فلما فرغ سألوه فقال وقع في خلدي أن المشركين هزموا اخواننا وانهم يمرون بجبل فان عدلوا اليه قاتلوا من وجه واحد وان جازوا هلكوا فخرج مني ماتزعمون أنكم سمعتموه فجاء البشير بعد شهر

فذكر انهم سمعوا صوت عمر فى ذلك اليوم قال فعدلنا الى الجبل ففتح الله علينا
وفى رواية عن عمرو بن الحارث قال بينا عمر يخطب يوم الجمعة اذ ترك الخطبة فقال
ياسارية الجبل مرتين أو ثلاثا ثم أقبل على خطبته فقال بعض الحاضرين لقد جن
انه لمجنون فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان يطمئن اليه فقال انك لتجعل
لهم على نفسك مقالا بينا أنت تخطب اذ أنت تصيح ياسارية الجبل أى شئ هذا قال
انى والله ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن
خلفهم فلم أملك أن قلت ياسارية الجبل ليلحقوا بالجبل فلبثوا الى أن جاء رسول
سارية بكتابه وفيه ان القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى اذا حضرت الجمعة
سمعنا مناديا ينادي ياسارية الجبل مرتين فلحقنا بالجبل فلم نزل قاهرين لعدونا
حتى هزمهم الله وقتلهم فقال أولئك الذين طعنوا عليه دعوا هذا الرجل فانه
مصنوع له انتهى وأصاب المسلمون فى مغانمهم مع سارية سفطا فيه جوهر
فاستوهبه منهم سارية وبعث به الى عمر فقدم الرسول على عمر وهو يطعم الطعام
فأمره فجلس وأكل فلما انصرف عمر تبعه الرسول فظن عمر أنه لم يشبع فأمره
فدخل بيته فلما جلس أتى عمر بغدائه خبز وزيت وملح جريش فأكلا فلما فرغا
قال الرجل أنا رسول سارية يا أمير المؤمنين قال مرحبا وأهلا ثم أدناه حتى مس
ركبته وسأله عن المسلمين فأخبره بقصة السفط فنظر اليه وصاح به لا ولا كرامة
حتى يقدم على ذلك الجند فيقسمه بينهم فطرده فقال يا أمير المؤمنين انى قد أنضيت
جملى واستقرضت فى جائزتى فأعطنى ما أتبلغ به فما زال به حتى أبدله بعيرا من إبل
الصدقة وجعل بعيره فى إبل الصدقة ورجع الرسول مغضوبا عليه محروما وسأل
أهل المدينة الرسول هل سمعوا شيأ يوم الوقعة قال نعم سمعنا ياسارية الجبل وقد
كدنا نهلك فلجأنا اليه ففتح الله علينا

﴿ ذكر فتح كرمان ﴾

كان سهيل بن عدى قد عقد له عمر لواء على كرمان مع الالوية التى عقدها فأمره
فى هذه السنة أعنى سنة ثلاث وعشرين بالمسير الى كرمان فسار ولحقه عبد الله بن

عبدالله بن عتبان وحشد لهم أهل كرمان واستعانوا عليهم بالقفص فاقتتلوا فى أدانى أرضهم ففض الله تعالى المشركين وأخذ المسلمون عليهم الطريق وقتل النسير بن عمرو العجلى مرزبانها فدخل النسير من قبل طريق القرى اليوم الى جيرفت وعبدالله بن عبدالله من مفازة سير فأصابوا ما أرادوا من بعير أوشاة فقوموا الابل والغنم فتحاصوها بالاثمان لعظم البخت على العرب وكرهوا أن يزيدوا وكتبوا الى عمر بذلك فأجابهم اذا رأيتم أن فى البخت فضلا فزيدوا

﴿ ذكر فتح سجستان ﴾

كان عاصم بن عمرو قد عقد له عمر لواء على سجستان مع الالوية التى عقدها فأمره فى هذه السنة بالمسير اليها فسار ولحقه عبدالله بن عمير فاستقبلهم أهلها فالتقوا هم وأهل سجستان فى أدانى أرضهم فهزمهم المسلمون ثم اتبعوهم حتى حصروهم بزرنج ومخروا أرض سجستان ثم انهم طلبوا الصلح على زرنج وما احتازوا من الارضين فأعطوا وكانوا قد اشترطوا فى صلحهم أن فدفدها حمى فكان المسلمون يتجنبونها خشية أن يصيبوا منها شيأ فيخفروا فقيم أهل سجستان على الخراج وكانت سجستان أعظم من خراسان وأبعد فروجا يقاتلون القندهار والترك وأمما كثيرة

﴿ ذكر فتح مكران بضم الميم وسكون الكاف ﴾

كان الحكم بن عمرو التغلبى قد عقد له عمر لواء على مكران مع الالوية التى عقدها فأمره فى هذه السنة بالمسير اليها فسار حتى انتهى اليها ولحقه شهاب بن المخارق وسهيل بن عدى وعبدالله بن عبدالله بن عتبان فانتهى الى دوين النهر وأهل مكران على شاطئه فاستمد ملكهم ملك السند فأمده بجيش كثيف فالتقوا مع المسلمين فانهزموا وقتل منهم فى المعركة مقتلة عظيمة واتبعهم المسلمون يقتلونهم أياما حتى انتهوا الى النهر ورجع المسلمون الى مكران فأقاموا بها وكتب الحكم الى عمر بالفتح وبعث اليه بالاخماس مع صحار العبدى فلما قدم المدينة سأله عمر عن مكران فقال يا أمير المؤمنين هى أرض سهلها جبل وماؤها وشل وتمرها دقل

وعدوها بطل وخيرها قليل وشرها طويل والكثير فيها قليل والقليل فيها ضائع وماوراءها شر منها فقال أسجاع أنت أم مخبر لا والله لا يغزوها جيش لي أبدا وكتب الى سهيل والحكم بن عمرو أن لا يجوزن مكران أحد من جنودهما وأمرهما ببيع الفيلة التي غنمها المسلمون ببلاد الاسلام وقسم أثمانها على الغانمين

﴿ ذكر فتح بير وذو الاهواز ﴾

لما فصلت الخيول الى الكور اجتمع ببير وذ جمع عظيم من الاكراد وغيرهم وكان عمر قد عهد الى أبي موسى أن يسير الى أقصى ذمة البصرة حتى لا يؤتى المسلمون من خلفهم وخشي أن يهلك بعض جنوده أو يخلفوا في أعقابهم فاجتمع الاكراد ببير وذ وأبطأ أبو موسى حتى تجمعوا ثم سار فنزل بهم ببير وذ فالتقوا في رمضان بين نهر تيرى ومناذر فقام المهاجر بن زياد وقد تحنط واستقبل القوم وعزم أبو موسى على الناس فأفطروا وتقدم المهاجر وقاتل قتالا شديدا حتى قتل ووهن الله المشركين حتى تحصنوا في قلة وذلة واشتد جزع الربيع بن زياد على أخيه المهاجر وعظم عليه فقده فرق له أبو موسى فاستخلفه عليهم في جند وخرج أبو موسى حتى بلغ أصبهان واجتمع بها بالمسلمين الذين يحاصرون جيا فلما فتحت رجع أبو موسى الى البصرة وفتح الربيع بن زياد الحارثي بير وذ من نهر تيرى وغنم ما معهم

﴿ ذكر خبر سلمة بن قيس الاشجعي والاكراد ﴾

كان عمر رضي الله عنه اذا اجتمع اليه جيش من المسلمين أمر عليهم أميرا من أهل العلم والفقه فاجتمع اليه جيش من المسلمين فبعث عليهم سلمة بن قيس الاشجعي فقال سر باسم الله قاتل في سبيل الله من كفر بالله فاذا لقيتم عدوكم فادعوهم الى الاسلام فان أجابوا وأقاموا بدارهم فعليهم الزكاة وليس لهم من الفيء نصيب وان ساروا معكم فلهم مثل الذي لكم وعليهم مثل الذي عليكم وان أبوا فادعوهم الى الجزية فان أجابوا فاقبلوا منهم وان أبوا فقاتلوهم وان تحصنوا منكم وسألوكم أن ينزلوا على حكم الله ورسوله أو ذمة الله ورسوله فلا تجيبوهم فانكم لا تدرون أتصيبون حكم الله ورسوله وذمتهما أم لا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدا ولا

تمثلوا فساروا حتى لقوا عددا من الأكراد المشركين فدعوهم الى الاسلام والجزية فلم يجيبوا فقاتلوهم فهزموهم وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية فقسمه بينهم ورأى سلمة جوهرا فى سفط فاسترضى عنه المسلمين وبعث به الى عمر فقدم الرسول بالبشارة وبالسفط على عمر فسأله عن أمور الناس وهو يخبره حتى أخبره بالسفط فغضب غضبا شديدا وأمر به فوجئ به فى عنقه ثم قال ان تفرق الناس قبل أن تقدم عليهم ويقسمه سلمة فيهم لاسوءنك فسار حتى قدم على سلمة فباعه وقسمه فى الناس وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفا وفى هذه السنة غزا معاوية الروم وفتح عسقلان صلحا الى هنا انتهت الفتوحات التى كانت فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه * واستشهد عمر رضى الله عنه لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة فكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام وقصة استشهاده مشهورة لا حاجة الى الاطالة بذكرها * أخرج أبو يعلى عن عمار بن ياسر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى جبريل آنفا فقلت ياجبريل حدثنى بفضائل عمر بن الخطاب فقال لو حدثتك بفضائل عمر منذ لبث نوح فى قومه ما نفدت فضائل عمر وان عمر حسنة من حسنات أبى بكر رضى الله عنهما وربما أن العقول القاصرة تستبعد كثرة هذه الفضائل لعمر رضى الله عنه لكن من كان ذا بصيرة وأمعن فكره فيما خص الله به عمر من الفضائل فى نفسه وفيما أجراه الله على يديه وما حصل للاسلام وأهله بسببه من كونه أعز الله به الاسلام فى ابتدائه ومن كثرة الفتوحات التى فتحها الله على يديه حتى كثر العلم واتسع الاسلام وكثر المسلمون يتضح له أن كل خير وقع لأهل الاسلام منذ خلافة عمر رضى الله عنه الى يوم القيامة كله من فضائل عمر رضى الله عنه ومن حسناته ويكتب الله له مثل أجورهم وذلك شئ كثير لا يمكن ضبطه ولا احصاؤه ولو مكث العبد منذ لبث نوح فى قومه * وأخرج عبد الله بن الامام أحمد فى زوائد المسند عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لأرجو لأمتى فى حبهم لأبى بكر وعمر

ما أرجو لهم فى قول لا إله إلا الله * وأخرج أبو ذر الهروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر معى وأنا مع عمر والحق بعدى مع عمر حيث كان وهذا مثل ما قال صلى الله عليه وسلم فى حق على رضى الله عنه وأدر الحق معه حيث دار فكل من عمر وعلى رضى الله عنهما كان مع الحق ولهذا كان على رضى الله عنه مع الخلفاء الثلاثة قبله فى زمن خلافتهم ولم ينازع أحدا منهم لعلمه بأنهم كانوا مع الحق فكان هو معهم فلما جاءت نوبة خلافته ونوزع فى ذلك قاتل من نازعه فلا يصح أن ينسب اليه أن سكوته فى زمن الخلفاء الثلاثة كان تقية حاشاه الله من المحاباة فى دين الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر الفتوحات فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ﴾

كانت البيعة لعثمان رضى الله عنه فى أوائل المحرم سنة أربع وعشرين فعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاها سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه عملا بقول عمر رضى الله عنه أوصى الخليفة بعدى أن يستعمل سعدا فانى لم أعزله عن سوء ولا خيانة فكان أول عامل بعثه عثمان رضى الله عنه

﴿ ذكر خلاف أهل الاسكندرية ﴾

فى سنة خمس وعشرين خالف أهل الاسكندرية ونقضوا صلحهم وكان سبب ذلك ان الروم عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنوا انهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الاسكندرية عن ملكهم فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح فأجابوهم الى ذلك فسار اليه من القسطنطينية جيش كثير وعليهم منويل الخصى فأرسلوا بها واتفق معهم من بها من الروم ولم يوافقهم المقوقس بل ثبت على صلحه فلما بلغ الخبر الى عمرو بن العاص سار اليهم وسار الروم اليه فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الروم وتبعهم المسلمون الى أن أدخلوهم الاسكندرية وقتلوا منهم فى البلد مقتلة عظيمة منهم منويل الخصى وكان الروم لما خرجوا من الاسكندرية قد أخذوا أموال أهل تلك القرى من وافقهم ومن خالفهم فلما ظفر بهم المسلمون جاء أهل القرى الذين خالفوهم فقالوا لعمرو بن العاص ان الروم

أخذوا ذوابنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة فرد عليهم ما عرفوا من أموالهم بعد اقامة البينة وهدم عمرو سور الاسكندرية وتركها بغير سور وفى هذه السنة بلغ سعد بن أبى وقاص عن أهل الرى عزم على نقض العهد فأرسل اليهم وأصلحهم وغزا الديلم ثم انصرف

﴿ ذكر صلح أهل أرمينية وأذربيجان ﴾

فى هذه السنة نقضت أهل أذربيجان فأمر عثمان رضى الله عنه الوليد بن عقبة بن أبى معيط أن يغزوهم وكان على الكوفة لان سعد بن أبى وقاص اختصم مع عبد الله بن مسعود فاستحسن عثمان رضى الله عنه أن يعزل سعدا قطعا للنزاع فعزله وولاها الوليد فغزاهم الوليد وعلى مقدمته عبد الله بن شبيل الأحمسى فأغار على أهل موقان والببر والطيلسان ففتح وغنم وسبى فطلب أهل كور اذربيجان الصلح فصالحهم على ثمانمائة ألف درهم وقبض المال وبث السرايا وبعث سلمان بن ربيعة الباهلى الى أهل ارمينية فى اثنى عشر ألفا فسار فى ارمينية يقتل ويسبى ويغنم ثم انصرف وقد ملأ يديه حتى أتى الوليد فعاد الوليد وقد ظفر وغنم وجعل طريقه على الموصل ثم أتى الحديثة فنزلها فأتاه بها كتاب عثمان فيه ان معاوية بن أبى سفيان كتب الى يخبرنى ان الروم قد أجلبت على المسلمين فى جموع كثيرة وقد رأيت أن يمدهم اخوانهم من أهل الكوفة فابعث اليهم رجلا له نجدة وبأس فى ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذى يأتيك كتابى فيه والسلام فقام الوليد فى الناس وأعلمهم الحال وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلى فانتدب معه ثمانية آلاف فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام الى أرض الروم فشنوا الغارات على أرض الروم فأصاب الناس ما شاؤا من الغنائم وافتتحوا حصونا كثيرة وقيل ان الذى أمد حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة كان سعيد بن العاص وكان على الكوفة بعد عزل الوليد وكان سبب ذلك أن عثمان كتب الى معاوية أن يغزو حبيب بن مسلمة فى أهل الشام أرمينية وهى غير التى باذربيجان بالعراق فوجهه اليها فأتى قاليقلا فحصرها وضيق على من بها فطلبوا الأمان على الجلاء أو الجزية

فجلا كثير منهم فلحقوا ببلاد الروم وأقام حبيب بها فيمن معه شهرا ثم بلغه ان بطريق ارميناقس وهي البلاد التي صارت بعد بيد أولاد السلطان قلج ارسلان السلجوقي وهي ملاطية وسيواس واقسراي وقونيه وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية قد توجه نحوه في ثمانين ألفا من الروم واسم القس المذكور الموريان فكتب حبيب الى معاوية يخبره فكتب معاوية الى عثمان فأرسل عثمان الى سعيد بن العاص يأمره بامداد حبيب فأمده بسلمان في ستة آلاف وأجمع حبيب على تبييت الروم فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية فقالت أين موعدك فقال سرادق الموريان ثم بيتهم فقتل من وقف له ثم أتى السرادق فوجد امرأته قد سبقته اليه فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها حجاب سرادق ولما انهزمت الروم عاد حبيب الى قاليقلا ثم سار منها ونزل مربالا فأتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم بأمان البطريق المذكور فأجراه عليه وحمل اليه البطريق ما عليه من المال ونزل حبيب خلاط ثم سار منها فلقيه صاحب مكس وهي من البسفرجان فقاطعه على بلاده ثم سار منها الى ازدشاط وهي القرية التي يكون منها القرمز الذي يصبغ به فنزل على نهر دبيل وسرح الخيول اليها فحصرها فتحصن أهلها فنصب عليهم منجنيقا فطلبوا الأمان فأجابهم اليه وبث السرايا فبلغت خيله ذات اللجم وانما سميت ذات اللجم لان المسلمين أخذوا لجم خيولهم فكبسهم الروم قبل أن يلجموها ثم ألجموها فقاتلوهم فظفروا بهم ووجه سرية الى سراج طير وبغروند فصالحه بطريقهما على اتاوة فقدم عليه بطريق البسفرجان فصالحه على جميع بلاده وأتى السيسجان فحاربه أهلها فهزمهم وغلب على حصونهم وسار الى جرزان فأتاه رسول بطريقها يطلب الصلح فصالحه وسار الى تفليس فصالحه أهلها وهي من جرزان وفتح عدة حصون تجاورها صلحا وسار سلمان بن ربيعة الباهلي الى اران ففتح البيلقان صلحا على ان أمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم واشترط عليهم الجزية والخراج ثم أتى سلمان مدينة برذعة فعسكر على الثرثور نهر بينه وبينها نحو فرسخ فقاتله أهلها أياما وشن الغارات

فى قراها فصالحوه على مثل صلح البيلقان ودخلها ووجه خيله ففتحت رساتيق الولاية ودعا أكراد البلاشجان الى الاسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية وأدى بعضهم الصدقة وهم قليل ووجه سرية الى شمكور ففتحوها وسار سلمان الى مجمع ارس والكر ففتحه وصالحه صاحب سكر وغيرها على الاتاوة وصالحه ملك شروان وسائر ملوك الجبال وأهل مسقط والشابران ومدينة الباب وهى غير التى فى العراق وهذه بقرب حلب

﴿ ذكر غزوة معاوية الروم ﴾

فى هذه السنة سنة ٢٥ غزا معاوية الروم فبلغ عمورية وهى المسماة بروسا فوجد الحصون التى بين انطاكية وطرسوس خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة حتى انصرف من غزاته ثم أغزى بعد ذلك يزيد بن الحر العبسى الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك ولما خرج هدم الحصون الى انطاكية

﴿ ذكر غزوة افريقية ﴾

فى هذه السنة سير عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبى سرح الى أطراف أفريقية غازيا بأمر عثمان وكان عبد الله من جند مصر فلما سار اليها أمده عمرو بالجنود فغنم هو وجنده فلما عاد عبد الله كتب الى عثمان يستأذنه فى غزو أفريقية فأذن له فى ذلك

﴿ ذكر غزوة كابل ﴾

فى هذه السنة أرسل عثمان رضى الله عنه عبد الله بن عامر الى كابل وهى عمالة سجستان فبلغها فى قول فكانت أعظم من خراسان حتى مات معاوية فامتنع أهلها

﴿ ذكر فتح أفريقية ﴾

كان ذلك فى سنة ست وعشرين قد تقدم أن عبد الله بن أبى سرح استأذن عثمان رضى الله عنه فى غزو افريقية فأذن له وقال له ان فتح الله عليك فلك من الفيء خمس الخمس نفلا وأمر عثمان عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحارث على جند وسرحهما وأمرهما بالاجتماع مع عبد الله بن أبى سرح على صاحب أفريقية فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر ووطئوا أرض أفريقية

وكانوا فى جيش كثير عدتهم عشرة آلاف من شجعان المسلمين فصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدموا على دخول افريقية والتوغل فيها لكثرة أهلها ثم ان عثمان ولى عبدالله بن أبى سرح مصر فأرسل الى عثمان يستأذنه فى غزو افريقية والاستكثار من الجموع فاستشار عثمان من عنده من الصحابة فأشار أكثرهم بذلك فجهز اليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عبدالله ابن عباس وغيره فسار بهم عبدالله بن أبى سرح الى أفريقية فلما وصلوا الى برقة لقيهم عبدالله بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا الى طرابلس الغرب فنهبوا من عندها من الروم وساروا نحو أفريقية وبث السرايا فى كل ناحية وكان ملكهم اسمه جرجير وملكه من طرابلس الى طنجة وكان هرقل ملك الروم قد ولاه أفريقية فهو يحمل الخراج اليه كل سنة فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة يوم وليلة وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك فأقاموا هنالك يقتتلون كل يوم وراسله عبدالله بن أبى سرح يدعوه الى الاسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما وانقطع خبر المسلمين عن عثمان فسير عبدالله بن الزبير فى جماعة اليهم ليأتيه بأخبارهم فسار مجدا ووصل اليهم وأقام معهم ولما وصل كثر الصياح والتكبير فى المسلمين فسأل جرجير عن الخبر فقيل قد أتاهم عسكر ففت ذلك فى عضده ورأى عبدالله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة الى الظهر فاذا أذن الظهر عاد كل فريق الى خيامه وشهد القتال من الغد فلم ير ابن أبى سرح معهم فسأل عنه فقيل انه سمع منادى جرجير يقول من قتل عبدالله بن أبى سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى وهو يخاف على جيش المسلمين ان قتل فحضر عنده عبدالله بن الزبير وقال له تأمر مناديا ينادى من أتانى برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبدالله ثم ان عبدالله بن الزبير قال لعبدالله بن أبى سرح ان أمرنا يطول مع هؤلاء

وهم فى امداد متصلة و بلاد هى لهم ونحن منقطعون عن المسلمين و بلادهم وقد رأيت ان نترك غدا جماعة صالحة من أبطال المسلمين فى خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم فى باقى العسكر الى ان يضجروا و يملوا فاذا رجعوا الى خيامهم و رجع المسلمون ركب من كان فى الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك فلما كان الغد فعل عبد الله مااتفقوا عليه وأقام جميع شجعان المسلمين فى خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة ومضى الباقون فقاتلوا الروم الى الظهر قتالا شديدا فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ثم عاد عنهم هو والمسلمون فكل من الطائفتين ألقى سلاحه و وقع تعبا فعند ذلك أخذ عبد الله ابن الزبير من كان مستريحا من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون وقتل جرجير قتله عبد الله بن الزبير وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأخذت ابنة الملك جرجير سبية وأعطيت لعبد الله بن الزبير مع مائة ألف ونازل عبد الله بن أبى سرح المدينة فحصرها حتى فتحها ورأى فيها من الاموال مالم يكن فى غيرها فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفا ولما فتح عبد الله مدينة سبيطلة بث جيوشه فى البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا وسير عسكرا الى حصن الاعاجم وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحه بالامان فصالحه أهل أفريقية على ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار وأرسل الى عثمان بالبشارة بفتح أفريقية ثم عاد عبد الله بن أبى سرح الى مصر وكان مقامه بأفريقية سنة وثلاثة أشهر ولم يفقد من المسلمين سوى ثلاثة منهم أبو ذؤيب الهذلى الشاعر فدفن هناك

﴿ ذكر انتقاض أفريقية وفتحها ثانية ﴾

كان هرقل ملك القسطنطينية يؤدى اليه كل ملك من ملوك النصارى الخراج

من مصر وأفريقية واندلس وغير ذلك فلما صار ملك أفريقية للمسلمين أرسل هرقل بعد مدة الى أهلها بطريقا وأمر أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون فنزل البطريق في قرطاجنة وجمع النصارى الذين في أفريقية وأخبرهم بما أمر الملك فأبوا عليه وقالوا نحن نؤدي ما كان يؤخذ منا وقد كان ينبغي له ان يسامحنا لما ناله المسلمون منا وكان قد قام بأمر أفريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم فطرده البطريق بعد فتن كثيرة وتغلب الروم على أفريقية فسار ذلك الرجل الى الشام وبه معاوية وقد استقر له الأمر بعد قتل على رضى الله عنه فوصف له أفريقية وطلب ان يرسل معه جيشا فسير معه معاوية بن خديج السكوني فوصل الى افريقية وهي نار تضطرم ومعه عسكر عظيم فنزل عند قونية وأرسل البطريق اليه ثلاثين ألف مقاتل فلما سمع بهم معاوية بن خديج سير اليهم جيشا من المسلمين فقاتلوهم فانهزم الروم وحصر حصن جلولاء فلم يقدر عليه فانهدم الحصن فملكه المسلمون وغنموا ما فيه وبث السرايا فسكن الناس وأطاعوا وعاد الى مصر

﴿ ذكر غزوة الاندلس ﴾

لما افتتحت افريقية في خلافة عثمان رضى الله عنه أمر عثمان رضى الله عنه عبد الله ابن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع بن عبد القيس ان يسيرا الى الاندلس فأتياها من قبل البحر وكتب عثمان الى من انتدب معهما أما بعد فان القسطنطينية انما تفتح من قبل الاندلس فخرجوا ومعهم البربر ففتح الله على المسلمين فتوحات كثيرة من أراضي افريقية وزاد في سلطان المسلمين مثل افريقية وأما الاندلس فلم تفتح الا في خلافة الوليد بن عبد الملك كما سيأتي ان شاء الله

﴿ ذكر غزوة قنسرين ﴾

وفي سنة سبع وعشرين غزا معاوية قنسرين فقتل وسبى وغنم ورجع وفي سنة ثمان وعشرين كان فتح قبرس على يد معاوية

﴿ ذكر فتح قبرس في خلافة عثمان رضى الله عنه غزاها معاوية سنة ٢٨ ﴾

وكان معه جماعة من الصحابة منهم أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت ومعه

زوجته أم حرام وكان معاوية قد استأذن عمر رضي الله عنه ان يغزو في البحر فلم يأذن له خوفا على المسلمين من ركوب البحر فلما كانت خلافة عثمان رضي الله عنه استأذن وألح عليه فأذن له وقال لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم بل خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه ففعل وسار المسلمون من الشام الى قبرس وسار عبد الله بن أبي سرح من مصر فاجتمعوا عليها فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة بعد قتل وسبي كثير في قبرس ويؤدون مثلها لملك الروم وفي هذه الغزوة ماتت أم حرام بنت ملحان الانصارية ألقتها بغلتها بجزيرة قبرس فاندقت عنقها فماتت تصديقا للنبي صلى الله عليه وسلم حيث أخبرها أنها في أول من يغزو في البحر كما في صحيح البخاري

﴿ ذكر انتقاض أهل فارس ﴾

في سنة تسع وعشرين انتقض أهل فارس فسار اليهم عبيد الله بن معمر فالتقوا على باب اصطخر فقتل عبيد الله وانهزم المسلمون وبلغ الخبر عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وكان على البصرة بعد عزل أبي موسى وكان لعبد الله بن عامر صحبة فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس الى فارس فالتقوا باصطخر واشتد القتال فانهزم الفرس وقتل منهم مقتلة عظيمة وفتحت اصطخر عنوة وأتى دارابجرد وقد غدر أهلها ففتحها وسار الى مدينة جور فانتقضت اصطخر فلم يرجع وتمم السير الى جور وحاصرها الى ان فتحها وكان سبب فتحها أن بعض المسلمين قام يصلي ذات ليلة والى جانبه جراب له فيه خبز ولحم فجاء كلب فجره وعدا به حتى دخل المدينة من مدخل لها خفي فلزم المسلمون ذلك المدخل حتى دخلوها منه وفتحوها عنوة فلما فرغ منها ابن عامر عاد الى اصطخر وفتحها عنوة بعد ان حاصرها واشتد القتال عليها ورميت بالمجانيق وقتل بها خلقا كثيرا من الاعاجم وأفنى أكثر أهل البيوتات ووجوه الأساورة وكانوا قد لجؤا اليها

﴿ ذكر غزوة سعيد بن العاص طبرستان ﴾

في سنة ثلاثين غزا سعيد بن العاص طبرستان وكان على الكوفة بعد عزل الوليد

ابن عقبة وكان أهل طبرستان فى خلافة عمر صالحوا سويد بن مقرن على مال بذلوه ثم نقضوا فغزاهم سعيد بن العاص ومعه الحسن والحسين وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة بن اليمان وأناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وخرج ابن عامر من البصرة يريد خراسان فسبق سعيدا ونزل نيسابور ونزل سعيد قومس وأتى جرجان فصالحوه على مائتى ألف ثم أتى طميسة فقاتله أهلها وضرب سعيد يومئذ رجلا بالسيف على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه فسألوه الامان فأعطاهم وفتح أيضا نامية وفى هذه السنة غزا حذيفة الباب مددا لعبد الرحمن بن ربيعة وفى هذه الغزوة رأى حذيفة اختلافا كثيرا بين الناس فى القرآن فلما رجع أشار على عثمان بجمع القرآن فى المصاحف ففعل وقصة ذلك مشهورة لا حاجة لذكرها

﴿ ذكر غزوة الصوارى ﴾

فى سنة احدى وثلاثين غزا معاوية الصوارى وسببها ان المسلمين لما أصابوا من أهل افريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل فى جمع له لم تجمع الروم مثله منذ كان الاسلام فخرجوا فى خمسمائة مركب أو ستمائة وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبى سفيان وعلى أهل مصر عبد الله بن أبى سرح على طريق البحر وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم فارسى المسلمون والروم وسكنت الريح فقال المسلمون الأمان بيننا وبينكم فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤن القرآن ويصلون ويدعون والروم يضربون بالنواقيس وقربوا من الغد سفنهم وقرب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر وقتل من المسلمين بشر كثير وقتل من الروم مالا يحصى وصبر الفريقان صبرا لم يصبروا فى موطن قط مثله ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم قسطنطين جريحا ولم ينج من الروم الا الشريد وسار قسطنطين الى صقلية فسأله أهلها عن حاله فأخبرهم فقالوا أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها ولو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم ثم أدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان

معه وأذنوا لهم فى المسير الى القسطنطينية

﴿ ذكر مقتل يزدجرد بن شهريار ملك الفرس ﴾

فى سنة احدى وثلاثين كان مقتل يزدجرد واختلف فى كيفية قتله اختلافا كثيرا وكان قد هرب من فارس الى خراسان ولم يزل المسلمون يتبعونه و يقفون أثره من مدينة الى مدينة وهو يهرب ثم بيته جماعة من الترك فقتلوه وقيل نام عند رجل ينقر الارحاء فقتله وقيل غير ذلك وكان ملكه عشرين سنة منها أربع سنين فى دعة وست عشرة فى تعب من محاربة العرب اياه وغلظهم عليه وكان آخر من ملك من آل أزدشير بن بابك وصفا الملك بعده للعرب

﴿ ذكر مسير عبد الله بن عامر الى خراسان وفتحها ﴾

لما قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه نقض أهل خراسان وغدروا فلما افتتح ابن عامر فارس قام اليه حبيب بن أوس التميمى فقال له أيها الأمير ان الارض بين يديك ولم يفتح منها الا القليل فسر فان الله ناصرك قال أولم نؤمر بالمسير وقيل ان الأحنف بن قيس قال له ان عدولك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فان الله ناصرك ومعز دينه فسار الى كرمان واستعمل عليها مجاشع بن مسعود السلمى وله صحبة وأمره بمحاربة أهلها وكانوا قد نكثوا أيضا واستعمل على سجستان الربيع بن زياد الحارثى وكانوا أيضا قد نقضوا الصلح وغدروا ثم سار ابن عامر الى نيسابور وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان فصالحه أهلهما على ستمائة ألف درهم و بعث سرية الى رستاق زام من أعمال نيسابور ففتحه عنوة وفتح باخرز من أعمال نيسابور أيضا وفتح جوين من أعمال نيسابور أيضا ووجه الاسود بن كلثوم العدوى الى بيهق من أعمالها أيضا فقصد قصبته ودخل حيطان البلد من ثلمة كانت فيه وقد دخلت معه طائفة من المسلمين فأخذ العدو عليهم تلك الثلمة فقاتل الاسود حتى قتل هو وطائفة ممن معه وقام بأمر الناس بعده أخوه أدهم بن كلثوم فظفر وفتح بيهق وكان الاسود يدعو الله أن يحشره فى بطون السباع والطير فلم يواره أخوه ودفن من استشهد من

أصحابه وافتتح ابن عامر فى هذه الغزوة بشت من نيسابور وهذه بشت بالشين المعجمة وليست ببست التى بالسين المهملة فان تلك من بلاد الدوان وهذه من خراسان من نيسابور وافتتح أيضا خواف واسفراين وارغيان ثم قصد نيسابور بعد ما استولى على أعمالها وافتتحها فحصر أهلها أشهرا وكان على كل ربع منها مرزبان للفرس يحفظه فطلب صاحب ربع من تلك الارباع الامارة على أن يدخل المسلمين المدينة فأجيب الى ذلك فادخلهم ليلا ففتحوا الباب وتحصن مرزبانها الأكبر فى حصنها ومعه جماعة وطلب الأمان والصلح على جميع نيسابور فصالحه على ألف ألف درهم وولى نيسابور قيس بن الهيثم السلمى وسير جيشا الى نساوا بيورد فافتتحوها صلحا وسير سرية أخرى الى سرخس مع عبد الله بن خازم السلمى فقاتلوا أهلها ثم طلبوا الأمان والصلح على أمان مائة رجل فأجيبوا الى ذلك فصالحهم مرزبانها على ذلك وسمى مائة رجل ولم يذكر نفسه فقتله عبد الله ودخل سرخس عنوة وأتى مرزبان طوس الى ابن عامر فصالحه عن طوس على ستمائة درهم وسير جيشا الى هراة عليهم عبد الله بن خازم فبلغ مرزبان هراة ذلك فسار الى ابن عامر فصالحه عن هراة وباذغيس وبوشنج وقيل بل سار ابن عامر فى الجيش الى هراة فقاتله أهلها ثم صالحه مرزبانها على ألف ألف درهم ولما غلب ابن عامر على هذه البلاد أرسل اليه مرزبان مرو فصالحه على ألفى ألف ومائتى ألف درهم وأرسل ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلى الى مرزبانها وكانت مرو كلها صلحا الا قرية منها يقال لها سنج فانها أخذت عنوة ووجه ابن عامر الاحنف بن قيس الى طخارستان فمر برستاق يعرف بعد ذلك برستاق الاحنف ويدعى سوانجرد فحصر أهلها فصالحوه على ثلثمائة ألف درهم فقال الاحنف أصالحكم على أن يدخل رجل منا القصر فيؤذن فيه ويقيم فيكم حتى ينصرف فرضوا بذلك ومضى الاحنف الى مرو الروذ فقاتله أهلها فقتلهم وهزمهم وحصرهم وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن فكتب الى الاحنف أنه دعانى الى الصلح اسلام باذان فصالحه على ستمائة ألف وسير الاحنف

سرية فاستولت على رستاق بلخ واستاقت منه مواشي ثم صالحه أهلها وجمع له أهل طخارستان فاجتمع أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومن حولهم في خلق كثير فالتقوا واقتتلوا وحمل ملك الصغانيان على الاحنف فانتزع الاحنف الرمح من يده وقاتل قتالا شديدا فانهزم المشركون وقتلهم المسلمون قتلا ذريعا كيف شاؤا وعاد الى مرو الروذ ولحق بعض العدو بالجوزجان فوجه اليهم الاحنف الاقرع بن حابس التميمي في خيل وقال يابني تميم تحابوا وتباذلوا تعدل أموركم وابدؤا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم فسار الاقرع فلقي العدو بالجوزجان فكانت بالمسلمين جولة ثم عادوا فهزموا المشركين وفتحوا الجوزجان عنوة وفتح الاحنف الطالقان صلحا وفتح الفارياب ثم سار الاحنف الى بلخ وهي مدينة طخارستان فصالحه أهلها على أربعمائة ألف وقيل سبعمائة ألف واستعمل على بلخ أسيدا بفتح الهمزة ابن المتشمس ثم سار الى خوارزم وهي على نهر جيحون فلم يقدر عليها فاستشار أصحابه فقال له حضين بالضاد المعجمة ابن المنذر قال عمرو بن معدي كرب

اذا لم تستطع شيأ فدعه ✻ وجاوزه الى ما تستطيع

فعاد الى بلخ وقد قبض أسيد صلحها ولما تم لابن عامر هذا الفتح قال له الناس ما فتح لأحد ما فتح عليك فارس وكرمان وسجستان وخراسان فقال لاجرم لاجعلن شكري لله تعالى على ذلك أن أخرج محرما من موقفي هذا فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم فسار قيس بعد شخوصه في أرض طخارستان فلم يأت بلدا منها الا صالحه أهلها وأذعنوا له حتى أتى سمنجان فامتنعوا عليه فحصرهم حتى فتحها عنوة

﴿ ذكر فتح كرمان ﴾

لما سار ابن عامر عن كرمان الى خراسان واستعمل مجاشع بن مسعود السلمي على كرمان أمره أن يفتحها وكان أهلها قد نكثوا وغدروا ففتح هميد عنوة واستبقى أهلها وأعطاهم أمانا وبنى بها قصرا يعرف بقصر مجاشع وأتى السيرجان

وهي مدينة كرمان فأقام عليها أياما يسيرة وأهلها منه ممتنعون وفتحها عنوة فجلا كثير من أهلها عنها وفتح جيرفت عنوة وسار في كرمان فدوخ أهلها وأتى القفص وقد تجمع له خلق كثير من الاعاجم الذين جلوا فقاتلهم فظفر بهم وظهر عليهم وهرب كثير من أهل كرمان فركبوا البحر ولحق بعضهم بمكران وبعضهم بسجستان فأقطعت العرب منازلهم وأراضيهم فعمروها واحتفروا لها القنى في مواضع منها وأدوا العشر

﴿ ذكر فتح سجستان وكابل وغيرهما ﴾

قد تقدم ذكر فتح سجستان أيام عمر بن الخطاب ثم ان أهلها نقضوا بعده فلما توجه ابن عامر الى خراسان سير اليها من كرمان الربيع بن زياد الحارثي فقطع المفازة حتى أتى حصن زالق فأغار على أهله يوم مهرجان وأخذ الدهقان فافتدى نفسه بأن غرز عنزة وغمرها ذهبا وفضة وصالحه على صلح فارس ثم أتى بلدة يقال لها كركويه فصالحه أهلها وسار الى زرنج فنزل على مدينة روشت بقرب زرنج فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين ثم انهزم المشركون وقتل منهم مقتلة عظيمة وأتى الربيع ناشروذ ففتحها ثم أتى شروان فغلب عليها وسار منها الى زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم وحصرهم فأرسل اليه مرزبانها ليصالحه واستأمنه على نفسه ليحضر عنده فأمنه وجلس له الربيع على جسد من أجساد القتلى واتكأ على آخر وأمر أصحابه ففعلوا مثله فلما رآهم المرزبان هاله ذلك فصالحه على ألف وصيف مع كل وصيف جام من ذهب ودخل المسلمون المدينة ثم سار منها وأتى القرية التي بها مربط فرس رستم الشديد فقاتله أهلها فظفر بهم ثم عاد الى زرنج وأقام بها نحو سنة وعاد الى ابن عامر واستخلف عليها عاملا فأخرج أهلها العامل وامتنعوا فكانت ولاية الربيع سنة ونصفا وسبى فيها أربعين ألف رأس وكان كاتبه الحسن البصري فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة حبيب بن عبد شمس على سجستان فسار اليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفي ألف درهم وألفي وصيف وغلب عبد الرحمن ما بين زرنج والكش من ناحية الهند وغلب من ناحية

الرخج على ما بينه وبين الداون فلما انتهى الى بلد الداون حصرهم فى جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده وأخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر وانما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع وفتح كابل وزابلستان وهى ولاية غزنة ثم عاد الى زرنج فأقام بها ثم استخلف عليها أمير بن أحمر اليشكرى وانصرف فأخرج أهلها أمير بن أحمر وامتنعوا

﴿ غزوة مضيق القسطنطينية ﴾

فى سنة اثنين وثلاثين غزا معاوية بن أبى سفيان مضيق القسطنطينية فقتل وسبى وغنم ورجع

﴿ ذكر غزوة بلنجر ﴾

لما تتابعت الغزوات على الخزر والترك تذامروا وقالوا كنا لا يقرن بنا أحد حتى جاءت هذه الامة القليلة فصرنا لا نقوم لها فقال بعضهم ان هؤلاء لا يموتون وما أصيب منهم أحد فى غزوهم وكان المسلمون غزوهم قبل ذلك فلم يقتل منهم أحد فلهذا ظنوا انهم لا يموتون فقال بعضهم أفلا تجربون فكمنوا لهم فى الغياض فمر بالكمين نفر من الجند فرموهم منها فقتلوهم فتواعد رؤسهم على حربهم ثم اتعدوا يوما وكان عثمان قد كتب الى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب ان الرعية قد أبطرها البطنة فلا تقتحم بالمسلمين فانى أخشى أن يقتلوا فلم يرجع عبد الرحمن عن مقصده فغزا نحو بلنجر وكان الترك قد اجتمعت مع الخزر فقاتلوا المسلمين قتالا شديدا وقتل عبد الرحمن وكان يقال له ذو النون وهو اسم سيفه فأخذ أهل بلنجر جسده فجعلوه فى تابوت فهم يستسقون به فلما قتل وقتل كثير ممن معه انهزم الناس وافترقوا فرقتين فرقة نحو الباب فلقوا سلمان بن ربيعة أخا عبد الرحمن كان قد سيره سعيد بن العاص مددا للمسلمين بأمر عثمان فلما لقوه نجوا معه وفرقة نحو جيلان وجرجان فيهم سلمان الفارسى وأبو هريرة

﴿ ذكر خروج الترك مع ملكهم قارن ﴾

فى سنة ثنتين وثلاثين خرجت جموع من الترك من ناحية خراسان فى أربعين ألفا عليهم قارن من ملوكهم فانتهى الى الطبسين واجتمع له أهل بادغيس وهراة

وقهستان وكان على خراسان يومئذ قيس بن الهيثم السلمى استخلفه عليها ابن عامر عند خروجه الى مكة محرما فدوخ جهتها وكان معه ابن عمه عبد الله بن خازم فقال لابن عامر اكتب لى على خراسان عهدا اذا خرج منها قيس ففعل فلما أقبلت جموع الترك قال قيس لابن خازم ماترى قال أرى أن تخرج من البلاد فان عهد ابن عامر عندى بولايتها فترك منازعته وذهب الى ابن عامر وقيل أشار عليه أن يخرج الى ابن عامر يستمده فلما خرج أشهر عهد ابن عامر له بالولاية عند مغيب قيس وسار ابن خازم للقاء الترك فى أربعة آلاف وأمر الناس فحملوا الودك فلما قرب من قارن أمر الناس أن يدرج كل رجل منهم على زج رمحه خرقة أو قطنا ثم يكثروا دهنه ثم سار حتى أمسى فقدم مقدمته ستمائة ثم اتبعهم وأمر الناس فأشعلوا النار فى أطراف الرماح فانتهت مقدمته الى معسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهاج الناس على دهش وكانوا آمنين من البيات ودنا ابن خازم منهم فرأوا النيران يمنة ويسرة تتقدم وتتأخر وتنخفض وترتفع فهالهم ذلك ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم ثم غشيهم ابن خازم وأكثروا القتل فى المشركين وقتل ملكهم قارن فانهزم المشركون واتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاؤا وأصابوا سبيا كثيرا وكتب ابن خازم بالفتح الى ابن عامر فرضى وأقره على خراسان

﴿ غزوة حصن المرأة ﴾

فى سنة ثلاث وثلاثين غزا معاوية حصن المرأة من أرض الروم بناحية ملاطية فقتل وسبى وغنم ورجع وفى هذه السنة كانت غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرح افريقية الثانية حين نقض أهلها العهد

﴿ ذكر انتقاض أهل قبرس وغزوهم فى سنة ٣٣ ﴾

وفى هذه السنة نقض أهل قبرس وأعانوا الروم على الغزو فى البحر بمراكب اعطوهم اياها فغزا معاوية أهل قبرس وفتحها عنوة وقتل وسبى ثم أقرهم على صلحهم وبعث اليهم اثنى عشر ألفا فبنوا المساجد وبنى مدينة وفى تاريخ جنابى أن فى سنة خمس وثلاثين ركب البحر أمير مصر عبد الله بن أبى سرح من

الاسكندرية بقصد غزو القسطنطينية فاستقبلهم ملك الروم فى ألف مركب وكان المسلمون فى مائة مركب فالتقوا بأسكلة فنكه مغرب انطاكية فرأى ملك الروم رؤيا عبرت له بتعبير مستخرج من الالفاظ التى رآها فجمعت وخرج منها حروف ترجمتها الاتطلب الغلبة فلم يعمل بمقتضى ذلك بل استهان بالمسلمين وقاتلهم ففتح الله النصر للمسلمين وولى الكفار هاربين فمنهم من غرق فى البحر ومنهم من أخذه السيف ومنهم من أسر وغنم المسلمون كثيرا من مراكبهم ورجعوا الى جزيرة رودس وشنوا عليها الغارة وفتحوها فى أسرع زمان وضربوا على من فيها الجزية وأعطوهم الأمان ﴿ ذكر فتح رودس فى سنة ٣٥ ﴾

وفى تاريخ ابن الاثير ان فتح رودس كان فى سنة ثلاث وخمسين فى خلافة معاوية فتحها جنادة بن أبى أمية الازدى وسيأتى ذكر ذلك ولعله فتح ثان بعد هذا الفتح انتهت الفتوحات التى كانت فى خلافة عثمان رضى الله عنه ثم وقع الاختلاف بين المسلمين فى شأن الامراء الى أن قتل عثمان رضى الله عنه شهيدا وقصته مشهورة لاحاجة لنا الى ذكرها * وكان استشهاده لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة وكانت خلافته اثنتى عشرة سنة الا اثنى عشر يوما وقيل الاثمانية أيام وقيل بل قتل أيام التشريق وكان عمره اثنتين وثمانين سنة وقيل ثمانيا وثمانين وقيل تسعين ثم بويع على رضى الله عنه ووقع الاختلاف بين الصحابة رضى الله عنهم فى قتلة عثمان وكانوا مجتهدين فى طلب الحق فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ فالمصيب له أجران والمخطئ له أجر واحد فيجب الامساك عما جرى بينهم وتأويله بأحسن التأويل وحمله على أحسن المحامل * واستمر الحال الى ان استشهد على رضى الله عنه سبع عشرة خلت من رمضان سنة أربعين وعمره ثلاث وستون سنة ومدة خلافته خمس سنين الا ثلاثة أشهر * ثم بويع ابنه الحسن رضى الله عنه واستمر ستة أشهر * ثم نزل عن الخلافة لمعاوية رضى الله عنه حقنا لدماء المسلمين وتحقيقا لقول النبى صلى الله عليه وسلم ان ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين فكان اجماع الصحابة على خلافة معاوية

رضى الله عنه سنة احدى وأربعين فى ربيع الاول وقيل الآخر وفى هذه السنة استعمل عمرو بن العاص وكان على مصر عقبة بن نافع بن عبد قيس على افريقية فانتهى الى لوانة ومزانة فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم من سنته فقتل وسبى ثم افتتح فى سنة اثنتين وأربعين غدامس فقتل وسبى * وفتح فى سنة ثلاث وأربعين كوراً من كور السودان وافتتح ودان وهى من برقة وافتتح عامة بلاد البربر وهو الذى اختط القيروان سنة خمسين وفى سنة اثنتين وأربعين أيضاً غزا المسلمون اللان وغزوا الروم أيضاً وهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم * وفى سنة ثلاث وأربعين غزا بسر بن أبى ارطاة الروم وشتى بأرضهم حتى بلغ القسطنطينية وفيها أعاد معاوية عبد الله بن عامر على ولاية البصرة وجعل اليه ولاية خراسان وسجستان فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة على سجستان فأتاها وعلى شرطته عباد بن الحصين الحبطى فكان يغزو البلد قد كفر أهله فيفتحه حتى بلغ كابل فحصرها أشهرا ونصب عليها المجانيق فثلم سورها ثلمة عظيمة فبات عليها عباد بن الحصين ليلة يطاعن المشركين حتى أصبح فلم يقدروا على سدها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة ثم سار الى بست ففتحها عنوة وسار الى زران فهرب أهلها وغلب عليها ثم سار الى خشك فصالحه أهلها ثم أتى الرخج فقاتلوه فظفر بهم وفتحها ثم سار الى زابلستان وهى غزنة وأعمالها فقاتله أهلها وقد كانوا نكثوا ففتحها وعاد الى كابل وقد نكث أهلها ففتحها واستعمل ابن عامر على ثغر السند عبد الله بن سوار العبدى فغزا القيقان فأصاب مغنما ثم غزاهم مرة أخرى فاستنجدوا بالترك فقتلوه وكان كريما لم يوقد أحد فى عسكره نارا فرأى ذات ليلة نارا فقال ماهذه قالوا امرأة نفساء يعمل لها الخبيص فأمر أن يطعم الناس الخبيص ثلاثة أيام

﴿ ذكر غزوة السند ﴾

وفى سنة أربع وأربعين دخل المسلمون مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم وشتوا بها وغزا بسر بن أبى ارطاة فى البحر وغزا المهلب بن أبى صفرة ثغر

السند فأتى بنة والاهواز بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقى المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارسا من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعا ٭ وفى سنة ست وأربعين غزا الروم مالك بن عبد الله وشتى فى أرض الروم وقيل بل كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وقيل بل كان مالك بن هبيرة السكونى ٭ وفى سنة سبع وأربعين كان مشتى مالك بن هبيرة بأرض الروم غازيا ومشتى عبد الرحمن القينى بانطاكية وفيها سار الحكم بن عمرو الغفارى وكان على خراسان الى جبال الغور فغزا من بها وكانوا قد ارتدوا فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة وسبايا وكان المهلب بن أبى صفرة مع الحكم بخراسان وغزا معه بعض جبال الترك فغنموا وأخذ الترك عليهم الشعاب والطرق فعيى الحكم بالامر فولى المهلب الحرب فلم يزل يحتال حتى أسر عظيما من عظماء الترك فقال له إما أن تخرجنا من هذا المضيق أو لأقتلنك فقال له أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق وسير الاثقال نحوه فانهم يستجمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق فبادرهم الى طريق أخرى فما يدركونكم حتى تخرجوا منه ففعل ذلك فسلم الناس بما معهم من الغنائم ٭ وفى سنة ثمان وأربعين كان على غزو المسلمين الروم فى الشتاء عبد الرحمن القينى وفى الصيف عبد الله بن قيس الفزارى وغزا مالك بن هبيرة السكونى البحر وغزا عقبة بن عامر الجهنى بأهل مصر البحرين وغزا يزيد بن شجرة الرهاوى بأهل الشام فى البحر

﴿ ذكر غزوة القسطنطينية ﴾

فى سنة تسع وأربعين وقيل ثمان وأربعين سير معاوية جيشا كثيفا الى بلاد الروم للغزو وجعل عليهم سفيان بن عوف الازدى وكان فى الجيش عبد الله بن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الانصارى ويزيد بن معاوية فأوغلوا فى بلاد الروم وحاصروا القسطنطينية واقتتل المسلمون والروم قتالا شديدا واستشهد أبو أيوب رضى الله عنه ودفن بالقرب من سورها وفى سنة خمسين أغزا معاوية بسر بن أبى أرطاة وسفيان بن عوف الازدى أرض الروم وأغزا فضالة بن عبيد

الله الانصارى فى البحر وفى هذه السنة استعمل معاوية عقبة بن نافع الفهرى على
افريقية وكان مقيما ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله فى تلك البلاد
جهاد وفتوح فلما استعمله معاوية سير اليه عشرة آلاف فارس فدخل افريقية
وانضاف اليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف فى أهل البلاد لانهم
كانوا اذا دخل اليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام فاذا عاد الامير عنهم
نكثوا وارتد من أسلم ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم
وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكانت
أجمة مشتبكة بها شئ كثير من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك فدعا
الله تعالى وكان مستجاب الدعوة ومن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ثم نادى
أيتها الحيات والسباع انا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحلوا عنا فانا
نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه فنظر الناس ذلك اليوم الى الدواب تحمل
أولادها وتنتقل ورأى ذلك كثير من قبائل البربر فأسلموا وقطع الاشجار وأمر
ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم حتى
كان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع وكان فى أثناء عمارة المدينة المذكورة
يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب ودخل كثير من البربر فى الاسلام واتسعت
خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا
واطمأنوا على المقام فثبت الاسلام فيها * وفى سنة احدى وخمسين كان على غزو
المسلمين فضالة بن عبيدة فشتى بالروم وفى الصيف بسر بن أبى أرطاة وفى السنة
المذكورة غزا بلخ الربيع بن زياد الحارث وكان على خراسان ففتحها اصلحا
وكانت قد نقضت بعد ما صالحهم الاحنف بن قيس وفتح الربيع أيضا قهستان
عنوة وقتل من بناحيتها من الاتراك وبقى منهم نيزك طرخان فقتله قتيبة بن مسلم
فى ولايته * وفى سنة ثنتين وخمسين كان على غزو المسلمين الروم سفيان بن عوف
وبسر بن أبى أرطاة فى الشتاء وفى الصيف محمد بن عبد الله الثقفى * وفى سنة ثلاث
وخمسين كان على الجيش فى الشتاء عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى بالروم وفى

هذه السنة فتحت رودس جزيرة فى البحر فتحها جنادة بن أبى أمية الازدى ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شئ على الروم يعترضونهم فى البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم فلما توفى معاوية أقفلهم ابنه يزيد وأخذ الجزية والخراج من أهلها * وفى سنة أربع وخمسين كان على جيش المسلمين فى غزوهم الروم محمد بن مالك شتاء ومعن بن يزيد السلمى صيفا وفى هذه السنة فتح المسلمون جزيرة ارواد قريب القسطنطينية ومقدمهم جنادة بن أبى أمية وفى هذه السنة أيضا استعمل معاوية على خراسان عبيدالله بن زياد فسار الى خراسان فقطع النهر الى جبال بخارى على الابل فى جيش وفتح رامنى ونسف وبيكند وهى من بخارى وغنم غنائم كثيرة ولما لقى الترك وهزمهم كان مع ملكهم زوجته فعجلوها عن لبس خفيها فلبست أحدهما وبقى الآخر فأخذه المسلمون فقوّم بمائتى ألف درهم وفى سنة خمس وخمسين كان على جيش المسلمين فى الغزو شتاء عمرو بن محرز وقيل عبدالله بن قيس الفزارى * وفى سنة وست وخمسين كان على جيش المسلمين فى غزو الروم جنادة بن أبى أمية وغزا فى البحر يزيد بن شجرة وفى البر عياض بن الحارث وفى هذه السنة استعمل معاوية على خراج خراسان وحربها سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه فلما قدم خراسان قطع جيحون الى سمرقند والصغد وهزم الكفار وفتح ترمذ صلحا * وفى سنة سبع وخمسين كان على جيش المسلمين بأرض الروم عبدالله بن قيس شتاء * وفى سنة ثمان وخمسين كان على جيش المسلمين بأرض الروم مالك بن عبدالله الخثعمى وفى البحر عمرو بن يزيد الجهنى وقيل جنادة بن أبى أمية * وفى سنة تسع وخمسين كان على جيش المسلمين عمرو بن مرة الجهنى بأرض الروم فى البر وفى البحر جنادة بن أبى أمية وقيل لم يكن فى البحر غزو هذه السنة وفى هذه السنة غزا المسلمون حصن كمخ من بلاد الروم ومعهم عمير بن الحباب السلمى فصعد عمير السور ولم يزل يقاتل عليه وحده حتى كشف الروم فصعد المسلمون فكان الفتح بعمير وبذلك كان يفخر * وفى سنة ستين كانت غزوة لمالك بن

عبيدالله فى سورية وفى السنة المذكورة توفى معاوية رضى الله عنه * وفى سنة احدى وستين استعمل يزيد على خراسان سلم بن زياد فقدم خراسان وعبر نهر جيحون وكان معه المهلب بن أبى صفرة وكان مما يلى خوارزم مدينة يجتمع فيها كثير من ملوكهم وكان المسلمون يطالبون أمراءهم بغزو تلك المدينة فيأبون عليهم فألح المهلب على سلم وسأله التوجه الى تلك المدينة فوجهه فى ستة آلاف فحاصرهم فطلبوا أن يصالحهم على أن يفدوا أنفسهم فأجابهم الى ذلك وصالحوه على نيف وعشرين ألف ألف وكان فى صلحهم يأخذ منهم عروضا فكان يأخذ الرأس والدابة والمتاع بنصف ثمنه فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف وغزا سلم سمرقند ووجه جيشا الى خجندة فهزموا واستعمل سلم أخاه يزيد على سجستان فغدر أهل كابل فنكثوا وأسروا أبا عبيدة بن زياد فسار اليهم يزيد ابن زياد فى جيش فاقتتلوا وانهزم المسلمون وقتل منهم كثير فلما بلغ الخبر سلم بن زياد سير طلحة بن عبد الله الخزاعى وهو طلحة الطلحات ففدى أبا عبيدة بن زياد بخمسمائة ألف درهم وسار طلحة من كابل الى سجستان واليا عليها فجبى المال وأعطى زواره ومات بسجستان وفيه يقول القائل

رحم الله أعظما دفنوها * بسجستان طلحة الطلحات

﴿ ذكر غزو عقبة بن نافع بلاد السوس وكثيرا من وقائع افريقية ﴾

فى سنة ثنتين وستين ترك بالقير وان عقبة بن نافع جندا مع الذرارى والاموال واستخلف بها زهير بن قيس البلوى وأحضر أولاده فقال انى قد بعت نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله وأوصى بما يفعل بعده ثم سار فى عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغايه وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم فقاتلوه قتالا شديدا وانهزموا عنه وقتل فيهم قتلا ذريعا وغنم منهم غنائم كثيرة ودخل المنهزمون المدينة وحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار الى بلاد الزاب وهى بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها اربة فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى وهرب بعضهم الى الجبال فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من

النصارى عدة دفعات ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم ورحل الى تاهرت فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا فى جمع كثير واقتتلوا قتالا شديدا واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ثم ان الله تعالى نصرهم فانهزمت الروم والبربر وأخذهم السيف وكثر فيهم القتل وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقيه بطريق من الروم اسمه بليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سأله عن الاندلس فعظم الامر عليه فسأله عن البربر فقال هم كثيرون لا يعلم عددهم الا الله تعالى وهم بالسوس الادنى وهم كفار لم يدخلوا فى النصرانية ولهم بأس شديد فسار عقبة اليهم نحو السوس الاقصى وهو مغرب طنجة فانتهى الى أوائل البربر فلقوه فى جمع كثير فقتل فيهم قتلا ذريعا وبعث خيله فى كل مكان هربوا اليه وسار هو حتى وصل الى السوس الاقصى وقد اجتمع له البربر فى عالم لا يحصى فلقيهم وقاتلهم وهزمهم وقتل المسلمون فيهم حتى ملوا وغنموا منهم وسبوا سبيا كثيرا وسار حتى بلغ ماليان ورأى البحر المحيط فقال يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدا فى سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفا منه واجتاز بمكان يعرف اليوم بماء الفرس فنزله ولم يكن به ماء فلحق الناس عطش كثير وأشرفوا على الهلاك فصلى عقبة ركعتين ودعا فبحث فرس له الارض بيديه فكشف له عن صفاة فانفجر الماء فنادى عقبة فى الناس فحفروا حسا كثيرة وشربوا فسمى ماء الفرس فلما وصل الى مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه ان يتقدموا فوجا فوجا ثقة منه بما نال من الله وانه لم يبق أحد يخشاه وسار الى تهوذا لينظر اليها فى نفر يسير فلما رآه الروم فى قلة طمعوا فيه وأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم الى الاسلام فلم يقبلوا منه ثم أرسل الروم الى كسيلة بن كمرم البربرى ليسرع لقتال عقبة فبادر الى ذلك وكان كسيلة المذكور قد أسلم فى مدة امارة أبى المهاجر افريقية قبل عقبة وحسن اسلامه وهو من أكابر البربر وصحب أبا المهاجر فلما ولى عقبة عرفه أبو المهاجر محل كسيلة

وأمره باكرامه فلم يقبل عقبة واستخف بكسيلة وأتى عقبة مرة بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاخين فقال كسيلة هؤلاء فتياني وغلماني يكفوني المؤنة فشتمه وأمره بسلخها فقبح أبو المهاجر ذلك عند عقبة فلم يرجع فقال له أوثق الرجل فاني أخاف عليك منه فتهاون به عقبة فأضمر كسيلة الغدر فلما كان الآن ورأى الروم قلة من مع عقبة أرسلوا الى كسيلة وأعلموه حاله وكان في عسكر عقبة وقد أضمر الغدر وأعلم الروم بذلك وأطمعهم فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة فقال أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة الى كسيلة فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه فلما كثر جمعه قاتل عقبة فهزمه فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا الى البربر وقاتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وأسر محمد بن أوس الانصاري في نفر يسير تخلصهم صاحب قفصة وبعث بهم الى القيروان فعزم زهير بن قيس البلوي على القتال وكان خليفة عقبة بالقيروان تخالفه جيش الصنعاني وعاد الى مصر فتبعه أكثر الناس فاضطر زهير الى العود معهم فسار الى برقة وأقام بها وأما كسيلة فاجتمع اليه جمع من أهل افريقية وقصد افريقية وبها أصحاب الانفال والذراري من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم ودخل القيروان واستولى على افريقية وأقام بها وحصلت الفتنة بين عبد الملك بن مروان وعبد الله ابن الزبير فلما قوي أمر عبد الملك أنفذ الجيوش الى افريقية وكتب الى زهير بن قيس البلوي بولاية افريقية فسار سنة تسع وستين الى افريقية بالجيوش فبلغ خبره الى كسيلة فاحتفل وجمع وحشد البربر والروم وأحضر أشراف أصحابه وقال قد رأيت أن أرحل الى ممش فانزلها فان بالقيروان خلقا كثيرا من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونخاف ان قاتلنا زهيرا ان يثبت هؤلاء من ورائنا فاذا نزلنا ممش أمناهم وقاتلنا زهيرا فان ظفرنا بهم تبعناهم الى طرابلس وقطعنا أثرهم من افريقية وان ظفر وابنا تعلقنا بالجبال ونجونا فأجابوه الى ذلك ورحل الى ممش وبلغ ذلك زهيرا فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى

أراح واستراح ثم رحل فى طلب كسيلة فلما قاربه نزل وعبى أصحابه وركب اليه فالتقى العسكران واشتد القتال وكثر القتل فى الفريقين حتى أيس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك أكثر النهار ثم نصر الله المسلمين وانهزم كسيلة وأصحابه وقتل هو وجماعة من أعيان أصحابه بممش وتبع المسلمون الروم والبربر فقتلوا من أدركوا منهم فأكثروا وفى هذه الواقعة ذهب رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم وعاد زهير الى القيروان ثم ان زهيرا رأى بافريقية ملكا عظيما فأبى ان يقيم وقال انما قدمت للجهاد فأخاف ان أميل الى الدنيا فأهلك وكان عابدا زاهدا فترك بالقيروان عسكرا وهم آمنون لخلو البلاد من عدو أو ذى شوكة ورحل فى جمع كثير يريد مصر وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة الى افريقية لقتال كسيلة فاغتنموا خلوها فخرجوا اليها فى مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية وأغاروا على برقة فأصابوا منها سبيا كثيرا وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك قدوم زهير من افريقية الى برقة فأخبر الخبر فأمر العسكر بالسرعة والجد فى قتالهم ورحل هو ومن معه وكان الروم خلقا كثيرا فلما رآه المسلمون استغاثوا به فلم يمكنه الرجوع فباشر القتال واشتد الامر وعظم الخطب وتكاثر الروم عليهم فقتلوا زهيرا وأصحابه ولم ينج منهم أحد وعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية ولما سمع عبد الملك بن مروان بقتل زهير عظم عليه واشتد وكان مشغولا بما كان بينه وبين ابن الزبير فلما قتل ابن الزبير واجتمع المسلمون عليه جهز جيشا كثيرا ثم سيرهم الى افريقية واستعمل عليهم وعلى افريقية حسان ابن النعمان الغسانى ولم يدخل افريقية قط جيش مثله فلما ورد القيروان تجهز منها وسار الى قرطاجنة وكان صاحبها أعظم ملوك افريقية ولم يكن المسلمون قط حاربوها فلما وصل اليها رأى بها من الروم والبربر مالا يحصى كثرة فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيرا فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا فى مراكبهم وسار بعضهم الى صقلية وبعضهم الى الاندلس فدخل حسان قرطاجنة بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلا ذريعا وأرسل الجيوش فيما حولها فأسرعوا اليه خوفا فأمرهم

فهدموا من قرطاجنة ما قدروا عليه ثم بلغه ان الروم والبربر قد اجمعوا له فى
صطفورة وبنزرت وهما مدينتان فسار اليهم وقاتلهم ولقى منهم شدة وقوة فصبر
لهم المسلمون فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم واستولوا على بلادهم ولم يترك
حسان موضعا من بلادهم الا وطئه وخافه أهل افريقية خوفا شديدا ولجأ
المنهزمون من الروم الى مدينة باجة فتحصنوا بها وتحصن البربر بمدينة بونه فعاد
حسان الى القيروان لان الجراح قد كثرت فى أصحابه فأقام بها حتى صحوا فلما صلح
الناس قال حسان دلونى على أعظم من بقى من ملوك افريقية فدلوه على امرأة
تملك البربر تعرف بالكاهنة وكانت تخبرهم بأشياء من الغيب ولهذا سميت
الكاهنة وكانت بربرية وهى بجبل أوراس وقد اجتمع حولها البربر بعد قتل
كسيلة فسأل أهل افريقية عنها فعظموا محلها وقالوا له ان قتلتها لم تختلف البربر
بعد عليك فسار اليها فلما قاربها هدمت حصن باغاية ظنا منها انه يريد الحصون فلم
يعرج حسان على ذلك وسار اليها فالتقوا على نهر نينى واقتتلوا أشد قتال رآه
الناس فانهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر منهم كثير وانهزم حسان ثم
انها أطلقت الاسرى سوى خالد بن يزيد القيسى وكان شريفا شجاعا فاتخذته ولدا
فسار حسان حتى فارق افريقية وأقام وكتب الى عبد الملك بالمقام الى أن يأتيه
أمره فأقام بعمل برقة خمس سنين فسمى ذلك المكان قصور حسان الى الآن
وملكت الكاهنة افريقية كلها وأساءت السيرة فى أهلها وعسفتهم وظلمتهم ثم
سير اليه عبد الملك الجنود والاموال وأمره بالمسير الى افريقية وقتال الكاهنة
فأرسل حسان رسوله سرا الى خالد بن يزيد وهو عند الكاهنة بكتاب ليتعلم منه
الامور فكتب اليه خالد جوابه فى رقعة يعرفه تفرق البربر ويأمره بالسرعة
وجعل الرقعة فى خبزة وعاد الرسول فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول ذهب
ملكهم فيما يأكل الناس فطلب الرسول فلم يوجد فوصل الى حسان وقد احترق
الكتاب بالنار فعاد الى خالد وكتب اليه بما كتب أولا وأودعه قربوس السرج
فوصل الى حسان فسار فلما علمت الكاهنة بمسيره اليها قالت العرب يريدون

البلاد والذهب والفضة ونحن انما نريد المزارع والمراعى ولا أرى الآن أخرب افريقية حتى ييأسوا منها وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد فخربوها وهدموا الحصون ونهبوا الاموال وهذا هو الخراب الاول لافريقية فلما قرب حسان من البلاد لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة و يشكون اليه منها فسره ذلك فسار الى قابس فلقيه أهلها بالاموال والطاعة وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الامراء وجعل فيها عاملا وسار الى قفصة ليتقرب الطريق فأطاعه من بها واستولى عليها وعلى قسطيلية ونفزاوة و بلغ الكاهنة قدومه فأحضرت ولدين لها وخالد بن يزيد وقالت لهم إنى مقتولة فامضوا الى حسان وخذوا لأنفسكم منه أمانا فساروا اليه و بقوا معه وسار حسان نحوها فالتقوا واقتتلوا واشتد القتال وكثر القتل حتى ظن الناس أنه الفناء ثم نصر الله المسلمين وانهزم البربر وقتلوا قتالا ذريعا وانهزمت الكاهنة ثم أدركت فقتلت ثم ان البربر استأمنوا الى حسان فأمنهم وشرط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفا يجاهدون العدو فأجابوه الى ذلك فجعل على هذا العسكر ابنى الكاهنة ثم فشا الاسلام فى البربر وعاد حسان الى القيروان وأقام لا ينازعه أحد الى أن توفى عبد الملك سنة ست وثمانين فلما ولى ابنه الوليد ولى افريقية عمه عبد الله بن مروان وعزل حسان ثم استعمل الوليد على افريقية موسى بن نصير سنة تسع وثمانين وسيأتى الكلام على غزواته

﴿ ذكر صلح عبد الملك بن مروان لملك الروم ﴾

كانت الصوائف تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية لحدوث الفتن بين المسلمين والصوائف الجيوش التى كانت تجهز فى أوان الصيف لسد الثغور وحرب الكفار واستمر ذلك من صدر الاسلام الى أواخر الدولة العباسية * ولما اشتدت الفتنة بين ابن الزبير وعبد الملك اجتمعت الروم سنة سبعين واستجاشوا على من بالشام من المسلمين فصالح عبد الملك ملكهم على أن يؤدّى اليه كل جمعة ألف دينار خوفا منه على المسلمين * وفى سنة ثلاث وسبعين خرج الروم من ناحية أرمينية فى ستين ألفا

وكان على أرمينية محمد بن مروان من قبل أخيه عبد الملك فقاتلهم وهزمهم وأكثر القتل فيهم * وفى سنة أربع وسبعين استعمل عبد الملك على خراسان أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد فلما وصل أمية الى كرمان استعمل ابنه عبد الله على سجستان فلما قدمها غزا ملك الترك رتبيل وكان رتبيل هائبا للمسلمين فلما وصل عبد الله الى بست أرسل رتبيل يطلب الصلح وبذل ألف ألف وبعث اليه بهدايا ورقيق فأبى عبد الله قبول ذلك وقال ان ملأ لى هذا الرواق ذهبا والا فلا صلح وكان غزا فخلى له رتبيل البلاد حتى أوغل فيها وأخذ عليه الشعاب والمضايق فطلب أن يخلى عنه وعن المسلمين ولا يأخذ منه شيأ فأبى رتبيل وقال بل يأخذ ثلاثمائة ألف درهم صلحا ويكتب لنا كتابا ولا يغزو بلادنا ما كنت أميرا ولا يحرق ولا يخرب ففعل ذلك وبلغ ذلك عبد الملك فعزله وفى هذه السنة غزا محمد بن مروان صائفة وكانت الروم خرجت من قبل مرعش وكذا فى السنة التى بعدها * وفى سنة خمس وسبعين كان على ثغر السند مجاعة بن سعد التميمى من قبل الحجاج فغزا وفتح أماكن من قندابيل * وفى سنة ست وسبعين غزا محمد بن مروان الروم من ناحية ملاطية * وفى سنة سبع وسبعين غزا الصائفة الوليد بن عبد الملك * وفى سنة ثمان وسبعين ولى الحجاج عبيد الله بن أبى بكرة سجستان وكان رتبيل ملك الترك مصالحا وكان يؤدى الخراج وربما امتنع فبعث الحجاج الى عبيد الله بن أبى بكرة يأمره بمناجزته وأن لا يرجع حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعه ويقيد رجاله فسار عبيد الله فى أهل البصرة وأهل الكوفة وكان على أهل الكوفة شريح بن هانىء كان من أصحاب على رضى الله عنه ومضى عبيد الله حتى دخل بلاد رتبيل فأصاب من الغنائم ماشاء وهدم حصونا وغلب على أرض من أراضيهم وأصحاب رتبيل من الترك يتركون لهم أرضا بعد أرض حتى أمعنوا فى بلادهم ودنوا من مدينتهم وكانوا منها على ثمانية عشر فرسخا فأخذوا على المسلمين العقاب والشعاب فسقط فى أيدى المسلمين فظنوا أن قد هلكوا فصالحهم عبيد الله على سبعمائة ألف درهم يوصلها الى رتبيل ليمكن المسلمين من الخروج من أرضه فلقيه شريح فقال له

انكم لا تصالحون على شئ الا حسبه السلطان من أعطياتكم وقد بلغت من العمر طويلا وقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان وان فاتتني اليوم الشهادة ما أدركها حتى أموت ثم قال شريح يا أهل الاسلام تعاونوا على عدوكم فقال له عبيد الله بن ابي بكرة انك شيخ قد خرفت فقال له شريح انما حسبك أن يقال بستان عبيد الله وحمام عبيد الله يا أهل الاسلام من أراد منكم الشهادة فالىّ فاتبعه ناس من المتطوعة وفرسان الناس وأهل الحفاظ فقاتلوا حتى أصيبوا الا قليلا وقاتل شريح حتى قتل في أناس من أصحابه ونجا من نجا فخرجوا من بلاد رتبيل وفي هذه السنة أصاب أهل الروم أهل انطاكية وظفروا بهم * وفي سنة ثمان وسبعين عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن خراسان وضمها لأعمال الحجاج فولى على خراسان المهلب بن أبي صفرة

﴿ ذكر غزوة المهلب ماوراء النهر حين كان واليا على خراسان ﴾

في سنة ثمانين قطع المهلب نهر بلخ ونزل على كش فأتاه ابن عم ملك الختل ودعاه الى غزو الختل وكان اسم ملكهم الشبل فوجه المهلب مع ابن عم الملك ابنه يزيد بن المهلب فنزل يزيد ناحية ونزل ابن عم الملك ناحية فبيته الشبل وأخذه فقتله فحصر يزيد قلعة الشبل فصالحوه على فدية حملت اليه ورجع يزيد عنهم ووجه المهلب ابنه حبيبا فوافى صاحب بخارى في أربعين ألفا فنزل جماعة من العدو قرية فسار اليهم حبيب في أربعة آلاف فقتلهم وأحرق القرية فسميت المحترقة ورجع حبيب الى أبيه وأقام المهلب بكش سنتين فقيل له لو تقدمت الى ماوراء ذلك فقال ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذا الجند وصالح المهلب أهل كش على فدية يأخذها منهم وأتاه كتاب ابن الاشعث بخلع الحجاج ويدعوه الى مساعدته فبعث بكتابه الى الحجاج وأقام بكش

﴿ ذكر تسيير الجنود الى رتبيل مع عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث ﴾

قد تقدم ذكر حال المسلمين حين دخل بهم ابن أبي بكرة بلاد رتبيل ثم استأذن الحجاج عبد الملك في تسيير الجنود نحو رتبيل فأذن له عبد الملك فأخذ الحجاج

فى تجهيز الجيش فجعل على أهل الكوفة عشرين ألفا وعلى أهل البصرة عشرين ألفا وجد فى ذلك وأعطى الناس أعطياتهم كملا وأنفق فيهم ألفى ألف سوى أعطياتهم وأنجدهم بالخيل الرائقة والسلاح الكامل وأعطى كل رجل يوصف بشجاعة وغناء وكان يسمى جيش الطواويس لحسنه فلما فرغ من أمر الجند بعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث بأمر من عبد الملك وكان الحجاج يبغض عبد الرحمن المذكور فسيره على ذلك الجيش طاعة لامر عبد الملك فسار بهم حتى قدم سجستان وبلغ الخبر رتبيل فأرسل يعتذر ويبذل الخراج فلم يقبل منه فسار اليه ودخل بلاده وترك له رتبيل أرضا أرضا ورستاقا رستاقا وحصنا حصنا وعبد الرحمن يحوى ذلك وكلما حوى بلدا بعث اليه عاملا وجعل معه أعوانا وجعل الارصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى اذا جاز من أرض عظيمة وملأ الناس أيديهم من الغنائم العظيمة منع الناس من الوغول فى أرض رتبيل وقال نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها وفى العام المقبل نأخذ ما وراءها ان شاء الله تعالى ثم كتب الى الحجاج بما فتح الله عليه وبما يريد أن يعمل فلما أتى كتابه الى الحجاج كتب جوابه ان كتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح الى الموادعة وقد صانع عدوا قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم عظيما وأحببت أن تكف عن ذلك العدو وتسخى النفس بمن أصيب من المسلمين فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلهم وسبي ذراريهم ثم أردفه كتابا آخر بنحو ذلك وفيه أما بعد فمر من قبلك من المسلمين فليحرثوا وليقيموا بها فانها دارهم حتى يفتحها الله عليهم ثم كتب كتابا ثالثا بذلك ويقول له ان مضيت لما أمرتك به والا فأخوك اسحق بن محمد أمير الناس فدعا عبد الرحمن الناس وقال لهم أيها الناس إنى لكم ناصح ولصلاحكم محب ولكم فى كل ما يحيط به نفعكم ناظر وقد كان رأيى فيما بينى وبين عدوى بما رضوه ذووا أحلامكم وأولى التجربة منكم وكتبت بذلك الى أميركم الحجاج فأتانى كتابه

يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو وهي البلاد التي هلك فيها اخوانكم بالامس وانما أنا رجل منكم أمضي اذا مضيتم وآبى اذا أبيتم فثار اليه الناس وقالوا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع فكان أول من تكلم أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني وله صحبة رضي الله عنه فقال بعد حمد الله أما بعد فان الحجاج يرى بكم ما أرى القائل الاول احمل عبدك على الفرس فان هلك فلك وان نجا فلك وان الحجاج ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلايا كثيرة ويغشى اللهوب واللصوب فان ظفرتم وغنمتم أكل البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة في سلطانه وان ظفر عدوكم كنتم أنتم الاعداء البغضاء الذين لا يبالي عنتهم ولا يبقي عليهم اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا الامير عبد الرحمن فاني أشهدكم أني أول خالع فنادى الناس من كل جانب فعلنا فعلنا قد خلعنا عدو الله وقام عبد المؤمن بن شبث بن ربعي فقال عباد الله انكم ان أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم وجمركم تجمير فرعون الجنود (التجمير حبس الجيش في أرض العدو من غير رجوع) فانه بلغني أنه أول من جمر البعوث ولن تعاينوا الاحبة أو يموت أكثركم فيما أرى فبايعوا أميركم وانصرفوا الى عدوكم الحجاج فانفوه عن بلادكم فوثب الناس الى عبد الرحمن فبايعوه على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق وعلى النصرة لعبد الرحمن ولم يذكروا عبد الملك وجعل عبد الرحمن على بست عياض بن هميان الشيباني وعلى زرنج عبد الله بن عامر التميمي وصالح رتبيل على أن ابن الاشعث ان ظهر فلا خراج عليه أبدا ما بقي وان هزم فأراد منعه رجع الى العراق وجعل عبد الرحمن على مقدمته عطية بن عمرو العنبري وجعل على كرمان حريثة بن عمرو التميمي فلما بلغ فارس اجتمع الناس بعضهم الى بعض وقالوا اذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبد الملك فاجتمعوا الى عبد الرحمن فكان أول الناس خلع عبد الملك تيجان بن أبجر من بني تيم الله بن ثعلبة قام فقال أيها الناس اني خلعت اباذبان (كنية عبد الملك) كخلع قميصي فخلعه الناس الا قليلا منهم وبايعوا عبد الرحمن وكانت بيعته تبايعوا على

كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم وجهاد المحلين فلما بلغ الحجاج خلعه كتب الى عبد الملك يخبر عبد الرحمن ويسأله أن يعجل بعثه بجنود اليه ولما بلغ المهلب خبر عبد الرحمن كتب الى الحجاج من خراسان أما بعد فان أهل العراق قد أقبلوا اليك وهم مثل السيل ليس يرده شئ حتى ينتهى الى قراره وأن لاهل العراق شدة فى أول مخرجهم وصبابة الى أبنائهم ونسائهم فاتركهم حتى يسقطوا الى أهاليهم ويشموا أولادهم ثم واقعهم عندها فان الله ناصرك عليهم فلما قرأ كتابه شتمه وسبه وقال ما الى نظر وانما نظر الى ابن عمه يعنى عبد الرحمن لان كلا من المهلب وعبد الرحمن من قحطان ثم بعد وقوع بعض الوقائع بين الحجاج وعبد الرحمن نظر فى كتاب المهلب فاستصوب ما قاله وقال لله دره أى صاحب حرب هو ولما وصل كتاب الحجاج له الملك هاله ودعا خالد بن يزيد بن معاوية فأقرأه الكتاب فقال يا أمير المؤمنين كان الحدث من سجستان فلا تخفه وان كان من خراسان فانى أتخوفه فجهز عبد الملك الجند الى الحجاج على البريد من مائة ومن خمسين وأقل وأكثر وكتب الحجاج تتصل بعبد الملك كل يوم بخبر عبد الرحمن فنزل الحجاج البصرة ولما اجتمع الجند عنده سار من البصرة ليلقى عبد الرحمن ولم يتركهم حتى يسقطوا الى أهاليهم كما كتب اليه المهلب فنزل تستر وقدم بين يديه مقدمة الى دجيل فلقوا عنده خيلا لعبد الرحمن فانهزم أصحاب الحجاج بعد قتال شديد وكان ذلك يوم الاضحى سنة إحدى وثمانين وقتل منهم جمع كثير فلما أتى خبر الهزيمة الى الحجاج رجع الى البصرة وتبعه أصحاب عبد الرحمن فقتلوا منهم وأصابوا بعض أثقالهم وأقبل الحجاج حتى نزل الزاوية وجمع عنده الطعام وترك البصرة لأهل العراق فأقبل عبد الرحمن حتى دخل البصرة فبايعه جميع أهلها قراؤها وكهولها مستبصرين فى قتال الحجاج ومن معه من أهل الشام ثم دخل عبد الرحمن ومن معه الكوفة وبايعه أهلها وصار له جيش يبلغ مائة ألف فيهم كثير من الصحابة وأبنائهم وعلماء التابعين وغيرهم وممن بايع عبد الرحمن وكان فى جيشه سعيد بن جبير والشعبى وعبد الرحمن بن أبى ليلى

وهؤلاء من كبار علماء التابعـين ومن الصحابة أبو الطفيل عامر بن واثلة ووقع بينهم وبين جيوش الحجاج وقائع كثيرة فى أكثرها كان النصر لجيوش عبد الرحمن ثم ان عبد الملك وأهل الشام قالوا ان كان يرضى أهـل العراق بنزع الحجاج عنهم نزعناه فان عزله أيسر من حربهم ونحقن بذلك الدماء فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمـد بن مروان الى الحجاج فى جنـد كثيف وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وأن يجريا عليهـم أعطياتهم كما يجرى على أهل الشام وأن ينزل عبد الرحمن بن الاشعث أى بلد شاء من بلاد العراق فاذا نزله كان واليا عليه مادام حيا وعبد الملك خليفـة فان أجاب أهل العراق الى ذلك عزل الحجاج وصار محمد بن مروان أمير العراق وان أبى أهل العراق قبول ذلك فالحجاج أمير الجماعة ووالى القتال ومحمـد بن مروان وعبـد الله بن عبد الملك فى طاعته فلم يأت الحجاج أمر قط كان أشد عليه ولا أوجع لقلبه من ذلك فخاف أن يقبل أهل العراق عزله فيعزله عنهم فكتب الى عبد الملك والله لو أعطيت أهل العراق نزعى لم يلبثوا الا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا اليك ولا يزيدهم ذلك الا جراءة عليك وذكر له أشياء مما فعله أهل العراق أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ثم قال له ان الحديد بالحديد يلمع فأبى عبد الملك الا عرض عزله على أهل العراق فلما اجتمع عبـد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان مع الحجاج خرج عبد الله بن عبد الملك وقال يا أهل العراق أنا ابن أمير المؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا وخرج محمد بن مروان وقال أنا رسول أمير المؤمنين وهو يعرض عليكم كذا وكذا فذكر هذه الخصال فقالوا نرجع العشية فرجعوا واجتمع أهل العراق عند ابن الاشعث فقال لهم قد أعطيتم أمرا انتهازكم اليوم اياه فرصة وانكم اليوم على النصف فان كانوا اعتدوا عليكم بيوم كذا فأنتم تعتدون عليهم بيوم كذا فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء لقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقضون فوالله لازلتم عليهم جرآء وعندهم أعزاء أبدا ما بقيتم ان أنتم قبلتم فوثب النـاس من كل جانب فقالوا ان الله قد أهلكهم فاصبحوا فى الضنك والمجاعة والقـلة والذلة ونحن ذوو العدد الـكثير والسعر

الرخيص والمادة القريبة والله لانقبل وأعادوا خلعه ثانية وأبلغوا ذلك عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان فقالا للحجاج شأنك بعسكرك وجندك واعمل برأيك فانا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع فقال قد قلت انه لا يراد بهذا الأمر غيركم فكانا يسلمان عليه بالامرة ويسلم عليهما بالامرة ثم أعيد القتال واشتد الأمر وتفصيل ذلك يطول وجملة الأيام التى اقتتلوا فيها مائة يوم وثلاثة أيام ثم وقعت الهزيمة على أصحاب عبد الرحمن ثم رجع الحجاج الى الكوفة وعاد محمد بن مروان الى الموصل وعبد الله بن عبد الملك الى الشام وأخذ الحجاج يبايع الناس الذين كانوا مع عبد الرحمن وكان لا يبايع أحدا الا قال له اشهد أنك كفرت فان قال نعم بايعه والا قتله فأتاه رجل من خثعم كان معتزلا للناس جميعا فسأله عن حاله فأخبره باعتزاله فقال له أنت متربص أتشهد أنك كافر قال بئس الرجل أنا أعبد الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسى بالكفر قال اذن أقتلك قال وان قتلتنى فقتله ولم يبق أحد من أهل الشام والعراق الا رحمه ثم أتى بعده بآخر فقال له الحجاج أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر فقال له الرجل أتخادعنى عن نفسى أنا أكفر أهل الارض وأكفر من فرعون فضحك منه وخلى سبيله وأتى بمحمد بن سعد بن أبى وقاص فقال له ياظل الشيطان أعظم الناس تيها وكبرا تأبى بيعة يزيد بن معاوية وتتشبه بالحسين وعبد الله بن عمر ثم صرت مؤذنا لابن الاشعث وجعل يضرب رأسه بعود فى يده حتى أدماه ثم أمر به فقتل ثم أتى بعمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر فقال ياعبد المرأة يقوم بالعامود على رأسك ابن الحائك يعنى ابن الاشعث وتشرب معه فى الحمام فقال اصلح الله الأمير كانت فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها فقد أمكنك الله منا فان عفوت فبحلمك وفضلك وان عاقبت عاقبت مذنبين فقال الحجاج أما أنها شملت البر فكذبت ولكنها شملت الفاجر وعوفى منها الابرار وأما اعترافك فعسى انه ينفعك فرجاله السلامة ثم أمر به فقتل وأتى الحجاج بأسيرين فأمر بقتلهما فقال أحدهما ان لى عندك يدا قال وماهى قال ذكر عبد الرحمن بن الاشعث يوما أمك بسوء فنهيته قال ومن يعلم ذلك قال هذا

الأسير الآخر فسأله الحجاج فصدقه فقال له الحجاج فلم تفعل كما فعل قال و ينفعنى الصدق عندك قال نعم قال منعنى البغض لك ولقومك فقال خلوا عن هذا لفعله وعن هذا الصدقه وقتل الحجاج يوم الهزيمة ممن قبض عليهم عشرة آلاف ولما انهزم أصحاب عبد الرحمن بن الاشعث نادى منادى الحجاج من لحق بقتيبة بن مسلم الباهلى فهو آمن وكان قد ولى قتيبة الرى وسار اليه فلحق به ناس كثير وكان منهم الشعبي فذكره الحجاج يوما فسأل عنه فقالوا له انه لحق بقتيبة بن مسلم بالرى فكتب الحجاج الى قتيبة يأمره بارسال الشعبي فأرسله قال الشعبي فلما قدمت على الحجاج لقيت يزيد بن أبى مسلم وكان صديقا لى فاستشرته فقال اعتذر مهما استطعت وأشار بمثل ذلك اخوانى ونصحائى فلما دخلت على الحجاج فرأيت غير ما ذكروا لى فسلمت عليه بالامرة وقلت أيها الأمير ان الناس قد أمرونى ان أعتذر بغير مايعلم الله أنه الحق وأيم الله لا أقول فى هذا المقام الا الحق قد والله مردنا عليك وحرضنا وجهدنا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وماجرت اليه أيدينا وان عفوت عنا فبحلمك وبعد فالحجة لك علينا فقال الحجاج أنت والله أحب الى قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت وقد أمنت ياشعبى كيف وجدت الناس بعدنا فقلت أصلح الله الأمير اكتحلت بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الاخوان ولم أجد من الأمير خلفا قال انصرف ياشعبى فانصرفت وأما سعيد بن جبير فانه اختفى ثم هرب الى خراسان وتنقل الى أماكن كثيرة مختفيا ثم جاور بمكة فلما ولى امارة مكة خالد بن عبد الله القسرى بعد موت عبد الملك ومبايعة ابنه الوليد قيل لسعيد بن جبير ان خالدا رجل سوء فلو سرت عن مكة فقال والله لقد فررت حتى استحييت من الله ويسحبنى ما كتب الله لى فلما قدم خالد مكة كتب له الوليد بحمل أهل العراق الى الحجاج فأخذ سعيد بن جبير وأرسله مع حرسيين فانطلق أحدهما لحاجة وبقى الآخر فقال لسعيد انى أبرأ الى الله من دمك انى رأيت فى منامى فقيل لى تبرأ من دم

سعيد بن جبير فاذهب حيث شئت فانى لا أطلبك فأبى سعيد فرأى ذلك الحرسى
تلك الرؤيا ثلاثا و يأذن لسعيد فى الذهاب وهو لا يفعل فقدموا به الكوفة فأنزل
فى داره وأتاه قراء الكوفة فجعل يحدثهم وهو يضحك و بنية له فى حجره فلما
نظرت الى القيد فى رجله بكت ثم أدخلوه على الحجاج فلما أتى به أقبل عليه فقال
ياسعيد ألم أشركك فى امارتى ألم أفعل بك كذا ألم استعملك قال بلى قال فما أخرجك
على قال انما أنا امرؤ من المسلمين يخطئ مرة ويصيب مرة فطابت نفس الحجاج
ثم عاوده فى شئ فقال انما كانت بيعة فى عنقى فغضب الحجاج وانتفخ وقال ياسعيد
ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين
عبد الملك قال بلى قال ثم قدمت الكوفة واليا فجددت البيعة فأخذت بيعتك
لامير المؤمنين ثانية قال بلى قال فنكثت بيعتين وتوفى بواحدة للحائك ابن الحائك
والله لاقتلنك قال انى اذن لسعيد كما سمتنى أمى فأمر به فضربت عنقه فلما سقط
رأسه هلل ثلاثا فلما قتل التبس عقل الحجاج فجعل يقول قيودنا قيودنا فظنوا
انه يريد القيود فقطعوا رجلى سعيد من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود وكان
الحجاج اذا نام يراه فى منامه يأخذ بمجامع ثوبه فيقول يا عدو الله فيم قتلتنى فيقول
مالى ولسعيد بن جبير مالى ولسعيد بن جبير وعاش الحجاج بعده أياما ثم هلك
قال الامام الشعرانى فى الطبقات قتله فى شعبان وتوفى الحجاج فى رمضان وكان
بينهما خمسة عشر يوما وفى تاريخ ابن خلكان ان الحجاج رؤى فى النوم بعد
موته فقيل له ما فعل الله بك قال قتلنى بكل قتيل قتلته قتلة وقتلنى بسعيد بن جبير
سبعين قتلة وكان عمر سعيد بن جبير سبعا وأربعين سنة وقيل سبعا وخمسين قيل ان
سعيد بن جبير قال اللهم لا تسلطه على أحد بعدى فلم يقتل أحدا بعده قال الامام
أحمد قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الارض أحد الا وهو مفتقر الى
علمه وكان قتله سنة أربع وتسعين وقيل خمس وتسعين فبين قتله وانتهاء فتنة
ابن الاشعث احدى عشرة سنة فقد كان ابتداء فتنة ابن الاشعث سنة احدى
وثمانين وانتهاؤها سنة ثلاث وثمانين * وأما ابن الاشعث فانه لما انهزمت جيوشه

سار الى رتبيل ملك الترك فأكرمه وآواه ثم أرسل اليه الحجاج يتوعده ويهدده فقتله وبعث برأسه الى الحجاج وقيل بل أصابه مرض فمات فقطع رأسه وأرسله للحجاج فبعث به الى عبد الملك فطيف به في الشام ليراه الناس ثم أرسله لاخيه عبد العزيز بن مروان بمصر فطيف به في مصر وكان ذلك سنة خمس وثمانين

﴿ فتح قالي قلا ﴾

في سنة احدى وثمانين سير عبد الملك بن مروان ابنه عبيد الله في جيش ففتح قالي قلا وفي هذه السنة هجم جماعة من الديلم على قزوين فتصايح الناس وأغلقوا الابواب وقاتلوهم قتالا عظيما وظفر المسلمون بهم فلم يفلت منهم أحد وفي هذه السنة كان يزيد بن المهلب في مفازة بست في ستين فارسا فلقيهم خمسمائة من الترك فقاتلوهم قتالا شديدا فقتلوا كثيرا من الترك الى أن انهزموا * وفي سنة اثنتين وثمانين توفي المهلب واستخلف على خراسان ابنه يزيد فاقره الحجاج * وفي سنة أربع وثمانين فتح يزيد بن المهلب قلعة نيزك بباذغيس بعد حصار وقتال فملكها وما فيها من الاموال والذخائر وكانت من أحصن القلاع وأمنعها وكان نيزك اذا رآها سجد لها معظما لها وفي هذه السنة غزا عبيد الله بن عبد الملك الروم ففتح المصيصة وبنى حصنها ووضع بها ثلاثمائة مقاتل من ذوي البأس ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك وبنى مسجدها وفي هذه السنة غزا محمد بن مروان ارمينية فهزمهم ثم سألوه الصلح فصالحهم * وفي سنة خمس وثمانين عزل الحجاج يزيد بن المهلب وولى أخاه الفضل بن المهلب فغزا باذغيس وأصاب مغنما فقسمه فأصاب كل رجل ثمانون ثم غزا أخرون (اسم بلد) وشومان فغنم وقسم ما أصاب ولم يكن للفضل بيت مال كان يعطي الناس كلما جاءه شيء وان غنم شيأ قسمه فيهم وفي هذه السنة غزا محمد بن مروان ارمينية فصاف بها وشتى * وفي سنة ست وثمانين توفي عبد الملك بن مروان وولي ابنه الوليد فأبقى الحجاج وولى الحجاج خراسان قتيبة ابن مسلم الباهلي وباهلة من قيس عيلان بن مضر وعزل الفضل وافتتح قتيبة خوارزم وسمرقند وبخارى وقد كانوا كفروا بعد فتحها الاول وبلغ ما لم يبلغه

المهلب ولا غيره فجهز قتيبة عند قدومه الجيوش للغزو فلما كان بالطالقان أتاه دهاقين بلخ وساروا معه فقطع النهر فتلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفاتيح من ذهب ودعاه الى بلده فمضى معه فسلمها اليه لان ملك أخرون وشومان كان يسيء جواره ثم سار قتيبة الى أخرون وشومان وهما من طخارستان فصالحه ملكها على فدية أداها اليه فقبلها قتيبة ثم انصرف الى مرو (احدى قواعد اقليم خراسان الاربع وهي مرو وهراة وبلخ ونيسابور) واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم ففتح صالح بعد رجوع قتيبة كاشان وأورشت وهي من فرغانة وفتح اخشيكت وهي مدينة فرغانة القديمة وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم * وفي سنة سبع وثمانين كتب قتيبة الى نيزك طرخان صاحب باذغيس أن يطلق من عنده من أسرى المسلمين وكتب اليه يهدده فخافه نيزك فأطلق الاسرى وبعث بهم اليه وكتب له قتيبة مع سليم الناصح مولى عبيد الله بن أبي بكرة يدعوه الى الصلح والى أن يؤمنه وكتب اليه يحلف بالله لئن لم يقدم عليه ليغزونه ثم ليطلبنه حيث كان حتى يظفر به أو يموت دونه فقدم سليم بالكتاب فقال له نيزك وكان يستنصحه يا سليم ما أظن عند صاحبك خيرا كتب الي كتابا لا يكتب الى مثلي فقال له سليم انه رجل شديد في سلطانه سهل اذا سوهل صعب اذا عوسر فلا يمنعك منه غلظة كتابه اليك فأحسن حالك عنده فعقد الصلح لأهل باذغيس على أن لا يدخلها قتيبة وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الروم فقتل منهم عددا كثيرا بسوسنة من ناحية المصيصة وقيل ان الذي غزا في هذه السنة هشام بن عبد الملك ففتح حصن بواق وحصن الأخرم وحصن بولس وقمقم وقتل من المستعربة نحوا من ألف وسبى ذريتهم ونساءهم

﴿ ذكر غزوة قتيبة بيكند ﴾

كانت غزوة بيكند سنة سبع وثمانين وهي أدنى مداين بخارى اسار اليهم قتيبة بجيوشه فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير وأخذوا الطرق على قتيبة فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل اليه خبر شهرين وأبطأ

خبره على الحجاج فأشفق على الجند فأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد وهم يقتتلون كل يوم وكان لقتيبة عين من العجم يقال له تندر فاعطاه أهل بخارى مالا ليرد عنهم قتيبة فأتاه سرًّا من الناس وقال له ان الحجاج قد عزل وقد أتى عامل الى خراسان فلو رجعت بالناس كان أصلح فأمر به فقتل خوفا من أن يظهر الخبر فيهلك الناس ثم أمر أصحابه بالجد فى القتال فقاتلهم قتالا شديدا فانهزم الكفار يريدون المدينة وتبعهم المسلمون قتلا وأسرًا كيف شاؤا وتحصن من دخل المدينة بها فوضع قتيبة الفعلة ليهدم سورها فسألوه الصلح فصالحهم واستعمل عليهم عاملا وارتحل عنها يريد الرجوع فلما سار خمسة فراسخ نقضوا الصلح وقتلوا العامل ومن معه فرجع قتيبة فنقب سورهم فسقط فسألوه الصلح فلم يقبل ودخلها عنوة وقتل من كان بها من المقاتلة وكان فيمن أخذوا من المدينة رجل أعور هو الذى استجاش الترك على المسلمين فقال لقتيبة أفدى نفسى بخمسة آلاف حريرة قيمتها ألف ألف فاستشار قتيبة الناس فقالوا هذا زيادة فى الغنائم وما عسى أن يبلغ كيد هذا قال لا والله لا يروع بك مسلم أبدا فأمر به فقتل وأصابوا فيها من الغنائم والسلاح وآنية الذهب والفضة مالا يحصر ولا أصابوا بخراسان مثله فقوى المسلمون فلما فرغ قتيبة من فتح بيكند رجع الى مرو

﴿ ذكر فتح طوانة من بلد الروم ﴾

فى سنة ثمان وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك بلاد الروم وكان الوليد قد كتب الى صاحب أرمينية يأمره أن يكتب الى ملك الروم يعرفه ان الخزر وغيرهم من ملوك جبال ارمينية قد أجمعوا على قصد بلاده ففعل ذلك وقطع الوليد البعث على أهل الشام الى أرمينية وأكثر وأعظم جهازه وساروا نحو الجزيرة ثم عطفوا منها الى بلد الروم فاقتتلوا هم والروم فانهزم الروم ثم رجعوا فانهزم المسلمون فبقى العباس فى نفر منهم ابن محيريز الجمحى فقال له العباس أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة فقال ابن محيريز نادهم يأتوا فنادى العباس يا أهل القرآن فأقبلوا جميعا فهزم الله الروم حتى دخلوا طوانة وحصرهم

المسلمون وفتحوها قيل وفى هذه السنة أيضا غزا مسلمة بن عبد الملك الروم أيضا ففتح ثلاثة حصون أحدها حصن قسطنطين وغزالة وحصن الأخرم وقتل من المستعربة نحوا من ألف وأخذ الاموال

﴿ ذكر غزوة نومشكث ورامثنة ﴾

فى هذه السنة غزا قتيبة بن مسلم نومشكث واستخلف على مرو أخاه يسار بن مسلم فتلقاه أهلها فصالحهم ثم سار الى رامثنة فصالحه أهلها وانصرف عنهم وزحف اليه الترك ومعهم الصغد وأهل فرغانة فى مائتى ألف وملكهم ابن أخت ملك الصين فاعترضوا المسلمين فلحقوا عبد الرحمن بن مسلم أخا قتيبة وهو على الساقة بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل فلما قربوا منه أرسل الى قتيبة يخبره وأدركه الترك فقاتلوه ورجع قتيبة فانتهى الى عبد الرحمن وهو يقاتل الترك وقد كاد الترك يظهرون عليه فلما رأى المسلمون قتيبة طابت نفوسهم وقاتلوا الى الظهر وأبلى يومئذ نيزك وهو مع قتيبة فانهزم الترك ورجع قتيبة فقطع النهر عند ترمذ وأتى مرو ه وفى سنة تسع وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد الروم فافتتح مسلمة حصن عمورية وفتح العباس اذرولية ولقى من الروم جمعا فهزمهم وقيل ان مسلمة قصد عمورية فلقى بها جمعا من الروم كثيرا فهزمهم وافتتح هرقلة وقمونية وغزا العباس الصائفة من ناحية البذندون

﴿ ذكر غزوة قتيبة بخارى ﴾

فى هذه السنة أتى قتيبة كتاب الحجاج يأمره بقصد وردان خذاه فعبر النهر من زم فلقى الصغد وأهل كش ونسف فى طريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم ومضى الى بخارى فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان فلقوه فى جمع كثير فقاتلهم يومين وليلتين فظفر بهم وغزا وردان خذاه ملك بخارى فلم يظفر بشئ فرجع الى مرو وكتب الى الحجاج يخبره فكتب اليه الحجاج أن صورها فبعث اليه بصورتها فكتب اليه الحجاج أن تب الى الله جل ثناؤه مما كان منك واتها من مكان كذا وكذا وكتب اليه ان كش بكش وانسف نسف وردوردان واياك والتحوط ودعنى

من ثنيات الطريق فلما ورد الكتاب على قتيبة خرج غازيا سنة تسعين فاستجاش وردان خذاه بالصغد والترك ومن حوله فأتوه وقد سبق اليها قتيبة فحصرها فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا الى المسلمين يقاتلونهم فقالت الازد اجعلونا ناحية وخلوا بيننا وبين قتالهم فقال قتيبة تقدموا فتقدموا وقاتلوهم قتالا شديدا ثم ان الازد انهزموا حتى دخلوا العسكر وركبهم المشركون فحطموهم حتى أدخلوهم عسكرهم وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكروا راجعين فانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم الى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة من يزيلهم عن هذا الموضع فلم يقدم عليهم أحد من العرب فأتى قتيبة بنى تميم فقال لهم يوما كايامكم فأخذ وكيع بن حسان بن قيس التميمي اللواء وقال يا بنى تميم أتسلمونني اليوم قالوا لا يا أبا مطرف وكان هريم بن أبي طلحة على خيل تميم ووكيع رأسهم فقال وكيع يا هريم قدم خيلك ودفع اليه الراية فتقدم هريم وتقدم وكيع في الرجالة فانتهى هريم الى نهر بينهم وبين الترك فوقف فقال وكيع تقدم يا هريم فنظر هريم نظر الجمل الهائج الصائل وقال أأقحم الخيل هذا النهر فان انكشفت كان هلاكها يا أحمق فقال وكيع يا ابن اللخناء أترد أمري فحذفه بعمود كان معه فعبر هريم في الخيل وانتهى وكيع الى النهر فعمل عليه جسرا من خشب وقال لاصحابه من وطن نفسه على الموت فليعبر والا فليثبت مكانه فما عبر معه الا ثمانمائة رجل فلما عبر بهم ودنا من العدو قال لهريم انى مطاعنهم فاشغلهم عنا بالخيل فحمل عليهم حتى خالطهم وحمل هريم في الخيل فطاعنهم ولم يزالوا يقاتلونهم حتى أحدروهم من التل ونادى قتيبة ما ترون العدو منهزمين فلم يعبر أحد النهر حتى انهزموا وعبر الناس ونادى قتيبة من أتى برأس فله مائة فأتى برؤس كثيرة فجاء يومئذ أحد عشر رجلا من بنى قريع كل رجل برأس فيقال له من أنت فيقول قريعى فجاء رجل من الازد برأس فقيل له من أنت فقال قريعى فعرفه جهم بن زحر فقال كذب والله انه أزدى فقال له قتيبة ما دعاك الى هذا فقال رأيت كل من جاء يقول قريعى فظننت أنه ينبغى لكل من

جاء برأس أن يقوله فضحك قتيبة وجرح خاقان وابنه وفتح الله عليهم وكتب بالفتح الى الحجاج

﴿ ذكر صلح قتيبة مع الصغد ﴾

لما أوقع قتيبة بأهل بخارى هابه الصغد فرجع طرخون ملكهم ومعه فارسان فدنا من عسكر قتيبة وطلب رجلا يكلمه فأرسل اليه قتيبة حيان النبطى فطلب الصلح على فدية يؤديها اليهم فأجابه قتيبة الى ماطلب ورجع طرخون الى بلاده ورجع قتيبة ومعه نيزك

﴿ ذكر غدر نيزك وفتح الطالقان ﴾

لما رجع قتيبة من بخارى ومعه نيزك وقد خاف لما يرى من الفتوح فقال لاصحابه أنا مع هذا يعني قتيبة ولست آمنه فلو استأذنته ورجعت كان الرأى قالوا افعل فاستأذن قتيبة فأذن له وهو بآمل فرجع يريد طخارستان وأسرع السير حتى أتى النوبهار قال لأصحابه لاأشك ان قتيبة قد ندم على اذنه وسيبعث الى المغيرة بن عبد الله يأمره بحبسي وندم قتيبة على اذنه له فأرسل الى المغيرة يأمره بحبس نيزك وسار نيزك وتبعه المغيرة فوجده قد دخل شعب خلم فرجع المغيرة وأظهر نيزك الخلع وكتب الى اصبهبذ بلخ والى باذان ملك مرو الروذ والى ملك الطالقان والى ملك الفرياب والى ملك الجوزجان يدعوهم الى خلع قتيبة فأجابوه فواعدهم الربيع ان يجتمعوا ويغزوا قتيبة وكتب الى كابل شاه يستظهر به وبعث اليه بثقله وماله وسأله ان يأذن له ان اضطر اليه أن يأتيه فأجابه الى ذلك وكان جبغويه ملك طخارستان ضعيفا فأخذه نيزك فقيده بقيد من ذهب لئلا يخالف عليه وكان جبغويه هو الملك ونيزك عبده فاستوثق منه وأخرج عامل قتيبة من بلاد جبغويه وبلغ قتيبة خلعه قبل الشتاء وقد تفرق الجند فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم في اثنى عشر ألفا الى البروقان وقال أقم بها ولاتحدث شيأ فاذا انقضى الشتاء سر نحو طخارستان واعلم انى قريب منك فسار فلما كان آخر الشتاء كتب قتيبة الى نيسابور وغيرها من البلاد ليقدم عليه الجنود فقدموا فاقبل أوانهم فسار نحو

الطالقان وكان ملكها قد خلع وطابق نيزك على الخلع فأتاه قتيبة فأوقع بأهل الطالقان فقتل من أهلها مقتلة عظيمة وصلب منهم سماطين أربعة فراسخ فى نظام واحد ثم استعمل على الطالقان أخاه عمر بن مسلم ثم سار الى الفارياب فخرج اليه ملكها مذعنا فقبل منه ولم يقتل بها أحدا واستعمل عليها رجلا من أهله و بلغ ملك الجوزجان خبرهم فهرب الى الجبال وسار قتيبة الى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين فقبل منهم ولم يقتل بها أحدا واستعمل عليها عامر بن مالك الحمانى ثم أتى بلخ فلقيه أهلها فلم يقم بها الا يوما واحدا وسار يتبع أخاه عبد الرحمن الى شعب خلم ومضى نيزك الى بغلان وخلف مقاتلة على فم الشعب ومضائقه ليمنعوه و وضع مقاتلته فى قلعة حصينة من وراء الشعب فأقام قتيبة أياما يقاتلهم على مضيق الشعب لا يقدر على دخوله ولا يعرف طريقا يسلكه الى نيزك الا الشعب أو مفازة لا تحتملها العساكر فبقى متحيرا فقدم انسان فاستأمنه على أن يدله على مدخل القلعة التى من وراء الشعب فأمنه قتيبة و بعث معه رجالا فانتهى بهم الى القلعة من وراء شعب خلم فطرقوهم وهم آمنون فقتلوهم وهرب من بقى منهم ومن كان فى الشعب فدخل قتيبة الشعب فأتى القلعة ومضى الى سمنجان فأقام بها أياما ثم سار الى نيزك وقدم أخاه عبد الرحمن فارتحل نيزك من منزله فقطع وادى فرغانة ووجه ثقله وأمواله الى كابل شاه ومضى حتى نزل الكرز وعبد الرحمن يتبعه فنزل عبد الرحمن حذاء الكرز ونزل قتيبة بمنزل بينه وبين عبد الرحمن فرسخان فتحصن نيزك فى الكرز وليس اليه مسلك الا من وجه واحد وهو صعب لا تطيقه الدواب فحصره قتيبة شهرين حتى قل ما فى يد نيزك من الطعام وأصابهم الجدرى وجدر جبغويه وخاف قتيبة الشتاء فدعا سليما الناصح وكان يصادق نيزك فقال انطلق الى نيزك واحتل لتأتينى به من غير أمان فان احتال وأبى فأمنه واعلم أنى ان عاينتك وليس هو معك صلبتك قال فاكتب الى عبد الرحمن لا يخالفنى فكتب اليه فقدم عليه فقال له ابعث رجالا ليكونوا على فم الشعب فاذا خرجت أنا ونيزك فليعطفوا من ورائنا فيحولوا بيننا و بين الشعب فبعث عبد الرحمن خيلا فكانت

هنالك وحمل سليم معه أطعمة وأخبصة أوقارا وأتى نيزك فقال له انك أسأت الى قتيبة وغدرت قال نيزك فما الرأى قال أرى أن تأتيه فانه ليس ببارح وقد عزم على أن يشتو مكانه هلك أو سلم قال نيزك كيف آتيه على غير أمان قال ما اظنه يؤمنك لما فى نفسه عليك لانك قد ملأته غيظا ولكنى أرى أن لا يعلم حتى تضع يدك فى يده فانى أرجو أن يستحى و يعفو قال انى أرى نفسى تأبى هذا وهو ان رآنى قتلنى فقال سليم ما أتيتك الا لأشير عليك بهذا ولو فعلت لرجوت أن تسلم وتعود حالك عنده فاذا أبيت فانى منصرف وقدم سليم الطعام الذى معه ولا عهد لهم بمثله فانتهبه أصحاب نيزك فساءه ذلك فقال له سليم انى لك من الناصحين أرى أصحابك قد جهدوا وان طال بهم الحصار لم آمنهم أن يستأمنوا بك فائت قتيبة فقال لا آمنه على نفسى ولا آتيه الا بأمان وان ظنى أن يقتلنى وان أمننى ولكن الامان أعذر الى قال ابن خلدون ولم يزل يفتل له فى الذروة والغارب وهو يمتنع حتى قال وانه قد أمنك وقوله ولم يزل الخ هو مثل من أمثال العرب يضرب فى الخداع والمماكرة اه ميدانى فقال سليم قد أمنك أفتتهمنى قال لا وقال له أصحابه اقبل قول سليم فلا يقول الاحقا فخرج معه ومع جبغويه وصول طرخان خليفة جبغويه وحبس طرخان صاحب شرطته وشقران ابن أخى نيزك فلما خرجوا من الشعب عطف الخيل التى خلفها سليم فحالوا بين الاتراك أصحاب نيزك والخروج فقال نيزك هذا أول الغدر قال سليم تخلف هؤلاء عنك خير لك وأقبل سليم ونيزك ومن معه حتى دخلوا على قتيبة فحبسهم وكتب الى الحجاج يستأذنه فى قتل نيزك واستخرج قتيبة ما كان فى الكرز من متاع ومن كان فيه فقدم به على قتيبة فانتظر بهم كتاب الحجاج فأتاه كتاب الحجاج بعد أربعين يوما يأمره بقتل نيزك فدعا قتيبة الناس واستشارهم فى قتله واختلفوا فقال ضرار بن حصين انى سمعتك تقول أعطيت الله عهدا ان أمكنك منه أن تقتله فان لم تفعل فلا ينصرك الله عليه أبدا فدعا نيزك فضرب عنقه بيده وأمر بقتل صول وابن أخى نيزك وقتل من أصحابه سبعمائة وقيل اثنى عشر ألفا وصلب نيزك وابن أخيه وبعث برأسه الى الحجاج وأخذ

الزبير مولى عباس الباهلي حقا النيزك فيه جوهر فكان أكثر من في بلاده مالا وعقارا من ذلك الجوهر وأطلق قتيبة جبغويه ومن عليه وبعث به الى الوليد فلم يزل بالشام حتى مات الوليد فلما قتل قتيبة نيزك رجع الى مرو وأرسل ملك الجوزجان يطلب الامان فأمنه على أن يأتيه فطلب رهنا ويعطي رهائن فأعطاه قتيبة حبيب بن عبد الله بن حبيب بن محمد وأعطى ملك الجوزجان رهائن من أهل بيته وقدم على قتيبة ثم رجع فمات بطالقان فقال أهل الجوزجان انهم سموه فقتلوا حبيبا وقتل قتيبة الرهائن الذين كانوا عنده وذلك سنة احدى وتسعين

﴿ ذكر قتل داهر ملك السند وفتح السند ﴾

قد تقدم ذكر أول غزو المسلمين في السند في سنة ثلاث وأربعين في خلافة عثمان رضي الله عنه وان عبد الله بن عامر استعمل على ثغر السند عبد الله بن سوار العبدي وفي سنة أربع وأربعين غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند عاملا للحكم ابن عمرو الغفاري حين كان على خراسان ﴿ وفي سنة خمس وسبعين كان على ثغر السند مجاعة بن مسعر التميمي من قبل الحجاج ﴿ وفي سنة تسع وثمانين ثم فتح بقية السند للمسلمين على يد محمد بن القاسم بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ابن عم الحجاج لان الحجاج هو ابن يوسف بن الحكم فيجتمع هو والحجاج في الحكم بن أبي عقيل ولى الحجاج محمد بن القاسم المذكور واستعمله على ذلك الثغر وسير معه ستة آلاف مقاتل وجهزه بكل ما يحتاج اليه حتى المسال والابر والخيوط فسار محمد الى مكران فأقام بها أياما ثم أتى قنزبور ففتحها ثم سار الى ارمائيل ففتحها ثم سار الى الديبل فقدمها يوم جمعة ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والاداة فخندق حين نزل الديبل وأنزل الناس منازلهم ونصب منجنيقا يقال له العروس كان يمد به خمسمائة رجل وكان بالديبل بد عظيم والبد صنم في بناء عظيم وكان تحت منارة عظيمة مرتفعة وفي رأس المنارة دقل عظيم وعلى الدقل راية حمراء اذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور وكل ما يعبد فهو عندهم بد فحصر الديبل وطال حصارها فرمى الدقل بحجر العروس فكسره فتطير الكفار بذلك

ثم خرجوا اليه فناهضهم القتال فهزمهم حتى ردهم الى البلد وأمر بالسلاليم فنصبت فصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل فيها ثلاثة أيام وهرب عامل داهر ملك السند عنها وأنزلها محمد بن القاسم أربعة آلاف من المسلمين وبنى جامعها وسار عنها الى البيرون وكان أهلها بعثوا الى الحجاج فصالحوه فلقوا محمدا بالميرة وأدخلوه مدينتهم ثم سار عنها فجعل لا يمر بمدينة الا فتحها حتى عبر نهرا دون مهران فأتاه أهل سربيلس فصالحوه ووظف عليهم الخراج ثم عبر نهر مهران واستعد ملك السند لمحاربته واسمه داهر بن صعصعة ثم عقد الجسر على النهر فقاتله داهر وهو على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاكرة وهم قواد السند فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع بمثله وترجل داهر فقاتل حتى قتل عند المساء ثم انهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاؤا فلما قتل داهر لحقت امرأة داهر بمدينة راور فساروا اليها وخافته فأحرقت نفسها وجواريها وملك المدينة ولحق المنهزمون بمدينة برهمناباد العتيقة ففتحها عنوة وقتل من وجد بها وخربها ثم استولى على مدائن السند واحدة واحدة وقطع نهر بياس الى الملتان فحاصرها وقطع الماء عنها فنزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية وقتل سدنة البد وهم ستة آلاف وأصابوا ذهبا كثيرا فجمع في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع يلقى اليه من كوة في وسطه فسميت الملتان فرج بيت الذهب والفرج الثغر وكان بد الملتان تهدى اليه الاموال ويحج من البلاد ويحلقون رؤسهم ولحاهم عنده ويزعمون أن صنمه هو أيوب النبي صلى الله عليه وسلم وعظمت فتوح محمد بن القاسم ونظر الحجاج في النفقة على ذلك الثغر فكان ستين ألف ألف درهم ونظر في الخمس الذي حمل اليه فكان مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف فقال ربحنا النصف وهو ستون ألف ألف وأدركنا ثارنا ورأس داهر ولما مات الحجاج سنة خمس وتسعين كان محمد بن القاسم بالملتان فأتاه خبر وفاته فرجع الى الرور والبغرور وكان قد فتحهما فأعطى الناس ووجه الى البيلمان جيشا فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة ثم أتى محمد السكيرج فخرج اليه دوهر فقاتله فانهزم دوهر وقيل بل قتل

ونزل أهل المدينة على حكم محمد فقتل وسبى ومات الوليد بن عبد الملك وولى أخوه سليمان فعزل محمد بن القاسم عن السند وولاها يزيد بن أبى كبشة السكسكى فأخذ محمدا وقيده وحمله الى العراق فبكى أهل السند على محمد فلما وصل الى العراق حبسه صالح بن عبد الرحمن بواسط فعذبه صالح ثم قتله وكان الحجاج قتل آدم أخا صالح وكان يرى رأى الخوارج ومات يزيد بن أبى كبشة بعد قدومه أرض السند بثمانية عشر يوما واستعمل سليمان بن عبد الملك على السند حبيب بن المهلب فقدمها وقد رجع ملوك السند الى ممالكهم وغلبوا عليها فنزل حبيب على شاطئ مهران فأعطاه أهل الرور الطاعة وحارب قوما فظفر بهم ثم مات سليمان واستخلف عمر بن عبد العزيز فكتب الى الملوك يدعوهم الى الاسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم فأسلم جيشبة بن داهر والملوك وتسموا بأسماء العرب وكان عمرو بن مسلم الباهلى عامل عمر بن عبد العزيز على ذلك الثغر

﴿ ذكر غزو الهند وفتحه ﴾

لما كان عمرو بن مسلم الباهلى عاملا لعمر بن عبد العزيز على السند غزا بعض الهند فظفر ثم ان الجنيد بن عبد الرحمن المرى ولى السند أيام هشام بن عبد الملك فأتى الجنيد شط مهران فمنعه جيشبة بن داهر العبور وأرسل اليه انى قد أسلمت وولانى الرجل الصالح بلادى ولست آمنك فأعطاه رهنا وأخذ منه رهنا على خراج بلاده ثم ترادوا وكفر جيشبة وحارب وقيل انه لم يحارب ولكن الجنيد تجنى عليه فأتى الهند فجمع جموعا وأعد السفن واستعد للحرب فسار اليه الجنيد بالسفن فالتقوا فى بطيحة فأخذ جيشبة أسيرا فقتله وهرب صصة بن داهر وهو يريد أن يمضى الى العراق ويشكو غدر الجنيد فلم يزل الجنيد يؤنسه حتى وضع يده فى يده فقتله وكان ذلك سنة سبع ومائة وغزا الجنيد الكيرج من آخر الهند وكانوا قد نقضوا فاتخذ كباشا وصك بها سور المدينة والكباش آلة من خشب وحديد يجرونها بنوع من الحيل فتدق الحائط فينهدم فلما صك السور بالكباش ثلمه فدخلها فقتل وسبى ووجه العمال الى المرمذ والمندل ودهنج وبروبخ وبعث

بجيشا الى أز بن فأغار واعلها وحرقوار بضها وفتح البيلمان وحمل عنده سوى
ماحمل أربعون ألف ألف وحمل مثلها وولى الجنيد الهند تميم بن زيد القيني فضعف
ووهن ثم مات وفى أيامه خرج المسلمون عن بلاد الهند ورفضوا مراكزهم ثم ولى
الحكم بن عوام الكلبي وقد كفر أهل الهند الا أهل قصة فبنى مدينة سماها المحفوظة
وجعلها مأوى للمسلمين وكان معه عمر بن محمد بن القاسم الثقفي وكان يفوض اليه
عظيم الامور فأغزاه من المحفوظة فلما قدم عليه وقد ظفر أمره فبنى مدينة سماها
المنصورة فهى التي ينزلها الامراء واستخلص ما كان قد غلب عليه العدو ورضى
الناس بولايته ثم قتل الحكم وكان العمال يقاتلون العدو فكانوا يفتحون ناحية
ويأخذون ماتيسر لهم لضعف الدولة الأموية بعد ذلك الى أن جاءت الدولة العباسية

﴿ ذكر فتوحات موسى بن نصير بافريقية ﴾

فى سنة تسع وثمانين استعمل الوليد على افريقية موسى بن نصير فوصل الى
افريقية وكان البربر قد طمعوا فى البلاد وبلغه أن بأطراف البلاد قوما خارجين
عن الطاعة فوجه اليهم ابنه عبدالله فقاتلهم فظفر بهم وسبى منهم ألف رأس وسير
ابنه أيضا فى البحر الى جزيرة ميورقة فنهبها وغنم منها مالا يحصى وعاد سالما فوجه
ابنه هرون الى طائفة أخرى فظفر بهم وسبى منهم نحو ذلك وتوجه هو بنفسه الى
طائفة أخرى فغنم نحو ذلك فبلغ الخمس ستين ألف رأس من السبي ولم يذكر
أحد أنه سمع بسبي أعظم من هذا ثم ان افريقية قحطت واشتد بها الغلاء فاستسقى
بالناس وخطبهم ولم يذكر الوليد فقيل له فى ذلك فقال هذا مقام لا يدعى فيه لأحد
ولا يذكر الا الله عز وجل فسقى الناس ورخصت الاسعار ثم خرج غازيا الى طنجة
تريد من بقى من البربر وقد هربوا خوفا منه فتبعهم وقتلهم قتلا ذريعا حتى بلغ
السوس الادنى لا يدافعه أحد فاستأمن البربر اليه وأطاعوه واستعمل على طنجة
مولاه طارق بن زياد وجعل معه جيشا كثيفا جلهم البربر وجعل معهم من يعلمهم
القرآن والفرائض وعاد الى أفريقية فمر بقلعة مجانة فتحصن أهلها منه وترك عليها
من يحاصرها حتى فتحت وحينئذ لم يبق له فى افريقية من ينازعه وقيل كانت

ولاية موسى سنة ثمان وسبعين استعمله عليها عبد العزيز بن مروان وهو حينئذ
على مصر لاخيه عبد الملك وفى هذه السنة أعنى تسع وثمانين غزا مسلمة بن عبد
الملك الترك من ناحية اذربيجان ففتح حصونا ومدائن هنالك وغزا مسلمة أيضا
أرض الروم سنة تسعين ففتح حصونا خمسة وغزا العباس بن الوليد حتى بلغ أرذن

﴿ ذكر غزوة قتيبة بن مسلم شومان وكش ونسف ﴾

فى سنة احدى وتسعين سار قتيبة الى شومان فحصرها وكان سبب ذلك أن ملكها
طرد عامل قتيبة من عنده فأرسل اليه قتيبة رسولين أحدهما من العرب اسمه
عياش والآخر من أهل خراسان يدعوان ملك شومان أن يؤدى ما كان صالح
عليه فقدما على شومان فخرج أهلها اليهما فرموهما فانصرف الخراسانى وقاتلهم
عياش فقتلوه ووجدوا به ستين جراحة وبلغ قتله قتيبة فسار اليهم بنفسه فلما أتاها
أرسل أخاه صالح بن مسلم الى ملكها وكان صديقا له يأمره بالطاعة ويضمن له
رضا قتيبة ان رجع الى الصلح فأبى وقال لرسول صالح أتخوفنى من قتيبة وأنا أمنع
الملوك حصنا فأتاه قتيبة وقد تحصن ببلده فوضع عليه المجانيق ورمى الحصن
فهشمه وقتل رجل فى مجلس الملك بحجر فلما خاف أن يظهر عليه قتيبة جمع
ما كان بالحصن من مال وجوهر ورمى به فى بئر بالقلعة لا يدرك قعرها ثم فتح
القلعة وخرج اليهم فقاتلهم حتى قتل وأخذ قتيبة القلعة عنوة فقتل المقاتلة وسبى
الذرية ثم سار الى كش ونسف ففتحهما وامتنعت عليه فارياب فأحرقها فسميت
المحترقة وسير من كش ونسف أخاه عبد الرحمن الى الصغد وكان ملكها طرخون
فقبض عبد الرحمن من طرخون ما كان صالحه عليه قتيبة ودفع اليه رهنا كان
معه ورجع الى قتيبة بخارى وكان قد سار اليها من كش ونسف فرجعوا الى مرو
ولما كان قتيبة ببخارى ملك بخارى خذاه وكان غلاما حدثا وقتل من يخاف ان
يضاده وقيل ان قتيبة سار بنفسه الى الصغد فلما رجع عنهم قالت الصغد لطرخون
انك رضيت بالذل واستطبت الجزية وأنت شيخ كبير لا حاجة لنا فيك فحبسوه
وولوا غوزك فقتل طرخون نفسه وفى هذه السنة غزا عبد العزيز بن الوليد

الصائفة وفيها عزل الوليد عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأرمينية واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك فغزا مسلمة الترك من ناحية اذربيجان حتى بلغ الباب وفتح مدائن وحصونا ونصب عليها المجانيق وغزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم فى سنة ثنتين وتسعين ففتح حصونا ثلاثة وجلا أهل سوسنة الى بلاد الروم

﴿ ذكر فتح الأندلس ﴾

فى سنة ثنتين وتسعين فى خلافة الوليد بن عبد الملك غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير الأندلس فى اثنى عشر ألفا وكانوا قبل ذلك سبعة آلاف فنزلوا جبل طارق ثم أمدهم موسى بخمسة آلاف فصاروا اثنى عشر ألفا فلقى ملك الأندلس بعد أن جمع جيوشه فى أعمال شذونة فزحف له طارق بجميع من معه وزحف الملك وكان جيشه مائة ألف واتصلت الحرب ثمانية أيام ثم قتل ملكهم قتله طارق بيده وهزم الله الكفار وسار طارق متبعا لهم فأدرك خلقا من المنهزمين فقاتلوه قتالا شديدا ثم انهزموا ولم يلق المسلمون بعدها حربا مثلها ولم تقف هزيمة العدو على موضع بل كانوا يسلمون له بلدا بلدا ومعقلا معقلا فتوغل فى بلاد الاندلس وفتحها مدينة بعد مدينة والكلام على ذلك يطول وهو مبسوط فى التواريخ واستقامت الأمور هنالك وعلا الاسلام وأما القتلى من الكفار من أول الفتح الى آخره فشئ كثير لا يمكن احصاؤه والقتل من المسلمين بالنسبة لذلك قليل جدا وأما الغنائم من الذهب والفضة والخيل والجواهر والأثاث وبقية الأشياء فشئ كثير لا يمكن حصره ولا ضبطه وكانت توجد الطنفسة منسوجة بقضبان الذهب وتنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد فكان الجند اذا وجدوها لا يستطيعون حملها فيأتون بالفاس فيضربون به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها والآخر النصف الآخر ومما وجد فى تلك الغنائم مائة وسبعون تاجا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر وأصناف الجواهر الثمينة ووجد فيها ألف سيف ملوكى مرصعة بالجواهر ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال ومن أوانى الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف ومما وجدوه مائدة سليمان عليه السلام قيل انها

من منهوبات بخت نصر لما خرب بيت المقدس وقيل انها لم تكن لسليمان وانما أصلها أن العجم فى أيام ملكهم كان أهل الثروة منهم اذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس فصاغوا من ذلك المال تلك المائدة وكانت مصوغة من الذهب وقيل من الذهب والفضة مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد لم ير الراؤن مثلها وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد كلها مكللة بالجواهر وحافاتها وأرجلها منها وكان لها ثلاثمائة وستون رجلا وقيل خمسة وستون فحملت الى الوليد ومعها ثلاثون ألف رأس من السبي ومن الذهب والفضة والجواهر ونفائس الأمتعة مالا يقدر قدره وكان ابتداء القتال والفتح لليلتين بقيتا من رمضان سنة ثنتين وتسعين والتحق موسى بن نصير بمولاه طارق بن زياد فى رمضان سنة ثلاث وتسعين ومعه ثمانية عشر ألفا وتوغلا فى الأندلس الى أن وصلوا الى بلاد الافرنج فنمى الخبر الى الوليد بن عبد الملك واشتد قلقه على المسلمين فبعث اليهم يأمرهم بالرجوع قيل انهم انتهوا الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصابوا فيها صنما عظيما قائما كالسارية مكتوبا فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا فيها يابنى اسماعيل انتهيتم فارجعوا وان سألتم الى ماذا ترجعون أخبرتكم انكم ترجعون الى الاختلاف فيما بينكم حتى يضرب بعضكم أعناق بعض وقد فعلتم فرجعوا سنة خمس وتسعين وولى موسى على افريقية ابنه عبد الله وعلى الاندلس ابنه عبد العزيز وعلى طنجة ابنه عبد الملك فصار جميع الأندلس والمغرب بين أولاده ورجع هو ومولاه طارق قيل كان رجوعهم قبل وفاة الوليد وقيل بل كان بعد موت الوليد وولاية سليمان وقيل قدموا والوليد مريض مرض الموت ثم اتسع أمر المسلمين بالأندلس وصار لهم ملك ضخم ثم استولى عليها النصارى شيأ فشيأ الى سنة تسعمائة وأربع فاستولوا عليها جميعها وبقى قليل من المسلمين لاناصر لهم قاموا فى بعض الجبال على النصارى ثم تقووا عليهم وأخرجوهم وكان آخرهم خروجا سنة ألف وعشر وأسأل الله أن يهيء للاسلام من ينصره حتى يسترجع ما استولى عليه الكفار

﴿ ذكر غرق المسلمين الذين حصل منهم غلول في غنائم الاندلس ﴾

لما فتح موسى بلاد الاندلس سير طائفة من عسكره في البحر الى جزيرة سردانية وهي في بحر الروم من أكبر الجزائر كثيرة الفواكه فدخلها المسلمون وعمد النصارى الى مالهم من آنية ذهب وفضة فألقوا الجميع في الميناء التي لهم وجعلوا أموالهم في سقف بنوه للبيعة العظمى التي لهم تحت السقف الأول وغنم المسلمون فيها مالا يحد ولا يوصف وأكثروا الغلول فاتفق أن رجلا اغتسل في الميناء فعلقت رجله في شيء فأخرجه فاذا صحفة من فضة فأخذ المسلمون جميع ما في الميناء ثم دخل رجل من المسلمين الى تلك الكنيسة فنظر الى حمام في سقف الكنيسة فرماه بسهم فأخطأه ووقع في السقف وانكسر لوح فنزل منه شيء من الدنانير فاستخرج المسلمون جميع ما كان في السقف وأخذوه وازدادوا غلولا فكان بعضهم يذبح الهرة ويرمي ما في جوفها ويملأ جلدها دنانير ويخيط عليه ويلقيها في الطريق فاذا خرج أخذها وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملؤه ذهبا فلما ركبوا في البحر سمعوا قائلا يقول اللهم غرقهم فغرقوا عن آخرهم فوجدوا أكثر الغرقى والدنانير على أوساطهم * وفي سنة خمس وثلاثين ومائة غزا هذه الجزيرة عبد الرحمن بن حبيب الفهري وكان على الاندلس فقتل من بها قتلا ذريعا ثم صالحوه على الجزية فأخذت منهم ثم منعوا وبقيت لم يغزها أحد بعده فعمرها الروم فلما كانت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة أخرج اليها المنصور ابن القائم العلوي صاحب افريقية اسطولا من المهدية فمروا بجنوة ففتحوا المدينة وأوقعوا بأهل سردانية وسبوا فيها وأحرقوا مراكب كثيرة وأخربوا جنوة وغنموا ما فيها * وفي سنة ست وأربعمائة غزاها مجاهد العامري من الأندلس وكان صاحبها في البحر في مائة وعشرين مركبا ففتحها وقتل فأكثر وسبي النساء والذرية فسمع بذلك ملوك الروم فجمعوا اليه وساروا اليه من البر الكبير في جمع عظيم فاقتتلوا وانهزم المسلمون وأخرجوا من جزيرة سردانية ولم تغز بعد ذلك

﴿ ذكر غزو سجستان ﴾

وفي سنة ثنتين وتسعين غزا قتيبة بن مسلم سجستان وأراد قصد رتبيل الاعظم فلما

نزل قتيبة سجستان أرسل رتبيل اليه رسلا بالصلح فقبل ذلك وانصرف واستعمل عليهم عبد ربه بن عبد الله الليثي

﴿ ذكر صلح خوارزم شاه وفتح خام جرد ﴾

في سنة ثلاث وتسعين صالح قتيبة بن مسلم خوارزم شاه وكان سبب ذلك ان ملك خوارزم كان ضعيفا فغلبه أخوه خرزاد على أمره وكان أصغر منه وكان اذا بلغه ان عند أحد ممن هو منقطع الى الملك جارية أو مالا أو دابة أو بنتا أو أختا أو امرأة جميلة أرسل اليه وأخذه منه وكان لا يمتنع عليه أحد ولا الملك فاذا قيل للملك قال لا أقوى به وهو مغتاظ عليه فلما طال ذلك عليه كتب الى قتيبة يدعوه الى أرضه ليسلمها اله واشترط عليه أن يدفع اليه أخاه وكل من يضاده ليحكم فيهم بما يرى ولم يطلع أحدا من مرازبته على ذلك فاجابه قتيبة الى ما طلب وتجهز للغزو وأظهر قتيبة أنه يريد الصغد وسار من مرو وجمع خوارزم شاه أجناده ودهاقينه وقال ان قتيبة يريد الصغد وليس بغازيكم فهلموا نتنعم في ربيعنا هذا فاقبلوا على الشرب والتنعم فلم يشعروا حتى نزل قتيبة في هزارسب فقال خوارزم شاه لاصحابه ما ترون قالوا نرى ان نقاتله قال لكني لا أرى ذلك لانه قد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة ولكني أصرفه بشيء أؤديه اليه فاجابوه الى ذلك فسار خوارزم شاه ونزل بمدينة الفيل من وراء النهر وهي أحصن بلاده وقتيبة لم يعبر النهر فارسل اليه خوارزم شاه فصالحه على عشرة آلاف رأس وعين ومتاع وعلى أن يعينه على خام جرد فقبل قتيبة ذلك وقيل صالحه على مائة ألف رأس ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن الى خام جرد وكان أحد أعداء خوارزم شاه وكان يغازي خوارزم شاه فقاتله فقتله عبد الرحمن وغلب على أرضه وقدم منهم باربعة آلاف أسير فقتلهم قتيبة وسلم قتيبة الى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه فقتلهم ودفع أموالهم الى قتيبة

﴿ ذكر فتح سمرقند ﴾

لما قبض قتيبة صلح خوارزم شاه قام اليه المجشر بن مزاحم السلمي فقال له سرا ان أردت الصغد يوما من الدهر فالآن فانهم آمنون من أن يأتيهم عامل وانما بينك

وبينهم عشرة أيام فقال أشار عليك بهذا أحد قال لا قال فسمعه منك أحد قال لا قال والله لئن تكلم به أحد لاضربن عنقك فلما كان الغد أمر أخاه عبد الرحمن فسار في الفرسان والرماة وقدم الاثقال الى مرو فسار يومه فلما أمسى كتب اليه قتيبة اذا أصبحت فوجه الاثقال الى مرو وسر بالفرسان والرماة الى الصغد واكتم الاخبار فاني في الاثر ففعل عبد الرحمن ما أمره وخطب قتيبة الناس وقال لهم ان الصغد شاغرة برجلها وقد نقضوا العهد الذي بيننا وصنعوا ما بلغكم واني أرجو أن تكون خوارزم والصغد كقريظة والنضير ثم سار فاتى الصغد فبلغها بعد عبد الرحمن بثلاث أو أربع فحصرهم بسمرقند شهرا واستجاشوا ملك الشاش واخشاد خاقان وفرغانة وكتبوا اليهم ان العرب ان ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به فانظروا لانفسكم ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها فنظروا وقالوا انما نؤتى من سفلتنا فانهم لا يجدون كجدنا فانتخبوا أهل النجدة من أبناء الملوك والمرازبة والاساورة والابطال وولوا عليهم ابن خاقان وأمروهم أن يأتوا عسكر قتيبة فيبيتوه فانه مشغول بحصار سمرقند فساروا وبلغ قتيبة الخبر فانتخب من عسكره ستمائة فارس من الشجعان وبعث بهم أخاه صالح بن مسلم وأمرهم بالمسير الى عدوهم فساروا فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم فجعل صالح له كمينين فلما مضى نصف الليل جاءهم عدوهم فلما رأوا صالحا حملوا عليه فلما اقتتلوا شد الكمينان عن يمين وشمال فلم ير قوم كانوا أشد من أولئك قال بعض أصحاب صالح انا لنقاتلهم في الليل اذ رأيت قتيبة وقد جاء سرا فضربت ضربة أعجبتني فقلت كيف ترى بأبي وأمي قال اسكت فض الله فاك ثم قاتلوهم أشد القتال فهزموهم وقتلوهم وقتلوا ابن خاقان ولم يفلت منهم الا الشريد وحوينا أسلابهم وسلاحهم واحتز زنا رؤسهم وأسرنا منهم أسرى فسألناهم عمن قتلنا فقالوا ما قتلتم الا ابن ملك أو عظيما أو بطلا كان الرجل منهم يعد بمائة رجل وكتبنا أسماءهم على آذانهم ثم دخلنا العسكر حين أصبحنا فلم يأت أحد بمثل ما جئنا به من القتلى والاسرى والخيل ومناطق الذهب والسلاح قال وأكرمني قتيبة وأكرم معي جماعة

وظننت انه رأى منهم مثل الذى رأى منى ولما رأى أهل الصغد ذلك خافوا خوفا شديدا ونصب قتيبة عليهم المجانيق فرماهم بها وثلم ثلمة فقام عليها رجل فشتم قتيبة فرماه بعض الرماة فقتله فاعطاه قتيبة عشرة آلاف وسمع بعض المسلمين قتيبة وهو يقول كأنه يناجى نفسه حتى متى ياسمرقند يعشش فيك الشيطان أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية فانصرف ذلك الرجل فقال لاصحابه كم من نفس تموت غدا وأخبرا الخبر فلما أصبح قتيبة أمر الناس بالجد فى القتال فقاتلوهم واشتد القتال وأمرهم قتيبة أن يبلغوا ثلمة السور فجعلوا الترسة على وجوههم وحملوا فبلغوها ووقفوا عليها ورماهم الصغد بالنشاب فلم يبرحوا فأرسل الصغد الى قتيبة فقالوا انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غدا فقال قتيبة لانصالحهم الا ورجالنا على الثلمة فصالحوه والرجال على الثلمة على ألف ألف ومائتى ألف مثقال فى كل عام وأن يعطوه فى تلك السنة ثلاثين ألف رأس وأن يخلوا لقتيبة مدينة سمرقند فلا يكون لهم فيها مقاتل الى أن يبنى فيها مسجدا و يدخل و يصلى و يخطب و يتغدى و يخرج فلما تم الصلح وأخلوا المدينة و بنى المسجد دخلها قتيبة فى أربعة آلاف انتخبهم فدخل المسجد فصلى فيه وخطب وأكل طعاما ثم أرسل الى الصغد من أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذ فانى لست خارجا منها ولست آخذ منكم الا ما صالحتكم عليه غير أن الجند يقيمون فيها فأكرههم على اقامة جندهم وقيل انه شرط عليهم أيضا بيوت النيران وحلية الاصنام فقبض ذلك وأتى الاصنام فكانت كالقصر العظيم وأخذ ما عليها من الحلية وأمر بها فأحرقت فجاءه غوزك فقال ان شكرك على واجب لاتتعرض لهذه الاصنام فان منها أصناما من أحرقها هلك فقال قتيبة أنا أحرقها بيدى فدعا بالنار فكبر ثم أشعلها فاحترقت فوجدوا من بقايا مسامير الذهب خمسين ألف مثقال وأصاب بالصغد جارية من ولد يزدجرد فأرسلها الى الحجاج فأرسلها الحجاج الى الوليد فولدت له يزيد بن الوليد ولما بعث قتيبة بالفتح الى الحجاج انتقل الى مرو واستعمل على سمرقند اياس بن عبدالله ثم ان أهل خوارزم استضعفوا اياسا

فجمعوا له جموعا وأرادوا قتاله فوجه قتيبة جموعا الى خوارزم مع المغيرة بن عبدالله وعزل اياسا من سمرقند وولى أخاه عبدالله بن مسلم فلما قدم المغيرة على سمرقند خشى ملكهم من أبناء الذين كان قتلهم ففر الى بلاد الترك وجاء المغيرة فقتل وسبى وملك خوارزم وصالحه الباقون على الجزية

﴿ ذكر غزوة قتيبة الشاش وفرغانة ﴾

فى سنة أربع وتسعين قطع قتيبة النهر وفرض على أهل بخارى وكش ونسف وخورزم عشرين ألف مقاتل فساروا معه فوجههم الى الشاش وتوجه هو الى فرغانة فأتى خجندة فجمع له أهلها جموعا واقتتلوا معه مرارا كل ذلك يكون الظفر للمسلمين ثم ان قتيبة أتى كاشان مدينة فرغانة وأتاه الجنود الذين وجههم الى الشاش وقد فتحوها وأحرقوا أكثرها وانصرف الى مرو وفى هذه السنة غزا العباس بن الوليد أرض الروم ففتح انطاكية وفيها غزا عبد العزيز بن الوليد غزالة وبلغ الوليد بن هشام المعيطى برج الحمام ويزيد بن أبى كبشة أرض سورية

﴿ ذكر غزوة الشاش ﴾

فى سنة خمس وتسعين بعث الحجاج بجيش من العراق الى قتيبة فغزا بهم الشاش فلما كان بشاش أو بكشماهان أتاه موت الحجاج فى شوال فغمه ذلك ورجع الى مرو وتفرق الناس فأتاه كتاب الوليد قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك فى جهاد أعداء المسلمين وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذى يجب لك فأتم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كانى أنظر الى بلائك والثغر الذى أنت فيه وفى هذه السنة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح هرقلة وفيها فتح آخر الهند الا الكيرج والمندل وقد تقدم ذكر ذلك وفى هذه السنة افتتح العباس بن الوليد قنسرين

﴿ ذكر فتح قتيبة مدينة كاشغر ﴾

فى سنة ست وتسعين غزا قتيبة كاشغر فسار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند فلما عبر النهر استعمل رجلا على معبر النهر ليمنع من يرجع الا بجواز منه

ومضى الى فرغانة وأرسل الى شعب عصام من يسهل الطريق الى كاشغر وهي أدنى مداين الصين وبعث جيشا مع كبير بن فلان الى كاشغر فغنم وسبي سبيا فختم أعناقهم وأوغل حتى بلغ قريب الصين فكتب اليه ملك الصين أن ابعث الى رجلا شريفا يخبرني عنكم وعن دينكم فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشي وغير ذلك وخيول حسنة وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابي فقال لهم اذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت أني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم فساروا وعليهم هبيرة فلما قدموا عليه دعاهم ملك الصين فلبسوا ثيابا بياضا تحتها الغلائل وتطيبوا ولبسوا النعال والاردية ودخلوا عليه وعنده عظماء قومه فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد ممن عنده فنهضوا فقال الملك لمن حضره كيف رأيتم هؤلاء فقالوا رأينا قوما ماهم الا نساء ما بقي منا أحد الا انتشر ما عنده فلما كان الغد دعاهم فلبسوا الوشي والعمائم الخز والمطارف وغدوا عليه فلما دخلوا قيل لهم ارجعوا وقال لاصحابه كيف رأيتم هذه الهيئة قالوا هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك فلما كان اليوم الثالث دعاهم فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وأخذوا السيوف والرماح والقسي وركبوا فنظر اليهم ملك الصين فرأى مثل الجبل فلما دنوا ركزوا رماحهم وأقبلوا مشمرين فقيل لهم ارجعوا فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون فقال الملك لاصحابه كيف ترونهم فقالوا ما رأينا مثل هؤلاء فلما أمسى بعث اليهم أن ابعثوا الى زعيمكم فبعثوا اليه هبيرة بن مشمرج فقال له قد رأيتم عظيم ملكي وانه ليس أحد يمنعكم مني وأنتم في يدي بمنزلة البيضة في كفي واني سائلكم عن أمر فان لم تصدقوني قتلتكم قال سل قال لم صنعتم بزيكم الاول اليوم الاول والثاني والثالث ما صنعتم قال اما زينا اليوم الاول فلباسنا في أهلنا وأما اليوم الثاني فزينا اذا أتينا أمراءنا وأما الثالث فزينا لعدونا قال ما أحسن ما دبرتم دهركم فقولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت قلة أصحابه والا بعثت عليكم من يهلككم قالوا كيف يكون قليل

الاصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون يعنون الشام وأما نحو يفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فاكرمها القتل ولسنا نكرهه ولا نخافه وقد حلف أميرنا ان لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية قال فانا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطؤه ونبعث اليه ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها ثم بعث اليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم وشيء من تراب أرضهم وأجاز العشرة الوافدين فأحسن جائزتهم فقدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب ووصل الخبر الى قتيبة فى هذه الغزوة بموت الوليد فرجع

﴿ ذكر مقتل قتيبة بن مسلم ﴾

كان قتيبة فحل عمال الدولة الاموية والحجاج فرعونها ومكث قتيبة على خراسان ثلاث عشرة سنة وفتح كثيرا من المداين التى كانت فتحت قبله ثم كفر أهلها وتغلبوا فقاتلهم حتى فتحها وفتح غيرها أيضا كما تقدم وفى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين قتل وعمره سبع وأربعون سنة وسبب قتله موافقته للوليد بن عبد الملك حين أراد خلع أخيه سليمان وذلك أن عبد الملك بن مروان عهد بالخلافة لابنه الوليد ثم من بعده لاخيه سليمان فأراد الوليد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لابنه عبد العزيز فلم يوافقه على ذلك الا الحجاج وقتيبة بن مسلم ثم مات الحجاج ثم مات الوليد ولم يتمكن من خلع أخيه فبويع لاخيه سليمان فخاف قتيبة منه وكان سليمان بن عبد الملك صديقا ليزيد بن المهلب فخاف قتيبة ان يعزله ويولى يزيد بن المهلب فدعا الناس لخلع سليمان وكان قتيبة قد عزل وكيع بن حسان عن رياسة بنى تميم وصيرها لضرار بن حصين الضبى فلما أراد خلع سليمان لم يوافقه وكيع وتجمع معه كثير من قومه فثار من ذلك فتنة بين المسلمين بخراسان يطول الكلام بذكرها فقتل فيها قتيبة وقتل معه من أهله اخوته عبد الرحمن وعبد الله وصالح وحصين وعبد الكريم ومسلم وقتل كثير ابنه وكان عدة من قتل مع قتيبة من أهل بيته أحد عشر رجلا ونجا عمر بن مسلم أخو قتيبة وحمل رأس قتيبة ورؤس أهل بيته الى

سليمان بن عبد الملك وقام بالامر بخراسان وكيع بن حسان تسعة أشهر ولما قتل قتيبة قال رجل من أهل خراسان يامعشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات لجعلناه فى تابوت فكنا نستسقى به ونستفتح به وفى هذه السنة جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش الى القسطنطينية واستعمل ابنه داود على الصائفة فافتتح حصن المرأة وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك الوضاحية ففتح الحصن الذى فتحه الوضاح صاحب الوضاحية وفيها غزا عمر بن هبيرة أرض الروم فى البحر فشتى بها

﴿ ذكر ولاية يزيد بن المهلب خراسان ﴾

كان سليمان بن عبد الملك ولى يزيد بن المهلب العراق وبعد مقتل قتيبة بتسعة أشهر ولاه خراسان فأقام عمالا له بالعراق وتوجه الى خراسان

﴿ ذكر فتح جرجان وطبرستان ﴾

فى سنة ثمان وتسعين غزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان لما قدم خراسان وسبب غزوهما واهتمامه بهما أنه لما كان عند سليمان بن عبد الملك بالشام كان سليمان كلما فتح قتيبة فتحا يقول ليزيد ألا ترى الى مايفتح الله على قتيبة فيقول يزيد مافعلت جرجان التى قطعت الطريق وأفسدت قومس ونيسابور ويقول هذه الفتوح ليست بشئ الشأن هى جرجان ولم تكن جرجان يومئذ مدينة انما هى جبال ومخارم وأبواب يقوم الرجل على باب منها فلا يقدم عليه أحد فلما ولاه سليمان خراسان لم يكن له همة غير جرجان فسار اليها فى مائة ألف من أهل الشام والعراق وخراسان سوى الموالى والمتطوعة فابتدأ بقهستان فحاصرها وكان أهلها طائفة من الترك وكان أهلها يخرجون ويقاتلون فيهزمهم المسلمون فى كل ذلك فاذا هزموا دخلوا الحصن فخرجوا ذات يوم وخرج اليهم الناس فاقتتلوا قتالا شديدا ثم انهزموا ودخلوا الحصن ثم ألح عليهم بالقتال وقطع عنهم المواد واشتد عليهم الحصار فطلب الصلح صول دهقان قهستان على أن يؤمنه على نفسه وأهله وماله ليدفع له المدينة بمافيها فصالحه ووفى له ودخل المدينة فاخذ مما كان فيها من الاموال والكنوز والسبى مالا يحصى وقتل أربعة عشر ألف تركى صبرا وكتب

الى سليمان بن عبد الملك بذلك ثم خرج حتى أتى جرجان وكان أهل جرجان قد صالحهم سعيد بن العاص وكانوا يجبون أحيانا مائة ألف وأحيانا مائتى ألف وأحيانا ثلاثمائة ألف ربما أعطوا ذلك وربما منعوه ثم امتنعوا وكفروا فلم يعطوا خراجا ولم يأت جرجان بعد سعيد أحد ومنعوا ذلك الطريق فلم يكن يسلك طريق خراسان أحد الا على فارس وكرمان وأول من صير الطريق من قومس قتيبة بن مسلم حين ولى خراسان وبقى أمر جرجان كذلك حتى ولى يزيد بن المهلب فأتاهم فاستقبلوه بالصلح وزادوه وهابوه فأجابهم الى ذلك وصالحهم فلما افتتح قهستان وجرجان طمع فى طبرستان أن يفتحها فعزم على أن يسير اليها فاستعمل عبد الله بن المعمر اليشكرى على ساسان وقهستان وخلف معه أربعة آلاف ثم أقبل الى أدنى جرجان مما يلى طبرستان فاستعمل على ايزوسار اشد بن عمرو وجعله فى أربعة آلاف ودخل بلاد طبرستان فأرسل اليه الاصبهبد صاحبها يسأله الصلح وأن يخرج من طبرستان فأبى يزيد ورجا أن يفتحها ووجه أخاه أبا عيينة من وجه وابنه خالد بن يزيد من وجه وأبا الجهم الكلبى من وجه ومع كل منهم جيش وقال اذا اجتمعتم فأبو عيينة على الناس فسار أبو عيينة وأقام يزيد معسكرا واستجاش الاصبهبد أهل جيلان والديلم فأتوه فالتقوا فى سفح الجبل فانهزم المشركون فى الجبل واتبعهم المسلمون حتى انتهوا الى فم الشعب فدخل المسلمون وصعد المشركون فى الجبل واتبعهم المسلمون يرومون الصعود فرماهم العدو بالنشاب والحجارة فانهزم أبو عيينة والمسلمون يركب بعضهم بعضا يتساقطون فى الجبل حتى انتهوا الى عسكر يزيد وكف عدوهم عن اتباعهم وخافهم الاصبهبد فكاتب أهل جرجان ومقدمهم المرزبان يسألهم ان يبيتوا من عندهم من المسلمين وأن يقطعوا عن يزيد المادة والطريق فيما بينه وبين بلاد الاسلام ويعدهم أن يكافئهم على ذلك فثاروا بالمسلمين فقتلوهم أجمعين وهم غارون فى ليلة وقتل عبد الله بن المعمر ومن معه فلم ينج منهم أحد وكتبوا الى الاصبهبد بأخذ المضايق والطرق وبلغ ذلك يزيد بن المهلب وأصحابه فعظم عليهم وهالهم وفزع يزيد الى حيان النبطى

وكان من رؤساء جنده ليسير الى الاصبهبد فى عمل الصلح فأتى حيا الاصبهبد فقال له أنا رجل منكم وان كان الدين فرق بيني و بينكم فانا لكم ناصح فأنت أحب الى من يزيد بن المهلب وقد بعث يستمد وامداده منه قريبة وانما أصابوا منه طرفا ولست آمن من أن يأتيك من لا تقوم له فأرح نفسك وصالحه فان صالحته صير حده على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم أصحابه فصالحه على سبعمائة ألف وأربعمائة وقر زعفران أو قيمته من العين وأربعمائة رجل على كل رجل منهم ترس وطيلسان ومع كل رجل جام من فضة وخرقة حرير وكسوة ثم رجع حيان الى يزيد بن المهلب فقال ابعث من يحمل صلحهم فقال من عندهم أو من عندنا فقال من عندهم وكان يزيد قد طابت نفسه أن يعطيهم ما سألوا و يرجع الى جرجان فارسل يزيد من يقبض ما صالحهم عليه حيان وانصرف الى جرجان

﴿ ذكر فتح جرجان الفتح الثاني ﴾

قد تقدم ذكر فتح قهستان وجرجان ثم غدر أهله باصحاب يزيد بن المهلب فلما صالح يزيد اصبهبد طبرستان سار الى جرجان وعاهد الله لئن ظفر بهم لا يرفع السيف حتى يطحن بسائل دمائهم و يأكل من ذلك الطحين فأتاها وحصر أهلها بحصن فجاة سبعة أشهر وهم يخرجون اليه فى الايام فيقاتلون و يرجعون وكانوا ممتنعين فى الجبل والاوعار فبينماهم كذلك اذ ظفر وابرجل يعرف الطرق فضمن له يزيد دية ان دلهم على الحصن وطرقه ومعالمه فانتخب معه يزيد ثلاثمائة رجل واستعمل عليهم ابنه خالد بن يزيد وقال يزيد للرجل متى تصلون قال غدا العصر فسار وا فلما كان الغد وقت الظهر أحرق يزيد كل حطب عنده حتى اضطرمت النيران ونظر العدو الى النار فهالهم ذلك فهجم خالد بن يزيد ومن معه عليهم قبل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه وسار يزيد بمن معه يقاتلهم من جهة أخرى فما شعروا الا بالتكبير من ورائهم فانقطعوا جميعا الى حصنهم وركبهم المسلمون فأعطوا بايديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم وقتل مقاتلتهم وصلبهم فرسخين الى يمين الطريق ويساره قيل ان الذين قتلهم أربعون ألفا فلذلك كان

عمر بن عبد العزيز يسمى يزيد بن المهلب جبارا وأجرى الماء على الدم وعليه أرحاء ليطحن بدمائهم ليبر بيمينه فطحن وخبز وأكل وبنى مدينة جرجان ولم تكن بنيت قبل ذلك مدينة ورجع الى خراسان واستعمل على جرجان جهم بن زحر الجعفي وكتب بالفتح الى سليمان وأخبره انه قد حصل من الخمس ستمائة ألف ألف فقال له كاتبه المغيرة بن أبي قرة مولى بني سدوس لا تكتب تسمية المال فانك من ذلك بين أمرين اما استكثره فامرك بحمله واما سمحت نفسه لك به فاعطاكه فتكلف الهدية فلا يأتيه من قبلك شئ الا استقله فكأني بك قد استغرقت ما سميت ولم يقع منه موقعا ويبقى المال الذي سميت مخلدا في دواوينهم فان ولي وآل بعده أخذك به وان ولي من يتحامل عليك لم يرض باضعافه ولكن اكتب فسله القدوم وشافهه بما أحببت فهو أسلم فلم يقبل منه وأمضى الكتاب فكان الامر كما قال كاتبه فان عمر بن عبد العزيز لما ولي بعد سليمان طالبه بذلك المال سنة تسع وتسعين وعزله وقيده وحبسه ثم هرب من السجن في مدة مرض عمر بن عبد العزيز ثم لما بويع يزيد بن عبد الملك بعد عمر بن عبد العزيز طلب يزيد بن المهلب فجمع جموعا وقاتل يزيد بن عبد الملك بعد أن خلعه وبايع الناس لنفسه وكانت جموع يزيد بن المهلب نحو مائة ألف وآخر الأمر قتل هو وكثير من اخوته وأهل بيته وذلك سنة اثنتين ومائة وقصة ذلك طويلة مذكورة في التواريخ قيل ان يزيد بن المهلب أصاب في غنائم جرجان تاجا فيه جوهر فقال لاصحابه أترون أحدا يزهد في هذا قالوا الا فدعا محمد بن واسع الازدي فقال خذ هذا التاج قال لا حاجة لي فيه قال عزمت عليك فاخذه فامر يزيد رجلا ينظر ما يصنع به فلقي سائلا فدفعه اليه فاخذ الرجل السائل فاتى به يزيد فاخبره فأخذ يزيد التاج وعوض السائل مالا كثيرا

﴿ ذكر محاصرة القسطنطينية ﴾

وفي هذه السنة أعني سنة ثمان وتسعين سار سليمان بن عبد الملك الى دابق وجهز جيشا مع أخيه مسلمة بن عبد الملك ليسير الى القسطنطينية وسبب ذلك انه مات

ملك الروم فأتى أليون من اذربيجان لسليمان بن عبد الملك فأخبره بموته وضمن له فتح الروم فوجه ذلك الجيش مع أخيه مسلمة فسار الى القسطنطينية فلما دنا منها أمر كل فارس أن يحمل معه مدين من طعام على عجز فرسه الى القسطنطينية ففعلوا فلما أتاها أمر بالطعام فالقى أمثال الجبال وقال للمسلمين لا تأكلوا منه شيأ وأغيروا في أرضهم وازرعوا وعمل بيوتا من خشب فشتى فيها وصيف وزرع الناس وبقى الطعام في الصحراء والناس يأكلون ما أصابوا من الغارات والزرع وأقام مسلمة قاهرا للروم معه أعيان الناس فارسل الروم الى مسلمة يعطونه عن كل رأس دينارا فلم يقبل فقالت الروم لاليون ان صرفت عنا المسلمين ملكناك فاستوثق منهم فاتى مسلمة فقال له ان الروم قد علموا انك لا تصدقهم القتال وانك تطاولهم مادام الطعام عندك فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم فامر به فأحرق فقوى الروم وأصابوا المسلمين حتى كادوا يهلكون وبقوا على ذلك حتى مات سليمان سنة تسع وتسعين وقيل انما خدع اليون مسلمة بأن سأله أن يدخل من الطعام الى الروم بمقدار ما يعيشون به ليلة واحدة ليصدقوا أن أمر مسلمة وأمره واحد وأنهم في أمان من السبي والخروج من بلادهم فأذن له وكان اليون قد أعد السفن والرجال فنقلوا تلك الليلة الطعام فلم يتركوا في تلك الحظائر الا ما لا يذكر وأصبح اليون محاربا وقد خدع مسلمة خديعة لو كانت لامرأة لعيبت بها ولقى الجند مالم يلقه جيش آخر حتى ان الرجل كان يخاف أن يخرج من العسكر وحده وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شئ غير التراب وسليمان مقيم بدابق ودخل الشتاء فلم يقدر أن يمدهم حتى مات فلما بويع عمر بن عبد العزيز بعده بعث الى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين ووجه له خيلا عتاقا وطعاما كثيرا وحث الناس على معونتهم فرجعوا سنة تسع وتسعين ه وفي سنة مائة واحدى توفى محمد بن مروان وتوفى عمر بن عبد العزيز فبويع ليزيد بن عبد الملك وكان في مدته الحرب المتقدم ذكره بينه وبين يزيد بن المهلب

﴿ ذكر غزوة الترك ﴾

في سنة اثنتين بعد قتل يزيد بن المهلب استعمل يزيد بن عبد الملك على العراق

وخراسان أخاه مسلمة بن عبد الملك فاستعمل مسلمة على خراسان سعيد الملقب خذينة ومعناه الدهقانة ربة البيت لانه كان رجلا لينا متنعما وهو سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص فجده الحارث أخو مروان بن الحكم فاستضعفه الناس وسموه خذينة فطمعت الترك فجمعهم خاقان ووجههم الى الصغد وعلى الترك صول فأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهلى محاصرين لمن فيه من المسلمين وفيه أهل مائة بيت من المسلمين بذراريهم وكان على سمرقند عثمان بن عبد الله بن مطرف بن الشخير استعمله سعيد خذينة فكتبوا اليه يستمدونه وخافوا أن يبطئ عليهم المدد فصالحوا الترك على أربعين ألفا وأعطوهم سبعة عشر رجلا رهينة وندب عثمان الناس فانتدب أربعة آلاف مع المسيب بن بشر الرياحى من سائر القبائل فقال لهم المسيب من أراد الغزو والصبر على الموت فليتقدم فرجع عنه ألف وقال ذلك أيضا بعد فرسخ فرجع ألف آخر ثم أعادها ثالثة بعد فرسخ فاعتزله ألف فلما كان على فرسخين من العدو أخبره بعض الدهاقين بأن القوم أتاهم ملك الترك وبايعه كل الدهاقين غيرى وأنا فى ثلاثمائة مقاتل فهم معكم وعندى الخبر قد كانوا صالحوهم وأعطوهم سبعة عشر رجلا رهينة فلما بلغهم مسيركم اليهم قتلوا الرهائن وميعادهم أن يقاتلوا غدا ويفتحوا لهم القصر يعنى قصر الباهلى الذى فيه أهل مائة بيت فبعث المسيب الى القصر المذكور رجلين عجميا وعربيا يأتيانه بالخبر فجاؤا فى ليلة مظلمة وقد أجرت الترك الماء بدائر القصر لئلا يصل اليه أحد ودنوا من القصر فصاح بهما الربيئة فقالا له اسكت وادع لنا فلانا من المسلمين الذين فى القصر فدعاه فأعلماه قرب العسكر وسألاه هل عندكم امتناع غدا فقال لهما نحن مستميتون وقد أجمعنا على تقديم نسائنا للموت أمامنا حتى نموت جميعا غدا فرجعا الى المسيب فأخبراه فقال لمن معه انى سائر الى هذا العدو المحاصرين للقصر فمن أحب أن يذهب فليذهب فلم يفارقه أحد وبايعوه على الموت فأصبح وسار وقد ازداد القصر تحصينا بالماء الذى أجراه الترك فلما كان بينه وبين الموضع الذى فيه الترك نصف فرسخ نزل وكان قد أجمع

على بياتهم فلما أمسى أمر أصحابه بالصبر وحثهم عليه وقال ليكن شعاركم يا محمد ولا تتبعوا مولياوعليكم بالدواب التى لهم فاعقروها فانها اذا عقرت كانت أشد عليهم منكم وليست بكم قلة فان سبعمائة سيف لا يضرب بها فى عسكر الا أوهنوه وان كثر أهله فلما دنوا منهم كبروا وذلك فى السحر وثار الترك وخالطهم المسلمون فعقروا الدواب وترجل المسيب فى رجال معه فقاتلوا قتالا شديدا وانقطعت يمين رجل من المسلمين فأخذ السيف بشماله فقطعت فجعل يذب بيده حتى استشهد وقتلوا كثيرا منهم وعظيما من عظمائهم فانهزمت الترك ونادى منادى المسيب لا تتبعوهم واقصدوا القصر لاطلاق من فيه واحملوا من فيه ولا تحملوا من متاعهم الا الماء ومن حمل امرأة أو صبيا أو رجلا ضعيفا لا يقدر على المشى حسبة فأجره على الله ومن أبى فله أربعون درهما وان كان فى القصر أحد من أهل عهدكم فاحملوه فأتوا القصر وحملوا من فيه وأخرجوهم ثم ساروا الى سمرقند ورجعت الترك من الغد فلم يروا فى القصر أحدا ورأوا قتلاهم فقالوا لم يكن الذين جاؤنا بالامس من الانس قال بعض من كان بالقصر لما التقوا ظننا ان القيامة قد قامت لما سمعنا من هماهم القوم ووقع الحديد وصهيل الخيل وفى هذه السنة غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية أرمينية وهو على الجزيرة قبل أن يلى العراق فهزمهم وأسر منهم خلقا كثيرا وقتل سبعمائة أسير وفيها غزا عباس بن الوليد بن عبد الملك الروم فافتتح دلسة

﴿ ذكر غزوة الصغد ﴾

وفى هذه السنة عبر سعيد خذينة النهر وغزا الصغد وقد كانوا انقضوا العهد وأعانوا الترك على المسلمين فقال الناس لسعيد انك قد تركت الغزو وقد أغار الترك وأعانهم أهل الصغد فقطع النهر وقصد الصغد فلقيه الترك وطائفة من الصغد فهزمهم المسلمون فقال سعيد لا تتبعوهم وقال هم جباية أمير المؤمنين يعنى بأخذ منهم المال ففى استئصالهم ضياع له وفى رواية قال هم بستان أمير المؤمنين وقد هزمتموهم أفتريدون بوارهم وقد قاتلتم يا أهل العراق الخلفاء غير مرة فهل أبادوكم فانكفوا عنهم ثم سار المسلمون الى واديهم وبين المرج فقطعه بعض

العسكر وقد أكمن لهم الترك فخرجوا عليهم وانهزم المسلمون الى الوادي ثم تلاحق المسلمون وجاء الامير والناس فانهزم العدو وكان سعيد اذا بعث سرية فأصابوا وغنموا وسبوا رد السبي وعاقب السرية فثقل سعيد على الناس وضعفوه وسعوا في عزله فعزل سنة ثلاث ومائة وولى مكانه سعيد الحرشي بالحاء المهملة والشين المعجمة من بني الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ينتهي الى قيس بن عيلان بن مضر * وفي سنة ثلاث ومائة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح مدينة يقال لها دلسة

﴿ ذكر الوقعة بين الحرشي والصغد ﴾

لما قدم الحرشي خراسان كان الناس بازاء العدو وقد نكبوا فخطبهم وحث الناس على الجهاد وقال انكم لا تقاتلون بكثرة ولا بعدة ولكن بنصر الله وعز الاسلام فقولوا لا حول ولا قوة الا بالله ولما سمع أهل الصغد بقوم الحرشي خافوا على أنفسهم لانهم كانوا قد أعانوا الترك على أصحاب خذينة فأجمع عظماؤهم على الخروج من بلادهم فقال لهم ملكهم لا تفعلوا وأقيموا واحملوا اخراج ما مضى واضمنوا له خراج ما يأتي وعمارة الارض والغزو معه ان أراد ذلك واعتذروه مما كان منكم وأعطوه رهائن قالوا نخاف أن لا يرضى ولا يقبل ذلك منا ولكن نأتي خجندة فنستجير ملكها ونرسل الى الامير فنسأله الصفح عما كان منا ونوثق انه لا يرى أمرا يكرهه فقال لهم ملكهم أنا رجل منكم والذي أشرت به عليكم خير لكم فأبوا وخرجوا الى خجندة وأرسلوا الى ملك فرغانة يسألونه أن يمنعهم وينزلهم مدينته فأراد أن يفعل فقالت أمه لا يدخل هؤلاء الشياطين مدينتك ولكن فرغ لهم رستاقا يكونون فيه فأرسل اليهم سموا رستاقا تكونون فيه حتى أفرغه لكم وأجلوني أربعين يوما وقيل عشرين يوما فاختاروا شعب عصام بن عبد الله الباهلي وكان قتيبة قد خلفهم فيه فقال نعم ولا أنا على عقد وجوار حتى تدخلوه وان أتتكم غزية قبل أن تدخلوه ليس لكم علي جوار فرضوا ففرغ لهم الشعب فجاء الخبر الى الحرشي فغزاهم وعاجلهم قبل أن يدخلوا شعب عصام

وخرج أهل الصغد للقتال فانهزموا وقد كانوا حفروا خندقا وغطوه بالتراب ليسقط فيه المسلمون عند القتال فلما انهزموا أخطأهم الطريق وأسقطهم الله فى ذلك الخندق ثم حاصرهم الحرشى ونصب عليهم المجانيق فأرسلوا الى ملك فرغانة ليجيرهم فقال قد شرطت عليكم أن لا جوار قبل الاجل الذى بينى وبينكم فطلبوا الصلح من الحرشى على أن يردوا مافى أيديهم من سبى العرب ويعطوا ما كسر من الخراج ولا يتخلف أحد منهم بخجندة ولا يقاتلوا أحدا فان أحدثوا حدثا استبيحت دماؤهم فقبل منهم وخرجوا من خجندة ونزلوا فى العسكر وبلغ الحرشى انهم قتلوا امرأة ممن كان فى أيديهم من المسلمين فقتل الذى قتلها فخاف منه بعض عظمائهم أن يقتله فنقض وخرج واعترض الناس ومعه جماعة منهم فقتل ناسا وتضعضع العسكر ولقوا منه شرا وانتهى الى ثابت بن عثمان بن مسعود فقتله ثابت وقتل الصغد أسرى عندهم من المسلمين مائة وخمسين رجلا فأخبر الحرشى بذلك فأمر بقتلهم وعزل التجار عنهم فقاتلهم الصغد بالخشب ولم يكن لهم سلاح فقتلوا عن آخرهم وكانوا ثلاثة آلاف وقيل سبعة آلاف وغنم أموال الصغد وذراريهم وأخذ منه ما أعجبه وكتب الى يزيد بن عبد الملك بالفتح وسرح الحرشى سرية الى حصن يطيف به وادى الصغد فتلقوها على فرسخ وقاتلوا فهزموا ودخلوا الحصن فحصروا فيه ثم طلبوا الصلح على أن لا يتعرض لنسائهم وذراريهم ويسلموا القلعة فقبل منهم ذلك وبعث الامناء لقبض ما فى القلعة فقبضوه وباعوه وقسموه وسار الحرشى الى كش وصالحوه على عشرة آلاف رأس وولى نصر ابن سيار قبض صلح كش وكان فى نسف خزائن منيعة فوجه اليها المسربل ابن الخريت وكان صديقا لملكها فجاء للملك وأخبره بما صنع الحرشى بأهل خجندة وخوفه قال فما ترى قال ان تنزل بأمان قال فما أصنع بمن لحق بى قال تجعلهم فى أمانك فصالحهم فأمنوه وبلاده ورجع الحرشى الى بلاده ومعه الملك فقتله وصلبه ومعه الامان وكانت هذه الوقائع سنة أربع ومائة وفيها عزل الحرشى عن خراسان ووليها مسلم بن سعيد الكلابى

﴿ ذكر غزو المسلمين بلاد الخزر وظفر الخزر بهم ﴾

في هذه السنة دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهراني فاجتمعت الخزر وهم التركمان في جمع كثير وأعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك ولقوا المسلمين في مكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالا شديدا فقتل كثير من المسلمين واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه وأقبل المنهزمون الى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال ثبيت يا أمير المؤمنين ما جبنت ولا نكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي وضاربت حتى انقطع سيفي غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد

﴿ ذكر غزوة أخرى على الخزر ﴾

ولما تمت الهزيمة المذكورة على المسلمين طمع الخزر في البلاد فجمعوا وحشدوا فولى يزيد على ارمينية الجراح بن عبد الله الحكمي وأمده بجيش كثيف فسار لغزو الخزر فتسامعوا به فعادوا حتى نزلوا بالباب والابواب ونزل الجراح الى بردعة فأقام بها حتى استراح هو ومن معه وسار نحو الخزر فعبر نهر الكر فسمع بأن بعض من معه من أهل تلك الجبال قد كاتب ملك الخزر يخبره بمسير الجراح اليه فحينئذ أمر الجرح مناديه فنادى في الناس ان الامير مقيم ههنا عدة أيام فاستكثروا من الميرة فكتب ذلك الرجل الى ملك الخزر يخبره ان الجراح مقيم ويشير عليه بترك الحركة فلما كان الليل أمر الجراح بالرحيل فسار مجدا حتى انتهى الى مدينة الباب والابواب فلم ير الخزر فدخل البلد وبث السرايا للنهب والغارة على ما يجاوره فغنموا وعادوا من الغد وسار الخزر اليه وعليهم ابن ملكهم فالتقوا عند نهر الران واقتتلوا قتالا شديدا فظفروا بالخزر وهزموهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل منهم خلق كثير وغنم المسلمون جميع ما معهم وساروا حتى نزلوا على حصن يعرف بالحصين لنزول أهله بالامان على مال يحملونه فأجابهم ونقلهم عنها ثم سار الى مدينة برغو فأقام عليها ستة أيام وهو مجد في قتالهم فطلبوا

الامان فأمنهم وتسلم حصنهم ونقلهم منه

﴿ ذكر فتح بلنجر ﴾

ثم سار الجراح الى بلنجر وهو حصن مشهور من حصونهم فنازله وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة فشدوا بعضها الى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها وتمنع المسلمين من الوصول الى الحصن وكانت تلك العجل أشد شيء على المسلمين في قتالهم فلما رأوا الضرر الذي عليهم انتدب جماعة منهم نحو ثلاثين رجلا وتعاهدوا على الموت وكسروا جفون سيوفهم وحملوا حملة رجل واحد وتقدموا نحو العجل وجد الكفار في قتالهم ورموا من النشاب ما كان يحجب عين الشمس فلم يرجع أولئك حتى وصلوا الى العجل وتعلقوا ببعضها وقطعوا الحبل الذي يمسكها وجذبوها فانحدرت وتبعها سائر العجل لان بعضها كان مشدودا الى بعض وانحدر الجميع الى المسلمين والتحم القتال واشتد وعظم الامر على الجميع حتى بلغت القلوب الحناجر ثم ان الخزر انهزموا واستولى المسلمون على الحصن عنوة وغنموا جميع ما فيه فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار وكانوا بضعة وثلاثين ألفا ثم ان الجراح أحضر صاحب بلنجر ورد اليه أمواله وأهله وحصنه وجعله عينا لهم يخبرهم بما يفعله الكفار ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوبندر وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه ثم ان الترك والتركمان تجمعوا وأخذوا الطرق على المسلمين فكتب صاحب بلنجر الى الجراح يعلمه بذلك فعاد مجدا حتى وصل الى رستاق ملي وأدركهم الشتاء فأقام المسلمون به وكتب الجراح الى يزيد بن عبد الملك يخبره بما فتح الله عليه وبما اجتمع من الكفار ويسأله المدد فوعده انفاذ العساكر اليه وأدرك يزيد أجله قبل انفاذ الجيش وكان موته في شعبان سنة خمس ومائة فلما مات يزيد وبويع أخوه هشام بن عبد الملك أرسل الى الجراح وأقره على عمله ووعده المدد ثم أرسله اليه فقوى أمر الجراح فغزا اللان في سنة ست وصالحه أهلها فأدوا الجزية ثم ان هشاما عزل الجراح عن أرمينية سنة سبع ومائة وولاها أخاه مسلمة بن عبد الملك

الى سنة احدى عشرة ثم عزل أخاه مسلمة وولاها الجراح ثانية فدخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالما فجمعت الخزر جموعها وحشدت وسارت الى بلاد الاسلام من ناحية اللان فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فاستشهد الجراح ومن كان معه بمرج أردبيل وكان قد استخلف أخاه الحجاج بن عبد الله على أرمينية ولما قتل الجراح طمع الخزر وأوغلوا فى البلاد حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب على المسلمين وكان الجراح خيرا فاضلا وكان أولا من عمال عمر بن عبد العزيز على خراسان ورثاه كثير من الشعراء ولما بلغ هشاما خبره دعا سعيدا الحرشى وكان قد عزل عن خراسان فقال له بلغنى ان الجراح قد انحاز عن المشركين قال كلا يا أمير المؤمنين الجراح أعرف بالله من أن ينهزم ولكنه قتل قال فما رأيك قال تبعثنى على أربعين دابة من دواب البريد ثم تبعث الى كل يوم أربعين رجلا ثم اكتب الى أمراء الاجناد يوافونى ففعل ذلك هشام وسار الحرشى فكان لا يمر بمدينة الا ويستنهض أهلها فيجيبه من يريد الجهاد ولم يزل كذلك حتى وصل الى مدينة أرزن فلقيه جماعة من أصحاب الجراح وبكوا وبكى لبكائهم وفرق فيهم نفقة وردهم معه وجعل لا يلقاه أحد من أصحاب الجراح الا رده معه ووصل الاخلاط وهى ممتنعة عليه فحصرها وفتحها وقسم غنائمها فى أصحابه ثم سار عن خلاط وفتح القلاع والحصون شيئا بعد شيء الى أن وصل الى بردعة فنزلها وكان ابن خاقان يومئذ باذربيجان يغير وينهب ويسبى ويقتل وهو محاصر مدينة ورثان فخاف الحرشى ان يملكها فأرسل بعض أصحابه الى أهل ورثان سرا يعرفهم وصولهم ويأمرهم بالصبر فسار القاصد ولقيه بعض الخزر فأخذوه وسألوه عن حاله فأخبرهم وصدقهم فقالوا له ان فعلت ما نأمرك به أحسنا اليك وأطلقناك والا قتلناك قال فما الذى تريدون قالوا تقول لأهل ورثان انكم ليس لكم مدد ولا من يكشف ما بكم وتأمرهم بتسليم البلد الينا فأجابهم الى ذلك فلما قارب المدينة وقف بحيث يسمع أهلها كلامه فقال لهم

أتعرفونى قالوا نعم أنت فلان قال فان الحرشى قد وصل الى مكان كذا فى عساكر كثيرة وهو يأمركم بحفظ البلد والصبر ففى هذين اليومين يصل اليكم فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل وقتلت الخزر ذلك الرجل ورحلوا عن مدينة ورثان فوصلها الحرشى فى العساكر وليس عندها أحد فارتحل يطلب الخزر الى أردبيل فسار الخزر عنها ونزل الحرشى باجروان فأتاه فارس على فرس أبيض فسلم عليه وقال له هل لك أيها الامير فى الجهاد والغنيمة قال كيف لى بذلك قال هذا عسكر الخزر فى عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أسارى وسبايا وقد نزلوا على أربعة فراسخ فسار الحرشى ليلا فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه فى أربعة جهات فكبسهم مع الفجر ووضع المسلمون فيهم السيف فما بزغت الشمس حتى قتلوا أجمعون غير رجل واحد وأطلق الحرشى من معهم من المسلمين وأخذهم الى باجروان فلما دخلها أتاه ذلك الرجل صاحب الفرس الابيض فسلم وقال هذا جيش للخزر ومعهم أموال للمسلمين وحرم الجراح وأولاده بمكان كذا فسار الحرشى اليهم فما شعروا الا والمسلمون معهم فوضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا ولم يفلت من الخزر الا الشريد واستنقذوا من معهم من المسلمين والمسلمات وغنموا أموالهم وأخذ أولاد الجراح فأكرمهم وأحسن اليهم وحمل الجميع الى باجروان وبلغ خبر ما فعله الحرشى بعساكر الخزر ابن ملكهم فوبخ عساكره وذمهم ونسبهم الى العجز والوهن فحرض بعضهم بعضا وأشاروا عليه بجمع أصحابه والعود الى قتال الحرشى فجمع أصحابه من نواحى أذربيجان فاجتمع معه عساكر كثيرة وسار الحرشى اليه فالتقيا بأرض برزند واقتتل الناس أشد قتال وأعظمه فانحاز المسلمون يسيرا فحصرهم الحرشى فأمرهم بالصبر فعادوا الى القتال وصدقوهم الحملة واستغاث من مع الخزر من الاسارى ونادوا بالتكبير والتهليل والدعاء فعندها حرض المسلمون بعضهم بعضا ولم يبق أحد الا وبكى رحمة للاسرى واشتدت نكايتهم فى العدو فولوا الادبار منهزمين وتبعهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر أرس وعادوا عنهم وحووا ما فى عساكرهم

من الاموال والغنائم وأطلقوا الاسرى والسبايا وحملوا الجميع الى باجروان ثم ان ابن ملك الخزر رجع من لحق به من عساكره وعاد بهم نحو الحرشي فنزل على نهر البيلقان وبلغ الخبر الحرشي فسار نحوه فى عساكر المسلمين فوافاهم وهم على نهر البيلقان فالتقوا هنالك فصاح الحرشي بالناس فحملوا حملة صادقة ضعضعوا صفوف الخزر وتابع الحملات وصبر الخزر صبرا عظيما ثم كانت الهزيمة عليهم فولوا الادبار منهزمين وكان من غرق منهم فى النهر أكثر ممن قتل وجمع الحرشي الغنائم وعاد الى باجروان فقسمها وأرسل الخمس الى هشام بن عبد الملك وعرفه بما فتح الله على المسلمين فكتب اليه هشام يشكره وأقام بباجروان فأتاه كتاب هشام يأمره بالمسير اليه واستعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك على ارمينية واذربيجان فوصل الى البلاد وسار الى الترك فى شتاء شديد حتى جاز البلاد فى آثارهم * وفى سنة ثلاث عشرة ومائة فرق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مداين وحصون على يديه وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ودان له من وراء جبال بلنجر وقتل ابن خاقان فاجتمعت تلك الأمم جميعها الخزر وغيرهم عليه فى جمع لا يعلم عددهم الا الله تعالى وقد جاز مسلمة بلنجر فلما بلغه خبرهم أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم ترك خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطوى المراحل كل مرحلتين فى مرحلة حتى وصل الى الباب والأبواب فى آخر رمق فعزله هشام وولى ارمينية واذربيجان مروان بن محمد وسيأتى الكلام ان شاء الله على غزواته وما افتتحه وانما تابعنا الكلام الى سنة ثلاث عشرة لارتباط بعضه ببعض * ولنرجع الى اتمام الكلام على الفتوحات الحاصلة فى غير اذربيجان وارمينية من سنة خمس الى سنة ثلاث عشرة فنقول كان فى سنة خمس غزوة لسعيد بن عبد الملك بأرض الروم فبعث سرية فى نحو ألف مقاتل فأصيبوا جميعا وفى سنة ١٠٤ استعمل مسلم بن سعيد الكلابى أميرا بخراسان بعد عزل الحرشي عنها فغزا الترك بما وراء النهر سنة ١٠٥ فلم يفتح شيأ وقفل فتبعه الترك فلحقوه والناس يعبرون جيحون فوقف على الساقة عبيد الله

ابن زهير ومعه خيل بنى تميم حتى عبر الناس سالمين وغزا مسلم أيضا تلاث السنة فشين فصالح أهلها على ستة آلاف رأس ودفع اليه القلعة * وفى سنة خمس أيضا غزا مروان بن محمد الصائفة اليمنى فافتتح قونية من أرض الروم وكمخ

﴿ ذكر غزو مسلم بن سعيد الكلابى الترك ﴾

فى سنة ست ومائة قطع مسلم النهر ولحق به من لحق من أصحابه فلما بلغ بخارى أتاه كتاب خالد بن عبيد الله القسرى يخبره بولايته العراق ويأمره باتمام غزاته فسار الى فرغانة فلما وصلها بلغه أن خاقان قد أقبل عليه وانه فى موضع ذكروه فارتحل فسار ثلاث مراحل فى يوم وأقبل اليهم خاقان فلقى طائفة من المسلمين وأصاب دواب السلم وقتل جماعة من المسلمين ثم أطاف خاقان بالعسكر وثار الناس فى وجوههم فأخرجوهم من العسكر فرحل مسلم بالناس فسار ثمانية أيام والترك يحيطون بهم وأصاب الناس عطش وأحرق الناس ما ثقل من الأمتعة فحرقوا ما قيمته ألف ألف وأتوا خجندة فأصابتهم مجاعة ولما أراد عبور النهر والترك محيطون به أمر مسلم الناس أن يخترطوا سيوفهم ويحملوا ففعلوا وصارت الدنيا كلها سيوفا فأفرجوا لهم فعبر واتم واتاه كتاب خالد بن عبد الله بعزله وولاية أخى خالد وهو أسد بن عبد الله القسرى * وفى سنة سبع ومائة ملك الجنيد بن عبد الرحمن بعض بلاد السند وقتل صاحبه جيشبة وتقدم تفصيل ذلك

﴿ ذكر غزوة بالأندلس ﴾

فى سنة سبع ومائة غزا عنبسة بن سحيم الكلبى عامل الأندلس لهشام بن عبد الملك بلد الفرنج فى جمع كثير ونازل مدينة قرقونه وحصر أهلها فصالحوه على نصف أعمالهم وعلى جميع ما فى المدينة من أسرى المسلمين وأسلابهم وأن يعطوا الجزية ويلتزموا بأحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه فعاد عنهم عنبسة

﴿ ذكر غزوة الغور ﴾

فى هذه السنة غزا أسد بن عبد الله الغور وهو جبال هراة فعمد أهلها الى أثقالهم فصيروها فى كهف ليس اليه طريق فأمر أسد باتخاذ توابيت ووضع فيها

الرجال ودلاها بسلاسل فتواصلوا الى الكهف فاستخرجوا ما قدروا عليه

﴿ ذكر غزوة الختل والغور ﴾

في سنة ثمان ومائة قطع أسد النهر وأتاه خاقان فلم يكن بينهما قتال وقيل عاد مهزوما من الختل وأظهر أنه يريد يشتو بسرخ دره فأمر الناس فارتحلوا ووجه راياته وسار في ليلة مظلمة الى سرخ دره فكبر الناس فقال مالهم فقالوا هذه علامتهم اذا قفلوا فقال للمنادي ناد ان الأمير يريد الغوريين فمضى اليهم فقاتلوهم يوما وصبروا لهم ثم عادوا من الغد فاقتتلوا وانهزم المشركون وحوى المسلمون عسكرهم وظهروا على البلاد وأسروا وسبوا وغنموا ورجعوا ✽ وفي هذه السنة غزا مسلمة ابن عبد الملك الروم مما يلي الجزيرة ففتح قيسارية وهي مدينة مشهورة وفيها أيضا غزا ابراهيم بن هشام ففتح حصنا من حصون الروم وفيها أيضا سار ابن خاقان ملك الترك الى اذربيجان فحصر بعض مدنها فسار اليه الحارث بن عمرو الطائي فالتقوا فاقتتلوا فانهزم الترك وتبعهم الحارث حتى عبر نهر ارس فعاد اليه ابن خاقان فعاودا الحرب أيضا فانهزم ابن خاقان وقتل من الترك خلق كثير ✽ وفي سنة تسع ومائة فصل هشام بن عبد الملك ولاية خراسان عن ولاية العراق وعزل أسدا عن خراسان واستعمل على خراسان اشرس بن عبد الله السلمي وله وقائع مع أهل سمرقند ستأتي وفي هذه السنة غزا عبد الله بن عقبة الفهري في البحر وغزا معاوية بن هشام أرض الروم ففتح حصنا يقال له طيبة وفيها غزا أيضا مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية أذربيجان وتقدم ذكر ذلك ✽ وفي هذه السنة أيضا غزا بشر ابن صفوان عامل افريقية جزيرة صقلية فغنم شيأ كثيرا ثم رجع الى القيروان

﴿ ذكر ما جرى لاشرس بن عبد الله السلمي مع أهل سمرقند وغيرها ﴾

في سنة عشر ومائة أرسل أشرس جماعة الى سمرقند وغيرها مما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام على أن توضع عنهم الجزية فدعوهم لذلك فأسلموا فجاء الخبر الى أشرس بأن الخراج قد انكسر فكتب أشرس الى العامل بلغني أنهم لم يسلموا رغبة وانما أسلموا نفورا من الجزية فانظروا من اختتن وأقام الفرائض

وقرأسو رامن القرآن فارفعوا الجزية عنه وعزل ذلك العامل وولى ابن هانى فكتب لاشرس انهم أسلموا و بنوا المساجد فكتب اليه أشرس ان يعيد الجزية على من كانت عليه ولو أسلم فاعتزلوا فى سبعة آلاف على فراسخ من سمرقند وامتنعوا وأرادوا القتال فكتب أشرس بوضع الخراج عنهم فرجعوا وضعف أمرهم ثم تتبعوا وحبسوا وأقيمت عليهم العقوبات وخرقت ثيابهم وألقيت مناطقهم فى أعناقهم وأخذت الجزية ممن أسلم فكفرت الصغد و بخارى واستجاشوا بالترك فخرج أشرس غازيا فنزل آمل وأقام شهرا وقدم قطن بن قتيبة ابن مسلم فى عشرة آلاف فعبر النهر ولقى الترك وأهل الصغد و بخارى ومعهم خاقان فحصر وا قطنا فى خندقه وأغار الترك على سرح المسلمين فبعث أشرس خيلا استنقذت من أيدى الترك ما أخذوه ثم عبر أشرس النهر بالناس ولحق بقطن ولقيهم العدو فانهزموا أمامهم وسار أشرس بالناس حتى جاء بيكند فحصرها المسلمون فقطع أهل البلد عنهم الماء وأصابهم العطش فرحلوا قاصدين البلد فاعترضهم دونها العدو فقاتلوهم قتالا شديدا حتى أزالوا الترك عن الماء وحمل قطن بن قتيبة فى جماعة تعاقدوا على الموت فانهزم العدو وأتبعهم المسلمون يقتلونهم الى الليل ثم رجع أشرس الى بخارى وجهز عليها عسكرا يحاصرونها ثم حاصر خاقان مدينة كمرجة من خراسان و بها جمع من المسلمين فأغلقوا الباب وقطعوا القنطرة التى على الخندق ليمنعوا الكفار من الدخول اليهم ثم أمر خاقان بقطع الخندق فجعلوا يلقون فيه الحطب الرطب ليعبروا عليه وجعل المسلمون يلقون حطبا يابسا على الحطب الرطب حتى سوى الخندق فأشعلوا فيه النيران وهاجت ريح شديدة صنعا من الله فاحترق الحطب فى ساعة واحدة وكانوا جمعوه فى سبعة أيام ثم فرق خاقان على الترك أغناما وأمرهم أن يأكلوا لحمها و يحشو جلودها ترابا و يكبسوا خندقها ففعلوا ذلك فأرسل الله سحابة فأمطرت مطرا شديدا فاحتمل السيل ما فى الخندق وألقاه فى النهر الاعظم ورماهم المسلمون بالسهام فأصابت بازغرى نشابة فى سرته فمات من ليلته وكان داهية

وكان خاقان لا يخالفه فدخل عليهم بموته أمر عظيم فلما امتد النهار جاؤا بالأسرى الذين عندهم وهم مائة فقتلوهم وكان عند المسلمين مائتان من أولاد المشركين رهائن فقتلوهم واستماتوا واشتد القتال ولم يزل أهل كرجه كذلك حتى أقبلت جنود العرب فنزلت فرغانة فعير خاقان قومه فى طول المدة وعدم الفتح قال زعمتم أنها تفتح فى خمسة أيام فصارت الخمسة شهرين وأمرهم بالرحيل وشتمهم فقالوا أمهلنا الى غد وانظر ما نصنع فلما كان الغد وقف خاقان وتقدم ملك الطار بنده فقاتل المسلمين وقتل منهم ثمانية وجاء حتى وقف على ثلمة الى جنب بيت فيه مريض من تميم فرماه التميمى بكلوب فتعلق بدرعه ثم نادى النساء والصبيان فجذبوه فسقط لوجهه ورماه رجل بحجر فأصاب أصل أذنه فصرع وطعنه آخر فقتله فاشتد قتله على الترك وأرسل خاقان الى المسلمين أنه ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها دون افتتاحها فارحلوا أنتم عنا فقالوا له ليس من ديننا أن نعطى بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم فأعطاهم الترك الامان على أن يرحل خاقان عنهم ويرحلوا هم عنها الى سمرقند أو الدبوسية فرأى أهل كرجة ما هم فيه من الحصار فأجابوا الى ذلك فأخذوا من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وطلبوا ان كورصول التركى يكون معهم فى جماعة تمنعهم الى الدبوسية فسلموا اليهم الرهائن وأخذوا هم أيضا من المسلمين رهائن وارتحل خاقان عنهم ثم رحلوا هم بعده فقال الاتراك الذين مع كورصول ان بالدبوسية عشرة آلاف مقاتل ولا نأمن أن يخرجوا علينا فقال لهم المسلمون ان قاتلوكم قاتلناهم معكم فساروا فلما صار بينهم وبين الدبوسية فرسخ نظر أهلها الى الفرسان فظنوا أن كرجة فتحت وأن خاقان قد قصدهم فتأهبوا للحرب فأرسل المسلمون اليهم بخبر ونهم خبرهم فلقوهم وحملوا من كان يضعف عن المشى ومن كان مجروحا فلما بلغ المسلمون الدبوسية أرسلوا الى من عنده الرهائن يعلمونه بوصولهم و يأمرونه باطلاقهم فجعلت العرب تطلق رجلا من الرهن والترك رجلا حتى بقى سباع بن النعمان مع الترك ورجل من الترك عند العرب وجعل كل فريق يخاف من صاحبه

الغدر فقال سباع خلوا رهينة الترك فخلوه وبقى سباع مع الترك فقال له كورصول ماحملك على هذا قال وثقت بك وقلت ترفع نفسك عن الغدر فوصله كورصول وأعطاه سلاحه وبرذونا وأطلقه وكان مدة حصار كمرجة ثمانية وخمسين يوما فيقال انهم لم يسقوا إبلهم خمسة وثلاثين يوما وفى هذه السنة ارتد أهل كردر فأرسل اليهم أشرس جندا فظفروا بهم وفى هذه السنة غزا معاوية بن هشام الروم ففتح صملة وغزا الصائفة عبدالله بن عقبة الفهرى وفيها مات الحسن البصرى وعمره سبع وثمانون سنة وفيها أيضا مات محمد بن سيرين وعمره احدى وثمانون سنة

﴿ ذكر غزو ماوراء النهر ﴾

فى سنة احدى عشرة ومائة عزل هشام بن عبدالملك أشرس بن عبدالله عن خراسان واستعمل عليها الجنيد بن عبدالرحمن المرى الغطفانى القيسى فلما قدم خراسان سار الى ماوراء النهر وأرسل الجنيد الى أشرس وهو يقاتل أهل بخارى والصغد أن أمدنى بخيل وخاف أن يقتطع دونه فوجه اليه أشرس عامر بن مالك الحمانى فى جماعة فلما كان عامر ببعض الطريق عرض له الترك والصغد فدخل حائطا حصينا وقاتلهم على الثلمة وكان ممن معه واصل بن عمرو القيسى وعاصم بن عمر السمرقندى فاستداروا مع جماعة من القوم حتى صاروا من وراء الماء الذى هناك ثم جمعوا قصبا وخشبا وعبروا عليه فلم يشعر خاقان الا والتكبير من خلفه وحمل المسلمون على الترك فقاتلوهم وقتلوا عظيما من عظمائهم وانهزم الترك وسار عامر الى الجنيد فلقيه وأقبل معه فلما انتهى الى فرسخين من بيكند تلقته خيل الترك فقاتلهم فكاد الجنيد يهلك ومن معه ثم أظهره الله وسار حتى قدم العسكر فظفر الجنيد وقتل الترك وزحف اليه خاقان فالتقوا دون زرمان من بلاد سمرقند وأسر الجنيد من الترك ابن أخى خاقان فبعث به الى هشام ورجع الجنيد الى مرو وقد ظفر وفى هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وغزا سعيد بن هشام الصائفة اليمنى حتى أتى قيسارية وغزا فى البحر عبدالله بن أبى كريم ٥ وفى سنة اثنتى عشرة ومائة كان دخول الجراح بن عبدالله الحكمى بلاد الخزر وقتله وتقدم الكلام على ذلك مستوفى

﴿ ذكر وقعة الجنيد بن عبد الرحمن المرى بالشعب ﴾

فى سنة ثنتى عشرة ومائة خرج الجنيد من مرو غازيا طخارستان فوجه عمارة بن حريم الى طخارستان فى ثمانية عشر ألفا ووجه ابراهيم بن بسام الليثى فى عشرة آلاف الى وجه آخر وجاشت الترك فأتوا سمرقند وعليها سورة بن الحر فكتب سورة الى الجنيد ان خاقان جاش الترك فخرجت اليهم فلم أطق أن أمنع حائط سمرقند فالغوث الغوث فأمر الجنيد الناس بعبور النهر فقال له جماعة من جنده ان الترك ليسوا كغيرهم لا يلقونك صفا ولا زحفا وقد فرقت كثيرا من الجند ولا تعبر النهر فى أقل من خمسين ألفا فاكتب الى عمارة فليأتك وامهل ولا تعجل قال فكيف بسورة ومن معه من المسلمين لو لم أكن الا فى بنى مرة أو من طلع معى من الشام لعبرت ثم عبر الجنيد بمن كان حاضرا فنزل كش وتأهب للمسير وبلغ الترك مسيره فغوروا الآبار التى فى طريق كش فقال الجنيد أى طريق الى سمرقند أصلح فقالوا طريق المحترقة فقال المجشر بن مزاحم السلمى القتل بالسيف أصلح من القتل بالنار طريق المحترقة كثير الشجر والحشيش ولم يزرع منذ سنين فان لقينا خاقان أحرق ذلك كله فقتلنا بالنار والدخان ولكن خذ طريق العقبة فهو بيننا وبينهم سواء فأخذ الجنيد طريق العقبة فارتقى فى الجبل فأخذ المجشر بعنان دابته وقال انه كان يقال ان رجلا مترفا من قيس يهلك على يديه جند من جنود خراسان وقد خفنا أن تكونه فقال ليفرخ روعك قال أما ما كان بيننا مثلك فلا فبات فى أصل العقبة ثم سار بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربع فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان فى جمع عظيم وزحف اليه أهل الصغد وفرغانه والشاش وطائفة من الترك فحمل خاقان على المقدمة فرجعوا الى العسكر والترك تتبعهم وجاؤا من كل وجه فرتب الجنيد جيشه وجعل على كل جهة رئيسا مشهورا بالشجاعة وشد نصر بن سيار هو ومن معه على العدو فكشفوهم ثم كروا عليهم وقتل يومئذ من الازد ثمانون رجلا وصبر الناس يقاتلون حتى أعيوا فكانت السيوف لا تقطع شيأ فقطع عبيدهم الخشب يقاتلون به حتى مل الفريقان

فكانت المعانقة ثم تحاجزوا فبينا الناس كذلك اذ أقبل رهج وطلعت فرسان فنادى منادى الجنيد الارض فترجل وترجل الناس ثم نادى ليخندق كل قائد على حياله فخندقوا وتحاجزوا وقد أصيب من الازد مائة وتسعون رجلا وكان قتالهم يوم الجمعة فلما كان يوم السبت قصدهم خاقان وقت الظهر فلم يجد موضعا للقتال أسهل من الموضع الذى نزل به قبائل بكر بن وائل فقصدهم فلما قربوا حملت بكر عليهم فأفرجوا لهم وسجد الجنيد واشتد القتال بينهم فلما رأى الجنيد شدة الامر استشار أصحابه فقال له عبد الله بن حبيب اختر اما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر قال هلاك سورة أهون على قال فاكتب له فليأتك من سمرقند فى أهل سمرقند فانه اذا بلغ الترك اقباله توجهوا اليه فكتب اليه الجنيد يأمره بالقدوم فقال لسورة حليس بن غالب الشيبانى ان الترك بينك وبين الجنيد فان خرجت كروا عليك فاختطفوك فكتب الى الجنيد انى لا أقدر على الخروج فكتب اليه الجنيد يا ابن اللخناء تخرج والا وجهت اليك شداد بن خليد الباهلى وكان عدوه فاخرج والزم الماء ولا تفارقه فاجمع على المسير وقال اذا سرت على النهر لا أصل فى يومين وبينى وبين هذا الوجه ليلة فاذا سكنت الرجل سرت فجاءت عيون الاتراك فاخبروهم بمقالة سورة ورحل سورة واستخلف على سمرقند موسى ابن أسود الحنظلى وسار فى اثنى عشر ألفا فأصبح على رأس جبل فتلقاه خاقان حين أصبح وقد سار ثلاثة فراسخ وبينه وبين الجنيد فرسخ فقاتلهم أشد القتال وصبروا فقال غورك لخاقان اليوم حار فلا تقاتلهم حتى يحمى عليهم السلاح فوافقهم وأشعل النار فى الحشيش وحال بينهم وبين الماء فقال سورة لعبادة ما ترى يا أبا سليم فقال أرى أن الترك يريدون الغنيمة فاعقر الدواب واحرق المتاع وجرد السيف فانهم يخلون لنا الطريق وان منعونا شرعنا الرماح وتزحف زحفا وانما هو فرسخ حتى نصل الى العسكر فقال لا أقوى على هذا ولا فلان وفلان وعدد رجالا ولكن أجمع الخيل فأصكهم بها سلمت أم عطبت وجمع الناس وحملوا فانكشفت الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهيب فسقطوا فيه وسقط

العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم غير ألفين ويقال ألف وكان ممن نجا عاصم بن عمير السمرقندي وانحاز المهلب بن زياد العجلي في سبعمائة الى رستاق يسمى المرغاب فنزلوا قصرا هناك فأتاهم الاشكند صاحب نسف ومعه غوزك فأعطاهم غوزك الامان فقال قريش بن عبد الله العبدي لا تثقوا بهم ولكن اذا جننا الليل خرجنا عليهم حتى نأتي سمرقند فعصوه فنزلوا بالامان فساقهم الى خاقان فقال لا أجيز أمان غوزك فقاتلهم الوحف بن خالد ومعه المسلمون فأصيبوا غير سبعة عشر رجلا فقتلوا غير ثلاثة وقتل سورة في اللهب فلما قتل خرج الجنيد من الشعب يريد سمرقند مبادرا فقال له خالد بن عبيد الله سر وأسرع فقال له المجشر انزل وأخذ بلجام دابته فنزل ونزل الناس معه فلم يستتم نزولهم حتى طلع الترك فقال المجشر له لو لقونا قبل نزولنا ونحن نسير ألم يهلكونا فلما أصبحوا تناهضوا فجال الناس فقال الجنيد أيها الناس انها النار فرجعوا ونادى الجنيد أي عبد قاتل فهو حر فقاتل العبيد قتالا عجب منه الناس فسروا بما رأوا من صبرهم وصبر الناس حتى انهزم العدو ومضوا فقال موسى بن النغراء تفرحون بما رأيتم من العبيد ان لكم منهم ليوما أروزبان أي ذار ياسة ومضى الجنيد الى سمرقند فحمل عيال من كان مع سورة الى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر ولما انصرف الترك بعث الجنيد بالخبر الى هشام وكتب اليه ان سورة عصاني أمرته بلزوم الماء فلم يفعل فتفرق عنه أصحابه فأتتني طائفة وطائفة الى نسف وطائفة الى سمرقند وأصيب سورة في بقية أصحابه فكتب هشام الى الجنيد قد وجهت اليك عشرة آلاف من أهل البصرة وعشرة آلاف من أهل الكوفة ومن السلاح ثلاثين ألف رمح ومثلها ترسة ومثلها سيفا فافرض أي ما شئت في العطا فلا غاية لك في الفريضة بخمسة عشر ألفا ولما سمع هشام مصاب سورة قال انا لله وانا اليه راجعون مصاب سورة بخراسان ومصاب الجراح بالباب وأبلى نصر بن سيار يومئذ بلاء حسنا وأرسل الجنيد ليلة بالشعب رجلا وقال له تسمع ما يقول الناس وكيف حالهم ففعل ثم رجع اليه

فقال رأيتهم طيبة أنفسهم يتناشدون الاشعار ويقرؤن القرآن فسره ذلك قال عبيد بن حاتم بن النعمان رأيت فساطيط بين السماء والارض فقلت لمن هذه فقالوا لعبدالله بن بسطام وأصحابه فقتلوا فى غد فقال رجل مررت فى ذلك الموضع بعد ذلك بحين فشممت رائحة المسك وأقام الجنيد بسمرقند وتوجه خاقان الى بخارى وعليها قطن بن قتيبة بن مسلم فخاف الجنيد الترك على قطن بن قتيبة فشاور أصحابه فقال قوم نلزم سمرقند وقال قوم نسير منها فنأتى ربنجن ثم كش ثم الى نسف فنتصل منها الى أرض زم ونقطع النهر وننزل آمل فنأخذ عليه بالطريق واستشار عبدالله بن أبى عبدالله مولى بنى سالم وأخبره بما قالوا فاشترط عليه أن لا يخالفه فيما يشير به عليه من ارتحال ونزول وقتال فقال نعم قال فانى أطلب اليك خصالا قال وماهى قال تخندق حيثما نزلت ولا يفوتنك حمل الماء ولو كنت على شاطىء نهر وان تطيعنى فى نزولك وارتحالك قال نعم قال اما ما أشاروا عليك فى مقامك بسمرقند حتى يأتيك الغياث فالغياث يبطىء عنك وأما ما أشاروا من طريق كش ونسف فانك ان سرت بالناس من غير الطريق فتّت فى أعضادهم وانكسروا عن عدوهم واجترأ عليك خاقان وهو اليوم قد استفتح بخارى فلم يفتحوا له فان أخذت غير الطريق بلغ أهل بخارى ما فعلت فيستسلموا لعدوهم وان أخذت الطريق الأعظم هابك العدو والرأى عندى أن تأخذ عيال من قتل مع سورة فتقسمهم على عشائرهم وتحملهم معك فانى أرجو بذلك أن ينصرك الله على عدوك وتعطى كل رجل تخلف بسمرقند ألف درهم وفرسا فأخذ برأيه وخلف بسمرقند عثمان بن أبى عبدالله بن الشخير فى أربعمائة فارس وأربعمائة راجل فشتم الناس عبدالله بن أبى عبدالله وقالوا ما أراد الاهلا كنا فخرج الجنيد وحمل العيال معه وسرح الاشهب بن عبيد الحنظلى ومعه عشرة من الطلائع وقال كلما مضت مرحلة تسرح الى رجلا يعلمنى الخبر وسار الجنيد فأسرع سيره فقال له عطاء الدبوسى انظر أضعف شيخ فى العسكر فسلحه سلاحا تاما بسيفه ورمحه وترسه وجعبته ثم سر على قدر مشيه فانا لا نقدر على سرعة المسير والقتال

ففعل الجنيد ذلك ولم يعرض للناس عارض حتى خرجوا من الأماكن المخوفة ودنا من الطواويس وأقبل اليه خاقان بكرمينية أول يوم من رمضان واقتتلوا فأتاه عبدالله بن أبي عبدالله وهو يضحك فقال الجنيد ليس هذا يوم ضحك قال الحمد لله اذ لم يلقك هؤلاء في جبال معطشة وعلى ظهر انما أتوك وأنت مخندق آخر النهار كالين وأنت معك الزاد فقاتلوا قليلا ثم رجعوا ثم قال للجنيد ارتحل فان خاقان ود أنك تقيم فينطوي عليك اذا شاء فسار وعبدالله على الساقة ثم أمره بالنزول فنزل واستقى الناس وباتوا فلما أصبحوا ارتحلوا فقال عبدالله أتوقع أن خاقان يصدم الساقة اليوم فشدوها بالرجال فقواهم الجنيد وجاءت الترك فمالت على الساقة فاقتتلوا واشتد القتال بينهم وقتل مسلم بن أحوز عظيما من عظماء الترك فتطيروا من ذلك وانصرفوا من الطواويس وسار المسلمون فدخلوا بخارى يوم المهرجان فتلقوهم بالدراهم البخارية فأعطاهم عشرة عشرة قال عبد المؤمن بن خالد رأيت عبدالله بن أبي عبدالله في المنام بعد موته فقال حدث الناس عني برأيي يوم الشعب وكان الجنيد يذكر خالد بن عبدالله فيقول زبدة من الزبد صنبور من صنبور قل من قل هيفة من الهيف والهيفة الضبع والقل الفرد والصنبور الذي لا أخ له وقدمت الجنود من الكوفة والبصرة على الجنيد فسرح معهم حوثرة بن زيد العنبري فيمن انتدب معه وبقي الجنيد في ولايته الى سنة ست عشرة ومائة كما سيأتي وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة فافتتح خرشنة وفي سنة ثلاث عشرة ومائة غزا عبدالله البطال أرض الروم ومعه عبدالوهاب بن بخت فانهزم الناس عن البطال فحمل عبدالوهاب وهو يقول ما رأيت فرسا أجبن منك وسفك الله دمي ان لم أسفك دمك ثم ألقى بيضته عن رأسه وصاح أنا عبدالوهاب بن بخت أمن الجنة تفرون ثم تقدم في نحر العدو فمر برجل يقول واعطشاه فقال تقدم الري أمامك فخالط القوم فقتل وقتل فرسه وفي هذه السنة أيضا فرق مسلمة بن عبدالملك الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مداين وحصون على يديه وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ودان له من كانوا وراء جبال

بلنجر وقتل ابن خاقان فاجتمعت تلك الامم جميعها الخزر وغيرهم على خاقان في جمع لا يعلم عددهم الا الله تعالى وقد جاز مسلمة بلنجر فلما بلغه خبرهم أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم تركوا خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطوى المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل الى الباب والابواب في آخر رمق وقد تقدم ذكر ذلك وأعيد هنا ليرتبط الكلام ببعضه

﴿ ذكر قتل عبد الرحمن الغافقي أمير الاندلس ﴾

وفي سنة ثلاث عشرة أيضا كان غزو من المسلمين الذين بافريقية على بلاد افرنجة وذلك أن هشام بن عبد الملك كان قد استعمل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي على افريقية والاندلس فاستعمل عبيدة على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فغزا افرنجة وأوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة وكان فيما أصاب صورة رجل بكسر الراء وسكون الجيم من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزمرد فكسرها وقسمها في الناس فبلغ ذلك عبيدة فغضب غضبا شديدا وكتب اليه يتهدده فأجابه عبد الرحمن وكان رجلا صالحا أما بعد فان السموات والأرض لو كانتا رتقا لجعل الله للمتقين منها مخرجا يعني فان الله قادر أن ينجيني مما تهددني به ثم خرج غازيا مرة ثانية ببلاد الفرنج فقتل هو ومن معه شهداء

﴿ ذكر ولاية مروان بن محمد أرمينية وأذربيجان بعد انقضاء غزو مسلمة بن عبد الملك ﴾

في سنة أربع عشرة ومائة استعمل هشام بن عبد الملك مروان بن محمد بن مروان وهو ابن عمه على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية وكان سبب ذلك انه كان في عسكر مسلمة بأرمينية حين غزا الخزر فلما عاد مسلمة سار مروان الى هشام فلم يشعر به حتى دخل عليه فسأله عن سبب قدومه فقال ضقت ذرعا بما أذكره ولم أر من يحمله غيري قال وما هو قال مروان قد كان من دخول الخزر الى بلاد الاسلام وقتل الجراح وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين ثم رأى أمير المؤمنين انه يوجه أخاه مسلمة بن عبد الملك اليهم فوالله ما وطئ من بلادهم الا أدناه

ثم انه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك فكتب الى الخزر يؤذنهم بالحرب وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر فاستعد القوم وحشدوا فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية وكان قصاراه السلامة وقد أردت أن تأذن لى فى غزوة أذهب بها عنا العار وأنتقم من العدو قال قد أذنت لك قال وتمدنى بمائة وعشرين ألف مقاتل قال قد فعلت قال وتكتم هذا الأمر عن كل واحد قال قد فعلت وقد استعملتك على ارمينية فودعه وسار الى ارمينية واليا عليها وسير هشام الجنود من الشام والعراق والجزيرة فاجتمع عنده من الجنود والمتطوعة مائة وعشرون ألفا فأظهر انه يريد غزو اللان وقصد بلادهم وأرسل الى ملك الخزر يطلب منه المهادنة فأجابه الى ذلك وأرسل اليه ملك الخزر من يقرر الصلح فأمسك الرسول عنده الى أن فرغ من جهازه وما يريد ثم أغلظ لهم القول وآذنهم بالحرب وسير الرسول الى صاحبه بذلك ووكل به من يسيره على طريق فيه بعد وسار هو فى أقرب الطريق فما وصل الرسول الى صاحبه الا ومروان قد وافاهم فأعلمه صاحبه الخبر وأخبره بما قد جمع له مروان وحشد واستعد فاستشار ملك الخزر أصحابه فقالوا ان هذا قد اغترك ودخل بلادك فان أقمت الى أن تجمع جنودك لم يجتمعوا عندك الا بعد مدة فيبلغ منك ما يريد وان أنت لقيته على حالك هذه هزمك وظفر بك والرأى أن تتأخر الى أقصى بلادك وندعه وما يريد فقبل رأيهم وسار حيث أمروه ودخل مروان البلاد وأوغل فيها وأخربها وغنم وسبى وانتهى الى آخرها وأقام فيها عدة أيام حتى أذلهم وانتقم منهم ودخل بلاد ملك السرير فأوقع بأهله وفتح قلاعا ودان له الملك وصالحه على ألف رأس نصفين خمسمائة غلاما وخمسمائة جارية سود الشعور ومائة ألف مد من البر تحمل الى الباب وصالحه أهل قرمان على مائة رأس نصفين وعشرين ألف مد من البر ثم دخل أرض زريكران فصالحه ملكها ثم أتى أرض حمزين فأبى حمزين أن يصالحه فحاصرهم فافتتح حصنهم عنوة ثم أتى سغدان فافتتحها صلحا ووظف على طبرشانشاه عشرة آلاف مدبر كل سنة تحمل الى الباب ثم نزل على قلعة صاحب اللكز فامتنع من أداء الوظيفة فخرج ملك

الكرز يريد ملك الخزر فقتله رامٍ بسهم وهو لا يعرفه فصالح أهل الكرز مروان واستعمل عليهم عاملا وسار الى قلعة شروان وهي على البحر فأذعن أهلها بالطاعة وسار الى الدودانية فأوقع بهم ثم عاد * وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى فأصاب ربض أقرن وغزا عبد الله البطال الروم والتقى هو وقسطنطين في جمع فهزمهم البطال وأسر قسطنطين وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى وبلغ قيسارية * وفي سنة خمس عشرة ومائة غزا معاوية بن هشام أرض الروم وغزا عبد الملك بن قطن عامل الأندلس أرض البشكنس فغنم وعاد سالما * وفي سنة ست عشرة ومائة غزا معاوية بن عبد الملك أرض الروم الصائفة وفيها عزل هشام بن عبد الملك الجنيد بن عبد الرحمن المري عن خراسان واستعمل عليها عاصم بن عبد الله الهلالي وسبب ذلك أن الجنيد تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فغضب هشام لعداوته ليزيد بن المهلب لانه خلع أخاه يزيد بن عبد الملك كما تقدم فولى عاصما خراسان وكان الجنيد أصابه استسقاء فقال هشام لعاصم ان أدركته وبه رمق فأزهق نفسه فقدم عاصم وقد مات الجنيد وفي هذه السنة استعمل هشام على افريقية عبيد الله بن الحبحاب الموصلي فسير جيشا الى صقلية وهي بكسرات مشددة اللام جزيرة بالمغرب فلقيهم مراكب الروم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزمت الروم وكانوا قد أسروا جماعة من المسلمين منهم عبد الرحمن بن زياد فبقي أسيرا الى سنة احدى وعشرين ومائة * وفي سنة ست عشرة أيضا جهز عبيد الله بن الحبحاب جيشا مع حبيب بن أبي عبيدة وسيرهم الى أرض السودان فظفر بهم ظفرا لم يظفر أحد مثله وأصاب ما شاء ثم غزا البحر ثم انصرف سالما وفيها سير أيضا ابن الحبحاب جيشا الى السوس فغنموا وظفروا وعادوا * وفي سنة سبع عشرة ومائة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى من نحو الجزيرة وفرق سراياه في أرض الروم وفيها بعث مروان بن محمد وهو على ارمينية بعثين وافتتح أحدهما حصونا ثلاثة من اللان ونزل الآخر على تومانشاه فنزل أهلها على الصلح وفي هذه السنة عزل

هشام بن عبد الملك عاصم بن عبد الله عن خراسان وأعاد أمر خراسان لوالى العراق خالد بن عبد الله القسرى فولى خالد خراسان أخاه أسد بن عبد الله وهذه ولايته الثانية وسيأتى ذكر غزواته وفيها بعث عبيد الله بن الحجاب حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع غازيا الى المغرب فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان فلم يقاتله أحد الا ظفر به وأصاب من الغنائم والسبى أمرا عظيما فلىء أهل المغرب منه رعبا وأصاب فى السبى جاريتين من البربر ليس لكل واحدة منهما غير ثدى واحد ورجع سالما وسير جيشا فى البحر سنة سبع عشرة ومائة أيضا الى جزيرة السردانية وهى جزيرة كبيرة ببحر المغرب ففتحوا منها ونهبوا وغنموا وعادوا وسير جيشا الى صقلية سنة اثنتين وعشرين فلم يلقه أحد الا هزمه فظفر ظفرا لم ير مثله حتى نزل على مدينة سرقوسة وهى من أعظم مدن صقلية فقاتلوه فهزمهم وحصرهم فصالحوه على الجزية وفى سنة ثمان عشرة ومائة غزا معاوية وسليمان ابنا هشام بن عبد الملك أرض الروم وفى هذه السنة كانت وفاة معاوية المذكور فى حياة والده وأعقب أولادا منهم عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام الذى ملك الأندلس ثم أولاده بعده وفى هذه السنة غزا أسد بن عبد الله القسرى والى خراسان طخارستان ثم أرض جبوية فغنم وسبى وفيها غزا مروان بن محمد ابن مروان ارمينية ودخل أرض ورنيس من ثلاثة أبواب فهرب منه ورنيس الى الخزر ونزل حصنه فحصره مروان ونصب عليه المجانيق فقتل ورنيس قتله بعض من اجتاز به وأرسل رأسه الى مروان فنصبه لاهل حصنه فنزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية

﴿ ذكر مقتل خاقان ﴾

لما كانت سنة تسع عشرة ومائة غزا أسد بن عبد الله القسرى بلاد الختل فافتتح منها قلاعا وامتلأت أيدى العسكر من السبى والشاء ولما بلغ الخبر خاقان جيش جيوشه وقصد أسدا فعبر المسلمون النهر راجعين الى بلادهم فتبعهم خاقان والتقوا بعد عبور النهر واقتتلوا قتالا شديدا وهزموا خاقان ثم مضى أسد الى

بلخ وشتى فيها ثم قصدهم خاقان بجيوشه الى بلخ ثم التقوا على فرسخين من الجوزجان فانهزم خاقان ومن معه وتبعهم المسلمون ثلاثة فراسخ وغنموا مائة وخمسين ألفا من الشاء ودوابي كثيرة ورجع أسد الى بلخ ثم وصل خاقان الى بلاده وأخذ في الاستعداد للحرب ولاعب يوما خاقان بالنرد كورصول فغمزه كورصول وتشاجرا فصك كورصول يد خاقان فكسرها فحلف خاقان ليكسرن يده فتنحى وجمع جمعا ثم بيت خاقان فقتله وتفرقت الترك واشتغلت الترك يغير بعضهم على بعض وأرسل أسد مبشرا الى هشام فلما بلغ هشام بن عبد الملك مقتل خاقان سجد شكرا لله ثم غزا أسد الختل مرة ثانية وفرق عسكره في أودية الختل فملؤا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهله الى الصين * وفي سنة تسع عشرة أيضا غزا الوليد بن القعقاع أرض الروم وغزا مروان بن محمد بن مروان من ارمينية فدخل بلاد اللان وسار فيها حتى خرج منها الى بلاد الخزر فربيلنجر وسمندر وانتهى الى البيضاء التي يكون فيها خاقان وكان ذلك قبل مقتل خاقان فهرب منه خاقان * وفي سنة عشرين توفي أسد بن عبد الله بمدينة بلخ وفيها عزل هشام بن عبد الملك خالد بن عبد الله عن العراق وولى يوسف بن عمر الثقفي وولى نصر بن سيار الكناني خراسان بعد موت أسد بن عبد الله وفي هذه السنة غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك الصائفة وفتح سندرة وغزا اسحاق بن مسلم العقيلي تومانشاه وافتتح قلاعها وخرب أرضها وفي هذه السنة توفي مسلمة بن عبد الملك بن مروان * وفي سنة احدى وعشرين ومائة غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير

﴿ ذكر غزوات نصر بن سيار الكناني ما وراء النهر ﴾

كان نصر بن سيار عاقلا حازما شجاعا مدبرا عمرت خراسان في مدة ولايته عمارة لم تعمر قبلها وأحسن الولاية والجباية مكث واليا على خراسان الى سنة ثلاثين ومائة فكانت مدة ولايته عشر سنين وكان قبل ولايته من أمراء الاجناد بخراسان وولي على بعض المداين وكان جعفر بن حنظلة الذي استخلفه أسد على

خراسان عند موته قد عرض على نصر أن يوليه بخارى فاستشار البختري بن مجاهد مولى بني شيبان فقال له لا تقبلها لانك شيخ مضر وكأنك بعهدك قد جاء على خراسان كلها فلما أتاه عهده بعث الى البختري ليأتيه فقال البختري لاصحابه قد ولى نصر خراسان فلما أتاه سلم عليه بالامارة فقال من أين علمت فقال كنت تأتيني فلما بعثت الي علمت أنك قد وليت ولما مات أسد بن عبد الله و بلغ خبر موته هشام بن عبد الملك استشار عبد الكريم بن سليط الحنفي وكان عالما فيمن يوليه خراسان فقال عبد الكريم يا أمير المؤمنين أما رجل خراسان حزما ونجدة فالكرماني فاعرض عنه وقال ما اسمه قال جديع بن علي قال لا حاجة لي فيه وتطير قال فالمسن المجرب يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيباني قال هشام ربيعة لا تسد بها الثغور قال عبد الكريم فقلت في نفسي كره ربيعة واليمن فارمه بمضر فقلت عقيل بن معقل الليثي ان غفرت هنته قال ما هي قلت ليس بالعفيف قال لا حاجة لي فيه فقلت منصور بن أبي الخرقاء السلمي ان غفرت نكره فانه مشؤوم قال غيره قلت فالمجشر بن مزاحم السلمي عاقل شجاع له رأي مع كذب فيه قال لا خير في الكذب قلت يحيى بن الحصين قال ألم أخبرك ان ربيعة لا تسد بها الثغور قال فقلت نصر بن سيار قال هو لها قلت هو عفيف مجرب عاقل ان غفرت له واحدة قال ماهي قلت عشيرته بخراسان قليلة قال لا أبالك تريد أكثر مني عشيرة أنا عشيرته فكتب عهده و بعثه مع عبد الكريم فاعطاه نصر لما أتاه به عشرة آلاف درهم واستعمل نصر على أعمال خراسان رجال مضر الى أربع سنين لم يستعمل أحدا من غير مضر وغزا نصر في سنة احدى وعشرين ما وراء النهر مرتين احداهما من نحو الباب الحديد فسار من بلخ من تلك الناحية ثم رجع الى مرو وخطب الناس وأخبرهم أنه أقام منصور بن عمر بن أبي الخرقاء على كشف المظالم وأنه قد وضع الجزية عمن قد أسلم وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين فرغبوا في الاسلام فلم تمض جمعة حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم وثمانون ألفا من المشركين كانت قد ألقيت عنهم

فحول ما كان على المسلمين اليهم و وضعه عن المسلمين ثم ضيف الخراج و وضعه
مواضعه ثم غزا الثانية الى ورغسر وسمرقند ثم رجع ثم غزا الثالثة الى الشاش
من مرو فحال بينه و بين عبور نهر الشاش كورصول فى خمسة عشر ألفا وكان
معهم الحارث بن سريج وكان قبل ذلك من أمراء المسلمين على جند خراسان ثم
وقعت فتنة بينهم فاعتزلهم وصار مع خاقان ثم مع كورصول فعبر كورصول فى
أربعين رجلا فبيت العسكر فى ليلة مظلمة ومع نصر ملك بخارى فى أهل
بخارى ومعه أهل سمرقند وكش ونسف وهم عشرون ألفا فنادى نصر أن
لا يخرجن أحد واثبتوا على مواضعكم فخرج عاصم بن عمير السعدى وهو على جند
سمرقند فمرت به خيل الترك فحمل على رجل فى آخرهم فاسره فاذا هو ملك
من ملوكهم صاحب أربعة آلاف قبة ثم تبين انه كورصول فاتى به الى نصر فقال
له نصر من أنت قال كورصول فقال نصر الحمد لله الذى أمكن منك يا عدو الله
قال ما ترجو من قتل شيخ وأنا أعطيك أربعة آلاف بعير من ابل الترك وألف
برذون تقوى به جندك وتطلق سبيلى فاستشار نصر أصحابه فأشاروا باطلاقه فلم
يوافقهم ثم سأله عن عمره قال لا أدرى قال كم غزوت قال اثنتين وسبعين غزوة قال
أشهدت يوم العطش قال نعم قال نصر لو أعطيتنى ماطلعت عليه الشمس ما أفلت
من يدى بعد ما ذكرت من مشاهدك وقال لعاصم بن عمير السعدى قم الى صلبه
فخذه فقال من أسرنى فقال نصر وهو يضحك اسرك يزيد بن قران الحنظلى
وأشار اليه قال هذا لا يستطيع أن يغسل استه أولا يستطيع أن يتم له بوله فكيف
يأسرنى أخبرنى من أسرنى قال أسرك عاصم بن عمير قال لست أجد ألم القتل اذا
كان أسرنى فارس من فرسان العرب فقتله وصلبه على شاطئ النهر فلما قتل
كورصول أحرقت الترك ابنيته وقطعوا آذانهم وقطعوا شعورهم واذناب
خيلهم فلما أراد نصر الرجوع أحرقه لئلا يحملوا عظامه فكان ذلك أشد عليهم من
قتله وارتفع الى فرغانة فسبى بها ألف رأس وكتب يوسف بن عمر أمير العراق
الى نصر سر الى هذا الغادر دينه فى الشاش يعنى الحارث بن سريج فان أظفرك

الله به و بأهل الشاش فخرب بلادهم واسب ذراريهم وإياك و ورطة المسلمين فقرأ الكتاب على الناس واستشارهم فقال يحيي بن الحصين أنظر أهذا من أمير المؤمنين أو من الامير فقال نصر يا يحيي تكلمت بكلمة أيام عاصم فبلغت الخليفة فحظيت بها و بلغت الدرجة الرفيعة فقلت أقول مثلها سر يا يحيي فقد وليتك مقدمتى فلام الناس يحيي فسار الى الشاش فأتاهم الحارث بن سريج فنصب عليهم عرادتين بالتشديد تثنية عرادة شيء أصغر من المنجنيق وأغار الاخرم وهو فارس الترك على المسلمين فقتلوه والقوا رأسه الى الترك فصاحوا وانهزموا وسار نصر الى الشاش فتلقاه ملكها بالصلح والهدية والرهن واشترط عليه نصر اخراج الحارث بن سريج عن بلده فأخرجه الى فاراب ثم تنقل الحارث فى بلاد الترك الى سنة ست وعشرين ثم اصطلح مع المسلمين ورجع الى خراسان سنة سبع وعشرين فكانت مدة مفارقته للمسلمين واتصاله بالترك ثنتى عشرة سنة ورد عليه نصر ما كان أخذ له ثم استعمل نصر على الشاش بعد الصلح مع أهله نيزك بن صالح مولى عمرو بن العاص ثم سار حتى نزل قباء من أرض فرغانة وكانوا أحسوا بمجيئه فأحرقوا الحشيش وقطعوا الميرة فوجه نصر الى ولى صاحب فرغانة فحاصروه فى حصن وغفلوا عنه فخرج وغنم دواب المسلمين فوجه اليهم نصر رجالا من تميم ومعهم محمد بن المثنى وكمن المسلمون لهم فخرج الترك واستاقوا بعض الدواب فخرج عليهم المسلمون فهزموهم وقتلوا الدهقان وأسروا منهم وأسروا ابن الدهقان فقتله نصر ثم سألوه الصلح فأرسل نصر سليمان بن صول بكتاب الصلح الى صاحب فرغانة فأمر به فادخل الخزائن ليراها ثم رجع اليه فقال كيف رأيت الطريق فيما بيننا وبينكم قال سهلا كثير الماء والمرعى فكره ذلك وقال ما علمك قال سليمان قد غزوت غرشستان وغور الختل وطبرستان فكيف لا أعلم قال فكيف رأيت ما اعددنا قال عدة حسنة ولكن ماعلمت ان المحصور لا يسلم من خصال لا يأمن أقرب الناس اليه وأوثقهم فى نفسه أو يفنى ما جمع فيسلم برمته أو يصيبه داء فيموت فكره ما قال له وأمره فاحضر

كتاب الصلح فأجاب اليه وسير أمه معه وكانت صاحبة أمره فقدمت على نصر فأذن لها وجعل يكلمها وكانت مما قالت له كل ملك لا يكون عنده ستة أشياء لا يكون ملكا وزير يبث اليه ما فى نفسه ويشاوره ويثق بنصيحته وطباخ اذا لم يشته الطعام اتخذ له ما يشتهى وزوجة اذا دخل عليها مغتما فنظر الى وجهها زال غمه وحصن اذا فرغ أتاه فانجاه تعنى البرذون وسيف اذا قاتل لا يخشى خيانته وذخيرة اذا حملها عاش بها أين كان من الارض ثم دخل تميم بن نصر فى جماعة فقالت من هذا قالوا هذا فتى خراسان تميم بن نصر فقالت ماله نبل الكبير ولا حلاوة الصغير ثم دخل الحجاج بن قتيبة بن مسلم الباهلى فقالت من هذا فقالوا الحجاج بن قتيبة ابن مسلم فأحبته وسألت عنه وقالت يا معشر العرب ما لكم وفاء ولا يصلح بعضكم بعضا قتيبة الذى ذلل لكم ما أرى وهذا ابنه تقعده دونك فحقه ان تجلسه أنت هذا المجلس وتجلس أنت مجلسه وعقدت الصلح ورجعت

﴿ ذكر غزو مروان بن محمد بن مروان ﴾

فى سنة احدى وعشر بن غزا مروان بن محمد بأرمينية وهو واليها فأتى قلعة بيت السرير فقتل وسبى ودخل غوميك وهو حصن فيه بيت الملك وسريره فهرب الملك منه حتى أتى حصنا يقال له خيزج فيه سرير من ذهب فسار اليه مروان ونازله صيفيته وشتويته فصالح الملك على ألف رأس كل سنة ومائة ألف مد فصالحه وسار مروان فدخل أرض أزرو بطران فصالحه ملكها ثم سار فى أرض تومان فصالحه وسار حتى أتى حمزين فأخرب بلاده وحصر حصنا له شهرا فصالحه ثم أتى مروان أرض مسداره فافتتحها على صلح ثم نزل مروان كيران فصالحه طبرسران وفيلان وكل هذه الولايات على شاطئ البحر من ارمينية الى طبرستان وفى هذه السنة غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير وفى هذه السنة قتل البطال واسمه عبد الله أبو الحسين الانطاكى وقتل معه جماعة من المسلمين ببلاد الروم وكان كثير الغزو الى الروم والاغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم حكى انه دخل بلادهم فى بعض غزواته هو وأصحابه فدخل قرية لهم ليلا وامرأة تقول

لصغيرلها يبكى تسكت والا سلمتك للبطال ثم رفعته بيدها وقالت خذه يا بطال وكان قريبا منها ولم تعلم به فتناوله من يدها وكان عبد الملك بن مروان يرسله مع ابنه مسلمة الى بلاد الروم وأمره مرة على رؤساء أهل الجزيرة والشام وأمر ابنه مسلمة أن يجعله على مقدمته وطلائعه وقال انه ثقة شجاع مقدام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس وله قصص ووقائع كثيره

﴿ ذكر صلح نصر بن سيار مع الصغد ﴾

فى سنة ثلاث وعشرين ومائة صالح نصر بن سيار الصغد وسبب ذلك ان خاقان لما قتل فى ولاية أسد بن عبد الله تفرقت الترك فى اغارة بعضها على بعض فطمع أهل الصغد فى الرجعة اليها وانحاز قوم منهم الى الشاش فلما ولى نصر بن سيار أرسل اليهم يدعوهم الى الرجوع الى بلادهم وأعطاهم ما أرادوا وكانوا يسألون شروطا أنكرها أمراء خراسان منها أن لا يعاقب من كان مسلما فارتد عن الاسلام ولا يعدى عليهم فى دين لاحد من الناس ولا يؤخذ اسراء المسلمين منهم الا بقضية قاض وشهادة عدول فعاب الناس ذلك على نصر وتكلموا فيه فقال لو عاينتم شوكتهم فى المسلمين مثل ما عاينت ما أنكرتم ذلك وأرسل رسولا الى هشام بن عبد الملك فى ذلك فأجابه اليه * وفى سنة أربع وعشرين ومائة غزا سليمان بن هشام الصائفة فلقى أليون ملك الروم فهزمه وقتل وسبى وغنم * وفى سنة خمس وعشرين توفى هشام ابن عبد الملك وبويع الوليد بن يزيد بن عبد الملك فأقر نصر بن سيار على خراسان ثم ثارت فتن بين أولاد عبد الملك وقتل الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين وبويع ليزيد بن الوليد بن عبد الملك وتوفى بعد ستة أشهر وبويع أخوه ابراهيم بن الوليد ثم خلع بعد سبعين يوما وبويع مروان بن محمد سنة سبع وعشرين فأقر نصر بن سيار على ولاية خراسان واستمر مروان بن محمد خمس سنين وعشرة أشهر وثارت الفتن بينه وبين بنى العباس وقتل مروان بن محمد سنة اثنتين وثلاثين وعمره اثنتان وستون سنة وقامت الدولة العباسية وتفصيل ذلك كله طويل مذكور فى التواريخ والقصد فى هذا الكتاب ذكر الفتوحات

التى فيها جهاد الكفار وفى مدة هذه الفتن انقطع الغز و والجهاد وانتشرت الفتن بين المسلمين فى كل قطر واقليم

﴿ ذكر ملك الروم ملاطية ﴾

نشأ من الفتن التى كانت بين المسلمين فى هذه السنين ان الروم طمعوا فى البلاد فأقبل قسطنطين ملك الروم الى ملاطية وكمخ فى سنة ثلاث وثلاثين فى خلافة السفاح أول خلفاء بنى العباس فلما أقبل قسطنطين نازل كمخ فأرسل أهلها الى أهل ملطية يستنجدونهم فسار اليهم منها ثمانمائة مقاتل فقاتلهم الروم فانهزم المسلمون ونازل الروم ملطية وحصروها وأرسل قسطنطين الى أهل ملطية انى لم أحضركم الا على علم من المسلمين واختلافهم فلكم الامان وتعودون الى بلاد المسلمين حتى احترز ملطية فلم يجيبوه الى ذلك فنصب المجانيق فاذعنوا وسلموا البلد على الامان وانتقلوا الى بلاد الاسلام وحملوا ما أمكنهم حمله ومالم يقدروا على حمله القوه فى الآبار والمجارى وسار ملك الروم الى قاليقلا فنزل مرج الحصى وأرسل كوشان الارمنى فحصرها فنقب اخوان من الارمن من أهل المدينة ردما كان فى سورها فدخل كوشون ومن معه المدينة فغلبوا عليها وقتلوا رجالا وسبوا النساء وساقوا الغنائم الى ملك الروم وفى هذه السنة كان متوليا على خراسان أبو مسلم القائم بدعوة بنى العباس فوجه أباداود خالد بن ابراهيم الذهلى الى الختل فدخلها فلما انتهى الى أرض فرغانة تخالف اخشيد فرغانة وملك الشاش واستمد اخشيد ملك الصين فأمده بمائة ألف مقاتل فحصروا ملك الشاش فنزل على حكم ملك الصين وبلغ الخبر أبامسلم فوجه الى حربهم زياد بن صالح فالتقوا على نهر طراز فظفر بهم المسلمون وقتلوا منهم زهاء خمسين ألفا وأسروا نحو عشرين ألفا وهرب الباقون الى الصين

﴿ ذكر غزوة كش ﴾

فى سنة أربع وثلاثين غزا أبوداود خالد بن ابراهيم الذهلى أهل كش فقتل ملكها وهو سامع مطيع وقتل أصحابه وأخذ منهم من الاوانى الصينية المنقشة المذهبة مالم

بر مثلها ومن السروج ومتاع الصين من الديباج والطرف شيأ كثيرا وحمله الى أبي مسلم وهو بسمرقند وقتل عدة من دهاقينهم ورجع أبو داود الى بلخ * وفي سنة خمس وثلاثين غزا عبد الله بن حبيب جزيرة صقلية وغنم بها وسبى بعد أن غزا أيضا تلمسان * وفي سنة ست وثلاثين توفي السفاح وبويع أخوه المنصور وقتل أبا مسلم سنة سبع وثلاثين وولى خراسان بعد قتل أبي مسلم أبا داود خالد بن ابراهيم الذهلي * وفي سنة ثمان وثلاثين خرج قسطنطين ملك الروم الى بلاد الاسلام فدخل ملطية عنوة وغلب وقهر أهلها وهدم سورها وعفا عمن فيها من المقاتلة والذرية فبعث المنصور أخاه العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ومعه صالح بن علي وعيسى بن علي في جيش فبنوا ما كان ملك الروم أخربه من سور ملطية ثم غزوا الصائفة سنة تسع وثلاثين ومائة من درب الحدث فوغلوا في أرض الروم وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة وكانتا نذرتا ان زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل الله وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة المهراني وفي هذه السنة كان الفداء بين المنصور وملك الروم فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم وبناها وعمرها ورد أهلها اليها وندب اليها جندا من أهل الجزيرة وغيرهم فأقاموا فيها وحموها ولم يكن بعد ذلك صائفة الى سنة ست وأربعين لاشتغال المنصور بالفتنة التي كانت بينه وبين بني عبد الله بن الحسن بن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وقيل ان الحسن بن قحطبة غزا الصائفة سنة أربعين مع عبد الوهاب بن ابراهيم الامام وأقبل قسطنطين ملك الروم في مائة ألف فبلغ جيحان فسمع كثرة المسلمين فأحجم عنهم ثم لم يكن بعدها صائفة الى سنة ست وأربعين لكن حصلت وقائع وغزوات بخراسان وغيرها في هذه المدة كما ستري ذلك * وفي سنة تسع وثلاثين ومائة كان دخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الاندلس وتملكها فخرجت الاندلس عن ولاية بني العباس وقصة تملك عبد الرحمن الداخل الاندلس طويلة ملخصها انه لما قامت الدولة العباسية أخذوا يتتبعون بني أمية قتلا فهرب عبد الرحمن المذكور مختفيا

ومازال يتنقل حتى دخل الاندلس وكان بالاندلس رجال من بقايا عمال بنى أمية ومواليهم فأعانوه حتى انتزع الاندلس من عمال بنى العباس بعد حروب كثيرة واستفحل ملكه وملك بنيه بعده بالاندلس وكان دخوله الاندلس فى خلافة المنصور العباسى وكان المنصور يعجب من أمره ويسميه صقر قريش وأراد استرجاع الاندلس من يده فلم يتمكن له ذلك والكلام على ذلك طويل ذكرته فى التاريخ الذى جمعته فى أخبار الاندلس ملخصا من نفح الطيب وغيره ولما استقامت أموره وتمكنت دولته بلغه عن بعض من أعانه أنه يقول لولا أنا ما توصل لهذا الملك وكان منه أبعد من النجم وقال قائل آخر انما أعانه سعده لا عقله وتدبيره فحركه ذلك الى أن قال

لا يلف ممتن علينا قائل * لولاى ماملك الامام الداخل
سعدى وحزمى والمهند والقنا * ومقادر بلغت وحال حائل
ان الملوك مع الزمان كواكب * نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا * أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لا عقله * خير السعادة ماحواها العاقل
أبنى أمية قد جبرنا صدعكم * بالغرب رغما والسعود قبائل
مادام من نسلى امام قائم * فالملك فيكم ثابت متواصل

ومازال مستمرا فى ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر الى أن توفى سنة ١٧٢ وعمره تسع وخمسون سنة واستمر الملك فى بنيه الى أواخر القرن الرابع وسيأتى ذكر كثير من غزواته وفتوحاتهم * ولنرجع الى تمام الكلام على فتوحات بنى العباس ففى سنة ١٤٠ مات أبو داود خالد بن ابراهيم الذهلى عامل خراسان وأقيم مقامه عبد الجبار بن عبد الرحمن الازدى ثم ظهر منه مخالفة وعصيان وأراد خلع المنصور فجهز المنصور فى سنة احدى وأربعين ابنه المهدى وعمره نحو خمس عشرة سنة ومعه جيش فأسر عبد الجبار وبعث به الى المنصور فقتله وصارت ولاية خراسان للمهدى بن المنصور وكان كثير من أهل خراسان قد نقضوا لما تغيرت

الدولة واسترجع بعض الكفار ما كان لهم من الملك فكتب المنصور الى ابنه المهدى أن يغزو طبرستان

﴿ ذكر غزوة طبرستان ﴾

فى سنة احدى وأربعين ومائة كتب المنصور الى ابنه المهدى وهو على خراسان أن يغزو طبرستان و ينزل الري و يوجه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة والجنود الى الاصبهبذ وكان الاصبهبذ يومئذ محارباً للمصمغان ملك دنباوند معسكراً بأزائه فلما بلغه دخول جنود الاسلام بلاده ودخول أبى الخصيب سارية فقال المصمغان للاصبهبذ متى قهروك صاروا الى ّفاجتمعوا على حرب المسلمين فانصرف الاصبهبذ الى بلاده فحارب المسلمين فطالت تلك الحروب فوجه المنصور عمر بن العلاء الى طبرستان وكان عالماً ببلاد طبرستان فأخذ الجنود وقصد الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطلق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل منهم فأكثر وسار الاصبهبذ الى قلعته فحصر فطلب الامان على أن يسلم القلعة بما فيها من الذخائر وكتب المهدى الى المنصور بذلك فوجه المنصور رجالاً أحصوا ما فى الحصن وانصرفوا ودخل الاصبهبذ بلاد جيلان من الديلم وأخذت ابنته وقصدت الجنود بلاد المصمغان فظفروا به و بالبحيرة أم منصور بن المهدى ⁂ وفى سنة ثنتين وأربعين ومائة خلع الطاعة عيينة بن موسى بن كعب عامل السند فبعث المنصور عمر بن أبى حفص العتكى عاملاً على السند والهند فسار وغلب عليها بعد حروب

﴿ ذكر نكث الاصبهبذ ﴾

فى سنة ثنتين وأربعين ومائة نكث الاصبهبذ بطبرستان العهد بينه و بين المسلمين وقتل من كان ببلاده منهم فلما انتهى الخبر الى المنصور سير مولاه أبا الخصيب وخازم ابن خزيمة وروح بن حاتم فأقاموا على الحصن يحاصرونه وهو فيه فلما طال عليهم المقام احتال أبو الخصيب فى ذلك فقال لاصحابه اضربونى واحلقوا رأسى ولحيتى ففعلوا ذلك ولحق بالاصبهبذ فقال له فعل بى هذا تهمة منهم لى أن يكون هواى معك وأخبره أنه معه وأنه دليل على عورة عسكرهم فقبل ذلك الاصبهبذ وجعله فى

خاصته وألطفه وكان باب حصنهم من حجر يلقى القاء يرفعه الرجال وتضعه عند فتحه واغلاقه وكان الاصبهبذ يوكل به ثقات أصحابه نوبا بينهم فلما وثق الاصبهبذ الى أبى الخصيب وكله بالباب فتولى فتحه واغلاقه حتى أنس به ثم كتب أبو الخصيب الى روح وخازم وألقى الكتاب فى سهم وأعلمهم أنه قد ظفر بالحيلة وواعدهم ليلة فى فتح الباب فلما كانت تلك الليلة فتح لهم فقتلوا من فى الحصن من المقاتلة وسبوا الذرية وأخذوا اسكلام ابراهيم بن المهدى وكان مع الاصبهبذ سم فشربه ومات

﴿ ذكر نكث الديلم ﴾

فى سنة ثلاث وأربعين نكث الديلم وثاروا بالمسلمين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة فبلغ ذلك المنصور فندب الناس الى قتال الديلم وجهادهم فساروا اليهم وقاتلوهم حتى أخضعوهم سنة أربع وأربعين ٭ وفى سنة خمس وأربعين كان ابتداء بناء مدينة بغداد وانتقل المنصور اليها سنة ست وأربعين وفيها خرجت الترك والخزر بباب الابواب فقتلوا من المسلمين بارمينية جماعة كثيرة ٭ وفى سنة ست وأربعين غزا الصائفة جعفر بن حنظلة البهرانى وغزا مالك بن عبد الله الخثعمى بلاد الروم فغنم غنائم كثيرة ٭ وفى سنة سبع وأربعين أغار استرخان الخوارزمى فى جمع من الترك على المسلمين بناحية ارمينية وسبى من المسلمين خلقا ودخلوا تفليس فسير المنصور الى محاربتهم جبرائيل بن يحيى وحرب بن عبد الله فى جند كثير فقاتلوهم فهزم جبرائيل وقتل حرب وقتل من أصحاب جبرائيل خلق كثير ٭ وفى سنة تسع وأربعين غزا العباس بن محمد أرض الروم ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الاشعث وأغزا عبد الرحمن الداخل صاحب الاندلس مولاه بدرا الى بلاد العدو فجاوز اليه وأخذ الجزية

﴿ ذكر خروج استاذسيس ﴾

فى سنة خمسين ومائة خرج استاذسيس فى أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من خراسان وكان فيما قيل فى ثلاثمائة ألف مقاتل فغلبوا على عامة خراسان وساروا حتى التقواهم وأهل مرو الروذ فخرج اليهم الاجشم المروذى فى أهل مرو

الروذ فقاتلوه قتالا شديدا فقتل الاجشم وكثر القتل فى أصحابه وهزم عدة من القواد فوجه المنصور وهو بالراذان خازم بن خزيمة الى المهدى فولاه المهدى محاربة استاذسيس وضم اليه القواد فسار خازم وأخذ معه من انهزم وجعلهم فى أخريات الناس يكثر بهم من معه وكان معه من هذه الطبقة اثنان وعشرون ألفا ثم انتخب منهم ستة آلاف وضمهم الى اثنى عشر ألفا كانوا معه من المنتخبين وكان بكار بن سلم العقيلى فيمن انتخب وتعبى للقتال وكان لؤلؤة مع الزبرقان فكر بهم وراوغهم فى أن ينقلهم من موضع الى موضع وخندق الى خندق حتى قطعهم ثم سار خازم الى موضع فنزله وخندق عليه وعلى جميع أصحابه وجعل له أربعة أبواب وجعل على كل باب ألفا من أصحابه الذين انتخبوا وأتى أصحاب استاذسيس ومعهم الفوس والرازه والزبر ليطموا الخندق فأتوا الخندق من الباب الذى عليه بكار بن سلم فحملوا على أصحاب بكار حملة هزموهم بها فرمى بكار بنفسه فترجل على باب الخندق وقال لاصحابه لا يؤتى المسلمون من ناحيتنا فترجل معه من أهله وعشيرته نحو خمسين رجلا وقاتلوهم حتى ردوهم من بابهم أقبل على الباب الذى عليه خازم رجل من أصحاب استاذسيس اسمه الحريش وهو الذى كان يدبر أمرهم فلما رآه خازم مقبلا بعث الى الهيثم بن شعبة وكان فى الميمنة يأمره أن يخرج من الباب الذى عليه بكار فان من بازائه قد شغلوا عنهم ويسير حتى يغيب عن أبصارهم ثم يرجع من خلف العدو وقد كانوا يتوقعون قدوم أبى عون وعمرو بن مسلم بن قتيبة من طخارستان وبعث خازم الى بكار يقول له اذا رأيت رايات الهيثم قد جاءت فكبر وا وقولوا قد جاء أهل طخارستان ففعل ذلك الهيثم وخرج خازم فى القلب على الحريش يشغلهم بالقتال وصبر بعضهم لبعض فبينما هم على ذلك نظروا الى اعلام الهيثم قد أقبلت فتنادوا بينهم جاء أهل طخارستان وحمل أصحاب خازم فكشفوهم ولقيهم أصحاب الهيثم فطعنوهم بالرماح ورموهم بالنشاب وخرج نهار ابن حصين من ناحية الميسرة وبكار بن سلم وأصحابه من ناحيتهم فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف فقتلهم المسلمون فأكثروا فكان عدد من قتل سبعين ألفا وأسروا

أربعة عشر ألفا ونجا استاذسيس الى جبل فى نفر يسير فحصرهم خازم وقتل الاسرى ووافاه أبو عون وعمرو بن سلم ومن معهما فنزل استاذسيس على حكم أبى عون فحكم أن يوثق استاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد وأن يعتق الباقون وكانوا ثلاثين ألفا فأمضى خازم حكمه وكسا كل رجل ثوبين وكتب الى المهدى بذلك فكتب المهدى الى المنصور وقد قيل ان أستاذسيس قد ادعى النبوة وأظهر أصحابه الفسق وقطع السبيل قيل انه جد المأمون أبو أمه مراجل وابنه غالب خال المأمون وفى هذه السنة قدم المهدى من خراسان فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها فهنوه بمقدمه فأجازهم وحملهم وكساهم وفعل بهم المنصور مثل ذلك وبنى له الرصافة وفيها غزا الصائفة عبد الوهاب بن ابراهيم الامام بن محمد بن على * وفى سنة ثنتين وخمسين ومائة استعمل المنصور على خراسان حميد بن قحطبة فغزا كابل وغزا الصائفة عبد الوهاب بن ابراهيم الامام * وفى سنة ثلاث وخمسين غزا الصائفة معيوف بن يحيي فوصل الى حصن من حصون الروم ليلا وأهله نيام فسبى وأسر من كان فيه ثم قصد اللاذقية الخراب فسبى منها ستة آلاف رأس سوى الرجال البالغين * وفى سنة أربع وخمسين غزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالى فبلغ الفرات * وفى سنة خمس وخمسين غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمى وفيها طلب ملك الروم الصلح الى المنصور على أن يؤدى الجزية * وفى سنة ست وخمسين غزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالى * وفى سنة سبع وخمسين غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمى فسبى وغنم * وفى سنة ثمان وخمسين توفى المنصور وبويع ابنه محمد المهدى وغزا الصائفة معيوف بن يحيي من درب الحدث فلقى العدو فاقتتلوا ثم تحاجزوا * وفى سنة تسع وخمسين غزا العباس بن محمد الصائفة الرومية فبلغوا القره وفتحوا مدينة للروم ومطموره ولم يصب من المسلمين أحد ورجعوا سالمين

﴿ ذكر فتح مدينة باربد بالهند ﴾

فى سنة ستين ومائة فتحت مدينة باربد وكان المهدى سير فى سنة تسع وخمسين جيشا

فى البحر وعليهم عبد الملك بن شهاب المسمعى الى بلاد الهند فى جمع كثير من الجند والمتطوعة وفيهم الربيع بن صبيح فساروا حتى نزلوا على مدينة باربد فلما نازلوها حصرها من نواحيها وحرض الناس بعضهم بعضا على الجهاد وضايقوا أهلها ففتحها الله عليهم عنوة واحتمى أهلها بالبلد الذى لهم فأحرقه المسلمون عليهم فاحترق بعضهم وقتل الباقون واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلا وأفاءها الله عليهم * وفى سنة ستين أيضا غزا ثمامة بن العبس الصائفة وغزا الغمر بن العباس الخثعمى بحر الشام * وفى سنة احدى وستين غزا الصائفة ثمامة بن الوليد فنزل بدابق وجاشت الروم فى ثمانين ألفا فأتى ثمامة عمق مرعش فقتل وسبى وأتى مرعش فحاصرها فقاتلهم وقتل من المسلمين عدة كثيرة وكان عيسى بن على مرابطا بحصن مرعش فانصرف الروم الى جيحان وبلغ الخبر المهدى فعظم عليه وتجهز لغزو الروم كما سنذكره * وفى سنة اثنتين وستين خرجت الروم الى الحدث فهدموا سورها وغزا الصائفة الحسن بن قحطبة فى ثمانين ألف مرتزق سوى المتطوعة فبلغ اذرولية وأكثر التحريق والتخريب فى بلاد الروم ولم يفتح حصنا ولا لقى جمعا ورجع الناس سالمين وفيها غزا يزيد بن أسيد السلمى من ناحية قاليقلا فغنم وافتتح ثلاثة حصون وسبى

﴿ ذكر غزو المهدى ﴾

فى سنة ثلاث وستين تجهز المهدى لغزو الروم فخرج وعسكر بالبردان وجمع الاجناد من خراسان وغيرها وسار عنها واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادى وعمره نحو عشرين سنة واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وعمره نحو سبع عشرة سنة وسار على الموصل والجزيرة وعبر الفرات الى حلب وأرسل وهو بحلب فجمع من تلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم وسار عنها مشيعا لابنه هارون الرشيد حتى جاز الدرب وبلغ جيحان فسار هارون بالجيش حتى نازل حصن سمالو فحصروه ثمانية وثمانين يوما ونصب عليه المجانيق ففتحه الله عليهم بالأمان ووفى لهم وفتحوا فتوحا كثيرة ورجعوا ولما عاد المهدى من الغزاة

زار بيت المقدس * وفى سنة أربع وستين ومائة غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن زيد بن الخطاب من درب الحدث فأتاه ميخائيل البطريق فى تسعين ألفا فخاف عبد الكبير ومنع الناس من القتال ورجع بهم فأراد المهدى قتله فشفع فيه فحبسه وفى هذه السنة غزا عبد الرحمن الأموى صاحب الأندلس بلاد الافرنج فدوخها ونهب وسبى وبلغ قلهرة وفتح مدينة فكيرة وهدم قلاع تلك الناحية وسار الى بلاد البشكنس ونزل على حصن مثمين الاقرع فافتتحه ثم تقدم الى ملدونون ابن الطلال وحصر قلعته وقصد الناس جبلها وقاتلوهم فيها فملكوها عنوة وخربوها ثم رجعوا

﴿ ذكر غزو هرون الرشيد الروم ﴾

فى سنة خمس وستين سير المهدى ابنه هارون الرشيد لغزو الروم فى خمسة وتسعين ألفا وتسعمائة وثلاثة وتسعين رجلا فأوغلوا فى بلاد الروم ولقيهم عسكر نقيطا قومس القوامسة فبارزه يزيد بن مزيد الشيبانى فأثخنه يزيد وانهزمت الروم وغلب المسلمون على عسكرهم وساروا الى الدستق وهو صاحب المسالح أى الثغور فحمل لهم مائة ألف دينار وثلاثة وتسعين ألفا وأربعمائة وخمسين دينارا ومن الفضة احدا وعشرين ألف ألف درهم وأربعة عشر ألفا وثمانمائة درهم وسار الرشيد حتى بلغ خليج القسطنطينية وملك الروم يومئذ عطسة امرأة أليون وذلك أن ابنها كان صغيرا قد هلك أبوه وهو فى حجرها فجرى الصلح بينها وبين الرشيد على الفدية وأن تقيم له الادلاء والأسواق فى الطريق وذلك أنه دخل مدخلا ضيقا مخوفا فأجابته الى ذلك ومقدار الفدية سبعون ألف دينار كل سنة ورجع عنها وكانت الهدنة ثلاث سنين وكان مقدار ما غنم المسلمون الى أن اصطلحوا خمسة آلاف رأس سبيا وستمائة وثلاثة وأربعين رأسا ومن الدواب الذلل بأدواتها عشرين ألف رأس وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس وقتل من الروم فى الوقائع قبل الصلح أربعة وخمسون ألفا وقتل من الأسرى صبرا ألفان وتسعون أسيرا * وفى سنة ثمان وستين ومائة نقض الروم الصلح فوجه على

ابن سليمان وهو على الجزيرة وقنصر بن يزيد بن البدر بن البطال فغنموا وظفروا * وفى سنة تسع وستين ومائة توفى المهدى وبويع ابنه موسى الهادى وغزا الصائفة معيوف بن يحيى من طريق الراهب وقد كانت الروم قبل ذلك جاؤا مع بطريقهم الى الحديثة فهرب الوالى وأهل السوق فدخلها الروم فقصدهم معيوف فبلغ مدينة أشنة فغنم وسبى * وفى سنة سبعين ومائة توفى الهادى وبويع أخوه هرون الرشيد واستمر الى سنة ثلاث وتسعين ومائة فكانت مدته ثلاثا وعشرين سنة وكان يحج سنة ويغزو سنة * وفى سنة احدى وسبعين توفى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام صاحب الأندلس وكانت دولته بالأندلس ثلاثا وثلاثين سنة ثم صار الملك لأولاده بعده فقام بالأمر بعده ابنه هشام * وفى سنة أربع وسبعين غزا الصائفة عبد الملك بن صالح الهاشمى من قبل هارون الرشيد * وفى سنة خمس وسبعين غزاها ابنه عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح وفيها سار هشام بن عبد الرحمن صاحب الأندلس الى بلاد الافرنج فقصد ألبة والقلاع فلقيه العدو فظفر بهم وقتل منهم خلقا كثيرا وفتح الله عليه وفى السنة التى بعدها غزا عبد الملك بن عبد الواحد ففعل مثل ذلك وكذا فى سنة سبع وتسعين فدخلوا بلاد العدو فبلغوا أربونة وجرندة وكان بها حامية الفرنج فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وأشرف على فتحها فرحل عنها الى أربونة ففعل مثل ذلك وأوغل فى بلادهم ووطئ أرض برطانية فاستباح حريمها وقتل مقاتلتها وجاس البلاد شهورا يخرب الحصون ويحرق ويغنم قد أجفل العدو من بين يديه هاربا وأوغل فى بلادهم ورجع سالما معه من الغنائم مالا يعلمه الا الله تعالى وهى من أشهر مغازى المسلمين بالأندلس وفعل مثل ذلك فى السنتين اللتين بعدها وتوفى هشام صاحب الأندلس سنة ثمانين ومائة وقام بالأمر بعده ابنه الحكم * ومن غزوات الرشيد الشهيرة غزوة أرض الروم فى سنة احدى وثمانين فتح فيها حصن الصفصاف وفيها غزا عبد الملك بن صالح أرض الروم فبلغ انقرة وافتتح مطمورة وفى هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم وكان عدة الأسرى ثلاثة آلاف

وسبعمائة * وفى سنة اثنتين وثمانين ومائة غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك ابن صالح فبلغ افسوس مدينة أصحاب الكهف

﴿ ذكر غزو الخزر بلاد الاسلام ﴾

فى سنة ثلاث وثمانين ومائة خرج الخزر من باب الابواب فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا أكثر من مائة ألف رأس وانتهكوا أمرا عظيما لم يسمع بمثله فولى الرشيد أرمينية ليزيد بن مزيد الشيبانى مضافا الى اذربيجان ووجهه اليهم فظفر بهم * وفى سنة ست وثمانين ومائة ملك الفرنج لعنهم الله مدينة برشلونة بالأندلس وأخذوها من المسلمين ونقلوا حماة ثغورهم اليها وتأخر المسلمون الى ورائهم وكان سبب ملكهم إياها اشتغال المسلمين بفتنة كانت بينهم

﴿ ذكر غزو الروم ﴾

وحيث ذكر الروم هنا وفيما تقدم وفيما يأتى فالمراد بهم النصارى اليونان الذين كان لهم ملك القسطنطينية وهم غير النصارى المعروفين بالافرنج كالفرنسيس وانكلترا * وفى سنة سبع وثمانين ومائة دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم فأناخ على قرة وحصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الاشعث فحصر حصن سنان حتى جهد أهلها فبعث اليه الروم ثلاثمائة وعشرين أسيرا من المسلمين على ان يرحل عنهم فأجابهم ورحل عنهم صلحا وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها رينى فخلعها الروم وملكت نقفور فكتب نقفور الى الرشيد من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابى هذا فاردد ما حصل لك من أموالها الا فالسيف بيننا وبينك فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد ان ينظر اليه دون ان يخاطبه وتفرق جلساؤه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب

ماتراه دون ماتسمعه والسلام ثم سار من يومه حتى نزل على هرقلة ففتح وغنم وأحرق وخرب فسأله نقفور المصالحة على خراج يحمله كل سنة فأجابه الى ذلك فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وكان البرد شديدا فأمن رجعة الرشيد اليه فلما جاء الخبر بنقضه ماجسر أحد على اخبار الرشيد خوفا على أنفسهم من العود فى مثل ذلك البرد واشفاقا من الرشيد فاحتيل له بشاعر من أهل جنده فقال أبياتا منها

نقض الذى أعطيته نقفور * فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه * فتح أتاك به الاله كبير
فتح يزيد على الفتوح يؤمنا * بالنصر فيه لواؤك المنصور

فلما سمع الرشيد ذلك قال أوقد فعل ذلك نقفور فرجع الى بلاد الروم فى أشد زمان وأعظم كلفة حتى بلغ بلادهم فأقام بها حتى شفى واشتفى وبلغ ماأراد ورجع وفى هذه السنة ملك الفرنج مدينة تطيلة بالاندلس فتجهز الحكم صاحب الاندلس وسير العسكر مع ابن عم له فلقى المشركين وقاتلهم ففض جمعهم وهزمهم وقتل أكثرهم ونجا الباقون منهزمين * وفى سنة ثمان وثمانين ومائة غزا ابراهيم بن جبرائيل الصائفة فدخل أرض الروم فخرج اليه نقفور ملك الروم واقتتلوا وقتل من الروم أربعون ألفا وسبعمائة * وفى سنة تسع وثمانين كان الفداء بين المسلمين والروم فلم يبق بأرض الروم مسلم

﴿ ذكر فتح هرقلة وقبرس وغيرهما ﴾

فى سنة تسعين غزا هارون الرشيد الروم فى مائة ألف وخمسة وثلاثين ألفا من المرتزقة سوى الاتباع والمتطوعة وفتح هرقلة وأخربها ووجه داود بن عيسى سائرا فى أرض الروم فى سبعين ألفا يخرب وينهب ففتح الله عليه وفتح شراحيل ابن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودلسة وافتتح يزيد بن مخلد الصفصاف وملقونية واستعمل حميد بن معيوف على سواحل الشام ومصر فبلغ قبرس وكانوا قد نقضوا العهد فهدم وأحرق وسبى من أهلها سبعة عشر ألفا ثم سار الرشيد

الى طوانة فنزل بها وبعث نقفور بالخراج والجزية عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ولده دينارين وعن بطارقته كذلك وكتب نقفور الى الرشيد فى جارية من سبي هرقلة كان خطبها لولده فأرسلها اليه

﴿ ذكر غزو الفرنج بالاندلس ﴾

فى سنة احدى وتسعين ومائة تجهز لذريق ملك الفرنج بالاندلس وجمع جموعه ليسير الى مدينة طرطوشة ليحصرها فبلغ ذلك الحكم صاحب الاندلس فجهز العساكر وسيرها مع ولده عبد الرحمن فاجتمعوا فى جيش عظيم وتبعهم كثير من المتطوعة فسار فلقوا الافرنج فى أطراف بلادهم قبل ان ينالوا من بلاد المسلمين شيأ فاقتتلوا وبذل كل من الطائفتين جهده واستنفدوا معه فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الكفار وكثر القتال فيهم والاسر ونهبت أموالهم وأثقالهم وعاد المسلمون ظافرين غانمين * وفى هذه السنة غزا يزيد بن مخلد الهبيرى أرض الروم فى عشرة آلاف فأخذت الروم عليه المضيق فقتلوه وخمسين رجلا وسلم الباقون وفيها أمر الرشيد بهدم الكنائس التى فى الثغور وألزم أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم * وفى سنة اثنتين وتسعين تحركت الخرمية بناحية أذربيجان فوجه اليهم الرشيد عبدالله بن مالك فى عشرة آلاف فقتل وسبي وأسر فأمره الرشيد بقتل الاسرى وبيع السبي * وفى هذه السنة كان الفداء الثانى بين المسلمين والروم وكان عدة الاسرى من المسلمين ألفين وخمسمائة أسير * وفى سنة ثلاث وتسعين توفى هارون الرشيد وبويع ابنه الأمين ثم وقع الاختلاف بينه وبين أخيه المأمون الى ان قتل الأمين سنة ثمان وتسعين ومائة وكان المأمون بخراسان فبويع وقدم العراق سنة اثنتين ومائتين وقيل سنة أربع

﴿ ذكر الغزو بالاندلس الى بلاد الفرنج ﴾

فى سنة مائتين جهز الحكم صاحب الاندلس جيشا مع وزيره عبد الكريم بن مغيث الى بلاد الفرنج فسار بالعساكر حتى دخل أرضهم وتوسط بلادهم فخربها ونهبها وهدم عدة من حصونها كلما أهلك موضعا وصل الى غيره فاستخرج

خزائن ملوكهم فلما رأى ملكهم فعل المسلمين ببلادهم كاتب ملوك جميع تلك النواحي مستنصرا بهم فاجتمعت اليه النصرانية من كل أوب فأقبل في جموع عظيمة بازاء عسكر المسلمين و بينهم نهر فاقتتلوا قتالا شديدا عدة أيام والمسلمون يريدون ان يعبروا النهر وهم يمنعون المسلمين من ذلك فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر فعبر المشركون اليهم فاقتتلوا أعظم قتال فانهزم المشركون الى النهر فأخذهم السيف والاسر فمن عبر النهر سلم وأسر جماعة من ملوكهم وقامصهم وعاد الفرنج ولزموا جانب النهر يمنعون المسلمين من جوازه فبقوا كذلك ثلاثة عشر يوما يقتتلون كل يوم فجاءت الامطار وزاد النهر وتعذر جوازه فقفل عبد الكريم عنهم * وفي سنة احدى ومائتين وقع انتقاض في الديلم فسير المأمون عبد الله بن خرداذبه والي طبرستان فافتتح جبال طبرستان وأسر ملك الديلم وأشخصه الى المأمون * وفي سنة ست ومائتين توفي الحكم صاحب الاندلس وقام بالامر بعده ابنه عبد الرحمن الاوسط وفي هذه السنة غزا المسلمون من افريقية جزيرة سردانية فغنموا وأصابوا من الكفار وأصيب منهم ثم عادوا * وفي سنة ثمان ومائتين سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشا الى الافرنج واستعمل عليه الوزير عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فساروا الى البة والقلاع فنهبوا بلاد ألبة وأحرقوها وحصروا عدة من الحصون ففتحوا بعضها وصالحه بعضها على مال واطلاق الاسرى من المسلمين فغنم أموالا جليلة القدر واستنقذوا من أسارى المسلمين وسبيهم كثيرا وعادوا سالمين * وفي سنة عشر ومائتين سير عبد الرحمن بن الحكم أيضا جيشا الى بلاد الافرنج واستعمل عليه ابنه عبيد الله المعروف بابن البلنسي فسار ودخل بلاد العدو وتردد فيها بالغارات والسبي والقتل والاسر والتقى جيوش الاعداء في ربيع الاول فاقتتلوا وانهزم المشركون وكثر القتل فيهم وكان فتحا عظيما وفيها افتتح عسكر سيره عبد الرحمن أيضا حصن القلعة من أرض العدو وتردد فيها بالغارات منتصف شهر رمضان * وفي سنة ثنتي عشرة ومائتين سير عبد الرحمن أيضا جيشا الى بلاد الافرنج فوصلوا

الى برشلونة ثم ساروا الى جرندة وقاتل أهلها فأقام الجيش شهر بن ينهبون ويقتلون ويخربون ثم رجعوا ٭ وفى هذه السنة سير زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب عامل المأمون على افريقية جيشا فى البحر الى جزيرة صقلية وكان الروم تغلبوا عليها فلما وصلوا اليها ملكوا كثيرا منها ثم أمد الروم قسطنطين ملكهم بجيوش و وقعت وقائع كثيرة ثم كان النصر للمسلمين وقتلوا من الروم خلقا كثيرا

﴿ ذكر غزوة المأمون الى الروم ﴾

فى سنة خمس عشرة ومائتين سار المأمون الى الروم فى المحرم وانتهى الى طرسوس ودخل منها بلاد الروم فى جمادى الاولى ودخل ابنه العباس من ملطية فأقام المأمون على حصن قرة حتى افتتحه عنوة وهدمه وقيل ان أهله طلبوا الامان فأمنهم وفتح قبله حصن ماجدة و وجه اشناس الى حصن سندس فأتاه برئيسه و وجه عجيف بن عنبسة وجعفر الخياط الى صاحب حصن سناذ فسمع وأطاع ثم رجع المأمون ٭ وفى سنة ست عشرة ومائتين عاد المأمون الى بلاد الروم وسبب ذلك انه بلغه أن ملك الروم قتل ألفا وستمائة من أهل طرسوس والمصيصة فسار حتى دخل أرض الروم وقيل ان سبب دخوله ان ملك الروم كتب اليه بدأ بنفسه فسار ولم يقرأ كتابه فلما دخل أرض الروم أناخ على انطيغو فخرجوا على صلح ثم سار الى هرقلة فخرج أهلها على صلح و وجه أخاه المعتصم فافتتح ثلاثين حصنا ومطمورة و وجه يحيى بن أكثم من طوانة فأغار وقتل وأحرق وأصاب سبيا ورجع ثم سار المأمون الى كيسوم فأقام بها يومين ثم ارتحل الى دمشق ثم الى مصر ثم رجع الى الروم سنة سبع عشرة ومائتين فأناخ على لؤلؤة وهى اسم الحصن مائة يوم ثم رحل عنها وترك عجيفا عليها فخدع وأسر ثمانية أيام ثم أطلق ثم جاء ملك الروم فأحاط بعجيف فبعث اليه المأمون الجنود فارتحل ملك الروم وخرج أهل لؤلؤة الى عجيف بأمان وأرسل ملك الروم يطلب المهادنة فلم يتم ذلك ٭ وفى سنة ثمان عشرة ومائتين توفى المأمون وهو فى بلاد الروم عند نهر البدندون وحمل الى طرسوس فدفن بها وبويع أخوه المعتصم بوصية منه وعهد اليه وفى هذه السنة

دخل كثير من أهل الجبال وهمذان وأصفهان وماسبذان وغيرها في دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان فوجه اليهم المعتصم العساكر وعليهم اسحاق بن ابراهيم بن مصعب فأوقع بهم في أعمال همذان وقتل منهم ستين ألفا وهرب الباقون الى بلاد الروم والخرمية فرقة من المجوس يعتقدون مذهب التناسخ وان الارواح تنتقل من حيوان الى غيره والرجل منهم ينكح أمه وأخته و بنته ورئيسهم بابك الخرمي وكان للمعتصم معهم وقائع يطول الكلام بذكرها الى ان أباد كثيرا منهم بالقتل والاسر

﴿ ذكر خروج الروم الى زبطرة ﴾

في سنة ثلاث وعشرين ومائتين خرج ملك الروم الى بلاد الاسلام وأوقع بأهل زبطرة وغيرها قيل انه خرج في مائة ألف وقيل أكثر من ذلك فقتل أهل زبطرة الرجال وسبى الذرية والنساء وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين وسبى المسلمات ومثل بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم فنفر الى قتالهم أهل الثغور من الشام والجزيرة الا من لم يكن له دابة ولا سلاح

﴿ ذكر فتح عمورية وهي بروسة ﴾

لما خرج ملك الروم وفعل في بلاد الاسلام ما فعل بلغ الخبر المعتصم فاستعظمه وكبر لديه و بلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم وامعتصماه فأجابها وهو جالس على سريره لبيك لبيك ونهض من ساعته وصاح في قصره النفير النفير و بلغه أن عمورية عين النصرانية وأشرف عندهم من القسطنطينية فتجهز بما لم يعهد من السلاح وحياض الادم وغير ذلك وفرق عساكره ثلاث فرق فخربوا بلاد الروم وقتلوا كثيرا وأحرقوا ووصلوا الى انقورية ثم اجتمعوا في عمورية وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وكانت في غاية الحصانة وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في كتابه المسمى بالمسامرة فتح عمورية فقال فتحها المعتصم في رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائتين * وسبب فتحها ان رجلا وقف على المعتصم فقال يا أمير المؤمنين كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء أسيرة قد لطمها علج في وجهها فنادت وامعتصماه فقال العلج وما يقدر عليه

المعتصم يجيء على ابلق ينصرك وزاد في ضربها فقال المعتصم وفي أي جهة عمورية فقال له الرجل هكذا وأشار الى جهتها فرد المعتصم وجهه اليها وقال لبيك أيتها الجارية لبيك هذا المعتصم بالله أجابك ثم تجهز اليها في اثنى عشر ألف فرس أبلق وفي هذه التلبية يقول له في قصيدة أبو تمام حبيب الطائي

لبيت صوتا زبطريا هرقت له * كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

فلما حاصرها وطال مقامه عليها جمع المنجمين فقالوا له انا نرى انك ماتفتحها الا في زمان نضج العنب والتين فبعد عليه ذلك واغتم لذلك فخرج ليلة متجسسا في العسكر يسمع مايقول الناس فر بخيمة حداد يضرب نعال الخيل وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة يضرب نعال الخيل ويقول في رأس المعتصم فقال له معلمه اتركنا من هذا الملك والمعتصم فقال ماعنده تدبير له كذا وكذا يوما على هذه المدينة مع قوته ولايفتحها لو أعطاني الامر مابات غدا الا فيها فتعجب المعتصم مما سمع وانصرف الى خيامه وترك بعض رجاله موكلا بالغلام فلما أصبح جاؤا به فقال ماحملك ياهذا على مابلغني عنك فقال الذي بلغك حق ولي ماوراء خبائك وقد فتح الله عمورية فقال قد وليتك وخلع عليه وقدمه على الحرب فجمع الرماة واختار منهم أهل الاصابة وجاء الى بدن من أبدان السور وفي البدن من أوله الى آخره خط اسود من خشب عرضه ثلاثة أشبار أو أكثر فحمى السهام بالنار وقال للرماة من أخطأ منكم ذلك الخط الاسود ضربت عنقه واذا بذلك الخط خشب ساج فعندما حصلت فيه السهام المحمية قامت النار فيه واحترق فنزل البدن كله وتحامى الرجال ودخل البلد بالسيف وذلك قبل الزمان الذي ذكره المنجمون وفي ذلك يقول أبو تمام حبيب الطائي في قصيدته التي امتدح بها المعتصم عند فتحه عمورية

السيف أصدق انباء من الكتب * في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لاسود الصحائف في * متونهن جلاء الشك والريب

الى آخر ماذكره في القصيدة فلما دخلها ومعه الرجل الذي بلغه حديث الجارية قال له سر بي الى الموضع الذي رأيتها فيه فسار به وأخرجها من موضعها وقال لها

ياجارية هل أجابك المعتصم وملكها العلج الذى لطمها والسيد الذى كان يملكها وجميع ماله وأخذ السيف الروم وأقبل الناس بالأسرى والسبى من كل وجه وأقام عليها خمسة وخمسين يوما وفرق الاسرى على القواد وسار الى نحو طرسوس ثم رجع الى دار ملكه

﴿ ذكر غزوات زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب عامل افريقية ﴾

قد تقدم ذكر غزوة من غزواته سنة ثنتى عشرة ومائتين ثم كانت له غزوة فى سنة ثلاث عشرة وكذا فى سنة أربع عشرة وهكذا الى سنة ثلاث وعشرين ومائتين والكلام على تفصيل تلك الغزوات طويل وفى أكثرها كان النصر للمسلمين وتوفى زيادة الله المذكور سنة ثلاث وعشرين وولى بعده أخوه الاغلب بن ابراهيم ابن الاغلب وسير سرية سنة أربع وعشرين الى صقلية فغنمت وسلمت * وفى سنة خمس وعشرين استأمن عدة حصون الى المسلمين من جزيرة صقلية منها حصن البلوط وقرلوره ومرو وسار اسطول المسلمين الى قلورية ففتحها ولقى اسطول صاحب القسطنطينية فهزموه بعد قتال فعاد الاسطول الى القسطنطينية مهزوما فكان فتحا عظيما * وفى سنة ست وعشرين ومائتين سارت سرية للمسلمين بصقلية الى قصر يانه فغنمت وأحرقت وسبت فلم يخرج اليهم أحد فسارت الى حصن الغيران وهو أربعون غارا فغنمت جميعها * وفى سنة ثلاث وعشرين سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشا الى البة والقلاع فنزلوا حصن القرات وغنموا ما فيه وقتلوا أهله وسبوا النساء والذرية وعادوا وسير جيشا أيضا فى سنة أربع وعشرين فكان بينهم وبين المشركين حرب شديد فانهزم المشركون وقتل منهم مالا يحصى وفعل مثل ذلك سنة خمس وعشرين ومائتين * وفى سنة أربع وعشرين نقض كثير من أهل طبرستان فجهز المعتصم عليهم الجيوش وقاتلهم وقتل كثيرا منهم وأسر آخرين حتى رجعوا الى الطاعة وتوفى المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين وبويع ابنه الواثق وفى هذه السنة سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشا الى أرض العدو فلما كانوا بين

أربونة وشرطانيـة تجمعت الروم عليهم وأحاطوا بالعسكر وقاتلوهم الليل كله فلما أصبحوا أنزل الله نصره على المسلمين وهزم عدوهم وفى هذه السنة أيضا سير عبد الرحمن بن الحكم جيشا وجعل عليه عبد الله المعروف بابن البلنسى الى بلاد العدو فوصلوا الى البة والقلاع فخرج اليـه المشركون فى جمعهم وكان بينهم حرب شديد وقتال عظيم فانهزم المشركون وقتل منهـم مالا يحصى وجمعت الرؤس أكداسا أى مجموعا بعضـها فوق بعض حتى كان الفارس لا يرى من يقابله وفيها خرج ملكهم لذريق فى عسكره وأراد الغارة على مدينـة سالم من الاندلس فسار اليه فرتون بن موسى فى عسكر جرار فلقيه وقاتله فانهزم لذريق وكثر القتل فى عسكره وسار فرتون الى الحصن الذى كان بناه أهل البـة وراء ثغور المسـلمين فحصره وافتتحه وهدمه

﴿ ذكر غزوات بافريقية ﴾

وفى سـنة ثمان وعشرين ومائتين غزا فى البحر بأفريقية الفضـل بن جعفر الهمدانى فنزل مرسى مسينى وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة واستأمن اليه أهل نابل وصاروا معه وقاتل الفضل الروم الذين بها مدة سنتين واشتد القتال فلم يقدر على أخـذها فمضى طائفة من العسكر واستداروا خلف جبـل مطل على المدينة فصعدوا اليه ونزلوا الى المدينة وأهل البلد مشغولون بقتال الفضل بن جعفر ومن معه فلما رأى أهل البلدان المسلمين دخلوا عليهم من خلفهم انهزموا وفتح البلد وفتح أيضا مدينة مسكان ٭ وفى سنة تسع وعشرين ومائتـين خرج أبو الاغلب العباس ابن الفضل فى سرية فبلغ شرة فقاتله أهلها قتالا شديدا فانهزمت الروم وقتل منهم مايزيد على عشرة آلاف رجل واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر ولم يكن بصقلية مثلها ٭ وفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين حصر الفضل بن جعفر مدينة مسينى فأخبر الفضل أن أهل مسينى كاتبوا البطريق الذى بصقلية لينصرهم فأجابهم وقال لهم ان العلامة عند وصولى أن يوقد النار ثلاث ليال على الجبل الفلانى فاذا رأيتم ذلك فى اليوم الرابع أصل اليكم فنجتمع أنا وأنتم على المسلمين بغتة فأرسل الفضل من أوقد النار على ذلك الجبل ثلاث ليال فلما رأى أهل مسينى النار أخذوا فى أمرهم

وأعد الفضل ماينبغي أن يستعد به وكمن الكمناء وأمر الذين يحاصرون المدينة أن ينهزموا الى جهة الكمين فاذا خرج أهلها عليهم قاتلوهم فاذا جاوزوا الكمين عطفوا عليهم فلما كان اليوم الرابع خرج أهل مسيني وقاتلوا المسلمين وهم ينتظرون وصول البطريق فانهزم المسلمون واستجروا الروم حتى جاوزوا الكمين ولم يبق بالبلد أحد الاخرج فلما جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم وخرج الكمين من خلفهم ووضعوا السيف فيهم فلم ينج منهم الا القليل فسألوا الامان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا المدينة فأجابهم المسلمون الى ذلك وأمنوهم وسلموا المدينة * وفى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وصل عشر شلنديات من الروم فأرسوا بمرسى الطين وخرجوا ليغير وا فضلوا الطريق فرجعوا خائبين وركبوا البحر راجعين فغرق منها سبع قطع * وفى سنة أربع وثلاثين ومائتين صالح أهل رغوس وسلموا المدينة الى المسلمين بما فيها فهدمها المسلمون وأخذوا منها ما أمكن حمله * وفى سنة خمس وثلاثين سار طائفة من المسلمين الى المدينة قصريانة فغنموا وسبوا واحرقوا وقتلوا فى أهلها وكان الامير على صقلية للمسلمين محمد بن عبد الله بن الاغلب وكان مقيما بمدينة بلرم ولم يخرج منها وانما كان يخرج الجيوش والسرايا فتفتح وتغنم وكانت امارته عليها تسع عشرة سنة وتوفى سنة ست وثلاثين ومائتين * وفى سنة ثمان وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشا عليهم الحارث بن بزيغ لقتال الافرنج فوقع القتال وأصاب الحارث ضربة فى وجهه فلعت عينه ثم أسر فجهز عبد الرحمن بن الحكم جيشا واستعمل عليه ابنه محمدا فأوقع بالافرنج وقتل ملكهم غرسية وكثيرا من قومه وأطلق الحارث بن بزيغ * وفى سنة ثلاثين ومائتين خرج جماعة كثيرون فى بحر الاندلس من المجوس وأوقعوا بالمسلمين فى مدائن كثيرة فجهز عليهم عبد الرحمن بن الحكم جيوشا كثيرة مع قواده فقاتلوا المجوس قتالا شديدا وهزموهم وقتلوا كثيرا منهم فى وقائع كثيرة * وفى سنة احدى وثلاثين ومائتين بعث الواثق جيشا لقتال الروم فقصدوا اجليقية وقتلوا وأسروا وسبوا وغنموا ثم قصدوا مدينة اليون فحصروها

ورموها بالمجانيق فخاف أهلها فتركوها بما فيها وخرجوا هاربين فغنم المسلمون منهم ما أرادوا وخربوا البلاد ولم يقدروا على هدم سورها لان عرضه سبع عشرة ذراعا فتركوه ومضوا وقد نالوا فيه نيلا كثيرة وفى هذه السنة أمر الواثق بفداء المسلمين واجتمع المسلمون والروم على نهر اللامس وأحضر المسلمون من معهم من الاسرى وأحضر المشركون من معهم من الاسرى وكان النهر بين الطائفتين فكان المسلمون يطلقون الاسير فيطلق الروم الاسير من المسلمين فيلتقيان فى وسط النهر ويأتى كل الى أصحابه فاذا وصل الاسير الى المسلمين كبروا واذا وصل الاسير الى الروم صاحوا حتى فرغوا وكان النهر مخاضة تعبره الاسرى وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفسا ومن النساء والصبيان ثمانمائة نفس والملحق بالمسلمين من أهل الذمة مائة نفس ولما فرغوا من الفداء غزا أحمد بن سعيد بن مسلم الباهلى المقدم فى أمر الفداء شاتيا فأصاب الناس ثلج ومطر فمات من المسلمين مائتا نفس وأسر نحوهم وغرق بالبدندون خلق كثير وجاء بطريق من الروم ينذره فقال وجوه الناس لاحمدان عسكرا فيه سبعة آلاف لاتخوف عليهم فان كنت كذلك فواجه القوم واطرق بلادهم ففعل وغنم نحوا من ألف بقرة وعشرة آلاف شاة ورجع فعزله الواثق واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعى وتوفى الواثق سنة اثنين وثلاثين وبويع أخوه المتوكل بن المعتصم * وفى سنة خمس وثلاثين سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشا كثيفا لقتال الافرنج فبلغوا البة وغنموا وظفروا * وفى سنة ست وثلاثين سير جيشا الى برشلونة فقتلوا من أهلها فأكثروا وأسروا جما غفيرا وغنموا وعادوا سالمين وكذا فى سنة سبع وثلاثين وتوفى الحكم سنة ثمان وثلاثين وقام بالامر بعده ابنه محمد

﴿ ذكر غزوات وفتوحات بأفريقية ﴾

قد تقدم أن ابتداء فتوح المسلمين لافريقية كان فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه على يد عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة عشرين من الهجرة ولما

كانت خلافة هارون الرشيد ولى على أفريقية ابراهيم بن الاغلب التميمى سنة أربع وثمانين ومائة وتوارث بنوه الملك بعده عمالا للخلفاء بنى العباس واستمر ذلك فيهم الى سنة مائتين وست وتسعين فزالت دولتهم لما صار ملك أفريقية للفاطميين ويقال لهم العبيديون فكانت مدة ملك بنى الاغلب مائة سنة واثنتى عشرة سنة وكان مقر ملكهم القيروان واتسع ملكهم وقوى بأفريقية وصار لهم أموال كثيرة وخيل وجنود وافرة وملك ضخم ومراكب فى البحر ولهم كثير من المآثر المحمودة والمواقف المشهودة والغزوات الكثيرة والفتوحات الشهيرة وقد تقدم ذكر كثير منها ولاسيما فى غيرها وأكثر فتوحات أفريقية كان على أيديهم وتقدم أن أول من اختط مدينة القيروان عقبة بن نافع الفهرى رضى الله عنه ولد فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم تثبت له صحبة وكان صالحا من كبار التابعين وخيارهم وكان خطة القيروان سنة خمسين من الهجرة حين كان أميرا على افريقية فى خلافة معاوية رضى الله عنه فلما اختطها صارت قاعدة افريقية ومقر ملكها ثم بعد سنين كثيرة صارت مدينة تونس بدلا عنها وافريقية بلاد واسعة قال فى القاموس ان أفريقية قبالة الاندلس وقال السيد مرتضى فى شرحه على القاموس ان افريقية قبالة جزيرة صقلية منحرفة الى الشرق والاندلس منحرفة عنها الى جهة المغرب وصقلية بكسرات مشددة اللام جزيرة عظيمة بالمغرب كثيرة البلدان والقرى والمواشى افتتح المسلمون كثيرا من مدائنها وقراها بعد غزوات كثيرة وكان أول الغزو اليها زمن ولاية معاوية بن خديج على أفريقية فى خلافة معاوية رضى الله عنه ولم يفتحها وتتابع الغزو اليها فى زمن ولاية بنى الاغلب من أول دولتهم الى آخرها وتملكوا أكثر الجزيرة ولم يزل الفتح فيها والغزو اليها ولم يتم فتحها الى أن انقضت ولاية بنى الاغلب سنة مائتين وست وتسعين وجزيرة صقلية الآن داخلة فى ممالك ايطاليا واعلم أن المغرب يشتمل على ثلاث ممالك عظام وهى المغرب الادنى والمغرب الاوسط والمغرب الاقصى فالمغرب الادنى القيروان وتونس وطرابلس الغرب وأعمال كل منها والمغرب الاوسط

تلمسان والجزائر وأعمالها وذلك الآن بيد الفرنسيس تملكوه من سنة ألف ومائتين وست وأربعين والمغرب الاقصى فاس ومراكش والسوس وأعمال كل منها وذلك الآن بيد سلطان فاس وانما قيل لذلك المغرب الاقصى لانه أبعد عن دار الخلافة فى صدر الاسلام وكان قبل استحداث مدينة تونس موجود مدينة عظمى تسمى (قرطاجنة) بتشديد النون المفتوحة وكانت مدينة شهيرة من عجائب الدنيا وكانت عند الروم تضاهى مدينة رومة وكان بها كثير من ملوك الفرنج ومعهم من الفرنج أمم لا تحصى فغزاها المسلمون سنة تسع وستين من الهجرة بأربعين ألفا من الجند أميرهم حسان بن النعمان فى خلافة عبد الملك بن مروان فحاصرها حسان بن النعمان بمن معه من الجند الى أن افتتحها وقتل كثيرا ممن كان فيها ونجا قوم منهم فى المراكب الى جزيرة صقلية وقوم منهم الى الأندلس ولما انصرف عنها حسان بن النعمان دخلها قوم من أهل الضواحى والبادية وتحصنوا بها فرجع اليهم حسان وقاتلهم أشد قتال وافتتحها عنوة وأمر بتخريبها واعفاء أثرها وكسر قنواتها فذهبت كأمس الدابر ولم يبق بها الا آثار خفيفة تدل على ما كان فيها من عجائب الصنعة واحكام العمل وعمر بأنقاضها مدينة تونس بالقرب منها ومن غزوات بنى الأغلب غزوة لزيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب فى سنة مائتين واثنتين جهز جيشا فى مراكب البحر الى مدينة سردانية وهى جزيرة كبيرة ببحر المغرب كانت للروم فغنموا وقتلوا كثيرا ورجعوا سالمين * وفى سنة سبع ومائتين سير جيشا ففتحوا مواضع من جزيرة صقلية وسير أيضا جيشا فى سنة ثنتى عشرة ففتحوا أيضا مواضع كثيرة من جزيرة صقلية ثم وقع اختلاف بين ملوك الروم الذين كانوا فى صقلية فاستنجد بعض منهم بزيادة الله بن الأغلب ووعده بأنه يملكه جزيرة صقلية فسير معه جيشا فى ربيع الأول من سنة ثنتى عشرة ومائتين فوصلوا الى مدينة مازر من صقلية ثم ساروا فلقيهم جمع من الروم فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا فانهزمت الروم وقتل كثير منهم وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ثم توجهوا

الى حصار قصر يانة وهى من جزيرة صقلية وبث المسلمون السرايا فى كل ناحية فغنموا أشياء كثيرا وافتتحوا عمرانا كثيرة حول سرقوسة وحاصروا سرقوسة برا وبحرا ولحقتهم الامداد من افريقية فضيقوا على سرقوسة فوصل أسطول من القسطنطينية فيه جمع كثير من الروم مددا لجماعاتهم وذلك فى سنة ثلاث عشرة ومائتين وكان قد حل بالمسلمين وباء شديد هلك فيه كثير منهم فلما رأى المسلمون شدة الوباء ووصول الروم تحمل المسلمون فى مراكبهم ليسيروا ويتركوا الحصار فوقف الروم فى مراكبهم على باب المرسى فمنعوا المسلمين من الخروج فلما رأى المسلمون ذلك أحرقوا مراكبهم وعادوا ورحلوا الى مدينة ميناو فحصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن وسار طائفة منهم الى حصن جرجنت فقاتلوا أهله وملكوه وسكنوا فيه واشتدت نفوس المسلمين بهذا الفتح وفرحوا ثم ساروا الى مدينة قصر يانة ووصل جيش كثير من القسطنطينية مددا لمن فى الجزيرة فتصافوا هم والمسلمون واقتتلوا فانهزم الروم وقتل منهم خلق كثير ودخل منهم من سلم قصر يانة ثم ان سرية للمسلمين سارت للغنيمة فخرج عليها طائفة من الروم فاقتتلوا وانهزم المسلمون وعادوا من الغد ومعهم جمع من عسكر المسلمين فخرج اليهم الروم وقد اجتمعوا وحشدوا وتصافوا مرة ثانية واقتتلوا فانهزم المسلمون أيضا وقتل منهم نحو ألف قتيل وعادوا الى معسكرهم وخندقوا عليهم فحصرهم الروم ودام القتال بينهم فضاقت الأقوات على المسلمين فعزموا على بيات الروم فعلموا بهم ففارقوا الخيام فلما خرج المسلمون لبيات الروم لم يجدوا أحدا وأقبل عليهم الروم من كل ناحية فأكثروا القتل فى المسلمين وانهزم الباقون من المسلمين ودخلوا ميناو فحصرهم الروم ودام الحصار على المسلمين حتى أكلوا الدواب والكلاب فلما سمع بذلك من فى مدينة جرجنت من المسلمين هدموا المدينة وساروا الى مازر ولم يقدروا على نصرة اخوانهم من المسلمين ودام الحال الى أن دخلت سنة أربع عشرة ومائتين وقد أشرف المسلمون على الهلاك اذ أقبل أسطول كثير من المسلمين الذين فى الأندلس

خرجوا غزاة ووصل أيضا فى ذلك الوقت مراكب كثيرة من افريقية مددا للمسلمين فبلغت عدة الجميع ثلاثمائة مركب فنزلوا الى الجزيرة فانهزم الروم عن حصار المسلمين وفرج الله عنهم وسار المسلمون الى مدينة بلرم وكانت للروم فحصروها وضيقوا على من بها فطلب صاحبها الامان لنفسه ولأهله ولماله فأجيب الى ذلك وسار فى البحر الى بلاد الروم ودخل المسلمون البلد فى رجب سنة ست عشرة ومائتين فلم يروا فيه الا أقل من ثلاثة آلاف انسان وكان فيه لما حصروه سبعون ألفا وماتوا كلهم وبقى المسلمون الى سنة تسع عشرة ومائتين ثم ساروا الى مدينة قصريانة فخرج اليهم من كان فيها من الروم فاقتتلوا أشد قتال ففتح الله على المسلمين وانهزم الروم الى معسكرهم ثم رجعوا فى الربيع فقاتلوهم فنصر الله المسلمين أيضا ثم سار المسلمون أيضا سنة عشرين الى قصريانة فقاتلهم الروم فهزمهم الله تعالى وانتصر المسلمون عليهم وأسرت امرأة لبطريقهم وابن له وغنم المسلمون ما كان فى معسكرهم وعادوا الى بلرم ثم سيروا عسكرا الى ناحية طبرمين فغنموا اغنائم كثيرة ثم عدا بعض عسكر المسلمين على أمير المسلمين وهو محمد بن سالم فقتلوه ولحقوا بالروم فأرسل زيادة الله بن الأغلب من افريقية الفضل بن يعقوب عوضا عنه فسار فى سرية الى ناحية سرقوسة فأصابوا اغنائم كثيرة وعادوا ثم سارت سرية كبيرة فغنمت وعادت فعرض لهم الملك صاحب صقلية ومعه جمع كثير من الروم فتحصنوا من الروم فى أرض وعرة وشجر كثيف فلم يتمكن الملك من قتالهم ووافقهم الى العصر فلما رأى أنهم لا يقاتلونهم عاد عنهم فتفرق أصحابه وتركوا التعبية فلما رأى المسلمون ذلك حملوا عليهم حملة صادقة فانهزم الروم وطعن الملك وجرح عدة جراحات وسقط عن فرسه فأتاه حماة أصحابه واستنقذوه جريحا وحملوه وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ومتاع ودواب فكانت وقعة عظيمة وسير زيادة الله بن الأغلب من افريقية الى صقلية أبا الاغلب ابراهيم بن عبد الله أميرا على تلك الجيوش فوصل اليهم منتصف رمضان فبعث أسطولا فلقوا جمعا للروم فى أسطول فغنم المسلمون ما فيه من مال

وأسر واما فيه من رجال فضرب أبو الاغلب رقاب كل من فيه وبعث أسطولا آخر الى قوصرة فظفر بحراقة فيها رجال من الروم ورجل من أهل افريقية كان مسلما فتنصر فأتى بهم فضربت رقابهم وسارت سرية أخرى الى جبل النار والحصون التى فى تلك الناحية فأحرقوا الزرع وغنموا وأكثروا القتل ثم سير أبو الاغلب سنة احدى وعشرين ومائتين سرية الى جبل النار أيضا فغنموا غنائم عظيمة حتى بيع الرقيق بأبخس الأثمان وعادوا سالمين وفيها سير أبو الاغلب أيضا سرية الى قسطلياسة فغنموا وسبوا ولقيهم العدو فكانت بينهم حرب استظهر فيها الروم وفيها أيضا جهز أسطولا فساروا نحو الجزائر فغنموا غنائم عظيمة وفتحوا مدنا ومعاقل وعادوا سالمين وفيها أيضا سير سرية الى مدينة قصريانة فخرج اليهم العدو فاقتتلوا فانهزم المسلمون وأصيب منهم جماعة ثم كانت وقعة أخرى بين الروم والمسلمين فانهزم الروم وغنم المسلمون منهم تسعة مراكب كبار برجالها وشلندى فلما جاء الشتاء وأظلم الليل رأى رجل من المسلمين غفلة من أهل قصريانة فتقرب ورأى طريقا فدخل منه ولم يعلم به أحد ثم انصرف الى العسكر فأخبرهم فجاؤا معه فدخلوا من ذلك الموضع وكبروا وملكوا ربضه وتحصن المشركون منهم بحصنه وطلبوا الامان فأمنوهم وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا الى بلرم وفى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وصل كثير من الروم فى البحر الى صقلية وكان المسلمون قد حاصروا اجفلوذى وقد طال حصارها فلما وصل الروم رحل المسلمون عنها وجرى بينهم وبين الروم الواصلين حروب كثيرة ثم جاء للمسلمين الخبر بوفاة زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب أمير افريقية فوهن المسلمون ثم تشجعوا وضبطوا أنفسهم (سرقوسة) بسين مفتوحة وقاف وواو وسين ثانية (وبلرم) بفتح الباء الموحدة واللام وتسكين الراء وبعدها ميم (ميناو) بميم وياء تحتها نقطتان ونون وبعد الالف واو و (جرجنت) بجيم وراء وجيم ثانية مفتوحة وتاء فوقها نقطتان و (قصريانة) بالقاف والصاد المهملة والراء والياء تحتها نقطتان وبعد الالف نون مشددة وهاء وهذه الغزوات هى التى

ذكرت مجملة قبل هذا الموضع بورقة استحسنا تدارك ذكرها تفصيلا لما اشتملت عليه من الفوائد ولما توفى محمد بن عبد الله أمير صقلية سنة ست وثلاثين كما تقدم اجتمع المسلمون بها على ولاية العباس بن الفضل بن يعقوب فولوه أمرهم وكتبوا بذلك الى محمد بن الاغلب أمير افريقية فأرسل اليه عهدا بولايته فكان العباس يرسل السرايا وتأتيه الغنائم الى أن أتاه عهده بولايته فخرج بنفسه وأرسل سرية الى قلعة أبي ثور فغنموا وأسروا وعادوا فقتل الاسرى ثم توجه الى مدينة قصريانة فنهب وأحرق وخرب ليخرج اليه البطريق فلم يفعل فعاد العباس * وفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين خرج حتى بلغ قصريانة وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية وكان قبلها يسكن سرقوسة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك الى قصريانة لحصانتها فخرج العباس ومعه جمع عظيم فغنم وخرب وأتى قطانية وسرقوسة ونوطس ورغوس فغنم من جميع هذه البلاد وخرب وأحرق ونزل على شيرة وحصرها خمسة أشهر فصالحه أهلها على خمسة آلاف رأس * وفي سنة اثنتين وأربعين سار العباس في جيش كثيف ففتح حصونا جمة * وفي سنة ثلاث وأربعين سار الى قصريانة فخرج أهلها فلقوه فهزمهم وقتل فيهم فأكثر وقصد سرقوسة وطبرمين وغيرهما فنهب وخرب وأحرق ونزل على القصر الجديد وحصره وضيق على من به من الروم فبذلوا له خمسة عشر ألف دينار فلم يقبل منهم وأطال الحصر فسلموا اليه الحصن على شرط أن يطلق مائتي نفس فأجابهم الى ذلك وملكه وباع كل من فيه سوى مائتي نفس وهدم الحصن

﴿ ذكر فتح قصريانة ﴾

في سنة أربع وأربعين ومائتين فتح المسلمون مدينة قصريانة وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك الى قصريانة لحصانتها وسبب فتحها أن العباس سار في جيوش المسلمين الى مدينة قصريانة وسرقوسة وسير جيشا في البحر فلقيهم أربعون شلندي للروم فاقتتلوا أشد قتال فانهزم الروم وأخذ المسلمون منهم

عشر شلنديات برجالها وعاد العباس الى مدينته فلما كان الشتاء سير سرية فبلغت قصر يانة فنهبوا وخربوا وعادوا وكان معهم أسير من الروم له عند الروم قدر ومنزلة فأمر العباس بقتله فقال استبقني ولك عندي نصيحة قال وماهي قال أملكك قصر يانة والطريق فى ذلك أن القوم فى هذا الشتاء وهذه الثلوج آمنون من قصدكم اليهم فهم غير محترسين ترسل معي طائفة من عسكركم حتى أدخلكم المدينة فانتخب العباس ألفى فارس أنجادا أبطالا وسار الى أن قاربها وكمن هنالك مستترا وسير عمه رباحا فى شجعانهم فساروا مستخفين فى الليل والرومي معهم مقيد بين يدي رباح فأراهم الموضع الذي ينبغي أن يملك منه فنصبوا السلالم وصعدوا حتى وصلوا الى سور المدينة قريبا من الصبح والحرس نيام فدخلوا من باب صغير فيه يدخل منه الماء وتلقى فيه الأقذار فدخل المسلمون كلهم فوضعوا السيف فى الروم وفتحوا الابواب وجاء العباس فى باقي العسكر فدخلوا المدينة وصلوا الصبح بها يوم الخميس وبنى فيها فى الحال مسجدا ونصب فيه منبرا وخطب فيه يوم الجمعة وقتل من وجد فيه من المقاتلة وأخذوا مافيها من بنات البطارقة بحليهن وأبناء الملوك وأصابوا فيها مايعجز الوصف عنه وذل الشرك يومئذ بصقلية ذلا عظيما ولما سمع الروم بذلك أرسل ملكهم بطريقا من القسطنطينية فى ثلاثمائة شلندي وعسكر كثير فوصلوا الى سرقوسة فخرج اليهم العباس من المدينة ولقى الروم وقاتلهم فهزمهم فركبوا فى مراكبهم هاربين وغنم المسلمون منهم مائة شلندي وكثر القتل فيهم ولم يصب من المسلمين ذلك اليوم غير ثلاثة نفر بالنشاب

* وفى سنة ست وأربعين ومائتين نكث كثير من قلاع صقلية فخرج العباس اليهم وقاتلهم فانهزم الروم وقتل كثير منهم وسار الى بعض القلاع التى نكثت فحصرها فأتاه الخبر بأن كثيرا من عساكر الروم قد وصلت فرحل اليهم وجرى بينه وبينهم قتال شديد فهزمهم وعاد الى قصر يانة فحصنها وشحنها بالعساكر * وفى سنة سبع وأربعين ومائتين سار العباس الى سرقوسة فغنم وسار الى غيران قرقنة فاعتل ومات بعد ثلاثة أيام فنبشه الروم وأحرقوه وكانت ولايته احدى عشرة سنة وأدام

الجهاد شتاء وصيفا وغزا أرض قلوربة وانكبردة وأسكنها المسلمين

﴿ ذكر مسير الروم الى أرض مصر ﴾

في سنة تسع وثلاثين ومائتين في خلافة المتوكل جاءت ثلاثمائة مركب للروم مع ثلاثة رؤساء فأناخ أحدهم في مائة مركب بدمياط وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة يكون ماؤها الى صدر الرجل فمن جازها الى الارض أمن من مراكب البحر فجازه قوم فسلموا وغرق كثير من نساء وصبيان ومن كان به قوة سار الى مصر وكان على معونة مصر عنبسة بن اسحاق الضبي فلما حضر العيد أمر الجند الذين بدمياط أن يحضروا الى مصر فساروا منها فاتفق وصول الروم وهي فارغة من الجند فنهبوا وأحرقوا وسبوا وأحرقوا جامعها وأخذوا ما بها من سلاح ومتاع وغير ذلك وسبوا من النساء المسلمات والذميات نحو ستمائة امرأة وأوقروا سفنهم من ذلك وكان عنبسة قد حبس بسر بن الاكشف بدمياط فكسر قيده وخرج يقاتلهم وتبعه جماعة وقتل من الروم جماعة وسارت الروم الى أشنوم تنيس وكان عليه سور وبابان من حديد قد عمله المعتصم فنهبوا ما فيه من سلاح وأخذوا البابين ورجعوا ولم يعرض لهم أحد وغزا الصائفة في هذه السنة على بن يحيى الارميني * وفي سنة أربعين كان قتال بين محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس وبين الافرنج فكان النصر له عليهم وقتل منهم نحو ثمانية آلاف * وفي سنة احدى وأربعين قتلت تدورة ملكة الروم من أسرى المسلمين اثني عشر ألفا فانها عرضت النصرانية على الأسرى فمن تنصر تركته ومن أبى قتلته وأرسلت تطلب المفاداة لمن بقي منهم ففداهم المتوكل وكانوا سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ومن النساء مائة وخمسا وعشرين امرأة

(ذكر اغارة البجاة على مصر ومجاوة أرض النوبة والبجاة أهل تلك الارض)

في سنة احدى وأربعين أغارت البجاة على أرض مصر وكانت قبل ذلك لا تغزوا بلاد الاسلام لهدنة قديمة وفي بلادهم معادن الذهب يؤدون منها الخمس الى أهل مصر فامتنعوا أيام المتوكل وقتلوا من وجدوه من المسلمين فلما بلغ الخبر المتوكل

شاور وزراءه فى أمرهم فذكروا له أنهم أهل بادية وأهل إبل وشياه وأن الوصول الى بلادهم صعب لأنها مفاوز وبين أرض الاسلام وبينها مسيرة شهر فى أرض قفر وجبال وعرة وأن كل من يدخلها من الجيوش يحتاج أن يتزود للمدة التى يتوهم أنه يقيمها الى أن يخرج الى بلاد الاسلام فان جاوز تلك المدة هلك وأخذتهم البجاة باليد وان أرضهم لا ترد على سلطان شيأ فأمسك المتوكل عنهم فطمعوا وزاد شرهم حتى خاف أهل الصعيد على أنفسهم منهم فولى المتوكل محمد ابن عبد الله القمى محاربتهم وكتب الى عنبسة بن اسحق عامل حرب مصر بازاحة علته واعطائه من الجند ما يحتاج اليه ففعل ذلك وسار محمد الى أرض البجاة وتبعه ممن يعمل فى المعادن والمتطوعة عالم كثير فبلغت عدتهم نحوا من عشرين ألفا بين فارس وراجل ووجه الى القلزم فحمل فى البحر سبعة مراكب موقورة بالذخيرة وأمر أصحابه أن يوافوه بها فى ساحل البحر مما يلى بلاد البجاة وسار حتى جاوز المعادن التى يعمل منها الذهب وسار الى حصونهم وقلاعهم وخرج اليه ملكهم وكان معه صنم من حجارة كهيئة الصبى يسجد له فى جيش كثير أضعاف من مع القمى وكانت البجاة على الابل فصار بوا أياما وطاولهم البجاة لتفنى أزواد المسلمين وعلوفاتهم فيأخذوهم بغير حرب فأقبلت تلك المراكب التى فيها الاقوات فى البحر ففرق القمى ما كان فيها فى أصحابه فاتسعوا فيها فلما رأى ملك البجاة ذلك صدقهم القتال وجمع لهم فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا وكانت إبلهم ذعرة تنفر من كل شئ فلما رأى القمى ذلك جمع كل جرس فى عسكره وجعلها فى أعناق خيله ثم حملوا على البجاة فنفرت إبلهم لاصوات الاجراس فحملتهم على الجبال والاودية وتبعهم المسلمون قتلا وأسرا حتى أدركهم الليل ثم رجع الى معسكره ولم يقدر على احصاء القتلى لكثرتهم ثم ان ملكهم طلب الامان فأمنه على مملكته وبلاده فأدى لهم الخراج للمدة التى كان منعها وهى أربع سنين وسار القمى الى المتوكل فخلع عليه وعلى أصحابه وفى هذه السنة أغارت الروم على عين زربة فأخذت من كان بها أسيرا من الزط (الزط جيل من السودان طوال الاجسام) من نسائهم وذراريهم

ودوابهم وفى هذه السنة أيضا سير محمد صاحب الاندلس الجيوش الى غزو الافرنج فدخلوا بلادهم ووصلوا الى البة والقلاع وافتتحوا بعض حصونها وعادوا * وفى سنة اثنتين وأربعين خرجت الروم من ناحية سميساط حتى قاربوا آمد وخرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا وأسروا نحوا من عشرة آلاف ثم رجعوا فخرج قوم من المتطوعة فى آثارهم فلم يلحقوهم وكتب المتوكل الى على بن يحيى الارمينى أن يسير الى بلادهم ثانيا ففعل وفى هذه السنة سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس جيشا الى بلاد الافرنج فدخلوا الى برشلونة وحاربوا اقلاعها وجاوزوها الى ماوراء أعمالها فافتتحوا كثيرا وافتتحوا حصنا من أعمال برشلونة يسمى طراجة من آخر حصون برشلونة * وفى سنة أربع وأربعين بعث المتوكل بغا الكبير فى العساكر الصائفة فدخل بلاد الروم فدوخها واكتسحها من سائر النواحى ورجع * وفى سنة خمس وأربعين أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا وأسروا خلقا كثيرا وغزا على بن يحيى الارمينى الصائفة ومنع أهل لؤلؤة رئيسهم من الصعود اليها فبعث اليهم ملك الروم يضمن لكل رجل منهم ألف دينار على أن يسلموا اليه (لؤلؤة) قلعة للصقالبة فأصعدوا البطريق اليهم ثم أعطوا أرزاقهم الفائتة وما أرادوا ثم سلموا البطريق ولؤلؤة الى بلكاجور فسيره الى المتوكل فبذل ملك الروم فى فدائه ألف مسلم كانوا مأسورين عنده * وفى سنة ست وأربعين أيضا غزا عمر بن عبيد الله الاقطع الصائفة فجاؤا بسبعة عشر ألف رأس وغزا قربياس فجاء بخمسة آلاف رأس وغزا الفضل بن قارون فافتتح حصن انطاكية وغزا بلكاجور فغنم وسبى وغزا على بن يحيى الارمينى فأخرج خمسة آلاف رأس ومن الدواب والرمك والحمير نحوا من عشرة آلاف رأس وفى هذه السنة كان الفداء على يد على بن يحيى الارمينى ففودى بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين نفسا وفى هذه السنة والتى قبلها خرج المجوس من بلاد الاندلس فى مراكب الى بلاد الاسلام فأمر محمد بن عبد الرحمن صاحب البلاد باخراج العساكر الى قتالهم فوصلت مراكب المجوس الى أشبيلية فحلت بالجزيرة

ودخلت الى قتالهم وأحرقت المسجد الجامع ثم جازت الى العدوة ثم تقدموا الى حائط أفرنجة وأغاروا وأصابوا من النهب والسبي كثيرا ثم انصرفوا فلقيتهم مراكب محمد فقاتلوهم فأحرقوا مركبين من مراكب المجوس وأخذوا مركبين آخرين فغنموا ما فيها فحمى المجوس عند ذلك وجدوا فى القتال واستشهد جماعة من المسلمين ثم مضت مراكب المجوس حتى وصلت الى مدينة بنبلونة فأصابوا صاحبها غرسية الفرنجى فافتدى نفسه منهم بتسعين ألف دينار وفى هذه السنة غزا عامل طرسوسة بنبلونة فافتتح حصن بيلسان وسبى أهله ثم كانت على المسلمين فى اليوم الثانى وقعة استشهد فيها جماعة * وفى سنة سبع وأربعين غزا محمد صاحب الاندلس فى جيوش كثيرة بنبلونة فوطئ بلادها ودوخها وخربها ونهبها وقتل فيها فأكثر وافتتح حصونا وأسر فوتون بن غرسية فحبسه بقرطبة عشرين سنة ثم أطلقه وفى هذه السنة قتل المتوكل قتله خدمه الاتراك وبويع ابنه المنتصر ومات بعد ستة أشهر وبويع المستعين بن المعتصم

﴿ ذكر فتوحات وغزوات بافريقية ﴾

لما توفى أمير صقلية العباس بن الفضل سنة سبع وأربعين ولى الناس عليهم ابنه عبد الله وكتبوا الى الامير بافريقية بذلك وأخرج عبد الله السرايا فافتتح قلاعا متعددة وبعد خمسة أشهر وصل من افريقية خفاجة بن سفيان أميرا على صقلية وكان وصوله سنة ثمان وأربعين فأكثر الغزوات والسرايا على الروم الذين بتلك النواحى وشن عليهم الغارات ففتح حصونا كثيرة واستمر الى سنة خمس وخمسين وتوفى وأقيم بعده ابنه محمد وكان الروم يحاصرون مالطة فسير اليهم جيشا سنة ست وخمسين فلما سمع الروم بذلك رحلوا ثم قتل محمد بن خفاجة سنة سبع وخمسين قتله خدمه الخصيان وهربوا فطلبهم الناس فأدركوهم فقتلوهم * وفى سنة ثمان وأربعين ومائتين سار جيش للمسلمين بالاندلس الى مدينة برشلونة وهى للفرنج فأوقعوا بأهلها فارسل صاحبها ملك الفرنج يستمده فأرسل اليه جيشا كثيفا وأرسل المسلمون يستمدون فأتاهم المدد فنازلوا برشلونة وقاتلوا قتالا شديدا فملكوا

أرباضها وبرجين من أبراج المدينة فقتل من المشركين خلق كثير وسلم المسلمون وعادوا وقد غنموا * وفي سنة ثمان وأربعين غزا وصيف التركي بلاد الروم ومعه اثنا عشر ألفا فدخل بلاد الروم وافتتح حصن فرورية * وفي سنة تسع وأربعين سير محمد صاحب الاندلس جيشا الى مدينة ألبة والقلاع من بلاد الفرنج فجالت الخيل في ذلك الثغر وغنمت وافتتحت بها حصونا منيعة * وفي سنة تسع وأربعين أيضا غزا جعفر بن دينار الصائفة فافتتح حصنا ومطامير واستأذنه عمر بن عبيد الله الاقطع في المسير الى بلاد الروم فأذن له فسار في جمع كثير من أهل ملطية فلقيه الملك في جمع عظيم من الروم بمرج الاسقف فحاربه محاربة شديدة قتل فيها من الفريقين خلق كثير ثم أحاطت به الروم وهم خمسون ألفا وقتل عمر وممن معه ألفان من المسلمين فلما قتل عمر بن عبيد الله خرج الروم الى الثغور الجزرية وكلبوا عليها وعلى أموال المسلمين وحرمهم فبلغ ذلك علي بن يحيي وهو قافل من أرمينية الى ميافارقين في جماعة من أهلها ومن أهل السلسلة فنفر اليهم فقتل في نحو من أربعمائة رجل ولما اتصل الخبر ببغداد [illegible] بقتل عمر بن عبيد الله وعلي بن يحيي وكانا من شجعان الاسلام شديدا بأسهما عظيما غناؤهما عن المسلمين في الثغور شق ذلك عليهم مع استعظامهم قتل الاتراك المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير وقام بعض الاجناد يطلبون أرزاقهم وثار من ذلك فتن متتابعة يطول الكلام بذكرها واستمرت الى أن خلع المستعين وبويع المعتز بن المتوكل سنة احدى وخمسين ومائتين ثم قتل المستعين سنة ثنتين وخمسين ومائتين * وفي سنة ثلاث وخمسين أيام المعتز غزا محمد بن معاذ من ناحية ملطية فانهزم وأسر

﴿ ذكر غزوة عظمى بالاندلس على بلاد الفرنج ﴾

في سنة احدى وخمسين وقيل اثنتين وخمسين سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس جيشا مع ابنه المنذر الى بلاد الفرنج فساروا وقصدوا الملاحة وكانت أموال لذريق ملك الفرنج بناحية ألبة والقلاع فلما عم المسلمون بلدهم بالخراب

والنهب جمع لذريق عساكره وسار بريدهم فالتقوا بموضع يقال له فج المركوين فاقتتلوا فانهزم الفرنج الا انهم لم يبعدوا واجتمعوا بهضبة بالقرب من موضع المعركة فتبعهم المسلمون وجاوا اليهم واشتد القتال فولى الفرنج منهزمين لا يلوون على شيء وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وكان عدد ما أخذ من رؤس الفرنج ألفين وأربعمائة واثنين وتسعين رأسا وكان يوما عظيما وعاد المسلمون بالغنائم الكثيرة وسير جيشا أيضا في السنة التي بعدها فقصدوا البة والقلاع ومدينة مانة وقتلوا من أهلها عددا كثيرا ثم قفلوا سالمين ٭ وفي سنة ثلاث وخمسين أيضا سير جيشا فافتتحوا حصون جرفيق وغلبوا على أكثرها ٭ وفي سنة خمس وخمسين ومائتين خلع المعتز ثم قتل وبويع المهتدي بن الواثق وخلع ثم قتل سنة ست وخمسين وبويع المعتمد على الله بن المتوكل ٭ وفي سنة تسع وخمسين ومائتين خرجت عساكر الروم فنازلوا سميساط ثم نازلوا ملطية وقاتلهم أهلها فانهزم الروم وقتل بطريق من بطارقتهم وفي هذه السنة سارت سرية للمسلمين بافريقية الى سرقوسة فصالحهم أهلها على أن يطلقوا الاسرى من المسلمين الذين كانوا عندهم وكانوا ثلاثمائة وستين أسيرا فلما أطلقوهم عادوا عنهم

﴿ ذكر القتال مع صاحب الزنج ﴾

ابتداء ظهور صاحب الزنج كان في سنة خمس وخمسين ومائتين وذكر القتال معه ملحق بالقتال مع الكفار لانه وان كان يدعى الاسلام لكن ما فعله بأهل الاسلام أشنع مما تفعله الكفار كما ستراه والكلام على قصته طويل مبسوط في التواريخ وتلخيصها أن رجلا من بني عبد القيس اسمه على بن محمد بن عبد الرحيم كان في سر من رأى وأصله من الري وكان متصلا بحاشية المنتصر بن المتوكل يمدحهم بشعره ويستمنحهم من عطائهم ثم انه شخص من سر من رأى سنة تسع وأربعين ومائتين الى البصرين وادعى نسبته في العلويين فقال مرة انه على بن محمد بن أحمد بن عيسى ابن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله عنهما وقال مرة انه من ولد الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبي طالب ودعا الناس بهجر الى

طاعته فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم وخالفه آخرون فجرى بين الطائفتين عصبية وقتال قتل فيه جماعة وكان أكثر البحرين قد أحلوه محل نبي وجبى الخراج ونفذ فيهم حكمه وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه فقام منهم جماعة وتنكر واله فانتقل الى الأحساء وصحبه جماعة من أهل البحرين ثم تنقل في البادية وقال أوتيت في تلك الايام بالبادية آيات من آيات امامتي ظاهرة للناس منها أني لقنت سورا من القرآن فجرى بها لساني في ساعة وحفظتها في دفعة واحدة منها سبحان والكهف وص ومنها أني تفكرت في الموضع الذي أقصده حيث نبت بي البلاد فاظلتني غمامة وخوطبت منها فقيل لي اقصد البصرة الى غير ذلك من مقالاته المخترعة وفي تاريخ الخلفاء للجلال السيوطي أنه ادعى أنه أرسل الى الخلق فرد الرسالة وكان له منبر يصعد اليه و يسب عثمان وعليا ومعاوية والزبير وطلحة وعائشة وفي تاريخ ابن الأثير وابن خلدون أنه كان يرى رأي الخوارج وهذا يبطل انتسابه الى العلويين وكان أول ظهوره للناس سنة خمس وخمسين ومائتين وكان في مبدأ أمره يدعو الغلمان من الزنوج الذين يسكنون السباخ في جهة البصرة فاجتمع له منهم خلق كثير وكان يعدهم بالعتق و يرغبهم في الاحسان فاذا جاء أحد من موالي الزنوج يطلبون عبيدهم يأمر كل عبدان يضرب مولاه ثم يحبسهم ثم يطلقهم فامتنع موالي الزنوج من طلب عبيدهم وكان يخطب العبيد وغيرهم ممن تبعه في كل وقت و يرغبهم ولم يزل هذا دأبه والزنوج يأتون اليه بكثرة و يتابعونه و يدخلون في أمره واتخذ له راية وكتب عليها قوله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة الآية فكثرت جيوشه واستحكم أمره وشن الغارات و بث أصحابه يمينا وشمالا للاغارة والنهب وسار بالجيش الى الابلة فخرجوا له بأربعة آلاف فهزمهم وملك الابلة ثم سار الى القادسية فلكها ونهبها فكثر عنده المال والسلاح فخرج جماعة من أهل البصرة لقتاله فهزمهم وقتل منهم وأخذ سلاحهم ثم خرج طائفة أخرى فكذلك وأخرى فكذلك ثم خرج له قائدان من البصرة بجيش فهزمهما وقتل منهما وكان معهما سفن ألقتها الريح الى الشط فغنم مافيها

وكثر شغبه وفساده وجاء أبو هلال من قواد الاتراك فى أربعة آلاف مقاتل فلقيه فهزمه وقتل كثيرا من أصحابه ثم خرج اليه أبو منصور أحد موالى الهاشميين فى عسكر عظيم فهزمهم وكان من أعيان أصحابه يحيى بن محمد الازرق البصرانى وسليمان بن جامع وهو قائد جيشه وذكر ريحان أحد غلمان الشورجيين وهو أول من صحبه منهم أنه قال كنت موكلا بغلمان مولاى أنقل لهم الدقيق فأخذنى أصحابه فساروا بى اليه وأمرونى أن أسلم عليه بالامرة ففعلت فسألنى عن الموضع الذى جئت منه فأخبرته وسألنى عن أخبار البصرة فقلت لاعلم لى وسألنى عن غلمان الشورجيين وعن أحوالهم وما يجرى لهم فأعلمته فدعانى الى ما هو عليه فأجبته فأمرنى ان أحتال على من قدرت عليه من الغلمان الزنج وأقبل بهم عليه ووعدنى ان يجعلنى قائدا على من أتيته بهم فعدت اليه من الغداة وقد أتيته بجماعة من الزنج وجاء جماعة مع غلمان الدباشين ومازال يدعو غلمان أهل البصرة وغيرهم فيقبلون اليه للخلاص من الرق والتعب فاجتمع عنده خلق كثير منهم فخطبهم ووعدهم ان يجعلهم قوادا ويملكهم الاموال وحلف لهم بالايمان أن لا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيأ من الاحسان اليهم ولمن أتى به وجاء اليه بعض موالى العبيد وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم لكل منهم عبده فبطح أولئك الموالى وأمر كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم كل سيد خمسمائة سوط وكان اذا خطب العبيد يذكرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء الحال وان الله تعالى أبعدهم من ذلك وانه يريد ان يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والاموال وجاءه مرة رجل من رؤساء الزنج يكنى بأبى صالح بثلاثمائة من الزنج فلما كثروا جعل القواد فيهم منهم وقال لهم كل من أتى منكم برجل فهو مضموم اليه ومازالت جيوشه تكثر من الزنج وغيرهم حتى بلغت ألوفا مؤلفة وأعدادا لا تحصى فشن الغارات على القرى والامصار وأكثر القتل والنهب وجهز له الخليفة الجيوش الكثيرة المرة بعد الاخرى وهو يهزم تلك الجيوش ويقتل كثيرا منها ويسبى من القرى والامصار النساء والذرية ومازال أمره هكذا أربع عشرة سنة حتى ظفروا به وقتلوه

واضمحل أمره قال الجلال السيوطى فى تاريخ الخلفاء استمر القتال مع صاحب الزنج من حين تولى المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد سنة ست وخمسين ومائتين الى سنة سبعين ومائتين فقتل فيها رئيس الزنج لعنه الله قال وذكر الصولى ان الذين قتلهم من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف انسان وقتل باليوم الواحد بالبصرة ثلاثمائة ألف ولما قوى أمر صاحب الزنج صار المباشر لقتاله وقيادة الجيوش الموفق طلحة بن المتوكل وهو أخو الخليفة المعتمد على الله بن المتوكل وباشر معه أيضا القيادة بعض تلك الجيوش ابنه أبو العباس أحمد الذى صار بعد المعتمد على الله خليفة ولقب بالمعتضد قال المسعودى فى تاريخه المسمى مروج الذهب شخص الموفق لمحاربة صاحب الزنج فى صفر سنة سبع وسبعين ومائتين وقدم الموفق ابنه أبا العباس فى ربيع الآخر الى سوق الجيش وقيادته وكان رجل يقال له الشعرانى من أصحاب صاحب الزنج قد تحصن فى جمع كثير من الزنج ففتح أبو العباس بن الموفق هذا الموضع وغنم جميع ما كان فيه ثم فتح مواضع كثيرة وقتل من كان فيها من الزنج وسار الموفق الى الاهواز فأصلح ما أفسده الزنج ثم عاد الى البصرة فلم يزل منازلا لصاحب الزنج حتى قتل فكانت مدة أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر يقتل الصغير والكبير والذكر والانثى ويحرق ويخرب وقد كان أتى البصرة فى وقعة واحدة من وقايعه فقتل ثلاثمائة ألف من الناس وكان المهلبى من أصحاب صاحب الزنج بعد هذه الوقعة بالبصرة فنصب منبرا وكان يصلى يوم الجمعة بالناس ويخطب على ذلك المنبر ويدعو لصاحب الزنج ويلعن جبابرة بنى العباس وكثيرا من الصحابة فاجتمع من بقى من أهل البصرة وأرادوا الخروج على المهلبى ليقتلوه فعلم بهم فوضع السيف فيهم فمن ناج سالم ومن مقتول ومن غريق واختفى كثير من الناس فى الدور والآبار فكانوا يظهرون فى الليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها فيأكلونها والفيران والسنانير فأفنوها حتى لم يقدروا منها على شئ فكانوا اذا مات منهم الواحد أكلوه وعدموا مع ذلك الماء العذب وذكر عن امرأة منهم انها حضرت امرأة

تنازع وعندها أختها وقد احتوشوها ينظرون ان تموت فيأكلون لحمها قالت المرأة فما ماتت حتى ابتدرنا فقطعناها وأكلناها ولقد حضرت أختها ثم جاءت وهي تبكي ومعها رأس أختها فقيل لها ويحك مالك تبكين قالت اجتمعوا على أختي فما تركوها حتى تموت موتا حسنا حتى قطعوها فظلموني فلم يعطوني من لحمها شيأ الا رأسها هذا وهي تشتكي ظلمهم لها في أختها ومثل هذا كثير وأعظم مما وصفنا ثم قال المسعودي وبلغ من أمر عسكر صاحب الزنج أنه كان ينادي فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس فتباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة وينادي عليها بنسبها هذه فلانة ابنة فلان الفلاني ولكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف ولقد استغاثت الى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما كانت عند بعض الزنج وسألته أن ينقلها منه الى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه فقال هو مولاك وأولى بك من غيره ثم قال المسعودي وقد تكلم الناس في مقدار ما قتل في هذه السنين من الناس فمكثر ومقلل فأما المكثر فانه يقول أفنى من الناس ما لا يدركه العد ولا يقع عليه الاحصاء ولا يعلم ذلك إلا الله تعالى عالم الغيب فيما فتح من هذه الأمصار والبلدان والضياع وأباد أهلها والمقلل يقول أفنى من الناس خمسمائة ألف ألف انتهى وقال الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء ولما قتل هذا الخبيث لعنه الله تعالى أتى برأسه على رمح ودخلوا به بغداد وعملت الزينة وضج الناس بالدعاء للموفق طلحة ومدحه الشعراء وكان يوما مشهودا وتراجع الناس الى المدائن التي كان أخذها وهي كثيرة كواسط والبصرة وغيرهما انتهى وبالجملة فان هذه القضية كانت مصيبة عظمى على أهل الاسلام هذا تلخيص قصة صاحب الزنج باختصار وان أردت تفصيل الوقايع والحروب التي كانت لهذه القصة في تلك السنين فانظرها في التواريخ تجدها مبسوطة والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر ملك الروم لؤلؤة ﴾

فى سنة ثلاث وستين ومائتين سلمت الصقالبة لؤلؤة الى الروم وهى قلعة للصقالبة وكان سبب ذلك أن أحمد بن طولون قد أدمن الغزو بطرسوس قبل أن يلى مصر فلما ولى مصر سنة خمس وخمسين كان يؤثر أن يلى طرسوس ليغزو منها أميرا فلم يجب الى ذلك وكان العمال الذين يأتون الى طرسوس يسيئون السير وآل الأمر الى استيلاء الروم على القلعة المذكورة فشق ذلك على أهل طرسوس لأنها كانت شجى فى حلق العدو ولم يكن يخرج الروم فى برأو بحر الارأوه وأنذروا به واتصل الخبر بالمعتمد على الله فقلد طرسوس أحمد بن طولون واستعمل عليها من يقوم بغزو العدو ويحفظ ذلك الثغر ويقيم الجهاد * وفى هذه السنة سير محمد صاحب الأندلس ابنه المنذر فى جيش كبير وجعل طريقه على ماردة فلما جاوزها الى أرض العدو تبعه تسعمائة فارس من العسكر فخرج عليهم جمع كثير من الفرنج فاقتتلوا قتالا كثيرا صبروا فيه وقتل من الفرنج عدد كثير ثم استظهر المشركون على التسعمائة فوضعوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم أكرمهم الله بالشهادة * وفى سنة أربع وستين غزا الصائفة عبد الله بن رشيد بن كاووس فى أربعين ألفا من أهل الثغور الشامية فأثخن فى الروم وغنم ورجع فلما رحل عن البذندون خرج عليه جمع من الروم فأحاطوا بالمسلمين فاستمات المسلمون ونزلوا وعرقبوا دوابهم وقاتلوا حتى قتلوا إلا خمسمائة فانهم حملوا حملة رجل واحد ونجوا على دوابهم وقتل الروم من قتلوا وأسروا عبد الله بن رشيد بعد ضربات أصابته وحمل الى ملك الروم فبعث به الى أحمد بن طولون صاحب مصر ومعه كثير من الاسرى وأهدى لابن طولون عدة مصاحف

﴿ ذكر ملك المسلمين مدينة سرقوسة ﴾

فى سنة أربع وستين ومائتين ملك المسلمون سرقوسة وهى من أعظم مدائن صقلية وكان سبب ملكها أن جعفر بن محمد أمير صقلية غزاها فأفسد زرعها وزرع ما حولها من بلاد صقلية التى بأرض الروم ونازل سرقوسة وحصرها برا

وبحرا وملك بعض أرباضها فوصل مراكب الروم نجدة لها فسير اليها أسطولا فأصابوها فتمكنوا حينئذ من حصرها فأقام العسكر محاصرا لها تسعة أشهر وفتحت عنوة وقتل من أهلها عدة ألوف وأصيب فيها من الغنائم مالم يصب بمدينة أخرى ولم ينج من رجالها إلا الفذ النادر وأقاموا فيها بعد فتحها شهرين ثم هدموها ثم وصل بعد هدمها من القسطنطينية أسطول فالتقواهم والمسلمون فظفر بهم المسلمون وأخذوا منهم أربع قطع فقتلوا من فيها وانصرف المسلمون الى بلادهم وفى هذه السنة سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس ابنه المنذر فى جيش الى مدينة بنبلونة وجعل طريقه على سرقسطة فقاتل أهلها ثم انتقل الى تطيلة وجال فى مواضع ثم دخل بنبلونة فخرب كثيرا من حصونه وأذهب زروعه وعاد سالما ٭ وفى سنة خمس وستين خرج خمسة من بطارقة الروم الى اذنه فقتلوا وأسروا وقتلوا نحوا من ألف وأربعمائة وأسروا نحوا من أربعمائة وكان ارجوز والى الثغور فعزل عنها ٭ وفى سنة ست وستين ومائتين وردت سرية من الروم الى ديار ربيعة فأسرت نحوا من مائتين وخمسين انسانا ومثلت بالمسلمين فنفر اليهم أهل الموصل ونصيبين فرجعت الروم ٭ وفى هذه السنة لقى أسطول المسلمين أسطول الروم عند صقلية فظفر الروم بالمسلمين بعد قتال شديد ولحق من سلم منهم الى مدينة بلرم من صقلية ٭ وفى هذه السنة أيضا غزا عامل ابن طولون الثغور الشامية فى ثلاثمائة من أهل طرسوس واعترضهم أربعة آلاف من الروم فاقتتلوا قتالا شديدا وقتل المسلمون خلقا كثيرا من العدو وأصيب من المسلمين جماعة ٭ وفى سنة سبع وستين ولى جزيرة صقلية الحسن بن العباس فبعث السرايا الى كل ناحية وخرج الى قطانية فأفسد زرعها وزرع طبرمين وقطع أشجارها وسار الى بقارة فأفسد زرعها وانصرف الى بلرم وأخرجت الروم سرايا فأصابوا من المسلمين كثيرا ٭ وفى سنة ثمان وستين سارت سرية من صقلية فلقيهم جيش الروم فأصيب المسلمون كلهم غير سبعة نفر وعزل الحسن بن العباس عن صقلية ووليها محمد بن الفضل فبث السرايا فى كل ناحية من صقلية وخرج هو فى جيش عظيم

فسار الى مدينة قطانية فأهلك زرعها ثم رحل الى أصحاب الشلندية فقاتلهم فأصاب فيهم فأكثر القتل ثم رحل الى طبرمين فأفسد زرعها ثم رحل فلقي عسكر الروم فاقتتلوا وانهزم الروم وقتل أكثرهم فكانت عدة القتلى ثلاثة آلاف قتيل ووصلت رؤسهم الى بلرم ثم سار المسلمون الى قلعة كان الروم بنوها عن قريب وسموها مدينة الملك فلكها المسلمون عنوة وقتلوا مقاتلتها وسبوا من فيها * وفى هذه السنة خرج ملك الروم المعروف بابن الصقلية فنازل ملطية فأعانهم أهل مرعش والحدث فانهزم ملك الروم وغزا الصائفة من ناحية الثغور الشامية الفرغانى عامل ابن طولون فقتل من الروم بضعة عشر ألفا وغنم الناس فبلغ السهم أربعين دينارا * وفى سنة تسع وستين خرج محمد بن الفضل أمير صقلية فى عسكر الى ناحية رمطة و بلغ العسكر الى قطانية فقتل كثيرا من الروم وسبى وغنم ثم انصرف الى بلرم * وفى سنة سبعين زحف الروم فى مائة ألف ونزلوا قلمية على ستة أميال من طرسوس فخرج اليهم بازمار عامل طرسوس لابن طولون ليلا فبيتهم وقتل منهم سبعين ألفا وجماعة من البطارقة وقتل مقدمهم بطريق البطارقة وغنم منهم سبعة صلبان ذهب وفضة وكان أعظمها من ذهب مكللا بالجواهر وغنم خمسة عشر ألف دابة ومن السروج والسيوف مثل ذلك وأربعة كراسى من ذهب ومائتين من فضة وعشرين علما من الديباج وآنية كثيرة ونحوا من عشرة آلاف علم ديباج وديباجا كثيرا وغير ذلك * وفى هذه السنة أراد اسماعيل بن موسى أحد أمراء الأندلس بناء مدينة ماردة فلما سمع الفرنجى صاحب برشلونة جمع وحشد يريد منعه من ذلك فسمع به اسماعيل فقصده وقاتله وهزمه وقتل أكثرهم وبقى أكثر القتلى فى تلك الأرض دهرا طويلا * وفى سنة احدى وسبعين سارت سرية للمسلمين بصقلية الى رمطة فخرجت وغنمت وسبت وأسرت كثيرا وعادت وسار جيش كثير من صقلية الى قطانية فأهلك ما فيها وسار الى طبرمين فقاتل أهلها وأفسد زرعها وتقدم فيها فأتى رسول بطريق الروم يطلب الهدنة والمفاداة فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه ثلاثمائة أسير من المسلمين

ورجع الجيش * وفى سنة اثنتين وسبعين غزا الصائفة بازمار وخرجت سرية من صقلية الى الروم الذين بها فغنمت وعادت وفيها قدم بطريق من القسطنطينية فى عسكر كبير فنزل على مدينة سبرينة فحصرها وضيق على من بها من المسلمين فسلموها على أمان ولحقوا بصقلية ثم سار عسكر البطريق الى مدينة منتية فحصروها حتى سلمها أهلها بالامان * وفى سنة ثلاث وسبعين غزا بالصائفة بازمار وتوغل فى أرض الروم وقتل وغنم وأسر وسبى وعاد الى طرسوس وفيها توفى محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس ومدة ملكه أربع وثلاثون سنة وولى بعده ابنه المنذر وتوفى بعد سنة وأحد عشر شهرا وبويع أخوه عبد الله .

﴿ ذكر غزو الروم ووفاة بازمار ﴾

فى سنة ثمان وسبعين خرج بازمار غازيا فى جيش فبلغوا اشكند ونازلوها فاصاب بازمار شظية من حجر منجنيق فرجع ومات فى الطريق ودفن بطرسوس * وفى سنة تسع وسبعين توفى المعتمد على الله وبويع المعتضد بن الموفق بن المتوكل * وفى سنة ثمانين غزا اسماعيل بن أحمد السامانى صاحب خراسان بلاد الترك وافتتح مدينة ملكهم وأسر أباه وامرأته خاتون ونحوا من عشرة آلاف وقتل منهم خلقا كثيرا وغنم من الدواب مالا يحصى وأصاب الفارس من الغنيمة ألف درهم * وفى سنة احدى وثمانين غزا المسلمون الروم فدامت الحرب بينهم اثنى عشر يوما فظفر المسلمون وغنموا غنيمة كثيرة وعادوا

﴿ ذكر حصر الصقالبة القسطنطينية ﴾

فى سنة ثلاث وثمانين سارت الصقالبة الى الروم فحصروا القسطنطينية وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا وخربوا البلاد فلم يجد ملك الروم منهم خلاصا فجمع من عنده من أسارى المسلمين وأعطاهم السلاح وسألهم معونته على الصقالبة ففعلوا لكون الصقالبة كفارا فكشفوا الصقالبة وأزاحوهم عن القسطنطينية ولما رأى ملك الروم ذلك خاف من المسلمين على نفسه فردهم وأخذ السلاح منهم وفرقهم فى البلاد حذرا من جنايتهم عليه وفى هذه السنة كان الفداء بين المسلمين

والروم فكان جملة من فدى من المسلمين الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس * وفى سنة خمس وثمانين غزا راغب مولى الموفق فى البحر فغنم مراكب كثيرة فضرب أعناق ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها وأحرق المراكب وفتح حصونا كثيرة وعاد سالما وفيها غزا ابن الاخشيد صاحب مصر بأهل طرسوس ففتح الله على يديه وبلغ اسكندرونة * وفى سنة سبع وثمانين غزا أبو العباس أحمد بن الاغلب مدينة بلرم براو بحرا فخرج اليه أهلها فقاتلوه ثم انهزموا ووقع القتل فيهم وملك البلد ثم رحل الى طبرمين فقطع كرومها وقاتلوهم ثم رحل الى قطانية فحصرها فلم ينل منها غرضا فرجع الى صقلية الى أن دخلت سنة ثمان وثمانين فتجهز للغزو وطاب الزمان وعمر الاسطول وسيره الى قطانية ونصب عليها المجانيق وأقام أياما ثم انصرف الى مسيني وجاز الى ريو وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلهم على باب المدينة وهزمهم وملك المدينة بالسيف وغنم من الذهب والفضة مالا يحد وشحن المراكب بالدقيق والامتعة ورجع الى مسيني وهدم سورها ووجد بها مراكب وصلت من القسطنطينية فأخذ منها ثلاثين مركبا ورجع الى المدينة * وفى سنة ثمان وثمانين ومائتين سير المعتضد جيشا الى صائفة الروم ففتحوا حصونا كثيرة ورجعوا بأسرى كثيرة ثم ان الروم ساروا فى البر والبحر الى ناحية كيسوم فأخذوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر ألفا وعادوا * وفى سنة تسع وثمانين توفى المعتضد وبويع ابنه المكتفى * وفى سنة احدى وتسعين ومائتين خرجت الترك فى خلق كثير الى ما وراء النهر فوجه اليهم صاحب خراسان اسماعيل السامانى جيشا كثيرا وتبعهم من المتطوعة خلق كثير فساروا نحو الترك فوصلوا اليهم وهم غارون فكبسهم المسلمون مع الصبح وقتلوا منهم خلقا عظيما لا يحصون وانهزم الباقون واستبيح عسكرهم وعاد المسلمون سالمين غانمين * وفى هذه السنة خرج من الروم مائة ألف عشرة صلبان مع كل صليب عشرة آلاف الى الثغور فقصد جماعة منهم الحدث (بلدة الروم) فأغاروا وسبوا وأحرقوا وفى هذه السنة غزا من طرسوس القائد المعروف بغلام زرافة ففتح مدينة

انطاكية بالسيف وقتل خمسة آلاف من الروم وأسر مثلهم واستنقذ من الاسارى خمسة آلاف وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع فقسمها مع غنائم انطاكية فكان السهم ألف دينار * وفى سنة اثنتين وتسعين أغار الروم على مرعش ونواحيها فنفر أهل المصيصة وأهل طرسوس وأجلوهم وأصيب جماعة من المسلمين * وفى هذه السنة كان الفداء فكان جملة من فودى من أسرى المسلمين ألف نفس ومائتى نفس وفى سنة ثلاث وتسعين أغارت الروم على قورس من أعمال حلب فقاتلهم أهلها قتالا شديدا ثم انهزموا وقتل الروم أكثرهم ودخل الروم قورس فاحرقوا جامعها وساقوا من بقى من أهلها * وفى سنة أربع وتسعين غزا ابن كيغلغ من طرسوس فأصاب من الروم أربعة آلاف رأس سبى ودواب ومتاع ودخل بطريق من بطارقة الروم فى الامان وأسلم * وفيها أيضا غزا ابن كيغلغ فبلغ شكند وفتح الله عليه وسار الى الليس فغنموا نحوا من خمسين ألف رأس وقتلوا مقتلة عظيمة من الروم وانصرفوا سالمين وكان بطريق على حرب أهل الثغور من قبل ملك الروم فأرسل ذلك البطريق الى المكتفى يطلب الامان فاعطاه فخرج من حصنه ومعه مائتا أسير من المسلمين كانوا معه فى الحصن وكان ملك الروم أرسل ليقبض عليه فاعطى المسلمين سلاحا فخرجوا معه وقبضوا على الذين أرسلهم ملك الروم ليقبضوا عليه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا ما فى عسكرهم فاجتمعت الروم لمحاربة البطريق فسار اليهم جمع من المسلمين ليخلصوه ومن معه من أسرى المسلمين فبلغوا اقونية فبلغ الخبر الى الروم فانصرفوا عنه فانصرف البطريق ومن معه الى بغداد وأخرب المسلمون قونية وأرسل ملك الروم الى الخليفة المكتفى فطلب الفداء * وفى سنة ثلاث وتسعين افتتح اسماعيل السامانى صاحب خراسان مدائن كثيرة من بلاد الترك والديلم * وفى سنة خمس وتسعين توفى المكتفى وبويع أخوه المقتدر بن المعتضد * وفى هذه السنة فودى من المسلمين ثلاثة آلاف نفس رجالا ونساء * وفى سنة ست وتسعين كان ابتداء دولة العبيديين بافريقية وتفصيل ذلك طويل مذكور فى

التواريخ * وفى هذه السنة بعث المقتدر جيشاً لغزو الروم وعليه مؤنس الخادم فظفر وغنم وأسر منهم جماعة وعاد * وفى سنة سبع وتسعين وجه المقتدر القائد ابن سيما لغزو الصائفة وكذا فى سنة ثمان وتسعين * وفى سنة تسع وتسعين غزا الصائفة رستم أمير الثغور من ناحية طرسوس فحصر حصن مليح الارمنى ثم دخل بلده وأحرقها * وفى سنة ثلاثمائة توفى عبد الله بن محمد صاحب الأندلس وبويع حفيده عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله واستمر عبد الرحمن الناصر خمسين سنة وهو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين لما رأوا ظهور الضعف فى خلفاء بنى العباس وكانوا قبل ذلك يقال لمن ولى منهم الأمير فلان وغزا عبد الرحمن الناصر فى بلاد الفرنج غزوات كثيرة وأثخن فيهم حتى خضعوا له وصاروا يهادونه ويلتمسون رضاه وتفصيل غزواته يطول الكلام بذكرها وسيأتى ذكر شيء منها * وفى سنة اثنتين وثلاثمائة سار الوزير للمقتدر على بن عيسى لغزو الصائفة فلم يتيسر له فغزاها ثانية فى برد شديد وثلج وغزا أيضاً بشر الخادم والى طرسوس بلاد الروم ففتح فيها وغنم وسبى وأسر مائة وخمسين بطريقا وكان السبى نحوا من ألفى رأس * وفى سنة ثلاث وثلاثمائة أغارت الروم على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم وظهرت الروم أيضاً فأوقعوا بجماعة من مقاتلة طرسوس والغزاة فقتلوا منهم نحو ستمائة فارس ولم تكن للمسلمين صائفة فى هذه السنة لكثرة الفتن فى بغداد فى مدة المقتدر وفيها خرج مليح الأرمنى الى مرعش فعاث فى بلدها وأسر جماعة ممن حولها وعاد * وفى سنة أربع وثلاثمائة سار مؤنس الخادم الى بلاد الروم لغزو الصائفة بجيوش كثيرة وفتح حصونا كثيرة من الروم وعاد فأكرمه المقتدر وخلع عليه * وفى سنة خمس وثلاثمائة جاءت رسل من ملك الروم للخليفة المقتدر يطلبون المهادنة والفداء فأجيبوا الى ذلك وأنفذ المقتدر مع مؤنس للفداء مائة ألف وعشرين ألف دينار وكان قبل ذلك عقد لثمال الخادم على الغزاة فى بحر الروم وسار وكان قبل ذلك أيضاً غزا جنى الصفوانى بلاد الروم فغنم ونهب

وسبى وعادسالما فقرئت الكتب على المنابر ببغداد بذلك ثم جاءت رسل ملك الروم بطلب الهدنة * وفى سنة ثلاثمائة وثمان غزا عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس الى جليقية فاستنجد عليه ملوك الافرنج بعضهم بعضا فهزمهم ووطئ بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب الحصون * وفى سنة ثنتى عشرة وثلاثمائة غزا بنبلونة وفعل أكثر من ذلك وله غزوات غيرها يطول الكلام بذكرها واجلالقة هم الاسبنيول * وفى سنة عشر انقضت الهدنة التى كانت بين المقتدر وملك الروم فغزا المسلمون فى البر والبحر فغنموا وسلموا ودخل أهل طرسوس ملطية فظفروا وبلغوا من بلاد الروم والظفر بهم مالم يظنوه وعادوا * وفى سنة احدى عشرة غزا مؤنس بلاد الروم فغنم وفتح حصونا وغزا ثمال أيضا فى البحر فغنم من السبى ألف رأس ومن الدواب ثمانية آلاف رأس ومن الغنم مائتى ألف رأس ومن الذهب والفضة شيأ كثيرا * وفى سنة ثنتى عشرة جاء رسول ملك الروم بهدايا يطلب الهدنة وتقرير الفداء فأجيب الى ذلك ثم غدروا بالصائفة فدخل المسلمون بلاد الروم فأثخنوا ونهبوا وسبوا وعادوا * وفى سنة ثلاث عشرة كتب ملك الروم الى أهل الثغور يأمرهم بحمل الخراج فان فعلوا والا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذرية وقال اننى قد صح عندى ضعف ولاتكم فلم يفعلوا ذلك فسار اليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية وأخربها وسبى منها سنة أربع عشرة وفتح الروم أبوابا من الربض فدخلوا فقاتلهم أهلها وأخرجوهم وخربوا قرى كثيرة من قراها ونبشوا الموتى ومثلوا بهم وقصد أهل ملطية بغداد مستغيثين فلم يغاثوا فعادوا بغير فائدة وغزا أهل طرسوس صائفة فغنموا وعادوا

﴿ ذكر حرب بين المسلمين والروم ﴾

فى سنة خمس عشرة وثلاثمائة خرجت سرية من طرسوس الى بلاد الروم فوقع عليها العدو فاقتتلوا فاستظهر الروم وأسروا من المسلمين أربعمائة رجل فقتلوا صبرا وسار الدمستق فى جيش عظيم الى مدينة دبيل فحاصرها وضيق عليها والدمستق عندهم ملك عظيم يلى بلاد الروم التى هى شرقى دجلة القسطنطينية

ويكون تحت أمر الملك الذى فى القسطنطينية وكان مع الدمستق دبابات ومجانيق ومزاريق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها أحد وكان الرامى بها من أشجعهم فرماه رجل من المسلمين بسهم فقتله وأراح الله المسلمين منه وكان الدمستق يجلس على كرسى عال ليشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على ما يراه فصبر له أهل البلد وهو ملازم للقتال حتى وصلوا الى سور المدينة فنقبوا فيه نقوبا كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها ومن فيها من العسكر قتالا شديدا فانتصر المسلمون وأخرجوا الروم منها وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل * وفى هذه السنة أيضا غزا ثمال الصائفة من طرسوس ولقى جمعا كثيرا من الروم فاقتتلوا فانتصر المسلمون عليهم وقتلوا من الروم كثيرا وغنموا فى أنعامهم وغنموا ثلاثمائة رأس من الغنم ولقيهم رجل من رؤساء الاكراد يعرف بابن الضحاك وكان له حصن يعرف بالجعفرى وكان قد ارتد عن الاسلام وتنصر وسار الى ملك الروم وخدمه فأجزل له القطيعة وأمره بالعود الى حصنه فلقيه المسلمون فقاتلوه فأسروه وقتلوا كل من معه * وفى سنة ست عشرة وثلاثمائة خرج الدمستق فى عساكر الروم فحاصر خلاط وملكها صلحا وجعل الصليب فى جامعها ورحل الى بدليس ففعل بها كذلك وخاف أهل ارزن وغيرهم ففارقوا بلادهم وانحدر أعيانهم الى بغداد واستغاثوا الى الخليفة فلم يغاثوا * وفى هذه السنة وصل سبعمائة رجل من الروم والأرمن الى ملطية ومعهم الفؤس والمعاول وأظهروا أنهم يتكسبون بالعمل ثم ظهر أن مليحا الأرمنى وضعهم ليكونوا بها فاذا حصرها سلموها اليه فعلم بهم أهل ملطية فقتلوهم وأخذوا ما معهم * وفى سنة سبع عشرة خلع المقتدر وبويع أخوه القاهر ثم بعد يومين أعيد المقتدر وخلع القاهر وكانت هذه الفتنة هائلة وبسببها ضعفت الثغور الجزرية عن دفع الروم عنهم منها ملطية وميافارقين وآمد وارزن وغيرها وعزموا على طاعة ملك الروم والتسليم اليه لعجز الخليفة المقتدر بالله عن نصرهم وأرسلوا الى بغداد يستأذنون فى التسليم ويذكرون عجزهم ويستمدون العساكر لتمنع عنهم فلم يحصلوا على

فائدة فعادوا فصالحوا الروم وملكوهم البلاد * وفى سنة سبع عشرة أيضا كان دخول القرامطة مكة يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة فنهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت نفسه وقلعوا الحجر الاسود وأنفذوه الى هجر وقلعوا باب البيت وأصعدوا رجلا ليقلع الميزاب وكان من ذهب فأصيب بسهم من جبل أبى قبيس فما أخطأ نحره وخر ميتا فاصعد وآخر مكانه فسقط من فوق الى أسفل على رأسه ومات فهاب الثالث الاقدام على القلع فتركوا قلع الميزاب وكان جملة من قتلوه من الطائفين والمصلين والمحرمين فى مكة وشعابها زهاء ثلاثين ألفا وسبوا من النساء والذرية مثل ذلك وتلك مصيبة ما أصيب الاسلام بمثلها وكان رئيسهم عدو الله المكنى بأبى طاهر وركض عند الكعبة فرسه وسيفه مشهور بيده وصفر لفرسه عند البيت الشريف فبال وراث قيل ان الذين قتلهم فى المطاف ألف وسبعمائة وملأ بئر زمزم من رؤسهم والكلام على هذه القصة وغيرها من وقائعهم طويل مذكور فى التواريخ وقاتلهم خلفاء بنى العباس ولهم معهم وقائع كثيرة (وكان ابتداء ظهورهم) سنة ثمان وسبعين ومائتين ولهم عقائد قبيحة يكفرون بها وان كانوا يدعون الاسلام ويزعمون أنهم يدعون الناس للبيعة للمهدى المنتظر وزعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وكل ذلك زور وباطل قال ابن الأثير ولم يكن لمحمد بن اسماعيل ولد اسمه عبد الله ومكث الحجر الاسود عندهم فى هجر اثنتين وعشرين سنة وكانوا يريدون تحويل الحج الى هجر فلما أيسوا من ذلك رجعوه الى موضعه من البيت وكان ذلك فى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وابتلى أبو طاهر رئيسهم بداء الأكلة فصار يتناثر لحمه بالدود وتقطعت أوصاله وطال عذابه ومات شر ميتة ولعذاب الآخرة أشد وأبقى وانما ذكرنا هذه القصة لأن قتال هؤلاء وما فعلوه ملحق بقتال الكفار وأفعالهم ولا عبرة بكونهم يدعون الاسلام فانهم كانوا يستبيحون دماء المسلمين ويرون ضلال كافة المسلمين ومن عقائدهم الزائغة المكفرة أن الصلاة ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها فقط

وان النبيذ حرام والخمر حلال ولا غسل من الجنابة الا الوضوء كوضوء الصلاة وأن محمد بن الحنفية رسول الله بعد النبي صلى الله عليه وسلم الى غير ذلك من ضلالاتهم واستمرت شوكتهم الى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ثم اضمحل أمرهم شيأ فشيأ حتى لم يبق لهم دولة

﴿ تنبيه ﴾

يوجد على وجه الحجر الاسود قطع كانت تكسرت منه ثم الصقت به واشتهر على ألسنة كثير من الناس أن سبب تكسر هذه القطع من القرامطة لما أخرجوا الحجر الأسود وليس الامر كذلك بل سبب تكسرها ماذكره السنجارى فى تاريخ مكة ونص عبارته فى سنة أربعمائة وأربع عشرة يوم النفر الاول وكان جمعة دخل المسجد رجل أشقر بيده سيف مسلول ودبوس من حديد فتقدم بعد أن فرغ الامام من صلاة الجمعة وقصد الحجر الاسود فضربه بالدبوس ثلاث مرات وقال الى متى يعبد هذا الحجر ومحمد وعلى فليمنعنى مانع من هذا فانى أريد رب هذا البيت فخافه أكثر الحاضرين وكاد يهرب فثار اليه رجل فضربه بخنجر فقتله وقطعه الناس بالسلاح ثم أحرقوه فحصل فى الحجر الاسود شظب وخرج منه قطع صغار فأعادها سدنة الكعبة وأمير مكة وألصقوها باللك فصارت آثار ذلك باقية الى الآن اه ولنرجع الى ما كنا بصدده * وفى سنة تسع عشرة وثلاثمائة غزا ثمال والى طرسوس بلاد الروم فعبر نهرا ونزل عليهم ثلج الى صدور الخيل وأتاهم جمع كثير من الروم فواقعوهم فنصر الله المسلمين فقتلوا من الروم ستمائة وأسروا نحوا من ثلاثة آلاف وغنموا من الذهب والفضة والديباج وغيره شيأ كثيرا وعاد ثمال الى طرسوس ودخل بلاد الروم صائفة فى جمع كثير من الفارس والراجل فبلغوا عمورية وكان قد تجمع بها كثير من الروم ففارقوها لما سمعوا خبر ثمال ودخل المسلمون فوجدوا فيها من الطعام والامتعة شيأ كثيرا فأخذوا وأحرقوا ما كانوا عمروه منها وأوغلوا فى بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويخربون حتى بلغوا أنقرة وهى التى تسمى الآن انكورية وعادوا سالمين ولم يلقوا كيدا فبلغت قيمة السبى مائة ألف دينار وستة وثلاثين ألف دينار * وفى هذه السنة

كاتب ابن الديرانى وغيره من الارمن وهم بأطراف ارمينية الروم وحثوهم على قصد بلاد الاسلام ووعدوهم النصر فسارت الروم فى خلق كثير فخربوا بذكرى وبلاد خلاط وماجاورها وقتل من المسلمين خلق كثير وأسروا كثيرا منهم فبلغ خبرهم مفلحا غلام يوسف بن أبى الساج وهو والى أذربيجان فسار فى عسكر كبير وتبعه كثير من المتطوعة الى أرمينية وقصد بلد ابن الديرانى ومن وافقه فخربه وقتل أهله ونهب أموالهم وبالغ الناس فى كثرة القتلى من الارمن حتى قيل انهم كانوا مائة ألف قتيل والله أعلم وتحصن ابن الديرانى بقلعة له وفى هذه السنة أيضا سارت الروم الى سميساط فحصروها فاستصرخ أهلها بسعيد بن حمدان صاحب الموصل وديار ربيعة فتجهز وسار مسرعا اليهم وقد كاد الروم يفتحونها فلما قاربهم هربوا منه فسار الى ملطية وكان أهلها قد ضعفوا فصالحوا الروم وسلموا مفاتيح البلد اليهم فحكموا على المسلمين وكان فى ملطية جمع من الروم ومن عسكر مليح الارمنى ومعهم بنى ابن نفيس صاحب المقتدر وكان قد تنصر وهو مع الروم فلما أحسوا باقبال سعيد خرجوا منها وخافوا أن يأتيهم سعيد بن حمدان فى عسكره من خارج المدينة ويثور أهلها بهم فيهلكوا ففارقوها ودخلها سعيد ثم استخلف عليها أميرا وعاد عنها ودخل بلاد الروم غازيا وقدم بين يديه سريتين فقتلا من الروم خلقا كثيرا قبل دخوله اليها وفى سنة عشرين قتل المقتدر

(استطراد) قال العلامة القطبى فى تاريخه كان المقتدر فى كل عام يصرف يوم عرفة من الابل والبقر أربعين ألف رأس ومن الغنم خمسين ألفا وكان يصرف فى كل سنة فى طريق مكة والحرمين ثلاثمائة ألف دينار وخمسة عشر ألف دينار وكان فى داره أحد عشر ألف غلام خصى غير الصقالبة والروم والسود وختن خمسة من أولاده فصرف فى ختانهم ستمائة ألف دينار وقدم مرة عليه رسل ملك الروم بهدايا لطلب الهدنة فعمل المقتدر موكبا عظيما لارهاب العدو فأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسلاح الكامل صفين من باب الشماسية الى دار الخلافة ببغداد لتمر الرسل بين الصفين فى هذه المسافة وأقام بعدهم الخدم وهم سبعة آلاف

خادم ثم الحجاب وهم سبعمائة حاجب ونصبت الستور على حيطان دار الخلافة فبلغت ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج وكانت البسط الفاخرة التى فرشت فى الارض اثنين وعشرين ألف بساط وفى الحضرة مائة سبع فى سلاسل الذهب والفضة وكان من جملة الزينة شجرة صيغت وصنعت من الذهب والفضة والجواهر وأغصانها تتمايل بحركات مصنوعة وعلى الاغصان طيور من ذهب وفضة ينفخ الريح فيها فيسمع لكل طير تغريد وصفير خاص وهذا بعد وهن الدولة العباسية وضعفها فكيف كانت زينتها فى أيام قوة دولتهم فى كمال وصفها فسبحان من لا يزول ولا يزال ولا يفنى ملكه ولا يعتريه الزوال ولا تغيره الشؤن ولا تحوله الاحوال وهو الله الكبير المتعال لا اله الا هو وحده لا شريك له ولا ضد ولا ند ولا مثال كوّن الاكوان وقدرها تقديرا الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا انتهى * ولنذكر قصة قتل المقتدر فان فيها اعتبار الكل من كانت له بصيرة وهى تدل على هوان الدنيا وخسة قدرها عند الله تعالى وذوى البصائر من عباده * وحاصلها أن مؤنسا الخادم كان عبدا خصيا من عبيد المعتضد والد المقتدر فلما صارت الخلافة للمقتدر زاده فى رفعة القدر وولاه قيادة كثير من جيوشه وصار من أعظم وزرائه * وفى سنة عشرين وثلاثمائة حصلت وحشة بينه وبين المقتدر فسار مؤنس الى الموصل مغاضبا للمقتدر فاستولى المقتدر على أقطاع مؤنس وماله وأملاكه وأملاك أصحابه وكتب الى بنى حمدان أمراء الموصل بصد مؤنس عن الموصل وقتاله فجرى بين مؤنس وبينهم قتال فانتصر مؤنس واستولى على الموصل واجتمعت عليه العساكر من كل جهة فسار بهم الى جهة بغداد ثم لما وصل الى بغداد نزل عند باب الشماسية بجنوده فخرج المقتدر الى قتال مؤنس بمن بقى معه من العساكر لان كثيرا منهم انعزلوا عنه وانحدروا الى واسط ليكونوا مع مؤنس ولما خرج المقتدر للقتال كان بين يديه الفقهاء والقراء ومعهم المصاحف منشورة وعليه البردة النبوية ووقف على تل فألح عليه أصحابه بالتقدم الى القتال فتقدم ثم انهزمت أصحابه فلحق

المقتدر قوم من العسكر مغاربة فقال لهم ويحكم أنا الخليفة فقالوا قد عرفناك يا سفلة أنت خليفة ابليس فضربه واحد منهم بسيفه فسقط الى الارض فذبحوه وقطعوا رأسه ورفعوه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا ما عليه حتى سراويله وكشفت عورته ثم حفروا له في موضعه ودفنوه وعفى قبره وحملوا رأسه الى مؤنس وهو بالراشدية لم يشهد الحرب فلما رأى مؤنس رأس المقتدر لطم وجهه وبكى ثم ان القاهر أخا المقتدر لما بويع بعد قتل المقتدر وتمكن له الأمر قتل مؤنسا ولم تطل مدة القاهر بل خلع سنة اثنتين وعشرين وسملت عيناه وعاش دهرا طويلا أعمى محبوسا في دار الخلافة ثم أطلقوه وأهملوه فوقف يوما بجامع المنصور بين الصفوف وقال تصدقوا علي فأنا من قد عرفتم وذلك في أيام المستكفي ليشنع عليه فمنعوه من الخروج الى أن مات سنة تسع وثلاثين وعمره ثلاث وخمسون سنة ولما خلع القاهر بويع الراضي بن المقتدر وفي هذه السنة سار الدمستق الى سمياط في خمسين ألفا ونازل ملطية وحصرها مدة طويلة هلك أكثر أهلها بالجوع وضرب خيمتين على احداهما صليب وقال من أراد النصرانية انحاز الى خيمة الصليب ليرد اليه أهله وماله ومن أراد الاسلام انحاز الى الخيمة الاخرى وله الامان على نفسه ونبلغه مأمنه فانحاز أكثر المسلمين الى الخيمة التي عليها الصليب طمعا في أهلهم وأموالهم وسير مع الباقين بطريقا يبلغهم مأمنهم وفتحها بالامان ثم افتتحوا سمياط وخربوا أعمالها وأكثروا القتل وفعلوا الافاعيل الشنيعة وصار أكثر البلاد في أيديهم وفتحوا بلد جنوة ومروا بسردانية فأوقعوا بأهلها ثم مروا بقرقيسا من ساحل الشام فأحرقوا مراكبها وعادوا سالمين * وفي سنة ست وعشرين كان الفداء بين المسلمين والروم وكان عدة من فودي من المسلمين ستة آلاف وثلاثمائة أسير ما بين ذكر وأنثى * وفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة توفي الراضي وبويع أخوه المتقي بن المقتدر * وفي سنة ثلاثين وصل الروم الى قريب حلب ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا نحو خمسة عشر ألف انسان * وفي هذه السنة غزا الثمالي من ناحية طرسوس الى بلاد الروم فقتل وسبي

وغنم وعاد سالما وقد أسر عدة من بطارقتهم * وفي سنة احدى وثلاثين أرسل ملك الروم الى المتقي بالله يطلب منه منديلا يزعم ان المسيح مسح بها وجهه فصارت صورة وجهه فيه وانه في بيعة الرها وذكر أنه ان أرسل المنديل أطلق عددا كثيرا من أسارى المسلمين فأحضر المتقي لله القضاة والفقهاء واستفتاهم فاختلفوا فبعض رأى تسليمه الى الملك واطلاق الاسرى وبعض قال ان هذا المنديل لم يزل من قديم الدهر في بلاد الاسلام لم يطلبه ملك من ملوك الروم وفي دفعه اليهم غضاضة وكان في الجماعة علي بن عيسى الوزير فقال ان خلاص المسلمين من الاسر ومن الضر والضنك الذي هم فيه أولى من حفظ هذا المنديل فأمر الخليفة بتسليمه اليهم واطلاق الاسرى ففعل ذلك وأرسل الى الملك من يستلم الاسرى من بلاد الروم فاطلقوا

﴿ ذكر خروج الروسية على بلاد الاسلام ﴾

في سنة ثنتين وثلاثين خرجت طائفة من الروسية في البحر الى نواحي أذربيجان وركبوا في البحر في نهر الكر وهو نهر كبير فانتهوا الى مدينة بردعة فخرج اليهم نائب ملك الديلم بأذربيجان في جموع من الديلم والمتطوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل فلقوا الروس فلم يكن الا ساعة حتى انهزم المسلمون منهم وقتلوا عن آخرهم وتبعهم الروس الى البلد فهرب من كان له مركوب وترك البلد فنزله الروس ونادوا فيه بالامان وأقبلت العساكر الاسلامية من كل ناحية لقتالهم فكانت الروس تقاتلهم فلا يثبت المسلمون لهم وكان عامة البلد يخرجون ويرمون الروس بالحجارة ويصيحون بهم فينهاهم الروس عن ذلك فلم ينتهوا سوى العقلاء فانهم كفوا أنفسهم وسائر العامة والرعاع لا يضبطون أنفسهم فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه وان لا يقيموا بعد ثلاثة أيام فخرج من كان له ظهر يحمله وبقي أكثرهم بعد الاجل فوضع الروسية فيهم السلاح فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا بعد القتل بضع عشرة ألف نفس وجمعوا من بقي بالجامع وقالوا اشتروا أنفسكم والا قتلناكم وسعى لهم انسان نصراني فقرر على كل رجل عشرين درهما فلم يقبل منهم الا عقلاؤهم فلما رأى

الروس أنه لا يحصل منهم شيء قتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم الا الشريد وغنموا أموال أهلها واستعبدوا السبي واختاروا من النساء من استحسنوها

﴿ ذكر مسير المرزبان بن محمد بن مسافر ملك الديلم اليهم ﴾

لما فعل الروس بأهل بردعة ما ذكرناه استعظمه المسلمون وتنادوا بالنفير وجمع المرزبان بن محمد الناس واستنفرهم فبلغ عدة من معه ثلاثين ألفا وسار بهم فقاتلوهم فامتنعوا عليه فأمكن لهم بعض الايام فهزمهم وقتل أميرهم ونجا الباقون الى حصن البلد وحاصرهم المرزبان حتى هربوا من البلد وحملوا ما قدروا عليه وطهر الله البلد منهم . وملك الروس أيضا في هذه السنة رأس عين واستباحوها ثلاثا وقاتلهم الاعراب ففارقوها وكانوا ثمانين ألفا مع من سبق * وفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة خلع المتقي بن المستكفي بن المكتفي بن المعتضد ومكث سنة وأربعة أشهر ثم خلع وبويع المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة حين تغلب بنو بويه على الخلفاء . وبنو بويه كزبير ويقال أيضا بسكون الواو وفتح الياء ينتهي نسبهم الى ملوك الفرس وانما نسبوا الى الديلم لانهم طال مقامهم ببلادهم وخدموا كثيرا من عمال الخلفاء حتى صاروا قواد جيوش ثم تقوى أمرهم حتى تغلبوا على الخلفاء وصار الملك بأيديهم وليس للخلفاء الا الاسم والدعاء على المنابر وكتابة المناشير وكتابة أسمائهم على الدراهم والدنانير وأخبارهم طويلة مذكورة في التواريخ ودخل معز الدولة بن بويه بغداد بجيوشه سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وخلع الخليفة المستكفي بن المكتفي وأقام في الخلافة المطيع لله بن المقتدر وكان ابتداء ظهورهم سنة عشرين وثلاثمائة وما زالوا يتغلبون على ممالك بني العباس شيأ فشيأ حتى تغلبوا على بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وصاروا يتوارثون الملك بالتغلب الى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة فقامت دولة السلجوقية وتغلبوا عليهم وعلى الخلفاء أيضا * وفي سنة خمس وثلاثين كان الفداء بالثغور بين المسلمين والروم على يد نصر الثملي أمير الثغور لسيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب وحمص وكان عدة الاسرى ألفين وأربعمائة أسير

وثمانين أسيرا من ذكر وأنثى وفضل للروم على المسلمين مائتان وثلاثون أسيرا لكثرة من معهم من الاسرى فوفاهم ذلك سيف الدولة ومن هذا التاريخ صار أمر الصوائف الى سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب وحمص * وفى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة غزا سيف الدولة بن حمدان بلد الروم فلقيه الروم واقتتلوا فانهزم سيف الدولة وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس * وفى سنة ثمان وثلاثين غزا سيف الدولة أيضا بلاد الروم وأوغل فيها وفتح حصونا كثيرة وسبى وغنم فلما أراد الخروج من بلاد الروم أخذوا عليه المضايق فهلك من كان معه من المسلمين أسرا وقتلا واسترد الروم الغنائم والسبى وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجا سيف الدولة فى عدة يسيرة

﴿ ذكر غزوة بصقلية ﴾

فى سنة أربعين غزا الروم بصقلية الحسن بن على الكلبى عامل المنصور العبيدى وجاءت جنود من القسطنطينية مددا للروم بصقلية فاقتتلوا مع المسلمين أشد القتال ثم انهزم الروم وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون الى الليل وغنموا جميع أثقالهم وسلاحهم ودوابهم * وفى سنة احدى وأربعين ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم وأخربوا المساجد * وفى سنة ثلاث وأربعين غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم فقتل وأسر وسبى وغنم وكان فيمن قتل قسطنطين بن الدمستق فعظم الامر على الروم وعلى الدمستق فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور فسار اليه سيف الدولة فالتقوا عند الحدث فاشتد القتال بينهم وصبر الفريقان ثم ان الله تعالى نصر المسلمين فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق كثير وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقته وعاد الدمستق مهزوما مسلولا * وفى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة سار سيف الدولة فى جيوش الى بلاد الروم وغزاها حتى بلغ خرشنة وصارخة وفتح عدة حصون وسبى وأسر وأحرق وخرب وأكثر القتل فيهم ورجع الى اذنة فأقام بها ثم رجع الى حلب فلما سمع الروم بما فعل جمعوا

وساروا الى ميافارقين وأحرقوا أسوارها ونهبوا وخربوا وسبوا أهلها ونهبوا أموالهم وعادوا * وفى هذه السنة سار الروم فى البحر فأوقعوا بأهل طرسوس وقتلوا منهم ألفا وثمانمائة رجل وأحرقوا القرى التى حولها وفعلوا مثل ذلك أيضا بطرسوس والرها سنة ثمان وأربعين * وفى سنة تسع وأربعين غزا سيف الدولة بلاد الروم فى جمع كثير فأثر فيها آثارا كثيرة وأحرق وفتح عدة حصون وأخذ من السبي والغنائم والأسرى شيأ كثيرا وبلغ الى خرشنة ثم ان الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس ان الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأى أن ترجع معنا فلم يقبل منهم وكان معجبا برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحدا لئلا يقال انه أصاب برأى غيره وعاد من الدرب الذى دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف فى أصحابه فأتوا عليهم قتلا وأسرا وتخلص هو فى ثلاثمائة رجل بعد جهد ومشقة وهذا من سوء رأى كل من يجهل آراء الناس العقلاء والله أعلم بالصواب * وفى سنة ثلاثمائة وخمسين سار قفل عظيم من انطاكية الى طرسوس ومعهم صاحب انطاكية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيها من المسلمين وقتل كثيرا منهم وأفلت صاحب انطاكية وبه جراحات * وفى هذه السنة غزا نجا غلام سيف الدولة بلاد الروم من ناحية ميافارقين وغنم ماقيمته قيمة عظيمة وسبي وأسر وخرج سالما

(ذكر استيلاء الروم على مدينة زربة وهو ثغر قرب المصيصة والمصيصة بلدة بالشام)

فى سنة احدى وخمسين وثلاثمائة نزل الروم مع الدمستق على عين زربة وهى فى سفح جبل عظيم وهو مشرف عليها وهم فى جمع عظيم فانفذ بعض عسكره فصعدوا الجبل فلكوه فلما رأى ذلك أهلها وان الدمستق قد ضيق عليه ومعه الدبابات وقد وصل الى السور وشرع فى النقب طلبوا الأمان فأمنهم الدمستق وفتح له باب المدينة فدخلها فرأى أصحابه الذين فى الجبل قد نزلوا الى المدينة فندم على اجابتهم الى الأمان ونادى فى البلد أول الليل بأن يخرج جميع أهله الى المسجد

الجامع ومن تأخر فى منزله قتل فخرج من أمكنه الخروج فلما أصبح أنفذ رجالته فى المدينة وكانوا ستين ألفا وأمرهم بقتل من وجدوه فى منزله فقتلوا خلقا كثيرا من الرجال والنساء والصبيان وأمر بجميع ما فى البلد من السلاح فجمع فكان شيأ كثيرا وأمر من فى المسجد أن يخرجوا من البلد حيث شاؤا يومهم ذلك ومن أمسى قتل فخرجوا مزدحمين فمات بالزحمة جماعة ومروا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون وماتوا فى الطرقات وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار وأخذوا كل ما خلفه الناس من أموالهم وأمتعتهم وهدموا سور المدينة وأقام الدمستق فى بلد الاسلام احدا وعشرين يوما وفتح حول عين زربة أربعة وخمسين حصنا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالامان وكان من جملة تلك الحصون التى فتحت بالامان حصن أمر أهله بالخروج منه فخرجوا فتعرض أحد الارمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة عظيمة فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق لذلك فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا أربعمائة رجل وقتل النساء والصبيان ولم يترك الامن يصلح أن يسترق فلما أدركه الزمن الذى يصوم فيه النصارى انصرف على أنه يعود بعد العيد وخلف جيشه بقيسارية وكان ابن الزيات صاحب طرسوس قد خرج فى أربعة آلاف رجل من الطرسوسيين فأوقع بهم الدمستق فقتل أكثرهم وقتل أخا لابن الزيات فعاد الى طرسوس وكان قد قطع الخطبة لسيف الدولة بن حمدان فلما أصابهم هذا الوهن أعاد أهل البلد الخطبة لسيف الدولة وأرسلوا اليه بذلك فلما علم ابن الزيات حقيقة الأمر صعد الى روشن فى داره فألقى نفسه الى نهر تحته فغرق وأرسل أهل بقراس الدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم

﴿ ذكر استيلاء الروم على مدينة حلب وعودهم منها بغير سبب ﴾

فى هذه السنة استولى الروم على مدينة حلب دون قلعتها وكان سبب ذلك أن الدمستق سار الى حلب ولم يشعر به المسلمون لانه كان قد خلف عسكره بقيسارية ودخل بلادهم كما ذكرناه فلما قضى صوم النصارى وخرج الى عسكره

من البلاد جريدة ولم يعلم به أحد وسار بهم فعند وصوله سبق خبره وكبس مدينة حلب ولم يعلم به سيف الدولة بن حمدان ولا غيره فلما بلغها وعلم سيف الدولة الخبر أعجله الأمر عن الجمع والاحتشاد فخرج اليه فيمن معه فقاتله فلم يكن له قوة الصبر لقلة من معه فقتل أكثرهم ولم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد قتلوا جميعهم فانهزم سيف الدولة فى نفر يسير وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين فوجد فيها لسيف الدولة ثلاثمائة بدرة من الدراهم وأخذ له ألفا وأربعمائة بغل ومن خزائن السلاح ما لا يحصى فأخذ الجميع وخرب الدار وملك الحاضر وحصر المدينة فقاتله أهلها وهدم الروم فى السور ثلمة فقاتلهم أهل حلب عليها فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها فلما جنهم الليل عمروها فلما رأى الروم ذلك تأخروا الى جبل جوشن ثم ان رجالة الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها فلحق الناس أموالهم ليمنعوها فخلا السور منهم فلما رأى الروم السور خاليا من الناس قصدوه وقربوا منه فلم يمنعهم أحد فصعدوا الى أعلاه فرأوا الفتنة قائمة فى البلد بين أهله فنزلوا وفتحوا الأبواب ودخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا ولم يرفعوا السيف الى أن تعبوا وضجروا وكان فى حلب ألف وأربعمائة من الأسارى فتخلصوا وأخذوا السلاح وقتلوا الناس وسبي من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا مالا يوصف كثرة فلما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه الغنيمة أمر الدمستق باحراق الباقى وأحرق المساجد وكان قد بذل لاهل البلد الامان على أن يسلموا اليه ثلاثة آلاف صبي وصبية ومالا ذكره وينصرف عنهم فلم يجيبوه الى ذلك فملكهم كما ذكرنا وكان عدة عسكره مائتي ألف رجل منهم ثلاثون ألفا بالجواشن وهى الصدر والدرع وثلاثون ألفا للهدم واصلاح الطرق من الثلج ومعه أربعة آلاف بغل تحمل الحسك الحديد وهى أداة للحرب من حديد لها شوك تلقى حول العسكر للحفظ من الدخول اليهم ولما دخل الروم البلد قصد الناس القلعة فمن دخلها نجا بحشاشة نفسه وأقام الدمستق تسعة أيام وأراد الانصراف عن البلد بما غنم

فقال له ابن أخت الملك وكان معه هذا البلد قد حصل فى أيدينا فليس من يدفعنا عنه فلأى سبب ننصرف عنه فقال له الدمستق قد بلغنا مالم يكن الملك يؤمله وغنمنا وقتلنا وخربنا وأحرقنا وخلصنا أسرانا وبلغنا مالم يسمع بمثله فتراجعا الكلام الى أن قال له الدمستق انزل على القلعة فحاصرها فاننى مقيم بعسكرى على باب المدينة فقدم ابن أخت الملك الى القلعة ومعه سيف وترس وتبعه الروم فلما قرب من باب القلعة ألقى عليه حجر فسقط ورمى بخشب فقتل فأخذه أصحابه وعادوا الى الدمستق فلما رآه قتيلا قتل من معه من أسرى المسلمين وكانوا ألفا ومائتى رجل وعاد الى بلاده ولم يعرض لسواد حلب وأمر أهله بالزراعة والعمارة ليعود اليهم بزعمه

﴿ ذكر فتح طبرمين من صقلية ﴾

وفى هذه السنة سارت جيوش المسلمين بصقلية وأميرهم حينئذ أحمد بن الحسن بن على بن أبى الحسن عامل العبيديين الى قلعة طبرمين من صقلية أيضا وهى بأيدى الروم فحاصروها وهى من أمنع الحصون وأشدها على المسلمين فامتنع أهلها ودام الحصار عليهم فلما رأى المسلمون ذلك عمدوا الى الماء الذى يدخلها فقطعوه عنها وأجروه الى مكان آخر فعظم الأمر عليهم وطلبوا الامان فلم يجابوا اليه فعادوا وطلبوا أن يؤمنوا على دمائهم ويكونوا رقيقا للمسلمين وأموالهم فيأ فأجيبوا الى ذلك وأخرجوا من البلد وملكه المسلمون وكان مدة الحصار سبعة أشهر ونصف وأسكن القلعة نفرا من المسلمين وسميت المعزية نسبة للمعز العبيدى صاحب افريقية وسار جيش الى رمطة مع الحسن بن عمار فحصروها وضيقوا عليها فلما رأى الروم ذلك خافوا وأرسلوا الى ملك القسطنطينية يعلمونه الحال ويطلبون منه أن ينجدهم بالعساكر فجهز اليهم عسكرا عظيما يزيدون على أربعين ألف مقاتل وسيرهم فى البحر فوصلت الاخبار الى الأمير أحمد أمير صقلية فأرسل الى المعز بافريقية يعرفه ذلك ويستمده ويسأله ارسال العساكر اليه سريعا وشرع هو فى اصلاح الاسطول والزيادة فيه وجمع الرجال المقاتلة فى البر والبحر وأما المعز فانه جمع الرجال وحشد وفرق فيهم الاموال الجليلة وسيرهم مع

الحسن بن علي والد أحمد فوصلوا الى صقلية في رمضان وساروا الى الذين يحاصرون رمطة فكانوا معهم على حصارها فأما الروم فانهم وصلوا أيضا الى مدينة صقلية في شوال ونزلوا عند مدينة مسيني وزحفوا منها بجموعهم التي لم يدخل صقلية مثلها الى رمطة فلما سمع الحسن بن عمار مقدم الجيش الذين يحاصرون رمطة ذلك جعل عليها طائفة من عسكره يمنعون من يخرج منها وبرز بالعساكر للقاء الروم وقد عزموا على الموت ووصل الروم وأحاطوا بالمسلمين ونزل أهل رمطة الى من يليهم ليأتوا المسلمين من ظهورهم فقاتلهم الذين جعلوا هناك لمنعهم وأبعدوهم عما أرادوا وتقدم الروم الى القتال وهم مدلون بكثرتهم وبما معهم من العدد وغيرها والتحم القتال وعظم الامر على المسلمين وألحقهم العدو بخيامهم وأيقن الروم بالظفر فلما رأى المسلمون عظم ما نزل بهم اختاروا الموت ورأوا انه أسلم لهم وأخذوا بقول الشاعر

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

فحمل بهم الحسن بن عمار أميرهم وحمي الوطيس حينئذ وحرضهم على قتال الكفار وكذلك فعل بطارقة الروم وحملوا وحرضوا عساكرهم وحمل منويل مقدم الروم فقتل في المسلمين فطعنه المسلمون فلم يؤثر فيه لكثرة ما عليه من اللباس فرمى بعضهم فرسه فقتله واشتد القتال عليه فقتل هو وجماعة من بطارقته فلما قتل انهزم الروم أقبح هزيمة وأكثر المسلمون فيهم القتل ووصل المنهزمون الى جرف خندق عظيم كالحفرة فسقطوا فيها من خوف السيف فقتل بعضهم بعضا حتى امتلأت وكانت الحرب من بكرة الى العصر وبات المسلمون يقاتلونهم في كل ناحية وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الأموال مالا يحد وكان في جملة الغنيمة سيف هندي عليه مكتوب هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالا طالما ضرب به بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل الى المعز مع الاسرى والرؤس وسار من سلم من الروم الى ريو وأما أهل رمطة فانهم ضعفت نفوسهم وكانت الاقوات قد قلت عندهم فاخرجوا من فيها من الضعفاء وبقي المقاتلة

فزحف اليهم المسلمون وقاتلوهم الى الليل ولزموا القتال فى الليل أيضا وتقدموا بالسلاليم فملكوها عنوة وقتلوا من فيها وسبوا الحرم والصغار وغنموا مافيها وكان شيأ كثيرا عظيما ورتب فيها من المسلمين من يعمرها ويقيم فيها ثم ان الروم تجمع من سلم منهم وأخذوا معهم من فى صقلية وجزيرة ريو منهم وركبوا مراكبهم يحفظون نفوسهم فركب الامير أحمد فى عساكره وأصحابه فى المراكب أيضا وزحف اليهم فى الماء وقاتلهم واشتد القتال بينهم وألقى جماعة من المسلمين نفوسهم فى الماء وخرقوا كثيرا من المراكب التى للروم فغرقت وكثر القتل فى الروم فانهزموا لايلوى أحد على أحد وسارت سرايا المسلمين فى مداين الروم فغنموا منها فبذل أهلها لهم كثيرا من الأموال وهادنوهم وكانت هذه الوقائع فى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة والهدنة فى سنة أربع وخمسين وهذه الوقعة الاخيرة تعرف بوقعة المجاز (ولنرجع) الى تمام الكلام على حوادث سنة احدى وخمسين ففيها أخذ الروم حصن دلوك وثلاثة حصون مجاورة له وفيها سير سيف الدولة حاجبه فى جيش مع أهل طرسوس الى بلاد الروم فغنموا وقتلوا وسبوا وعادوا فقصد الروم حصن سيسية فملكوه وفيها سار نجا غلام سيف الدولة فى جيش الى حصن زياد فلقيه جمع من الروم فهزمهم واستأمن اليه من الروم خمسمائة رجل وفى هذه السنة أيضا فى شوال أسرت الروم أبا فراس بن سعيد بن حمدان من منبج وكان متقلدا لها وكان ذا فصاحة وبلاغة وله ديوان شعر جيد وبقى أسيرا الى سنة خمس وخمسين فافتداه سيف الدولة بمال جزيل وتسلمه منهم * وفى سنة احدى وخمسين أيضا سار جيش من الروم الى جزيرة اقريطش فأرسل أهلها الى المعز العبيدى صاحب افريقية يستنجدونه فأرسل اليهم نجدة فقاتلوا الروم فانتصر المسلمون وأسروا من كان بالجزيرة من الروم * وفى سنة اثنتين وخمسين دخل أهل طرسوس بلاد الروم غازين ودخلها أيضا نجا غلام سيف الدولة من درب آخر وأوغل أهل طرسوس فى غزوتهم حتى وصلوا الى قونية وعادوا * وفى هذه السنة اجتمع جماعة كثيرة من الارمن وقصدوا الرها فأغاروا عليها فغنموا وأسروا وعادوا موفورين

﴿ ذكر حصر الروم المصيصة ووصول الغزاة من خراسان ﴾

فى سنة ثلاث وخمسين حصر الروم مع الدمستق المصيصة وقاتلوا أهلها ونقبوا سورها واشتد قتال أهلها على النقب حتى دفعوهم عنه بعد قتال عظيم وأحرق الروم رستاقها ورستاق أدنة وطرسوس لمساعدتهما أهلها فقتل من المسلمين خمس عشرة ألف رجل وأقام الروم فى بلاد الاسلام خمسة عشر يوما لم يقصدهم من يقاتلونهم فعادوا والغلاء الاسعار وقلة الاقوات ثم ان انسانا وصل الى الشام من خراسان يريد الغزو ومعه خمسة آلاف رجل وكان طريقهم على أرمينية وميافارقين فلما وصلوا الى سيف الدولة فى صفر أخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم لدفعهم عن المسلمين فوجد الروم قد عادوا وافترق الغزاة الخراسانية الى الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم الى بغداد ومنها الى خراسان ولما أراد الدمستق العود الى بلاد الروم أرسل الى أهل المصيصة وادنة وطرسوس انى منصرف عنكم لا لعجز ولكن لضيق العلوفة وشدة الغلاء وأنا عائد اليكم فمن انتقل منكم فقد نجا ومن وجدته بعد عودى قتلته ثم نزل ملك الروم بعد ذلك على طرسوس وحصرها وجرى بينهم وبين أهلها حروب كثيرة سقط فى بعضها الدمستق الى الارض وكاد يؤسر فقاتلت عليه الروم وخلصوه وأسر أهل طرسوس بطريقا كبيرا من بطارقة الروم ورحل الروم عنهم. وتركوا عسكرا على المصيصة مع الدمستق فحصرها ثلاثة أشهر لم يمنعهم منها أحد فاشتد الغلاء على الروم وكثر فيهم الوباء فمات كثير منهم فاضطروا الى الرحيل

﴿ ذكر استيلاء الروم على المصيصة وطرسوس ﴾

فى سنة أربع وخمسين وثلاثمائة سار نقفور ملك الروم الى قيسارية ليقرب من بلاد الاسلام وأقام بها ونقل أهله اليها فأرسل اليه أهل طرسوس والمصيصة يبذلون له اتاوة ويطلبون منه أن ينفذ اليهم بعض أصحابه يقيم عندهم فعزم على اجابتهم فأتاه الخبر بأنهم قد ضعفوا وعجزوا وأنهم لا ناصر لهم وان الغلاء قد اشتد عليهم وقد عجزوا عن القوت وأكلوا الكلاب والميتة وقد كثر فيهم الوباء فيموت

منهم فى اليوم نحو ثلاثمائة ألف نفس فعاد نقفور عن اجابتهم وأحضر الرسول وأحرق الكتاب على رأسه واحترقت لحيته وقال لهم أنتم كالحية فى الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت فان أخذها انسان وأحسن اليها وأدفأها انتعشت ونهشته وأنتم انما أطعتم لضعفكم وان تركتكم حتى تستقيم أحوالكم تأذيت بكم وأعاد الرسول وجمع جيوش الروم وسار الى المصيصة بنفسه فحصرها وفتحها عنوة بالسيف ووضع السيف فيهم فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف ونقل كل من بها الى بلد الروم وكانوا نحو مائتى ألف انسان ثم سار الى طرسوس فحاصرها فاذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الامان فاجابهم اليه وفتحوا البلد فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون ويتركوا الباقى ففعلوا ذلك وساروا برا وبحرا وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا انطاكية وجعل الملك المسجد الجامع اصطبلا لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة اليها حتى رخصت الاسعار وتراجع اليها كثير من أهلها ودخلوا فى طاعة الملك وتنصر بعضهم والعياذ بالله تعالى وأراد الملك المقام بها ليقرب من بلاد الاسلام ثم عاد الى القسطنطينية وأراد الدمستق أن يقصد ميافارقين وبها سيف الدولة فأمره الملك باتباعه الى القسطنطينية * وفى هذه السنة نزلت طائفة من الترك على بلاد الخزر فاستنصر أهل الخزر بأهل خوارزم فلم ينجدوهم وقالوا أنتم كفار فان أسلمتم نصرناكم فأسلموا الا ملكهم فنصرهم أهل خوارزم وأزالوا الترك عنهم ثم أسلم ملكهم بعد ذلك

﴿ ذكر خروج الروم الى بلاد الاسلام ﴾

فى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة فى شوال خرجت الروم فقصدوا مدينة آمد ونزلوا عليها وحاصروها وقاتلوا أهلها فقتل منهم ثلاثمائة رجل وأسر نحو أربعمائة أسير ولم يمكنهم فتحها فانصرفوا الى دارا وقربوا من نصيبين ولقيهم قافلة واردة من ميافارقين فأخذوها وهرب الناس من نصيبين خوفا منهم حتى بلغت أجرة الدابة مائة درهم وراسل سيف الدولة الاعراب ليهرب معهم وكان فى نصيبين فاتفق ان

الروم عادوا واقبل دهر به فأقام بمكانه وساروا من ديار الجزيرة الى الشام فنازلوا انطاكية فأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها فلم يمكنهم فتحها فخربوا بلدها ونهبوه وعادوا الى طرسوس * وفى سنة ست وخمسين توفى سيف الدولة وملك ابنه أبو المعالى شريف * وفى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وصلت سرية كبيرة من الروم الى انطاكية فقتلوا فى سوادها وغنموا وسبوا اثنى عشر ألفا من المسلمين * وفى سنة ثمان وخمسين دخل ملك الروم الشام ولم يمنعه أحد ولا قاتله فسار فى البلاد الى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فلكها ونهبها وسبى من فيها وكان صاحب طرابلس قد أخرجه أهلها لشدة ظلمه فقصد قلعة عرقة فاخذه الروم وجميع ماله وكان كثيرا وقصد ملك الروم حمص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها فاحرقها ملك الروم ورجع الى بلدان الساحل فأتى عليها نهبا ونحريقا وملك ثمانية عشر منبرا وأما القرى فكثيرة لا تحصى وأقام فى الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ماشاء ولا يمنعه أحد الا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطرافهم فأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنعت العرب من قصدهم وصار للروم الهيبة العظيمة فى قلوب المسلمين فأراد أن يحصر انطاكية وحلب فبلغه ان أهلها قد أعدوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون اليه فامتنع من ذلك وعاد ومعه من السبى نحو مائة ألف رأس ولم يأخذ الا الصبيان والصبايا والشبان فاما الكهول والشيوخ والعجائز فنهم من قتله ومنهم من أطلقه وكان بحلب قرعويه غلام سيف الدولة فصانع الروم عليها فعادوا الى بلادهم فقيل كان سبب عودهم كثرة الامراض والموت وقيل ضجروا من طول السفر والغيبة عن بلادهم فعادوا على عزم الرجوع وسير ملك الروم سرية الى الجزيرة فنهبوا وسبوا وأحرقوا وعادوا

﴿ ذكر ملك الروم انطاكية ﴾

فى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ملك الروم مدينة انطاكية وسبب ذلك انهم حصروا حصنا بالقرب من انطاكية يقال له حصن لوقا ووافقوا أهله وهم نصارى على أن

يرحلوا منه الى انطاكية ويظهروا انهم انما انتقلوا منه خوفا من الروم فاذا صاروا بانطاكية أعانوهم على فتحها وانصرف الروم عنهم بعد موافقتهم على ذلك وانتقل أهل الحصن ونزلوا بانطاكية بالقرب من الجبل الذى بها فلما كان بعد انتقالهم بشهرين جاءت الروم مع أخى نقفور الملك وكانوا نحو أربعين ألفا فأحاطوا بسور انطاكية وصعدوا الجبل الى الناحية التى بها أهل حصن لوقا فلما رآهم أهل البلد قد ملكوا تلك الناحية طرحوا أنفسهم من السور وملك الروم البلد ووضعوا فى أهله السيف ثم أخرجوا المشايخ والعجائز والاطفال من البلد وقالوا لهم اذهبوا حيث شئتم وأخذوا الشباب من الرجال والنساء والصبيان والصبايا فحملوهم الى بلاد الروم سبيا وكانوا يزيدون على عشرين ألفا

﴿ ذكر ملك الروم مدينة حلب وعودهم عنها ﴾

لما ملك الروم انطاكية أنفذوا جيشا كثيفا الى حلب وكان أبو المعالى شريف ابن سيف الدولة محاصرا لها وبها قرعويه غلام سيف الدولة متغلبا عليها فلما سمع أبو المعالى خبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عنهم وحصروا البلد وبه قرعويه وأهل البلد قد تحصنوا بالقلعة فملك الروم المدينة وحصروا القلعة فخرج اليهم جماعة من أهل حلب وتوسطوا بينهم وبين قرعويه وترددت الرسل فاستقر الامر بينهم على هدنة مؤبدة على مال يحمله قرعويه اليهم وان يكون الروم اذا أرادوا الغزو لا يمكن قرعويه أهل القرايا من الجلاء عنها ليبتاع الروم ما يحتاجون اليه منها وكان مع حلب حماة وحمص وكفرطاب والمعرة وافامية وشيزر وما بين ذلك من الحصون والقرى وسلموا الرهائن الى الروم وعادوا من حلب وتسلمها المسلمون

﴿ ذكر ملك الروم ملازكرد ﴾

وفى هذه السنة أرسل ملك الروم جيشا الى ملازكرد من أعمال أرمينية فحصروها وضيقوا على من بها من المسلمين وملكوها عنوة وقهرا وعظمت شوكتهم وخافهم المسلمون فى أقطار البلاد وصارت كلها سائبة لا تمتنع عليهم يقصدون أيها شاؤا لضعف ملوك الاسلام عن مدافعتهم ووقوع الفتن بينهم

﴿ ذكر مافعله الروم بالجزيرة ﴾

في سنة احدى وستين وثلاثمائة في المحرم أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا في ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا مثل ذلك بديار بكر فسار جماعة من أهل تلك البلاد الى بغداد مستنفرين وقاموا في الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا مافعل الروم من النهب والقتل والاسر والسبي فاستعظمه الناس وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم وأنهم لامانع لهم عنهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة المطيع لله وأرادوا الهجوم عليه فمنعوا من ذلك وأغلقت الابواب فاسمعوه مايقبح ذكره

﴿ ذكر انهزام الروم وأسر الدمستق ﴾

في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة كانت وقعة بين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وبين الدمستق بناحية ميافارقين وكان سببها ماذكرناه من غزو الروم بلاد الاسلام فلما رأوا أنهم لامانع لهم قوى طمعهم على أخذ آمد فسار الدمستق اليها وبها هزارمرد غلام أبي الهيجاء بن حمدان فكتب الى أبي تغلب بن ناصر الدولة يستصرخه ويعلمه الحال فسير اليه أخاه هبة الله بن ناصر الدولة واجتمعا على حرب الدمستق وكان الدمستق في كثرة فلقياه في مضيق لاتجول فيه الخيل والروم على غير أهبة فانهزموا وأخذ المسلمون الدمستق أسيرا ولم يزل محبوسا الى أن مرض سنة ثلاث وستين وبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع الاطباء له فلم ينفعه ذلك ومات * وفي سنة ثلاث وستين أصاب الخليفة المطيع لله فالج فثقل لسانه وتعذرت عليه الحركة فخلع نفسه وبويع لابنه الطائع لله * وفي سنة ست وستين توفي الحكم بن عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس وأقيم بعده ابنه هشام وكان صغيرا ولقب المؤيد وقام بأمره الوزير المنصور بن أبي عامر واشتغل بالغزو وفتح من بلاد الاعداء كثيرا وامتلأت الاندلس بالغنائم واستمر المنصور ستا وعشرين سنة غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة يطول الكلام بذكرها وسيأتي ذكر شيء منها * ومن

محاسن غزواته أنه دخل بلاد الفرنج غازيا فجاز الدرب اليها وهو مضيق بين جبلين وأوغل فى بلاد الفرنج يسبى ويخرب ويغنم فلما أراد الخروج رآهم قد سدوا الدرب وهم عليه يحفظونه من المسلمين فأظهر أنه يريد المقام فى بلادهم وشرع هو وعسكره فى عمارة المساكن وزرع الغلات وأحضروا الحطب والتبن والميرة وما يحتاجون اليه فلما رأوا عزمه على المقام مالوا الى السلم فراسلوه فى ترك الغنائم والجواز الى بلاده فقال أنا عازم على المقام فتركوا له الغنائم فلم يجبهم الى الصلح فبذلوا له مالا ودواب تحمل له ما غنمه من بلادهم فأجابهم الى الصلح وفتحوا له الدرب فجاز الى بلاده

﴿ ذكر غزوات بالهند ﴾

وكان القائم بتلك الغزوات السلطان سبكتكين بضم السين وفتح الباء وسكون الكاف الاولى وفتح التاء وكسر الكاف الثانية وبنوه بعده وسبكتكين كان فى الأصل غلاما لابى اسحق بن البتكين صاحب جيش غزنة للسامانية ملوك خراسان عمال الخلفاء العباسيين وكان سبكتكين مقدما عند مولاه أبى اسحق المذكور فلما مات أبو اسحق لم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم فاجتمع عسكره واتفقوا على تقديم سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته فقدموه عليهم وولوه أمرهم سنة ست وستين وثلاثمائة فأحسن السيرة فيهم وصار لهم ملك ضخم توارثه بنوه فى كابل والهند وخراسان الى سنة سبع وأربعين وخمسمائة فتكون مدة ولايتهم مائتى سنة وثلاث عشرة سنة تقريبا وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة لاسيما السلطان محمود بن سبكتكين فان آثاره فى الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهورة وكان مقر سلطنتهم غزنة فهى دار ملكهم وهى من مدائن كابل وهذا أول ذكر غزواتهم * ففى سنة ست وستين وثلاثمائة غزا سبكتكين وهو والد السلطان محمود صاحب غزنة وافتتح قلاعا حصينة على شواهق الجبال وعاد سالما ظافرا ولما رأى جبال ملك الهند ما دهمه وأن بلاده تملك من أطرافها جمع الجيوش الكثيرة واستكثر من الفيول وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين فسار سبكتكين عن غزنة اليه ومعه عساكره وخلق كثير من

المتطوعة فالتقوا واقتتلوا أياما كثيرة وصبر الفريقان وبالقرب منهم عقبة غورك وفيها عين ماء لاتقبل نجسا ولا قذرا واذا ألقى فيها شئ من ذلك اكفهرت السماء وهبت الرياح وكثر الرعد والبرق والأمطار ولا تزال كذلك الى أن تطهر من الذى ألقى منها فأمر سبكتكين بالقاء نجاسة فى تلك العين فجاء الغيم والرعد والبرق وقامت القيامة على الهنود لأنهم رأوا مالم يروا مثله وتوالت عليهم الصواعق والأمطار واشتد البرد حتى هلكوا وعميت عليهم المذاهب واستسلموا لشدة ماعاينوه وأرسل ملك الهند الى سبكتكين يطلب الصلح وترددت الرسل فأجابهم اليه بعد امتناع على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها اليه فاستقر ذلك ورهن عنده جماعة من أهله على تسليم البلاد وسير معه سبكتكين من يتسلمها فان المال والفيلة كانت معجلة فلما أبعد ملك الهند قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه فلما سمع سبكتكين بذلك جمع العساكر وسار نحو الهند فأخرب كل ما مر عليه من بلادهم وقصد لمغان وهى من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة وهدم بيوت الاصنام وأقام فيها شعار الاسلام وسار عنها يفتح البلاد ويقتل أهلها فلما بلغ ما أراده عاد الى غزنة فلما بلغ الخبر ملك الهند جمع العساكر وسار فى مائة ألف مقاتل فلقيه سبكتكين وأمر أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهنود ففعلوا ذلك فضجر الهنود من دوام القتال معهم وحملوا حملة واحدة فعند ذلك اشتد الامر وعظم الخطب وحمل المسلمون أيضا جميعهم واختلط بعضهم ببعض فانهزم الهنود وأخذهم السيف من كل جانب وأسر منهم مالا يعد وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة وذل الهنود بعد هذه الواقعة ولم يقم لهم بعدها راية ورضوا بأن لا يطلبوا فى أقاصى بلادهم ولما قوى سبكتكين بعد هذه الوقعة أطاعه الافغانية والخلج وصاروا فى طاعته

﴿ ذكر غزوة للأمير أبى القاسم الكلبى أمير صقلية ﴾

فى سنة احدى وسبعين وثلاثمائة فى ذى القعدة سار الامير أبو القاسم من صقلية يريد الجهاد وسبب ذلك ان ملكا من ملوك الفرنج يقال له بودويل خرج فى جموع

كثيرة بريد صقلية فحصر قلعة مالطة وملكها وأصاب سريتين للمسلمين فسار الامير
أبو القاسم بعساكره ليرحله عنها فلما قاربها خاف وجبن فجمع وجوه أصحابه وقال
لهم انى راجع من مكانى هذا فلا تكسروا على رأيى فرجع هو وعساكره وكان
أسطول الكفار يساير المسلمين فى البحر فلما رأوا المسلمين راجعين أرسلوا الى
بردويل ملك الفرنج يعلمونه ويقولون له ان المسلمين خائفون منك فالحق بهم
فانك تظفر فجرد الفرنجى من عساكره أثقالهم وسار جريدة وجد فى السير
فأدركهم فى العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين فتعبى المسلمون للقتال
واقتتلوا واشتدت الحرب بينهم فحمل طائفة من الفرنج على القلب والاعلام
فشقوا العسكر ووصلوا اليها وقد تفرق كثير من المسلمين عن أميرهم واختل
نظامهم فوصل الفرنج اليه فأصابته ضربة على أم رأسه فقتل وقتل معه جماعة من
أعيان الناس وشجعانهم ثم ان المنهزمين من المسلمين رجعوا مصممين على القتال
ليظفروا أو يموتوا واشتد حينئذ الامر وعظم الخطب على الطائفتين فانهزم
الفرنج أقبح هزيمة وقتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل وأسر من بطارقتهم كثير
وتبعهم المسلمون الى أن أدركهم الليل وغنموا من أموالهم كثيرا وأفلت ملك
الفرنج هاربا ومعه رجل يهودى كان خصيصا به فوقف فرس الملك فقال له
اليهودى اركب فرسى فان قتلت فأنت لولدى فركبه الملك ونجا وقتل اليهودى
ولما قتل الامير أبو القاسم كان معه ابنه جابر فقام مقام أبيه ورحل بالمسلمين لوقته
ولم يمكنهم من اتمام الغنيمة فتركوا كثيرا منها

﴿ ذكر دخول الروسية فى دين النصرانية ﴾

قد تأخر دخول الروسية فى النصرانية عن بقية الافرنج سكان أوروبا وذلك أنه
كان أول دخول الروسية فى دين النصرانية سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وسبب
ذلك أنه وقع اختلاف بين ملوك الروم مع بعضهم فاستنجد بعض منهم بملوك الاسلام
وذلك البعض هو ورد الرومى وكان من أكابر رؤسائهم وقواد جيوشهم وعظماء
بطارقتهم فطمع فى الملك ولا قدرة له على قتال بقية المتنازعين فكاتب أبا تغلب بن

حمدان أمير حلب والموصل نيابة عن الخليفة واستنجد به وصاهره فأجابه ابن حمدان واستجاش بالمسلمين من الثغور فحصل له جيش ضخم فقصد قتال الروم بذلك الجيش فأخرجوا له جيشا بعد جيش وهو يهزمهم فقوى جنانه فقصد القسطنطينية ومع تلك الجيوش أيضا ورد الرومى الطالب لتملك القسطنطينية فجمعوا له جيوشا كثيرة وقاتلوه قتالا شديدا حتى انهزم فرجع ورد الرومى الى بلاد الاسلام وقصد ديار بكر ونزل بظاهر ميافارقين وكاتب عضد الدولة بن بويه المتغلب بالعراق على الخلفاء ووعده ببذل الطاعة فأجابه بجواب حسن ووعده بأنه ينصره فبلغ ذلك ملوك الروم وكان ملكان منهما أخوين مشتركين فى ملك القسطنطينية فكاتبا عضد الدولة وبعثا له بهدايا واستمالاه فقوى فى نفسه ترجيح جانبهما وأعرض عن نصرة ورد الرومى وكتب لنائبه بديار بكر وهو أبو على التميمى أن يقبض على ورد الرومى وأصحابه فشرع يدبر الحيلة عليه فبلغ الخبر بعض أصحاب ورد فقالوا له ان ملوك الروم قد كاتبوا عضد الدولة وراسلوه فى أمرنا ولا شك أنهم يرغبونه بالمال وغيره فيسلمنا اليهم فالرأى أن نرجع الى بلاد الروم ونصطلح معهم ان أمكننا أو نحاربهم ونبذل أنفسنا فاما ظفرنا أو متنا كراما فقال ورد ما هذا رأى ولا رأينا من عضد الدولة غير الجميل ولا يجوز أن ننصرف قبل أن نعلم ما عنده فلما قال لهم ورد ذلك فارقه كثير من أصحابه فطمع فيه أبو على التميمى نائب عضد الدولة بديار بكر فكاتبه وطلب حضوره عنده والاجتماع به فأجابه ورد الى ذلك وحضر عنده فلما اجتمع به قبض عليه وعلى ولده وأخيه وبعض أصحابه وذلك سنة سبعين وثلاثمائة وحبسهم بميافارقين ثم حملهم لعضد الدولة ببغداد فبقوا فى الحبس الى أن مات عضد الدولة سنة خمس وسبعين وصار ملك بنى بويه لصمصام الدولة فأطلق ورد الرومى ومن كان محبوسا معه وشرط عليه اطلاق عدد كثير من أسارى المسلمين وأن يسلم له سبع حصون عينها من بلاد الروم برساتيقها وأن لا يقصد بلاد الاسلام لا هو ولا أحد من أصحابه مدة حياته وجهزه بما يحتاج اليه من مال وغيره فسار ورد الى بلاد الروم واستمال فى طريقه

خلقا كثيرا من أهل البوادى وغيرهم وأطمعهم فى العطاء والغنيمة فاجتمع معه جيش فسار به حتى نزل بملطية فتملكها فقوى بها و بما فيها من مال وغيره وقصد من ملوك الروم و رديس بن لارن وراسله واستماله فاستقر الأمر بينهما على أن تكون القسطنطينية وما جاورها من شمال الخليج لورديس والجانب الآخر لورد وتحالفا ثم اجتمعا فقبض ورديس على ورد وحبسه ثم ندم فأطلقه عن قريب وعبر ورديس الخليج وحصر القسطنطينية وبها الملكان وضيق عليهما فكاتبا ملك الروسية واستنجدا به وعرضا عليه التزوج بأخت لهما فأجابهما لما طلباه منه من النجدة فامتنعت أختهما من تسليم نفسها الى من يخالفها فى الدين فتنصر ملك الروسية فكان ذلك أول دخول الروسية فى النصرانية ثم تزوجها وسار بجنوده الى قتال ورديس فاقتتلوا فقتل ورديس واستقر الملكان فى ملكهما وكاتبا وردا واصطلحا معه وأقراه على ما بيده من الممالك وبقى دهرا طويلا ثم هلك مسموما

﴿ استطراد ﴾

حيث ذكر بعض المؤرخين ابتداء دخول الروسية فى النصرانية فينبغى أيضا ذكر ابتداء دخول غيرهم من دول الافرنج فى النصرانية وذلك يتوقف أولا على ذكر ابتداء دولة كل دولة منها وكيف كانت دياناتها قبل دخولها فى النصرانية وبيان ذلك أن أقدم الدول وأقواها فى أوائل الدهور دولة الفرس فانهم كانوا أقوى الدول وكانت الدول فى أقطار الأرض تخضع لهم وتنقاد لأمرهم وينتهى نسب ملوك الفرس الى وشهنج وهو مهلائيل بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام وكان وشهنج ملكا مسلما صالحا له ملك واسع وآثار حميدة كثيرة ثم تغير من جاء بعده من عقبه فأحدثوا دين المجوسية واتخذوا الهين اثنين النور والظلمة فأثبتوا الها وهو النور وشيطانا وهو الظلمة وقالوا ان النور هو الله وقالوا انه قديم وسموه يزدان وقالوا ان الظلمة اله مخلوق وهو الشيطان وسموه اهرمن فأصل دينهم مبنى على تعظيم النور وهو يزدان وتحقير الظلمة وهو اهرمن فلما عظموا النور عبدوا النار وقيل ان الفرس وملوكهم ينتهى نسبهم الى فارس بن

ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل انهم من نسل يافث بن نوح وهم يقولون انهم من ولد كيومرث وهو آدم عليه السلام ويقولون ان الملك فيهم من كيومرث وهو آدم عليه السلام وبقي فيهم الى أن استلبه منهم المسلمون من هذه الأمة فى أوائل ظهور الاسلام وكان فى زمن قوة ملكهم موجودا فى مشارق الارض ومغاربها ملوك كثيرة ولكن هم كانوا أقوى الملوك وكان أكثر الملوك ينقادون لهم ويدخلون تحت طاعتهم ومن جملة الملوك الذين كانوا يخضعون لهم ملوك اليونان وملوك الروم الى أن صار ملك اليونان للاسكندر فقاتلهم وقهرهم واستلب الملك منهم وجعل فى أرضهم ملوكا من أكابرهم صاروا تحت طاعته يسمون ملوك الطوائف وكانوا عشرين ملكا وكذلك قهر الاسكندر ملوك الروم فكانوا تحت طاعته فمن حين غلبة الاسكندر لملوك الفرس صار ملك اليونان أقوى الملوك ودخل تحت طاعته ملوك الفرس وملوك الروم وهذا الاسكندر يقال له الاسكندر الرومى مع أنه كان من اليونان لكنه نسب الى الروم لغلبته اياهم وقهره لهم ودخولهم تحت طاعته وينتهى نسب اليونان الى يونان بن يافث بن نوح عليه السلام وكان مبدأ ملك اليونان قبل ميلاد ابراهيم عليه السلام لكنهم كانوا تحت طاعة ملوك الفرس الى زمن غلبة الاسكندر للفرس فصار الروم أيضا تحت طاعته وقيل ان أول من ظهر أمره من اليونان رجل اسمه اللن ولد سنة أربع وسبعين لمولد موسى عليه السلام وقيل ان تاريخ ظهور ملك اليونان سنة ثمان وستين وخمسمائة لوفاة موسى عليه السلام وكان تاريخ غلبة الاسكندر للفرس والروم بعد مضى خمسة آلاف سنة ومائتين واحدى وثمانين سنة من هبوط آدم عليه السلام الى الأرض وذلك أيضا بعد مضى ثلاثة آلاف سنة وتسع وثلاثين سنة من الطوفان وذلك أيضا بعد مضى ألف وتسعمائة سنة وثمان وخمسين سنة من مولد ابراهيم عليه السلام وبعد مضى ألف وستمائة سنة وثلاث عشرة سنة من وفاة موسى عليه السلام وأما عيسى عليه السلام فكان ميلاده بعد غلبة الاسكندر بثلاثمائة وثلاث سنين وكان الناس قبل ميلاد عيسى عليه السلام

يؤرخون بغلبة الاسكندر ثم بعد ميلاد عيسى عليه السلام صاروا يؤرخون بميلاد عيسى عليه السلام وتركوا التاريخ بغلبة الاسكندر * ولما بعث نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اصطلح المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه على أنهم يؤرخون بالهجرة وكان بين الهجرة وميلاد عيسى عليه السلام ستمائة واحدى وثلاثين سنة وقيل ستمائة واحدى وعشرين سنة وكان اليونان يعبدون الكواكب وكانت لهم أصنام على صور الكواكب يعبدونها وكان من اليونان الفلاسفة الذين دونوا علم الطب اليونانى وكان كثير منهم ينكرون حدوث العالم ويقولون انه قديم يعتقدون التأثير الطبيعى ولما غلب الاسكندر ملوك فارس والروم بقى الملك فى اليونان الى مضى ثلاثة عشر ملكا منهم وذلك فى مدة مائتين واثنتين وثمانين سنة أولها من غلبة الاسكندر ثم غلبهم الروم واستلبوا الملك منهم فصارت الغلبة لملك الروم وهذا الاسكندر الذى غلب فارس الروم غير الاسكندر المذكور فى القرآن الذى يقال له ذو القرنين كما حقق ذلك جماهير المفسرين للقرآن فانهم حققوا أن الاسكندر ذا القرنين المذكور فى القرآن كان مسلما صالحا بل قيل بنبوته وانه كان قبل الاسكندر الرومى بدهور طويلة * وأما الروم الذين غلبوا اليونان واستلبوهم ملكهم فانهم من عقب روم بن عيص بن اسحق ابن ابراهيم عليهما السلام فغلب الروم اليوم واستلبوهم ملكهم بعد مضى مائتين واثنتين وثمانين سنة من غلبة الاسكندر ولم يرجع لليونان ملكهم واستمروا رعية لغيرهم وسكنوا المورة واستمروا رعية أيضا الى ظهور الدولة العثمانية فلما كانت سنة ألف ومائتين وست وثلاثين حصل منهم خروج عن الطاعة للسلطان محمود الثانى العثمانى فجهز عليهم وقاتلهم ثم توسط بعض الدول بينهم بالصلح وتوسطوا أيضا فى جعلهم دولة مستقلة ببلاد المورة فكان الأمر كذلك الى هذا الوقت * وأما الاروام فانهم بعد فتح السلطان محمد القسطنطينية سنة ثمان وخمسين وثمانمائة انقرضت دولتهم ولم ترجع لهم دولة بل هم رعية للدولة العثمانية الى الآن وكان انتقال ملك اليونان للروم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بمائة وخمس وأربعين

سنة وكانت ديانة الروم عبادة الكواكب والأصنام التى على صور الكواكب فكانوا تابعين فى ذلك لليونان لأن الغالب على الناس أن يكونوا على دين ملوكهم واستمر الروم على ذلك الى أن دخلوا فى دين النصارى وذلك بعد مضى مائتين وسبع وثلاثين سنة من ميلاد المسيح عليه السلام ثم ان بعض ملوك الروم أعاد عبادة الاصنام وصار يقتل من يتبع الملة المسيحية وبعضهم يقبلها و يردها الى أن تملك منهم قسطنطين فارتضى الملة المسيحية ودخل فيها وأمر الناس بالدخول فيها والتمسك بها وكان ذلك سنة ثلاثمائة وست من ميلاد المسيح فتنصر الروم جميعا وكان مقر ملك الروم مدينة روما الى أن بنى القسطنطينية فان الملك قسطنطين المذكور هو الذى بناها ونقل كرسى السلطنة من روما الى القسطنطينية وكان ذلك سنة ثلاثمائة واثنتى عشرة من ميلاد المسيح عليه السلام وقيل ان هذا تاريخ بناء القسطنطينية وأما نقل كرسى السلطنة اليها فكان سنة ثلاثمائة وثلاثين من ميلاد المسيح عليه السلام * وأما مدينة رومة فأول من بناها ملك من ملوك الروم قبل غلبتهم لليونان اسمه روملس و يقال لها رومة ورومية وكان بناؤه اياها قبل ميلاد المسيح عليه السلام بسبعمائة وثلاث وخمسين سنة * وأما بيان كيفية غلبة اليونان للفرس وغلبة الروم لليونان والمحاربات الواقعة بينهم فلا حاجة الى ذكر شئ منها لان ذلك شئ طويل لا فائدة فى ذكره * ولما ملك الروم اليونان وغلبوا عليهم واستلبوهم ملكهم خضع للروم كثير من الملوك ودخل تحت طاعتهم كثير من الملوك الذين لا يستطيعون محاربة ملك الروم كملوك الافرنج الذين فى أوروبا وكثير من ملوك أفريقيا وآسيا وصار ملك الروم ضخما قويا واسعا واستمر ذلك الى سنة أربعمائة وست وسبعين مسيحية وذلك قبل الهجرة بمائة وست وأربعين سنة فاستلب ملك ايطاليا ملك رومة وانتزعها من ملك القسطنطينية وهو ملك الروم وفصلها عن ملكه وصارت من ممالك ايطاليا لكنه لم يستقل بملكها بل نازعه فى ذلك كثير من دول أوروبا و وقع بينه وبينهم محاربات وانتزاع ورجوع مرة بعد أخرى والكلام على ذلك طويل وما

صار لملك ايطاليا استقلال تام بالملك الا سنة ألف وسبع وعشرين من ميلاد المسيح الموافق ذلك سنة أربعمائة وثمان عشرة هجرية فاستقلالهم بالملك تأخر الى هذا الوقت وان كانوا متقدمين بالنسبة الى وجود أصل ملكهم فهم أقدم دول أوروبا بالنسبة لكونهم أول من أخرج رومة عن طاعة ملك الروم وان كان تمام استقلالهم متأخرا * وأما أول الاستقلال فهو سنة أربعمائة وست وسبعين مسيحية وذلك قبل الهجرة بمائة وست وأربعين سنة بل كان لهم ملوك أيضا قبل ذلك لكنهم كانوا تحت طاعة ملوك الروم بل قال بعضهم ان أول وفودهم الى أرض ايطاليا وسكناهم فيها كان قبل ميلاد المسيح بألف وسبعمائة سنة فهذا وجه قول من قال انهم أقدم ملوك الافرنج الذين فى أوروبا ومن حين وفودهم فى ذلك الوقت كان لهم رئيس بمنزلة الملك * وأما دخولهم فى دين النصارى فكان بعد ميلاد المسيح عليه السلام بخمسمائة سنة ثم لم يزل دين النصارى ينتشر عند الافرنج سكان أوروبا الى سنة خمسمائة وست وتسعين من ميلاد المسيح عليه السلام ثم زاد انتشاره حتى عم أكثرهم وتأخر عن الدخول فيه الروسية لانهم انما دخلوا فيه سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية كما تقدم * ولما كانت ايطاليا أقدم تلك الطوائف كان تأسيس دينهم ومقر رؤساء الدين عندهم وقد كانت النصارى بعد رفع عيسى عليه السلام مثل ما كانوا عليه حين كان بين أظهرهم من الاقرار لله بالوحدانية وله بالرسالة مع الاقرار بأنه عبد الله ورسوله ثم بعد رفعه دخلت عليهم شبه حصل بسببها الافتراق فى دينهم فانقسموا ثلاث طوائف ملكانية ونسطورية ويعقوبية فالملكانية مصرحة بالتثليث كما قال الله تعالى لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة فهؤلاء يقولون الآلهة ثلاثة المسيح وأمه والله ويقولون ان المسيح ناسوت كلى قديم أزلى من قديم أزلى ويقولون ان مريم ولدت الها أزليا ويطلقون لفظ الابوة على الله تعالى وتنزه عما يقول الظالمون علوا كبيرا ويطلقون أيضا لفظ البنوة على عيسى عليه السلام اطلاقا حقيقيا * وأما النسطورية فخالفوا الملكانية فلم يقولوا بالامتزاج بل قالوا ان الكلمة أشرقت

على جسد عيسى كاشراق الشمس على كوة أو على بلور * وأما اليعقوبية فيقولون انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الاله هو المسيح كما حكى الله عنهم ذلك بقوله لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم * وأما المسلمون فقالوا كما ذكر الله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فهذا هو المراد من الكلمة (ومن الشبه) التي دخلت على النصارى حتى قالوا بالوهية عيسى عليه السلام انه يبرئ الاكمه والابرص ويحيي الموتى وما عقلوا ان ذلك بأمر الله بل هو فعل الله وخلقه وايجاده أجراه على يد عيسى عليه السلام وقد أقام الله عليهم الحجة في ابطال زعمهم فقال سبحانه وتعالى * ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * فقوله سبحانه وتعالى كانا يأكلان الطعام برهان على افتقارهما الى الطعام كافتقار جميع الحيوانات فكيف يكون الهامن يفتقر الى الطعام ولا يكون قوامه الا به * وأيضا أكل الطعام يستلزم البول والغائط فكيف يكون الهامن يحتاج الى أن يبول ويتغوط فأكل الطعام كناية عن البول والغائط لكن لم يعبر بالبول والغائط لفحش الاتيان بلفظهما والقرآن العزيز ألفاظه في غاية النزاهة والعذوبة مع غاية الفصاحة والبلاغة * ومن شبههم أيضا كون المسيح ولد بلا أب فنسبوه الى الله تعالى وغاب عن عقولهم آدم عليه السلام فانه أغرب من عيسى عليه السلام فانه بلا أب ولا أم وقد أبطل الله لهم هذه الشبهة حيث قال ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فخلق آدم بلا أب ولا أم أعجب من خلق عيسى من أم بلا أب وبعد هو رطوبله افترق النصارى فرقتين احداهما تسمى كاثوليكية والاخرى بروتستانية ومع ذلك فبينهم اختلاف كثير ويتشعب من اختلافهم مذاهب كثيرة ليس هذا محل تفصيلها وكلهم يقرون بالبعث ثم منهم من يقول ان البعث بالاجساد والارواح ومنهم من يقول انه بالارواح فقط * وفي تاريخ الامام محمد بن جرير الطبري ان قيام الساعة مما يؤمن ويقر به جميع أهل

الاسلام وأهل التوراة وأهل الانجيل والمجوس وانما ينكره قوم من غير أهل التوحيد ثم قال وكل الذين ذكرناهم فانهم مقرون بفناء جميع العالم حتى لا يبقى غير القديم الواحد ومقرون بأن الله عز وجل يحييهم بعد فنائهم و باعثهم بعد هلاكهم الا قوما من عباد الاوثان فانهم يقرون بالفناء وينكرون البعث اه ويسمون الملكانية كاثوليكية وهى صفة مدح عندهم مثل التسمية بأهل السنة عند المسلمين * أما اليعقوبية والنسطورية فلم يوجد الآن أحد منهم فى بلاد الافرنج بل هم الآن كلهم ملكانية وكان اليعقوبية والنسطورية موجودين فى الزمن السابق وانقرضوا ولربما يوجد أحد من اليعقوبية والنسطورية فى اصارى الشام ومصر والعراق والحبشة (والحاصل) ان أهل المذهب الكاثوليكى كلهم ملكانية و رئيس المذهب الكاثوليكى عند النصارى هو الاسقف العظيم والحبر الكبير والقسيس الفخيم و يسمونه البابا ومقره وسكناه رومة عند دولة ايطاليا فله الرياسة على كل متمسك بالمذهب المذكور بمعنى أن له النظر فى اجراء الاحكام الدينية الباطنية فهو عندهم بمنزلة القطب عند المسلمين وكان له عندهم ملك سياسى فى الاراضى التى تحت سلطته وأكثر ايطاليا على المذهب الكاثوليكى وكانوا فى سنة سبعمائة وست وعشرين من ميلاد المسيح الموافق مائة وثمانية من الهجرة جعلوا للبابا دولة جمهورية تكون تحت رياسته فكان ذلك التاريخ مبدأ أمره ولم يزل يترقى أمر الباباوات حتى صارت لهم سطوة الدين والدنيا فكانت لهم ممالك واسعة فى الارض وكانوا رؤساء فى الدين والدنيا بحيث انهم صار لهم حق كبير فى تولية ملوك أوروبا وعزلهم حسب مشيئتهم فكانت سطوتهم سائدة على كل ملوكهم وكان لغيرهم من الملوك تاج واحد وأما هم فكان لهم ثلاث تيجان واحد فوق واحد دلالة على كمال السلطنة وعلوها و بلغ اعتبارهم عندهم أنهم عندما كانوا يركبون على الخيل يمسك لهم الركاب كثير من ملوكهم وكانوا اذا أمروا بمحاربة أمة لا يخالفهم أحد و يحرقون من خالفهم بالنار وهو حى وكان البابا مرة ألزم أمبراطور ألمانيا أن يقف حافيا ثلاثة أيام فى فصل

الشتاء أمام باب قصره ليطلب منه الغفران ورفس البابا مرة برجله تاج ملك جرمانيا حيث كان جاثيا أمامه يطلب الغفران قال بعض مؤرخي الافرنج المتأخرين ان جهالة تلك الاعصار طمست بصائر الشعوب حتى لم يروا خطأ في رؤساء الدين فكانوا يذعنون لكل أحكامهم ويخضعون لكل ما يستقر عليه رأيهم كأنه منزل من الله تعالى لا يشوبه عيب فلما بلغت شوكتهم الى هذا الحد لم يبق في أوروبا مملكة الا واضطربت من أفعالهم ولا ملك الا تعكر من مطامعهم ولا كرسي الاوارنج من شوكتهم فنشأ من ذلك فتن كثيرة كان منها انحطاط أمر البابا وات شيأ فشيأ الى سنة ألف وثمانمائة واحدى وسبعين مسيحية الموافق ألفا ومائتين وثمانيا وثمانين هجرية فسقط أمرهم بالكلية ودخل الايطاليون الى عاصمة مملكة البابا وأخذوها منه وأبقوه على الكاثوليكية رئيسا فقط ومقره في الكنيسة الرومانية وليس له من الرياسة غير ذلك واستمر الامر كذلك الى هذا الوقت ه وأما الاحكام بين الرعايا وما يتعلق بالسياسة وتدبير الملك فقد جعلوا لها قوانين دونوها بعقولهم واتخذوا لكل نوع منها مجالس مخصوصة وهكذا سائر دول أوروبا مع انه كان عندهم في الانجيل وفي الكتب القديمة أحكام مدونة تتعلق بالعبادات والمعاملات والأنكحة فتركوا كثيرا منها وأسسوا تلك القوانين العقلية ورأوها أقوى في تثبيت ملكهم ثم ان الملكانية الذين تقدم انهم يسمون كاثوليكية استمروا على المذهب الكاثوليكي الى القرن التاسع فلما كثر المنكرون رياسة البابا صاحب رومة وصاروا يسمون المنكرين لرئاسته بروتستان وصارت هذه التسمية عندهم مثل تسمية المبتدعة الخارجين عن مذهب أهل السنة عند المسلمين فان المسلمين أهل السنة يسمون المخالفين لهم بالمبتدعة فصار عندهم النصارى الملكانية لا يسمى كاثوليكيا الا من اعترف برئاسة البابا ومن لم يعترف بها فهو بروتستان بمنزلة المبتدع عند المسلمين وكان هذا الاصطلاح عندهم في القرن التاسع من قرون الهجرة النبوية فهذا هو الفرق الاعظم عندهم بين الفريقين ومع ذلك فالذين يسمونهم بروتستان كثيرة منهم

لايستأنفون من هذه التسمية لكن الاكثر منهم اذا قيل له أنت بروتستان يستأنف من ذلك ولا يرضى بهذا اللقب لانه بمنزلة المبتدع ويقول بل أنا كاثوليكى وان كان غير معترف برئاسة البابا ثم ان بين الفريقين أيضا اختلافا فى مسائل كثيرة فأعظمها ان البروتستان لايعترفون برئاسة البابا بل يقولون هو من جملة رؤساء الاساقفة ولا تنحصر رئاسة الأساقفة فيه بل هى فيه وفى أسقف القسطنطينية وأسقف اسكندرية لامزية ولا رئاسة لأحد الثلاثة على الآخرين ولا يزيد قدر أحد الثلاثة على الآخرين * وأما الكاثوليكية الاصليون عندهم فهم المعترفون برئاسة البابا صاحب رومة على غيره * ومن الاختلاف الواقع بينهم أن بعض البروتستان يخالف مذهب الملكانية الاصلى للفريقين فى اعتقاد التثليث لانهم نظروا فى كتب أهل الاسلام وأدلتهم على وحدانية الله فاعترفوا بصحة تلك الأدلة واعترفوا بوحدانية الله تعالى لكنهم لم يعترفوا برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واعترفوا برسالة عيسى المسيح عليه السلام وقالوا انه عبد الله ورسوله ويوافقون النصارى فى بقية ديانتهم فهذا موضع من مواضع المخالفة بينهم وبين الكاثوليكية لكن هذا الاعتقاد أعنى اعتقاد الوحدانية لله تعالى لايقول به كل البروتستان بل بعضهم والبعض الآخر من البروتستان يقولون بالتثليث مثل الكاثوليكية لكنهم سموهم بروتستان لعدم اعترافهم برئاسة البابا بل يقولون أصول الاساقفة أسقف رومة وأسقف القسطنطينية وأسقف الاسكندرية ثم ان جميع الفريقين لهم عبادات مشروعات مختلفة اختلافا كثيرا لم يتفقوا كلهم على شئ منها الا الدعاء فانهم كلهم اعترفوا بمشروعيته * وأما صلاتهم وصيامهم وباقى عباداتهم فهم مختلفون فيها اختلافا كثيرا فمن ذلك أن الصوم يقول الكاثوليكية انه فرض ويقول البروتستان انه سنة وليس بفرض والصوم المذكور هو صوم أربعين يوما فى فصل الربيع الذى يكون قبل الصيف بحيث يكون آخر الاربعين موافقا لآخر الربيع هذا متفق عليه بينهم لكن الكاثوليكية الاكثر منهم وهم أهل الديانة القوية منهم يقولون ان الصوم هو

امساك عن تناول الطعام والشراب من طلوع الشمس الى غروبها فى الاربعين يوما وأما البروتستان وبعض الكاثوليكية الذين ضعفت ديانتهم فانهم يجوزون فى حالة الصيام تناول الطعام والشراب لكنهم يقولون لايجوز تناول اللحم بجميع أنواعه وكذا ماتولد من الحيوان كاللبن والسمن الا الحوت فانهم يجوزون تناوله حالة الصيام ويتناولون أيضا الخبز والحلوى وسائر الاطعمة غير اللحم الذى ليس لحم حوت ويشربون الخمر والماء فى حالة الصيام ومن الفرق بين الفريقين أن لكل منهم أولياء يعتقدون فيهم ويتوسلون بهم لكن بينهم اختلاف فى بعض الاولياء فهذا البعض يعترف به أحد الفريقين دون الآخر وبالعكس فاذا كان الاولياء الذين يعتقدهم الكاثوليك لايعتقدهم انسان يقولون انه بروتستان وهناك فرقة يسمونهم اللاتينية وفرقة يسمونهم أهل الديانة الروسيه (أرثوذكس) وذلك بسبب عدم اعترافهم برئاسة الباباوان كانوا موافقين الكاثوليك فى جميع ماهم عليه من الديانات والاعتقادات ومع ذلك فكثير من اللاتينية وأهل الديانة الروسية يقولون نحن كاثوليك افتخارا بهذا اللقب فيقولون لهم كذبتم أنتم لاتينية أومن أهل الديانة الروسية حيث انكم لم تعترفوا برياسة البابا وهناك فروق كثيرة بين طوائفهم ومذاهب مختلفة يكفر فيها بعضهم بعضا لاحاجة الى ذكرها وانما المدار عندهم فى الفرق بين الكاثوليكية والبروتستان الاعتراف برياسة البابا وعدم الاعتراف بها وقد عرفت أن الاصل الاصيل عندهم فى تأسيس الديانات والاقدمية فى الملك هى دولة ايطاليا ومع ذلك فبعض منهم ينكرون رياسة البابا فيكونون عندهم بروتستان لكن الاكثرون منهم يعترفون بها فيقرون لهم بأنهم كاثوليك وبعض من الفرنسيس والانكليز وغيرهم خرجوا عن ملة النصارى بالكلية فى الباطن وان كانوا يعترفون بها فى الظاهر وأما فى الباطن فصاروا كالزنادقة عند المسلمين فهؤلاء لايعترفون فى الباطن بشئ من دياناتهم بل ولابنبوة عيسى ولاغيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام بل بعض منهم ينكرون الصانع ولايعترفون ببعث ولانشور ويقولون ماهى الا أرحام تدفع وأرض تبلع

ومايهلكنا الا الدهر فهؤلاء دهرية لكنهم لايتظاهرون بذلك بل يخفونه ويظهرون انهم على ملة النصارى وفي هذا القدر كفاية فلنتمم الكلام على ذكر بقية دولهم وكيفية ابتداء كل دولة ومتى كان دخولهم في النصرانية (أما دولة الفرنسيس) فأصلهم أيضا شعوب وقبائل مختلفة دخلت تلك البلاد في أوقات مختلفة واستوطنوا تلك الارض التي هم فيها الآن وأخص تلك القبائل وأشهرها قوم يقال لهم الكليتيين ويقال لهم أيضا الافرنك بالكاف ثم غيرت بجيم فصار الافرنج وقيل أصله فرنك بالكاف فأبدلت الكاف سينا فصار فرنسه وفي تاريخ ابن خلدون عند ذكره الفرنسيس قال هذه الامة المعروفة بالفرنجة تسميها العامة بالافرنسيس نسبة الى بلد من أمهات بلدانهم تسمى افرنسة وينتهي نسب الاكثر منهم الى يافث بن نوح عليه السلام ومع ذلك فقد اختلط بهم كثير من غير جنسهم وصاروا ملحقين بهم والغالب أنه اذا أطلق الافرنج انما ينصرف اليهم فيراد بهم الفرنسيس وقد يطلق اسم الافرنج على غيرهم من تلك الطوائف الساكنين باوروبا حتى صار هذا الاطلاق شائعا في هذه الأزمان وابتدأ الملك في الفرنسيس من سنة أربعمائة وعشرين من ميلاد المسيح عليه السلام وذلك قبل الهجرة بمائتين واثنتين من السنين هذا ابتداء انتظام الملك فيهم واستقلالهم فيه وأما قبل ذلك فكان لهم ملوك لم ينتظم أمرهم ولم يكمل لهم الاستقلال بل كانوا تارة يكون لهم استقلال وتارة يكونون تحت طاعة غيرهم وقهره وأما اذا اعتبرا بتداؤهم الاصلي فانه كان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمسة قرون وكانوا تحت قهر ملوك اليونان ثم بعد ذهاب ملك اليونان صاروا تحت قهر ملوك الروم فلا يحسب لهم ملك مستقل في تلك الازمان وكانت ديانتهم عبادة الاوثان التي على صور الكواكب وعبر بعضهم عن ديانتهم قبل دخولهم في النصرانية بأنها تشبه ديانات أهل الهند عباد الأوثان ثم دخلوا في النصرانية سنة ست وتسعين وأربعمائة من ميلاد المسيح عليه السلام وكان أول من دخل منهم في النصرانية الملك كلويس وأكثرهم يدعون أنهم على المذهب الكاثوليكي وكثير منهم

على المذهب البروتستانى ومنهم من لايتدين بدين النصارى ولاغيرهم وينكرون بعثة الأنبياء عليهم السلام بل منهم من ينكر الصانع ولكنهم يتسترون ويقولون انهم على دين النصارى ومن ملوك الفرنسيس المشهور بن كارلو بس الكبير المسمى شارلمان كان ساعيا فى ترقى أسباب العلوم العقلية والفنون الادبية والصناعية التى يتسع بها ملكهم وشاع صيته وانتشر ذكره ومكث فى الملك خمسا وأربعين سنة وكان معاصر الهارون الرشيد وكان بينه و بينه مكاتبات وأهدى اليه الرشيد مرة شطر نجا ثمينا وساعة فلكية من مخترعات بلاد المشرق وأهدى اليه أيضا أنواعا كثيرة من البزورات التى تزرع وليست فى بلادهم الافرنجية وأرسل له مفاتيح كنيسة فى بيت المقدس وأمر الرشيد العمال الذين كانوا له فى بيت المقدس أن يعاملوا الزوار الذين يأتون من بلاد الفرنسيس للزيارة أحسن المعاملة ومات شارلمان المذكور سنة ثمانمائة وأربع عشرة مسيحية الموافق مائة وتسعا وتسعين هجرية فيكون موته بعد وفاة الرشيد * وأما عدد سكان أرضهم وعدد رعاياهم وعدد عساكرهم وماهو عندهم من الاموال والسلاح وغير ذلك فلاحاجة بنا الى ذكره وكذا ما كان يقع بينهم وبين بقية الدول الافرنج من المحاربات وتغلب بعضهم على بعض فلاحاجة بنا الى ذكره نعم وقع بينهم و بين الانكليز أمر غريب عجيب وهو انهم تحاربوا ومكث الحرب بينهم واستدام نحو مائة وست عشرة سنة تارة تكون الغلبة لهؤلاء وتارة لهؤلاء وكان ابتداء ذلك الحرب من سنة ألف وثلاثمائة وسبع وثلاثين مسيحية الموافق سبعمائة وثمانيا وثلاثين هجرية وانتهاؤه بالصلح بينهم سنة ألف وأربعمائة وثلاث وخمسين مسيحية الموافق سنة ثمانمائة وسبعا وخمسين هجرية وذلك مبسوط فى تواريخهم ويسمونه حرب المائة سنة وكان استيلاء الفرنسيس على الجزائر بافريقية سنة ألف ومائتين وست وأربعين وفى سنة ألف ومائتين وست وتسعين أدخلوا المحاكم التونسية فى حمايتهم (وأما دولة الانكليز) و يقال لها دولة انكلترا أو بريطانية فكان أول ظهورهم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمس وخمسين سنة وكان بينهم وبين الافرنج دول

أوروبا محاربات كثيرة ولم ينتظم الملك لهم ويتم الاستقلال الا سنة ثمانمائة وسبع وعشرين مسيحية الموافق مائتين وثلاثا وأربعين هجرية * وكان أول دخولهم النصرانية سنة خمسمائة وست وتسعين مسيحية وذلك قبل الهجرة بست وعشرين سنة وهم أيضا مثل الفرنسيس فيهم الكاثوليكية والبرتستان والدهرية وأما أصلهم الذى تنتهى اليه أنسابهم فهم أيضا مجتمعون من أصناف وفروع شتى وفيهم جماعة من الكلتيين وجماعة ينتهى نسبهم الى يافث بن نوح عليه السلام ولهم جزيرتان منفصلتان احداهما جزيرة بريتانيا والاخرى جزيرة ايرلندا ولذلك اشتهرت مملكتهم بمملكة بريتانيا وايرلندا وكانوا فى أول أمرهم كالوحوش ويلبسون جلود الوحوش وكانت مساكنهم حقيرة يقيمونها تارة من الاعواد وأوراق الشجر وتارة من الطين وكان شغلهم صيد الحيوانات يتعيشون منها وحالهم يشبه أخلاق العرب وكانوا يسجدون للصخور والحجارة وينابيع الماء ثم لم يزل أمرهم يظهر ويقوى حتى صارت لهم دولة قوية وكان استيلاؤهم على الهند مبتدؤه سنة ألف وسبعمائة وسبع وخمسين مسيحية الموافق سنة ألف ومائة واثنتين وسبعين هجرية وتمام استيلائهم على الهند سنة ألف وثمانمائة وست عشرة مسيحية الموافق سنة ألف ومائتين وثمانية هجرية وكان تمام استيلائهم المذكور بعد حروب وعناء شديد وأما استيلاؤهم على جبل الطارق الذى فى المغرب فكان سنة ألف ومائة وست عشرة هجرية انتزعوه من الاسبانيول فى السنة المذكورة وقد حاول الاسبانيول والفرنسيس انتزاعه بعد ذلك من الانكليز مرارا عديدة فلم يتيسر لهم ذلك وكان الاسبانيول قبل أخذه منهم قد انتزعوه من المسلمين سنة ثمانمائة وسبع وستين هجرية وهذا الجبل من أعظم الحصون فى العالم ويعتبر مفتاحا للبحر المتوسط وهو مقابل للجزيرة الخضراء التى هى من بلاد الاندلس فاصل بينها وبين افريقية ويسمى جبل الفتح وجبل طارق وهو طارق بن زياد الذى فتح الاندلس سنة اثنتين وتسعين من الهجرة وطارق هذا هو مولى موسى بن نصير بضم النون وفتح الصاد مصغرا وموسى المذكور هو

سولى عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك بن مروان و والد عمر بن عبد العزيز فسمى الجبل باسم طارق المذكور لانه نزل بالمسلمين عنده لما قصد فتح الاندلس ويسمى جبل الفتح أيضا للعلة المذكورة والعامة يسمونه جبل الطار وصوابه جبل طارق

﴿ وأما دولة النمسا المسماة أيضا أوستوريا ﴾

فهم أيضا من أصناف شتى وأكثرهم من التتار وابتداء دولتهم كان من سنة ثلاث وثلاثين من ميلاد المسيح عليه السلام وكان بعض دول أوروبا يدخلونهم تحت طاعتهم ويتغلبون عليهم وما حصل للنمسا استقلال الملك التام الا من سنة تسعمائة وثنتين وثمانين مسيحية الموافق سنة مائتين وثمانيا وأربعين هجرية ودخولهم فى النصرانية فى حدود السنين التى دخل فيها من تقدم ذكرهم ومثل ذلك يقال فيمن يأتى ذكرهم من الدول الا الروسية فانه تأخر دخولهم فى النصرانية الى سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية كما تقدم

﴿ وأما دولة البروسية ﴾

فهم قسم كبير من جرمانيا ويقال لجرمانيا أيضا ألمانيا وهم أمم كثيرة لهم ملوك شتى والبروسية طائفة منهم وابتداء دولتهم من سنة أربع وخمسين من ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام واستقلالهم التام بالملك من سنة ألف وثلاثمائة وخمس عشرة مسيحية الموافق سنة ثمانمائة وثمان عشرة هجرية ثم انضم الى حمايتهم كثير من الدول الصغار من دول جرمانيا فقوى ملكهم واتسع

﴿ وأما دولة الروسية المسماة بالموسكوف ﴾

فهم أيضا مجتمعون من أجناس كثيرة ومنهم من ينتهى نسبه الى يافث بن نوح عليه السلام وكانوا قبل استقلالهم فى الملك تحت الرومانية قبل ميلاد المسيح عليه السلام ثم لما تقوى بعض دول أوروبا تغلبوا عليهم فكانوا تحت طاعتهم وما كان لهم الاستقلال التام بالملك الا من سنة ثمانمائة واثنتين وستين مسيحية الموافق مائتين وثمانيا وأربعين هجرية وكانوا يعبدون الأوثان كغيرهم من دول أوروبا ودخولهم فى النصرانية سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين كما تقدم

﴿ وأما دولة أسبانيا ويقال لهم أيضا الاسبانيول ﴾

فهم أيضا من أجناس مختلفة وكان لهم ملوك في القديم تابعون لدولة اليونان ثم لدولة الرومانيين بعد اليونان ثم تغلب عليهم بعض من هو أقوى منهم من ملوك أوروبا ثم استولى المسلمون على أكثر ممالكهم لما فتح الاندلس فكان الاندلس تحت يد أسبانيا الى سنة ثنتين وتسعين هجرية فانتزعه المسلمون منهم وبقي لهم ملك ضعيف في آخر الاندلس ووقع بينهم وبين المسلمين حروب كثيرة ثم انتزعوا الاندلس من المسلمين شيأ فشيأ الى أواخر التسعمائة من الهجرة ثم أخرجوا من بقي من المسلمين بالاندلس في سنة ألف وعشر واستقلوا بالملك وكانت دياناتهم عبادة الاوثان كغيرهم ممن تقدم ودخلوا في النصرانية في الزمن الذي دخل فيه من تقدم ذكرهم

﴿ وأما دولة البرتوغال ﴾

فكانت تابعة أيضا للرومانيين وكانت ممالكهم في أواخر الاندلس فلما استولى المسلمون على الاندلس أضافوها الى ما بيدهم من الاندلس ثم انتزعت من المسلمين سنة أربعمائة وتسع وثمانين هجرية واستولى عليها الاسبانيول ثم انتزعها البرتوغال من الاسبانيول واستقلوا بالملك فيها سنة ألف وخمسين هجرية

﴿ وأما دولة هولاندا ويقال لهم الفلمنك ﴾

فكانت تحت طاعة اسبانيا وكان بين الدولتين حروب كثيرة استمرت نحو ثمانين سنة الى أن استقلوا بالملك في حدود تسعمائة وسبع وثمانين من الهجرة وكان في السنين المذكورة استيلاؤهم على بلاد الجاوي وكان دخولهم في النصرانية في حدود السنين التي دخل فيها من تقدم ذكرهم

﴿ وأما دولة الدنيمارك ﴾

فكانت تحت طاعة ملوك أوروبا الى سنة ست وتسعين وثلاثمائة وألف مسيحية الموافق سبعمائة وتسعا وتسعين هجرية فاستقلوا بالملك

﴿ وأما دولة السويد والنوريج ﴾

فكانت أيضا تحت ملوك أوروبا ثم ساروا تحت طاعة الدنيمارك ثم استقلوا بالملك

سنة ألف وخمسمائة وثلاث وعشرين مسيحية الموافق تسعمائة وثلاثين هجرية

﴿ وأما دولة البلجيك ﴾

فهى من ممالك جرمانيا وما صار استقلالها الا من سنة ألف وثمانمائة وثلاثين مسيحية الموافق سنة ألف ومائتين وستا وأربعين هجرية

﴿ وأما دولة السويسره ﴾

فكانت أيضا يتداول التملك عليها ملوك أوروبا واستقلت بالملك سنة ألف وستمائة وثمان وأربعين مسيحية الموافق سنة ألف وثمانيا وخمسين هجرية

﴿ وأما دولة باواريا ﴾

فممالكهم تجمع ملوكا كثيرة كل واحد منهم له مملكة صغيرة وكانت تلك الممالك وملوكها تحت طاعة من قوى من ملوك أوروبا ثم صارت ممالك باواريا مستقلة سنة خمسمائة وثلاثين مسيحية الموافق لما قبل الهجرة باثنين وتسعين سنة ثم صارت هذه الممالك فى هذه السنين تابعة لملك البروسية

﴿ فائدتان ﴾

الاولى تتفرع مسئلة فقهية على معرفة تاريخ دخول هذه الطوائف فى دين النصرانية وهى أنه ان كان دخولهم فيه قبل نسخه فانهم يلحقون بأهل الكتاب فى حل أكل ذبيحتهم وفى حل تزوج المسلمين نساءهم وان كان دخولهم فيه بعد نسخه فلا يلحقون بأهل الكتاب فيما ذكر ونسخ دينهم انما كان ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال الامام الرازى فى تفسيره عند تفسير قوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم مانصه قال الكثيرا نما يحل نكاح الكتابية التى دانت بالتوراة والانجيل قبل نزول القرآن قالوا والدليل عليه قوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم فقوله من قبلكم يدل على أن من دان بالكتاب بعد نزول القرآن خرج عن حكم أهل الكتاب اه وذكر الخطيب الشربينى فى تفسيره مثل ذلك فى حل أكل ذبائحهم وهذا الذى ذكره كل منهما هو مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه وأما أهل المذاهب الثلاثة فلم

يقولوا بهذا التفصيل بل أطلقوا القول بحل أكل ذبائح أهل الكتاب وحل التزوج من نسائهم ولو دخلوا في دين أهل الكتاب بعد نسخه

﴿ الفائدة الثانية ﴾

كانت دول الفرنج قبل ظهور الاسلام في غاية التوحش وعدم المعرفة بالحرب والصنائع وأنواع السياسات وتدبير الحروب وأنواع العلوم العقلية وما وجد ذلك فيهم وانتشر الا بعد ظهور الاسلام ومخالطتهم للمسلمين فتعلموا ذلك منهم فحصل لهم التمدن والحضارة قال بعض مؤرخيهم عند ذكر الحروب التي كانت بينهم وبين المسلمين في القرن السادس أيام السلطان صلاح الدين الايوبي المسماة بحرب الصليب ما نصه ان تلك الحروب وان هلك فيها كثير من النفوس وذهب فيها كثير من الأموال من غير حصول على المقصود لكنه أعقب نتائج نافعة لهم منها أنهم من ذلك الوقت شرعوا في ترتيب العساكر وتعلموا بمواصلتهم المسلمين صناعة التجارة والزراعة وكثيرا من العلوم العقلية والفلكية وألفوا التواريخ النافعة وتوسعوا في معرفة علم الفلك والفوافيه وتخلقوا بأخلاق الحضر وتعودوا الأسفار برا وبحرا الاستكشاف أحوال الأقطار واكتشفوا على أمريكا في أسفارهم سنة ثمانمائة وتسعين هجرية ولم تكن قبل ذلك معلومة لاحد قط واكتسبوا من المسلمين أنواع الفروسية واللعب بالخيل والرماح وتعاطوا المعاني الغريبة في كلامهم وأشعارهم لاسيما من كانوا منهم مخالطين للمسلمين بالاندلس وتعلموا أيضا المشورة في الأحكام وعلموا أن الملك يفسد بالاستبداد وعدم المشورة فدونوا لهم أحكاما وقوانين يرجعون اليها واستكثروا من جمع كتب الاسلام وترجمتها بلسانهم ليعلموا معانيها فأخذوا منها ما يكون به صلاح الملك واتخذوا مدارس لتعليم أنواع الفنون وعرفوا أن الملك لا ينتظم الا بذلك كله ومن مقالات بعض مؤرخيهم لا تصلح السكنى ببلد حتى تكون الشريعة فيها أقوى من السلطان ومراده بالشريعة ما أسسوه من القواعد العقلية لاحكامهم وسياسة ملكهم واذا كان هذا في تلك الاحكام العقلية فكيف اذا رجع المسلمون الى

شريعتهم المطهرة المؤسسة بالوحي من الله تعالى وتمسكوا بها حتى يكون حكم السلطان تابعا لحكمها فلا شك أنها تكون أقوى من السلطان * وقال بعض مؤرخيهم أيضا مابلغت أمة من الامم غاية الاستقامة الا باحترام قوانين أحكامها المؤسسة على العدل كما أن عدم احترامها يكون منشأ الرجوع الى القهقرى ولايتوهم أن ذلك لبركة فى قوانينهم العقلية وانما ذلك بسبب ابتنائها على التجارب العادى ومراعاة الوازع الدنيوى * واما الشريعة المطهرة فهى أقوى من ذلك كله لانها مبنية على الوحي الالهى الذى يحصل من اتباعه كمال البركة واذا كانت مخالفة قوانينهم يرونها موجبة للانحطاط فلا شك أن مخالفة الشريعة المطهرة يحصل منها كمال الانحطاط مع مايعقب ذلك من العذاب فى الدار الآخرة وقال بعض مؤرخيهم وبالجملة فالسبب المذكور وهو مخالطة الأوروباويين للامة الاسلامية المتقدمة عليهم فى التمدن والحضارة كان ابتداء التمدن عند الاوروباويين

﴿ تتميم ﴾

ذكر كثير من المفسرين للقرآن العزيز وكثير من المؤرخين ان الذين ملكوا الدنيا من مشرقها الى مغربها ثلاثة مسلمان وكافر أما المسلمان فهما سليمان بن داود عليهما السلام وذو القرنين وأما الكافر فهو النمرود الذى كان فى زمن ابراهيم الخليل عليه السلام وزاد بعضهم رابعا كافرا وهو بختنصر فيكونون أربعة مسلمان وكافران لكن قال ابن الأثير فى الكامل ان بختنصر لم يملك الدنيا كلها وانما كان له ملك واسع وهو الذى خرب بيت المقدس وقتل بنى اسرائيل وأسر سبعين ألفا منهم لأن الله سلطه عليهم لما كثرت فيهم المعاصى والمخالفات وبختنصر هذا كان مجوسيا من مجوس بابل ولم يعرف له أب وكان عاملا على العراق لملك الفرس وكان بين ابتداء ملكه وتخريبه بيت المقدس تسع عشرة سنة وبين الهجرة وتخريبه بيت المقدس ألف وثلاثمائة وتسع وستون سنة وبقى خرابا سبعين سنة ثم عمر وتراجعت اليه بنو اسرائيل والذى عمره بعض ملوك الفرس بوحي من الله تعالى الى النبى أرميا عليه السلام فأخبر ذلك النبى ملك الفرس

فامتثل أمره وعمره ثم خرب مرة ثانية بعد رفع عيسى عليه السلام بأربعين سنة وذلك قبل الهجرة بخمسمائة ونيف وخمسين سنة وكان ذلك التخريب لما قتل اليهود يحيى بن زكريا عليهما السلام فسلط الله عليهم الفرس والروم فقتلوهم وسبوهم ونفوهم من ديارهم وخربوا بيت المقدس وقد ذكر الله تعالى هذين التخريبين فى القرآن العزيز فى سورة الاسراء فى قوله تعالى (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد الآية) * وذكر المرة الثانية فى قوله تعالى (فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم) أى بعثناهم وسلطناهم ليسوؤا وجوهكم وبقى خرابا الى أن عمره ملك من ملوك الروم بعد تنصرهم وبنى كنيسة قامة على القبر الذى تزعم النصارى ان عيسى عليه السلام دفن فيه وخربوا هيكل بيت المقدس الى الأرض وأمروا أن يلقى فى موضعه قمامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة الشريفة مزبلة وبقى على ذلك الى أن قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام سنة ست عشرة من الهجرة وفتح بيت المقدس فأزال ذلك وأرجع موضع الصخرة كما كان والله سبحانه وتعالى أعلم (ولنرجع) الى ما كنا بصدده من ذكر الفتوحات الاسلامية فنقول * وفى سنة احدى وثمانين وثلاثمائة خلع الطائع لله وبويع القادر بالله أحمد بن اسحق بن المقتدر * وفى سنة ثنتين وثمانين نزل ملك الروم بأرمينية وحصر خلاط وملاذ كرد وارجيش فضعفت نفوس الناس عنه ثم هادنه أبو على الحسن بن مروان الكردى مدة عشر سنين فعاد ملك الروم الى بلاده * وفى هذه السنة سار بغراخان ايلك ملك الترك بعساكره الى بخارى فسير اليه الأمير نوح بن منصور السامانى جيشا كثيرا ولقيهم ايلك فهزمهم فعادوا الى بخارى وهو فى أثرهم فخرج الامير نوح بنفسه وسائر عساكره ولقيه فاقتتلوا اقتتالا شديدا أجلت المعركة عن هزيمة أيلك فعاد منهزما الى بلاده * وفى سنة ثلاث وثمانين جمع ملك الترك جيوشا كثيرة وسار الى بخارى فملكها بسبب اختلاف وقع بين المسلمين مع بعضهم * وفى سنة سبع وثمانين

توفى سبكتكين صاحب غزنة ووقع اختلاف بين ولديه اسماعيل ومحمود ثم تم الملك لمحمود فاستولى على خراسان وغيرها وصار له ملك ضخم وجاءه التقليد من الخليفة القادر بالله ولقب يمين الدولة

﴿ ذكر غزوة يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين صاحب غزنة ﴾

فى سنة اثنتين وتسعين تجهز بجيوش كثيرة لغزو الهند وقصد برشور فأتاه عدو الله جيبال ملك الهند فى عساكر كثيرة فاختار يمين الدولة من عساكره خمسة عشر ألف فارس وسار نحوه فالتقوا واقتتلوا وصبر الفريقان فلما انتصف النهار انهزم الهنود وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر ملك الهند ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته وغنم المسلمون منهم أموالا جليلة وجواهر نفيسة ومن جملة ذلك قلادة كانت فى عنق ملكهم من الجوهر العديم النظير قومت بمائتى ألف دينار وأصيب أمثالها فى أعناق مقدمى الاسرى وغنموا خمسمائة ألف رأس من العبيد وفتح من بلاد الهند بلادا كثيرة فلما فرغ من غزواته أحب أن يطلق ملك الهند الذى أسره ليراه الهنود فى شعار الذل فأطلقه بما قرره عليه فأدى المال ومن عادات الهنود أنهم من حصل منهم فى أيدى المسلمين أسيرا لم ينعقد له بعدها رياسة فلما رأى ملك الهند حاله بعد خلاصه حلق رأسه ثم ألقى نفسه فى النار فاحترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة

﴿ ذكر غزوة أخرى الى الهند أيضا ﴾

لما فرغ يمين الدولة السلطان محمود سبكتكين من أمر جيبال رأى أن يغزو غزوة أخرى فسار نحو ويهند فأقام عليها محاصرا لها حتى فتحها قهرا وبلغه ان جماعة من الهند قد اجتمعوا بشعاب تلك الجبال عازمين على الفساد والعناد فسير اليهم طائفة من عسكره فأوقعوا بهم وأكثروا القتل فيهم ولم ينج منهم الا الشريد الفريد وعاد الى غزنة سالما ظافرا

﴿ ذكر غزوة بهاطية من بلاد الهند ﴾

فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة غزا يمين الدولة بهاطية من أعمال الهند وهى مدينة حصينة عالية السور يحيط بها خندق عميق فامتنع صاحبها ثم انه خرج الى ظاهرها

فقاتل المسلمين ثلاثة أيام ثم انهزم فى الرابع وطلب المدينة ليدخلها هو وأصحابه فسبقه المسلمون الى باب البلد فملكوه عليهم وأخذتهم السيوف من بين أيديهم ومن خلفهم فقتل المقاتلة وسبيت الذرية وأخذت الأموال وأما الملك فانه لما عاين الهلاك أخذ جماعة من ثقاته وسار الى رؤس تلك الجبال فسير اليه يمين الدولة سرية فلم يشعر الملك الا وقد أحاطوا به وحكموا السيوف فى أصحابه فلما أيقن بالعطب أخذ خنجرا فقتل نفسه وأقام يمين الدولة بهاطية حتى أصلح أمرها ورتب قواعدها وعاد عنها الى غزنة واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها ما يجب عليهم تعليمه ولقى فى عوده شدة شديدة من الامطار وكثرتها وزيادة الانهار فغرق مما معه ومن عسكره شئ عظيم

﴿ ذكر غزوة المولتان ﴾

فى سنة ست وتسعين وثلاثمائة غزا السلطان يمين الدولة المولتان وكان سبب ذلك ان واليها كان قد أسلم ثم نقل عنه خبث الاعتقاد ونسب الى الالحاد ودعا أهل ولايته الى ما هو عليه فأجابوه فرأى يمين الدولة أن يجاهده ويستنزله عما هو عليه فسار نحوه فرأى الانهار التى فى طريقه كثيرة الزيادة عظيمة المد وخاصة سيحون فانه منع جانبه من العبور فأرسل الى اندبال يطلب اليه أن يأذن له فى العبور من بلاده الى المولتان فلم يجبه الى ذلك فابتدأ به قبل المولتان فدخل بلاده وجاسها وأكثر القتل فيها والنهب لأموال أهلها والاحراق لابنيتها ففر اندبال من بين يديه وهو فى أثره كالشهاب فى أثر الشيطان من مضيق الى مضيق الى أن وصل الى قشمير ولما سمع ملك المولتان بخبر اقباله علم عجزه عن الوقوف بين يديه والعصيان عليه فنقل أمواله الى سرنديب وأخلى المولتان فوصل يمين الدولة اليها ونازلها فاذا أهلها فى ضلالهم يعمهون فحصرهم وضيق عليهم وتابع القتال حتى افتتحها عنوة وألزم أهلها عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم

﴿ ذكر غزوة كواكير ﴾

ثم سار عن المولتان الى كواكير وكان بها ستمائة صنم فافتتحها وأحرق الاصنام فهرب صاحبها الى قلعة له فسار خلفه اليها وهى حصن كبير يسع خمسمائة ألف

انسان وفيه خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة وفي الحصن ما يكفي الجميع مدة فلما قام بها يمين الدولة وبقي بينهما سبعة فراسخ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق مالا أحد طاقة عليه فأمر بقطعها ورأى في الطريق واديا عظيم العمق بعيد القعر فأمر أن يطم منه مقدار ما يسع عشرين فارسا فطموه بالجلود المملوءة ترابا ووصل الى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوما وراسله صاحبها في الصلح فلم يجبه ثم بلغه اختلاف في خراسان فأراد الرجوع فصالح ملك الهند على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف فضة ولبس خلعة يمين الدولة بعد ان استعفى من شد المنطقة وقطع أصبعه الخنصر وأنفذها الى يمين الدولة توثقة فيما يعتقدونه وعاد يمين الدولة الى خراسان لاصلاح ما اختلف فيها وكان عازما على الدخول في بلاد الهند

﴿ ذكر غزوة الى الهند ﴾

في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة سار يمين الدولة نحو الهند وسبب ذلك ان بعض أولاد ملوك الهند كان قد أسلم على يده واستخلفه على بعض ما افتتحه من بلادهم فلما كان الآن بلغه أنه ارتد عن الاسلام ومال لاهل الكفر والطغيان فسار اليه مجدا فحين قاربه فر الهندي من بين يديه واستعاد يمين الدولة تلك الولاية وأعادها الى حكم الاسلام واستخلف عليها بعض أصحابه وعاد الى غزنة

﴿ ذكر غزوة بهيم نغر ﴾

في سنة ثمان وتسعين غزا يمين الدولة وانتهى الى شاطىء نهر هندمند فلاقاه هناك ابرهمن بال بن اندبال في جيوش الهند فاقتتلوا مليا من النهار وكادت الهند تظفر بالمسلمين ثم ان الله تعالى نصر عليهم فظفر بهم المسلمون فانهزموا على أعقابهم وأخذهم المسلمون بالسيف وتبع يمين الدولة أثر ابرهمن بال حتى بلغ بهيم نغر وهي على جبل عال وكان الهند قد جعلوها خزانة لصنمهم الاعظم فينقلون اليها أنواع الذخائر قرنا بعد قرن وأعلاق الجواهر وهم يعتقدون ذلك دينا وعبادة فاجتمع فيها على طول الازمان ما لم يسمع بمثله فنازلهم يمين الدولة وحاصرهم وقاتلهم فلما رأى الهنود كثرة جمعه وحرصهم على القتال وزحفهم اليهم مرة بعد أخرى خافوا

وجبنوا وطلبوا الامان وفتحوا باب الحصن وملك المسلمون القلعة وصعد يمين الدولة اليها في خواص أصحابه وثقاته فأخذ منها من الجواهر مالا يحد ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية ومن الأواني الذهبيات والفضيات سبعمائة ألف وأربعمائة منّ وكان فيها بيت مملوء من الفضة طوله ثلاثون ذراعا وعرضه خمسة عشر ذراعا الى غير ذلك من الامتعة وعاد الى غزنة بهذه الغنائم ففرش تلك الجواهر في صحن داره وكان قد اجتمع عنده رسل الملوك فأدخلهم اليه فرأوا مالم يسمعوا بمثله

﴿ ذكر غزوة بالهند ﴾

في سنة أربعمائة تجهز يمين الدولة الى الهند عازما على غزو نارين فسار اليها واخترقها واستباحها ونكس أصنامها فلما رأى ملك الهند انه لاقوة له به راسله في الصلح والهدنة على مال يؤديه وخمسين فيلا وأن يكون في خدمته ألفا فارس لا يزادون فقبض منه ما بذله وعاد عنه الى غزنة

﴿ ذكر غزو يمين الدولة بلاد الغور وغيرها ﴾

في سنة احدى وأربعمائة غزا يمين الدولة بلاد الغور وهي بلاد تجاور غزنة وكان الغور كفارا يقطعون الطريق ويخيفون السبيل وبلادهم جبال وعرة ومضايق غلقة وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها فلما كثر ذلك منهم أنف يمين الدولة أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه وهم على هذه الحال من الفساد والكفر فجمع العساكر وسار اليهم حتى انتهى مقدمة جيشه الى مضيق قد شحن بالمقاتلة فتناوشوا الحرب وصبر الفريقان فسمع يمين الدولة الحال فجد في السير اليهم وملك عليهم مسالكهم فتفرقوا وساروا الى عظيم الغور فبرز من مدينته في عشرة آلاف مقاتل فقاتلهم المسلمون الى ان انتصف النهار فرأوهم أشجع الناس وأقواهم على القتال فأمر يمين الدولة عساكره أن يولوا الأدبار على سبيل الخديعة والاستدراج ففعلوا فلما رأى الغور ذلك ظنوه هزيمة فاتبعوه حتى أبعدوا عن مدينتهم فعطف المسلمون عليهم ووضعوا السيف فيهم فأبادوهم قتلا وأسرا وكان في الاسرى كبيرهم وزعيمهم ودخل المسلمون المدينة وملكوها

وغنموا ما فيها وفتحوا تلك القلاع والحصون التي لهم جميعا فلما رأى كبيرهم ما فعل المسلمون شرب سما كان معه فمات وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين وأظهر يمين الدولة في تلك الاعمال شعار الاسلام وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه وعاد ثم سار الى طائفة أخرى من الكفار فقطع مفازة من رمل ولحق عساكره عطش شديد كادوا يهلكون منه فلطف الله سبحانه وتعالى بهم وأرسل عليهم مطرا اسقاهم وسهل عليهم السير في الرمل فوصل الى الكفار وهم جمع عظيم ومعهم ستمائة فيل فقاتلهم أشد قتال صبر فيه بعضهم لبعض ثم ان الله نصر المسلمين وهزم الكفار وأخذ غنائمهم وأكثر القتل فيهم وعاد سالما مظفرا منصورا

﴿ ذكر فتح يمين الدولة ناردين ﴾

في سنة أربع وأربعمائة سار يمين الدولة الى الهند في جمع عظيم وحشد كثير وقصد واسطة البلاد من الهند فسار شهرين حتى قارب مقصده ورتب أصحابه وعساكره فسمع عظيم الهند به فجمع من عنده من قواده وأصحابه وبرز الى جبل هناك صعب المرتقى ضيق المسالك فاحتمى به وطاول المسلمين وكتب الى الهنود يستدعيهم من كل ناحية فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحا فلما تكاملت عدته نزل من الجبل وتصاف هو والمسلمون واشتد القتال وعظم الامر ثم ان الله تعالى منح المسلمين أكتافهم فهزموهم وأكثروا القتل فيهم وغنموا ما معهم من مال وفيل وسلاح وغير ذلك فلما فرغ من غزوته أرسل الى الخليفة القادر بالله يخبره فكتب له منشورا وعهدا بخراسان وما بيده من الممالك ولقبه نظام الدين

﴿ ذكر غزوة تانيشر ﴾

في سنة خمس وأربعمائة ذكر ليمين الدولة ان بناحية تانيشر فيلة من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحرب وان صاحبها غال في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين فعزم على غزوه في عقر داره وأن يذيقه شربة من كأس قتاله فسار في الجنود والعساكر والمتطوعة فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك وقفارا فسيحة الاقطار والاطراف بعيدة الاكناف والماء بها قليل فلقوا اشدة

وقاسوا مشقة الى أن قطعوها فلما قاربوا مقصدهم لقوا نهرا شديد الجرية صعب المخاضة وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ومعه عساكره وفيلته التي كان يدل بها أي يتعزز بها فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر واشتغال الكفار بالقتال ليتمكن باقى العسكر من العبور ففعلوا ذلك وقاتلوا الهنود وشغلهم عن حفظ النهر حتى عبر سائر العسكر في المخاضات وقاتلوهم من جميع جهاتهم الى آخر النهار فانهزم الهند وظفر المسلمون وغنموا ما معهم من أموال وفيلة وعادوا الى غزنة موفرين ظافرين

﴿ ذكر غزوة الى الهند ﴾

في سنة ست وأربعمائة غزا يمين الدولة الهند على عادته فضل أدلاؤه الطريق ووقع هو وعسكره في مياه فاضت من البحر فغرق كثير ممن معه وخاض الماء بنفسه أياما حتى تخلص وعاد الى خراسان

﴿ ذكر غزوة قشمير وقنوج وغيرهما ﴾

في سنة سبع وأربعمائة سار يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين من غزنة الى الهند عازما على غزو قشمير اذ كان قد استولى على ما بينه وبين قشمير من بلاد الهند وأتاه المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل مما وراء النهر وغيره من البلاد وسار اليها ثلاثة أشهر سيرا دائما وعبر نهر سيحون وجيلوم وهما نهران عميقان شديدا الجرية فوطئ أرض الهند وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الاتاوة فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده وسار بين يديه الى مقصده فبلغ ماجون في العشرين من رجب وفتح ما حولها من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن هودب وهو آخر ملوك الهند فنظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ما هاله وأرعبه وعلم أنه لا ينجيه الا الاسلام فخرج في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الاخلاص طلبا للخلاص فقبله يمين الدولة وسار عنه الى قلعة كلجند وهو من أعيان الهند وشياطينهم وكان على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها الا بمشقة فسير كلجند عساكره وفيوله الى أطراف

تلك الغياض يعنون من ساو كها فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم وسلك طريقا مختصرة الى الحصن فلم يشعروا الا وهو معهم فقاتلهم قتالا شديدا فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف فانهزموا وأخذهم السيف من خلفهم ولقوا نهرا عميقا بين أيديهم فاقتحموه فغرق أكثرهم وكان القتلى والغرقى قريبا من خمسين ألفا وعمد كلجند الى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه ثم سار نحو بيت متعبد لهم وهو من مهرة الهند وهو من أحصن الابنية على نهر ولهم به من الاصنام كثير منها خمسة أصنام من الذهب الاحمر مرصعة بالجواهر وكان فيهما من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفا وثلاثمائة مثقال وكان بها من الاصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه وأحرق الباقي وسار نحو قنوج وصاحبها راجيال فوصل اليها في شعبان فرأى صاحبها قد فارقها وعبر الماء المسمى كنك وهو ماء شريف عندهم يرون أنه من الجنة وان من غرق نفسه فيه طهر من الآثام فأخذها يمين الدولة وأخذ قلاعها وأعمالها وهي سبع على الماء المذكور وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم يذكرون انها عملت من مائة ألف سنة الى ثلاثمائة ألف كذبا منهم وزورا ولما افتتحها أباحها عسكره ثم سار الى قلعة البراهمة فقاتلوه وثبتوا فلما عضهم السلاح علموا انهم لا طاقة لهم فاستسلموا للسيف فقتلوا ولم ينج منهم الا الشريد ثم سار نحو قلعة آسى وصاحبها جندبال فلما قاربها هرب جندبال وأخذ يمين الدولة حصنه ومافيه ثم سار الى قلعة شروة وصاحبها جندرآى فلما قاربه نقل ماله وفيوله نحو جبال هناك منيعة يحتمي بها وعمى خبره فلم يدر أين هو فنازل يمين الدولة حصنه فافتتحه وغنم مافيه وسار في طلب جندرآى جريدة وقد بلغه خبره فلحق به في آخر شعبان فقاتله فقتل أكثر جند جندرآى وأسر كثيرا منهم وغنم مامعه من مال وفيول وهرب جندرآى في نفر من أصحابه فنجا وكان السبي في هذه الغزوة كثيرا حتى ان أحدهم كان يباع بأقل من عشرة دراهم ثم عاد الى غزنة ظافرا ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة فبنى بناء لم يسمع بمثله ووسع فيه وكان جامعها القديم صغيرا وأنفق ماغنمه في

هذه الغزوة فى بنائه وفى هذه السنة تفرقت ممالك الاندلس وصار عامل كل قطر منه متغلبا على مابيده لضعف ملوك بنى امية وكثرت الفتن بينهم و بين العلو يين بنى ادريس بن عبدالله بن الحسن المثنى

﴿ ذكر خروج الترك من الصين ﴾

فى سنة ثمان وأربعمائة خرج الترك من الصين فى عدد كثير يزيدون على ثلاثمائة ألف خركاه وكانوا أجناسا منهم الخطابية الذين ملكوا ماوراء النهر وكان خروجهم للاستيلاء على ممالك الاسلام وكان أقرب بلاد الاسلام اليهم بلاساغون وكان ملكها من صالحى ملوك الاسلام يحب العلم وأهله و يميل الى أهل الدين و يصلهم و يقربهم واسمه طغان خان وكان قد ملك أيضا تركستان ومرض مرضا شديدا وطال به المرض فطمعوا فى البلاد لذلك فساروا اليه وملكوا بعض ممالكه وغنموا وسبوا و بقى بينهم و بين بلاساغون ثمانية أيام فلما بلغه الخبر وكان مريضا سأل الله أن يعافيه فينتقم من الكفرة و يحمى البلاد منهم ثم يفعل به بعد ذلك ما أراد فاستجاب الله له وشفاه فجمع العساكر وكتب الى سائر بلاد الاسلام يستنفر الناس فاجتمع اليه من المتطوعة مائة ألف وعشرون ألفا فلما بلغ الترك خبر عافيته و جمعه العساكر وكثرة من معه عادوا الى بلادهم فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر حتى أدركهم وهم آمنون لبعد المسافة فكبسهم وقتل منهم زيادة عن مائتى ألف رجل وأسر نحو مائة ألف وغنم من الدواب والخركاهات وغير ذلك من الاوانى الذهبية والفضية ومعمول الصين مالا عهد لأحد بمثله وعاد الى بلاساغون فلما بلغها عاوده مرضه فمات منه وما أشبه قصته بقصة سعد بن معاذ الأنصارى فى غزوة الخندق فانه دعا الله لما جرح فى أكحله أن يبقيه حتى يأخذ ثاره من بنى قريظة فاستجاب الله دعاءه ثم بعد الانتقام منهم وقتلهم انفجر جرحه ومات رضى الله عنه ولما مات طغان خان ملك بعده أخوه رسالان خان ولقب شرف الدولة

﴿ ذكر غزوة يمين الدولة الى الهند والافغانية ﴾

فى سنة تسع وأربعمائة سار يمين الدولة الى الهند غازيا واحتشد وجمع واستعد وأعد

أكثر مما تقدم وقصد بيدا اللعين وكان أعظم ملوك الهند مملكة وأكثرهم جيشا وتسمى مملكته كجوراهة وسار يمين الدولة عن غزنة وابتدأ فى طريقه بالافغانية وهم كفار يسكنون الجبال ويفسدون فى الارض ويقطعون الطريق بين غزنة وبينه فقصد بلادهم وسلك مضايقها وفتح مغالقها وخرب عامرها وغنم أموالهم وأكثر القتل فيهم والأسر وغنم المسلمون من أموالهم الكثير ثم استقل على المسير وبلغ الى مكان لم يبلغه فيما تقدم من غزواته وعبر نهر كنك ولم يعبره قبلها فلما جازه رأى قفلا قد بلغت عدة أحماله ألف عدد فغنمها وهى من العود والامتعة الفائقة وجد به السير فأتاه فى الطريق خبر ملك من ملوك الهند يقال له بروجيبال قد سار من بين يديه ملتجئا الى بيدا ليحتمى به عليه فطوى المراحل فلحق بروجيبال ومن معه رابع عشر شعبان وبينه وبين الهنود نهر عميق فعبر اليهم بعض أصحابه وشغلهم بالقتال ثم عبر هو وباقى العسكر اليهم فاقتتلوا عامة نهارهم فانهزم بروجيبال ومن معه وكثر فيهم القتل والاسر وأسلموا أموالهم وأهليهم فغنمها المسلمون وأخذوا منهم الكثير من الجواهر وأخذوا ما يزيد على مائتى فيل وسار المسلمون يقتصون آثارهم وانهزم ملكهم جريحا وتحير فى أمره وأرسل الى يمين الدولة يطلب الامان فلم يؤمنه ولم يقنع منه الا بالاسلام وقتل من عساكره ما لا يحصى وسار بروجيبال ليلحق ببيدا فانفرد به بعض الهنود فقتله فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم الى يمين الدولة يبذلون له الطاعة والاتاوة وسار يمين الدولة بعد الوقعة الى مدينة بارى وهى من أحصن القلاع والبلاد وأقواها فرآها من سكانها خالية وعلى عروشها خاوية فأمر بهدمها وتخريبها وعشر قلاع معها متناهية الحصانة وقتل من أهلها خلقا كثيرا وسار يطلب بيدا الملك فلحقه وقد نزل الى جانب نهر وأجرى الماء من بين يديه فصار وحلا وترك عن يمينه وشماله طريقا يابسا يقاتل منه اذا أراد القتال وكان عدة من معه ستة وخمسين ألف فارس ومائة ألف وأربعة وثمانين ألف راجل وسبعمائة وستة وأربعين فيلا فأرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال فأخرج اليهم بيدا مثلهم ولم يزل كل عسكر يمد أصحابه حتى كثر

الجمعان واشتد الضرب والطعان فأدركهم الليل وحجز بينهم فلما كان الغد بكر يمين الدولة اليهم فرأى الديار منهم بلاقع وركب كل فرقة منهم طريقا مخالفا الطريق الاخرى ووجد خزائن الاموال والسلاح بحالها فغنموا الجميع واقتفى آثار المنهزمين فلحقوهم فى الغياض والآجام وأكثروا فيهم القتل والاسر ونجا بيدا فريدا وحيدا وعاد يمين الدولة الى غزنة منصورا

﴿ ذكر فتح قلعة من الهند ﴾

فى سنة أربع عشرة وأربعمائة غزا يمين الدولة الهند وأوغل فيها فغنم وقتل حتى وصل الى قلعة على رأس جبل منيع ليس له مصعد الا من موضع واحد وهى كبيرة تسع خلقا وبها خمسمائة فيل وفى رأس الجبل من الغلات والمياه وجميع ما يحتاج الناس اليه فحصرهم يمين الدولة وأدام الحصار وضيق عليهم واستمر القتال فقتل منهم كثيرا فلما رأوا ما حل بهم أذعنوا له وطلبوا الامان فأمنهم وأقر ملكهم فيها على خراج يأخذه منهم وأهدى له هدايا كثيرة منها طائر على هيئة القمرى من خاصيته أنه اذا أحضر الطعام وفيه سم دمعت عينا هذا الطائر وجرى منهما ماء وتحجر فاذا حك وجعل على الجراحات الواسعة ألحمها

﴿ ذكر فتح سومنات ﴾

فى سنة ست عشرة وأربعمائة فتح يمين الدولة فى بلاد الهند عدة حصون ومدن وأخذ الصنم المعروف بسومنات وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند وهم يحجون اليه كل ليلة خسوف فيجتمع عنده ما ينيف على مائة انسان وتزعم الهنود أن الارواح اذا فارقت الاجساد اجتمعت اليه على مذهب التناسخ فينشئها فيمن شاء وكانوا يحملون اليه كل علق نفيس ويعطون سدنته كل مال جزيل وله من الاوقاف ما يزيد على عشرة آلاف قرية وقد اجتمع فى البيت الذى هو فيه من نفيس الجوهر ما لا تحصى قيمته ولاهل الهند نهر كبير يسمى كنك يعظمونه غاية التعظيم ويلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم ويعتقدون أنها تساق الى جنة النعيم وبين هذا النهر وبين سومنات نحو مائتى فرسخ وكان يحمل من مائه كل يوم

الى سومنات ما يغسل به و يكون عنده من البرهميين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود اليه وثلاثمائة رجل يحلقون رؤس زواره ولحاهم وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون و يرقصون على باب الصنم ولكل واحد من هؤلاء شئ معلوم كل يوم وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحا وكسر صنما يقول الهنود ان هذه الاصنام قد سخط عليها سومنات ولو أنه راض عنها لأهلك من قصدها بسوء فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزوه واهلاكه ظنا منه أن الهنود اذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم دخلوا فى الاسلام فاستخار الله تعالى وسار عن غزنة عاشر شعبان فى هذه السنة فى ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة وسلك سبيل الملتان فوصلها منتصف شهر رمضان وفى طريقه الى الهند برية قفر لا ساكن فيها ولا ماء ولا ميرة فتجهز هو وعسكره على قدرها ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد انهلوارة فلما قطع المفازة رأى فى طرفها حصونا مشحونة بالرجال وعندها آبار قد غوروها ليتعذر عليه حصرها فيسر الله له فتحها عند قربه منها بالرعب الذى قذفه الله فى قلوبهم وتسلمها وقتل سكانها وأهلك أوثانها وامتاروا منها الماء وما يحتاجون اليه وسار الى انهلوارة فوصلها مستهل ذى القعدة فرأى صاحبها المدعو بهيم قد أجفل عنها وتركها وأمعن فى الهرب وقصد حصنا له يحتمى به فاستولى يمين الدولة على المدينة وسار الى سومنات فلقى فى طريقه عدة حصون فيها كثير من الاوثان شبه الحجاب النقباء لسومنات على ما سول لهم الشيطان فقاتل من بها وفتحها وخربها وكسر أصنامها وسار الى سومنات فى مفازة قفرة قليلة الماء فلقى عشرين ألف مقاتل من سكانها لم يدينوا للملك فأرسل اليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا اموالهم وامتاروا من عندهم وساروا حتى بلغوا دبولواره وهى على مرحلتين من سومنات وقد ثبت أهلها ظنا منهم أن سومنات يمنعهم ويدفع عنهم فاستولى عليها وقتل رجالها وغنم أموالها وسار عنها الى سومنات فوصلها يوم الخميس منتصف ذى القعدة فرأى حصنا حصينا مبنيا على ساحل البحر بحيث تبلغه أمواجه وأهله على الاسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن

معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم فلما كان الغد وهو يوم الجمعة زحف وقاتل من به فرأى الهنود من المسلمين قتالا لم يعهدوا مثله ففارقوا السور فنصب المسلمون عليه السلاليم وصعدوا اليه وأعلنوا بكلمة الاخلاص وأظهروا شعار الاسلام فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب وتقدم جماعة الهنود الى سومنات فعفروا له خدودهم وسألوه النصر وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض فلما كان الغد بكر المسلمون اليهم وقاتلوهم فأكثروا في الهنود القتل وأجلوهم عن المدينة الى بيت صنمهم سومنات فقاتلوا على بابه أشد قتال وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل الى سومنات فيعتنقونه ويبكون ويتضرعون اليه ويخرجون فيقاتلون الى أن يقتلوا حتى كاد الفناء يستوعبهم فبقى منهم القليل فدخلوا البحر الى مركبين لهم لينجوا فيهما فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضا وغرقوا بعضا وأما البيت الذي فيه سومنات فهو مبنى على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص وسومنات من حجر طوله خمسة أذرع ثلاثة مدورة ظاهرة وذراعان في البناء وليس بصورة مصورة فأخذه يمين الدولة فكسره وأحرق بعضه وأخذ بعضه الى غزنة فجعله عتبة الجامع وكان بيت الصنم مظلما وانما الضوء الذي عنده من قناديل الجوهر الفائق وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا من كل مامضى طائفة من الليل حركت السلسلة فيصوت الجرس فيقوم طائفة من البرهميين الى عباداتهم وعنده خزانة فيها عدة من الاصنام الذهبية والفضية وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجوهر كل واحد منها منسوب الى عظيم من عظمائهم وقيمة ما في البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار فأخذ الجميع وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل ثم ان يمين الدولة ورد عليه الخبر أن بهيم صاحب انهلوارة قد قصد قلعة تسمى كندهة في البحر بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخا فسار اليها يمين الدولة من سومنات فلما حاذى القلعة رأى رجلين من الصيادين فسألهما عن خوض البحر هناك فعرفاه انه يمكن خوضه لكن ان تحرك الهواء يسيرا غرق من فيه فاستخار الله تعالى وخاضه هو ومن معه فخرجوا

سالمين فرأوا بهيم قد فارق قلعته وأخلاها فعاد عنها وقصد المنصورة وكان صاحبها قد أسلم ثم ارتد عن الاسلام فلما بلغه خبر مجيء يمين الدولة فارقها واحتمى بغياض أشبة فقصده يمين الدولة من موضعين فأحاط به وبمن معه فقتلوا أكثرهم وغرق منهم كثير ولم ينج منهم إلا القليل ثم سار الى بهاطية فأطاعه أهلها ودانوا له فرحل الى غزنة فوصلها عاشر صفر من سنة سبع عشرة وأربعمائة

﴿ ذكر غرق الأسطول بجزيرة صقلية ﴾

فى سنة ست عشرة وأربعمائة خرج الروم الى جزيرة صقلية فى جمع كثير وملكوا ما كان للمسلمين فى جزيرة قلوريه وهى مجاورة لجزيرة صقلية وشرعوا فى بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم وجموعهم مع ابن أخت الملك فبلغ ذلك المعز بن باديس عامل افريقية للعبيديين فجهز أسطولا كبيرا أربعمائة قطعة وحشد فيها وجمع خلقا كثيرا وتطوع جمع كثير بالجهاد رغبة فى الاجر فسار الأسطول فى كانون الثانى فلما قرب من جزيرة قوصرة وهى قريب من بر افريقية خرج عليهم ريح شديد ونوء عظيم فغرق أكثرهم ولم ينج منهم إلا اليسير

﴿ ذكر غزوة للمسلمين الى الهند ﴾

فى سنة احدى وعشرين وأربعمائة غزا أحمد بن ينال التكين النائب عن يمين الدولة ببلاد الهند مدينة للهنود وهى من أعظم مدنهم يقال لها نرسنى ومع أحمد نحو مائة ألف فارس وراجل وشن الغارة على البلاد ونهب وسبى وخرب الاعمال وأكثر القتل والاسر فلما وصل الى المدينة دخل من أحد جوانبها ونهب المسلمون فى ذلك الجانب يوما من بكرة النهار الى آخر النهار ولم يفرغوا من نهب سوق العطارين والجوهريين حسب وباقى أهل البلد لم يعلموا بذلك لان طوله منزل من منازل الهنود وعرضه مثله فلما جاء المساء لم يجسر أحد على المبيت فيه لكثرة أهله فخرج منه ليأمن على نفسه وعسكره وبلغ من كثرة ما نهبوا انهم اقتسموا الذهب والفضة كيلا ولم يصل الى هذه المدينة عسكر للمسلمين قبله فلما فارقه أراد العود اليه مرة أخرى فلم يقدر على ذلك ومنعه أهله * وفى هذه السنة توفى يمين

الدولة السلطان محمود بن سبكتكين وعمره إحدى وستون سنة ومدة ملكه أربع وثلاثون سنة وكان صالحا عادلا محبا للعلماء مكرما لهم ومحبا للجهاد ووقع بعده اختلاف بين ابنيه محمد ومسعود وتم الملك لمسعود

﴿ ذكر خروج ملك الروم الى الشام وانهزامه ﴾

فى سنة احدى وعشرين وأربعمائة خرج ملك الروم الى القسطنطينية فى ثلاثمائة ألف مقاتل الى الشام فلم يزل بعساكره حتى بلغ قريب حلب فلحقهم عطش شديد وكان أصحابه مختلفين عليه وعبر على عسكره جمع من العرب ليسوا بالكثير فظن أنها كبسة فخاف ورحل وتبعهم العرب وأهل السواد حتى الارمن يقتلون وينهبون وأخذوا من الملك أربعمائة بغل محملة مالا وثيابا وهلك كثير من الروم عطشا ونجا الملك وحده ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شيء ألبتة وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا حتى ان الملك لبس خفا أسود وعادة ملوكهم لبس الخف الاحمر فتركه ولبس الاسود ليعمى خبره على من يريده وانهزموا وغنم المسلمون جميع ما كان معهم

﴿ ذكر غزوة فضلون الكردى الخزر وما كان منه ﴾

كان فضلون الكردى هذا بيده قطعة من أذربيجان استولى عليها وملكها فاتفق أنه غزا الخزر فى هذه السنة فقتل منهم وسبى شيأ كثيرا فلما أراد العود الى بلاده أبطأ فى سيره وظن أنه دوخهم وشغلهم بما عمله بهم فاتبعوه مجدين وكبسوا وقتلوا من أصحابه والمتطوعة الذين معه أكثر من عشرة آلاف قتيل واستردوه والغنائم التى أخذت منهم وغنموا أموال العساكر الاسلامية وعادوا

﴿ ذكر غزو ملك الروم مدينة الرها ﴾

فى سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة ملك الروم مدينة الرها وكان بالرها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر الكبير بيد ابن عطير والصغير بيد ابن شبل فراسل ابن عطير ارمانوس ملك الروم وباعه ما بيده بعشرين ألف دينار وعدة قرى فتسلموا البرج الذى له ودخلوا البلد فملكوه وهرب منه أصحاب ابن شبل

وقتل الروم المسلمين وخربوا المساجد فسمع نصر الدولة بن مروان ملك بلاد الكرد الخبر فسير جيشا الى الرها فحصروها وفتحوها عنوة واعتصم من بها من الروم بالبرجين واحتمى النصارى غيرهم بالبيعة التي لهم وهي من أكبر البيع وأحسنها عمارة فحصرهم المسلمون بها وأخرجوهم وقتلوا أكثرهم ونهبوا البلد وبقي الروم بالبرجين وسير اليهم ابن مروان عسكرا نحو عشرة آلاف مقاتل فانهزم أصحاب ابن مروان من بين أيديهم ودخل الروم البلد وملكوها وما جاورهم من بلاد المسلمين فصالحهم ابن وثاب النميري على حران وسروج وحمل اليهم خراجا * وفي هذه السنة توفي الخليفة القادر بالله وكانت خلافته إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وبويع بعده ابنه القائم بأمر الله

﴿ ذكر ملك الروم قلعة أفامية ﴾

في سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة ملك الروم قلعة افامية بالشام بسبب اختلاف العمال من المسلمين فدخل حسان بن المفرج الطائي بلد الروم هاربا من الدزبري عامل في الشام لخليفة مصر ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب ومعه عسكر كثير فسار الى افامية فكبسها وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسرهم

﴿ ذكر فتح قلعة سرستي وغيرها من بلاد الهند ﴾

في سنة خمس وعشرين وأربعمائة قصد السلطان مسعود بن محمود سبكتكين قلعة سرستي وهي من أمنع حصون الهند وأحصنها فحصرها وقد كان أبوه حصرها غير مرة فلم يتهيأ له فتحها فلما حصرها مسعود راسله صاحبها وبذل له مالا على الصلح فأجابه الى ذلك وكان فيها قوم من التجار المسلمين فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها لمسعود من جملة ما تقرر عليه فكتب التجار رقعة في نشابة ورموا بها اليه يعرفونه فيها ضعف الهنود بها وأنه ان صابرهم ملكهم فرجع عن الصلح وطم خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره وفتح الله عليه وقتل كل من فيها وسبى ذراريهم وأخذ ما جاورها من البلاد ثم رحل عنها الى قلعة نغسى وحصرها فرآها عالية لا ترام يرتد البصر دونها وهو حسير إلا أنه أقام عليها يحصرها فخرجت

عجوز ساحرة فتكلمت باللسان الهندى طويلا وأخذت مكنسة فبلتها بالماء ورشته منها الى جهة عسكر المسلمين فمرض وأصبح لا يقدر أن يرفع رأسه وضعفت قوته ضعفا شديدا فرحل عن القلعة لشدة المرض فحين فارقها زال ما كان بها وأقبلت الصحة والعافية اليه وسار الى غزنة

﴿ ذكر غزوة ملك الروم قلعة بركوى ﴾

هذه قلعة متاخمة للأرمن كانت فى يد أبى الهيجاء بن ربيب الدولة ابن أخت وهودان بن مملان فتنافر هو وخاله فأرسل خاله الى الروم فأطمعهم فيها فسير ملك الروم اليها جمعا كثيرا فملكوها سنة خمس وعشرين وأربعمائة فبلغ الخبر الى الخليفة فأرسل الى أبى الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة فاصطلحا ولم يتمكنا من استعادتها واجتمع اليهما خلق كثير من المتطوعة فلم يقدروا على ذلك لثبات قدم الروم بها * وفى سنة سبع وعشرين اجتمع ابن وثاب وابن عطير وتظاهرا وجمعا جموعا وأمدهما نصر الدولة بن مروان بعسكر كثيف فساروا جميعا الى السويدور بض الرها وكان الروم قد أحدثوا عمارتها فى ذلك الوقت واجتمع اليها أهل القرى المجاورة لها فحصرها المسلمون وفتحوها عنوة وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل وغنموا ما فيها وسبوا خلقا كثيرا وقصدوا الرها فحصروها وقطعوا الميرة عنها واشتد الامر فخرج البطريق الذى فيها متخفيا ولحق بملك الروم وعرفه الحال فسير معه خمسة آلاف فارس فعاد بهم فعرف ابن وثاب ومقدم عساكر نصر الدولة الحال فكمنا لهم فلما قاربوهم خرج الكمين عليهم فقتل من الروم خلق كثير وأسر مثلهم وأسر البطريق وحمل الى باب الرها وقالوا لمن فيها اما أن تفتحوا الباب والا قتلنا البطريق والاسرى الذين معه ففتحوا الباب للعجز عن حفظه وتحصن أجناد الروم بالقلعة ودخل المسلمون المدينة وغنموا ما فيها وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبى وأكثروا القتل وأرسل ابن وثاب الى آمد مائة وستين راحلة عليها رؤس القتلى وأقام محاصرا للقلعة ثم ان حسان بن الجراح الطائى سار فى خمسة آلاف فارس من العرب والروم نجدة

لمن بالرها فسمع ابن وثاب بقربه فسار اليه مجدا ليلقاه قبل وصوله فخرج من الرها بجمع من الروم الى حران فقاتلهم أهلها وسمع ابن وثاب الخبر فعاد مسرعا فوقع على الروم فقتل منهم كثيرا وعاد المنهزمون الى الرها ثم صالح ابن وثاب الروم الذين بالرها لعجزه عنهم وسلم اليهم ربض الرها وكثر الروم بها وعمروها وحصنوها ٭ وفى سنة تسع وعشرين هادن المستنصر بالله العبيدى صاحب مصر ملك الروم وشرط عليه اطلاق خمسة آلاف أسير وشرط الروم عليه أن يعمروا بيعة قمامة فأرسل الملك اليها من عمرها وأخرج على عمارتها مالا جليلا ثم انتقضت الهدنة سنة ٣٢ وجهز الروم جيشا فالتقوا مع جيش المسلمين بين مدينة حماة وافامية واشتد القتال ثم ان الله نصر المسلمين وأذل الكافرين فانهزموا وقتل منهم عدة كثيرة وأسر ابن عم للملك وبذلوا فى فدائه مالا جزيلا وعدة وافرة من أسراء المسلمين وانكف الروم عن الاذى بعدها ٭ وفى سنة اثنتين وثلاثين أيضا قتل مسعود بن محمود سبكتكين وملك ابنه مودود والقاتل لمسعود أولاد أخيه محمد والقصة طويلة ليس هذا محل ذكرها ٭ وفى سنة خمس وثلاثين أخرج ملك الروم من القسطنطينية المسلمين والغرباء ونادى أن لا يقيم أحد وردالبلد منذ ثلاثين سنة فمن أقام بعدها كحل فخرج منها أكثر من مائة ألف انسان ولم يبق بها أكثر من اثنى عشر نفسا فضمنهم الروم فتركهم

﴿ ذكر تملك مودود بن مسعود بن محمد سبكتكين عدة من حصون بلاد الهند ﴾

وفى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة اجتمع ثلاثة من ملوك الهند وقصدوا لهاوور وحصروها فجمع مقدم العساكر الاسلامية بتلك الديار من عنده منهم وأرسل الى صاحبه مودود يستنجده فأرسل اليه العساكر فاتفق ان بعض أولئك الملوك فارقهم وعاد الى طاعة مودود فرحل الملكان الآخران الى بلدهما فسارت العساكر الاسلامية الى أحدهما فانهزم منهم وصعد الى قلعة له منيعة هو وعساكره فاحتموا بها وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل وحصرهم المسلمون وضيقوا عليهم وأكثروا القتل فيهم فطلب الهنود الامان

على تسليم الحصن فامتنع المسلمون من اجابتهم الى ذلك الا بعد أن يضيفوا الى ذلك باقي حصون ذلك الملك الذي لهم فحملهم الخوف وعدم الاقوات على اجابتهم الى ماطلبوا وتسلم المسلمون الجميع وغنموا الاموال وأطلقوا ما في الحصون من أسرى المسلمين وكانوا نحو خمسة آلاف نفر فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني فتقدم اليهم ولقيهم فاقتتلوا قتالا شديدا وانهزمت الهنود وأجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح وأسر ضعفاؤهم وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم فلما رأى باقي الملوك من الهند مالقي هؤلاء أذعنوا بالطاعة وطلبوا الامان وحملوا الاموال وطلبوا الاقرار على بلادهم فأجيبوا الى ذلك

﴿ ذكر أخبار الروم والروسية ﴾

وفي سنة خمس وثلاثين ورد الى القسطنطينية عدد كثير من الروسية في البحر يريدون حرب الروم فاجتمعت الروم على حربهم وكان بعضهم قد فارق المراكب الى البر فألقى الروم في مراكبهم النار فلم يهتدوا الى اطفائها فهلك كثير منهم بالحرق والغرق وأما الذين في البر فقاتلوا ثم انهزموا فلم يكن لهم ملجأ فمن استسلم أولا استرق ومن امتنع حتى أخذ فهر اقطع الروم أيمانهم وطيف بهم في البلد ولم يسلم منهم الاقليل مع ابن ملك الروسية ﴿ وفي سنة تسع وثلاثين سير المعز بن باديس صاحب افريقية أسطولا الى جزائر القسطنطينية فظفر وغنم وعاد

﴿ ذكر غزو السلجوقية بلاد الروم ﴾

ولنذكر أولا ابتداء ظهور الدولة السلجوقية أصلهم من الترك الذين مما وراء النهر أسلم جدهم سلجوق ووافقه على الاسلام جماعة منهم فخرج بهم من دار الحرب الى ديار الاسلام وصار يقاتل الكفار من الترك ووقع بينه وبين ملوك خراسان المسلمين وقائع وقتال يطول الكلام بذكره وولد له أولاد قاموا بالجهاد بعده وكثرت جموعهم وقويت شوكتهم وصاروا يتغلبون على ممالك خراسان والعراق شيأ فشيأ الى ان دخلوا بغداد وأذهبوا دولة بني بويه وتغلبوا على الخلفاء كما كان بنو بويه وكان دخولهم بغداد في خلافة القائم بأمر الله بن القادر بالله

ابن اسحاق بن المقتدر سنة سبع وأربعين وأربعمائة وكان الداخل منهم بغداد السلطان طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق وتوفى السلطان طغرلبك سنة خمس وخمسين وأربعمائة وصار الملك بعده لابن أخيه الب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق واستمر الملك فى بنيه الى سنة تسع وثمانين وخمسمائة وكان ابتداء تملكهم طوس وقيل الرى سنة أربعمائة وتسع وعشر بن فتكون مدة ملكهم مائة وستين سنة وطغرلبك ضبطه ابن خلكان بقوله بضم الطاء وسكون الغين المعجمة وضم الراء وسكون اللام وفتح الباء الموحدة بعدها كاف وهو اسم تركى مركب من طغرل وهو اسم علم وبك معناه أمير وسلجوق بفتح السين المهملة وسكون اللام وضم الجيم وسكون الواو وبعدها قاف وكانت هذه الغزوة التى سنذكرها قبل تملكهم بغداد وهذه الغزوة التى سنذكرها هى انه فى سنة أربعين وأربعمائة غزا السلجوقية بلاد الروم وقائد الجيش الامير ابراهيم اينال أخو السلطان طغرلبك السلجوقى فظفروا وغنموا ووصلوا الى ملازكرد وأرزن الروم وقاليقلا وبلغوا طرابزون وتلك النواحى كلها ولقيهم عسكر للروم يبلغون خمسين ألفا فاقتتلوا واشتد القتال بينهم وكانت بينهم عدة وقائع تارة يظفر هؤلاء وتارة هؤلاء وكان آخر الامر الظفر للمسلمين فأكثروا القتل فى الروم وهزموهم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم وممن أسر قاريط وكان من ملوكهم فبذل فى فداء نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف فلم يجب الى ذلك ولم يزل السلجوقية يجوسون تلك البلاد الى أن صار بينهم وبين القسطنطينية خمسة عشر يوما واستولى المسلمون على تلك النواحى فنهبوها وغنموا ما فيها وسبوا أكثر من مائة ألف رأس وأخذوا من الدواب والبغال والغنائم والاموال ما لا يقع عليه الاحصاء وحملت الغنائم على عشرة آلاف عجلة ومن جملة الغنائم عشرة آلاف درع * ثم فى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة أرسل ملك الروم الى السلطان طغرلبك هدية عظيمة وطلب منه الصلح والمعاهدة فأجابه اليها وعمر ملك الروم مسجدا بالقسطنطينية وكان بها كثير من المسلمين فأقاموا بالمسجد المذكور الصلاة

والخطبة لطغرلبك بأمر ملك الروم ثم بعد ذلك دانت الناس لطغرلبك وتمكن فى ملكه وتملك كثيرا من البلاد قبل دخوله بغداد

﴿ ذكر غزوة أخرى للسلجوقية ﴾

فى سنة ست وأربعين وأربعمائة سار طغرلبك سلطان السلجوقية الى أرمينية وقصد ملازكرد وهى للروم فحصرها وضيق على أهلها ونهب ماجاورها من البلاد وأخربها وهى مدينة حصينة وأثر السلطان المذكور فى هذه الغزوة آثارا عظيمة ونال منهم من النهب والقتل والاسر شيأ كثيرا و بلغ فى غزوته هذه الى ارزن الروم وعاد الى أذربيجان لما هجم الشتاء ومن السلجوقية قتلمش ابن عم طغرلبك كانت له ولبنيه دولة فى قونية واقصرا و بلاد الروم لان السلجوقية لما انتشروا فى البلاد طالبين للممالك دخل قتلمش هذا الى بلاد الروم وملك قونية واقصرا ونواحيها وافتتح بلادا واسعة وبقى الملك فى بنيه الى ظهور الدولة العثمانية فمن تلك الممالك التى افتتحوها وكانت تحت أيديهم قونية واقصرا وسيواس وتوقات وأنقورية وملطية و بلاد البستان وقيسارية وتيكسار وأماسية وأعمال هذه المدن

﴿ ذكر فتح الب ارسلان مدينة * آنى * وغيرها من بلاد النصرانية ﴾

فى سنة ست وخمسين وأربعمائة غزا السلطان الب ارسلان بلاد النصارى فسار من الرى الى أذربيجان ثم سلك مضايق الى أن وصل الى نقجوان فأمر بعمل السفن لعبور نهر أرس فقيل له ان سكان خوى وسلماس من أذربيجان لم يقوموا بواجب الطاعة وانهم قد امتنعوا ببلادهم فسير اليهم عميد خراسان ودعاهم الى الطاعة وتهددهم ان امتنعوا فأطاعوا وصاروا من جملة حزبه وجنده واجتمع عليه هنالك من الملوك والعساكر ما لا يحصى فلما فرغ من جمع العساكر والسفن سار الى بلاد الكرج وجعل عسكرا مع ولده ملكشاه ونظام الملك وزيره فسار ملكشاه ونظام الملك الى قلعة فيها جمع كثير من الروم فنزل أهلها منها وتخطفوا من العسكر وقتلوا منهم فئة كثيرة فنزل نظام الملك وملكشاه وقاتلوا من بالقلعة وزحفوا اليهم فقتل أمير القلعة وملكها المسلمون وساروا منها الى قلعة سرماري

وهى قلعة فيها المياه الجارية والبساتين فقاتلوها وملكوها وأنزلوا منها أهلها وكان بالقرب منها قلعة أخرى ففتحها ملكشاه وأراد تخريبها فنهاه الوزير نظام الملك عن ذلك وقال هى ثغر للمسلمين وشحنها بالرجال والاموال والسلاح والذخائر وسلم هذه القلاع الى أمير نقجوان وسار ملكشاه ونظام الملك الى مدينة مريم نشين وفيها كثير من الرهبان والقسيسين وملوك النصارى وعامتهم يتقربون الى أهل هذه البلدة وهى مدينة حصينة سورها من الاحجار الكبار الصلبة المشدودة بالرصاص والحديد عندها نهر كبير فأعد نظام الملك لقتالها ما يحتاج اليه من السفن وغيرها وقاتلها وواصل قتالها ليلا ونهارا وجعل العساكر عليها يقاتلون بالنوبة فضجر الكفار وأخذهم الاعياء والكلال فوصل المسلمون الى سورها ونصبوا عليه السلالم وصعدوا الى أعلاه لان المعاول كلت عن نقبه لقوة حجره فلما رأى أهلها المسلمين على السور فت ذلك فى أعضادهم أى أضعفهم وسقط فى أيديهم ودخل ملكشاه ونظام الملك البلد وأحرقوا البيع وخربوها وقتلوا كثيرا من أهلها وأسلم كثير منهم فنجوا من القتل واستدعى الب ارسلان ابنه ملكشاه ونظام الملك فلحقوه فى بلاد الكرج وفرح بما يسره الله من الفتح على يد ولده وفتح ملكشاه فى طريقه عدة من القلاع والحصون وأسر من النصارى مالا يحصى ثم ساروا جميعا مع السلطان الب ارسلان الى سبيذشهر فجرى بين اهلها وبين المسلمين حروب شديدة استشهد فيها من المسلمين كثير ثم ان الله تعالى يسر فتحها فلكها ألب أرسلان وسار منها الى مدينة اعال لال وهى حصينة عالية الاسوار شاهقة البنيان وهى من جهة الشرق والغرب على جبل عال وعلى الجبل عدة من الحصون ومن الجانبين الآخرين نهر كبير فلما رآها المسلمون علموا عجزهم عن فتحها والاستيلاء عليها وكان ملكها من الكرج وهكذا ما تقدم من البلاد التى ذكرنا فتحها وعقد السلطان جسرا على النهر عريضا واشتد القتال وعظم الخطب فخرج من المدينة رجلان يستغيثان ويطلبان الامان والتمسا من السلطان أن يرسل معهما طائفة من العسكر فسير جمعا صالحا فلما جاوز الفصيل أحاط بهم

الكرج من أهل المدينة وقاتلوهم فأكثروا القتل فيهم ولم يتمكن المسلمون من الهزيمة لضيق المسلك وخرج الكرج من البلد وقصدوا العسكر واشتد القتال وكان السلطان ذلك الوقت يصلى فأتاه الصريخ فلم يبرح حتى فرغ من صلاته وركب وتقدم الى الكفار وقاتلهم وكبر المسلمون عليهم فولوا منهزمين فدخلوا البلد والمسلمون معهم ودخلها السلطان وملكها واعتصم جماعة من أهلها فى برج من أبراج المدينة فقاتلهم المسلمون فأمر السلطان بالقاء الحطب حول البرج واحراقه ففعل ذلك وأحرق البرج ومن فيه وعاد السلطان الى خيامه وغنم المسلمون من المدينة مالا يحد ولا يحصى ولما جن الليل عصفت ريح شديدة وكان قد بقى من تلك النار التى أحرق بها البرج بقية كثيرة فأطارتها الريح فاحترقت المدينة بأسرها وملك السلطان قلعة حصينة كانت الى جانب تلك المدينة ثم سار منها الى ناحية قرس ومدينة آنى وبالقرب منها ناحيتان يقال لهما دسل ورده ونوره فخرج أهلهما مذعنين بالاسلام وخربوا البيع وبنوا المساجد وسار منهما الى مدينة آنى فوصل اليها فرآها مدينة حصينة شديدة الامتناع لا ترام ثلاثة أرباعها على نهر أرس والربع الآخر نهر عميق شديد الجرية لو طرحت فيه الحجارة الكبار لأخذها وحملها والطريق اليها على خندق عليه سور من الحجارة الصم وهى بلدة كبيرة عامرة كثيرة الاهل فيها مايزيد على خمسمائة بيعة فحصرها وضيق عليها الا ان المسلمين قد أيسوا من فتحها لما رأوا من حصانتها فعمل السلطان برجا من خشب وشحنه بالمقاتلة ونصب عليه المنجنيق ورماة النشاب فكشفوا الكرج عن السور وتقدم المسلمون اليه لينقبوه فأتاهم من لطف الله مالم يكن فى حسابهم فانهزمت قطعة كبيرة من السور بغير سبب فدخلوا المدينة وقتلوا من أهلها مالا يحصى عددهم بحيث ان كثيرا من المسلمين عجزوا عن دخول البلد بسبب كثرة القتلى وأسروا نحوا مما قتلوا وسارت البشرى بهذه الفتوحات فى البلاد فسر المسلمون وقرىء كتاب الفتح ببغداد فى دار الخليفة بالثناء فبرز خط الخليفة على ألب أرسلان والدعاء له

ورتب فيها أميرا في عسكر جرار وعاد عنها وقد راسله ملك الكرج في الهدنة فصالحه على أداء الجزية كل سنة فقبل ذلك * وفي سنة ثنتين وستين وأربعمائة أقبل ملك الروم من القسطنطينية في عسكر كثيف الى الشام ونزل على مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها وهزم جموع العرب ثم ارتحل وعاد الى بلاده ولم يمكنه المقام لشدة الجوع

﴿ ذكر خروج ملك الروم الى خلاط وأسره ﴾

في سنة ثلاث وستين وأربعمائة خرج ارمانوس ملك الروم في مائتي ألف من الروم والفرنج والروس والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد فجاؤا في تجمل كثير وزي عظيم وقصدوا بلاد الاسلام فوصلوا الى ملازكرد من أعمال خلاط فبلغ السلطان الب أرسلان الخبر وهو بمدينة خوي من أذربيجان وسمع ما فيه ملك الروم من كثرة الجموع فلم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو فسير الاثقال مع زوجته ونظام الملك الى همدان وسار هو فيمن معه من العساكر وهم خمسة عشر ألف فارس وجد في السير وقال لهم اني أقاتل محتسبا صابرا فان سلمت فنعمة من الله وان كانت الشهادة فان ابني ملكشاه ولي عهدي وساروا فلما قاربوا العدو جعل له مقدمة فصادفت مقدمته عند خلاط مقدم الروسية في نحو عشرة آلاف فاقتتلوا فانهزمت الروسية وأسر مقدمهم وحمل الى السلطان فجدع أنفه وأنفذ بالسلب الى نظام الملك وأمره أن يرسله الى بغداد فلما تقارب العسكران أرسل السلطان الى ملك الروم يطلب منه المهادنة فقال ملك الروم لا هدنة الا بالري فانزعج السلطان لذلك فقال له امامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي انك تقاتل عن دين الله وقد وعد الله بنصره واظهاره على سائر الاديان وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فانهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالاجابة فلما كانت تلك الساعة صلى بهم وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه وقال لهم من أراد الانصراف فلينصرف فما هاهنا سلطان يأمر وينهى وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس

وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتحنط وقال ان قتلت فهذا كفني وزحف الى الروم وزحفوا اليه فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه فحصل المسلمون فى وسطهم وحجز الغبار بينهم فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤا وأنزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وقتل منهم مالا يحصى حتى امتلأت الارض من جثث القتلى وأسر ملك الروم أسره بعض الغلمان فأراد قتله ولم يعرفه فقال له خادم مع ملك الروم لا تقتله فانه الملك وكان هذا الغلام الذى أسره قد عرضه سيده على نظام الملك فرده استحقارا له فأثنى عليه سيده فقال نظام الملك عسى أن يأتينا بملك الروم أسيرا فكان كذلك فلما أسر الغلام ملك الروم أحضره عند سيده فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك فأمر باحضاره فلما أحضره ضربه السلطان ألب أرسلان ثلاثة مقارع بيده وقال له ألم أرسل اليك فى الهدنة فأبيت فقال دعنى من التوبيخ وافعل ما تريد فقال السلطان ما عزمت أن تفعل بى ان أسرتنى فقال أفعل القبيح قال له فما تظن أنى أفعل بك قال اما أن تقتلنى واما أن تشهرنى فى بلاد الاسلام والاخرى بعيدة وهى العفو وقبول الاموال واصطناعى نائبا عنك قال ما عزمت على غير هذا ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وأن يرسل اليه عساكر الروم أى وقت طلبها وأن يطلق كل أسير فى بلاد الروم واستقر الامر على ذلك وأنزله فى خيمة وأرسل اليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها وأطلق له جماعة من البطارقة وخلع عليه من الغد فقال ملك الروم أين جهة الخليفة فدل عليها فقام وكشف رأسه وأومأ الى الارض بالخدمة وهادنه السلطان خمسين سنة وسيره الى بلاده وسير معه عسكرا أوصلوه الى مأمنه وشيعه السلطان فرسخا * وأما الروم فانهم لما بلغهم خبر الوقعة وأسر الملك وثب ميخائيل على المملكة فملك البلاد فلما وصل أرمانوس الملك الى قلعة دوقية بلغه الخبر فلبس الصوف وأظهر الزهد وأرسل الى ميخائيل يعرفه ما تقرر مع السلطان وقال ان شئت أن تفعل ما استقر وان شئت أمسكت فأجابه ميخائيل بايثار ما استقر وطلب

وساطته وسؤال السلطان فى ذلك وجمع أرمانوس عنده من المال وكان مائتى ألف دينار فارسله الى السلطان وطبقا ذهبا عليه جواهر بتسعين ألف دينار وحلف له أنه لا يقدر على غير ذلك ثم ان ارمانوس استولى على أعمال الأرمن و بلادهم ومدح الشعراء السلطان الب أرسلان وذكروا هذا الفتح فأكثروا لأنه يشبه فتوحات الصحابة رضى الله عنهم

﴿ ذكر مقتل السلطان الب ارسلان ﴾

فى سنة خمس وستين وأربعمائة قصد السلطان الب ارسلان ماوراء النهر لقتال ملك من ملوك الاسلام خرج عن طاعته اسم الملك شمس الملك فعقد على جيحون جسرا وعبر عليه فى نيف وعشرين يوما وعسكره يزيد على مائتى ألف فارس فأتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يعرف بيوسف الخوارزمى جرى منه جناية وارتكاب وحمل الى قرب سريره مع غلامين فأراد عقابه على ارتكابه فأمر أن تضرب له أربعة أوتاد وتشد أطرافه اليها فقال له يوسف يا مخنث مثلى يقتل هذه القتلة فغضب السلطان الب ارسلان وأخذ القوس والنشاب وقال للغلامين خلياه ورماه السلطان بسهم فأخطأه ولم يكن يخطئ سهمه فوثب يوسف يريده والسلطان على سريره فقام عنه وعثر فوقع فبرك عليه يوسف وضربه فى خاصرته بسكين كانت معه وقتل الاتراك يوسف وقطعوه ونهض السلطان فدخل الى خيمة أخرى ومات السلطان من جراحته ثلاث بعد أيام وكان أهل سمرقند لما بلغهم عبور السلطان النهر اجتمعوا وختموا ختمات وسألوا الله أن يكفيهم أمره فاستجاب الله لهم ولما جرح السلطان قال ما من وجه قصدته وعدو أردته الا استعنت بالله تعالى عليه ولما كان أمس صعدت على تل فارتجت الارض تحتى من عظم الجيش وكثرة العسكر فقلت فى نفسى أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد على فعجزنى الله تعالى بأضعف خلقه وأنا أستغفر الله وأستقيله من ذلك الخاطر وملك بعده ابنه ملكشاه * وفى سنة سبع وستين وأربعمائة توفى القائم بأمر الله وبويع حفيده المقتدى بأمر الله * وفى سنة ثمان وستين أخذت مدينة منبج من

الروم ورجعت الى الاسلام والذى انتزعها منهم نصر بن محمود بن مرداس

﴿ ذكر فتوح فى بلاد الهند ﴾

فى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة غزا الملك ابراهيم بن مسعود بن محمود سبكتكين صاحب غزنة بلاد الهند فحصر قلعة أجود وهى على مائة وعشرين فرسخا من لهاور وهى قلعة حصينة فى غاية الحصانة كبيرة تحتوى عشرة آلاف رجل من المقاتلة فقاتلوه وصبر وا تحت الحصر وزحف اليهم غير مرة فرأوا من شدة حربه ماملأ قلوبهم خوفا ورعبا فسلموا القلعة اليه وفتح أيضا قلعة روبال وكانت على رأس جبل وليس لها طريق الا من مكان ضيق مملوء بالفيلة والمقاتلة وبها من رجال الحرب ألوف كثيرة فتابع عليهم الوقائع وألح عليهم بالقتال بجميع أنواع الحرب الى أن ملك القلعة واستنزلهم منها وكان فى موضع يقال له دره نوره أقوام من الكفار لم يتعرض اليهم احد من الملوك فسار اليهم ابراهيم ودعاهم الى الاسلام أولا فامتنعوا من اجابته وقاتلوه فظفر بهم وأكثر القتل فيهم وتفرق من سلم منهم فى البلاد وسبى واسترق من النسوان والصبيان مائة ألف ثم قصد موضعا آخر يقال له وره فى طريقه عقبات كثيرة وأشجار ملتفة وأهله كفار فقاتلهم ثلاثة أشهر الى أن نصره الله عليهم فقتل كثيرا منهم وسبى وغنم وعاد سالما وكان ابراهيم بن مسعود بن محمود عاقلا ذا رأى متين فمن آرائه أن السلطان ملكشاه السلجوقى جمع عساكره يريد قتال ابراهيم المذكور فى غزنة وينتزع الملك منه ونزل باسفرار فكتب ابراهيم بن مسعود كتابا الى جماعة من أعيان أمراء ملكشاه يشكرهم ويعتذر لهم بما فعلوا من تحسين قصد ملكشاه بلاده ليتم لنا ما استقر بيننا من الظفر به وتخليصهم من يده ويعدهم الاحسان على ذلك وأمر القاصد بالكتب أن يتعرض ملكشاه فى الصيد ففعل ذلك فأخذ وأحضر عند السلطان فسأله عن حاله فأنكره فأمر السلطان بجلده فجلد فدفع الكتب اليه بعد جهد ومشقة فلما وقف ملكشاه عليها تخيل على أمرائه وترك المسير الى ابراهيم وعاد الى بلده ولم يقل لأحد من أمرائه فى هذا الأمر شيأ خوفا أن

يستوحشوا منه ثم وقعت المكاتبة بينه و بين ابراهيم والمصافاة حتى زوج ابنه مسعودا بابنة ملكشاه

﴿ ذكر فتح انطاكية وانتزاعها من الروم ﴾

في سنة سبع وسبعين وأربعمائة سار سليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب قونية الى الشام فملك مدينة انطاكية وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة حصرها بعساكرها ونصب السلالم فصعدوا عليها وأخذ البلد فقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى وقتل كثيرا من أهلها ثم أذعنوا له فعفا عنهم وتسلم القلعة وأحسن الى الرعية ورجع سالما

﴿ ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة صقلية ﴾

في سنة أربع وثمانين وأربعمائة خرج الفرنج بجموع كثيرة وتملكوا جزيرة صقلية بعد حروب كثيرة وكان ملوك المسلمين بصقلية لما ضعف أمر الخلفاء قد تفرقوا ممالك صقلية وصارت كل جهة منها بيد ملك متغلب عليها مستبد لا يسأل عن غيره فصار الفرنج ينتزعون تلك الممالك منهم مملكة بعد مملكة الى أن بقي بأيدي المسلمين قصريانة وجرجنت فحصرهما الفرنج في سنة أربع وثمانين وأربعمائة بجيوش كثيرة فكان من ذلك ذل للمسلمين وتضييق شديد عليهم حتى أكلوا الأموات فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا الى التسليم فتسلمها الفرنج لعنهم الله تعالى في السنة المذكورة فصارت الجزيرة كلها بأيديهم * وفي سنة خمس وثمانين توفي السلطان ملكشاه السلجوقي ووقع بين أولاده اختلاف وحروب كثيرة لطلب الملك * وفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي المقتدي بأمر الله وبويع ابنه المستظهر بالله ثم ان الفرنج لما ملكوا صقلية بالتمام كان الملك عليهم رجار الفرنجي من ملوك ايطاليا ثم طمعوا في تملك كثير من افريقية فخرجوا في أسطول كبير وجم غفير من مشهوري فرسان الفرنج فحاصروا مدينة جربة ونزلوا بساحتها وأدار والمراكب بجهاتها فاجتمع أهلها وقاتلوا قتالا شديدا فقتل منهم بشر كثير ثم انهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا حريمها

ها وهلك أكثر رجالها ومن بقي منهم أخذوا لأنفسهم أمانا من صاحب صقلية وافتكوا أسراهم وسبيهم وحريمهم ثم بعد مدة سارت مراكب الفرنج من صقلية الى طرابلس الغرب فحصروها وعلقوا الكلاليب فى سور البلد ونقبوه ثم وصل جماعة من العرب نجدة لأهل البلد فقوى أهل البلد بهم فخرجوا الى الاسطول فحملوا عليه حملة منكرة فانهزموا هزيمة فاحشة وقتل منهم خلق كثير ولحق الباقون بالاسطول وتركوا الاسلحة والاثقال والدواب والآلات فنهبها العرب وأهل البلد ورجع الفرنج الى صقلية فجهزوا أسلحتهم وتجهزوا الى المغرب فوصلوا الى جيجل فلما رآهم أهل البلد هربوا الى البرارى والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذى بناه الامير يحيى بن عبد العزيز بن حماد للنزهة ثم عادوا ثم جهزوا أسطولا كثيرا وسيروه الى طرابلس الغرب فأحاطوا بها برا وبحرا فخرج اليهم أهلها وأنشبوا القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع وقع اختلاف بين أهل طرابلس مع بعضهم آل الأمر فيه الى قتال بعضهم بعضا فانتهز الفرصة الفرنج ونصبوا السلالم وطلعوا على السور واشتد القتال فملكت الفرنج البلد عنوة وقهرا بالسيف فسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم وهرب من قدر على الهرب والتجأ الى البربر والعرب ثم نودى بالامان فى كافة الناس فرجع كل من فر منها وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصنوا سورها وحفروا خندقها ولما رجعوا أخذوا رهائن من أهلها وولوا عليها رجلا من أهلها وأخذوا رهائنه وحده وأعادوا رهائن غيره واستقامت أمور المدينة وألزم ملكهم أهل صقلية والروم بالسفر اليها وعمرت سريعا ثم ان أهل قابس عصى أميرهم على الحسن بن على بن يحيى بن تميم أمير افريقية وكاتب صاحب صقلية وبذل له الطاعة وقال له أريد منك خلعة وعهدا بولاية قابس لأكون نائبا عنك فسير اليه صاحب صقلية الخلعة والعهد فلبسها وقرئ العهد بجمع من الناس فسمع بذلك الحسن أمير افريقية فجهز عسكرا كثيرا فساروا الى قابس ونازلوها وحصروها فثار أهل البلد بالامير

الذى ملكها لصاحب صقلية وقبضوا عليه بعد قتال بينهم و بينه وسيروه الى أمير افريقية فقتله بعد تعذيبه بأنواع العذاب من ذلك أنهم قطعوا ذكره وجعلوه فى فيه وتولى على قابس معمر بن رشيد وهرب جماعة من أقارب الامير الأول الى صقلية وشكوا الى صاحب صقلية واستجاروا به فغضب لذلك فجهز أسطولا كثيرا بلغ نحو مائتين وخمسين شينيا مملوءة رجالا وسلاحا وقوتا وقصدوا المهدية وكان بها أمير افريقية الحسن بن على وكان قد حصل بافريقية فى تلك السنين قحط وغلاء شديد حتى ان أكثر الناس فارقوا البلاد والقرى وصاروا الى صقلية فلما علم الحسن بن على بمسير الفرنج اليه جمع الفقهاء والأعيان وشاورهم فى القتال فقالوا نقاتل عدونا فان بلدنا حصين فقال أخاف أن يحصرونا برا وبحرا ويحولوا بيننا وبين الميرة وليس عندنا ما نقتات به شهرا فنؤخذ قهرا وأنا أرى سلامة المسلمين من الاسر والقتل خيرا من الملك فالرأى أن نخرج بالأهل والولد ونسلم البلد فمن أراد أن يفعل ذلك فليبادر ثم أمر فى الحال بالرحيل وأخذ معه من حضره وما خف حمله وخرج ناس كثير معه بأهلهم وأموالهم وأولادهم ومن الناس من اختفى عند النصارى وفى الكنائس ثم دخل الفرنج البلد بلا ممانع ولا مدافع ووجدوا قصر الأمير بحاله لم يأخذ الحسن منه الا ما خف من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه ورأوا الخزائن مملوءة من الذخائر وكل شئ نفيس غريب يقل وجود مثله فختم الفرنج عليه وجمعوا اسرارى الحسن من قصره ونهبت المدينة مقدار ساعتين ثم نادوا بالامان فخرج من كان مستخفيا وبعد جمعة رجع أهل البلد وأما الحسن أمير افريقية فانه سار الى ملك مراكش عبد المؤمن بن على فأكرمه وأحسن نزله وبقى عنده مكرما الى أن فتح المهدية عبد المؤمن بن على كما سيأتى ذكر ذلك ولما استقر الفرنج بالمهدية سيروا أسطولا الى سفاقس وأسطولا الى مدينة سوسة وأسطولا الى قابس فأما أهل سوسة فانهم لما سمعوا خبر المهدية وكان أميرهم على بن الحسن أمير افريقية خرج على المذكور والتحق بأبيه الحسن وخرج الناس لخروجه ودخل الفرنج البلد بلا قتال وأما سفاقس فان أهلها أتاهم كثير من العرب

فامتنعوا بهم ففاتلهم الفرنج فخرج اليهم أهل البلد فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم الناس حتى أبعدوا عن البلد ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم الى البلد وقوم الى البرية وقتل منهم كثير ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة وأسر من بقي من الرجال وسبي الحريم ثم نودي بالامان فعاد أهلها اليها وافتكوا حريمهم وفعلوا مثل ذلك بقابس وملكوها ثم سار الفرنج الى قلعة قليبية وهي قلعة حصينة فلما وصلوا اليها سمع بذلك العرب فاجتمع منهم خلق كثير وقاتلوا الفرنج حتى هزموهم وقتلوا من الفرنج خلقا كثيرا فرجعوا خاسرين الى المهدية ثم رجع الفرنج اليهم مرة أخرى وملكوها والحاصل ان الفرنج لما ملكوا صقلية تتابعت اغاراتهم على افريقية فملكوا الجزائر ومالطة وجربة وتطاون وغير ذلك وصار للفرنج من طرابلس الغرب الى قريب تونس ومن الغرب الى القيروان وكانت هذه الوقائع متتابعة في سنين وكان انتهاؤها سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وذكرناها متتابعة ليتصل بعضها ببعض * وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة اختلف ملك الفرنج صاحب صقلية وملك القسطنطينية وجرى بينهما حروب كثيرة ودامت عدة سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا ذلك لملك صاحب صقلية جميع بلاد أفريقية وكان القتال بينه وبين صاحب القسطنطينية براو بحرا والظفر في جميع ذلك لصاحب صقلية حتى دخل فم المينا وأخذ عدة شواني لصاحب القسطنطينية وأسر كثيرا من الروم ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب وكان الذي يفعل هذا بالروم وبالمسلمين جرجي وزير صاحب صقلية ثم هلك جرجي ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه فعقد صلحا مع صاحب القسطنطينية وسكنت الفتنة * وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة هلك رجار ملك صقلية وكان عمره قريبا من ثمانين سنة وملك بعده ولده غليالم وكان فاسد التدبير وسلك طريقة ملوك الاسلام من الجنائب والحجاب وغير ذلك وأسكن في جزيرة صقلية الفرنج مع المسلمين وأكرم المسلمين ومنع من التعدي عليهم وقربهم فخرج عن حكمه عدة حصون من حصون صقلية وتعدى الامر الى

افريقية فانه لما كانت سنة احدى وخمسين وخمسمائة قوى طمع الناس فيه فخرج عن طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقنة وأظهروا الخلاف عليه وخالف عليه أهل افريقية منهم أهل سفاقس وقد كان أبو هرجار لما ملكها استعمل عليها أبا الحسين الفرياني وكان من العلماء الصالحين فأظهر العجز والضعف وقال له استعمل ولدى فاستعمل ولده عمر بن أبي الحسين وأخذ أباه رهينة الى صقلية فلما أراد المسير اليها قال لولده عمر انى كبير السن وقد قارب أجلى فتى أمكنتك الفرصة فى الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر نى انى أقتل واحسب أبى قدمت فلما وجد الفرصة دعا أهل المدينة الى الخلاف وقال يطلع جماعة منكم الى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم و يقتلونهم كلهم فقالوا له ان سيدنا الشيخ والدك نخاف عليه قال هو أمرنى بهذا واذا قتل بالشيخ ألوف من الاعداء فامات فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم ثم تبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وفعل مثل فعله و بعدهما محمد بن رشيد بقابس وسار عسكر لعبد المؤمن الى بونة فملكوها وخرج جميع افريقية عن حكم الفرنج ماعدا المهدية وسوسة وأرسل عمر بن أبي الحسين الى زويلة وهى مدينة بينها و بين المهدية نحو ميدان يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد الى زويلة فأعانوا أهلها على من بها من الفرنج وقطعوا الميرة عن المهدية فلما اتصل الخبر بغليالم ملك صقلية أحضر أبا الحسين والد عمر صاحب سفاقس وعرفه مافعل ابنه وأمره أن يكتب اليه ينهاه عن ذلك و يأمره بالعود الى طاعته و يخوفه عاقبة فعله فقال له من قدم على هذا لا يرجع بكتاب فأرسل ملك صقلية اليه رسولا يتهدده و يأمره بترك ما ارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك فلما كان الغد خرج أهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا وأرسل عمر الى الرسول يقول له هذا أبى قد دفنته وقد جلست للعزاء فاصنعوا به ما أردتم فعاد الرسول الى غليالم فأخبره بما صنع عمر بن أبى الحسين فأخذ أباه وصلبه فلم يزل يذكر الله حتى مات وأما أهل

زو يلة فانهم كثر جمعهم بالعرب و بأهل سفاقس وغيرهم فحصروا المهدية وضيقوا عليها وكانت الاقوات بالمهدية قليلة فسير اليهم صاحب صقلية عشرين شينيا فيها الرجال والطعام والسلاح فدخلوا البلد وأرسلوا الى العرب و بذلوا لهم مالا لينهزموا وخرجوا من الغد فاقتتلوا هم وأهل زويلة فانهزمت العرب و بقي أهل زويلة وأما أهل سفاقس فانهم ركبوا في البحر فنجوا و بقي أهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا الى زويلة فوجدوا أبوابها مغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل أكثرهم ولم ينج الا القليل فتفرقوا ومضى بعضهم الى عبد المؤمن فلما قتلوا من قتلوا هرب من سلم من الحرم والصبيان والشيوخ في البر ولم يعرجوا على شيء من أموالهم ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والاطفال ونهبوا الاموال واستقر الفرنج بالمهدية الى ان أخذها عبد المؤمن وسيأتي ان شاء الله ذكر ذلك هذا حاصل ما كان من الفرنج في افريقية ❊ وأما ما كان منهم في هذه السنين في الديار الشامية فسيأتي ذكره عند ذكر الحرب المسمى بحرب الصليب لكن ينبغي قبل ذلك ان نذكر بقية ما كان بالاندلس من الفتوحات والغزوات وما يتبع ذلك ثم بعد اتمام ذلك نذكر حرب الصليب

﴿ اتمام الكلام على غزوات الاندلس وما يتبع ذلك ﴾

قد تقدم ذكر بعض غزوات الاندلس باختصار ولو بسط الكلام فيها لطال و بقي كثير من غزواتها وأخبارها لم يذكر فينبغي اتمام الكلام على ذلك تتميما للفائدة وأكثر التواريخ لم يذكروا فيها كثيرا من أخبار الاندلس فصار المشهور المستفيض عند أكثر الناس أخبار غير الأندلس مع ان المسلمين كان لهم بالاندلس ملك ضخم وكانت لهم وقائع ومجامع وأخبار عجيبة فينبغي ذكر كثير من ذلك وان كان في بعض تلك الاخبار زيادة على الغزوات والفتوحات التي لاجلها كان جمع هذا الكتاب لان ذكر ذلك يحصل به زيادة فائدة ولا يخل بمقصود الكتاب وقد تقدم أن الاندلس فتح في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة اثنتين

وتسعين على يد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بضم النون مصغرا والصاد المهملة وهو مولى عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز وعبد العزيز هو أخو عبد الملك بن مروان والاندلس مشتمل على فحول العلماء المبرزين في كثير من الفنون ومشتمل على كثير من العجائب والمعادن وغير ذلك قال في نفح الطيب نقلا عن لسان الدين بن الخطيب خص الله بلاد الاندلس من الريع وغدق السقيا ولذاذة الاقوات وفراهة الحيوان ودرور الفواكه وكثرة المياه وتبحر العمران وجودة اللباس وشرف الآنية وكثرة السلاح وصحة الهواء وابيضاض ألوان الاسنان ونبل الاذهان وفنون الصنائع وشهامة الطباع ونفوذ الادراك واحكام التمدن بما حرمه الكثير من الاقطار مما سواها أعادها الله للاسلام ببركة النبي عليه الصلاة والسلام وقال أيضا ان الاندلس بلد كريم البقعة طيب التربة خصب الجنان منبجس الانهار الغزار والعيون العذاب قليل الهوام وذوات السموم معتدل الهواء والجو والنسيم ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال وتوسط من الحال تتصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة وفي نفح الطيب ان من الاندلس مدينة شنترة من خواصها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضي أربعين يوما من زراعته وان التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر قال ابن اليسع قال لي أبو عبد الله الباكوري وكان ثقة أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلا من أهل شنترة أهدى اليه أربعا من التفاح ما يقل الحامل على رأسه غيرها دور كل واحدة خمسة أشبار وفي الاندلس من أنواع المعادن ما لا يحصى وفيه المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع الجليلة وطول الاندلس ثلاثون يوما وعرضه سبعة أيام ويشقها أربعون نهرا كبارا وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وأزيد من ثلاثمائة من المتوسط وفيها من القرى والحصون ما لا يحصى كثرة حتى قيل ان عدد القرى التي على نهر اشبيلية اثنا عشر ألف قرية وقيل ان طول الاندلس أربعون يوما وعرضه ثمانية عشر يوما وأما طيب ثمار الاندلس فلا

يعادله شئ فى الدنيا قال بعض العلماء ان النصارى حرموا جنة الآخرة فأعطاهم الله جنة الدنيا يعنى بذلك الاندلس وقال بعضهم ان المرية مدينة من مدائن الاندلس كان بها النسج طرز الحرير ثلاثمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللاسقلاطون كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانية كذلك وكان بها من الحمامات نحو الالف واتسع ملك المسلمين فيها وكانت دور قرطبة أربعة عشر ميلا وعرضها ميلان وعدد دور الرعايا الواجب على أهلها المبيت داخل السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار غير دور الوزراء وأكابر الناس وعدة دور أهل الدولة ستة آلاف دار وثلاثمائة دار ومساجدها ثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاثون مسجدا وحماماتها سبعمائة وكانت قرطبة قبة الاسلام وبها استقر سرير الخلافة المروانية وهى معدن العلماء وهى من الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد ومسجدها ليس له نظير فى الدنيا طوله ثلاثمائة وثلاثون ذراعا وعرضه مائتان وخمسون ذراعا وسواريه ألف وأربعمائة وهو مزخرف بالرخام والمرمر وماء الذهب واللازورد وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منها منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا فى الاحكام اليه وكانوا لا يكون فيهم مقلص الا من حفظ الموطأ وقيل الا من حفظ عشرة آلاف حديث وحفظ المدونة وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليه ويخبرونه بأحوال بلدهم ويجعلون فى مساجدهم نوابا يصلون بالناس الجمعة نيابة عنهم وتقدم ان ملوك بنى أمية الذين كانوا بالأندلس أول من تملك منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ويقال له عبد الرحمن الداخل كان ابتداء ملكه بالأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة هرب من الشام مستخفيا حين كان ابتداء دولة بنى العباس وكانوا يقتلون بنى أمية فلما كان بالاندلس تغلب على عمال بنى العباس الذين كانوا بالاندلس وانتزع الملك منهم فكان له ملك ضخم وكان فى عصر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس وكان المنصور يسميه صقر قريش قال المنصور يوما لاصحابه أخبرونى عن صقر

قريش من هو قالوا أمير المؤمنين يعنون المنصور الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الادواء وأباد الاعداء قال ماصنعتم شيأ قالوا فمعاوية قال ولا هذا قالوا فعبد الملك بن مروان قال ولا هذا قالوا فمن ياأمير المؤمنين قال عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذى عبر البحر وقطع القفر ودخل بلدا أعجميا مفردا فمصر الامصار وجند الاجناد ودوّن الدواوين وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه وعبد الملك كان ببيعة له عقدها وأمير المؤمنين يعنى نفسه بطلب غيره واجتماع شيعته وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه اه وقد كانت مدة ملك عبد الرحمن الداخل ثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر توفى سنة اثنتين وسبعين ومائة وعمره تسع وخمسون أوثمان وخمسون سنة ومن عقبه الخليفة عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد عبد الرحمن الاوسط بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ولى الملك سنة ثلاثمائة وتوفى سنة ثلاثمائة وخمسين واتسع الملك بالاندلس فى مدته ومن اختراعاته انه بنى تجاه قرطبة مدينة سماها الزهراء لسكناه هى من عجائب الدنيا دالة على عظم قدر بانيها وأنفق فيها من الاموال خمسة وسبعين مائة ألف دينار وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى لهم من اللحم كل يوم ثلاثة عشر ألف رطل غير أنواع الطير والحوت وعدد النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار والخدم ستة آلاف وثلاثمائة وأربعة عشر وعدد الصبيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وسبع وثمانون وقيل ستة آلاف وثمانمائة وثمانون والمرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة وينقع لها من الحمص كل يوم ستة أقفزة وأما أوصاف مدينة الزهراء فانها طويلة ثم لما كثرت الفتن فى الاندلس هدمت تلك المدينة *

ومن أغرب مايحكى عن الناصر أنه أراد الفصد يوما فقعد فى البهو الكبير المشرف بأعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك فأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر فبينما هو كذلك اذ أطل زرزور فصعد على اناء من ذهب فى المجلس وأنشد ذلك الزرزور

أيها القاصد رفقا بأمير المؤمنينا * انما تقصد عرقا فيه محيي العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف الناصر ذلك وسر به غاية السرور وسأل عمن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور فذكروا له ان أم ولده الحكم صنعت ذلك وأعدته لذلك الامر فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار وتقدم أن الناصر مكث فى الملك خمسين سنة وكان اذا حصل له يوم كان مسرورا فيه بدون نكد وتكدير يكتبه ووجد ذلك مكتوبا بخطه فاذا هى أربعة عشر يوما فى تلك الخمسين سنة وكان جده هشام بن عبد الرحمن الداخل يقتدى فى سيرته بعمر بن عبد العزيز وكان يبعث بقوم من ثقاته يسألون الناس عن سيرة عماله ويخبرونه بحقائقها فاذا انتهى اليه جور من أحد من عماله أوقع به وأسقطه وأنصف منه ولم يستعمله ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن للامام مالك رضى الله عنه قال نسأل الله أن يزين موسمنا بمثل هذا وفى رواية نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم أو كلاما هذا معناه فبلغ هشاما ما قاله مالك مع ما بلغه من جلالة مالك ودينه فحمل هشام الناس على مذهب مالك وكانوا قبل ذلك يأخذون بمذهب الاوزاعى فهشام هو السبب فى انتشار مذهب الامام مالك بالمغرب وغزا هشام مدينة أربونة الشهيرة وافتتحها واشترط على المعاهدين من أهل جليقية أن ينقلوا اعدادا من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونها الى باب القصر بقرطبة فبنى منه المسجد الذى أمام باب الجنان ومناقب هشام هذا كثيرة قال فى العقد الفريد فى وصفه هو أحسن الناس وجها وأشرفهم نفسا الكامل المروءة الحاكم بالكتاب والسنة الذى أخذ الزكاة على حلها ووضعها فى حقها لم يعرف منه هفوة فى حداثته ولا زلة فى أيام صباه وكان يصر الصرر بالاموال فى ليالى المطر والظلمة ويبعث بها الى المساجد فيعطى من وجد فيها يريد بذلك عمارة المساجد بالعلم والعبادة وأوصى رجل فى زمنه بمال فى فك سبية من أرض العدو فطلبت فلم توجد أسيرة احترامنه للثغر واستنقاذا لاهل السبى وكان فى أيامه المنجم الضبى وكان مشهورا بكمال المعرفة فى علم النجوم فلما ولى هشام الملك سأله عن مدة ملكه فأخبره أنه نحو ثمانية سنين

فأطرق هشام ساعة ثم رفع رأسه وقال ياضبي ما أخوفني أن يكون النذير كلمني بلسانك والله ان هذه المدة لو كانت في سجدة لله تعالى لكانت قليلا في طاعته ثم ازداد زهدا في الدنيا وفعلا للخير توفي سنة ثمانين ومائة وولي بعده ابنه الحكم بن هشام وكان الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل يشبه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في توطيد الدولة وشدة الملك وقمع الاعداء وغضب الحكم يوما على خادم فأمر بقطع يده وحضر عنده زياد بن عبد الرحمن فقال له زياد أصلح الله الامير ان مالكا حدثني في خبر رفعه ان من كظم غيظا يقدر على انفاذه ملأه الله تعالى أمنا وايمانا يوم القيامة فأمر أن يمسك عن الخادم وأن يعفى عنه ثم قال له آلله ان مالكا حدثك بهذا فقال زياد آلله ان مالكا حدثني بهذا * ومما يحكى عن الحكم بن هشام أن عمه سعيدا الخير بن عبد الرحمن الداخل كان له خصومة مع ابن بشير وكان مع سعيد الخير وثيقة فيها شهادات شهود من جملتهم الحكم بن هشام كان شهد بها قبل أن يصير خليفة فجاء عمه سعيد الخير يطلب منه الشهادة وهو خليفة فخشي أن القاضي يرد شهادته فأرسل قبل أن يؤدي الشهادة ورقة بخطه للقاضي يخبره بأنه يشهد على ذلك القاضي أن يقبل فأبى شهادته فلم يغضب من رد شهادته بل قال ان القاضي رجل صالح ولا تأخذه في الله لومة لائم ومن أخبار عبد الرحمن بن الحكم بن هشام انه أغضب جاريته طروب فهجرته وكان يحبها فأرسل اليها يترضاها فأبت وأغلقت باب مجلسها فأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ففعلوا و بنوا عليها بالبدر فأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضيا راغبا في المراجعة على أن لها جميع ما سد به الباب من البدر فأجابت وفتحت الباب فانهالت البدر في بيتها فأكبت على رجله تقبلها وحازت المال وكانت تبرم الامور مع محضر الخصي فلا يرد شيأ تبرمه وخلف عبد الرحمن المذكور من الذكور مائة وخمسين ومن الاناث خمسين وكانوا يسمونه عبد الرحمن الاوسط * ومن أخبار عبد الرحمن الناصر أنه لما بنى الزهراء صنع له قبة لجلوسه وزخرفها وزينها بالذهب وصنع طعاما دعا اليه

العلماء وجلس فى تلك القبة فلما حضر العلماء ومعهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى فلما رأى تلك القبة جعلت دموعه تتحادر على لحيته ثم قال والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله تعالى يبلغ منك هذه المبلغ ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين فانفعل عبد الرحمن الناصر لقوله وقال له انظر ما تقول وكيف أنزلتنى منزلتهم قال نعم أليس قال الله تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون الآية فوجم الخليفة وطرق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله تعالى ثم أقبل على منذر فقال له جزاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيرا وعن الدين والمسلمين أجل جزائه وكثر فى الناس أمثالك وأمر بنقض سقف القبة الذى طلوه بالذهب وأعادها على صفة ليس فيها ما ينكر عليه فيه وكان القاضى منذر بن سعيد ذا علم متين وذكاء رصين متفننا فى العلوم عاملا بعلمه ورعا زاهدا وكان خطيبا بليغا آية فى الوعظ لا يسمع أحد وعظه الا خشع وبكى وكان حاضر الجواب قوى الحجة ذا منظر جميل وخلق جيد وتواضع لأهل الطلب وانحطاط اليهم واقبال عليهم قد أفردت ترجمته بتأليف ولد رضى الله عنه سنة خمس وستين ومائتين وتوفى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وعمره تسعون سنة ولاه الناصر قضاء الجماعة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ولبث قاضيا من ذلك التاريخ للخليفة الناصر الى أن توفى الناصر فأبقاه فى قضاء الجماعة الحكم بن الناصر واستمر منذر المذكور فى القضاء الى أن توفاه الله سنة خمس وخمسين وثلاثمائة فكانت مدة ولايته لقضاء الجماعة ست عشرة سنة وقضاء الجماعة عند أهل المغرب هو المعبر عنه عند أهل المشرق بقاضى القضاة * وله رحمه الله تآليف منها كتاب أحكام القرآن والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من كتب الفقه وغيرها وقد تقدم ذكر غزو عبد الرحمن الناصر الجلالقة سنة ثمان وثلاثمائة وانه وطئ بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب حصونهم ثم غزا ببنبلونة سنة ثلاثمائة وثنتى عشرة ودخل دار الحرب

ودوخ البسائط وفتح المعاقل وخرب الحصون وأفسد العمائر وجال فيها وتوغل فى قاصيتها والعدو يحاذيه فى الجبال والاوطار فلم يقدر العدو أن يظفر منه بشيء ورجع سالما وقسم الغنائم ثم بعد مدة ثار عليه بعض المسلمين واستعان بالنصارى فظفر بذلك الثائر وقتله وقتل من كان معه من النصارى أهل ألبة وسار اليهم وفتح ثلاثين من حصونهم وكان البشكنس ملكوا عليهم امرأة يقال لها طوطرة وانعقد بينه وبينهم صلح ثم نقضوا ذلك الصلح فغزا طوطرة ملكة البشكنس فى بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع الى قرطبة ثم غزا الجلالقة سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وسار اليهم بنفسه فنزل على دار مملكة الجلالقة وهى مدينة سمورة عليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السابقة وبين الأسوار وصلات ومياه واسعة فافتتح منها سورين وكان جيشه مائة ألف أو يزيدون والتقى مع ردمير ملك الجلالقة وكان معه جنود كثيرة من الفرنج وحصل القتال الشديد بين الفريقين فكان النصر فى أول الامر للمسلمين ثم رجع النصارى عليهم فحصل الانهزام للمسلمين وكتب الله الشهادة لكثير منهم وكان الذين قتلوا من المسلمين نحو خمسين ألفا ثم والى عليهم الغزوات وصار يبعث الجيوش مع قواده وقتل منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين قبل ذلك وقد ذكر العلامة أحمد بن عبد ربه الاندلسى فى كتابه المسمى بالعقد الفريد ثنتين وعشرين غزوة من غزواته ونظم كل غزوة منها فى منظومة من الرجز وكان معاصرا له قال وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الفرنج مالم يطؤه قبل ذلك فى أيام سلفه حتى أذعن له أمم النصرانية وأوفدوا اليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعنّ فى مرضاته ووصل الى سدته الملوك من أهل جزيرة الاندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وما يليهما من الثغور فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه ثم سما ملكه فملك سبتة وفاسا وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره وأطاعه بنو ادريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر حتى صار ملكه فى غاية الضخامة ورفعة الشان وتقدم أن مدة

ملكه كانت خمسين سنة وأنه توفى سنة خمس وثلاثمائة وبويع بعده ابنه الحكم المستنصر بالله فقام بأعباء الملك أتم قيام ولما توفى والده الناصر طمع الجلالقة فى الثغور فغزاهم الحكم بنفسه واقتحم بلد فردلند بن فنازل شنب اشتبير وقتحها عنوة واستباحها وقفل فبادروا الى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه ثم أغزا غالبا مولاه وسار الى مدينة سالم ليتوصل منها الى دخول دار الحرب فجمع له الجلالقة ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأثخن فيهم وأوطأ العساكر بلد فردلند بن ودوخها وكان البشكنس قد انقض فأغزاه الحكم صاحب سرقسطة فى العساكر وجاء ملك الجلالقة لنصر البشكنس فهزمهم فامتنعوا بقورية وعاثوا فى نواحيها ثم أغزا الحكم بن يعلى ويحيي بن محمد التجيبي الى بلاد برشلونة فعاثت العساكر فى نواحيها وأغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالبا الى بلاد القوس فعاثا فيها وقفلا وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور فى كل ناحية وكان من أعظمها فتح قلمرية من بلاد البشكنس على يد غالب مولاه ثم عمرها الحكم واعتنى بها ثم فتح بعض عماله قطونية وغنم فيها من الاموال والسلاح والاقوات والاثاث والغنم والبقر والرمك والاطعمة والسبي مالا يحصى كان كل ذلك فى أقرب الزمن * وفى سنة أربع وخمسين وثلاثمائة جهز جيشا مع مولاه غالب الى بلد البة ومعه يحيي بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف فدوخوا بلادهم ورجعوا غانمين * وفى هذه السنة ظهرت مراكب للمجوس فى البحر الكبير فأفسدوا بسائط أشبونة من الاندلس وناشبهم الناس القتال وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ثم جاءت الاخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة فرجعوا الى مراكبهم ثم كانت وفادة أردون بن اذفونش ملك الجلالقة يتوقع مظاهرة الحكم مستجيرا به من ابن عم له خرج عليه فأكرمه الحكم ووعده النصر من عدوه وخلع عليه ثم بعث ابن عمه أيضا يطلب البيعة والدخول فى الطاعة فتقبل بيعتهم على شروط ثم بعث ملك برشلونة وملك طركونة وغيرهما من ملوك الفرنج كلهم يطلبون المعاهدة والدخول فى طاعة الحكم وبعثوا بهدايا جزيلة فتقبلهم

الحكم وعقد لهم الصلح والبيعة وشرط عليهم أن يهدموا الحصون التى تضر بثغور المسلمين وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم وان ينذروا بما يكون من النصارى فى الاجلاب على المسلمين ثم وصلت رسل غرسية ملك بشكنس يسألون الصلح والدخول فى الطاعة والبيعة فعقد لهم فاغتبطوا ورجعوا ثم وصلت أم لذريق وهو القومس الاكبر فاحتفل لقدومها فعقدت السلم لابنها فرجعت وصنع لقدوم هؤلاء الملوك عليه احتفالات ومواكب فيها اظهار عز الاسلام يطول الكلام بذكرها وكلها مذكورة فى التواريخ وكانوا عند دخولهم على الحكم يكشفون رؤسهم ويخلعون برانطهم اعظاما له ويقبلون يده ويقول كل واحد منهم أنا عبد أمير المؤمنين واذا قام كل واحد منهم للانصراف يكون مقهقرا لا يولى الخليفة ظهره تعظيما له ويعلنون له بالدعاء وكان الحكم عالما نبيلا أقام للعلماء والعلم سوقا نافقا واجتمع عنده من خزائن الكتب مالم يجمعه أحد من الملوك قبله قال ابن حزم ان عدد الفهرست التى فيها أسماء بعض الكتب أربع وأربعون فهرستا وفى كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا أسماء الدواوين وأما غير الدواوين من سائر فنون العلوم فشئ كثير قيل ان كتبه كلها كانت أربعمائة ألف مجلد وقلما يوجد كتاب منها إلا وله فيه قراءة ونظر ومكتوب على هوامشه خطه ولما ألف أبو الفرج الاصفهانى كتابه المسمى بالاغانى بعث للحكم نسخة فأجازه بألف دينار تولى الحكم سنة ست وستين وثلاثمائة ومدة ملكه ست عشرة سنة وخلف ابنه هشام المؤيد وكان صغيرا عمره تسع سنين وكان جعله ولى عهده واستوزر له محمد ابن أبى عامر الملقب بالمنصور المعافرى ومعافر بطن من حمير وكان يخدم أم هشام المؤيد ثم ترقى الى أن ولاه الحكم قضاء بعض المواضع فظهرت نجابته ثم ترقى الى أن ولاه الزكاة والمواريث ثم استوزره لابنه فحجب الخليفة هشاما المؤيد وباشر الوزير المذكور تدبير الملك بنفسه وله صفات جيدة مذكورة فى التواريخ ومفردة بالتأليف وجاشت الروم فى أول ولاية هشام فجهز عليهم الوزير المذكور جيوشا لدفاعهم فنصره الله عليهم فتمكن حبه من قلوب الناس

خاصتهم وعامتهم واستجلب الناس بكرمه وحسن أخلاقه فانتشر صيته وأعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع وأوسع الجند فى العطاء وكان ذا عقل ورأى وشجاعة وكرم وبصيرة بالحروب ودين متين وكان عالما متفننا وسيرة هذا الوزير وهو منصور بن أبى عامر طويلة مذكورة فى التواريخ وأباد المتغلبين على الخلافة المارقين عن الطاعة وكرر الغزو والجهاد واستبد فى جميع الأمور بحيث لم يبق ذكر لأحد من رجال الدولة ولا من أولاد الخلفاء بل الذكر والتصرف كله له وحده والخليفة محجور عليه واستمر على ذلك سبعا وعشرين سنة وكان يغزو كل سنة غزوتين غزوة فى الصيف وغزوة فى الشتاء قال فى نفح الطيب ان المنصور ابن أبى عامر تمرس ببلاد الشرك أعظم تمرس ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتعطرس وغادرهم صرعى فى البقاع وتركهم أذل من وتد بقاع

﴿ ذكر غزوة من غزواته ﴾

سبب هذه الغزوة أن أحد رسله سار فى بعض مسيراته الى غرسية ملك البشكنس ابن شانجة فوالى فى اكرامه وتناهى فى بره واحترامه وطالت اقامته عنده فلا متنزه إلا مر عليه متفرجا ولا منزل إلا سار اليه معرجا فحل مرة أكبر الكنائس هنالك فبينما هو يجول فى ساحتها ويجيل العين فى ساحتها اذ عرضت له امرأة قديمة الأثر قوية على طول الكسر فكلمته وعرفته بنفسه وقالت له أرضى المنصور أن يتنعم بلبوس العافية ولى سنين مأسورة مختبية وناشدته الله أن يبلغ المنصور خبرها فلما رجع الى المنصور عرفه بما يجب تعريفه وهو مصغ اليه حتى تم كلامه فلما فرغ قال له المنصور هل وقفت هنالك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ما ذكرته فتذكر أمر المرأة المأسورة فأعلمه بقصتها فلامه على ان لم يبدأ به كلامه ثم أخذ للتجهز للجهاد من فوره فلما تم جهازه وتكاملت جنوده سار حتى وافى ابن شانجة فأخذت هيبته بسمعه وبصره فبادر بالكتاب اليه ليتعرف ما الجلية ويحلف أنه ما جنى ذنبا ولا جفا عن مضجع الطاعة فعنف المنصور رسل ابن شانجة وقال لهم قد كان عاقدنى على أنه لا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور ولو

ولو بعثه الى فى حواصل الطيور وقد بلغنى بقاء فلانة المسلمة فى تلك الكنيسة والله لا أنتهى عن أرضه حتى أكتسحها فرجعوا الى ابن شانجة وأخبروه فارسل المرأة ومعها امرأتان أخريان وأقسم انه ما أبصرهن ولا سمع بهن قبل ذلك وأعلمه أن تلك الكنيسة قد بالغ فى هدمها تحقيقا لقوله وتضرع اليه فى الاخذ فيه بطوله فاستحى منه وصرف الجيش عنه وأوصل المرأة ومن معها الى نفسه وألحق توحشهن بانسه وأوصلها الى أهلها ورجع من غزوته وكان الخليفة هشام لا يراه خاص وعام ولا يخاف منه بأس ولا يرجى منه انعام وأغنى الناس عنه وأزال أطماعهم منه وصيرهم لا يعرفونه وأمرهم لا يذكرونه ولا يعهد فيه الا الاسم السلطانى فى السكة التى يتعامل الناس بها وتسمية على المنابر وربما أركبه فى بعض السنين وجعل عليه برنسا وركب معه بعض جواريه ويجعل عليهن مثل ما عليه فلا يعرف من بينهن ويأمر من ينحى الناس عن طريقه حتى ينتهى الى موضع تنزهه ثم يعود وأخذ فى اغتيال من يخشى منه خوفا من أن يثوروا به وكانت غزواته نحوا الخمسين يطول الكلام بذكرها وكلها كانت من مفاخر الاسلام حتى اشتدت هيبته فى قلوب الكفرة اللئام * ومما يحكى مما كان فى بعض غزواته أن بعض الاجناد نسى رايته مركوزة على جبل بقرب احدى مدائن الروم فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العسكر وهذا مما يفتخر به أهل التوحيد على أهل التثليث لانهم لما أشربت قلوبهم الخوف من المنصور وعلم كل من ملوكهم انه لا طاقة له بحربه لجؤا الى الفرار وتحصنوا بالمعاقل والقلاع ولم يحصل منهم غير الاشراف من بعد والاطلاع * ومن مفاخر المنصور فى بعض غزواته انه مر بين جبلين عظيمين فى طريق ضيق توسط بلاد الفرنج فلما جاوز ذلك المحل وهو آخذ فى التحريق والتخريب والغارات والسبى يمينا وشمالا لم يجسر أحد من الافرنج على لقائه حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ثم عاد من ذلك الطريق فوجد الافرنج قد استجاشوا من ورائهم وضبطوا ذلك المحل الضيق الذى بين الجبلين وكان الوقت شتاء فلما رأى ما فعلوه رجع واختار منزلا من

بلادهم لجيشه ونزل به فيمن معه من العساكر وأمرهم ببناء دور ومنازل وأن يجمعوا آلات الحرث ونحوها ليعلم الفرنج انه أراد الاقامة بأرضهم وبث سراياه فسبت وغنمت فلما طال البلاء على العدو أرسلوا اليه فى طلب الصلح وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم فامتنع من ذلك فلم تزل رسلهم تتردد اليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسراه فأجابهم ان أصحابى قد أبوا أن يخرجوا وقالوا انا لا نكاد أن نصل الى بلادنا الا وقد جاء وقت الغزوة الاخرى فنقعد ههنا الى وقت الغزوة الاخرى فاذا غزونا عدنا فما زال الفرنج يسألونه أن يرتحل الى أن قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معهم من الغنائم والسبى وأن يمدوه بالميرة حتى يصل الى بلاده وأن ينحوا جيف القتلى عن طريقه بأنفسهم ففعلوا ذلك كله وانصرف عنهم ولعمرى ان هذا العزما وراءه مطمح ونصر لا يكاد الزمان يجود بمثله ويسمح خصوصا ازالتهم جيف قتلاهم عن الطريق وقد تقدم ذكر هذه الغزوة مختصرا فاعادتها لا تخلو من فائدة

﴿ خبر عجيب من أخبار المنصور ﴾

ومن أخبار المنصور بن أبى عامر انه قدم عليه رسول ملك الروم الذى هو أعظم ملوكهم فى ذلك الزمان وكان قصد ملك الروم من ارساله اياه أن يطلع على أحوال المسلمين وقوتهم فلما علم المنصور به قبل وصوله أمر أن يغرس نيلوفر كثير عند بركة عظيمة فى بستان من بساتينه ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة من الفضة فسبكت قطعا صغارا على قدر ما تسع النيلوفرة ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذى عند البركة فلما جاء رسول ملك الروم اليه حضر عنده قبل الفجر فى مجلسه السامى فى موضعه المسمى بالزاهرة المشرف على موضع البركة فلما قرب طلوع الفجر جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب والفضة ومناطق الذهب والفضة وبيد خمسمائة منهم أطباق من الذهب وبيد خمسمائة أطباق من الفضة فتعجب الرسول من حسن صورهم وجميل هيئتهم ولم يدر ما المراد فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة فبادروا الى أخذ الذهب والفضة من النيلوفر وصاروا يجتنونه كما يجتنى الثمر من الشجر وكانوا يجعلون الذهب فى أطباق الفضة والفضة فى

أطباق الذهب حتى التقطوا جميع ذلك وجاؤا به فوضعوه بين يدى المنصور حتى صار كوما بين يديه فتعجب رسول ملك الروم من ذلك وأعظمه وظن ان ذلك ثمر ذلك الشجر فطلب المهادنة من المسلمين وذهب مسرعا الى مرسله وقال له لا تعادوا هؤلاء القوم فانى رأيت الارض تخدمه بكنوزها وهذه القصة من الغرائب وانها لحيلة عجيبة فى اظهار عز الاسلام وأهله وكان المنصور بن أبى عامر آية من آيات الله سبحانه وتعالى فى السعد ونصرة الاسلام

﴿ غزوة أخرى من غزواته ﴾

سبب هذه الغزوة أنه لقيته امرأة حين رجع من بعض غزواته فقالت له يا منصور استمع ندائى فانت فى طيب عيشك وأنا فى بكائى فسألها عن مصيبتها فذكرت ان لها ابنا أسيرا فى بلاد سمتها له وأخبرته انها لا يهنأ عيشها لفقده فرحب المنصور بها وأظهر الرقة بسببها وأمر بالتجهز الى الغزو وسار بجيوشه حتى بلغ تلك البلاد التى سمتها له وفيها ابنها فجاسوا أقطار تلك الديار وتخللها قتلا وأسرا ونهبا وتخريبا حتى دوخها حتى خلص ابنها وجميع من كان هناك من الاسرى ورجع مظفرا منصورا فهكذا تكون الهمة السلطانية والنجدة الايمانية * ومن مناقبه التى لم تكن لغيره من الملوك أن أكثر جنده من السبى الذى كان يأخذه من العدو * ومن محاسن أخباره انه خط بيده مصحفا كان يحمله معه فى أسفاره يقرأ فيه ومن قوة رجائه انه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه منه بالمناديل فى كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة وعهد اليهم أن يجعلوه فى حنوطه فكان كذلك وكان يحمل تلك الصرة حيث سار * ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينهزم فى حرب قط وما انصرف من موطنه الا قاهرا غالبا على كثرة ما زاول من الحروب قيل له مرة ان فلانا مشؤم فلا تستخدمه فقال أنى لسعد لا يغطى على شؤمه فاستخدمه ولم ينله من شؤمه الذى به جرت العادة شئ

﴿ ذكر غزوة أخرى من غزواته ﴾

من غزواته المشهورة غزوة مدينة شنت ياقب وهى قاصية غليسية وأعظم مشاهد

النصارى الكائنة ببلاد الاندلس وما يتصل به من الارض الكبيرة وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا وللكعبة المثل الأعلى فيها يحلفون واليها يحجون من أقصى بلاد رومة وماوراءها ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب الحوارى أحد الاثنى عشرة الحواريين وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وهم يسمونه أخاه للزومه اياه وياقب بلسانهم يعقوب وكان أسقفا ببيت المقدس ثم خرج يستقرىء الارض داعيا الى الله لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية ثم عاد الى الشام فمات بها وعمره مائة وعشرون سنة فاحتمل أصحابه جثته فدفنوه بهذه الكنيسة ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام فى قصدها والوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها فخرج المنصور اليها من قرطبة غازيا بالصائفة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة لست بقين من جمادى الآخرة ودخل على مدينة قورية فلما وصل الى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتمكنين فى الطاعة فصاروا فى عسكر المسلمين وكان المنصور أمر بانشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الاندلس وجهزه برجاله وحمل فى الاسطول الاقوات والعدة والسلاح استظهارا على نفوذ العزيمة الى ان خرج ذلك الاسطول بموضع برتقال على نهر دويره فدخل فى النهر الى المكان الذى عينه لهم المنصور للعبور منه فعقد هنالك جسرا بقرب الحصن وجعله يتصل بالاسطول فوجهوا ما كان فيه من الميرة الى الحصن ثم منه الى الجند فتوسعوا فى التزود منه الى أرض العدو ثم نهض منه يريد شنت ياقب فقطع أرضين متباعدة الاقطار وقطع عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الاخضر ثم أفضى العسكر بعد ذلك الى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعر لامسلك فيه ولا طريق ولم يهتد الادلاء الى سواه فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه حتى قطعه العسكر وعبروا بعده وادى بنية وانبسط المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة وأرضين وانتهت مغيرتهم

الى دير قشان وبسيط بلنبو على البحر المحيط وفتحوا حصن شنت بلاية وغمروا وعبروا بساحته الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحى فسبوا من فيها ممن لجأ اليها وانتهى العسكر الى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه ثم جاز المسلمون بعد هذا خليجا فى معبر بن أرشد الادلاء عليه ثم نهرا بلة ثم أفضوا الى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى فى الفضل يقصد نساكهم اليه من أقاصى بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما فغادره المسلمون قاعا صفصفا ثم كان النزول بعده على شنت ياقب وذلك لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الاذى عنه وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما كأن لم تغن بالامس ونسفت بعد ذلك سائر البسائط وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط وهى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها قبله مسلم فجعل فى طريقه وهو راجع القصد على عمل برمند ابن أردون تعيش جيوشه فى عمله تخربه وتفسده حتى وقع فى عمل القوامس المعاهدين الذين كانوا معه فى عسكره فأمر بالكف عنها ومر مجتازا حتى خرج على حصن بليقية فأجاز هنالك القوامس الذين كانوا معه وأكرمهم على أقدارهم وكساهم وصرفهم الى بلادهم وكتب بالفتح من بليقية وكان مبلغ ما كساه فى غزاته هذه ملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازى واحدى وعشرين كساء من صنوف الخبر وكساءين عنبريين واحد عشر سقلاطونا وخمسة عشر مرشيا وسبعة أنماط ديباج وثوبى ديباج رومى وفروة فنك ووافى قرطبة بجميع العساكر

سالما غانما وعظمت المنة على المسلمين ولم يجد بشنت ياقب الاشيخا من الرهبان جالسا على القبر فسأله عن مقامه فقال أونس يعقوب فأمر بالكف عنه

﴿ غزوة أخرى من غزواته ﴾

سبب هذه الغزوة ان جماعة من صنهاجة وهم من البربر قدموا على المنصور بن أبي عامر من المغرب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة فنزلوا عليه بقرطبة فأكرمهم وأجرى عليهم الوظائف وسألهم عن سبب انتقالهم من افريقية الى الاندلس فقالوا انما اخترناك على غيرك وأحببنا أن نكون معك نجاهد في سبيل الله تعالى فاستحسن ذلك منهم ووعدهم ووصلهم فأقاموا أياما ثم دخلوا عليه وسألوه اتمام ما وعدهم به من الغزو فقال انظروا ما أردتم من الجند لاجل ان نعطيكم فقالوا ما يدخل معنا بلاد العدو غيرنا الا الذين معنا من بني عمنا ومن بقية صنهاجة وموالينا فأعطاهم الخيل والسلاح والاموال وبعث معهم دليلا وكان الطريق ضيقا فأتوا أرض جليقية فدخلوها ليلا وكمنوا في بستان بالقرب من المدينة وقتلوا كل من به وقطعوا أشجاره فلما أصبحوا خرج جماعة من البلد فضربوا عليهم وأخذوا جميع الخارجين وقتلوهم جميعهم ورجعوا فسمع العدو فركبوا في أثرهم فلما أحسوا بذلك كمنوا وراء ربوة فلما جاوزهم العدو خرجوا عليهم من ورائهم وضربوا في ساقتهم وكبروا فلما سمع العدو تكبيرهم ظنوا أن العدو كثير فانهزموا وتبعهم صنهاجة فقتلوا خلقا كثيرا وغنموا دوابهم وسلاحهم وعادوا الى قرطبة فعظم ذلك عند ابن أبي عامر ورأى من شجاعتهم ما لم ير من جند الاندلس فأحسن اليهم وجعلهم بطانته فلما رأى أهل الاندلس فعل صنهاجة حسدوهم ورغبوا في الجهاد فقال المنصور بن أبي عامر لقد نشطنا هؤلاء للغزو فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الاقطار وخرج الى الجهاد بنفسه وكان رأى في المنام تلك الليلة كأن رجلا أعطاه الاسبراج وهو اسم لنبت فأخذه من يده وأكل منه فعبره على ابن أبي جمعة فقال له اخرج الى بلد اليون فانك ستفتحها فقال من أين أخذت هذا فقال لان الاسبراج يقال له في المشرق الهليون

كبرذون فلك الرؤيا قال لك هذا اليون فخرج بتلك الجيوش ونازلها وهى من أعظم مدائنهم واستمد أهلها الفرنج فأمدوهم بجنود كثيرة واقتتلوا ليلا ونهارا فكثر القتل فى الفرنج وصبرت صنهاجة صبرا عظيما ثم خرج قومص كبير من الفرنج لم يكن لهم مثله فجال بين الصفوف وطلب البراز فبرز اليه جلالة بن زيرى الصنهاجى فحمل كل منهم على صاحبه فطعنه الفرنجى فمال عن الطعنة وضرب الفرنجى بالسيف على عاتقه فسقط الفرنجى الى الارض وحمل المسلمون على النصارى فانهزموا الى بلادهم وقتل منهم مالا يحصى وملك المدينة وغنم ابن أبى عامر غنيمة عظيمة لم ير مثلها واجتمع من السبى ثلاثون ألفا وأمر بالقتلى فنضد بعضهم على بعض وأمر مؤذنا فأذن فوق القتلى المغرب وخرب مدينة قامونة ورجع سالما هو وعساكره قال فى نفح الطيب وانتهت هيبة المنصور بن أبى عامر وضبطه للجند الى غاية لم يصلها ملك قبله فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله مثلا فى الاطراق حتى ان الخيل لتتمثل فى الاطراق مثل فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة ولقد وقعت عينه مرة على بارقة سيف قد سله بعض الجند أقصى الميدان لهزل أو جد بحيث ظن أن لحظ المنصور لا يناله فقال على بشاهر السيف فمثل بين يديه لوقته فقال ما حملك على أن شهرت سيفك فى مكان لا يشهر فيه الا عن اذن فقال انى أشرت به الى صاحبى مغمدا فزلق من غمده فقال ان مثل هذا لا يسوغ بالدعوى وأمر به فضربت عنقه بسيفه وطيف برأسه ونودى عليه بذنبه وذكر أيضا أن المنصور كان به داء فى رجله واحتاج فيه الى الكى فأمر الذى يكوبه أن يكويه وهو قاعد فى موضع مشرف على أهل مملكته فجعل يأمر وينهى ويتصرف فى أموره ورجله تكوى والناس لا يشعرون حتى شموا رائحة الجلد واللحم وهو غير مكترث بذلك فتعجب الناس من ذلك * وذكر فى نفح الطيب كثيرا من أخباره فى الكرم والعفو والحلم وحسن الخلق ثم قال وأخبار المنصور تحتمل مجلدات فلنمسك العنان * توفى المنصور بن أبى عامر فى غزوة للافرنج فى شهر صفر سنة ثلاثمائة واثنتين وتسعين بمدينة سالم لسبع وعشرين

سنة من ملكه وقام بالامر بعده ابناه عبد الملك وعبد الرحمن واحدا بعد واحد فقام بالامر أولا ابنه عبد الملك فجرى على سنن أبيه فى السياسة والغزو وكانت أيامه أعيادا دامت مدة سبع سنين ثم قام بالأمر بعده الابن الآخر عبد الرحمن وجرى على سنن أبيه وأخيه فى الحجر على الخليفة هشام والاستبداد عليه ثم ناب له رأى فى الاستيثار بالملكة فطلب ان هشاما يجعله ولى عهده فأجابه لذلك لتغلبه عليه وأحضر لذلك أرباب الشورى وأهل الحل والعقد وكتب عهده بذلك فقرئ فى ذلك المجمع وكتب القضاة والوزراء وسائر الناس شهاداتهم بخطوطهم ثم سعى كثير من الامويين وغيرهم فى نقضه وأثاروا لذلك فتنة الى أن قتلوا عبد الرحمن سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ثم خلعوا الخليفة هشاما وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر ثم أعيد هشام ثم فقد سنة ثلاث وأربعمائة وقيل قتل وثار من ذلك فتن كثيرة يطول الكلام بذكرها آل الامر فيها الى زوال ملكهم وافتراق كلمتهم وكل يوم يخلعون خليفة ويبايعون آخر ثم صار فى كل مملكة خليفة يدعى أمير المؤمنين وتبدد شمل الجماعة بالأندلس ثم صار الملك فى طوائف متغلبين فى كل ناحية ملك مستقل متغلب ولا حاجة بنا الى ذكر أسمائهم وعند ذلك استفحل أمر النصارى وصاروا يتغلبون على ممالك الاندلس ويملكونها قطرا بعد قطر وناحية بعد ناحية وصار ملوك الطوائف لا يسأل بعضهم عن بعض ولا يحامى ولا يدافع الا عن نفسه وربما تقاتلوا وامع بعضهم وتغلب بعضهم على البعض

﴿ ذكر أول مدينة تملكها الطاغية ﴾

أول مدينة تملكها الطاغية بلنسية سنة ست وخمسين وأربعمائة وتعرف هذه الوقعة بوقعة بطرنة اسم موضع هناك وذلك أن الافرنج خذلهم الله تعالى انتدبت منهم قطعة كثيفة ونزلت على بلنسية فى السنة المذكورة وأهلها جاهلون بالحرب معرضون عن أمر الطعن والضرب مقبلون على لذات الاكل والشرب ولما نازلها الفرنج أظهروا لاهلها الندم على منازلتها والضعف عن مقاومة من فيها وخدعوهم بذلك فانخدعوا وأطمعوهم فطمعوا وكان المتغلب على تملكها من

ملوك الطوائف عبد العزيز بن أبي عامر المعافري ثم ان العدو جعل في مواضع خارج المدينة كمناء وجماعة من الفرسان فظن أهل البلد أن العدو تفرق وارتحل عنهم فخرجوا في زينتهم ومعهم أميرهم فصبر العدو لهم استدراجا ومكرا حتى خرج الناس كأنهم في عيد فخرج عليهم الكمناء وعطفوا عليهم بالقتل والاسر حتى استأصلوهم وما نجا منهم الا من بقي أجله وخلص الامير بنفسه واستولى العدو على بلنسية وكانت بلنسية في شرقي الاندلس وكان في شرقي الاندلس من المدائن العظيمة بلنسية ومرسية وتطيلة وسرقسطة ولاردة ودانية والسهلة والثغر الاعلى ولكل واحدة من هذه أعمال واسعة وكان أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي ملكا مستبدا بمدينة تطيلة ثم ملك سرقسطة والثغر الاعلى وبلنسية ولاردة ودانية والسهلة فكان استيلاء العدو أولا على بلنسية في السنة المذكورة وسيأتي ذكر رجوعها للمسلمين ثم استرجاع النصارى اياها مرة أخرى

﴿ ذكر تملك العدو بربشتر وسرقسطة وذلك قصبة برطانية ﴾

من الممالك التي في شرقي الاندلس بربشتر وسرقسطة والثغر الاعلى ومدينة تطيلة ومرسية وبلنسية وغير ذلك والمتغلبون عليها من ملوك الطوائف بنو سليمان بن محمد بن هود الجذامي من سنة احدى وثلاثين وأربعمائة وكان قبلهم متغلبا عليها بنو منذر بن مطرف التجيبي فانتزعها منهم بنو هود في السنة المذكورة فلما كانت سنة ست وخمسين وأربعمائة نازلها جيش الاردمليش وحاصرها وقصر الامير يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها ووكل أهلها الى نفوسهم فأقام العدو عليها أربعين يوما ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته واتصل الخبر بالعدو فشدد القتال عليها والحصر لها وكان لها مدينتان فدخل المدينة الأولى خمسة آلاف مدرع فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة افرنجي ثم اتفق أن القناة التي كان الماء يجري فيها من أنهر الى المدينة تحت الارض في سرب موزون فانهارت القناة وفسدت ووقع فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره فانقطع الماء عن المدينة ويئس من بها من الحياة فلاذوا

بطلب الامان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال فأعطاهم العدو الامان فلما خرجوا نكث بهم وغدر وقتل الجميع الا القائد بن الطويل والقاضي ابن عيسى ومعهما نفر من الوجوه وحصل للعدو من الاموال والامتعة مالا يحصى حتى ان الذى خص بعض مقدمي العدو ألف وخمسمائة جارية أبكارا ومن وقار الحلي والكسوة ما يحمل خمسمائة جمل وقدر القتلى والاسرى مائة ألف نفس * ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه ان المرأة كانت تقف على السور وتنادي من كان بالقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو لولدها فيقول لها اعطيني مامعك فتعطيه مامعها من كسوة وحلي وغيرها وكان السبب في قتلهم أنه خاف من وصول أحد لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ماهاله فشرع في قتلهم فلما قتل منهم نيفا على ستة آلاف نادى الملك بتأمين من بقي وأمر أن يخرج من بقي بالبلد فازدحموا على الباب الى أن مات منهم خلق كثير ونزلوا من الاسوار الحبال خشية من الازدحام في الابواب ومبادرة الى شرب الماء وقد كان تحيز في بالمدينة جماعة ولم يخرجوا وكانوا مقدار سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا في نفوسهم وانتظروا ما ينزل بهم فلما خلت ممن أسر وقتل وأخرج من الابواب والاسوار وهلك في الزحمة نودي في تلك البقية أن يبادر كل منهم الى داره بأهله وله الامان وأرهقوا وأزعجوا فلما حصل كل منهم بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الافرنج لعنهم الله تعالى بأمر الملك وأخذ كل واحد منهم دارا بمن فيها نعوذ بالله تعالى وكان جماعة من أهل المدينة قد نفروا ولاذوا برؤس الجبال وتحصنوا بمواضع منيعة وكادوا يهلكون من العطش فأمنهم الملك على نفوسهم وبرزوا في صورة الهلكى من العطش فأطلق سبيلهم فبينما هم في الطريق اذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم الا القليل ممن بقي أجله وكان الفرنج لعنهم الله تعالى لما استولوا على المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها والثيب بحضرة زوجها وأهلها وجرى من هذه الامور والاحوال مالم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ومن لم يرض منهم أن يطأ بعض النساء ذوات

المهنة أعطاهن خدمه وغلمانه يعيثون فيهن وبلغ الكفرة منهم مالا يمكن أن يوصف على الحقيقة ولما عزم ملكهم على القفول الى بلده تخير من بنات المسلمين الجوار الابكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم الوفا حملهم معه ليهديهم الى من فوقه من ملوكهم وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفا وخمسمائة ومن الرجالة ألفين وممن كان في هذه الوقعة الشنعاء أن بعض تجار اليهود جاء بربشتر بعد الحادثة ملتمسا فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا كن حصلن في سهم قومس منهم كان يعرفه قال فذهبت الى منزله واستأذنت عليه فوجدته جالسا مكان رب الدار مستويا على فراشه رافلا في نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيء من رياشهما وزينتهما ووصائفه مضمومات الشعر قائمات على رأسه ساعيات في خدمته فرحب بي وسألني عن قصدي فعرفته وجهه وأشرت الى وفور ما أبذل له في بعض اللواتي كن واقفات على رأسه وفيها كانت حاجتي فتبسم وقال بلسانه ما أسرع ماطمعت فيمن عرضناه لك أعرض عنهن وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصني من سبي وأسرى من أقاربك فقلت له أما الدخول الى الحصن فلا رأي لي فيه وبقربك أنست وبكنفك اطمأننت فأعطني بعض من هنا فاني أعطيك رغبتك قال وما عندك فقلت العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب فقال كأنك تشهيني ماليس عندي ياباجه ينادي بعض أولئك الوصائف يريد يابهجة فغيره بعجمته قومي فأعرضي عليه مافي ذلك الصندوق فقامت اليه وأقبلت ببدر الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلي فكشف وجعل بين يدي العلج حتى كادت توارى شخصه ثم قال لها أرني من تلك التخوت فأدنت منه قطعة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر حتى حار لذلك ناظري وبهت واسترذلت ماعندي ثم قال لي لقد كثر هنا عندي كل شيء حتى ما التذ به ثم حلف لي أنه لو لم يكن عنده شيء من ذلك ثم بذل لي أحد مثل ذلك ماسخوت بهذه الجارية التي تطلبها نفسي فهي ابنة صاحب المنزل وله حسب في قومه واصطفيتها لنفسي لمزيد جمالها لاجل أن تلد لي وفعلنا هذا مثل ما كان قومها يصنعون بنسائنا

اذا ملكوناحين كانت دولتهم وقد رد الله لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة وأشار الى جارية أخرى كانت مغنية لوالدها ثم قال لها يا فلانة خذي عودك فأخذت العود وقعدت تسويه واني أتأمل دمعها يقطر على خدها فتسارع العلج مسحه بيده واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا فضلا عن العلج وأظهر الطرب فلما يئست مما عنده قمت منطلقا واطلعت على كثرة ما بأيديهم من السبي والمغنم فطال تعجبي قال في نفح الطيب فهذا مقنع لمن تدبره وتذكرة لمن تذكره ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فان أهل الأندلس لما توالت عليهم النعم انهمكوا في اللذات والشهوات وحل بهم داء التقاطع وقد أمروا بالتواصل والالفة فأصبحوا على شفا جرف يؤدي الى الهلكة لا محالة وأنهم كانوا يعللون أنفسهم بالباطل ويغترون بالنعيم الزائل وقد بعدوا عن طاعة خالقهم ورفضوا وصية نبيهم وغفلوا عن سد ثغورهم حتى جاس عدوهم بخلال ديارهم ثم سرى البثق اليهم جميعا فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

﴿ ذكر استرجاع المسلمين بربشتر وسرقسطة ﴾

ولما كانت السنة التي بعد أخذها وهي سنة سبع وخمسين وأربعمائة ثار أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها والمتهم على أهلها لانحرافهم الى أخيه صمد لهامع امداد المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وسعى لاصمات سوء المقالة عنه وقد كتب الله تعالى عليه منها ما لا يمحوه إلا عفوه تعالى فتأهب لقصد بربشتر في جموع من المسلمين فجاهدوا الكفار بها جلادا ارتاب منه كل جبان وأعز الله تعالى أهل الحقيقة والشجعان وحمي الوطيس بينهم الى أن نصر الله تعالى أولياءه وخذل أعداءه وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة فاقتحمها المسلمون عليهم وملكوهم أجمعين إلا من فر من مكان الوقعة ولم يدخل المدينة فأجيل السيف في الكافرين واستؤصلوا أجمعين إلا من استرق من أصاغرهم وفدي من أعاظمهم وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم وملكوا المدينة بقدرة الخالق الباري وأصيب في منحة النصر المتاح طائفة من حماة المسلمين الجادين في نصرة الدين نحو

الحسين كتب الله لهم الشهادة وقتل فيه من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل فغسلها المسلمون من رجس الشرك وجلوها من صدى الافك واسترجع بلنسية المأمون بن ذى النون وولى عليها أبا بكر بن عبد العزيز المنصور وقد اخله ابن هود فى الانتقاض ففعل واستبد ببلنسية وضبطها وذلك سنة ثمان وستين وأربعمائة ثم مات أبو بكر بن عبد العزيز فملكها بعده ابنه القاضى عثمان بن أبى بكر وبقى الى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فلما تملك الطاغية طليطلة فى هذا العام كما سيأتى وتسلمها من القادر بن ذى النون شرط عليه القادر أن يمكنه من تملك بلنسية فسار معه الطاغية بجيوشه الى أن ملكه بلنسية وذلك أن المسلمين لما أقبل عليهم القادر بن ذى النون ومعه جيوش الطاغية خافوا أن يملكها الطاغية فخلعوا القاضى عثمان بن أبى بكر وسلموها للقادر بن ذى النون وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وبقى الى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وكان ذلك بعد دخول يوسف بن تاشفين الأندلس وتغلبه على ملوك الطوائف كما سيأتى بيانه فجهز جيشا لتخليص بلنسية من القادر بن ذى النون وجعل امارة بلنسية للقاضى أبى أحمد جعفر بن عبد الله بن حجاف فحصر بها القادر بن ذى النون الذى مكن الاذفونش من طليطلة ثم هجم عليه القاضى فى جماعة من المرابطين فقتلوه وذلك سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وتملك ابن حجاف بلنسية ثم رجع عنه طائفة المرابطين الذين كان استنصر بهم وأعانوه على تملكه اياها وصار خائفا من استيلاء الطاغية عليه وجعل يستصرخ الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فيبطئ عليه النصر وفى أثناء ذلك أنهض يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطة لذريق الطاغية للاستيلاء على بلنسية فدخلها وعاهده القاضى بن حجاف واشترط عليه احضار ذخيرة كانت للقادر بن ذى النون فاقسم أنها ليست عنده فاشترط عليه أنه ان وجدها عنده قتله فاتفق أنه وجدها عنده فأحرقه بالنار وعاث فى بلنسية وكان الاستيلاء عليه سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وقيل فى التى قبلها وهذا الطاغية الذى أخذها يقال له أيضا القنبطور وحاصرها قبل أخذها عشرين شهرا قيل انه

دخلها صلحا وقيل بل عنوة وحرقها وعاث فيها وممن أحرقوا فيها الاديب أبا جعفر ابن البناء الشاعر المشهور ثم وجه اليها جيشا أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين وجعل أميرا على الجيش أبا محمد مزدلي ففتحها الله تعالى على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمائة وبقيت بلنسية بيد المسلمين الى سنة ستمائة وثلاثين ثم أخذها العدو وسيأتي ما كان بعد ذلك * ومما استولى عليه العدو مدينة المرية وهي من مدائن الأندلس العظيمة الشهيرة استولى عليها العدو سنة ثنتين وأربعين وخمسمائة وأحصى عدد من سبي من أبكارها فكان أربعة عشر ألفا قال ابن حبيش وهو آخر الحفاظ بالاندلس كنت في قلعة المرية لما وقع الاستيلاء عليها أعادها الله للاسلام فتقدمت الى زعيم النصارى وهو ابن بنت الادفونش وقلت له اني أحفظ نسبك منك الى هرقل فقال لي قل فذكرته له فقال لي اخرج أنت وأهلك ومن معك طلقا بلا شيء ثم انها بعد ان أخذت في السنة المذكورة استرجعها المسلمون سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة وبقيت بيد المسلمين الى ان أخذها الكفار مرة أخرى سيأتي ذكرها ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر تملك الطاغية طليطلة ﴾

قال في نفح الطيب ان الاندلس ينقسم الى مشرق ومغرب ومتوسطة وكل واحد من الأقسام الثلاثة مشتمل على مدائن عظيمة كل مدينة منها مملكة مستقلة مشتملة على أعمال وقرى ومزارع وبساتين وأقطار واسعة وخلائق لا يحصون في غاية التنعم والرفاهية فمن المتوسطة قرطبة وطليطلة وجيان وقسطلة وغرناطة والمرية ومالقة وغير ذلك مما يطول ذكره ومن شرق الأندلس مرسية وبلنسية وشاطبة ودانية والسهلة والثغر الأعلى وسرقسطة وتطيلة وغير ذلك مما يطول ذكره ومن غرب الاندلس اشبيلية وماردة واشبونة وشلب وشريش ولبلة والخضراء وبطليوس وغير ذلك مما يطول ذكره * ولما ضعف أمر الخلافة وافترق ملوك الأندلس وكثر الاختلاف بينهم وانتشرت الفتن صارت الممالك بيد ملوك كثيرة يسمون ملوك الطوائف لكل مملكة ملك مستقل ينفذ أمره ونهيه فيما كان

تحت يده من الممالك وهم مختلفون فى اتساع ممالكهم وعدم اتساعها وكان ابتداء تفرق الممالك واستبداد ملاك الطوائف من سنة سبع وأربعمائة وصاروا يقاتل بعضهم بعضا فيتغلب بعضهم على بعض و يستولى على ما بيد الآخر وكان عدد أولئك الملوك خمسة عشر لا حاجة الى ذكر أسمائهم وكان أعظم الممالك عندهم قرطبة وهى مقر دار الخلافة وسرير الملك والسلطنة وكان المستولى على قرطبة من ملوك الطوائف المعتضد بن عباد وكانت قبل تغلبه عليها عند أبى الحزم جهور ابن محمد بن جهور المعافرى الكلبى استبد بها من سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة ثم صارت لبنيه من بعده فأخذها منهم ابن ذى النون صاحب طليطلة سنة احدى وستين و بقيت عنده الى سنة تسع وستين وأربعمائة فانتزعها منهم المعتضد بن عباد بعد قتال وضمها الى ما كان بيده من الممالك فصار ابن عباد أعظم ملوك الطوائف فكانوا يهابونه و يهادونه و يخضعون له و يخشون سطوته وكان أبو المعتضد وهو الذى أسس له هذا الملك قيل انه من لخم و ينتهى نسبه الى النعمان بن المنذر ملك الحيرة فى الجاهلية وتوفى المعتضد بن عباد سنة احدى وستين وأربعمائة وصار الملك بعده لابنه المعتمد محمد بن عباد فاتسع ملكه وشمخ سلطانه أكثر مما كان لأبيه وكان أيضا من أعظم الممالك طليطلة وكانت لبنى ذى النون وكانت قبلهم ليعيش بن محمد بن يعيش من أول الفتنة والتفرق الى سنة سبع وعشرين وأربعمائة فانتزعها منهم وتغلب عليها اسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذى النون أصله من البربر من قبيلة هوارة وضمها الى ما كان بيده من الممالك فاتسع ملكه وتوفى سنة تسع وعشرين وأربعمائة فولى بعده ابنه المأمون أبو الحسن يحيى فاستفحل ملكه وعظم بين ملوك الطوائف سلطانه وتوفى سنة سبع وستين وأربعمائة فولى بعده حفيده القادر بالله يحيى بن اسماعيل بن المأمون يحيى فانتزعها الطاغية منه وهى من المتوسطة من الاندلس وكانوا يسمونها وجهاتها الثغر الأدنى و يسمون سرقسطة وجهاتها الثغر الأعلى وتسمى طليطلة أيضا مدينة الأملاك لانها ملكها اثنان وسبعون ملكا فيل ان سليمان بن داود عليه

السلام دخلها وكذا عيسى بن مريم عليهما السلام ودخلها أيضاذو القرنين وهي مدينة حصينة قديمة من بناء العمالقة ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ورساتيق مريعة وضياع بديعة وقلاع منيعة وبها القنطرة العجيبة البناء يعجز الواصفون عن وصفها وطول تلك القنطرة ثلاثمائة باع وعرضها ثمانون باعا على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جرى ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعا وهي تصعد الماء الى أعلى القنطرة ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة وبنى المأمون فيها قصرا تأنق في بنائه وأنفق مالا كثيرا وصنع فيه بحيرة وبنى في وسطها قبة وسيق الماء الى أعلى القبة على تدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة متواليا كلها محيطا بها متصلا بعضه ببعض فكانت القبة في غلالة من الماء يسكب ولا يفتر والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل فبينما هو فيها يوما اذ سمع منشدا يقول

أتبنى بناء الخالدين وانما * بقاؤك فيها لو علمت قليل

لقد كان في ظل الاراك كفاية * لمن كل يوم يعتريه رحيل

فلم يلبث بعد هذا الا يسيرا حتى قضى نحبه وذلك سنة خمس وثلاثين وأربعمائة وولى بعده ابنه يحيي القادر بالله الى أن أخذت منه ثم صارت له بلنسية بواسطة الطاغية الى ان قتل كما تقدم وبطليطلة بساتين محدقة وأنهار مخترقة ورياض وجنان وفواكه حسان مختلفة الطعوم والألوان وفيها ايوان كبير يقال ان الخيل تلعب فيه وكان بنو ذى النون ملوك طليطلة لهم دولة كبيرة وبلغوا في البذخ والترف الى الغاية فطمع في ملكهم الطاغية المسمى بالاذفونش واشتغل القادر يحيي صاحبها بالخلاعة والمجون وأكثر مهاداة الافرنج ومصانعتهم ليتلذذ باللعب وامتدت يده الى أموال الرعية ولم تزل الفرنج تأخذ حصونه شيئا بعد شيء حتى أخذت منه طليطلة وسلبته ملكه ولما أرادوا أخذها سار اليها الاذفونش بجيوشه وصار يملك قراها وأعمالها ويضيق عليها بالحصار وكان ذلك كله في مدة سبع سنين فلما اشتد عليهم الحصار رضى صاحبها والمسلمون أن ينزلوا عنها وقدفني

بالقتل والأسر والنهب كثير منهم فى قراها و بواديها قال ابن بسام بعد ذكره وقعة بطرنة المتقدم ذكرها وذكر ما صار للمسلمين عند أخذها وهكذا جرى لاهل طليطلة فان العدو خذله الله استظهر عليهم وقتل جماهيرهم وكان من جملة ماغنمه الفرنج من أهلها لما خرجوا اليهم من ثياب الترفه ألف عمارة خارجا عما سواها وكان أخذ الطاغية طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وأعطى الامان لصاحبها القادر بالله ولمن بقى بها من المسلمين ثم لما ملكها الطاغية صار يستميل أهلها الباقين فيها و يظهر لهم صورة العدل حتى حبب التنصر الى كثير من الطغام منهم وقيل لملكهم الطاغية ينبغى ان تلبس التاج كمن كان قبلك من الملوك فقال حتى نأخذ قرطبتهم وأعد لذلك ناقوسا تأنق فيه وأخذ فى الاستعداد لتملك قرطبة ومما يدل على عظم مدينة طليطلة وحصانتها ان المسلمين لما استرجعوا ما تملكه الاعداء من المدائن والقرى عجزوا عن استرجاع طليطلة و بقيت فى يد العدو الى آخر المدة ولما فتح المسلمون الاندلس فى أول الامر ألقى الله الرعب فى قلوب النصارى وصاروا يأخذون فى الفرار ولم يثبت منهم أحد بعد أول وقعة كانت بينهم و بين المسلمين حتى انهم أخلوا طليطلة فوجدها المسلمون خالية و وجدوا فيها مائدة سليمان عليه السلام وقيل انها ليست لسليمان وانما هى لملوكهم تأنقوا فى صنعها وكانت مصوغة من الذهب مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ولم ير الراؤن مثلها وكان لها ثلاثمائة وخمسة وستون رجلا بكسر الراء وسكون الجيم وكان عليها طوق من اللؤلؤ وطوق من الياقوت وطوق من الزمرد وكلها مكالة بالجوهر حافاتها وأرجلها وكانت أرجلها منها فأخذها طارق بن زياد فاتح الاندلس وأتحف بها الوليد بن عبد الملك

﴿ ذكر ماجرى بعد استيلاء العدو على طليطلة بين العدو والمعتمد بن عباد صاحب قرطبة ﴾

قد تقدم ان ابن عباد كان أعظم ملوك الطوائف وذلك لانه قاتل كثيرا من ملوك الطوائف وانتزع منهم كثيرا من ممالكهم فصار له قرطبة واشبيلية و بطليوس

وشريش وقرمونة ورندة وغير ذلك فكان الباقون من ملوك الطوائف يهابونه ويلتمسون رضاه ولما رأى ابن عباد قوة الاذفونش الطاغية صار يداهنه ويهاديه ويخضع له وجعل له ضريبة على نفسه يؤديها اليه كل سنة فلما تملك الاذفونش طليطلة وأرسل اليه المعتمد الضريبة المعتادة التى كان يدفعها كل سنة فلم يقبلها الاذفونش وأرسل اليه يتهدده ويتوعده المسير الى قرطبة ليفتحها الا أن يسلم اليه الحصون المنيعة التى بيده فيبقى العهد للمسلمين وكان رسول الاذفونش الى المعتمد معه جمع من النصارى اتباع الاذفونش كانوا نحو خمسمائة فارس فلما وصل الى المعتمد أنزله وحده وفرق أصحابه على قواد عسكره ثم أمر المعتمد قواد عسكره أن يقتل كل منهم من كان عنده من أولئك النصارى الذين جاؤا مع رسول الاذفونش فقتلوهم وأحضر الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه وسلم من أولئك النصارى المرسلين ثلاثة نفر فرجعوا الى الاذفونش وأخبروه الخبر وكان قد تجهز الى قرطبة ليحاصرها فرجع الى طليطلة ليزيد فى التجهز ويجمع مابقى من آلات الحصار ويكثر الجيوش والعدة فلما بلغ المعتمد اهتمام الطاغية فى التجهز رحل الى اشبيلية لتدبير هذا الامر وسمع بذلك العلماء من مشايخ قرطبة وتحققوا جميع ماجرى وعلموا قوة الفرنج وضعف المسلمين وتأملوا فى أمر ملوك الطوائف فوجدوهم منهمكين فى اللذات والشهوات ويقاتل بعضهم بعضا ويستعين بعضهم على بعض بالفرنج فاجتمع العلماء يتشاورون فى هذا الامر فقال بعضهم هذه بلاد الاندلس قد غلب عليها الافرنج وملكوا كثيرا منها ولو استمرت الحال على مانرى عادت نصرانية كما كانت ثم ساروا الى قاضى القضاة المسمى عندهم بقاضى الجماعة وكان فى ذلك الوقت هو القاضى عبدالله بن محمد بن أدهم فقالوا له ألا تنظر الى مافيه المسلمون من الصغار والذلة واعطائهم الجزية للطاغية بعد ان كانوا يأخذونها منه وقد رأينا رأيا نعرضه عليك قال ماهو قالوا نكتب الى عرب افريقية ونبذل لهم اذا وصلوا الينا أنصاف أموالنا ونخرج معهم مجاهدين فى سبيل الله فقال لهم اذا وصلوا الينا يخربون

بلادنا و يطمعون فينا و يبدون بناقبل الافرنج ثم يذهبون بأموالنا الى بلادهم و يتركونا مع الافرنج فيزدادون قوة علينا والذى أراه ان المرابطين أتباع يوسف ابن تاشفين ملك مراكش أقرب الينا من عرب افريقية وكان يوسف بن تاشفين له ملك ضخم وقوة عظيمة فى مراكش وفاس وأعمالها فاستحسن العلماء ماقاله قاضى الجماعة ثم ذهب قاضى الجماعة الى المعتمد بن عباد وعرض عليه ماقالوه واستحسنوه فاستحسنه المعتمد بن عباد وقال للقاضى المذكور أنت الرسول الى ملك مراكش يوسف بن تاشفين فامتنع وأراد أن يبرئ نفسه من تهمة تقع عليه فلم يقبل منه المعتمد هذا الامتناع بل ألح عليه المعتمد الى ان رضى وعزم على المسير اليه فكان ماسيأتى ذكره * و ينبغى قبل ذكر مسير قاضى الجماعة ان نذكر شيأ مما يتعلق بدولة يوسف بن تاشفين ملك مراكش وكيف كان ابتداء أمره ليعلم بذلك كيف ترقت دولته حتى كانت فى غاية القوة والمتانة وتعرف دولته بدولة المرابطين والملثمين لانهم كانوا يتلثمون دائما وهم عدة قبائل أشهر تلك القبائل قبيلة لمتونة وكان يوسف بن تاشفين منهم ومنهم قبيلة جدالة وملطة واختلفوا فى انتهاء نسبهم اختلافا كثيرا فاختار ابن الأثير انهم ينسبون الى حمير فهم على قوله من العرب وكان أول مسيرهم من اليمن فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فسيرهم الى الشام زمن فتوحات الشام ثم انتقلوا الى مصر ثم دخلوا المغرب مع موسى بن نصير ثم توجهوا مع طارق بن زياد فاتح الأندلس ثم أحبوا الانفراد ودخلوا الصحراء واستوطنوها ثم توحشوا وتوالد منهم قبائل كثيرة واختار ابن خلدون انهم ليسوا من العرب وانما هم من البربر وان نسبهم ينتهى الى يافث بن نوح عليه السلام ولما توحشوا فى البوادى صاروا لايعرفون من الاسلام الا الشهادتين والصلاة ثم حج رجل منهم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة فلما رجع صحب معه واحدا من العلماء وكان فقيها صالحا اسمه عبد الله بن يس الكرولى وقصد بمجيئه به الى قومه أن يعلمهم الأحكام والشرائع فجاء معه فأكرموه وصار يعلمهم و ينقادون له ثم جعلوا عليهم أميرا من لمتونة وهو أبو بكر بن عمر وكان هو

رأس لمتونة ثم صاروا يقاتلون أهل البغي والفساد ممن كان قريبا منهم فقوى أمرهم ثم خرجوا الى السوس الاقصى وصاروا يأخذون الزكاة ووقع بينهم وبين أهل السوس قتال الى أن انقادوا لهم ثم قاتلوا أهل سجلماسة الى أن انقادوا لهم أيضا ثم توفى أميرهم أبو بكر بن عمر بعد أن استخلف ابن أخيه أبا بكر بن ابراهيم بن عمر ثم توفى أبو بكر أيضا سنة ثنتين وستين وأربعمائة فاجتمعت طوائفهم على ابن عمه يوسف بن تاشفين وملكوه عليهم ولقبوه أمير المسلمين فكثرت جموعهم وقوى أمرهم وكان يوسف المذكور مشهورا بالعقل والصلاح وحسن التدبير فظهر أمرهم وعلا شأنهم فقصدوا موضع مدينة مراكش وكان قاعا صفصفا لاعمارة فيه فاختط يوسف هناك مدينة مراكش ونزلها بمن كان معه من القبائل ثم لم يزل يملك مدائن المغرب مدينة بعد مدينة حتى صار له من القوة والمتانة ما هو مشهور مذكور فى التواريخ والكلام على ذلك طويل فلما نزل بأهل الاندلس ما نزل من الكفار قصدوه فبعثوا اليه قاضى الجماعة بقرطبة القاضى عبدالله بن محمد بن أدهم فسار الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بكتابة من المعتمد بن عباد وعلماء قرطبة فأبلغه الرسالة وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الاذفونش وكان أمير المسلمين بمدينة سبتة ففى الحال أمر بعبور العساكر الى الاندلس وأرسل الى مراكش فى طلب من بقى من العساكر فأقبلت اليه يتلو بعضها بعضا فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار الى أن اجتمع بالمعتمد بن عباد باشبيلية فكانت غزوة الذلاقة المشهورة

﴿ ذكر غزوة الذلاقة ﴾

لما اجتمع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالمعتمد بن عباد باشبيلية وجده قد جمع عساكره وكان فيهم من أهل قرطبة عسكر كثير ومعهم من المتطوعة من سائر بلاد الاندلس خلق كثير فلما وصلت الاخبار الى الاذفونش الطاغية جمع عساكره وسار من طليطلة وكتب الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتابا باللسان العربى كتبه له بعض المخذولين ممن يدعون الانتساب الى الاسلام يغلظ فيه

القول ويصف ماعنده من القوة والعدد والعدة وبالغ الكاتب في الكلام وتجاوز الحد فأمر ابن تاشفين كاتبه ان يكتب الجواب لاذفونش فكتب كلاما كثيرا فلما قرأه على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قال هذا كلام طويل أحضر كتاب الاذفونش واكتب في ظهره الذي سيكون ماستراه لاماستقرماؤه فلما رجع الكتاب الى الاذفونش ارتاع لذلك وعلم أنه بلي برجل له عزم وحزم فازداد استعدادا وكان في جيشه أربعون ألف ذراع وجملة جيشه ثلاثمائة ألف بغاية الاستعداد فرأى في منامه كأنه راكب على فيل وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويل هذه الرؤيا فأحضر رجلا من علماء المسلمين فقص الرؤيا عليه فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه فطلب منه الامان على نفسه اذا عبرها له فأمنه فقال له تأويل هذه الرؤيا يؤخذ من كتاب الله عز وجل وهو قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الى آخر السورة وقوله تعالى فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير وهذا التأويل يقتضي هلاك هذا الجيش الذي جمعته فقال الاذفونش للذي عبر له الرؤيا بهذا الجيش ألقى اله محمد صاحب كتابكم وأقاتل بهذا الجيش الجن والانس وملائكة السماء فانصرف ذلك المعبر وقال لبعض المسلمين هذا الاذفونش هالك وكل من معه وذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وكان الاذفونش استنفر جميع أهل بلاده ومايليها وماوراءها ورفع القسيسون والرهبان والاساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم وأيقنوا بالنصر والظفر اغترارا بكثرتهم وقوة استعدادهم وماعلموا أن النصر من عند الله وان العاقبة للمتقين ثم سار أمير المسلمين والمعتمد بن عباد بجيوشهما وجيوش ملوك الطوائف حتى أتوا أرضا يقال لها الزلاقة من بلد بطليوس وأتى الاذفونش بجيوشه فنزل موضعا بينه وبينهم ثمانية عشر ميلا ولم يبق أحد من ملوك الطوائف بالاندلس إلا بادر وأعان بالمال والرجال وخرج بنفسه وأخرج عساكره لكن لم يبلغ عدد مقدار جيش العدو وقيل لأمير

المسلمين ان ابن عباد ربما انه لا ينصح ولا يبذل نفسه دونك فأرسل أمير المسلمين يأمره أن يكون فى المقدمة ففعل ذلك وسار وقد ضرب الاذفونش خيامه فى سفح جبل والمعتمد فى سفح جبل يتراءون ونزل أمير المسلمين وراء الجبل الذى عنده المعتمد وظن الاذفونش أن عساكر المسلمين ليس الا الذين يراهم مع ابن عباد فتيقنوا الغلب وأرسل الاذفونش الى المعتمد فى ميقات القتال فقال يكون يوم الاثنين فقد وصلنا على حال تعب واستقر الامر على هذا فركب الاذفونش ليلة الجمعة سحرا وصبح بجيشه جيش المعتمد بكرة الجمعة غدرا وظنا منه أن ذلك المخيم هو جميع عسكر المسلمين فوقع القتال بينهم فصبر المسلمون وأحاط عليهم الاذفونش بجموعه من كل جهة وحمى الوطيس واستحر القتال فى أصحاب ابن عباد وقاتل ابن عباد بنفسه قتالا لم يعهد مثله لاحد وجرح جراحات وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغه وجرحت يمنى يديه وطعن فى أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر وهو يقاسى حياض الموت ويضرب يمينا وشمالا وكان ابن عباد قد بعث الى أمير المسلمين يستحث نصرته فبينما هم فى القتال إذ وصل أمير المسلمين بجيوشه بعد أن كاد المسلمون ينهزمون وقصد خيام الفرنج ومحلة الاذفونش فاقتحموها وأحرقوها وفتكوا فيها وضربت الطبول وزعقت البوقات فاهتزت الارض وتجاوبت الجبال والآفاق وتراجعت الروم الى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها فصدموا أمير المسلمين فخرج لهم عنها ثم كر عليهم فأخرجهم منها ثم كروا عليه فخرج لهم عنها ولم تزل الكرات بينهم تتوالى الى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بالدرق والسيوف والمزاريق فطعنوا الرجال والخيل فرمحت الخيل بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وكان أهل الأندلس لا يعرفون الجمال وليست فى بلادهم فجاء أمير المسلمين معه بجمال كثيرة فكانت من جملة أسباب النصر لأن خيل العدو كانت تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ومن منفعة تلك الجمال أنه كان يحدق

بها العسكر وقت نزولهم وكان يحضرها الحرب فيكثر رغاؤها ثم تحول أناس من جيش أمير المسلمين جاؤا الى موضع القتال فلقيهم من بين أيديهم و وضع السيف فيهم فلم يتمالكوا الثبات وأنزل الله النصر وأنزل السكينة على المسلمين فانهزم العدو وأخذهم السيف من كل جانب وصدق المسلمون جميعا الحملة فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم وأظلم النهار بالعجاج والغبار وخاضت الخيل فى الدماء فانكشف الطاغية وفر هاربا منهزما وقد طعن فى إحدى ركبتيه طعنة بقى يخنع بها وأفلت فارا مع نفر يسير من قومه وهلك الباقون وكان موضع القتال متسعا جدا فما كان فيه موضع قدم إلا وفيه من تلك الوقعة ميت أو دم و جمع المسلمون من رؤس القتلى كوما فكانوا يؤذنون عليها الى أن جيفت فأحرقوها قيل لم يرجع من الفرنج الى بلادهم غير ثلاثمائة فارس وغنم المسلمون كل مالهم من مال وسلاح ودواب وغير ذلك و جمع أمير المسلمين الغنائم وعف عنها وأعطاها ملوك الاندلس وعرفهم أن مقصده الجهاد ونيل الثواب العظيم وأقام أربعة أيام لجمع الغنائم وعاد ابن عباد الى اشبيلية و رجع أمير المسلمين الى الجزيرة الخضراء وعبر الى سبتة وسار الى مراكش ولما بلغ الاذفونش الى بلاده وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه ففقدهم ولم يسمع إلا نوح الثكلى فاهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك هما وغما وهوى الى أمه الهاوية وكانت هذه الوقعة فى يوم الجمعة فى العشر الأول من رمضان سنة تسع وسبعين وأربعمائة فكانت هذه الغزوة من أعظم غزوات المسلمين وفتوحاتهم

﴿ ذكر ما كان بعد غزوة الذلاقة ﴾

ولما فرغ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من غزوة الذلاقة أقام بالاندلس أياما ثم لما أراد التوجه الى مراكش ترك جيشا عظيما بالاندلس لقصد غزو الافرنج وشكا اليه كثير من علماء الاندلس جور ملوك الاندلس الذين اقتسموها وانهماكهم فى اللذات والشهوات والمعاصى فوعظ الملوك و زجرهم ونهاهم عن المكوس وعن الظلم والجور والانهماك فى اللذات والشهوات ثم رجع الى مراكش فجاءته الاخبار بأنهم تقاعدوا عن جهاد الكفار واستغرقوا الاوقات فى

اللذات والشهوات وزادوا فى الظلم عما كانوا فاستفتى علماء العراق فيهم فأفتوه بجواز انتزاع الملك منهم فعبر اليهم فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة وانتزع الملك منهم واستولى على الاندلس بعد قتاله لبعض المتملكين لها وقتل بعضهم وأسر بعضهم وحملهم الى مراكش وحبسهم الى أن ماتوا وصار ملك الاندلس كلها بيده ويد عماله مضافا ذلك الى ما بيده من المغرب الاقصى وأكثر من الغزو والجهاد بالاندلس هو وجنوده وتوفى سنة خمسمائة وكان الامام الغزالى لما بلغه حسن سيرته أراد زيارته فرحل من العراق الى الشام ثم بلغه موته قبل أن يصل اليه فرجع وكان يوسف بن تاشفين يخطب لبنى العباس وكان قد طلب منهم تقليدا لأنه قيل له لا تجب طاعتك وتنفذ أحكامك الا اذا كانت ولايتك من الخليفة فأرسل رسلا الى الخليفة ومعهم هدية وطلب التقليد فكتب له المستظهر بالله العباس بن المقتدى بأمر الله بن القائم بأمر الله بن القادر بالله بن اسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد وعقد له على الاندلس وبقية الممالك التى كانت تحت يده ولقبه أمير المسلمين وناصر الدين وبايعوا بعد وفاته ولده على بن يوسف بن تاشفين وكان حليما عاقلا صالحا عادلا

﴿ ذكر خروج الفرنج بالاندلس بعد وفاة يوسف بن تاشفين ﴾

لما توفى يوسف بن تاشفين قوى طمع النصارى فى الاستيلاء على الاندلس فخرج الاذفونش الافرنجى صاحب طليطلة سنة خمس وخمسمائة يطلب ما بأيدى المسلمين من ممالك الاندلس فجمع وحشد فأكثر فسار اليه أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من مراكش فى عساكره وجموعه فلقيه فاقتتلوا أشد القتال فكان الظفر للمسلمين وانهزم الافرنج وقتلوا قتلا ذريعا وأسر منهم شئ كثير وسبى منهم وغنم من أموالهم ما يخرج عن الاحصاء فخافه الافرنج بعد ذلك * وفى سنة أربع عشرة وخمسمائة خرج ابن ردمير من ملوك الافرنج بجموع كثيرة فالتقى مع أمير المؤمنين على بن يوسف بن تاشفين بجموعه فكانت الهزيمة على المسلمين ثم رجع ابن ردمير الى بلاده ثم اشتغل أمير المسلمين بأمر محمد بن تومرت

الذى ادّعى أنه المهدى فاتسع الخرق فى الأندلس فأرسل أمير المسلمين ابنه تاشفين أميرا على الأندلس لجهاد الكفار ووقع بينه وبين ردمير وقائع وانتصر فى بعضها على ردمير فمات مغموما من الهزيمة بعد عشرين يوما وكان من أشد ملوك الفرنج على المسلمين فكفى الله المسلمين شره وبقى من ملوك الفرنج الاذفونش الذى كان قد تملك طليطلة فوقع بينه وبين المسلمين وقائع ثم عقدوا معه صلحا عشرين سنة

﴿ ذكر قيام محمد بن تومرت المدعى أنه المهدى المنتظر ﴾

اعلم أن هذه القضية الكلام عليها طويل مذكور فى التواريخ وتلخيص ذلك باختصار أن محمد بن تومرت رجل من جبل السوس يدعى أنه شريف علوى حسنى قرأ علوما بالمغرب ثم ارتحل الى المشرق والعراق واجتمع بكثير من العلماء وأخذ عنهم قيل منهم الامام الغزالى وقيل لم يجتمع بالغزالى وكان يرى منامات يؤولها بالقيام بأمر الأمة منها أنه شرب البحر مرتين وقيل كان له معرفة بالرمل والنجوم فقام فى نفسه أنه المهدى المنتظر وكتم ذلك فى أول أمره وأظهره فى آخره وكان كثير الصلاة والصوم والعبادة والتقشف فابتدأ أولا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتبعه جماعة يأخذون عنه العلم ويجتمعون معه على الذكر وكان أعظمهم عبد المؤمن بن على الكومى القيسى وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى وعبد الله الونشريسى وكان الونشريسى عالما متضلعا بالعلوم فأمره أن يكتم ما عنده من العلوم ويجعل نفسه أبكم ويقوم بخدمة الشيخ وقال له ابق العلوم عندك مكتومة الى أن نحتاج الى اخراجها فى وقت يكون اخراجها فيه كالمعجزة والبرهان لاتمام ما نريد فامتثل أمره وبقى أبكم بين الناس أبله ولعابه يجرى على صدره ولا يتكلم الا مع الشيخ فى وقت الخلوة ثم انهم دخلوا مراكش فرأوا نساء راكبات على بغال وهن سافرات الوجوه وكانت تلك عادة لهن فى تلك البلاد فأنكروا عليهن وضربوا بعض البغال فسقطت من فوقها امرأة فاذا هى أخت أمير المسلمين فرفع الامر الى أمير المسلمين وأخبروه بأن هذا الرجل يتحدث فى تغيير الدولة فأحضروه ومن معه وحضر عند أمير المسلمين جماعة من العلماء ووقع

بينهم و بين ابن تومرت مجادلات فأقام الحجة عليهم بوجود كثير من المنكرات بين أظهرهم ولم ينكروها ووعظ أمير المسلمين حتى أبكاه فقال مالك بن وهيب وكان عالما صالحا يكثر مجالسة أمير المسلمين بل كان أحد وزرائه ان عندي النصيحة ان قبلتها احمدت عاقبتها فقال أمير المسلمين ماهي فقال اني خائف عليك من هذا الرجل وأرى أنه لابد له بد الامر بالمعروف والنهي عن المنكر انما يريد فتنة والغلبة على بعض النواحي فاقتله وقلدني دمه وان لم تقتله فخلده في الحبس فقال بعض الحاضرين من جلساء أمير المسلمين يقبح على أمير المسلمين أن يبكي من موعظة هذا الرجل ثم يسيء اليه في مجلس واحد وأن يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لايملك سد جوعه فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره وصرفه وسأله الدعاء فلما خرج من عند الملك قال لاصحابه لامقام لكم بمراكش مع وجود مالك بن وهيب فساروا الى اغمات ثم ذهبوا الى جبل تينمل وكان جبلا عظيما فيه كثير من القبائل وكثير من الزروع والفواكه واتصلوا بالسوس وذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة واجتمع عليه خلق كثير وتسامع به أهل تلك النواحي وجعل يعظهم و يذكرهم بأيام الله و يذكر لهم شرائع الاسلام وماغير منها وماحدث من الظلم والفساد وأنه لايجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم ومنعهم عماهم فيه فتابعه قبائل كثيرة وسمى أتباعه الموحدين وأعلمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر بالمهدي الذي يملأ الارض عدلا وأن مكانه الذي يخرج منه المغرب الاقصى فقام اليه عشرة رجال أحدهم عبد المؤمن فقالوا لايوجد هذا الافيك فأنت المهدي فبايعوه على ذلك فانتهى خبره الى أمير المسلمين فجهز جيشا وسيره اليه مع بعض أصحابه ووعد المهدي أصحابه بالنصر فلقوا جيش أمير المسلمين فهزموهم وأخذوا أسلابهم وقوى ظنهم في صدق المهدي وأقبلت اليه أفواج القبائل من الحلل التي حوله شرقا وغربا وبايعوه وألف لهم كتابا في التوحيد سماه المرشد وكتابا في العقيدة ونهج لهم طريق الادب بعضهم مع بعض والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن و يزهدهم في

الدنيا وكان قوته كل يوم برغيف وقليل من زيت أو سمن وكان يحرضهم على قتال عدوهم واخراج الاشرار من بينهم وكان يستميل الأحداث وذوى الغرة بالراء بعد الغين المعجمة وكان ذووا الحلم والعقل من أهاليهم ينهونهم عنه ويحذرونهم من اتباعه ويخوفونهم من سطوة الملك فلما علم بذلك خشى أن يفسدوا عليه من اتبعه ويسلموه للملك فصار يسأل ويتجسس عن هؤلاء الذين يمنعون أولادهم وعشائرهم من اتباعه ويكتب أسماءهم فى جريدة عنده ولم يطلع على ذلك أحدا الا عبد الله الونشريسى الابكم الذى يخدمه ليرتب الامر معه وقد تقدم أنه أمره أن يكتم ما عنده من العلم ويظهر البله والبكم فقال له فى هذا الوقت هذا وقت اظهار ما عندك وأمره أن يفعل ما سنذكره فخرج المهدى يوما لصلاة الصبح فرأى فى جانب محرابه انسانا حسن الثياب طيب الرائحة فأظهر أنه لا يعرفه وقال من هذا فقال أنا الونشريسى فقال المهدى ما قصتك فقد كنت أبكم لا تتكلم فقال أتانى الليلة ملك من السماء فغسل قلبى وعلمنى الله القرآن والموطأ وغيره من العلوم والاحاديث فبكى المهدى بحضرة الناس ثم قال نحن نمتحنك فقال افعل وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أى موضع سئل وكذلك الموطأ وغيره من كتب الفقه والاصول وبقية العلوم فعجب الناس من ذلك واستعظموه ثم قال لهم ان الله أعطانى نورا أعرف به أهل الجنة من أهل النار وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنة وقد أنزل الله ملائكة الى البئر التى فى موضع كذا يشهدون بصدقى وكان قد وضع فى البئر رجالا ثلاثة يشهدون بصدقه فسار المهدى والناس معه وهم يبكون الى البئر وصلى المهدى عند رأسها ركعتين وقال يا ملائكة الله ان عبد الله الونشريسى قد زعم كيت وكيت فقال من فى البئر صدق فلما قيل ذلك من البئر قال المهدى ان هذه البئر مطهرة مقدسة قد نزل اليها الملائكة فالمصلحة أن تطم لئلا يقع فيها نجاسة أو ما لا يجوز وقال ذلك لئلا يظهر الرجال منها فيفشون السر فيفسد الامر الذى دبره فألقوا فيها من الحجارة والتراب ما طمها وأهلك من فيها من الرجال ثم نادى أهل الجبل بالحضور الى ذلك الموضع فحضر والتمييز

أهل الجنة من أهل النار فكان الونشريسي يعمد الى الرجل الذي عرفه المهدي به أنه يخاف عاقبته وكتبه في الجريدة التي أطلعه عليها فيقول هذا من أهل النار فيقتل والى الشاب الغر ومن لا يخاف منه فيقول من أهل الجنة فيترك على يمينه ولم يزل يجمعهم في أيام مرة بعد أخرى ويفعل ذلك حتى تتبع كل من يخشى منه فقتله قال ابن الأثير في الكامل فكان عدة من قتلهم سبعين ألفا وصار الباقون معه على نيات صادقة وقلوب متفقة على طاعته فجهز منهم جيشا وجعل الأمير عليهم عبد المؤمن بن علي وسيرهم لقتال المرابطين قوم أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وتتابع القتال بينهم مرارا وشرح ذلك يطول واستمر أمره يعلو الى سنة أربع وعشرين فمرض مرضا شديدا وكان عبد المؤمن غائبا مع الجيوش التي تقاتل أهل مراكش فأوصى المهدي بأن خليفته عبد المؤمن وأمرهم باتباعه وتسليم الامر اليه والانقياد له ثم توفي فلما رجع عبد المؤمن بايعه الناس وانقادوا له وتسمى دولته دولة الموحدين لان المهدي سماهم بذلك كما تقدم فجهز الجيوش وأزال ملك بني تاشفين وفتح البلدان وملك كثيرا من مدائن المغرب وكل ذلك مبسوط في التواريخ وصار لعبد المؤمن ملك عظيم في المغرب والاندلس توارثه بنوه بعده الى سنة ثمان وستين وستمائة فانتزع الملك منهم بنو مرين فكانت مدة دولة بني عبد المؤمن مع مهديهم مائة واثنتين وخمسين سنة قال في نفح الطيب كانت دولة بني عبد المؤمن من أعظم الدول الاسلامية وكان كل واحد يلقب أمير المؤمنين ومسلكهم مسلك الخلفاء وكانوا يدعون على المنابر لمهديهم محمد بن تومرت ويضربون اسمه على السكة وتوفي عبد المؤمن سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وعمره ثمان وستون سنة ومدة ملكه ثلاث وثلاثون سنة وكان عاقلا حازما سديد الرأي حسن السياسة كثير البذل للاموال الا أنه كان سفاكا للدماء على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة ومن ترك الصلاة قتله وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين ومما نقل من كرمه أن شاعرا امدحه بقصيدة مطلعها

ماهز عطفيه بين البيض والاسل * مثل الخليفة عبد المؤمن بن على
فأشار اليه أن يقتصر على هذا البيت ولا يتم قراءة القصيدة وأمر له بألف دينار
فقيل له لم تسمع تمام القصيدة فقال عبد المؤمن وما عسى أن يقول بعد قوله ماهز
عطفيه البيت يعنى أنه لا يمكنه أن يأتى بمدح أعظم مما فى هذا البيت وفى المونس فى
أخبار تونس للعلامة أبى القاسم الرعينى القير وانى أن هذا الشاعر بعد أن قبض
الألف الدينار عاد اليه من الغد وأنشده البيت المذكور فأسكته وأمر له بألف
دينار أخرى ثم لم يزل ينشده كلما دخل عليه ويأمر له بألف دينار الى أن وصله
بأربعين ألفا فحسده بعض الشعراء وقال له الى متى تفعل هكذا وما يؤمنك من تغير
أخلاق أمير المؤمنين وقد وصلك بما فيه غناؤك فارتحل من فوره الى بلده ثم سأل
عنه عبد المؤمن فأخبر برحيله فقال لا حول ولا قوة الا بالله لقد ظن بنا غير ما
أردناه ولو طال مقامه لزدناه على ذلك وكان لعبد المؤمن معرفة بالشعر والادب
يحكى عنه أنه مر ببعض طرق مراكش ومعه وزيره أبو جعفر بن عطية فأطلت من
شباك جارية بارعة الجمال فقال عبد المؤمن * قدت فؤادى من الشباك اذ نظرت *
فقال ابن عطية * حوراء ترنو الى العشاق بالمقل * فقال عبد المؤمن
كأنما لحظها فى قلب عاشقها * فقال ابن عطية * سيف المؤيد عبد المؤمن بن على *
ويقال لعبد المؤمن القيسى نسبة الى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ويقال
له الكومى نسبة الى كومية قرية بتلمسان وكان المهدى محمد بن تومرت يقول له
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله ينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من
قيس وأرجو أن تكون أنت وكان أبوه صانعا فى عمل الطين يعمل منه الآنية
ويبيعها قال ابن خلكان فى ترجمة عبد المؤمن كان فى صباه يوما نائما تجاه أبيه وكان
أبوه مشتغلا بعمل الآنية من الطين فسمع أبوه دويا فى السماء فرفع رأسه فرأى
سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار فنزلت كلها مجتمعة على ابنه
عبد المؤمن وهو نائم فغطته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها فرأته أمه على تلك
الحالة فصاحت خوفا على ولدها فسكتها أبوه فقالت أخاف عليه فقال لا باس عليه

بل انى متعجب مما يدل عليه ثم انه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ماذا يكون من أمر النحل فطار عنه بأجمعه فاستيقظ الصبي ومابه ألم فتفقدت أمه جسمه فلم تر به أثرا ولم يشك لها ألما وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر فمضى اليه أبوه وأخبره بما رآه من النحل مع ولده فقال ذلك الرجل يوشك أن يكون لولدك هذا شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب فكان من أمره ما كان * وتقدم ان من أصحاب المهدى عمر بن يحيي الهنتاني قيل انه ينتهى نسبه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه صار بعد المهدى من وزراء عبد المؤمن وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس فكانوا يسمون بالحفصيين استمر ملك تونس فيهم الى سنة تسعمائة واحدى وثمانين فانتزع الملك منهم الدولة العثمانية وكانوا يلقبون بالحفصيين وكانت مدة ملكهم تونس ثلاثمائة وثمانية وسبعين سنة وهم من فروع دولة المهدى محمد بن تومرت واختلف الناس فى أمر ابن تومرت فقال بعض العلماء انه أراد اظهار الحق فاجتهد وأخطأ وقال بعضهم انه كان على الامة شرا من الحجاج ويزيد والله أعلم بحقيقة الحال (ولنذكر) ما كان من الفتوحات فى مدة عبد المؤمن وبنيه وفى مدة الحفصيين ملوك تونس

﴿ ذكر أول تجهيز لعبد المؤمن على الاندلس ﴾

قال ابن الاثير فى الكامل فى حوادث سنة احدى وأربعين وخمسمائة * فى هذه السنة سير عبد المؤمن بن على جيشا الى جزيرة الاندلس فملكوا مافيها من بلاد الاسلام وسبب ذلك ان عبد المؤمن لما كان يحاصر مراكش جاء اليه جماعة من أعيان الاندلس ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التى هم فيها لعبد المؤمن ودخولهم فى زمرة أصحابه الموحدين واقامتهم لأمره فقبل عبد المؤمن منهم ذلك وشكرهم عليه وطيب قلوبهم وطلب منهم النصرة وطلبوا منه النصرة على الفرنج فجهز جيشا كثيفا وسيره معهم وعمر اسطولا وسيره فى البحر فسار الاسطول الى الاندلس وقصدوا مدينة اشبيلية وصعدوا فى نهرها وبها جيش من

الملثمين وهم أتباع يوسف بن تاشفين ويقال لهم المرابطون فحصروها برا وبحرا وملكوها عنوة وقتل فيها جماعة وأمن الناس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد كان لعبد المؤمن من كان بها وانتزعت عساكر عبد المؤمن كثيرا من مدائن الاندلس التى كانت فى طاعة المرابطين مدينة بعد مدينة بعد حروب يطول ذكرها * وفى سنة ثنتين وأربعين حصر الفرنج مدينة المرية من الاندلس وضيقوا عليها برا وبحرا فملكوها عنوة وأكثروا القتل بها والنهب وملكوا أيضا مدينة شاسة وولاية جيان وكلها بالاندلس * وفى سنة ثلاث وأربعين ملك الفرنج بالاندلس مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لاردة وافراغة ولم يبق للمسلمين شيء فى تلك الجهات الا واستولى الفرنج عليه * وفى سنة خمس وأربعين سار السليطين وهو الاذفونش وهو ملك طليطلة وأعمالها وهو من ملوك الجلالقة نوع من الفرنج فى أربعين ألف فارس الى مدينة قرطبة فحصرها وهى فى ضعف وغلاء فبلغ الخبر الى عبد المؤمن وهو بمراكش فجهز عسكرا كثيرا وجعل مقدمهم أبازكريا يحيى بن برموز وأنفذهم الى قرطبة فلما قربوا منها لم يقدروا أن يلقوا عسكر السليطين فى الوطاء وأرادوا الاجتماع بالمسلمين المحصورين بقرطبة فسلكوا الجبال الوعرة والمضايق المتشعبة فساروا نحو خمسة وعشرين يوما فى الوعرة فى مسافة أربعة أيام فى السهل فوصلوا الى الجبل المطل على قرطبة فلما رآهم السليطين وتحقق أمرهم رحل عن قرطبة ليذهب اليهم وكان فيها القائد أبو الغمر السائب من ولد القائد بن غلبون وهو من أبطال أهل الاندلس وأمرائها فلما رحل الفرنج خرج من قرطبة لوقته وصعد الى ابن برموز وقال له انزلوا عاجلا وقال له ادخلوا البلد ففعلوا وباتوا فيها فلما أصبحوا من الغد رأوا عسكر السليطين على رأس الجبل الذى كان فيه عسكر عبد المؤمن فقال لهم أبو الغمر هذا الذى خفته عليكم لأنى علمت أن السليطين ما رحل الا طالبا لكم فان من الموضع الذى كان فيه الى الجبل طريقا سهلا ولو لحقكم هناك نال مراده منكم ومن قرطبة فلما رأى السليطين انهم قد فاتوه علم أنهم دخلوا

قرطبة ولم يبق له طمع فى قرطبة فرحل عائدا الى بلاده وكان حصره لقرطبة ثلاثة أشهر * وفى سنة ست وأربعين سير عبد المؤمن جيشا كثيفا نحو عشرين ألف فارس الى الاندلس مع أبى حفص عمر الهنتاتى وسير معهم نساءهم فكن يسرن مفردات عليهن البرانس السود ليس معهن غير الخدم ومتى قرب منهن رجل ضربه الخدم بالسياط فلما قطعوا الخليج ساروا الى غرناطة وبها جمع من المرابطين جماعة ابن تاشفين فحصرها عمر وعسكره وضيقوا عليها فجاء اليه أحمد ابن ملحان صاحب مدينة وادى آش وأعمالها بجماعته ووحدوا وصاروا معه وأتاه ابراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش صاحب جيان وأصحابه ووحدوا وصاروا أيضا معه فكثر جيشه وحرضوه على المسارعة الى ابن مردنيش ملك بلاد شرق الاندلس ليبغته بالحصار قبل أن يتجهز فلما سمع ابن مردنيش ذلك خاف على نفسه فأرسل الى ملك برشلونة من بلاد الفرنج يخبره ويستنجده ويستحثه على الوصول اليه فسار اليه الفرنجى فى عشرة آلاف فارس وسار عسكر عبد المؤمن فوصلوا الى بلقوارة وبينها وبين مرسية التى هى مقر ابن مردنيش مرحلة فسمعوا بوصول الفرنجى مع ملك برشلونة فرجع جيش عبد المؤمن وحصروا مدينة المرية وهى للفرنج عدة شهور فاشتد الغلاء فى العسكر وعدمت الاقوات فرحلوا عنها وعادوا الى اشبيلية فأقاموا بها * وفى سنة احدى وخمسين استعمل عبد المؤمن ابنه أبا سعيد عثمان على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة فعبر أبو سعيد البحر الى مالقة وهى من الاندلس واتخذها دارا وكاتبه ميمون بن بدر اللمتونى صاحب غرناطة ورضى أنه يوحد ويسلم اليه غرناطة فقبل ذلك منه أبو سعيد وتسلم غرناطة فسار ميمون الى مالقة بأهله وولده فتلقاه أبو سعيد وأكرمه ووجهه الى أبيه عبد المؤمن بمراكش فأقبل عليه عبد المؤمن وأكرمه وانقرضت بذلك دولة المرابطين ويقال لهم أيضا الملثمون كما تقدم ولم يبق لهم الا جزيرة ميورقة مع أحمد بن غانية فلما ملك أبو سعيد غرناطة جمع الجيوش وسار الى مدينة المرية وهى بأيدى الفرنج أخذوها من المسلمين سنة ثنتين

وأربعين وخمسمائة فلما نازلها وافاه الاسطول من سبتة وفيه خلق كثير من المسلمين فحصروا المرية براً وبحراً فلجأ الفرنج الى حصنها فحصرهم ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها وبنى أبو سعيد سوراً على الجبل المذكور الى البحر وعمل عليه خندقاً فصارت المدينة والحصن الذى فيه الفرنج محصوراً بهذا السور والخندق ولا يمكن من ينجدهما من أن يصل اليهما فجمع الاذفونش ملك الفرنج بالاندلس المعروف بالسليطين جموعاً من الفرنج بلغت اثنى عشر ألف فارس ومعه محمد بن سعد بن مردنيش فى ستة آلاف فارس من المسلمين وراموا الوصول الى المدينة ليدفعوا المسلمين عنها فلم يطيقوا ذلك فرجع السليطين وابن مردنيش خائبين فمات السليطين فى عوده قبل أن يصل الى طليطلة وتمادى الحصار على المرية ثلاثة أشهر فضاقت الميرة وقلت الاقوات على الفرنج فطلبوا الامان ليسلموا الحصن فأجابهم أبو سعيد اليه وتسلم الحصن ورحل الفرنج فى الغد عائدين الى بلادهم فكان ملكهم المرية مدة عشر سنين * وفى سنة سبع وخمسين وخمسمائة أرسل أهل غرناطة من بلاد الاندلس وهى لعبد المؤمن الى الامير ابراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش فاستدعوه اليهم ليسلموا اليه البلد وكان قد وحد كما تقدم وصار من أتباع عبد المؤمن وفى طاعته وممن يحرض على قصد ابن مردنيش فلما وصل اليه رسل أهل غرناطة طمع فى الملك فسار معهم اليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن فامتنعوا بحصنها فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذى كان عنده وتوجه الى غرناطة لنصرة أصحابهم المسلمين الذين بغرناطة فعلم بذلك ابراهيم بن همشك فاستنجد ابن مردنيش ملك البلاد بشرق الاندلس فأرسل اليه ألفى فارس من أنجاد أصحابه ومن الفرنج الذين جندهم معه فاجتمعوا بنواحى غرناطة فالتقواهم ومن بغرناطة من عسكر عبد المؤمن من قبل وصول أبى سعيد اليهم فاشتد القتال بينهم فانهزم عسكر عبد المؤمن وقدم أبو سعيد بمن معه فاقتتلوا أيضاً فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الاعيان والفرسان المشهورين والرجالة والاجلاد

حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذ أبو سعيد ولحق بمالقة وسمع عبد المؤمن الخبر فسير في الحال ابنه أبا يعقوب يوسف في عشرين ألف مقاتل فيهم جماعة من شيوخ الموحدين فجدوا السير فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه الى غرناطة ليعين ابن همشك فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير فنزل ابن مردنيش في الشريعة بظاهرها ونزل العسكر الذي أمر به لابن همشك أولا وهم ألفا فارس بظاهر القلعة الحمراء ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ووصل عسكر عبد المؤمن الى جبل قريب من غرناطة فأقاموا في سفحه أياما ثم سيروا سرية أربعة آلاف فارس فبيتوا العسكر الذي بظاهر القلعة الحمراء وقاتلوهم من جميع جهاتهم فما لحقوا أن يركبوا فقتلوهم عن آخرهم وأقبل عسكر عبد المؤمن بجملته فنزلوا بضواحي غرناطة فعلم ابن مردنيش وابن همشك أنهم لا طاقة لهم بهم ففروا في الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم واستولى الموحدون على غرناطة وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة توفي عبد المؤمن فبايع الموحدون ابنه محمدا ثم خلعوه بعد خمسة وأربعين يوما وبايعوا أخاه يوسف بن عبد المؤمن وتلقب بأمير المؤمنين كأبيه قال ابن خلكان كان يوسف فقيها حافظا متقنا نشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء كان أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والاسلام ويقال انه كان يحفظ صحيح البخاري وكان يحفظ القرآن مع جملة من الفقه وسيأتي الكلام على فتوحاته ولنتمم الكلام على جميع فتوحات أبيه عبد المؤمن في غير الاندلس

﴿ ذكر فتوح المهدية ﴾

المهدية مدينة من مدائن افريقية كانت المهدية في يد الحسن بن علي بن محمد بن تميم الصنهاجي وكان من عمال العبيديين ملوك مصر ثم تغلب عليها ملكها الفرنج وانتزعوها من يده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفر الامير المذكور منها وقصد عبد المؤمن فأكرمه وأحسن نزله وكان أهل سفاقس وزويلة يقاتلون الفرنج لتخليص المهدية فلم يقدروا وانهزموا مرة بعد أخرى وقتل كثير منهم وذلك سنة

احدى وخمسين وخمسمائة ثم دخل الفرنج زويلة وقتلوا من وجدوا فيها من النساء والاطفال ونهبوا الاموال فقصد جماعة من أهل زويلة عبد المؤمن وهو بمراكش يستجيرون به فأكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس فى ملوك الاسلام من يقصد سواه فدمعت عيناه وقال أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين وأمر بانزالهم وأن يعطوا ألفى دينار ثم جهز الجيوش واستعد لذلك ثلاث سنين فاجتمع معه مائة ألف مقاتل ومن الاتباع والسوقة أمثالهم وسار بجيوشه شهر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة وكان يقع من حفظه لعسكره أنهم كانوا يمشون بين الزرع فلا يتأذى منهم أهل الزرع ولا يصيبون شيأ منه واذا نزلوا صلوا جميعهم مع امام واحد بتكبيرة واحدة ولا يتخلف منهم أحد كائنا من كان خوفا من عقابه لانه كان يقتل من يتأخر منهم وقدم بين يديه أمير افريقية الذى فر منها حين أخذها الفرنج وهو الحسن بن على بن محمد بن تميم الصنهاجى فلم يزل يسير الى أن وصل الى مدينة تونس فى شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكان ملك تونس بيد أحمد بن خراسان وأقبلت أساطيل عبد المؤمن فى البحر سبعين شينيا وطريدة وشلندى فلما نازل تونس أرسل الى أهلها يدعوهم الى طاعته فامتنعوا فقاتلهم من الغد أشد قتال فلم يبق الا أخذها ودخول الاسطول اليها فجاءت ريح عاصف منعت الموحدين من دخول البلد فرجعوا ليباكروا القتال ويملكوا فلما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهل تونس الى عبد المؤمن يسألونه الامان لأهل بلدهم فأجابهم الى الامان لهم فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم الى الطاعة وأما من عداهم من أهل البلد فيؤمنهم على أنفسهم وأهليهم ويقاسمهم أموالهم وأملاكهم نصفين وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله منها فاستقر الامر على ذلك وتسلم البلد وأرسل اليه من يمنع العسكر من الدخول وأرسل أمناءه ليقاسموا الناس أموالهم وأقام عليها ثلاثة أيام وعرض الاسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل وأقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم ثم سار عبد المؤمن منها الى المهدية والاسطول

يحاذيه فى البحر فوصل اليها ثامن عشر رجب وكان بالمهدية أولاد ملوك الفرنج وأبطال الفرسان وقد أخلوا زويلة وبينها وبين المهدية غاية رمية سهم فدخل عبد المؤمن زويلة وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة فى ساعة واحدة ومن لم يجد له موضعا من العسكر نزل بظاهرها وانضاف اليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الاحصاء وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق موضع القتال عليها لان البحر دائر بأكثرها فكأنها كف فى البحر وزندها متصل بالبر وكان أول من بناها واتخذها مدينة عبيد الله المهدى أول ملوك العبيديين بناها سنة ثلاث وثلاثمائة الفرنج وكان يخرج شجعانهم الى أطراف العسكر فينالون منهم ويعودون سريعا فأمر عبد المؤمن أن يبنى سور من جهة غرب المدينة يمنعهم من الخروج وأحاط الاسطول بها فى البحر وركب عبد المؤمن فى شينى ومعه الحسن بن على الذى كان صاحبها وطاف بها فى البحر فهاله ما رأى من حصانتها وعلم أنها لا تفتح بقتال لا برا ولا بحرا وليس لها الا المطاولة بالحصار وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر فقال صدقت وعاد من البحر وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صارت الغلات والاقوات فى العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير فكان من يصل الى العسكر من بعيد يقول متى حدثت هذه الجبال فيقال لهم هى حنطة وشعير فيتعجبون من ذلك وتمادى الحصار وفى مدته أطاع عبد المؤمن أهل سفاقس وطرابلس وجبال نفوسة وقصور افريقية وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف فلما رأى أهل قفصة ذلك أطاعوه وكان الفرنج قد تملكوا اصقلية * فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة جاؤها بجموع كثيرة وانتزعوها من عامل العبيديين وبقيت فى أيديهم وصار لهم فيها قوة عظيمة فكانوا يمدون هؤلاء المحصورين فى المهدية ففى شهر شعبان من السنة المذكورة أعنى سنة أربع وخمسين وخمسمائة جاء أسطول صاحب صقلية من ملوك الفرنج فى مائة وخمسين شينيا غير الطرائد وكان قدومه من جزيرة يابسة

من بلاد الاندلس وقد سبي أهلها وأسرهم وحملهم معه فأرسل اليه ملك الفرنج يأمره بالمجيء الى المهدية فقدموا في التاريخ المذكور فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا المينا فخرج اليهم أسطول عبد المؤمن وركب فيه العسكر جميعه ووقفوا على جانب البحر فاستعظم الفرنج ما رأوه من كثرة العساكر ودخل الرعب في قلوبهم وبقي عبد المؤمن يمرغ وجهه على الارض ويبكي ويتضرع الى الله تعالى ويدعو للمسلمين بالنصر ثم اقتتلوا في البحر فانهزمت شواني الفرنج وأعادوا القلوع راجعين الى بلادهم فتبعهم الموحدون فأخذوا منهم سبع شواني ولو كان معهم شواني لأخذوا أكثرهم وكان أمراً عجيباً وفتحاً قريباً وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً وفرق فيهم عبد المؤمن الاموال ويئس أهل المهدية من النجدة وصبروا على الحصار ستة أشهر الى آخر الحجة من السنة المذكورة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج الى عبد المؤمن عشرة وسألوه الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا الى بلادهم وكان قوتهم قد فني حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم الاسلام ودعاهم اليه فلم يجيبوا ولم يزالوا يترددون اليه أياماً بالكلام اللين فأجابهم الى ذلك وأمنهم وأعطاهم سفناً فركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاء فغرق أكثرهم في البحر ولم يصل الى صقلية الا النفر اليسير وكان صاحب صقلية يقول ان قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله أكثرهم بالغرق في البحر وكان مدة ملكهم المهدية اثنتي عشرة سنة ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة وأقام بها عشرين يوما فرتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل اليها الذخائر من الاقوات والرجال والعدد واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن علي الذي كان صاحبها وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله وأقطع الحسن بها اقطاعا وأعطاه دوراً نفيسة يسكنها ورحل من المهدية أول صفر من السنة المذكورة وتوجه الى بلاد المغرب وجهز جيوشا الى الاندلس

﴿ ذكر فتوحات يوسف بن عبد المؤمن ﴾

لما استقرت البيعة له بعد موت أبيه وخلع أخيه أخذ منهج أبيه وسار سيرته واستكثر

من الجيوش ومهد البلاد فصار له ملك ضخم أكثر من أبيه فكان ملكه من قاصية افريقية الى بلاد القبلة و بلاد الاندلس يجبى اليه خراجها دون مكس ولا جور فكثرت الأموال وأمنت الطرق ثم رحل الى الاندلس لكشف مصالح دولته وتفقد أحوالها وفى صحبته مائة ألف فارس ونزل اشبيلية وشرع فى استرجاع بلاد المسلمين من أيدى الفرنج وكانوا قد استولوا على كثير منها فاتسع ملكه وحاصر الاذفونش فى طليطلة وضيق عليه شهورا فراسله الاذفونش فى أنه يسلم المدينة و يعطيهم الامان على نفوسهم فامتنع يوسف من ذلك فلما اشتد بهم العطش سمع لهم فى بعض الليالى لغط عظيم وأصوات هائلة وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج فارتووا وتقووا على المسلمين فهادنهم سبع سنين وانصرف عنهم الى اشبيلية وكان يرتفع اليه فى كل سنة من خراج اشبيلية وأعمالها حمل مائة وخمسين بغلا خارجا عما يرتفع اليه من بقية البلاد * وفى سنة خمس وستين وخمسمائة اتفق ابن مردنيش ملك شرق الاندلس هو والفرنج على يوسف بن عبد المؤمن فاستفحل أمرهم فجهز يوسف العساكر فجاسوا بلاد ابن مردنيش وخربوها وأخذوا مدينتين من بلاده وأخافوا عساكره وجنوده وأقاموا ببلاده مدة يتنقلون فيها و يجبون أموالها * وفى سنة سبع وستين توفى الأمير محمد بن سعد بن مردنيش صاحب البلاد بشرق الاندلس وهى مرسية و بلنسية وغيرهما وأوصى أولاده أنهم بعد موته يقصدون يوسف بن عبد المؤمن وكان قد اجتاز الى الاندلس فى هذا العام فى مائة ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش فقدموا عليه بعد موت أبيهم فحين رآهم يوسف فرح بهم وسره قدومهم عليه وتسلم بلادهم وتزوج أختهم وأكرمهم وعظم أمرهم و وصلهم بالاموال الجزيلة وأقاموا معه * وفى سنة ثمان وستين توجه يوسف الى الاندلس بعساكره ونزل اشبيلية ثم سار منها وقصد بلاد الفرنج ونزل على مدينة رندى فحصرها واجتمعت الفرنج على ابن الفنش فى جمع كثير فلم يقدروا على لقاء المسلمين فاتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الاقوات

عندهم وهم فى جمع كثيرة اضطروا الى مفارقة بلاد الفرنج فعادوا الى اشبيلية وهو مع ذلك يجهز العسكر ويسيرها الى غزو الفرنج فى كل وقت فكان له بها عدة وقائع وغزوات ظهر منها للعرب من الشجاعة مالا يوصف وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج فلا يبرز اليه أحد ثم عاد يوسف بن عبد المؤمن الى مراكش * وأما وقائعه مع من خرج عن طاعته من المسلمين فى افريقية فكثيرة لا حاجة بنا الى ذكرها وهى مذكورة فى التواريخ * وفى سنة ست وسبعين أتاه رسول ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس الصلح معه فهادنه عشر سنين * وفى سنة ثمانين وخمسمائة سار يوسف الى الاندلس فى جمع عظيم من عساكر المغرب وقصد غربى بلاد الاندلس فحصر مدينة تشنتير شهرا وهى للفرنج فأصابه بها مرض فات به فى ربيع الاول من السنة المذكورة وحمل فى تابوت الى اشبيلية وقيل انه أصابته طعنة فات منها وبعد أن وصلوا به اشبيلية حملوه فى التابوت الى جبل تينمل ودفنوه هناك عند أبيه عبد المؤمن بجانب قبر المهدى محمد بن تومرت واتفق شيوخ الموحدين على مبايعة ابنه يعقوب فبايعوه ولقبوه المنصور (لطيفة) يحكى أن الأديب أحمد بن عبد السلام الكورانى كان من ظرفاء الندماء وكوران قبيلة من البربر وكان يجالس عبد المؤمن ثم ابنه يوسف ثم ابنه يعقوب فاتفق أنه حضر يوما عند يوسف بن عبد المؤمن وهناك الطبيب سعيد الغمارى وغمارة أيضا قبيلة من البربر فقال يوسف من عجائب الدنيا شاعر من كوران وطبيب من غمارة فقال الكورانى وضرب لنا مثلا ونسى خلقه أعجب منهما والله خليفة من كومية فقال يوسف فى نفسه أعاقبه بالحلم والعفو ففيه تكذيبه فعفا عنه ولم يعاقبه

﴿ ذكر فتوحات يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ﴾

كان يعقوب المذكور دينا مقيما للحدود فاستقامت له الدولة وانقادت اليه بأسرها فأقام راية الجهاد وأحسن المسيرة فى الناس ورتب ثغور الاندلس وشحنها بالرجال ورتب المقاتلة فى سائر بلادها وكان يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم وكان

مشاركا فى علوم كثيرة * ومن لطائفه أنه بعث لبعض عماله أن ينظر له رجلا لتأديب أولاده فبعث له العامل رجلين وكتب معهما كتابا يقول فيه بعثت اليك برجلين أحدهما بحر فى علمه والآخر بر فى دينه فلما امتحنهما لم يرض بهما فوقع على ظهر كتاب العامل ظهر الفساد فى البر والبحر * وفى سنة ست وثمانين بلغه أن الفرنج ملكوا مدينة شلب وهى فى غرب الاندلس فتجهز اليها بنفسه وحاصرها وأخذها وأنفذ فى الوقت جيشا من الموحدين ومعهم جماعة من العرب ففتحوا أربع مدن كانت بيد الفرنج كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة وخاف صاحب طليطلة وسأله الصلح فصالحه خمس سنين وعاد الى مراكش فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها سوى القليل خرجت طائفة من الفرنج فى جيش كثيف الى بلاد المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثا فظيعا فانتهى الامر الى يعقوب وهو بمراكش فتجهز لقصدهم فى جيش كبير وذلك فى سنة احدى وتسعين فسمع الفرنج بذلك فجمعوا خلقا كثيرا من أقصى بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه وبعد أن عزم يعقوب على المسير بمجمع جيوشه أصابه مرض شديد حتى أيس منه أطباؤه فتأخر عن المسير فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم فى البلاد وعاثوا فيها وأغاروا على النواحى والاطراف وكذلك فعل الاذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالاندلس فاقتضى الحال تفرقة جيوش الامير يعقوب لاصلاح ما فسد فى الاطراف واشتغلوا بالمدافعة والممانعة فكثر طمع الاذفونش فى البلاد وبعث رسولا الى الامير يعقوب يتهدده ويتوعده ويطلب منه بعض الحصون من بلاد الاندلس وكتب له رسالة من انشاء بعض من خذله الله ممن يدعى انه من المسلمين وهى باسمك اللهم فاطر السموات والارض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح أما بعد أيها الأمير فلا يخفى على كل ذى عقل لازب ولا ذى لب ثاقب أنك أمير الملة الحنيفية كما أنه هو أمير الملة النصرانية وانك لا يخفى عليك ما هو عليه رؤساء الاندلس من التخاذل والتواكل واهمال الرعايا واخلادهم الى الراحات وأنا أسوسهم بحكم القهر الخسف وأخلى الديار وأسبى

الذرارى وأمثل بالكهول وأقتل الشبان ولا عذر لكم عن التخلف عن نصرتهم وقد أمكنتك يد القدرة وأنتم تعتقدون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ولا تقدرون دفاعا ولا تستطيعون امتناعا ثم حكى لى أنك أخذت فى الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتمطل نفسك عاما بعد عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى ولا أدرى الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك ثم حكى لى عنك أنك لا تجد سبيلا الى الحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم بها فها أنا أقول لك ما فى ذلك وأعتذر عنك ولك أن تتوجه بجملة من عندك بالمراكب والشوانى وأجوز اليك بجملتى وأبارزك فى أعز الاماكن عندك فان كانت لك الغلبة فغنيمة عظيمة جاءت اليك وهدية مثلت بين يديك وان كانت لى كانت يدى العليا عليك واستحققت امارة الملتين والتقدم على الفئتين والحكم على البرين والله يوفق الارادة ويوضح السعادة لا رب غيره ولا خير الا خيره فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب فى أعلاه ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون والجواب ما تراه لا ما تسمعه أو تقرأه وكتب أيضا بيتا مشهورا للمتنبى

ولا كتب إلا المشرفية والقنا * ولا رسل إلا الخميس العرمرم

وأعاد الكتاب اليه وجمع العساكر الكثيرة من المسلمين وعبر الى الاندلس فى جيش يضيق عنه الفضاء فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيها ودانيها وأقبلوا اليه مجدين مصممين على القتال واثقين بالظفر لكثرتهم فالتقوا تاسع شعبان شمالى قرطبة فاقتتلوا قتالا شديدا استشهد فيه كثير من المسلمين وكانت الدائرة فى أول الأمر على المسلمين ثم تراجعوا وعادوا على الفرنج فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفا وأسر منهم ثلاثة عشر ألفا وقيل ثلاثون ألفا وغنم المسلمون منهم شيأ كثيرا من الخيام

مائة ألف وثلاث وأربعون ألفا ومن الخيل ستة وأربعون ألفا وقيل ثمانون ألفا ومن البغال مائة ألف ومن الحمير مائة ألف وقيل أربعمائة ألف جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنهم لا إبل عندهم بالاندلس ومن الدروع التى صارت لبيت المال ستون ألفا غير ما أخذه المسلمون منها وأما الذهب والفضة والجواهر والاموال فلا تحصى وبيع الاسير بدرهم والحمار بدرهم وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ونجا الفنش بروحه وهو ملك النصارى اذ ذاك الى طليطلة فى اسوإ حال وحلق رأسه ونكس الصليب وحلف أن لا ينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرسا ولا دابة حتى يأخذ بالثار وصار يجمع الرجال من البلاد البعيدة و يستعد للقاء ثم لقيه يعقوب بالجيوش مرة ثانية فهزمه وساق خلفه الى طليطلة وحصره فيها ورمى عليه بالمجانيق ولم يبق إلا فتحها فخرجت اليه والدة الاذفونش و بناته ونساؤه يبكين بين يديه و يسألنه ابقاء البلد عليهن فرق لهن ومنّ عليهن بها ووهب لهم أموالا كثيرة وعفا بعد القدرة ورجع الى قرطبة فأقام بها شهرا يقسم الغنائم فجاءته رسل الفنش بطلب الصلح فصالحه وهادنه خمس سنين وأمن الناس وكان يعقوب قد نادى فى عسكره من غنم شيأ فهو له وأحصى ما حمل اليه من السلب فكان زيادة على سبعين ألفا وهذه الوقعة تسمى وقعة الارك وهو اسم للموضع الذى كانت فيه الوقعة ولم يسمع بعد وقعة الزلاقة التى كانت على يد أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين بمثل وقعة الارك هذه بل صرح بعض المؤرخين بانها أعظم من وقعة الزلاقة وكان جملة من استشهد من المسلمين فى هذه الوقعة نحو عشرين ألفا وعظم أمر الاسلام بالاندلس بعد هذه الوقعة ومدح الشعراء يعقوب بعد هذا الفتح بقصائد كثيرة وأجازهم بعطيات وافرة فمنهم ابن منقذ وكان شاعرا بليغا مدحه بقصيدة منها قوله

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته * الى بحر جود ما لأخراه ساحل
الى معدن التقوى الى معدن الندى * الى من سمت بالذكر منه الاوائل
اليك أمير المؤمنين ولم تزل * الى بابك المأمول تزجى الرواحل

قطعت اليك البر والبحر موقنا * بان نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصديك الغنا فبلغتها * وأدنى عطاياك العلا والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود باقيا * تبلغك الآمال ما أنت آمل

وعدد أبيات القصيدة أربعون بيتا فأعطاه أربعين ألفا وانما صالح يعقوب الفرنج وهادنهم لانه بلغه قيام ثائر من المرابطين بأفريقية فأراد يعقوب الرجوع الى مراكش لقمع هذا الثائر واخماده فرجع وقمعه وأخمده (لطيفة) قال الشيخ محي الدين بن العربي رضي الله عنه في الفتوحات المكية كنت بمدينة فاس سنة احدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد جازت الى الاندلس لقتال العدو فلقيت رجلا من رجال الله فسألني ماتقول في هذا الجيش هل يفتح له وينتصر في هذه السنة أم لا فقلت له ماعندك أنت في ذلك فقال ان الله تعالى قد ذكره في كتابه وبشر به نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا وموضع البشرى فتحا مبينا من غير تكرار الالف في مبينا فانها لاطلاق الوقوف في تمام الآية فنظرت وحسبت الحروف فوجدت الفتح يكون في سنة احدى وتسعين وخمسمائة ثم جزت الى الاندلس في السنة المذكورة وقد نصر الله جيش المسلمين فهذا من الفتح الالهي لهذا الشخص اه

فتحا مبينا

٤٨٩ ١٠٢ وتوفي الامير يعقوب بمدينة سلا وقيل بمراكش سنة خمس وتسعين
٥٩١ وخمسمائة وعمره احدى وأربعون سنة قال ابن خلكان في ترجمة
يعقوب المذكور ثم حكى لي جمع كثير بدمشق سنة ثمانين وستمائة ان بالقرب من المجدل البليدة التي من أعمال البقاع العزيزية بالشام قرية يقال لها حمارة والى جانبها مشهد يعرف بقبر الامير يعقوب ملك المغرب وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف اه قال في نفح الطيب توفي السلطان يعقوب سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة سلا وكانت ولايته خمس عشرة سنة ومايقال انه ساح في الارض وتخلى عن الملك ووصل الى الشام ودفن

بالبقاع لا أصل له وان حكى ابن خلكان بعضه وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم وقال ان ذلك من هذيان العامة لولوعهم بالسلطان المذكور انتهى قال ابن خلكان وسمعت عن الامير يعقوب حكاية يليق ان تذكر ههنا وهي ان الامير أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاني كان قد تزوج أخت الامير يعقوب المذكور وأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة فجاءت الى بيت أخيها يعقوب المذكور وأقامت عنده فسير الامير عبد الواحد في طلبها فامتنعت فشكا الامير عبد الواحد الى قاضي الجماعة بمراكش وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان فاجتمع القاضي المذكور بالامير يعقوب وقال له ان أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله فسكت الامير يعقوب ومضى على ذلك أيام ثم ان الامير عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الامير يعقوب وقال له أنت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاؤني فاجتمع القاضي بالامير يعقوب وقال له يا أمير المؤمنين ان الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله وهذه الثانية فسكت الامير يعقوب ثم بعد ذلك بمدة لقي الامير عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور فقال له يا قاضي المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنها فاجتمع القاضي بالامير يعقوب وقال له يا مولانا ان الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله فاما ان تسير اليه أهله والا فاعزلني من القضاء فقال يا أبا عبد الله ماهذا الاجد كبير ثم استدعى خادما وقال له في السر تحمل أهل الشيخ عبد الواحد فحملت اليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيأ يكرهه وتبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لاوامره قال ابن خلكان وهذه حسنة تعد له وللقاضي أيضا فانه بالغ في اقامة منار الشرع بالعدل انتهى

﴿ ذكر محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن وماجرى في مدته من الغزو ﴾

لما توفي الامير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بايع شيوخ الموحدين ابنه محمد ولقبوه الناصر وكان النصارى بالاندلس لما سمعوا بموت يعقوب أخذوا

يتغلبون على كثير من الحصون بالاندلس وكان محمد المذكور حديث السن عمره نحو تسع عشرة سنة فاستخف بكثير من وزراء أبيه ورجال دولته وبكثير من رجال الاندلس العارفين بالقتال حتى انه قتل بعض رجال دولته وشنق بعضهم فكان ذلك سببا لفساد النيات ولقوة الشكيمة للافرنج فلما بلغه قوة شكيمتهم وطمعهم فى التغلب على بعض الحصون بل أخذوا بعضها بالفعل شرع فى التجهز للسير لقتالهم فتجهز فى ستمائة ألف مقاتل ودخله الاعجاب بكثرة من معه من الجيوش واستمد له العدو بجموع كثيرة فلما التقوا وتقاتلوا فى شهر صفر سنة تسع وتسعمائة انهزم المسلمون وكثر القتل فيهم ولم ينج من الستمائة ألف الذين مع محمد بن يعقوب غير عدد يسير لم يبلغوا الالف فكانت هذه الوقعة هى الطامة الكبرى على الاندلس بل على المغرب كله وما ذلك الا لسوء التدبير والاعتماد على القوة وكثرة الجند والله غالب على أمره واستولى العدو بعدها على كثير من الاندلس وتسمى هذه الوقعة بوقعة العقاب ثم كثر الثائرون والخارجون أيضا فى المغرب وتوفى محمد بن يعقوب المذكور سنة ست عشرة وستمائة ثم تفرقت كلمة بنى عبد المؤمن وكثر الاختلاف والقتال بينهم مع بعضهم وانتشرت فتن كثيرة بينهم فكانوا كلما بويع لواحد منهم خلعوه وخرجوا عليه الى أن انقضت دولتهم وكانوا كلهم يدعون لمهديهم محمد بن تومرت على المنابر فى الخطبة ويترحمون عليه ويكتبون اسمه على سكة الدراهم والدنانير الا العاشر من خلفائهم وهو أبو العلاء ادريس الملقب بالمأمون بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فانه أمر باسقاط اسم مهديهم محمد بن تومرت من السكة والخطبة وألف فى ذلك رسالة طويلة أفصح فيها بتكذيب مهديهم المذكور وضلاله وصار يلعنه وكان ادريس المأمون عالما فصيحا متمكنا فى علم الاصول والفروع ناظما ناثرا وكان سفاكا للدماء وكانوا يسمونه حجاج المغرب قتل مائة من شيوخ الموحدين وسفك دماء كثيرة من دماء الخارجين الثائرين عليهم وقتل فى يوم واحد أربعة آلاف ونصب رؤوسهم على أسوار مدينة مراكش مات سنة ثلاثين وستمائة وكان

تمام انقضاء دولتهم سنة ثمان وستين وستمائة فكانت مدة دولتهم مع مهديهم مائة واثنتين وخمسين سنة وجملة من تولى منهم مع مهديهم ستة عشر شخصا فسبحان الملك الباقي الذي لا يعتري ملكه الزوال والنقصان وتفصيل ملوكهم مع الفتن التي وقعت بينهم ذكرته في تاريخ جمعته في أخبار الاندلس وكان المنتزع الملك بني عبد المؤمن جماعة من بني مرين وسنذكرهم ان شاء الله تعالى ونذكر ما كان منهم من الغزو لكفار الاندلس لكن ينبغي قبل ذكرهم أن نذكر الحفصيين ملوك تونس لانهم من فروع دولة الموحدين والجميع من فروع دولة محمد بن تومرت المهدي على زعمهم والحفصيون ملوك تونس هم أولاد أبي حفص عمر الهنتاني وهو الوزير الثاني لمحمد بن تومرت لانه أول قيامه بدعواه كان الملازمون القائمون بأمره ثلاثة عبد المؤمن بن علي وعبد الله الونشريسي وأبو حفص عمر الهنتاني أما عبد المؤمن فقد تقدم الكلام عليه وعلى أولاده الذين ورثوا الملك منه الى أن ذهب ملكهم وأما عبد الله الونشريسي فقتل في بعض الحروب التي كانت أول ظهور محمد بن تومرت وأما أبو حفص عمر الهنتاني فكان وزيرا لعبد المؤمن وكان ولي العهد بعده ثم احتال عليه عبد المؤمن وخلعه وجعل ولاية العهد لابنه محمد ثم يوسف بن عبد المؤمن وكان عبد المؤمن في مدة ملكه اتخذ أبا حفص عمر الهنتاني وزيرا وخليلا يقربه ويدنيه ويستشيره في أموره كلها ثم صار أبناء عبد المؤمن يقربون أبناء أبي حفص ويدنونهم ويتخذون منهم وزراء وأمراء وفي سنة ستمائة وثلاث في مدة ملك محمد بن يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن جعلت ولاية تونس لعبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص عمر الهنتاني وتوارثها بنو عبد الواحد المذكور وبقي ملك تونس فيهم الى سنة تسعمائة واحدى وثمانين فانتزع ملك تونس منهم سلاطين آل عثمان فكانت مدة تملك تونس لبني حفص ثلاثمائة وثمانية وسبعين سنة وعدة ملوكهم ثمانية وعشرون ملكا فدولتهم أيضا من فروع دولة المهدي محمد بن تومرت وكان لهم ملك ضخم وجرى منهم غزوات وفتوحات سيأتي كثير منها بعد اتمام الكلام على

دولة بني مرين المنتزعين ملك بني عبد المؤمن وبعد ذكر ما كان منهم من الغزوات والفتوحات بالاندلس

﴿ ذكر دولة بني مرين وغزواتهم بالاندلس ﴾

اعلم ان بني مرين قبيلة من قبائل البربر كانوا متوحشين يسكنون الصحراء والقفار وكانت لهم مواش ثم صارت لهم خيل وقوة فلما ضعف ملك بني عبد المؤمن ورأى بنو مرين ضعفهم واختلال ملكهم تخلصوا من الصحراء والقفار وتفرقوا في جهات المدن والأمصار وأوجفوا بخيلهم وركابهم وظهرت لهم رياسة وقوة وشوكة فخلعوا طاعة بني عبد المؤمن من بعد أن كانوا تحت طاعتهم فصار كثير من رعايا بني عبد المؤمن يحتمون ببني مرين ويلتجئون اليهم لاسيما اذا وقعت عليهم مظلمة من بني عبد المؤمن فتمسك كثير من الناس بمتصلات بني مرين وأظلم الجو بينهم وبين بني عبد المؤمن وثار من ذلك فتن كثيرة بين الفريقين ووقع بينهم محاربات يطول الكلام بذكرها فصار بنو مرين يقوى أمرهم كلما ضعف ملك بني عبد المؤمن الى أن استلبوهم الملك وانتزعوه منهم واستولوا عليه وأول ما ظهرت الرياسة في بني مرين بعد الخمسين والخمسمائة من الهجرة وأول من ظهرت عليه الرياسة منهم محيو بن أبي بكر بن حمامة فقدموه رئيسا عليهم الى أن توفي سنة احدى وتسعين وخمسمائة فقام بالرياسة بعده ابنه عبد الحق بن محيو الى أن توفي سنة أربع عشرة وستمائة فقام بالرياسة بعده ابنه عثمان بن عبد الحق الى أن توفي سنة سبع وثلاثين وستمائة ثم بعده أخوه محمد بن عبد الحق الى أن توفي سنة اثنتين وأربعين وستمائة ثم أخوه أبو يحيى ابن عبد الحق الى أن توفي سنة ست وخمسين وستمائة فقام بالرياسة بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق وفي هذه المدة السابقة كانت محاربات كثيرة بينهم وبين بني عبد المؤمن فقوى أمرهم وانتشر صيتهم واستولوا على مدائن وقرى منها مكناسة وفاس وتلمسان وطنجة وسبتة وغير ذلك الا تونس وأعمالها فان ملكها كان بيد الحفصيين أبناء أبي حفص عمر الهنتاني أحد أصحاب المهدي محمد بن

تومرت وقد تقدم ذكر ذلك وكان تملك بني مرين فاس سنة ست وأربعين وستمائة وآخر الامر ملكوا مراكش سنة ثمان وستين وستمائة وقتلوا أبا دبوس الملقب بالواثق وهو آخر ملوك بني عبد المؤمن واستقر الملك لبني مرين على يد يعقوب بن عبد الحق فهو الذي ينبغي أن يكون أولهم ولما استقرت دولته بمدينة مراكش جاءته البيعة من أهل الاندلس وجاء جماعة منهم يستنصرون به على النصارى المتغلبين على أكثر الاندلس وسيأتي ذكر تجهيزه لغزو العدو بالاندلس ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر ما كان من استيلاء العدو على كثير من مدائن الاندلس مدة ضعف دولة بني عبد المؤمن ﴾

كان بالاندلس عمال لبني عبد المؤمن متفرقون في أقطارها ومدائنها فلما حصل الضعف لدولتهم وانتشرت الفتنة بينهم مع بعضهم و بين بني مرين واشتغلوا بقتالهم اغتنم العدو الفرصة وصار يقتطع كثيرا من المدائن والمعاقل والحصون و يستولي عليها ولم يوجد بالاندلس من الجيوش والرجال من يدافع العدو و يقاتله وقد كثر ما استولى عليه الطاغية في هذه المدة التي ضعف فيها ملك بني عبد المؤمن و بعض المدائن استولى عليها العدو قبل ظهور الضعف في دولتهم فمن ذلك مدينة تطيلة وأختها طرشونة استولى عليها الطاغية سنة أربع وعشرين وخمسمائة وكان ذلك في أول دولة بني عبد المؤمن وآخر دولة المرابطين بل كان قد استولى قبل ذلك على طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما تقدم حتى ان يوسف بن تاشفين لما عبر الاندلس وكانت وقعة الزلاقة عجز عن تخليص طليطلة من يد الطاغية واستولى الطاغية على مدينة سرقسطة سنة سبع وخمسين وأربعمائة ثم استرجعت ثم استولى عليها ثانيا سنة خمسمائة واثنتي عشرة واستولى على بلنسية سنة أربعمائة وسبع وخمسين ثم ارتجعها المسلمون ثم تكرر استيلاؤهم عليها واسترجاعها كما تقدم ثم تغلب العدو عليها وأخذها مرة أخرى سنة ست وثلاثين وستمائة واستولى على حصن روطة سنة تسع وعشرين وخمسمائة وكان من أمنع الحصون سلمه بن

هود لصاحب طليطلة لما عجز عن مقاومته واستولى العدو على مدينة المرية سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة وكان قبل ذلك استولى على مدينة لوشة سنة اثنتين وعشرين وستمائة ثم ارتجع الموحدون المرية سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وبقيت بيد المسلمين سنين ثم ارتجعها العدو خذله الله مرة أخرى واستولى على كورة ماردة سنة ست وعشرين وستمائة وعلى ميورقة سنة سبع وثلاثين وستمائة وعلى جزيرة شقرة سنة تسع وثلاثين وستمائة وعلى قرطبة دار الخلافة سنة ست وثلاثين وستمائة وعلى شرقى الاندلس شاطبة وغيرها سنة خمس وأربعين وستمائة واستولوا سنة أربع وأربعين وخمسمائة على مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون الارادة وافراغة وعلى مرسية صلحا فى العام المذكور وحصروا اشبيلية سنة خمس وأربعين وستمائة وملكوها فى العام القابل وبيان وقائع أخذ الطاغية لهذه المدائن يطول الكلام بذكره وذلك مشتمل على ما تتقرح له الاكباد وتنسجم له العيون ولما أخذت قواعد المدائن وأمهاتها بالاندلس مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية وغيرها انحاز أهل الاسلام الى قطعة من شرقى الاندلس كانت بيد المسلمين منهم محمد بن يوسف ابن هود الجذامى كان آباؤه لهم ملك بالاندلس من جملة ملوك الطوائف فكان محمد بن يوسف المذكور بمرسية من شرقى الاندلس وكان هناك عمال لبنى عبد المؤمن فتغلب عليهم وأخرجهم واستعان على ذلك ببعض أهل الاندلس وهلمائهم وأعيانهم وصار الملك له وخطب لبنى العباس وأقام الدعوة لهم ثم كثر المنازعون له والثائرون عليه من المسلمين ومن الفرنج وطمعوا فيه فاضطربت عليه الامور وكان ممن نازعه من المسلمين بنو الاحمر وهم قوم ينسبون الى سعد ابن عبادة رضى الله عنه الانصارى سيد الخزرج فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كان تحت أيديهم بعض مدائن بغرب الاندلس فانتزعوا ما كان تحت يد محمد بن يوسف بن هود وضموه الى ما كان تحت أيديهم وكان أول من قام من بنى الأحمر محمد بن نصر وكان أبو نصر فى دولة بنى عبد المؤمن من أمراء الاجناد وكان

محمد بن نصر يقال له محمد الشيخ و بويع سنة تسع وعشرين وستمائة وخطب لابى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص عمر الهنتاتى وكان أبو زكريا المذكور اذ ذاك صاحب تونس وكان قد استفحل ملكه بتونس وافريقية فخلع طاعة بنى عبد المؤمن ودعا لنفسه وتسمى بأمير المؤمنين فبايع ابن الاحمر الناس له ليفسد على ابن هود بيعته لبنى العباس ودخل مع ابن الاحمر فى تلك البيعة أهل جيان وشريش وكان الطاغية فى ذلك الوقت محاصرا بلنسية * وذلك سنة ست وثلاثين وستمائة ثم أرسل ابن الاحمر جماعة من أعيان أهل الاندلس لأبى زكريا الحفصى بتونس فقدموا عليه وعقدوا له بيعة أهل الاندلس واستصرخوا به يريدون منه النجدة فى قتال النصارى فأجابهم الى مطلبهم وعقد أبو زكريا لتلك البيعة يوما مشهودا بتونس وأنشد شاعر أهل الاندلس القصيدة المشهورة التى أولها

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا * ان السبيل الى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست * فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وهى قصيدة طويلة بليغة مذكورة فى نفح الطيب فأجاب أبو زكريا بيعتهم ولبى دعوتهم وجهز لهم أساطيل فيها المال والرجال فلما وصلوا الاندلس وجدوا الطاغية المحاصر بلنسية قد ملكها ثم ملك مرسية أيضا صلحا وكان ممن قام بالاندلس أيضا أبو محمد اشقيلولة واستولى على قمارش ووادى آش وكان بينه وبين ابن الاحمر مصاهرة وقرابة مع منافسة باطنية فاستعان به ابن الاحمر على ابن هود وكان ابن هود قبل ان يتغلبوا عليه قد جاءه خطاب وتقليد من الخليفة العباسى المستنصر بالله بن الظاهر بن الناصر فقوى ابن هود لما جاءه التقليد فبايعه ابن الاحمر وترك الخطبة لابى زكريا الحفصى صاحب تونس وافريقية ثم قام باشبيلية أبو مروان الباجى فداخله ابن الاحمر على ان يزوجه ابنته فأطاعه أبو مروان فدخل ابن الاحمر اشبيلية ثم فتك بابن مروان فقتله ثم ان أهل اشبيلية بعد شهر كاتبوا ابن هود ودخلوا فى طاعته وأخرجوا ابن الاحمر ثم تغلب ابن

الاحمر على غرناطة سنة خمس وثلاثين وستمائة بمواطأة من أهلها فجاءته بيعتهم وهو بجيان فجاء الى غرناطة فدخلها وجعلها كرسى مملكته ثم تغلب على مالقة * وفى هذه المدة التى وقعت فيها هذه الفتن بين المسلمين بالاندلس قوى أمر النصارى وطمعوا فيما بأيدى المسلمين وتلقفوا كثيرا من مدائن الاندلس وحصونها وداخلهم ابن هود وهادنهم بالصلح ليدفعوا عنه ابن الاحمر وأعطاهم كثيرا من المعاقل والحصون قيل انه أعطاهم ثلاثين حصنا وجعل على نفسه ضريبة لهم كل سنة أربعمائة ألف دينار ثم ثار على ابن هود وزيره ابن الرميمى فقتله واستولى على ما بيده ثم استولى ابن الاحمر على ما بيد الرميمى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ثم بايع ابن الاحمر أهل مرسية سنة ثلاث وستين وستمائة وحصل لاعقاب ابن هود فى هذه الفتن خطوب كثيرة وحروب بينهم وبين ابن الاحمر ثم دخلوا فى طاعته فبعث ابن الاحمر ابن اشقيلولة فتسلم منهم مرسية وخطب لابن الاحمر وعوضهم عن مرسية حصنا من عملها سنة ثمان وستين وستمائة ثم انقرضت دولة بنى هود بالكلية وكان ابن الاحمر فى أول أمره يداخل النصارى ويستعين بهم على ابن هود فلما داخل النصارى ابن هود وأعطاهم الحصون المتقدم ذكرها وجعل لهم الضريبة على نفسه فزع اليهم ابن الاحمر لانهم كفوا عن معاضدته التى كانت منهم له قبل ذلك وصاروا معاضدين لابن هود ثم لما رأى ابن الاحمر أمر النصارى يقوى ورآهم تغلبوا على قرطبة وغيرها خاف أن يستولوا على ما بيده فسخطهم ونبذ عهدهم وصار محترسا منهم وحاز فى تملكه مدائن بغرب الاندلس وبالمتوسطة من الاندلس من ذلك غرناطة والمرية ومالقة ونحوها وتوفى ابن الاحمر محمد الشيخ ابن يوسف بن نصر سنة ستمائة واحدى وسبعين فبويع بعده ابنه محمد الفقيه ابن محمد الشيخ وكان ممن بقى من ملوك الاندلس بنو اشقيلولة وكانوا نظراء لابن الاحمر فى الرياسة وبينهم وبينه مصاهرة ومنافسة وكان الرئيس فيهم أبا محمد صاحب مالقة وأخاه أبا اسحق صاحب وادى آش وقارش ثم ان ابن الاحمر محمدا الفقيه فى سنة ثلاث وسبعين وستمائة بعث جماعة من المسلمين الى بنى مرين

يستصرخون بهم ويسألونهم النصرة والاعانة على قتال النصارى وكان فى ذلك الوقت قد تمكن الملك فى مراكش والمغرب الاقصى لبنى مرين وكان الملك فى ذلك الوقت من بنى مرين يعقوب بن عبد الحق

﴿ ذكر أول تجهيز من بنى مرين لغزو النصارى بالاندلس ﴾

لما جاء الصريخ من أهل الاندلس مع الجماعة الذين بعثهم ابن الأحمر محمد الفقيه بن محمد الشيخ بن يوسف بن نصر جهز السلطان يعقوب بن عبد الحق جيوشا كثيرة من مدينة فاس ومراكش فاجتازت الى الاندلس مع بعض أولاد السلطان يعقوب والتقوا مع النصارى وقاتلوهم أشد القتال وهزموهم شر هزيمة وملؤا أيديهم من غنائمهم وأسلابهم وتحصن النصارى فى حصونهم ومعاقلهم فى المدائن التى ملكوها ورجع بنو مرين سالمين منصورين ولم يخلصوا فى هذه الغزوة شيأ من المدائن التى ملكها العدو

﴿ غزوة أخرى لبنى مرين الى الاندلس ﴾

فى سنة أربع وسبعين وستمائة جمع أمير المسلمين السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى جموعا كثيفة واستنفر المسلمين من كل ناحية وغزا الاندلس بنفسه فلما وصل طريف لقيه ابن الاحمر محمد الفقيه صاحب غرناطة والرئيس أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة فأكرمهما وفاوضهما فى أمر الجهاد ثم أمرهما بالرجوع الى بلديهما فانصرف ابن الاحمر مغاضبا لكلمات صدرت من ابن اشقيلولة أغضبته وجاء الخبر للسلطان يعقوب أن زعيم النصارى جمع جموعا كثيرة يضيق عنها الفضاء فرتب السلطان جيوشه للقائه ثم التقوا وتقاتلوا قتالا شديدا وهزم الله النصارى هزيمة قبيحة حتى قال بعض المؤرخين ان المسلمين بعد أن هزموا يوم العقاب الذى كان فى دولة الموحدين فى مدة محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ما نصروا حتى دخل السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى الأندلس وفتك بهم وقتل الله زعيم النصارى فى هذه الوقعة وكان اسمه ذننة وقتل من جيشه أكثر من أربعين ألفا وهزم الباقون شر هزيمة وملك السلطان من الاندلس

رندة والجزيرة الخضراء وطريفا وجبل طارق وغير ذلك وأعز الله به الدين بعد تمرد النصارى ولما قتل ذنئة زعيم النصارى في القتال المذكور بعث السلطان يعقوب رأس ذنئة الى ابن الأحمر فقيل ان ابن الاحمر طيبه وأكرمه ورده الى النصارى وجعل ذلك صنيعا عندهم وكرامة لهم وولاية أخلصها لهم وكان ذلك منه انحرافا عن السلطان يعقوب قال ابن خلدون وظهرت شواهد عليه بعد حين ورجع أمير المسلمين من غزوته الى الجزيرة منتصف ربيع الاول من سنته فقسم الغنائم في المجاهدين وما أخذوه من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم بعد اخراج الخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرف في مصارفه وكان مبلغ الغنائم في هذه الغزوة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفا ومن الاسارى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثين أسيرا ومن الكراع أربعة عشر ألفا وأما الغنم فشيء كثير خارج عن الحصر وكذا السلاح وأقام أمير المسلمين بالجزيرة أياما

﴿ غزوة أخرى ﴾

بعد فراغ الغزوة السابقة ورجوع السلطان الى الجزيرة واقامته أياما خرج غازيا من الجزيرة الى اشبيلية فجاس خلال ديارها وتتبع نواحيها وأقطارها وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعمرانها ثم ارتحل الى شريش فأذاقها وبال العيث والاكتساح ثم رجع الى الجزيرة بعد شهرين ثم رجع الى المغرب من السنة المذكورة بعد أن رتب في الاندلس جيشا يقيم هنالك ليدوم الغزو والجهاد للكفار

﴿ غزوة أخرى لبني مرين للاندلس ﴾

في سنة ست وسبعين وستمائة تجهز السلطان يعقوب بن عبد الحق وسار بجموعه ونزل بطريف آخر المحرم ثم ارتحل الى رندة ووافاه الرئيسان أبو محمد بن اشقيلولة صاحب مالقة وأخوه أبو اسحق صاحب قمارش بريدان الغزو معه ولم يأته ابن الاحمر محمد الفقيه صاحب غرناطة فارتحل السلطان ومن معه الى منازلة اشبيلية وكان باشبيلية اذ ذاك ملك الجلالقة ابن اذفونش فخار وجبن عن اللقاء وبرز الى ساحة البلد محاميا عن أهله فرتب أمير المسلمين جيوشه وجعل ابنه يوسف في

المقدمة وزحف فى التعبية فانحجز العدو الى البلد واقتصوا أثرهم فى الوادى وأثخنوا فيهم الى أن جاء الليل وبات العسكر ليلتهم على ظهور خيولهم وقد أضرموا النيران بساحة العدو وضربوا الحصار عليهم وبثوا السرايا والغزوات فى سائر النواحى حتى أبادوا عمرانها وملكوا حصن قطيانة عنوة وكذا حصن جليانة وحصن القليعة وأثخنوا فى القتل والسبى ثم ارتحل السلطان الى الجزيرة الخضراء بالغنائم فارتحل وقسم الغنائم فى المجاهدين

﴿ غزوة أخرى ﴾

فى منتصف ربيع الثانى من السنة المذكورة ارتحل السلطان من الجزيرة الخضراء غازيا الى شريش فأذاقها نكال الحرب وأقفر نواحيها وقطع أشجارها وحرق كثيرا من ديارها وأعمالها ونواحيها وأثخن فيها بالقتل والأسر وتحصن العدو بمدينة شريش وجبن عن اللقاء فأراد السلطان أخذ الاطراف ليسهل حصار البلد وبعث ابنه يوسف فى سرية للاغارة على اشبيلية وحصون الوادى فبالغ فى النكاية واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليانة والقناطر ثم صبح اشبيلية وانكفأ الى أمير المسلمين فقفلوا جميعا الى الجزيرة الخضراء فأراحوا وقسموا الغنائم فى المجاهدين

﴿ غزوة أخرى ﴾

ثم لما كان السلطان بالجزيرة الخضراء حث المسلمين على غزو قرطبة ورغبهم فى عمرانها وثروة مساكنها وخصب بلادها فانعطفوا الى جانبه وأرسل لابن الاحمر يستنفره ودارت بينهما مكاتبات فيها عتاب زال به ما كان فى نفس ابن الاحمر فعزم على لقاء السلطان وخرج أمير المسلمين من الجزيرة الخضراء لاول جمادى ووافاهم ابن الاحمر بناحية ارشدونة فأكرم وصوله فنازلوا جميعا حصن بنى بشر وملكوه عنوة وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء ونقلوا الاموال وخربوا الحصن ثم بث السرايا والغارات فى البسائط واكتسحها وامتلأت الايدى وأثرى العسكر وتقروا المنازل والعمران فى طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة وانحجزت حامية العدو من وراء الاسوار وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم فى

نواحيها فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها واكتسحوا قراها وضياعها وترددوا على جهاتها وملكوا حصن بركونة عنوة ثم ارجونة كذلك وجبن العدو عن اللقاء وأيقن بخراب العمران فجنح الى السلم وأرسل لأمير المسلمين يطلب السلم فدفعه الى ابن الاحمر وجعل الأمر فى ذلك اليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه فأجابهم ابن الاحمر الى الصلح بعد عرضه على أمير المسلمين واذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس اليه منذ المدد الطويلة فانعقد السلم وقفل أمير المسلمين من غزواته وجعل طريقه على غرناطة كرسى ملك ابن الاحمر احتفالا به وخرج له أمير المسلمين عن الغنائم كلها فاحتوى عليها ابن الأحمر وقال له السلطان يعقوب يكون حظ بنى مرين من هذه الغزوة الاجر والثواب مثل ما فعل يوسف ابن تاشفين مع أهل الاندلس يوم الزلاقة ودخل أمير المسلمين الى الجزيرة الخضراء فى أول رجب من العام المذكور فأراحهم ونظر فى ترتيب المصالح على الثغور وكان بنو اشقيلولة مع أمير المسلمين فى هذه الغزوة وفارقوه بعد فراغ الغزو ولما قفلوا اعتل أبو محمد صاحب مالقة ثم مات غرة جمادى من السنة المذكورة فلحق ابنه محمد السلطان آخر شهر رمضان وهو بالجزيرة فنزل للسلطان عن مالقة ودعاه الى اجتيازها لانه رأى ابن الاحمر يطمع فى انتزاعها منه ولا قدرة له على دفاعه وقال للسلطان ان لم تجزها أعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الاحمر فقبلها السلطان منه وعقد عليها أمير المسلمين لابنه أبى زيان منديلا ثم سار أمير المسلمين اليها بعد انقضاء شهر الصيام فوافاها سادس شوال وبرز اليه أهلها فى يوم مشهود واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سرورا بقدومه ودخولهم فى إيالته وأقام فيها الى خاتم سنته ثم عقد عليها لعمر بن يحيى وكان من صنائع دولتهم وأنزل معه المسالح وزيان ابنه وابن أبى عباد بن عبد الحق فى طائفة من أبطال بنى مرين واستوصاه بمحمد ابن اشقيلولة ولما علم ابن الاحمر أن أمير المسلمين تملكها شق عليه ثم ارتحل السلطان الى الجزيرة ثم الى المغرب سنة سبع وسبعين وستمائة وقد اهتزت الدنيا لقدومه وامتلأت القلوب بما أعطاه الله من نصر المسلمين لكن

نشأ من تملكه مالقة غيظ لابن الاحمر وعظم عليه الأمر فتظاهر بطاغية النصارى واتفق معه على منع دخول السلطان الاندلس بعد هذه المرة ان أراد ذلك فاغتنم الطاغية مظاهرة ابن الاحمر له فنكث عهد أمير المؤمنين وأغزى أساطيله الجزيرة الخضراء حيث مسالح السلطان وعساكره واحتال ابن الاحمر على عامل مالقة فأخذها منه وراسلوا بعض الثائرين على السلطان بالمغرب وحثوهم على افساد الثغور واتصل الخبر بأمير المسلمين وهو بمراكش وبلغه أن المسلمين فى الجزيرة الخضراء فى شدة من ضيق الحصار فعقد لابنه على الغزو وأغزى الاساطيل فى البحر الى جهاد العدو

﴿ غزوة أخرى لبنى مرين بالاندلس ﴾

لما بلغ أمير المسلمين ما تقدم من نكث الطاغية العهد ومظاهرة ابن الاحمر فعقد السلطان لابنه فوصل الى طنجة فى شهر صفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة وأوعز الى البلاد البحرية لاعداد الاساطيل بسبتة وطنجة وسلا وقسم الاعطاآت واستنفر الناس فتوفرت همم المسلمين على الجهاد وصدقت عزائمهم على الموت ولما رأى ابن الاحمر ما نزل بالمسلمين فى الجزيرة الخضراء من حصار الطاغية لها واشرافه على أخذها أخذته الحمية الاسلامية وأعد أساطيله وكانت اثنى عشر وبعثها مددا للمسلمين واغاثة لهم وكانت أساطيل أمير المسلمين تناهز السبعين وقيل اثنين وسبعين وبعث الأمير صاحب سبتة خمسة وأربعين أسطولا وأساطيل الطاغية تناهز أربعمائة وتلاقوا مع العدو وأخلصوا لله عزائمهم وصدقوا فى نياتهم ووعظهم خطباؤهم والتحم القتال ونزل الصبر فلم يكن الا كلا ولا حتى نضحوا العدو بالنبل فانكشفوا وتساقطوا فى البحر فاستلحمهم السيف وغشيهم اليم وملك المسلمون أساطيلهم ودخلوا مرفأ الجزيرة وفرضتها عنوة فاختل عسكر الطاغية ودخلهم الرعب وخرج الناس المحصورون من البلد وانتشرت النساء والصبيان بساحته فغنموا كثيرا من الحنطة والادام والفواكه حتى ملؤا أسواق البلد من ذلك أياما وأجاز الامير يوسف من حينه الى الاندلس وأرهب العدو فى كل ناحية

ثم صده عن التوسع شأن الفتنة مع ابن الاحمر فرأى أن يعقد مع الطاغية صلحا ويصل به يدا لينازل غرناطة كرسي ملك ابن الاحمر فأجابه الطاغية الى ذلك رهبة من بأسه وموجدة على ابن الاحمر فى اعداده المدد لاهل الجزيرة وتظاهر الطاغية بالعداوة لابن الاحمر وبعث الطاغية أساقفته لعقد الصلح فأجازهم الامير يوسف الى أبيه أمير المسلمين فغضب لذلك وأنكر على ابنه ولم يرض بما أراده ابنه وزوى عنه وجه رضاه وأرجعهم الى طاغيتهم مخفق السعي وجاء أهل الجزيرة الخضراء الى أمير المسلمين فلقوه بأرض السوس فولى عليهم ابنه أبا زيان منديل فنزل بالجزيرة وأتم الصلح مع الطاغية ونازل المرية برا وبحرا وكانت لابن الاحمر فامتنع أخذها عليه وانضوى اليه أهل الحصون القريبة بطاعتهم حذرا من الطاغية فتقبلهم ونازل الطاغية ابن الاحمر بغرناطة وحاصره فرجع ابن الاحمر مسالة بني مرين وبعث لأبي زيان ابن السلطان فى طلب الصلح فأنهى الامر الى أبيه فأشفق السلطان على المسلمين وعلى ما نال ابن الاحمر من منازلة الطاغية فراسله السلطان الى أن تم الصلح بينه وبين ابن الاحمر وارتحل الطاغية من غرناطة واشترط السلطان على ابن الاحمر ارجاع مالقة للسلطان

﴿ غزوة أخرى ﴾

من لطف الله بالمسلمين وعنايته ببني مرين أن أوقع الخلف بين الطاغية ابن ادفونش وابنه شانجة حتى سلب أباه ملكه وتغلب عليه فوفد على السلطان بطارقة الطاغية وزعماء دولته مستصرخين على ابنه شانجة مخبرين بأنه خرج على أبيه فى طائفة من النصارى فغلبوه على أمره فجاؤا يطلبون النصرة من أمير المسلمين ليرجع للطاغية ملكه وينتزعوه من ابنه ففرح أمير المسلمين بافتراقهم وأحب الدخول الى الاندلس ليقضي مأربه من جهاد الكفار فأجاب أمير المسلمين رسل الطاغية ووعدهم بالقيام مع الطاغية ليرجع ملكه اليه وينتزعه من ابنه الغاصب له فأوغر الى الناس بالجهاد وأمرهم بالنفير وجهز الجيوش وأجاز الى الجزيرة الخضراء فاحتل بها فى ربيع الثاني سنة إحدى وثمانين وستمائة

واجتمعت عليه مسالح الثغور بالاندلس وسار حتى نزل صخرة عباد فوافاه الطاغية بنفسه ذليلا لعز الاسلام مؤملا صريخ السلطان فأكبر وفادته وأكرم موصله وعظم قدره وذكر ابن خلدون وابن الخطيب ان هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبل يده اعظاما لقدره وخضوعا لعزه فدعا السلطان بماء فغسل يده من تلك القبلة بمحضر من كان هنالك من جموع المسلمين والفرنج والتمس الطاغية من السلطان أن يمده بشيء من المال يستعين به فأمده لنفقاته مائة ألف من مال المسلمين استرهن فيها الطاغية تاجه بقي بيد المسلمين فخرا للأعقاب ودخل السلطان معه دار الحرب حتى نازل قرطبة وبها شانجة بن الطاغية الخارج على أبيه السالب لملكه فقاتلها أياما ثم تنقل في جهاتها ونواحيها وارتحل الى طليطلة فعاث في جهاتها وخرب عمرانها حتى انتهى الى حصن مجريط من أقصى الثغر فامتلأت أيدي المسلمين من الغنائم وضاق معسكره منها ورجع السلطان الى الجزيرة فاحتل بها لشعبان من السنة التي اتصلت يد السلطان بيد الطاغية خشي ابن الاحمر غائلته فجنح الى موالاة شانجة الخارج على أبيه ووصل يده بيده وأكد له العقد وأضرمت له الاندلس نارا وفتنة ولم يغن ذلك شانجة شيأ فلم يزل السلطان مع الطاغية حتى ظهر على ابنه وذلك ان السلطان كان اشترط على ابن الاحمر ارجاع مالقة فلم يفعل فنهض السلطان الى مالقة ونازلها فاتح ثنتين وثمانين فتغلب على الحصون القريبة ثم حاصر مالقة فضاق النطاق على ابن الاحمر فالتجأ الى الامير يوسف ابن السلطان وخاطبه مستصرخا لرقع هذا الخرق وجمع كلمة الاسلام فأجابه وأجاز لشهر صفر فوافى السلطان أمير المسلمين بمعسكره على مالقة ورغب منه السلم لابن الاحمر والتجافي عن مالقة فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضا الله في جهاد عدوه واعلاء كلمته وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الاحمر وتجددت عزائم المسلمين وقفل السلطان الى الجزيرة وبث السرايا في دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا ثم استأنف الغزو بنفسه الى طليطلة فخرج من الجزيرة غازيا غرة ربيع الثاني من سنة ثنتين وثمانين وستمائة حتى انتهى الى قرطبة فأثخن وغنم

وخرب العمران وافتتح حصونا ثم رجع الى الجزيرة فى شهر رجب وقسم الغنائم ثم رجع الى المغرب * وفى فاتح سنة ثلاث وثمانين بلغه مهلك الطاغية ابن اذفونش واجتماع النصرانية على ابنه شانجة الخارج على أبيه فتحركت الى الجهاد عزائم السلطان

﴿ غزوة أخرى ﴾

فى سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على جهاد العدو بالاندلس فجمع الجيوش ونهض من مراكش فى شهر جمادى الآخرة واحتل برباط الفتح منتصف شعبان فقضى صومه ثم شرع فى ارسال الجنود الى الجزيرة الخضراء الى خاتمة سنته ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين ولما انتهى الى الجزيرة سرح فى بلاد العدو وبث السرايا والغارات فى جميع النواحى فأثخنوا القتل والتخريب والسبى للنساء والذرية وركب غازيا بنفسه كثيرا من تلك الجهات وجرى فى هذه الغزوات مايطول الكلام بذكره وتعداد الجهات والحصون التى أخربوها وسلبوا مافيها وبقى النصارى متحصنين فى حصونهم المنيعة لايقدرون على المبارزة لقتال ولا على الخروج من حصونهم فاستيقن الطاغية شانجة وأهل ملته أن بلادهم قد فنيت وأرضهم قد خربت وتبينوا العجز عن المدافعة والحماية فجنحوا الى السلم وضرعوا الى أمير المسلمين فى كف عاديته عنهم واجتمع النصارى الى طاغيتهم شانجة خاشعة أبصارهم وسألوه أن يبعث الى أمير المسلمين الملأ من كبار النصارى يسألونه الصلح فأجابهم شانجة الى مادعوه اليه فأوفد الى أمير المسلمين وفدا من بطارقتهم وكبار دولتهم فردهم أمير المسلمين اعتزازا عليهم فأعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط أمير المسلمين ماشاء من عزديته وقومه فأسعفهم أمير المسلمين لما تيقن ذلهم لعز الاسلام ولانه أراد الرجوع الى المغرب لاصلاح مافسد من الرعايا بقيام بعض الثوار الخارجين عن طاعته فعقد الصلح مع طاغية النصارى واشترط عليهم ما أراد من ذلك أنهم يقفون عند مرضاته فى ولاية جيرانه من الملوك أوعداوتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين المقيمين بدار الحرب من ممالكهم وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول

بينهم فى فتنة ﴿ ذكر وفادة الطاغية على السلطان ﴾

لما رجعت رسل الطاغية اليه بعد عقد الصلح وفد على الطاغية رسل ابن الاحمر ليعقد السلم معه دون أمير المسلمين وأن تكون يده و يده واحدة على السلطان فأخبرهم بما عقده مع أمير المسلمين ثم قال هذا أمير المسلمين ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عنكم فانصرفوا ثم أشار عليه بعض رجال دولته بالوفادة على أمير المسلمين لتتمكن الألفة فقبل اشارتهم والتقى قبل ذلك بولى عهد أمير المسلمين وهو ابنه يوسف وكان نازلا على فراسخ من شريش فلقيه وبات فى معسكر المسلمين ثم ارتحل من الغد للقاء أمير المسلمين فأمر المسلمين بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه واظهار شعار الاسلام وأبهته فاحتفلوا وأظهروا اعز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية فلقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يليق بها مثله من عظماء الملل وقدم هدية سنية لامير المسلمين وابنه فقبلاها منه وقابلاه بكفائها ومضاعفها وكمل عقد الصلح وتقبل الطاغية سائر الشروط ورضى بعز الاسلام وانقلب الى قومه وسأله السلطان أن يبعث له من كتب المسلمين التى استولى عليها النصارى فلما رجع بعث اليه ستة عشر حملا وقفل أمير المسلمين الى الجزيرة فى آخر شعبان وصام بها رمضان ثم أعمل نظره فى الثغور وترتيب المصالح ثم اعتل وهو بالجزيرة واستمر به المرض الى أن توفى لآخر المحرم من سنة خمس وثمانين وستمائة فكانت مدة ملكه تسعا وعشرين سنة وكان ابنه ولى عهده فى أقصى المغرب بعثه أبوه لتفقد الاحوال وهو أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق وأخذ البيعة له وزراء أبيه وعظماء قومه وحضر بنفسه فى شهر صفر فأخذوا البيعة على الخاصة والعامة وكان أول شئ أحدث من أمره أن بعث الى ابن الاحمر وضرب موعدا للقائه فبدر اليه ولقيه بظاهر مربالة لاول ربيع فلقيه هو بعزة وتكريم وتجاوز له عن جميع الثغور الاندلسية التى كانت لمملكة والده السلطان يعقوب ماعدا الجزيرة وطريف وتفرقا على أكمل حالات المصافاة والوصلة ورجع السلطان يوسف الى الجزيرة فوافاه بها الطاغية شانجة فجددوا

عقد السلم الذى عقده أمير المسلمين يعقوب رحمه الله فأجابه

﴿ غزوة أخرى ﴾

فى سنة سبع وثمانين نما الخبر للسلطان يوسف بن يعقوب بأن الطاغية انتقض العهد وتجاوز التخوم وأغار على الثغور فأرسل السلطان الى قائد المسالح بالاندلس أن يدخل الى دار الحرب وينازل شريش ويشن الغارات على بلاد الطاغية فنهض لذلك وجاس خلالها وتوغل فى أقطارها وأبلغ فى النكاية وفصل السلطان فى ربيع الآخر سنة تسعين من تازى غازيا واستنفر أهل المغرب وقبائله فنفر وشرع فى اجازتهم البحر وبعث الطاغية أساطيله فالتقوا مع أساطيل السلطان فى شعبان فاقتتلوا وانكشف المسلمون ووقعت عليهم هزيمة قدرها الله عليهم استشهد كثير منهم محصهم الله تعالى ثم أغزاه ثانيا فجبنت أساطيل الطاغية عن اللقاء ثم ملكها أساطيل السلطان

﴿ غزوة أخرى ﴾

ثم أجاز السلطان بنفسه فى أواخر رمضان سنة إحدى وتسعين واحتل بطريف ثم دخل دار الحرب غازيا فنازل حصنا منيعا ثلاثة أشهر وضيق عليهم وبث السرايا فى أرض العدو ورد الغارات على شريش واشبيلية ونواحيها الى أن بلغ الغاية فى النكاية للعدو والاثخان وقضى من الجهاد وطرا وزاحمه فصل الشتاء وانقطاع الميرة عن العسكر فأفرج عن الحصن ورجع الى الجزيرة ثم أجاز الى المغرب فاتح سنة ثنتين وتسعين

﴿ غزوة أخرى ﴾

فى سنة اثنتين وتسعين تظاهر ابن الاحمر والطاغية واتفقا على منع السلطان ان أراد الجئ بعد المرة السابقة وسبب ذلك انه لما أجاز السلطان الى الأندلس سنة إحدى وتسعين وأبلغ من نكاية العدو أهم الطاغية أمره وثقلت عليه وطأته وحذر ابن الأحمر أيضا غائلة السلطان ورأى أن مغبة حاله الاستيلاء على الاندلس وأن يغلبه على أمره ويستلبه ملكه ففاوض الطاغية وتحدثوا ان استمكانه من الاجازة اليهم انما هو لقرب مسافة بحر الزقاق وانتظام ثغور المسلمين حوانيه

فان ذلك يسهل عبور شوانيهم وسفنهم وان أم تلك الثغور طريف وانهم اذا استمكنوا منها وملكوها من المسلمين تكون أساطيلهم بمرفاها بمرصد أساطيل المسلمين فتمنع عبورها فاعتزم الطاغية على منازلة طريف ليتملكها وزعم له ابن الاحمر مظاهرته على ذلك ووعده بالمدد وارسال الميرة لاقوات العسكر أيام منازلتها ووعده الطاغية أنها تكون لابن الاحمر ان خلصت من أيديهم فأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف وألح عليها بالقتال ونصب الآلات واحتلت أساطيله ببحر الزقاق فحالوا بين صريخ المسلمين ووصوله الى السلطان وجمع ابن الاحمر عساكره على طريف وهيأها قريبا منه وسرب اليه المدد من السلاح والرجال والميرة من الاقوات واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار غاية المشقة فراسلوا الطاغية فى الصلح والنزول عن البلد لصالحهم واستنزلهم ووفى لهم بعهده واستشرف ابن الاحمر أن الطاغية يسلمه طريفا حسبما كان الوعد بينهما فأعرض الطاغية عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان ابن الاحمر نزل للطاغية عن ستة من الحصون عوضا عنها ففسدت ذات بينهما ورجع ابن الاحمر يطلب التمسك بالسلطان ليستعين بها على الطاغية فأوفد ابن عمه أبا سعيد ووزيره أبا سلطان الدانى فى وفد من رجال دولته على السلطان لتجديد العهد وتقرير المعذرة فوافوا السلطان فقبلهم وقبل ما اعتذروا به وأحكموا الصلح ورجعوا الى ابن الاحمر باسعاف غرضه من المواخاة وقد ذكرنا فيما تقدم أنه كان جيش لبنى مرين مقيما بالاندلس دائما للغز وفقدر الله أن فى خلال ذلك توفى قائد الجيش الذى بالاندلس لبنى مرين فعقد السلطان لابنه ولى عهده أبى عامر على ثغور الاندلس التى فى طاعته مع النظر فى أمر الجيش الذى بالاندلس وأنفذه الى قصر المجاز بعساكره فوافاه ابن الاحمر هنالك وقدم له هدية وللسلطان هدية أيضا فتلقاه الامير أبو عامر واحتفل فى مبرته ثم قدم ابن الاحمر على السلطان فوافاه بطنجة فبالغ فى تكرمته وبسط له ابن الاحمر العذر فى شأن طريف فقبل عذره ونزل له ابن الاحمر عن الجزيرة ورندة

والغربية وعشر بن حصنا من ثغور الاندلس كانت قبل ذلك لسلطان المغرب
وعاد ابن الاحمر الى الاندلس خاتمة سنة ثنتين وتسعين مجبوا مجبورا وأجازت
عساكر السلطان معه لحصار طريف وعقد السلطان على حربها لوزيره عمر
الحرباش فنازلها مدة فامتنع عليه أخذها فأفرج عنها وهلك الطاغية شانجة سنة
ثلاث وتسعين وستمائة واجتمع النصارى على ابنه اذفونش هراندة وحصل قيام
ثائرين من المسلمين بتلمسان خرجوا عن طاعة السلطان فاعتزم السلطان على
التجهيز والمسير اليهم بنفسه وانتشر بذلك فتنة يطول الكلام بذكرها فسافر
السلطان بجيوشه اليهم وطالت تلك الفتنة الى سنة إحدى وسبعمائة ومات ابن
الاحمر في هذه السنة بالاندلس وقام بالامر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع بن
محمد الفقيه بن محمد الشيخ بن يوسف بن نصر وبعث ولده للسلطان بتلمسان
فأحكموا الامر والعهد بينهما وكتب السلطان الى رجاله المقيمين بثغور الاندلس
في اعانتهم وأمدهم بالرجال سنة ثنتين وسبعمائة فكانت لهم نكاية في العدو ثم بدا لابن
الاحمر محمد المعروف بالمخلوع أن يصل يده بالطاغية هراندة بن شانجة فكاتبه
وأحكم عقد السلم بينه وبينه واتصل الخبر بالسلطان وهو محاصر لتلمسان فسخطه
واستنفره الصريخ فبعث ابنه أبا سالم لسد تلك الفرجة وجمع اليه العساكر
واستعد ابن الاحمر لمدافعة ابن السلطان فدخل أهل سبتة في خلع السلطان
والقبض على عامله فتم له ذلك فسار أبو سالم بن السلطان بعساكره الى سبتة
وحاصرها مرة ثم بيتوه ليلة فاختل معسكره فأفرج عنها منهزما فسخطه السلطان
واعتزم على النهوض لذلك بنفسه الا أنه قد أشرف على فتح تلمسان فلم يمكنه
النهوض بنفسه وكانت هذه الفتنة متصلا بعضها ببعض وانجر الامر فيها الى سنة
ست وسبعمائة فقدر الله بهلاك السلطان يوسف وهو محاصر تلمسان طعنه خصي
من عبيده وهو على غفلة بمواطأة وزير من وزراء السلطان ثم صار الاختلاف
الكثير بين أولاده واختلف بنو مرين فيمن يختارونه للملك منهم وبايعوا بعضهم
ثم خلعوه وبايعوا آخر ثم خلعوه وبايعوا آخر من اخوته والكلام على ذلك

طويل لا حاجة بنا الى ذكره ووقعت بينهم مع بعضهم فتنة هائلة واستمر الامر بينهم الى سنة عشر وسبعمائة فاستقر الملك لاخى السلطان يوسف المطعون وأخوه الذى استقر الامر له هو أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق وفى خلال هذه الفتن قتل بالاندلس أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه أخاه محمد المخلوع ابن محمد الفقيه بن الاحمر وذلك سنة ثمان فثار عليه ابن عمه أبو الوليد اسماعيل بن فرج الملقب بالرئيس ابن سعيد بن اسماعيل بن يوسف بن نصر وانقطع الملك عن أولاد محمد الشيخ بن يوسف بن نصر وصار فى أولاد ابن سعيد فرج الرئيس بن اسماعيل بن يوسف بن نصر لانه لما ثار أبو الوليد على أبى الجيوش صالحه أبو الجيوش سنة سبع عشرة وسبعمائة على الخروج الى وادى آش فلحق بها وجدد له بها ملكا الى ان مات سنة ثنتين وعشرين وسبعمائة ودخل أبو الوليد غرناطة فأصل لنفسه وبنيه ملكا وفى هذه المدة التى فيها هذه الفتن اغتنم الطاغية الفرصة ونازل الجزيرة الخضراء ثم أقلع عنها على صلح بعد ان أذاقها من الحصار شدة وبعده نازل جبل الفتح المسمى جبل طارق وتقدم ان طارقا هو أول من فتح الاندلس وسميه العامة الآن جبل الطار فتغلب عليه الطاغية وملكه وذلك سنة تسع وسبعمائة وتراسل هراندة بن أذفونش مع صاحب برشلونة وأمره أن يشغل أهل الاندلس من ورائهم فنازل المرية وحاصرها ونصب عليها الآلات وحفر العدو تحت الارض سربا مقدار ما يسير فيه عشرون راكبا وتفطن المسلمون لذلك فاحتفروا قبالتهم مثله الى أن نفذ بعضهم الى بعض فاقتتلوا من تحت الارض وبعث ابن الاحمر عسكرا امدادا لاهل المرية ونبذ عهد الطاغية فلقيهم جمع للنصارى كان الطاغية بعثهم لحصار مرشانة فهزمهم عسكر ابن الاحمر واستلحمهم ونزل قريبا من معسكر الطاغية وأقامت عساكر الطاغية على سبتة واسطبونة وزحفت عساكر بنى مرين المقيمون بالاندلس للجهاد على عسكر اسطبونة وقتلوا قائده الفنش وثلاثة آلاف من قومه ودخل بعض عسكر المسلمين برجين فحاصرهم جموع النصارى فجاء مدد للمسلمين فانفض

النصارى المحاصرون له وكان الطاغية بظاهر الجزيرة فارتحل يريد لقاء مدد للمسلمين فخالف أهل البلد الى معسكره وانتهبوا محلاته وفساطيطه وصار للمسلمين الكرة وامتلأت أيديهم من غنائمهم وأسراهم ثم هلك الطاغية أثناء هذه الهزائم سنة ثنتى عشرة وسبعمائة وهو هراندة بن شانجة وولى بعده ابنه الهنشة وكان طفلا صغيرا جعلوه تحت نظر عمه دون بطرة بن شانجة مع زعيم للنصارى اسمه جوان فكفلاه واستقام أمرهم على ذلك وشغل السلطان أبو سعيد عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق ملك المغرب بشأن ابنه على فانه خرج على أبيه وكان بينهما مايطول ذكره فاغتنم النصارى الفرصة وقوى أمرهم بالاندلس فزحفوا على غرناطة كرسى سلطنة ابن الاحمر سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأناخوا عليها بعسكرهم وأممهم فبعث أهل الاندلس صريخهم الى السلطان أبى سعيد وهو فى شغله فيما كان بينه وبين ابنه وكان بالاندلس كما تقدم جيش لبنى مرين جعلوه مقيما دائما بالاندلس لقصد الجهاد ودفع العدو وكان الرئيس على أولئك المجاهدين عثمان بن أبى العلاء ادريس بن عبد الله بن عبد الحق المرينى فلما جاء صريخ أهل الاندلس للسلطان أبى سعيد اعتذر اليهم السطان بسبب ماهو مشغول به من أمر ابنه واعتذر اليهم أيضا بوجود عثمان بن أبى العلاء رئيس الجيش بالاندلس وكان له قوة ورياسة وكان السلطان يخشى منه التغلب على السلطنة فتفترق كلمة بنى مرين فشرط عليهم أن يقبضوا على عثمان بن أبى العلاء ويدفعوه اليه برمته فيبقى عنده ويبعث اليهم من يقوم بتدبير جيوش بنى مرين بالاندلس مع ما يمكنه من ارسال العساكر ثم اذا تم الجهاد بعد ابن أبى العلاء اليهم احتياطا على المسلمين لئلا تفترق الكلمة فلم يمكنهم ذلك لقوة رياسة عثمان بن أبى العلاء بعصابته من قومه فاخفق سعى هؤلاء المستصرخين بالسلطان ولم تحصل لهم نجدة منه وأطالت أمم النصرانية الحصار على غرناطة وأكثروا الجيوش وطمعوا فى تملكها ثم ان الله تعالى نفس محنتهم ودافع بيد قدرته كما ستراه مذكورا حالا فى هذه الغزوة العظمى

﴿ غزوة عظمى ﴾

لما أراد الله حصول النصر والفرج للمسلمين الذين حاصرهم العدو بغرناطة سنة

ثمان عشرة وسبعمائة وفق الله شيخ الغزاة من بني مرين المقيمين بالاندلس للجهاد وهو عثمان بن أبي العلاء المتقدم ذكره حتى كان النصر بسببه واعانته فكانت هذه من الغرائب والعجائب بل هي من أعظم معجزات النبي صلى الله عليه وسلم في نصرة الله لامته والقصة طويلة * وملخصها أن النصارى عزموا في ذلك العام على استئصال المسلمين واخراجهم من الاندلس بحيث لا يبقى شيء من الاندلس تحت يد المسلمين فتجهز والغزو غرناطة التي فيها أبو الوليد اسماعيل بن الاحمر وأتاها الطاغية دون بطرة في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكا من ملوك الفرنج وكان النصارى وملوكهم قبل ذلك رحلوا الى من يرجعون اليه في دينهم وهو البابا صاحب رومة فدخل ملكهم دون بطرة صاحب طليطلة على البابا وسجد له وتضرع وطلب منه استئصال من أبقى من المسلمين بالاندلس وأكد عزمه فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها وعزموا على الاستنجاد بالسلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني صاحب فاس ومراكش وأنفذوا اليه رسلا فاعتذر اليهم كما تقدم بيانه فرجعوا الى أعظم الأدوية وهو الالتجاء الى الله تعالى وأخلصوا النيات مع حصول غاية الاضطرار وأقبل الافرنج في جموع لا تحصى فقضى ناصر من لا ناصر له سواه بهزيمة جيش النصرانية وقتل طاغيتهم دون بطرة ومن معه وكان نصرا عزيزا ويوما مشهودا وكان سلطان الأندلس اذ ذاك الغالب بالله أبو الوليد اسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر وشيخ الغزاة المقيم بالاندلس من بني مرين الشيخ العالم أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء ادريس بن عبد الله بن عبد الحق المريني فاجتهد ابن الاحمر في تحصين البلاد والثغور فلما بلغ النصارى ذلك التحصين عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء فانتدب ابن الاحمر لردهم وجهز الأساطيل والرجال فلما رأوا ذلك عزموا على استئصال المسلمين وتوجهوا الى طليطلة ليكملوا التأهب بذلك فأعدوا غاية الأهبة ووصلت الاثقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات والمراكب ووصل العدو الى غرناطة كرسي ملك ابن

الاحمر وامتلأت الارض بهم فتقدم ابن الاحمر الى شيخ الغزاة أبى سعيد عثمان بن أبى العلا وسأله الخروج للجهاد وانجاد المسلمين بمن معه من الغزاة والشجعان فخرج اليهم يوم الخميس الموفى عشرين من ربيع الأول سنة تسع عشرة وسبعمائة ولما كانت ليلة الاحد أغارت سرية من العدو على سرية من المسلمين فخرج اليهم جماعة من فرسان الاندلس الرماة فقطعوهم من الجيش وفرت تلك السرية أمامهم الى جهة سلطانهم فتبعهم المسلمون الى الصبح فاستأصلوهم فكان هذا أول النصر ولما كان يوم الأحد ركب شيخ الغزاة لقتال العدو فى خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلتهم فى تلك الجيوش العظيمة فركب النصارى بجملتهم وحملوا عليهم فقاتلهم المسلمون أشد القتال وهزم الله الفرنج أقبح هزيمة وأخذتهم السيوف وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وقتل الله دون بطرة ملك النصارى وقتلوا الملوك الخمسة والعشرين الذين كانوا معه جميعهم وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال وأخذ الاسرى فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب ثلاثة وأربعون قنطارا ومن الفضة مائة وأربعون قنطارا ومن السبى سبعة آلاف وكان من جملة السبى امرأة الطاغية وأولاده فبذلت فى نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصنا فلم يقبل المسلمون ذلك وزادت عدة القتلى من النصارى فى هذه الغزوة على خمسين ألفا ويقال انه هلك منهم بالوادى مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطرق وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون واستمر البيع فى الاسرى والاسباب والدواب ستة أشهر ووردت البشائر بهذا النصر الى سائر البلاد ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين والاجناد سوى ثلاثة عشر فارسا وقيل عشرة أنفس وكان عسكر المسلمين خمسة آلاف وخمسمائة منهم ألف وخمسمائة فارس وأربعة آلاف رجالة وكانت الغنيمة تفوق الوصف وسلخ الطاغية دون بطرة وحشى جلده قطنا وعلق على باب غرناطة وبقى معلقا سنوات وطلب النصارى الهدنة فعقدت لهم وكانت هذه الغزوة سنة تسع عشرة وسبعمائة وكانت وفاة شيخ

الغزاة عثمان بن أبي العلاء سنة ثلاثين وسبعمائة وعمره ثمان وثمانون سنة واستوفى في المشهور سبعمائة واثنين وثلاثين غزوة رحمه الله تعالى ورضي عنه وكتبوا على قبره ترجمة طويلة تدل على علو شأنه في العلم والعمل والاخلاص في الجهاد وكانت وفاة ابن الاحمر سنة سبع وعشرين وسبعمائة وولي بعده ابنه أبو الحجاج يوسف وتوفي السلطان عثمان المريني سنة احدى وثلاثين وسبعمائة وولي بعده ابنه أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني

﴿ ذكر استخلاص جبل الفتح من النصارى ﴾

قد تقدم أن الطاغية تملك جبل الفتح سنة تسع وسبعمائة وكان هذا الجبل للمسلمين من أحسن الثغور وكان شجا في حلق العدو وهو فاصل بين افريقية والاندلس فأهم المسلمين شأنه وكان ابن الاحمر قدم على السلطان في سنة اثنتين وثلاثين فأكبر مقدمه وأركب المسلمين للقائه وبالغ في إكرامه فتذاكر معه في شأن استخلاص الجبل المذكور فاتفقا على التجهيز لاستخلاصه فأمر السلطان أبو الحسن بالتجهيز لاستخلاصه وعقد لابنه الأمير أبي مالك على جيش من بني مرين وأنفذه مع ابن الاحمر لمنازلة الجبل فاحتل بالجزيرة وتتابع اليه الاسطول بالمدد وأرسل ابن الأحمر حاشرين في الاندلس يجمعون الناس ويستنفرونهم لذلك فتسايلوا اليه واجتمع معسكرهم جميعا بساحة جبل الفتح وأبلوا في حربه ومنازلته بلاء حسنا الى أن تغلبوا عليه وملكوه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحمه المسلمون عنوة وقتلوا من كان به من النصرانية وغنموا ما كان معهم ووافاهم الطاغية ومعه أمم كثيرة مددا لقومه بعد مضي ثلاثة أيام من الفتح وقد شحنه المسلمون بالاقوات ونقلوها من الجزيرة على خيولهم ولما وصل الطاغية أناخ بجيوشه عليه وبرز أبو مالك بعساكره فنزل بحذائه ونزل أيضا عسكر الاندلس بحذاء الطاغية وتحصن العدو في محلتهم فبادر ابن الاحمر الى لقاء الطاغية وسبق الناس الى فسطاطه وتلقاه الطاغية راجلا حاسرا اعظاما له فسأله ابن الاحمر الافراج عن هذا المعقل فرأى الطاغية أن تملكه الجبل وانتزاعه من

المسلمين شديد عسر عليه فأجاب ابن الاحمر الى ماسأل وأتحفه بذخائر مما لديه وارتحل لفوره وأخذ الامير أبو مالك فى تثقيف أطراف الثغر وسد فرجه وأنزل الحامية به ونقل الاقوات وكان هذا الفتح فتحا طوق دولة السلطان أبى الحسن قلادة الفخر طول الدهر وكانت مدة منازلة المسلمين الى أن ملكوه ستة أشهر ثم أراد السلطان أبو الحسن أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لايطمع العدو فى منازلته ولايجد طريقا للتضييق عليه عند محاصرته ورأى الناس ذلك من المحال فأنفق السلطان كثيرا من الأموال وأرضى العمال حتى بنى سورا أحاط بمجموعه احاطة الهالة بالهلال ثم زاد فى التحصين بعده ابنه أبو عنان

﴿ ذكر غزوة للسلطان أبى الحسن الى الاندلس ﴾

كان السلطان أبو الحسن بعد استيلائه على جبل الفتح اشتغل بقتال جماعة ثائرين عليه بتلمسان واستمر ذلك الى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة فرجعوا الى طاعته فتوجهت همته بعد ذلك لغزو النصارى بالاندلس فقصد أولا ولاية ابنه أبى مالك على ثغور عمله بالاندلس وصرفه اليها وكان الطاغية مدة اشتغال السلطان بقتال أهل تلمسان قد اعتز على المسلمين ونازل السلطان أبا الوليد بن الاحمر بغرناطة مرارا ووضع عليه جزية فتقبلها لعدم قدرته على دفاعه وأقبل الطاغية على التهام المسلمين بالاندلس فلما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن أهل تلمسان دعته نفسه الى الجهاد فأوغر الى ابنه الأمير أبى مالك أمير الثغور سنة أربعين بالدخول الى دار الحرب وجهز اليه عساكر كثيرة ثم شخص بنفسه غازيا فتوغل فى بلاد الطاغية واكتسحها وأكثر القتل والسبى وغنم عساكره غنائم كثيرة فلما شرع فى الرجوع عن أرضهم اتصل به الخبر بأن النصارى جمعوا له وأجدوا السير فى اتباعه فأشار عليه وزراؤه بالخروج من أرضهم وان يصير الى مدن المسلمين ويتحصن بها فامتنع من الرجوع وكان قرما ثابتا الا أنه غير بصير بالحروب لصغر سنه فصبحهم عساكر النصرانية فى مدناجعهم قبل أن يركبوا وأدركوا الأمير أبا مالك قبل أن يركب على فرسه فقتلوه وكتب الله له الشهادة وقتلوا كثيرا من قومه

واحتووا على عسكره بما فيه من الاموال ورجعوا على أعقابهم واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن ففجع لهلاك ابنه واسترجع واسترحم له واحتسب عند الله أجره وشرع في اجازة العساكر للجهاد وتجهيز الاساطيل وفتح ديوان العطاء وعرض الجند وأزاح عللهم واستنفر أهل المغرب وارتحل الى سبتة ليباشر أحوال الجهاد فتسامعت أمم النصرانية بذلك فاستعدوا للدفاع وأخرج الطاغية أسطوله الى الموضع المعروف عندهم بالزقاق ليمنع السلطان من الاجازة واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي العدو وبعث الى ملوك بني حفص بأفريقية بتجهيز أسطولهم اليه فبعثوا اليه عشرين أسطولا مشحونة بالعساكر وتوافت أساطيل المسلمين بسبتة تناهز المائة فناجزوا أسطول النصارى التي بالزقاق وزحفوا عليهم وتواقفوا مليا ثم قربوا الاساطيل بعضها الى بعض وقرنوها للمصاف فلم يمض الاقليل حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح وألقوا أشلاءهم باليم وقتلوا قائدهم واستاقوا أساطيلهم الى مرسى سبتة استولى المسلمون عليها فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤس العدو في جوانب البلد ونظمت اصفاد الاسرى بدار الانشاء وعظم الفتح وجلس السلطان أبو الحسن للتهنئة وأنشدت الشعراء القصائد بين يديه وكان يوما من أعز الأيام ولله الحمد والمنة ثم شرع السلطان في اجازة من عنده من العساكر الغزاة والمتطوعة والمرتزقة ولما استكمل اجازة العساكر أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين ونزل بساحة طريف وأناخ بعساكره عليها وهي بيد النصارى وأحاط عسكره بفنائها ووافاه سلطان الاندلس ابن الاحمر بعسكر الاندلس وأحاط الجميع بطريف نطاقا واحدا ونصبوا عليها الآلات وجهز الطاغية أسطولا آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن العسكر وطال حصارهم للبلد ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات واختلت أحوال العسكر واحتشد الطاغية أمم النصرانية وأعانه البرتقال صاحب اشبونة وغرب الاندلس فجاء معه في قومه

وزحف على المسلمين لستة أشهر من منازلتهم ولما قرب معسكرهم أرسلوا قطعة من جيش النصارى الى طريف فدخلوها ليلا على غفلة من العسس وأحسوا بهم آخر الليل فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد فقتلوا منهم عددا ولبسوا على السلطان وقالوا له لم يدخل البلد سواهم حذرا من سطوته وزحف الطاغية من الغد في جموعه وعبى السلطان مواكب المسلمين صفوفا وتزاحفوا ولما نشب القتال كان للعدو جيش كمين فبرز وخالفوهم الى معسكر السلطان وعمدوا الى فسطاط السلطان ودفعوا عنهم من كان عند الفسطاط الحراسة فاستلحموهم وقتلوهم وكان مع السلطان في هذه بعض نسائه فوصل هؤلاء المهاجمون الى النساء فدافع النساء عن أنفسهن فقتلوهن وخلصوا الى حظايا السلطان عائشة بنت عمه أبي يحيي بن يعقوب وفاطمة بنت سلطان افريقية أبي يحيي الحفصي وغيرهن من حظاياه فقتلوهن عن آخرهن واستلبوهم وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر نارا وأحس المسلمون الذين يقاتلون الكفار بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان هجم في طائفة من قومه حتى خالط الكفار في صفوفهم فأحاطوا به وقبضوا عليه وولى السلطان متحيزا الى فئة المسلمين واستشهد كثير من الغزاة ووصل الطاغية بنفسه الى فسطاط السلطان أبي الحسن وأنكر على قومه قتل النساء والولدان ووقف منه لمنتهى أثره ثم انكفأ راجعا الى بلاده ولحق ابن الاحمر بغرناطة كرسي ملكه وخلص السلطان الى الجزيرة ثم الى الجبل ثم ركب الى سبتة ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم ولما رجع الطاغية من طريف استأسد أي صار كالاسد على المسلمين بالاندلس وطمع في التهامهم وجمع عساكر النصرانية ونازل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة على مرحلة منها وجمع الآلات والايدي على حصارها واشتد مخنقها وأصابهم الجهد من العطش فنزلوا على حكمه وذلك سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وانصرف الى بلاده وأما السلطان أبو الحسن فانه لما أجاز الى سبتة ألزم نفسه

بالعود الى الجهاد وذهب الى فاس و بعث فى الامصار للاستنفار وأخرج قواده الى سواحل البحر لتجهيز الاساطيل حتى اكمل منها عدة وافرة ثم ارتحل الى سبتة لمشارفتها وقدم عساكره الى العدوة مع وزيره و بعث الى الجزيرة بعض أقارب الوزير و بعث اليهم مددا و بلغ الطاغية الخبر فجهز أسطوله وأجراه الى بحر الزقاق للمدافعة وتلاقت الاساطيل ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق وملكوا دور المسلمين وأقبل الطاغية من اشبيلية فى عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وأمل أن ينظمها فى مملكته مع جارتها طريف وحشر الفعلة والصناع بالآلات وجمع الأيدى عليها وطاولها الحصار واتخذ أهل العسكر بيوتا من الخشب للمطاولة وجاء السلطان أبو الحجاج بن الأحمر بعساكر الاندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح على سبيل الممانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة ليبعث المدد من الفرسان والمال والميرة فلم يغنهم ذلك شيأ واشتد الحصار عليهم وأصابهم الجهد وأجاز اليه السلطان بن الاحمر ليفاوضه فى شأن السلم مع الطاغية بعد اذن الطاغية له فى الجواز مكرا به وترصد له بعض الاساطيل فى طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا الى الساحل بعد غص الريق وضاقت أحوال الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان وسألوا من الطاغية الامان على أن ينزلوا عن البلد فبذل الامان لهم وخرجوا فوفى لهم وأجازوا الى المغرب وذلك سنة ثلاث وأربعين فأنزلهم السلطان أبو الحسن ببلاده على خير نزل ولقاهم من الميرة والكرامة ما أعاضهم عما فاتهم وخلع عليهم وأجازهم بجوائز سنية لا يزال الناس يتحدثون بها وانكفأ السلطان الى حضرته موقنا بظهور أمر الله وانجاز وعده فى رجوع الكرة وعلو الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون ثم ثار على أبى الحسن ثائرون بالمغرب وتوالت فتن كثيرة الى أن توفى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وولى بعده ابنه أبو عنان وثار بينه و بين اخوته فتن كثيرة وأما سلطان الاندلس أبو الحجاج بن الاحمر فقتل فى الصلاة يوم عيد الفطر طعنه أسود

مدسوس عليه وولى بعده ابنه محمد الغنى بالله وذلك سنة خمس وخمسين وسبعمائة ثم خلع سنة ستين ثم أعيد سنة ثلاث وستين والكلام على ذلك طويل لا حاجة لنا بذكره واستمر فى ملكه الى أن توفى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وكان قد قوى ملكه وسلطانه بعد رجوعه الى ملكه سنة ثلاث وستين حتى صار ملك المغرب وسلطان بنى مرين تحت أمره ووقع فى هذه السنين فتن بالاندلس بين النصارى مع بعضهم وذلك أن الهنش ملك النصارى هلك سنة احدى وخمسين وسبعمائة وولى بعده ابنه بطرة وثارت فتن وحروب بينه وبين اخوته وانتهز الفرصة ابن الاحمر وجمع جيوش المسلمين للجهاد ودخل بعساكر المسلمين فأثخن فى أرض النصرانية وخرب معاقلهم ومدنهم ثم رجع الى غرناطة وذلك سنة سبع وستين وسبعمائة ثم تشوف المسلمون الى ارتجاع الجزيرة الخضراء الى المسلمين فتراسل ابن الاحمر مع ملك مراكش وفاس وكان السلطان حينئذ السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن واتفقا على أن ابن الاحمر يزحف بعساكره وملك المغرب يمده بالمال والاساطيل لعزة جمع العسكر عليه لما كان فيه من الفتن فأوعز صاحب المغرب الى أساطيله فعمرت وسارت وبعث بمال كثير وذخائر وزحف ابن الاحمر بعساكره واستعدت الآلات للحصار فنازلها أياما قلائل فأيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم فألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان ابن الاحمر اليه ونزلوا عن البلد وأقيمت فيه شعائر الاسلام ومراسمه ومحيت منه كلمة الكفر ومعالمه وكان ذلك فى سنة سبعين وولى عليها ابن الاحمر من قبله ولم تزل تحت نظره الى أن تمحض له النظر فى هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها فهدمت سنة ثمان وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس والبقاء لله وحده وتوفى الغنى بالله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن الاحمر سلطان الاندلس سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وولى ابنه يوسف وتوالت فتن كثيرة فقصد الافرنج البرتغال مدينة سبتة سنة أربع عشرة وثمانمائة فى مراكب كثيرة فقاتلهم أهلها ثم تغلب عليهم الفرنج فملكوها

وبقيت معهم نحو مائتين وخمسين سنة ثم انتزعها الاسبانيول منهم ثم توالت فتن بين بني الاحمر مع بعضهم في الاندلس وجرت أمور يطول الكلام بشرحها وآل الامر فيها الى خروج ملك الاندلس عن أيدي المسلمين فأخذ العدو مالقة سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وأخذوا غرناطة سنة سبع وتسعين وثمانمائة وانقرض ملك بني مرين سنة تسعين وثمانمائة وانتقل الملك لوزرائهم بني وطاس ثم منهم للاشراف السعديين والكلام على ذلك طويل ولما حاصر العدو غرناطة أصاب المسلمون وقت حصار العدو لهم بها شدة الجوع وتفاقمت عليهم الخطوب فكاتبوا العدو في الصلح واشترطوا شروطا وعقدوا وثائق ومكنوا العدو من غرناطة وكانت الشروط سبعا وستين شرطا منها تأمين الصغير والكبير في النفس والاهل والمال ومنها ابقاء الناس وأماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم ومنها أن تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك وأن لا يدخل النصارى دار مسلم وأن لا يغصبوا أحدا وأن لا يتولى على المسلمين في الاحكام نصراني ولا يهودي وأن يفك من كان أسيرا منهم ومنها أن من أراد الجواز الى المغرب لا يمنع ولا يؤاخذ من قتل أحدا من النصارى أيام الحرب الى غير ذلك من بقية الشروط ثم ان النصارى نقضوا تلك الشروط شيئا فشيئا ونكثوها عروة عروة الى أن آل الامر الى حملهم المسلمين على التنصر حتى صاروا يقولون لبعض المسلمين ان جدك ما كان نصرانيا فأسلم في زمن كذا فلابد أن ترجع نصرانيا كما كان أجدادك السابقون فلما فحش هذا الامر قام جماعة من المسلمين كانوا بموضع يقال له البيازين فقتلوا النصارى الذين كانوا عندهم فخرج الامر من سلطانهم بقتل المسلمين الا من تنصر فانه ينجو من القتل فتنصر خلق كثير في البادية والحاضرة وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى واجتمعوا في بعض القرى متحصنين بها فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا وبقي جماعة من المسلمين صعدوا جبلا واحتموا فيه وقاتلهم العدو فقتلوا من العدو خلقا كثيرا فأخرجوا

على الامان الى فاس بعيالهم وماخف من أموالهم ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين ولم يكن متنصرا فى الباطن يعبد الله فى خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى انهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكينة الضعيفة فضلا عن غيرها من الحديد وقام المسلمون الذين تحصنوا فى بعض الجبال على النصارى مرارا ثم تغلب النصارى عليهم ولم يقيض الله لهم ناصرا الى أن كان آخر وقت أخرجهم النصارى فيه سنة ألف وعشر فخرج ألوف من المسلمين الى فاس وألوف الى تلمسان ووهران وجمهورهم خرج الى تونس وتسلط على كثير منهم الاعراب ومن لا يخشى الله ونهبوا أموالهم فى البوادى والطرقات وأكثر النهب والاخذ وقع على الذين ذهبوا الى تلمسان وفاس وأما الذين ذهبوا الى تونس فأكثرهم سلم من ذلك وقد عمر هؤلاء الخارجون من الاندلس كثيرا من القرى الخالية فى تلك المواضع التى ذهبوا اليها ومنهم جماعة بسلا وتطاون والجزائر واستخدم سلطان المغرب منهم عسكرا جرارا ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام وغيرها لأنهم كانوا عددا كثيرا لا يحصيهم الا الله تعالى والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين قال فى نفح الطيب والسلطان الذى أخذت منه غرناطة آخر سلاطين بنى الاحمر الذى انقرضت بانقراض دولته مملكة الاسلام بالاندلس ومحيت رسومها هو السلطان أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبى الحسن ابن السلطان سعد ابن الامير على ابن السلطان يوسف ابن السلطان الغنى بالله محمد واسطة عقدهم والمشيد مبانيهم الانيقة وسلطان دولتهم على الحقيقة ابن السلطان أبى الحجاج يوسف ابن السلطان اسماعيل ابن الرئيس أبى سعيد فرج بن اسماعيل بن نصر بن قيس الانصارى الخزرجى رحمهم الله جميعا وانتهى السلطان المذكور الى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذرا عما أسلفه متلهفا على ماخلفه وبنى بفاس قصورا قال فى نفح الطيب وعهدى بذريته بفاس الى الآن سنة سبع وثلاثين وألف يأخذون من أموال الفقراء والمساكين ويعدون من جملة الشحاذين ولا حول

ولاقوة الا بالله العلي العظيم هذا خلاصة ما كان بالاندلس بغاية الاختصار ولنرجع الى اتمام الكلام على ما كان بالديار الشامية وغيرها وليكن الابتداء بذكر حرب الصليب

﴿ ذكر ابتداء الحروب الصليبية ﴾

اعلم ان المسلمين منذ افتتحوا الشام في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه انما كان قتالهم في تلك الأراضي مع الروم ملوك القسطنطينية ثم صار من الخلفاء والامراء الاسلامية غزوات وفتوحات كثيرة افتتحوا فيها كثيرا من ممالك الروم وتقدم بيان ذلك ثم لما كان آخر القرن الخامس وظهر الضعف في الخلفاء العباسيين واستولى على مصر وبعض الشام الخلفاء العبيديون وتغلب على كثير من الممالك الاسلامية العمال الذين فيها طمع في ممالك الشام الافرنج الذين نشأت لهم دول في أوروبا بعد ضعف الملوك الرومانية فتجمعت جموع من الافرنج ملوك أوروبا وساروا لتملك الممالك الاسلامية التي في الشام وأعمالها وكان ذلك سنة أربعمائة وتسعين هجرية * وكان من أسباب قيامهم وهيجانهم لتلك الحروب أن رجلا منهم اسمه بطرس الناسك ترهب وانفرد عن أهله سائحا متنسكا فزار بيت المقدس وأخذته الحمية في استخلاص تلك الاماكن من أيادي المسلمين فلما رجع الى بلاد ايطاليا اجتمع مع البابا وخاطبه في ذلك فوافقه البابا على استحسان أفكاره وما قام بنفسه وعزم في الحال على اتخاذ الأسباب والوسائط المقتضية لاتمام هذا المشروع فأمر بطرسا أن يجول في أقطار البلاد مناديا ومبشرا للشعوب بانقاذ النصارى واستخلاص تلك الاراضي من أيادي المسلمين فأخذ بطرس يجول من مكان الى آخر منذرا ومحركا قلوب الناس للاشتراك في هذا العمل فاجتاز من ايطاليا الى فرانسا ثم سار الى أكثر ممالك أوروبا زارعا بين الجميع هذه الافكار مهيجا اياهم للنهوض والقيام وفي أثناء ذلك عقد البابا عدة مجامع في ايطاليا وفرانسا وطرح فيها هذه المسئلة أمام الجمهور الحاضرين منتهضا هممهم للمبادرة والاستعداد في هذا المشروع وجعل للرعايا القائمين بذلك انعامات ورفع عنهم كثيرا من الضرائب والخراجات فنهض أحد الاساقفة وطلب من البابا

أن يكون أول من يجاهد فى هذا السبيل فسلمه البابا راية الصليب فتبعه جلة من رؤساء الدين ومن عامة الناس ورسموا جميعا على صدورهم صورة الصليب بلون أحمر وجعلوا هذه العلامة على الأسلحة والألوية والرايات والبنود ومن ذلك الوقت سموا الصليبيين ودعيت حروبهم بالحروب الصليبية وإذا أراد الله ظهور أمر هيأ أسبابه فظهر لهم أمور وأسباب قوى بها عزمهم على ما أرادوا فمن ذلك ما ذكره بعض مؤرخيهم أنه فى أثناء المناداة بهذه الحروب وتجهيز الناس للدخول فيها ظهر لهم جملة من العجائب فى السماء والارض منها تساقط بعض النجوم من السماء على الارض وظهر بانتقالها علامة حمراء دموية فى جانب الافق وظهر لهم عمود نارى على شكل حربة ذات حديد بقرب الشمس وشوهد فى الجو صورة مدن وعساكر وخيول وأسلحة وفرسان مرسومة بالصلبان ومنها أنه كان يرى فى مدة ستة أيام متوالية على أثواب المسيحية صلبان من نور مطبوعة على ملابسهم بطريقة عجيبة بحيث لا يمكن لاحد ان يمحوها بالماء ولا بالنار فهذه المرائى التى كانت تتراءى لهم شددت عزائمهم وجعلتهم لا يتوقفون عن السفر وكانوا يستمدون من يوم الى يوم حتى بلغ عددهم ثلاثمائة ألف مقاتل وكان الملك الكبير منهم المتقدم فى قيادة جيوشهم يسمى بردويل وكان بينه وبين صاحب صقلية مصاهرة وصداقة فأراد ان يكون مرور جيوشهم على افريقية فيملكوها ثم يسيرون منها الى الشام فأرسل الى صاحب صقلية يقول له قد جمعت جموعا كثيرة وأنا واصل اليك وسائر من عندك الى افريقية أفتحها وأكون مجاورا لك فجمع صاحب صقلية أصحابه واستشارهم فى ذلك فقالوا وحق الانجيل هذا جيد لنا ولهم وتصبح البلاد كلها بلاد النصرانية فرفع رجله لهم وضرط ضرطة عظيمة وقال وحق دينى هذه خير من كلامكم قالوا وكيف ذلك قال اذا وصلوا الى أحتاج الى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم الى افريقية وعساكر من عندى أيضا فان فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عنى ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وان لم يفتحوا رجعوا الى بلادى

وتأذيت بهم ويقول ثم أمير افريقية غدرت بي ونقضت ما بيني وبينك من العهود وتنقطع الوصلة والاسفار بيننا مع أن بلاد افريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها وأحضر رسول بردويل وقال له اذا عزمتم على جهاد المسلمين فأفضل ذلك فتح بيت المقدس تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر وأما افريقية فبيني وبين أهلها عهد وأيمان لا يمكنني نقضها فاما لم يمكنهم صاحب صقلية من المرور عليه عزموا على التوجه الى الشام من طريق القسطنطينية فمنعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده الا بشرط أنهم يحلفون له أنهم يسلمون له انطاكية اذا ملكوها وكان يظن أنهم لا يقدرون على تملك البلاد الشامية لما فيها من جنود الاسلام وهو يريد هلاك الافرنج خوفا من أنهم يتغلبون عليه لانه يرى قوتهم تزيد كلما مضى زمن من الازمان فلما اشترط عليهم أن يعطوه انطاكية اذا ملكوها أجابوه الى ذلك وقبلوا شرطه وعبروا الخليج عند القسطنطينية طالبين القسطنطينية ليجتمعوا فيها وكانوا أجناسا عديدة وفرقا كثيرة من الايطاليين والفرنساويين وغيرهم من سكان أوروبا وكان بطرس الناسك المتقدم ذكره متوشحا بثوبه الرهباني قائدا للفرقة الأولى منهم فسار بهم على طريق ألمانيا وهنكاريا وبلغاريا فكانوا ينهبون ويخطفون من سكان المدن والسواحل وهم سائرون فوثب عليهم الأهالي وقاتلوهم وقتلوا منهم عددا كثيرا وبعد أن قاسوا أهوالا شديدة انتهوا الى القسطنطينية فأذن لهم ملكها ان يقيموا في المدينة الى ان يحضر رفقاؤهم ثم نقلهم ملك القسطنطينية في مراكبه الى سواحل آسيا فلما انتهوا اليها التقتهم عساكر الاسلام في نواحي قونية وكانت تلك العساكر للملوك السلجوقية الذين كانت ممالكهم في الروم وأحاطوا بهم وقاتلوهم قتالا شديدا فاستظهر المسلمون عليهم وتمكنوا منهم واستولوا على مضاربهم وذخائرهم فلم ينج منهم الا القليل فهكذا كانت نهاية الوقعة الأولى * وأما بطرس الناسك فكان قد رجع الى القسطنطينية قبل حدوث هذه الوقعة متشكيا من عدم انتظام الصليبيين وعدم طاعتهم وانقيادهم لرؤسائهم ولكن لما بلغته هذه الاخبار المحزنة

أقسم بانه لا يرجع قط عن عزمه حتى يشاهد حرباً صليبياً ثانياً

﴿ ذكر تملك الفرنج قونية وانطاكية ﴾

قد تقدم ان الروم كانوا قد استولوا على انطاكية سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وبقيت بأيديهم الى سنة أربعمائة وسبع وسبعين فانتزعها منهم سليمان بن قتلمش السلجوقي فلما كانت هذه السنة أعني سنة أربعمائة وتسعين كان الامير العامل على انطاكية باغيسان التركماني وبلغ أهل أوروبا ما حل بأصحابهم من النكال حزنوا جداً وتحركت عزائمهم على أخذ الثار والاستيلاء على تلك الديار فتجهز منهم جيش جرار وساروا كالأولين الى ان وصلوا الى قونية فالتقتهم جيوش الاسلام ووقع بينهم عدة معارك شديدة وكانت الغلبة فيها لطوائف الافرنج فاستولوا على مدينة قونية وكان ملكها بيد قلج ارسلان السلجوقي وهو الذي قابلهم بمجموعه فهزموه وملكوا منه قونية ثم تقدموا الى انطاكية لحصروها تسعة أشهر ثم ملكوها في جمادي الاولى سنة ٤٩٠ من صاحبها باغيسان التركماني بعد أن ظهر منه من الشجاعة وجودة الرأي والحزم ما لم يشاهد من غيره لانهم لما قدموا على انطاكية قابلهم بجيوشه وقاتلهم قتالا شديدا وجرت وقائع متعددة وهجمات هائلة ثم لما عجز هرب ثم قتل ولما دخل الافرنج انطاكية قتلوا من فيها من المسلمين ونهبوا أموالهم ولما سمع صاحب الموصل بتملكهم انطاكية جمع عساكره وسار الى الشام وهو الامير قوام الدولة أبو سعيد كربوقا ثم أقام بعساكره بمرج دابق واجتمع معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب وحمص وسنجار واجتمع كثير من الامراء وعظمت المصيبة على الافرنج وأرسلوا الى كربوقا يطلبون منه الامان لما أقبل بالجيوش على انطاكية فامتنع وقال لا تخرجوا الا بالسيف وحاصرهم ثم ان كربوقا المذكور أساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والامراء وتكبر عليهم فخبثت نياتهم عليه ولما ضاق الأمر على الافرنج وقلت الاقوات عندهم خرجوا من انطاكية واقتتلوا مع المسلمين وكان معهم راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال فقال لهم قبل خروجهم ان

ح عيسى عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقيسان الذى بانطاكية وهو بناء عظيم ان وجدتموها فانكم تظفرون وان لم تجدوها فالهلاك متحقق وكان قد دفن قبل ذلك حربة فى مكان فيه وعفا أثرها وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا فى جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم أبشروا بالظفر فخرجوا فى اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك فقال المسلمون لكربوقا ينبغى أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فان أمرهم الآن وهم متفرقون سهل فقال لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ولم يمكنهم من معاجلتهم فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء اليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية منهم أحد ضربوا مصافا عظيما فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والاعراض عنهم وثانيا من منعهم عن قتل الفرنج وتمت الهزيمة على المسلمين ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم وانهزم كربوقا معهم فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة اذ لم يجر قتال ينهزم من مثله وخافوا ان يتبعوهم وثبت جماعة من المسلمين وقاتلوا حسبة وطلبا للشهادة فقتل الفرنج منهم ألوفا وغنموا ما فى العسكر من الاقوات والاموال والأثاث والدواب والاسلحة فصلحت حالهم وعادت اليهم قوتهم

﴿ ذكر تملك الفرنج معرة النعمان ﴾

ثم سار الفرنج بجيوشهم الى معرة النعمان وحاصروها وقاتلهم أهلها قتالا شديدا ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية ولقوا منهم الجد فى حربهم والاجتهاد فى قتالهم فعملوا عند ذلك برجا من خشب يوازى سور المدينة ووقع القتال عليه فلم يضر المسلمين ذلك فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين وتداخلهم الفشل والهلع وظنوا أنهم اذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذى كانوا يحفظونه فرآهم طائفة أخرى من المسلمين منهم

ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم أيضا من السور ولم تزل تتبع طائفة منهم التى تليها فى النزول حتى خلا السور فصعد الفرنج اليه على السلالم فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير وملكوا المعرة وأقاموا أربعين يوما

﴿ ذكر مصالحة أهل عرقة وحمص للفرنج ﴾

ثم ساروا الى عرقة فحصروها أربعة أشهر ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها وراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها ثم ساروا الى حمص وحصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة ثم ساروا الى عكا فلم يقدروا عليها

﴿ ذكر تملك الفرنج بيت المقدس ﴾

ثم ساروا لبيت المقدس وكانوا ألف ألف وكان فيها رجل يعرف بافتخار الدولة عاملا للعبيديين ملوك مصر لان بيت المقدس كان بأيديهم انتزعوه من خلفاء بنى العباس فلما وصل الفرنج اليه حصروه نيفا وأربعين يوما ثم ملكوا المدينة المذكورة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ هجرية وركبوا الناس بالسيف ولبث الفرنج بالبلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا فضة نقرة ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا منه مالا يقع عليه الاحصاء وورد المستنفرون من الشام الى بغداد صحبة القاضى أبى سعيد الهروى فأوردوا فى الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا وذكروا مادهم المسلمين من قتل الرجال وسبي الحريم والاولاد ونهب الاموال وكانوا صياما فى رمضان فلشدة ما أصابهم أفطروا وأنشأ الشعراء فى ذلك قصائد تبكى لها العيون وتنفطر بها القلوب وكان ذلك فى خلافة المستظهر بالله بن

المقتدى بأمر الله العباسى وكان فى ذلك الوقت اختلاف كثير بين السلاطين السلجوقية وفتن قائمة بينهم بالعراق فلم تحصل منهم نتيجة ولا من الخليفة وبعث المصريون جيشا لقتال الفرنج لما بلغهم ما وقع بالقدس واقتتلوا مع الفرنج ثم انهزموا وحصرهم الفرنج بعسقلان وضيقوا عليهم فبذلوا لهم اثنى عشر ألف دينار وقيل عشرين ألفا فارتحلوا عنهم ورجعوا الى القدس وجعلوها دار ملكهم ثم استولى الفرنج على أكثر سواحل الشام فلكوا يافا وغيرها من القلاع والحصون وكانت محنة فاحشة على المسلمين * ثم فى سنة أربع وتسعين وأربعمائة ساروا الى مدينة عكا فلم يقدروا على فتحها وكانوا قد عمروا مدينة يافا وسلموها الى قمص من الفرنج وأقيم بملك القدس افرنجى آخر وقيل بل أقام بها بردويل بنفسه ومكث بيت المقدس بأيدى الفرنج احدى وتسعين سنة وكذا ما جاوره من سواحل الشام وعجز ملوك الاسلام عن استرجاعه الى أن استرجع ذلك السلطان صلاح الدين الايوبى فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كما سيأتى ذكره ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر تملك الفرنج مدينة سروج وحيفا وقيسارية ﴾

فى هذه السنة ملك الفرنج مدينة سروج من الجزيرة وقتلوا كثيرا من أهلها وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم وملكوا أيضا مدينة حيفا بالقرب من عكا على ساحل البحر وملكوا مدينة قيسارية وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها وفى سنة ٤٩٥ ساروا الى طرابلس الشام فقاتلهم أهلها وقتلوا من الفرنج نحو ثلاثمائة ثم هادنهم الفرنج على مال وخيل ثم رحلوا عنهم الى انطرسوس وهى من أعمال طرابلس فحصروها وملكوها وقتلوا من بها من المسلمين ثم ساروا الى حصن الطوبان فقاتلهم ابن العريض وأسر فارسا من أكابر الفرنج فبذلوا فى فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير فلم يجبهم ابن العريض الى ذلك * وفى هذه السنة أيضا سار الفرنج الى حمص وقائدهم ملك من ملوكهم يسمى صنجيل فحاصروها وملكوا أعمالها ونزل القمص على عكا وضيق عليها وكاد يأخذها ونصب عليها المنجنيقات والابراج وكان له فى البحر ست عشرة قطعة فاجتمع المسلمون من سائر السواحل وأتوا الى

منجنيقاتهم فأحرقوها وأحرقوا سفنهم وكان ذلك نصراً عجيباً للمسلمين أذل الله به الكفار وفيها سار القمص الفرنجي الى بيروت وحاصرها وضايقها وأطال المقام عليها فلم يرفيها طمعاً فرحل عنها * وفيها في رجب خرجت عساكر من مصر الى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في أيديهم من بلاد الشام فسمع بهم بردويل صاحب القدس فسار اليهم وقاتلهم فنصر الله المسلمين وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم وانهزم بردويل فاختفى في أجمة قصب فأحرقت تلك الاجمة ولحقت النار بعض جسده ونجا منها الى الرملة فتبعه المسلمون وأحاطوا به فتنكر وخرج منها الى يافا وكثر القتل والاسر في أصحابه وفي سنة ٤٩٦ جاءتهم جيوش المسلمين من مصر ووقعت بينهم وقائع يطول ذكرها كانت الغلبة في بعضها للمسلمين وفي بعضها للفرنج وخرجت هذه السنة وبيد الفرنج لعنهم الله البيت المقدس وفلسطين ماعدا عسقلان وبيدهم أيضاً يافا وارسوف وقيسارية وحيفا وطبرية ولاذقية ولهم بالجزيرة الرها وسروج وكان صنجيل يحاصر طرابلس الشام والمواد تأتيه وبها فخر الملك بن عمار وكان يرسل أصحابه في المراكب يغزون على البلاد التي بيد الفرنج ويقتلون من وجدوا فيها * وفي سنة ٤٩٧ أغار الفرنج من الرها على مرج الرقة وقلعة جعبر واستاقوا المواشي وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين وفي هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الفرنج الى مدينة لاذقية وفيها الاجناد والتجار فاستعانوا بها على حصار طرابلس براً وبحراً وضايقوها وقاتلوها أياماً فلم يروا فيها مطمعاً فرحلوا الى مدينة جبيل فحاصروها وقاتلوا أهلها قتالاً شديداً فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أماناً وسلموا البلد اليهم فلم تف الفرنج لهم بالامان وأخذوا أموالهم وعاقبوهم بالعقوبات وأنواع العذاب فلما فرغوا من جبيل ساروا الى مدينة عكا واستعانوا بملكهم صاحب المقدس على حصارها فنازلوها وحاصروها في البر والبحر ثم ملكوها وفعلوا بأهلها الافعال الشنيعة ثم ساروا الى حران ووقع بينهم وبين المسلمين وقائع يطول ذكرها كان النصر فيها للمسلمين وقتلوا من الفرنج اثنى عشر ألفاً وأسروا القمص فافتداه الفرنج بخمسة

وثلاثين ألف دينار وستين أسيرا من المسلمين * وفى سنة ٤٩٨ سار الفرنج الى حصن ارتاح ووقع بينهم و بين المسلمين قتال شديد وانهزم المسلمون وقتل وأسر كثير منهم وملك الافرنج الحصن * وفى سنة ٤٩٩ وقع بينهم و بين المسلمين قتال على حصن كان بيد الفرنج بينه و بين دمشق يومان فملكه المسلمون وقتلوا من كان بالحصن من الفرنج واستبقوا الفرسان أسرى وكانوا مائتى فارس وملكوا أيضا منهم حصن رفنية وهو من حصون الشام وقتلوا به خمسمائة من الفرنج وفى هذه السنة ملك الفرنج حصن افامية وكان من أمنع الحصون الشامية وقتلوا من فيه من المسلمين * وفى سنة ٥٠٠ وقعت وحشة بين ملك القسطنطينية والافرنج الذين بالشام ثم وقع بينهم قتال شديد انهزم فيه الافرنج ولم يزل الفرنج يتابعون الحصار على طرابلس الشام و بيروت والكلام على ذلك طويل الى أن ملكوهما سنة ٥٠٣ وقتلوا وأسروا كثيرا من الرجال وسبوا النساء والاطفال ونهبوا من الاموال مالا يحصى ثم ملكوا بانياس وصيدا وصور وحصن ارتاب وهو قريب من حلب وغير ذلك * وفى سنة احدى عشرة وقيل أربع عشرة قصد بردويل بجيوشه الديار المصرية ليأخذها فانتهى الى غزة ودخلها وخربها وأحرق مساجدها ورحل عنها وهو مريض فهلك فى الطريق (والحاصل) أن الفرنج لم يزالوا يتملكون كثيرا من الممالك الشامية و يقع بينهم وبين المسلمين الوقائع الهائلة التى يطول الكلام بذكرها حتى لم يبق بيد المسلمين سوى حمص وحماة والشام وحلب و بعض القرى الحقيرة واستمر الحال الى سنة ١١٢٨ مسيحية الموافق سنة ٥٢٢ هجرية فصار ملك حلب والموصل للسلاطين السلجوقية وانتزعوهما من بعض أمراء المسلمين المتغلبين عليهما فأقاموا فيهما عماد الدين زنكى والد السلطان محمود نور الدين الآتى ذكره وكان لعماد الدين شجاعة وشهامة وعزم شديد على جهاد الكفار فشن على الافرنج الغارات ووالى عليهم الغزوات واسترجع كثيرا مما ملكوه وتوفى مقتولا قتله بعض مماليكه سنة ٥٤١ وكان أبوه اق سنقر مملوكا للسلطان ملك شاه السلجوقى ولما قتل عماد الدين وصار ملك

حلب لابنه السلطان نور الدين محمود كان على الفرنج أشد من أبيه فزاد في قتالهم ونكايتهم وكان من أهل العلم والصلاح والتقوى والاستقامة وله ترجمة طويلة سيأتي ذكرها فأول ما ابتدأ في ولايته أنه جهز جيشا لقتال الافرنج وفتح مدينة ارتاح وأورفا وأماكن أخر * وفي سنة ١١٤٧ مسيحية الموافق سنة ٥٤٢ هجرية اشتدت حروب السلطان محمود وتوالت غزواته وفتوحاته فاستمد الفرنج الذين كانوا في مدائن الاسلام بالفرنج أهل أوروبا فأمدوهم بنجدة عظيمة تحت قيادة ملك جرمانيا وألمانيا وملك فرنسا لويز السابع وقبل قدوم ملك فرنسا بأيام يسيرة وصل ملك جرمانيا الى فلسطين في حالة يرثى لها اذ كان قد تلف أكثر من نصف جيشه في الطريق بعضهم بالجوع والمرض وبعضهم بالسيف في المعارك التي أثارها عليهم الاعداء في أثناء الطريق فلما بلغ سواحل سوريا واقتحموا كب السلطان نور الدين بجيوش الاسلام وفتكت بعساكره فانهزم مع باقي جيشه وبينما هو راجع التقى بملك فرنسا مع جنوده وقد وصلوا في حالة أحسن من حالته فالتقتهم جيوش الاسلام في نواحي انطاكية وانتشبت بينهم نيران القتال واستمر القتال بينهم مدة أيام وكانت الدائرة على ملك الفرنسيس وجنوده فانقلب راجعا ببقية قواده وجيوشه ونزلوا في السفن وساروا الى القدس وانضموا الى ما فيه من العساكر مع بقايا العساكر الجرمانية * وفي سنة احدى وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج طرابلس الغرب * وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة غزا نور الدين الفرنج من نواحي انطاكية وقتل البرنس صاحب انطاكية وهزم الفرنج هزيمة قبيحة وقتل منهم جمعا كثيرا وأسر مثلهم وأكثر الشعراء من القصائد بمدحه وتهنئته وفتح نور الدين في هذه السنة والتي تليها حصونا كثيرة وكان الفرنج نازلوا دمشق مرارا وحاصروها فلم يقدروا على تملكها واستمر القتال والغزوات بينهم وبين السلطان نور الدين الى سنة ١١٧٣ مسيحية الموافق سنة ٥٦٩ وكان السلطان صلاح الدين ابن أيوب من أتباع السلطان نور الدين جهزه الى مصر سنة ٥٦٤ وتملك مصر وانتزعها من العبيديين وقصة ذلك طويلة مذكورة في التواريخ وكان السلطان

صلاح الدين فى العلم والتقوى والصلاح مثل السلطان نور الدين فلما توفى السلطان نور الدين سنة ٥٦٩ جمع السلطان صلاح الدين بين ملك مصر والشام فصار الملك فى يده وتابع الغزوات فى قتال الفرنج لاستخلاص ما بأيديهم من ممالك المسلمين وأول قتال وقع بينه وبين الافرنج كان فى حياة نور الدين سنة ٥٦٥ وذلك أنه جاءت جموع كثيرة منهم وحاصروا مدينة دمياط وضيقوا على من بها فتجهز السلطان صلاح الدين من مصر بجيوش حافلة وقاتلهم وأمده السلطان نور الدين بجيوش كثيرة وشن عليهم السلطان نور الدين الغارات بالشام وبالى على المدائن التى بأيديهم الغزوات فارتحلوا من دمياط ورجعوا خائبين * وفى سنة ٥٦٦ سار السلطان صلاح الدين من مصر وأغار على الفرنج بعسقلان والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه فأتاه ملك الفرنج بعساكر ليرده فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيرا وعاد صلاح الدين الى مصر ثم غزا ايلة برا وبحرا وانتزعها من الفرنج * وفى سنة ٥٦٩ كتب بعض أهل مصر أتباع العبيديين الذين انقرضت دولتهم الى الفرنج الذين بالشام والذين بصقلية أن يرسلوا اليهم جيوشا يستعينون بهم على اخراج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية فبعث اليهم الفرنج مائة أسطول تحمل الرجالة وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب كبارا تحمل آلة الحرب وأربعين مركبا تحمل الازواد وفيها من الرجالة خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة ونازلوا الاسكندرية فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٦٩ على حين غفلة من أهلها وطمأنينة فخرج أهل الاسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول فمنعهم الوالى عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ونزل الفرنج فى البر مما يلى البحر وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد القتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم وسيرت الكتب بالحال الى مصر الى السلطان صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال أول يوم

الى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قرب السور ووصل ذلك اليوم من العساكر الاسلامية من كان قريبا من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل جهة فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون الى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته ولم يزل القتال الى آخر النهار ودخل أهل البلد اليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وفشل الفرنج وكثر القتل فيهم والجراح وأما صلاح الدين فانه لما وصله خبر منازلة الفرنج الاسكندرية سار من مصر بعساكره وسير طائفة من العسكر الى دمياط خوفا عليها واحتياطا وسير مملوكا له مبشر الاهل الاسكندرية بقدوم صلاح الدين والعساكر فوصل المملوك الاسكندرية وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى فى البلد يبشرهم بمجىء صلاح الدين والعساكر مسرعين ثم وصل صلاح الدين بعساكره فى أثر المملوك فلما سمع الناس ذلك فرحوا وعادوا الى القتال وقد زال ما بهم من تعب القتال وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله وسمع الفرنج بوصول صلاح الدين فى عساكر فسقط فى أيديهم وازدادوا تعبا وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتجملات العظيمة وكثر القتل فى الفرنج فهرب كثير منهم الى البحر وقربوا شوانيهم الى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين فى الماء وخرق بعض شوانى الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا بشوانيهم هاربين واحتمى ثلاثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون الى بكرة ودام القتال الى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم * وفى سنة ٥٧١ عظم ملك صلاح الدين فكاتبه الفرنج وطلبوا منه صلحا

وهدنة فهادنهم على شروط معلومة * وفى سنة ٥٧٣ انتقض الصلح لأمور جرت فسار السلطان صلاح الدين من مصر بجيوشه قاصدا قتال الفرنج وكان ذلك فى جمادى الأول من السنة المذكورة فوصل الى عسقلان فى الرابع والعشرين من الشهر هو وجنوده فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا فى تلك الاعمال مغيرين فلما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمى البلاد طمعوا وساحوا فى الأرض آمنين ووصل صلاح الدين الرملة عازما على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل الى نهر فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم إلا والافرنج قد أشرفت عليهم بجنودها وأبطالها وكان مع صلاح الدين بعض العسكر لان أكثرهم تفرقوا فى طلب الغنيمة فلما رأى الفرنج وقف لهم فيمن معه وقاتلهم فقتل جماعة من الفريقين وقتل ابن تقى الدين ابن أخى صلاح الدين ثم صارت الهزيمة على المسلمين وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل اليه فقتل الفرنجى بين يديه وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزما يسير قليلا ويقف قليلا ليلحقه العسكر الى أن دخل الليل فسلك البرية الى أن مضى فى نفر يسير الى مصر ولقوا فى طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء وهلك كثير من الدواب جوعا وعطشا وسرعة سير وأما العسكر الذين دخلوا بلاد الفرنج فى الغارة فان أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير وكان من جملة من أسر الفقيه عيسى الهكارى وكان من أشد الناس قتالا وكان جامعا بين العلم والدين والشجاعة وأسر أيضا أخوه الظهير وكانا قد سارا منهزمين فضلا الطريق فأخذوا ومعهم جماعة من أصحابهما وبقوا سنين فى الأسر فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار وفدى أيضا جماعة كثيرة من الاسرى ولما حصلت هذه الهزيمة سار الفرنج الى مدينة حماه وحاصروها وكان الأمير عليها شهاب الدين الحارمى فقاتلهم هو وأهل البلد وكاد الفرنج يملكون البلد واشتد القتال وعظم الخطب وهجم الفرنج على بعض البلد ودام القتال ليلا ونهارا واستقل المسلمون وحاموا عن الانفس والاهل والمال ثم أنزل الله عليهم النصر فأكثروا القتل فى

الفرنج وأخرجوهم من البلد فارتحلوا خائبين وكفى الله المسلمين شرهم ثم ساروا وحاصروا حارم فلم يتمكن لهم أخذها فساروا عنها * وفى سنة ٥٧٤ فى ربيع الأول سار جمع كثير من الفرنج الى مدينة حماه وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعا فى النهب والغارة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى فى طريقهم وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيمون بحماة ساروا اليهم وهم قليل متوكلون على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والأسر فيهم واستردوا ما غنموا من السواد وكان صلاح الدين بحمص فحملت الرؤس والاسرى والاسلاب اليه فأمر بقتل الاسرى فقتلوا لان الامام مخير فى الاسرى بين القتل والفداء والمن بلا فداء * وفى ذى القعدة من هذه السنة اجتمع الفرنج وساروا الى دمشق مع ملكهم فأغاروا على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا فأرسل صلاح الدين فرخشاه ولد أخيه ومعه كثير من العسكر يقاتلهم ونصره الله عليهم وقتل كثيرا منهم وقتل جماعة من مقدميهم منهم هنفرى كان يضرب به المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب فأراح الله من شره * وفى سنة ٥٧٥ بنى الفرنج حصنا منيعا بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام فكان يعرف بمخاضة الأحزان فلما سمع بذلك صلاح الدين بذل للفرنج ستين ألف دينار ليهدموه بغير قتال فامتنعوا فسار من دمشق الى بانياس وأقام بها وبث الغارات على الفرنج ثم سار الى الحصن بعساكره فحاصروا الحصن وقاتلوا من به وعاد هو الى بانياس وخيله تغير على بلاد العدو وأرسل جماعة من عسكره مع جالبي الميرة فلم تشعر الا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم فأرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار فى العساكر مجدا فوافاهم وهم فى القتال فقاتل الفرنج قتالا شديدا وحملوا على المسلمين حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كثيرة ونجا ملكهم فريدا وأسر كثيرا منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلا بعد الملك وأسروا أيضا أخاه صاحب جبيل وصاحب طبرية وغيرهم من مشاهير فرسانهم

فأما ابن بيرزان فانه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار واطلاق ألف أسير من المسلمين ثم عاد صلاح الدين الى بانياس من موضع المعركة وتجهز للدخول الى ذلك الحصن ومحاصرته فأحاط به وبث العساكر للاغارة على الفرنج فى تلك الاطراف ثم زحف المسلمون على الحصن واشتد القتال وعظم الأمر ونقبوا الحصن وأشعلوا النيران فيه وانتظروا سقوط السور وكان عرضه تسعة أذرع بالنجارى فلم يسقط الا بعد أيام فدخلوا المسلمون الحصن عنوة وقتلوا كل من فيه وأطلقوا من كان فيه من أسرى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيرا من أسرى الفرنج وأدخل الباقين الى دمشق فسجنوا وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره وألحقه بالارض وكان جملة من الفرنج قد احتموا بطبرية ليحموا الحصن فلما أتاهم الخبر بأخذه تفرقوا وفى سنة ٥٧٨ فتح المسلمون شقيفا وأخذوه من الفرنج وهو من أعمال طبرية مطل على السواد وكان على المسلمين منه أذى شديد ولما بلغ الفرنج مسير صلاح الدين من مصر الى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصة وربما عاقوا المسلمين عن السير بأن يقفوا على بعض المضايق فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام فسمع فرخشاه ابن أخى صلاح الدين الخبر فجمع من عنده من عساكر الشام وقصد ما بأيديهم من البلاد وأغار عليها ونهب وبورية وما يجاورها من البلاد وأسر الرجال وقتل وسبى النساء وغنم الأموال وفتح منهم الشقيف ففرح المسلمون بفتحه فرحا عظيما لما كان يحصل لهم من الاذى منه ولما وصل صلاح الدين الى دمشق سار الى طبرية وكان الفرنج بجموعها نازلة بطبرية فنزل بالقرب منها وأغار ابن أخى صلاح الدين على بيسان فدخلها قهرا وغنم ما فيها وقتل وسبى وأغارت العساكر والعربان فى تلك الولاية حتى قابلوا مرج عكا وسار جماعة من الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا وأثخنوا القتل فيهم فرجعوا ورجع صلاح الدين الى دمشق ثم سار منها الى بيروت يريد حصارها وقصها فأتاه الخبران البحر ألقى مركبا

للفرنج فيه جمع عظيم منهم الى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسر المسلمون من بها بعد أن غرق كثير منهم وكان عدة الاسرى ألفا وستمائة وستا وسبعين أسيرا فضربت بذلك البشائر وسار أسطول للمسلمين من مصر فى البحر فلقوا أسطولا للفرنج فيه ثلاثمائة منهم معهم الاموال والسلاح مرسلين الى فرنج الساحل فقاتلهم المسلمون فظفروا بهم وأخذوا الفرنج أسرى فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم وغنموا امامعهم ثم أغار صلاح الدين على بيسان فأحرقها وخربها وقتل من فيها ثم أغار على الكرك وأطرافها ثم وصل الى نابلس فأحرقها وخربها وقتل واسر وسبى ولم يزل يشن على الفرنج الغارات فى كل الأطراف ويطول الكلام بذكر وقائعه مع الفرنج الى أن فتح طبرية بعد قتال شديد ووقائع هائلة وأكثر القتل والاسر فى الفرنج وكان جيش صلاح الدين لما حاصر طبرية ثمانين ألفا فلما أشرف عليها وحاصرها وافاه ملك الفرنج الذى ببيت المقدس بجيوش هائلة للمدافعة والمحاماة عن أهل طبرية لانها كانت عندهم من أهم مراكز البلاد وهناك التقى العسكران وماجت الارض بالعساكر واستمر القتال بين الفريقين وكانت الدائرة على أهل الصليب فانقلبوا منهزمين على الاعقاب طالبين النجاة بعد ان فقد منهم نحو ثلاثين ألفا ووقع الملك أسيرا مع خواصه وأكابر رؤسائه فى أيدى الاسلام وعند نهاية الحرب قتل صلاح الدين مائتين وثلاثين رجلا من أعيان الافرنج المأسورين وأما الملك فانه أرسله الى دمشق ثم سار صلاح الدين الى عكا وحاصرها وضيق عليها فطلب أهلها الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين وساروا متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله وتركوا الباقى على حاله ودخل المسلمون عكا يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ثم تتابعت الفتوحات بعد فتح طبرية وعكا وهما فتحان عظيمان وفى الحقيقة هما أول الفتوحات والذى كان قبلهما انما كان اغارة فى الاطراف وغزوات وسريات وسبب تأخر الفتوحات الى سنة ٥٨٣ مع أن السلطان نور الدين توفى سنة ٥٦٩ وصار الملك بعده لصلاح الدين

ان كثيرا من عمال السلطان نور الدين الذى تحت حكمهم كثير من ممالكه امتنعوا من الدخول تحت طاعة السلطان صلاح الدين ووقع بينه وبينهم محاربات فى هذه السنين يطول الكلام بذكرها حتى أدخلهم تحت طاعته وصفا له الامر وقبل ذلك ما كان متمكنا من التفرغ لقتال الفرنج كل التفرغ وأما فى هذه السنة سنة ٥٨٣ فقد تفرغ لهم كل التفرغ وتوجه غاية التوجه ولما ارتحل الفرنج من عكا ودخلها المسلمون غنموا ما بقى مما لم يطق الفرنج حمله وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب والجوهر والبندق والسلاح وغير ذلك من أنواع الامتعة كثيرا فانها كانت مقصد التجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده فلم يكن له من ينقله فغنمه المسلمون وأقام صلاح الدين بعكا أياما لاصلاح حالها وتقرير قواعدها ثم ارتحل وفرق العساكر الى الناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيوف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وقدموا بما سد الفضاء وبعث أخاه سيف الدين الى مدينة يافا فحصرها وملكها وغنم ما فيها وأسر الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها ما لم يجر على أحد من أهل تلك البلاد وسار صلاح الدين وابن أخيه تقى الدين وكثير من العساكر وحاصر وا تبنين وضايقوها وهى من القلاع المنيعة على جبل فلما ضاق عليهم الامر واشتد الحصر أطلقوا من كان عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة وأرسلوا يطلبون الامان فأمنهم وسيرهم الى مأمنهم ثم رحل الى صيدا فاجتاز فى طريقه بصرفند فأخذها صفوا عفوا بغير قتال ثم سار الى صيدا وهى من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من ممانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله ثم سار عنها الى بيروت وهى من أحصن مدن الساحل فلما وصل اليها رأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدد وقاتلوا على سورها قتالا شديدا واغتروا بحصانة البلد وظنوا أنهم قادرون على حفظه وزحف المسلمون اليهم

مرة بعد أخرى فبينما الفرنج يقاتلون اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فأتاهم من أخبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الاخرى غلبة وقهرا فارسلوا ينظرون ما الخبر واذا ليس له صحة فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الامان فامنهم على أنفسهم وأموالهم وتسلمها فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة وكان مدة حصرها ثمانية أيام ثم أراد صلاح الدين السير الى جبيل وكان صاحبها من جملة الاسرى الذين سيروا الى دمشق فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق فى تسليم جبيل على شرط اطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك فامر بارساله اليه فاحضره مقيدا وكان العسكر حينئذ على بيروت فسلم حصنه وأطلق أسرى المسلمين الذين به وأطلقه صلاح الدين كما شرط له وكان هذا صاحب جبيل من أعيان الفرنج وأصحاب الرأى والمكر والشر يضرب به المثل بينهم وكان للمسلمين عدو أزرق فكان اطلاقه من الاسباب الموهنة للمسلمين على ما سيأتى بيانه ولما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما كان أمر عسقلان والقدس عنده أهم الاسباب منها أنهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام وكان يختار أن تتصل الولايات فيسهل خروج العسكر منها ودخولهم اليها ولما فى فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم الى غير ذلك من الاغراض فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع بأخيه سيف الدين العادل ومن معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر من دمشق ملك الفرنج الذى أسر فى وقعة طبرية ومعه مقدم الداوية وقال لهما ان سلمتما البلاد الى فلكما الامان فارسلا الى من بعسقلان من الفرنج يامرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما فح ردوجبهوهما بما يسوؤهما فلما رأى السلطان ذلك جد فى قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وزحف بجيوشه اليها مرة بعد أخرى وتقدم النقابون فنقبوا منه شيئا وملكهم يكرر اليهم المراسلات بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم

أنه اذا أطلق من الاسر أضرم البلاد على المسلمين نارا واستنجد بالفرنج من البحر وأجلب الخيل والرجل من أقصى بلاد الفرنج وأدانيها وهم لا يجيبون الى مايقول ولا يسمعون مايشير به ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا واذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضا ولا لهم نجدة ينتظر ونهارا سألوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اشترطوها فأجابهم صلاح الدين اليها وسلموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكان مدة الحصار أربعة عشر يوما وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم الى بيت المقدس ووفى لهم بالامان ثم أقام صلاح الدين بظاهر عسقلان وبث السرايا من أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزة والخليل وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية ثم لما فرغ من أمر عسقلان ومايجاورها من البلاد سار الى فتح بيت المقدس وكان قد أرسل أسطولا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه وكان في بيت المقدس البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شأنا من ملكهم وبه أيضا باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك وبه أيضا من خلص فرسانهم كثيرون وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحي عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق يبلغون ستين ألفا ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى ان يبذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه وحصنوه تلك الايام بما وجدوا اليه سبيلا وصعدوا على سوره بحدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة وأنه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات فيمنعون من يريد الدنو منه والنزول اليه فلما قرب صلاح الدين منه رأى على سوره من الرجال ماهاله وسمع لاهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لانه في غاية الحصانة والامتناع

فلم يجد عليه موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمودا وكنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية فى العشرين من رجب ونصب تلك الليلة المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقاتل كل من الفريقين أشد قتال كل يرى ذلك دينا وحتما واجبا فلا يحتاج فيه الى باعث سلطانى بل كانوا يمنعون فلا يمتنعون ويزجرون فلا ينزجرون وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين وممن استشهد من المسلمين الامير عز الدين بن مالك وهو من أكابر الامراء وكان محبوبا الى الخاصة والعامة فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج من مواقفهم فأدخلوهم بلدهم ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحفوا والرماة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنج عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمى المتدارك وتمكن النقابون من النقب وأنهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم البيت المقدس لصلاح الدين فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم فى طلب الامان فامتنع السلطان صلاح الدين من اجابتهم وقال لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة ٤٩٢ من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا الامر وتحريره فأجيب الى ذلك وحضر عنده ورغبه فى الامان وسأله فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه فلما أيس من ذلك قال أيها السلطان اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظنا منهم أنك تجيبهم كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة فاذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها دينارا

واحـداولادرهما ولاتسـبون وتأسرون رجلا ولاامرأة واذافرغنامن ذلك أخر بنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عنـدنامن أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف ولانترك لنادابة ولاحيوانا الاقتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا وقاتلنا كم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لايقتل الرجل حتى يقتـل أمثاله ونموت أعزاء أونظفر كراما فاستشار صـلاح الدين أصحابه فأجمعوا على اجابتهم الى الامان وأن لايخرجوا ويحملوا على ركوب مالايدرى عاقبة الامر فيه عن أى شئ تنجلي ويحسب أنهم أسرى بأيدينافنبيعهم نفوسهم بمايستقر بيننا وبينهم فأجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للفرنج فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغني والفقير ويؤخذ من الطفل من الذكور والاناث ديناران وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوما عنه ولم يؤد ماعليه فقد صار مملوكا فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعـة السابع والعشرين من رجب سـنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكان يوما مشهودا ورفعت الأعلام الاسلامية على أسواره ورتب صلاح الدين على أبواب البلد فى كل باب أمينا من الامراء ليأخذ من أهله مااستقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم الامناء الاموال وتفرقت أيدى سبا ولو أديت فيه الأمانة لملأ الخزائن وعم الناس وبقى بعد هذا جميعه من لم يكن معه مايعطى وأخذ أسيرا ستة عشر ألف انسان مابين رجـل وامرأة وصبي وأظهر صلاح الدين من علـو الهمة والشفقة والرحمة مالامزيد عليه فكان يرضى من الفقراء والمحتاجين بما تيسر عليهم حتى أنه أطلق ثلاثة آلاف رجل بدون فدية وكان فى المدينة الملكة زوجة الملك المأسور وعند مقابلة صلاح الدين اياها أظهر لها من الرقة واللطف وكرم الاخلاق مالايوصف وكان يكلمها ودموعه تجرى وأطلق لها مالها وحشمها واستأذنته فى المسير الى زوجها وكان محبوسا بقلعة نابلس فأذن لها فأتته وأقامت عنده وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ومعـه أموال البيع منها الصخرة

والاقصى وقامة وغيرها مالا يعلمه الا الله تعالى وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له ليأخذ ما معه يقوى به المسلمين فقال لا أغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور وأمر صلاح الدين بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار ٭ ولما كانت الجمعة الاخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقيل له ان نور الدين محمودا كان قد عمل منبرا لبيت المقدس رجاء أن يفتحه الله على يديه وأمر الصناع بتحسينه واتقانه لم يعمل فى الاسلام مثله فأمر باحضاره فحمل من حلب ونصب ببيت المقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله ثم أمر صلاح الدين بعمارة المسجد الاقصى واستنفاذ الوسع فى تحسينه وازالة ما أحدثوه من التصويرات وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فأمر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالرخام أن القسيسين باعوا كثيرا منها للفرنج الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا يشترونه بوزنه ذهبا رجاء بركتها وكان أحدهم اذا دخل الى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ويجعله فى مذبحها فخاف بعض ملوكهم أن تفنى فأمر بها ففرش فوقها الرخام حفظا لها فلما كشفت نقل اليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ورتب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة فعاد الاسلام هناك غضا طريا وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخرا وشرفا وأما الافرنج من أهله فانهم أقاموا وشرعوا فى بيع مالا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم وباعوا ذلك بأرخص الثمن فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الافرنج فانهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام فى مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم الى ذلك فاستقروا فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج التى تركوها أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها

من الاسرة والصناديق وغير ذلك وتركوها أيضا من الرخام الذى لا يوجد مثله من الاساطين والالواح وغير ذلك شيأ كثيرا وساروا وفرق صلاح الدين على أرامل وأيتام القتلى من الفرنج مالا كثيرا وسمح للمتوجعين على القشلات والمستشفيات أن يبقوا فى المدينة سنة أخرى لملاحظة المرضى والعاجزين والاعتناء بهم ثم أقام صلاح الدين بظاهر القدس الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحوالها وتقدم بعمل الربط والمدارس فجعل دار الاستبتار مدرسة للشافعية وهى فى غاية ما يكون من الحسن وكانت مدة استيلاء الفرنج على بيت المقدس احدى وتسعين سنة لأنهم ملكوه سنة اثنتين وأربعمائة وأخذ منهم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فلما فرغ من أمر البلد سار الى مدينة صور وكان قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير وقد صار المركيس صاحبها والحاكم فيها وكان تاجرا من تجارهم وقد ساسهم أحسن سياسة وبالغ فى تحصين البلد ووصل صلاح الدين الى عكا وأقام فيها أياما فلما سمع المركيس بوصوله اليها جد فى عمل سور صور وخنادقها وتعميقها ووصلها من البحر من الجانب الآخر فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء لا يمكن الوصول اليها ولا الدنو منها ثم رحل صلاح الدين من عكا فوصل الى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب من البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا وسار فى الثانى والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى القتال وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث أن يتصل القتال على أهل البلد على أن الموضع الذى يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد لحفظه وعليه الخنادق التى وصلت من البحر الى البحر فلا يكاد الطير يطير عليهما فان المدينة كالكف فى البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبى الساعد والقتال انما هو فى الساعد فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والشروخ والدبابات والعرادات شئ أصغر من المنجنيق والشرخ نصل لم يركب والدبابة آلة تتخذ للحرب فتدفع فى أصل الحصن فينقبون وهم فى جوفها وكان عشيرة صلاح الدين يتناوبون

القتال مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازى وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقى الدين وكذلك سائر الامراء وكان للفرنج شوانى وحراقات يركبون فيها فى البحر ويقفون من جانب الموضع الذى يقاتل المسلمون منه أهل البلد فيرمون المسلمين من جانبهم بالشروخ ويقاتلونهم وكان ذلك يعظم على المسلمين لأن أهل البلد يقاتلونهم بين أيديهم وأصحاب الشوانى يقاتلونهم من جانبهم فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين الى الجانب الآخر لضيق الموضع فكثرت الجراحات فى المسلمين والقتل ولم يتمكنوا من الدنو الى بلد فأرسل صلاح الدين الى الشوانى التى جاءته من مصر وهى عشر قطع وكانت بعكا فاحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها فكانت فى البحر تمنع شوانى أهل صور من الخروج الى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله فقاتلوه برا وبحرا وضايقوهم حتى كادوا يظفرون فجاءت الأقدار بما لم يكن فى الحساب وذلك أن خمس قطع من شوانى المسلمين باتت فى بعض تلك الليالى مقابل ميناصور ليمنعوا من الخروج والدخول اليهم فباتوا ليلهم يحرسون فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا إلا بشوانى الفرنج قد نازلتهم فأزالتهم وضايقتهم فأوقعت بهم فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم ميناصور والمسلمون فى البر ينظرون اليهم ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر فنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق وتقدم السلطان الى الشوانى الباقية وأمرهم بالمسير الى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت فتبعها شوانى الفرنج فحين رأى من فى شوانى المسلمين الفرنج مجدين فى طلبهم ألقوا أنفسهم من شوانيهم الى البر فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد الى مقاتلة صور فى البر وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال * وفى بعض الأيام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام الى آخر النهار وكان خروجهم قبل العصر وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط فلما أسر قتل وبقوا كذلك عدة أيام

فلما رأى صلاح الدين أن أمر صور يطول رحل عنها وندم على ما فرط منه قبل
ذلك فانه كان كلما فتح مدينة وأمن أهلها الفرنج يجهزهم بأموالهم ورجالهم الى
الصور من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك فصار فيها بالساحل فرسان
الفرنج بأموالهم وأموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة وأرسلوا الفرنج داخل
البحر يستمدونهم فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصر وأمروهم بحفظ
صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلتجئون اليها فزادهم ذلك حرصا على
حفظها والذب عنها فلا ينبغي للملك أن يترك الحزم وان ساعدته الاقدار فلأن
يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطا مضيعا للحزم ويكون الحزم أعذر له عند
الناس فرحل عنها آخر شوال الى عكا وأذن للعسكر بالعود الى أوطانهم
والاستراحة في الشتاء والعود في الربيع فعادت عساكر الشرق والموصل
وغيرها وعساكر الشام ومصر وبقي في حلقته الخاصة مقيما بعكا وكان قد أرسل
قبل ذلك جماعة لحصار هونين فلما كان محاصرا مدينة صور أرسل أهل هونين
يطلبون الأمان فأمنهم فسلموا ونزلوا منها فوفى لهم بالامان * ولما دخل المحرم سنة
٥٨٤ سار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر الى قلعة كوكب
وهي مطلة على الاردن ونازلها ظنا منه أن ملكها سهل وهو في قلة من العسكر
فلما رآها عالية منيعة والوصول اليها متعذر وكان عنده منها ومن صفد والكرك
المقيم المقعد لأن البلاد الساحلية من عكا الى جهة الجنوب كانت قد ملك جميعها
عدا هذه الحصون وكان أهل هذه القلاع يقطعون الطريق على المجتازين فكان
أحب شيء أن يملكها ليأمن الطريق للمجتازين فلما حصرها ورآها منيعة يبطئ
ملكها رحل عنها وجعل عليها جماعة يحاصرونها وسار الى دمشق وكتب الى
البلاد جميعا باجتماع العساكر وسار من دمشق منتصف ربيع الأول ووصل الى
حمص ثم أغار على مواضع للفرنج ووصل الى قريب طرابلس وأبصر البلاد
وعرف من أين يأتيها ثم عاد الى معسكره سالما وقد غنم العسكر من الدواب على
اختلاف أنواعها ما لا يحصى ونزل على حصن الاكراد من الجانب الشرقي من

حمص وأقام الى آخر ربيع الآخر وكانت جبلة من أعمال انطاكية بيد الفرنج وفيها كثير من المسلمين ولها قاض مسموع الكلمة عند الفرنج والمسلمين وجعله الفرنج يحكم على المسلمين واسمه منصور بن شبيل فأخذته الغيرة للدين فجاء الى السلطان صلاح الدين وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الاولى فنزل بانطرسوس سادسه فرأى الفرنج قد أخلوا المدينة واحتموا فى برجين حصينين كل واحد منهما قلعة حصينة ومعقل منيع فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم وحاصر أحد البرجين فنزل اليه من فى أحدهما بأمان وسلموه فأمنهم وخرب البرج وألقى حجارته فى البحر ونزل من فى البرج الآخر فخرب صلاح الدين ولاية أنطرسوس ورحل عنها وأتى مرقية وقد رحل عنها أهلها وساروا الى المرقب وهى من حصونهم التى لا ترام ولا تحدث أحدا نفسه بملكه لعلوه وامتناعه والطريق تحته والحصن على يمين المجتاز الى جبلة والبحر عن يساره والطريق مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد واتفق أن ابن صاحب صقلية أرسل نجدة الى فرنج الساحل ستين قطعة من الشوانى وكانوا بطرابلس فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤا ووقفوا فى البحر تحت المرقب فى شوانيهم ليمنعوا من يجتاز بالسهام فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بوضع سرر وأخشاب فصفت على الطريق مما يلى البحر من أول المضيق الى آخره وجعل وراءها الرماة فمنعوا الفرنج من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا الى جبلة ثانى عشر جمادى الاولى وتسلمها وقت وصوله كان قاضيها قد سبق اليها ودخل فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها وسلمها اليه وتحصن الفرنج الذين كانوا بها واحتموا بقلعتها فما زال قاضى جبلة يخوفهم ويرعبهم حتى استنزلهم بشرط الامان وأن يأخذ رهائنهم يكونون عنده الى أن يطلق الفرنج رهائنهم من المسلمين من أهل جبلة وكانوا بانطاكية وقرر صلاح الدين أحوال جبلة وجعل فيها أميرا

﴿ ذكر فتح اللاذقية ﴾

وسار الى اللاذقية فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها وصعدوا الى حصنين

لهما على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا الحصنين وزحفوا اليهما ونقبوا الاسوار وعظم القتال واشتد الأمر عند الوصول الى السور فلما أيقن الفرنج بالعطب دخل اليهم قاضي جبلة يخوفهم من المسلمين فطلبوا الامان فأمنهم صلاح الدين ورفعوا الاعلام الاسلامية الى الحصنين وسلم صلاح الدين اللاذقية لابن أخيه تقي الدين عمر وجعله أميرا عليها ولما نازل صلاح الدين اللاذقية وصل أسطول صقلية الذي تقدم ذكره فوقف بازاء مينا اللاذقية فلما سلمها الفرنج الذين بها الى صلاح الدين عزم أهل هذا الاسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها الفرنج غيظا عليهم حيث سلموها سريعا فسمع بذلك أهل اللاذقية فأقاموا وبذلوا الجزية فكان ذلك سبب مقامهم فيها ثم ان مقدم هذا الاسطول طلب من السلطان الامان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الارض بين يديه وقال ما معناه انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونوا مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم والا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به فيعظم عليك الامر ويشتد الحال فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه مع اظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر وانهم ان خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والاسر فانقلب على وجهه ورجع الى أصحابه

﴿ ذكر فتح صهيون ﴾

ثم رحل صلاح الدين في السابع والعشرين من جمادى الاولى وقصد قلعة صهيون وهي قلعة منيعة شاهقة في الهواء صعبة المرتقى على قنة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع بحيث ان حجر المنجنيق يصل منه الى الحصن الا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال وقد عملوا لها خندقا عميقا لا يرى قعره وخمسة أسوار منيعة فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها ونصبت عليه المنجنيقات ورماها وتقدم الى ولده الظاهر صاحب حلب فنزل على المكان الضيق من الوادي ونصب عليه المنجنيقات أيضا فرأى الحصن منه وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة ودام رشق السهام من قسي اليد

والشرخ وغير ذلك تخرج أكثر من بالحصن وهم يظهرون التجلد والامتناع وزحف المسلمون اليهم فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل فتسلقوا بين الصخور حتى التصقوا بالسور فملكوا منها ثلاثة وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك واحتمى الفرنج بالقصة التي للقلعة فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الامان فلم يجبهم صلاح الدين اليه فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس وتسلم الحصن وسلمه الى أمير يقال له ناصر الدين فحصنه وجعله من أحصن الحصون

﴿ ذكر فتح عدة حصون ﴾

ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا في تلك النواحي فملكوا حصن بلاطنوس وحصن العيد وحصن الجماهرين فاتسعت المملكة الاسلامية بتلك الناحية ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة فوصل الى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد أخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر فملك قلعة بكاس بغير قتال وتقدم الى قلعة الشغر وهي و بكاس على الطريق السهل المسلوك الى اللاذقية وجبلة والبلاد التي افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الاسلامية فلما نازلها رآها منيعة حصينة لا ترام ولا يوصل اليها بطريق من الطرق الا أنه أمرهم بمزاحفتهم ونصب المنجنيق اليها ففعلوا ذلك ورموا بالمنجنيق فلم يصل من أحجاره الى القلعة شيء الا القليل الذي لا يؤذي فبقي المسلمون أياما لا يرون فيها طمعا وأهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرر يتطرق اليهم و بلاء ينزل عليهم فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة واعمال الحيلة في الوصول اليها فقال بعضهم هذا الحصن كما قال الله تعالى فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا فقال صلاح الدين أو يأتي الله بنصر من عنده وفتح فبيناهم في الحديث اذ أشرف عليهم افرنجي ونادى يطلب الامان لرسول يحضر عند صلاح الدين فأجيب الى ذلك ونزل رسول وسأل انتظارهم ثلاثة أيام فان جاءهم من يمنعهم والا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك فأجابهم اليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به فلما كان اليوم الثالث سلموها اليه وسبب استمهالهم أنهم أرسلوا الى صاحب انطاكية وكان

هذا الحصن له يعرفونه أنهم محصورون ويطلبون منه ان يرحل عنهم المسلمين والاسلموها وانما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله فى قلوبهم والا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل اليهم أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضا فلما تسلم صلاح الدين الحصن سلمه الى أمير يقال له قلج وأمره بعمارته ورحل عنه وكان قد سير ولده الظاهر غازي صاحب حلب الى سرمينية فحصرها وضيق على أهلها واستنزلهم على قطعة قدرها عليهم ثم هدم الحصن وعفى أثره وكان فى هذه الحصون من أسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة واتفق أن فتح هذه الحصون كلها فى ست جمع مع انها كانت فى أيدى أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين فسبحان من اذا أراد ان يسهل الصعب فعل وهى جميعها من أعمال انطاكية ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك وسيأتى ذكرها ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر فتح قلعة برزية ﴾

ولما رحل صلاح الدين من قلعة الشغر سار الى قلعة برزية وكان قد وصفت له وهى تقابل حصن افامية وتناصفها فى أعمالها وبينهما بحيرة تجمع من ماء العاصى وعيون تنفجر من جبل برزية وغيره وكان أهلها أضر شئ على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون فى الاذى فلما وصل اليها نزل شرقيها فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ثم ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعا يقاتلها منه فلم يجده الا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع وهذه القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتة فانها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين وأما الجانب الشرقى فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل لعلوه وصعوبته وأما جهة الغرب فان الوادى المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعا كثيرا حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام فنزله المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات ونصب أهل القلعة عليها منجنيقا أبطلها وكان ابن الاثير صاحب التاريخ مع صلاح الدين فى هذه الغزوة طالبا للجهاد قال ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة

لكنه لا يصل منه شيء اليها امرأة ترمى من القلعة عن المنجنيق وهى التى أبطلت منجنيق المسلمين فلما رأى صلاح الدين ان المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بمجموعه فقسم عسكره ثلاثة أقسام يزحف قسم فاذا تعبوا وكلوا عادوا و يزحف القسم الثانى فاذا تعبوا وضجروا عادوا و زحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج و ينصبوا فانه لم يكن عندهم من الكثرة ما ينقسمون كذلك فاذا تعبوا وأعيوا اسلموا القلعة فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدم أحد الاقسام و زحفوا وخرج الفرنج من حصنهم فقاتلهم و رماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات والجنوبات والطارقيات ومشوا اليهم حتى قربوا الى الجبل فلما قربوا من الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى وتسلط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة فانهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج الى أسفل الجبل فلا يقوم لها شىء فلما تعب هذا القسم انحدروا وصعد القسم الثانى وكانوا جلوسا ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاصة فقاتلوا قتالا شديدا وكان الزمان حرا شديدا فاشتد الكرب على الناس وصلاح الدين فى سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقى الدين ابن أخيه كذلك فقاتلوهم الى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم اليهم و بيده جماق يردهم وصاح فى القسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبين وساعدوا اخوانهم وزحفوا معهم فجاء الفرنج مالا قبل لهم به وكان القسم الاول قد استراحوا فقاموا أيضا معهم فحينئذ اشتد الامر على الفرنج (و بلغت القلوب الحناجر) وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحرب والقتال فخالطهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن فدخل المسلمون معهم وكان طائفة قليلة فى الخيام شرقى الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لانهم لم يروا فيه مقاتلا ولم يكثروا فى الجهة التى فيها صلاح الدين فصعدت تلك الطائفة من العسكر فلم يمنعهم مانع فصعدوا أيضا الحصن من الجهة

الاخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج فملكوا الحصن عنوة وقهرا ودخل الفرنج القلعة التى للحصن وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها وكان الفرنج قدر فعوا من عندهم من أسرى المسلمين الى سطح القلعة وأرجلهم فى القيود والخشب المثقوب فلما سمعوا تكبير المسلمين فى نواحى القلعة كبروا فى سطح القلعة وظن الفرنج ان المسلمين قد صعدوا أعلى السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم الى الاسر فملكها المسلمون عنوة ونهبوا ما فيها وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله وأمست خالية لا ديار بها وألقى المسلمون النار فى بعض بيوتهم فاحترقت قال ابن الاثير وأعجب ما يحكى من السلامة انى رأيت رجلا من المسلمين فى هذه الوقعة قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالى القلعة الى طائفة أخرى من المسلمين جنوبى القلعة وهو يعدو فى الجبل عرضا فألقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة فاسترجع الناس وجاء الحجر اليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر نابت فى الارض فوق موضع الرجل فضربه المصدر عن الارض وجاز الرجل ثم عاد الى الارض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر وقام الرجل حتى لحق بأصحابه فكان سقوطه سبب نجاته فتعست أم الجبان وأما صاحب برزية فانه أسر هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له ومعها زوجها فتفرقهم العسكر فأرسل صلاح الدين فى الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض فلما قارب انطاكية أطلقهم وسيرهم اليها وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة صاحب انطاكية وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرا عن الاحوال التى تؤثر فأطلق هؤلاء لأجلها ثم بعد فتح برزية رحل صلاح الدين من الغد فأتى جسر الحديد وهو على العاصى بالقرب من انطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف من عسكره

﴿ ذكر فتح دربساك ﴾

ثم سار عنه الى دربساك فنزل عليها ثامن رجب وهى من القلاع الحصينة التى

يدخرونها لحمايتهم عند نزول الشدائد فلما نزل عليها نصب المنجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فهدمت من سورها شيئا يسيرا فلم يبال من فيه بذلك فأمر بالزحف عليها ومهاجتها فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها وكشفوا الرجال عن سورها وتقدم النقابون فنقبوا منها برجا وعلقوه فسقط واتسع المكان الذى يريدان المقاتلة يدخلون منه وعادوا يومهم ذلك ثم باكروا الزحف من الغد وكان من فيه قد أرسلوا الى صاحب انطاكية يستنجدونه فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينتظرون جوابه اما بانجادهم وازاحة المسلمين عنهم واما بالتخلى عنهم ليقوم عذرهم فى التسليم فلما علموا عجزه عن نصرتهم وخافوا هجوم المسلمين عليهم وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم طلبوا الامان فأمنهم على شرط ان لا يخرج أحد الا بثيابه التى عليه بغير مال ولا سلاح ولا أثاث بيت ولا دابة ولا شيء مما بها ثم أخرجهم منه وسيرهم الى انطاكية وكان فتحه تاسع عشر رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة

﴿ ذكر فتح بغراس ﴾

ثم سار صلاح الدين عن دربساك الى قلعة بغراس فحصرها بعد أن اختلف أصحابه فى حصرها فمنهم من أشار به ومنهم من نهى عنه وقال هو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من انطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها ويحتاج أن يكون أكثر العسكر فى اليزك مقابل انطاكية فاذا كان الأمر كذلك قل المقاتلون عليها ويتعذر الوصول اليها فاستخار الله تعالى وسار اليها وجعل أكثر عسكره يزكا مقابلا انطاكية يغيرون على أعمالها وكانوا حذرين من الخوف من أهلها ان غفلوا لقربهم منها وصلاح الدين فى بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ونصب المنجنيقات فلم تؤثر فيها شيأ لعلوها وارتفاعها فغلب على الظنون تعذر فتحها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم الا أن صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء اليها فخفف الأمر عليهم فبينما هو على هذه الحال اذ قد فتح باب القلعة وخرج منه انسان يطلب الأمان فأجيب الى ذلك فأذن له فى الحضور فحضر وطلب الأمان لمن فى الحصن حتى يسلموه اليه بما فيه على قاعدة دربساك فأجابهم

الى ماطلبوا فعاد الرسول ومعه الاعلام الاسلامية فرفعت على رأس القلعة ونزل من فيها وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح وأمر صلاح الدين المسلمين بتخريبه فخرب ثم ندم على ذلك بعد لانه حصل منه بعد ذلك مضرة على المسلمين لان ابن اليون صاحب الارمن خرج اليه من ولايته وهو مجاوره فجدد عمارته وأتقنه وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد فتأذى منهم السواد الذى لحلب

﴿ ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب انطاكية ﴾

لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه الى انطاكية وحصرها فخاف صاحب انطاكية من ذلك وأشفق منه فأرسل الى صلاح الدين يطلب الهدنة وبذل اطلاق كل أسير عنده من المسلمين فاستشار صلاح الدين من عنده من أصحاب الاطراف وغيرهم فأشار أكثرهم باجابته الى ذلك ليعود الناس يقترعوا ويجددوا ما يحتاجون اليه فأجاب الى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر وسير رسوله الى صاحب انطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الاسرى وكان صاحب انطاكية فى ذلك الوقت أعظم الفرنج شأنا وأكثرهم ملكا فانه كان الفرنج قد سلموا اليه طرابلس بعد موت صاحبها وجميع أعمالها مضافا الى ما كان له فلما سلمت اليه طرابلس جعل ولده الأكبر فيها نائبا عنه وأما صلاح الدين فانه عاد الى حلب ثالث شعبان فدخلها وسار منها الى دمشق وفرق أكثر العساكر وكان مع صلاح الدين الأمير عز الدين أبو فليتة قاسم بن المهنا العلوى الحسينى وهو أمير مدينة النبى صلى الله عليه وسلم كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده وفتوحه وكان صلاح الدين قد تبرك برؤيته وتيمن بصحبته وكان يكرمه كثيرا وينبسط معه ويرجع الى قوله فى أعماله كلها ودخل دمشق أول شهر رمضان فأشير عليه بتفريق من بقى من العسكر فقال ان العمر قصير والاجل غير مأمون وقد بقى بيد الفرنج من الحصون الكرك وصفد وكوكب وغيرها ولابد من الفراغ منها فانها فى وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن شر أهلها وان أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم

﴿ ذكر فتح الكرك وما يجاوره ﴾

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكرا يحصره فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين وكان صلاح الدين قد جعله على قلعة الكرك في جمع من العسكر يحصرها ويكون مطلعا على هذه الناحية من البلاد لما أبعدهو الى درب سالك و بغراس فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة اليه و يطلبون الامان فأجابهم الى ذلك وأرسل الى مقدم العسكر الذي يحصرها فتسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضا مايقارب به من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الاسلام هناك جرانه وأمنت قلوب من في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره فانهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين

﴿ ذكر فتح قلعة صفد ﴾

لما وصل صلاح الدين الى دمشق وأشير عليه بتفريق من بقي من العسكر قال لأعد من الافرنج من صفد وكوكب وغيرها فأقام بدمشق الى منتصف رمضان وسار عن دمشق الى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمي اليها ليلا ونهارا بالحجارة والسهام وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم وأزوادهم أن تفني في المدة التي كانوا فيها محاصرين فان عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم فلما رأى أهله جد صلاح الدين في قتالهم خافوا أن يقيم الى أن يفني ما بقي معهم من أقواتهم وكانت قليلة و يأخذهم عنوة و يهلكهم أو انهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم فأرسلوا يطلبون الامان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنه وساروا الى مدينة صور وكفى الله المؤمنين شرهم فانهم كانوا في وسط البلاد الاسلامية

﴿ ذكر فتح كوكب ﴾

لما كان صلاح الدين يحاصر صفدا اجتمع من بصور من الافرنج وقالوا ان فتح المسلمون قلعة صفد لم يبق كوكب ولو انها معلقة بالكوكب وحينئذ ينقطع

طمعنا من هذا الطرف من البلاد فاتفق رأيهم على انفاذ نجدة لها سرا من رجال وسلاح وغير ذلك فاخرجوا مائتي رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين فاتفق من قدرة الله تعالى أن رجلا من المحاصرين بكوكب خرج متصيدا فلقي رجلا من تلك النجدة فاستغرب به بتلك الارض فضربه ليعلمه بحاله وما الذي أقدمه الى هناك فأقر بالحال ودله على أصحابه فعاد الجندي المسلم الى مقدم العسكر فأعلمه الخبر والفرنجي معه فركب في طائفة من العسكر الى الموضع الذي اختفى فيه الفرنج فكبسهم فأخذهم وتتبعهم في الشعاب والكهوف فلم يفلت منهم أحد فكان معهم مقدمان من فرسان الفرنج فحملوا الى صلاح الدين وهو على صفد فأحضرهما ليقتلهما فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما ما أظن أن ينالنا سوء وقد نظرنا الى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان يفعل فيه الاعتذار والاستعطاف فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا ولما فتح صفد سار عنها الى كوكب ونازلها وحاصرها وأرسل الى من بها من الفرنج يبذل لهم الامان ان سلموا ويتهددهم بالقتل والسبي والنهب ان امتنعوا فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع فجد في قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رمي الاحجار اليهم وزحف مرة بعد أخرى وكانت الامطار كثيرة لا تنقطع ليلا ولا نهارا فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذي يريدونه وطال مقامهم عليها وفي آخر الامر زحف اليها دفعات متناوبة في يوم واحد ووصلوا الى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والجروخ فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فنقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا الى السور الاعلى فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الامان فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف القعدة وسيرهم الى صور فوصلوا اليها واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدت شوكتهم وحميت جموعهم وتابعوا الرسل الى الفرنج الذين في أوربا والاندلس وصقلية وغيرها من جزائر البحر يستغيثون ويطلبون الامداد والنجدة وفي كل قليل تأتيهم وكان

ذلك كله بتفريط صلاح الدين فى اطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندما وأسفا حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حد أيلة الى أقصى أعمال بيروت لا يفصل بينه غير مدينة صور وجميع أعمال انطاكية سوى القصير ولما ملك صلاح الدين صفد وكوكب سار الى البيت المقدس فعيد فيه عيد الأضحى ثم سار منه الى عكا فأقام بها حتى انسلخت سنة ٥٨٤ ودخلت سنة ٥٨٥ وهى مسيحية سنة ١١٨٩ فى ربيع الاول من هذه السنة سار الى شقيف أرنوم وهى من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون فنزل صاحب الشقيف وهو أرناط صاحب صيدا وكان هذا أرناط من أعظم الناس دهاء ومكرا فدخل اليه واجتمع به وأظهر له الطاعة والمودة وقال له أنا محب لك ومعترف باحسانك وأخاف أن يعرف المركيس صاحب صور ما بينى وبينك فينال أولادى وأهلى منه أذى فانهم عنده فأحب أن تمهلنى حتى أتوصل فى تخليصهم من عنده وحينئذ أحضر أنا وهم عندك ونسلم الحصن اليك وأكون أنا وهم فى خدمتك نقنع بما تعطينا من اقطاع فظن صلاح الدين صدقه فأجابه الى ما سأل فاستقر الامر بينهما على أن يسلم الشقيف فى جمادى الآخرة وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين صاحب انطاكية فأمر تقى الدين ابن أخيه شاهنشاه أن يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتيه غيرهم ويكون مقابل انطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة وكان أيضا منزعج الخاطر كثير الهم لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بها من الامداد فى البحر وأن ملك الفرنج الذى كان أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس قد اصطلح هو وصاحب صور بعد اختلاف كان بينهما وانهما قد اجتمعا فى جمع لا يحصى وخرجوا من مدينة صور الى ظاهرها فكان هذا وأشباهه مما يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم الى صور وفيها الجموع المتوافرة فتنقطع الميرة عنه الا انه مع هذه الاشياء مقيم على العهد مع صاحب الشقيف فى مدة الهدنة يشترى الاقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما

يحصن به شقيفه وكان صلاح الدين يحسن الظن به واذا قيل له عنه ماهو فيه من المكر وان قصده المطاولة الى أن يظهر الفرنج من صور وحينئذ يبدى فضيحته ويظهر مخالفته لا يصدق فيه فلما قارب انقضاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره الى القرب من شقيف أرنوم وأحضر عنده أرناط صاحب الشقيف وقد بقى من الاجل ثلاثة أيام فقال له فى معنى تسليم الشقيف فاعتذر بأولاده وأهله وأن صاحب صور لم يمكنه من المجىء اليه وطلب التأخير مدة أخرى فحينئذ علم السلطان مكره وخداعه فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف فطلب قسيسا ذكره ليحمل رسالته الى من بالشقيف ليسلموه فأحضروه عنده فساره بما لم يعلموا فمضى ذلك القسيس الى الشقيف فأظهر أهله العصيان فأرسل صلاح الدين ارناط صاحب الشقيف الى دمشق وسجنه وتقدم الى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه من الذخيرة والرجالة وجاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم يزكا مقابل الفرنج على صور يخبرونه فيها أن الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذى لصور وعزموا على حصار صيدا فسار صلاح الدين جريدة فى شجعان أصحابه سوى من جعله على الشقيف فوصل اليهم وقد فات الامر وذلك ان الفرنج قد فارقوا صور وساروا عنه لمقصدهم فلقيهم اليزك على مضيق هنالك وقاتلوهم ومنعوهم وجرى لهم معهم حرب شديد يشيب لها الوليد وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة وقتل من المسلمين أيضا جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس فحمل وحده على صف الفرنج فاختلط بهم وضربهم بسيفه يمينا وشمالا فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله تعالى ثم ان الفرنج عجزوا عن الوصول الى صيدا فعادوا الى مكانهم ولما وصل صلاح الدين الى اليزك وقد فاتته الوقعة أقام عندهم فى خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم ويأخذ بثار من قتلوه من المسلمين فركب فى بعض الايام فى عدة يسيرة على أن ينظر الى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى ما يشاهده وظن من هنالك من غزاة العجم والعرب المتطوعة أنه على قصد المصاف فى الحرب فساروا مجدين وأوغلوا فى

أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخلفوا السلطان وراء ظهورهم وقاربوا الفرنج فأرسل صلاح الدين عدة من الامراء يردونهم ويحمونهم الى أن يخرجوا فلم يسمعوا ولم يقبلوا وكان الفرنج قد اعتقدوا أن وراءهم كمين فلم يقدموا عليهم فأرسلوا من ينظر حقيقة الامر فأتاهم الخبر انهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم ما يخاف فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد فقاتلوهم فلم يلبثوا أن أناموهم وقتل معهم جماعة من المعروفين وشق على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم وكان ذلك بتفريطهم فى حق أنفسهم رحمهم الله تعالى ورضى عنهم وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل اليهم فى عسكره فحملوا على الفرنج الى الجسر وقد أخذوا طريقهم فألقوا أنفسهم فى الماء فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل وعزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم فتسامع الناس فقصدوه واجتمع معه خلق كثير فلما رأى الفرنج ذلك عادوا الى مدينة صور فلما عادوا اليها عاد صلاح الدين الى تبنين ثم الى عكا ينظر حالها ثم الى المعسكر والمخيم ولما عاد صلاح الدين الى العسكر أتاه الخبر ان الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متعددين فكتب الى من بعكا من العسكر وواعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين ورتب كمينا فى موضع من تلك الاودية والشعاب واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم أنهم اذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيأ من قتال ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم فاذا تبعهم الفرنج استجروهم الى أن يجوزوا موضع الكمين ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم فخرجوا على هذه العزيمة فلما تراءى الجمعان والتقت الفئتان أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة وثبتوا فقاتلوا وصبر بعضهم لبعض واشتد القتال وعظم الامر ودامت الحرب وطال على الكمين الانتظار فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين اليهم قاصدين فأتوهم وهم فى شدة الحرب فازداد الامر شدة على شدته وكان منهم أربعة أمراء من ربيعة طى وكانوا يجهلون تلك الارض فلم يسلكوا مسلك

أصحابهم فسلكوا الوادى ظنا منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين فلما رآهم الفرنج بالوادى فعلموا أنهم جاهلون فأتوهم وقاتلوهم وأما المملوك فانه نزل عن فرسه وجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحمى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فجرح منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو بآخر رمق فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميتا ثم ان المسلمين جاؤا من الغد الى مواضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حيا فحملوه فى كساء وهو لا يكاد يعرف من الجراحات فأيسوا من حياته وعرضوا عليه الشهادة و بشروه بالشهادة فتركوه ثم عادوا اليه فرأوه وقد فوبت نفسه فأقبلوا عليه بشروب فعوفى ثم كان بعد ذلك لا يحضر مشهدا إلا كان له فيه الأثر العظيم

﴿ ذكر مسير الفرنج الى عكا ومحاصرتها ﴾

لما كثر جمع الفرنج بصور على ماذكرناه مع أن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان وسيرهم اليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ومن الاموال ما لا يفنى على كثرة الانفاق فى السنين الكثيرة ثم إن الرهبان والقسيسين وخلقا كثيرا من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم وأخذهم البطرك الذى كان بالقدس ودخل بهم بلاد الفرنج يطوف بهم جميعا ويستنجدون أهلها ويحثونهم على الاخذ بثار بيت المقدس وصوروا المسيح عليه السلام وجعلوا صورة رجل عربى والعربى يضربه وقد جعلوا الدماء فى صورة المسيح عليه السلام وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبى المسلمين وقد جرحه وقتله فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء فانهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزون الاقران ومن لم يستطع منهم الخروج بنفسه استأجر من يخرج عوضا عنه يعطيهم مالا على قدر حالهم فاجتمع لهم من الرجال والاموال ما لا يتطرق اليه الاحصاء حتى أن بعض الاسرى منهم حدث أن له والدة ليس لها ولد سواه وما كانت تملك من الدنيا غير بيت فباعته وجهزته بثمنه وسيرته لاستنقاذ بيت

المقدس فأخذ أسيرا فكان عند الفرنج من الباعث الدينى والنفسانى ماهـذا حده فخرجوا على الصعب والذلول براو بحرا من كل فج عميق وحاصروا عكا ثلاث سنين حتى ملكوها وكان ابتداء تجمعهم وسيرهم هذا المسير سنة ٥٨٥ وهى مسيحية سنة ١١٨٩ فنازلوا عكا منتصف رجب من السنة المذكورة والامداد تأتيهم فى كل وقت بالمال والرجال والمسلمون يقاتلونهم * وفى سنة ١١٩٠ مسيحية وهى سنة ٥٨٦ هجرية قامت لهم التجريدة الثالثة ونفروا نفرا عاما من بلاد أوروبا تحت راية فليب ملك فرنسا وفريد ملك جرمانيا وريكاردوس الأول ملك انكلترا الملقب بقلب الأسد وغيرهم من الامراء فنهضوا جميعا وقصدوا بلاد فلسطين بمائتى سفينة مشحونة بالعساكر والمهمات وعند وصولهم الى مدينة صور وهى الباقية بأيديهم تقدموا منها الى مدينة عكا وحاصروها مع من كان قبلهم محاصرها حتى تم عدد المحاصرين ستمائة ألف ولاقى المسلمين من حربهم أشد البلاء وكان ابتداء مسيرهم من صور ثامن رجب سنة ٥٨٥ يموج بعضهم فى بعض ومعهم الاموال العظيمة والبحر يمدهم بالاقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم ولزموا ساحل البحر فى سيرهم لا يفارقونه فى السهل والوعر والضيق والسعة ومراكبهم تسير مقابلهم فى البحر فيها سلاحهم وذخائرهم ولتكون عدة لهم ان جاءهم مالا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا * ولما كانوا سائرين كان يزك المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم ولما رحلوا جاء الخبر الى صلاح الدين برحيلهم فسار حتى قاربهم ثم جمع أمراءه واستشارهم هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون فى غير الطريق التى سلكوها فقالوا لاحاجة بنا الى احتمال المشقة فى مسايرتهم فان الطريق وعر وضيق ولا يتهيأ لنا ما نريده منهم والرأى أننا نسير فى الطريق الواسع ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم فعلم ميلهم الى الراحة المعجلة فوافقهم وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون وقالوا ان الفرنج اذا نزلوا لصقوا بالارض فلا يتهيأ لنا ازعاجهم ولا نيل الغرض منهم والرأى قتالهم قبل الوصول الى عكا فخالفوه فتبعهم وساروا على

طريق واسع فسبقهم الفرنج وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الامراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم فلم يقدم الفرنج عليه مع قلتهم فلو أن العساكر تبعت رأى صلاح الدين في مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا كان بلغ منهم غرضه وصدهم عنها ولكن اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه * ولما وصل صلاح الدين الى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر الى البحر من الجانب الآخر ولم يبق للمسلمين طريق الى عكا فنزل صلاح الدين عليهم وضرب خيمته على تل كيسان وامتدت ميمنته الى تل القياضية وميسرته الى النهر الجاري ونزلت الأثقال بصفورية وسير الكتب الى الاطراف باستدعاء العساكر فأتاه الناس من كل البلاد وكانت الامداد تأتي المسلمين في البر وتأتي الفرنج في البحر وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول اليهم ولا الى عكا حتى انسلخ رجب ثم قاتلهم مستهل شعبان فلم ينل منهم ما يريد وبات الناس على تعبية فلما كان الغد باكرهم بالقتال بحده وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة الى الظهر وصبر الفريقان صبرا حار له من رآه فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين ابن أخي صلاح الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقفهم فركب بعضهم بعضا لا يلوي أخ على أخ والتجؤا الى من يليهم من أصحابهم واجتمعوا بهم وأخلوا نصف البلد وملك تقي الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه واتصلت الطرق وزال الحصر عمن فيه وأدخل صلاح الدين اليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والاموال والسلاح وغير ذلك ولو أن المسلمين لزموا قتالهم الى الليل لبلغوا ما أرادوه فان للصدمة الاولى روعة لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا الى الراحة وتركوا القتال وقالوا نباكرهم غدا ونقطع دابرهم وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كثيرة

﴿ ذكر وقعة أخرى ﴾

ثم ان المسلمين نهضوا الى الفرنج من الغد وهو سادس شعبان عازمين على بذل

جهدهم واستنفاد وسعهم فى استئصالهم فتقدموا على تعبيتهم فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد ندموا على مافرط وافيه بالامس وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم وشرعوا فى حفر خندق يمنع عن الوصول اليهم فألح المسلمون عليهم فى القتال فلم يتقدم الفرنج اليهم ولا فارقوا مرابضهم فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم ثم ان جماعة من العرب بلغهم أن جماعة من الفرنج تخرج من الناحية الاخرى الى الاحتطاب وغيره من أشغالهم فكمنوا لهم فى معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان فلما خرج جمع الفرنج على عادتهم حمل عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كان معهم وحملوا الرؤس الى صلاح الدين فأحسن اليهم بالجوائز والخلع

﴿ ذكر الوقعة الكبرى على عكا ﴾

لما كان بعد هذه الواقعة المذكورة بقى المسلمون الى عشرين من شعبان كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه ثم ان الفرنج اجتمعوا للمشورة فقالوا ان عسكر مصر لم يحضروا والحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون اذا حضروا فالرأى اننا نلقى المسلمين غدا لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العسكر والامداد اليهم وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائبا عنه بعضهم مقابل انطاكية ليرد صاحبها عن أعمال حلب وبعضهم فى حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضا وعسكر فى مقابل صور لحماية ذلك البلد وعسكر بمصر يكونون بثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما والذى بقى من عسكر مصر لم يصلوا لطول بيكارهم فكان هذا مما أطمع الفرنج فى الظهور الى قتال المسلمين وأصبح المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم الى القتال ومنهم من هو فى خيمته ومنهم من قد توجه فى حاجة من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج اليه هو وأصحابه ودوابه الى غير ذلك فخرج الفرنج من معسكرهم كانهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الارض قد ملؤها طولا وعرضا وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين فلما رأى الفرنج نحوه قاصدين حذر هو وأصحابه فتقدموا اليه فلما قربوا منه تأخر فلما رأى صلاح الدين

الحال وهو فى القلب أمد تقى الدين برجال من عنده ليتقوى تقى الدين فلما رأى الفرنج قلة الرجال فى القلب وان كثيرا منهم قد سار نحو الميمنة مددا لهم عطفوا على القلب فحملوا حملة رجل واحد فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين وثبت بعضهم فاستشهد جماعة منهم ولم يبق بين أيديهم فى القلب من يردهم فقصدوا التل الذى عليه خيمة صلاح الدين فقتلوا من مروا به ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة وانحدروا الى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه ثم إن الفرنج نظروا الى ورائهم فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم فرجعوا خوفا أن ينقطعوا عن أصحابهم فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين الى خيمة صلاح الدين صادفوهم وهم راجعون وكان صلاح الدين لما انهزم القلب قد تبعهم يناديهم و يأمرهم بالكرة ومعاودة القتال فاجتمع منهم معه جماعة فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة فأخذتهم سيوف الله من كل جانب فلم يفلت منهم أحد وقتل أكثرهم وأخذ الباقون أسرى وكان عدة القتلى عشرة آلاف قتيل سوى من كان جانب البحر ثم أمر بالقتلى فألقوا فى النهر الذى يشرب منه الفرنج وكان من جملة الاسرى ثلاثة نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل ولولا أن العساكر تفرقت فى الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج الاستئصال والهلاك على أن الباقين بذلوا جهدهم وجدوا فى القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج فى معسكرهم لعلهم يفرغون منهم فجاء المسلمين الصريخ بأن رجالهم وأموالهم نهبت وكان سبب هذا أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب فسار بهم أوباش العسكر وغلمانه فنهبوه وأتوا عليه وكان فى عزم صلاح الدين أن يباكرهم القتال والزحف فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم وهم يسعون فى جمعها وتحصيلها فأمر بالنداء باحضار ما أخذ فأحضر منه ما ملأ الارض من المفارش والعيب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك فرد الجميع على أصحابه ففاته ذلك اليوم ما أراد فسكن روع الفرنج وأصلحوا شأن الباقين منهم

﴿ ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا ﴾

لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الارض من نتن ريحهم وفسد الهواء والجو ووجدت الامزجة فسادا وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح كان يعتاده فحضر عنده الأمراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوه له وقالوا قد ضيقنا على الفرنج ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا والرأى أننا نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود فان رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا وان أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم الى ما نحن فيه ثم ان مزاجك منحرف والالم شديد ولو وقع ارجاف لهلك الناس والرأى على كل تقدير البعد عنهم ووافقهم الاطباء على ذلك فاجابهم اليه لما يريد الله أن يفعله واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال فرحلوا الى الخروبة رابع شهر رمضان وأرسل لمن فى عكا من المسلمين يأمرهم بحفظها واغلاق أبوابها والاحتياط وأعلمهم بسبب رحيله فلما رحل هو وعساكره أمن الفرنج وانبسطوا فى تلك الارض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر الى البحر ومراكبهم أيضا فى البحر تحصرها وشرعوا فى حفر الخندق وعمل السور من التراب الذى يخرجونه من الخندق وجاؤا بما لم يكن فى الحساب وكان اليزك كل يوم يواقعهم وهم لا يقاتلون ولا يتحركون انما هم معتمدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين ان عاد الى قتالهم فحينئذ ظهر رأى المشيرين بالرحيل انه غير صواب وكان اليزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ويعظمون الأمر عليه وهو مشغول بالمرض لا يقدر على النهوض للحرب وأشار عليه بعضهم بان يرسل العساكر جميعها اليهم يمنعهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ويتخلف هو عنهم فقال اذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيأ وربما كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير فتأخر الأمر الى أن عوفى فتمكن الفرنج وعملوا ما أرادوا وأحكموا أمورهم وحصنوا أنفسهم بما وجدوا اليه السبيل وكان من بعكا يخرجون اليهم كل يوم ويقاتلونهم وينالون منهم بظاهر

البلد ولما برئ صلاح الدين من مرضه كان الشتاء قد دخل عكا فاقام بمكانه الى أن ذهب الشتاء وكان يزك وطلائعه لاتنقطع عن الفرنج وفى منتصف شوال وصلت اليه العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين فقويت نفوس الناس به وأحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والأقواس شيأ كثيرا ومعه من الرجالة الجم الغفير ووصل بعده الاسطول المصرى ومقدمه الامير لؤلؤة وكان شهما شجاعا مقداما خبيرا بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة ووقع فى طريقه على بطسة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها أموالا كثيرة وميرة عظيمة ودخلت سنة ست وثمانين فلما دخل صفر سمع الفرنج ان صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذى فى المعسكر عندهم قليلا وان الوحل الذى فى مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من أراد أن ينحدر الى اليزك فاغتنموا ذلك وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر فقاتلهم المسلمون وحموا نفوسهم بالنشاب وأحجم الفرنج عنهم حتى فنى نشاب المسلمين فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال وعظم الامر وعلم المسلمون أنه لاينجيهم الا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل الى أن جاء الليل وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وعاد الفرنج الى خندقهم ولما عاد صلاح الدين الى المعسكر سمع خبر الوقعة فندب الناس الى نصر اخوانهم فأتاه الخبر ان الفرنج عادوا الى خندقهم فاقام ثم انه رأى الشتاء قد ذهب وجاءته العساكر من البلاد القريبة منه دمشق وحمص وحماه وغيرها فتقدم من الخروبة نحو عكا فنزل تل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون

﴿ ذكر احراق الابراج ووقعة الاسطول ﴾

كان الفرنج فى مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدا طول كل برج منها فى السماء ستون ذراعا وعملوا كل برج منها خمس طبقات كل طبقة مملوءة من المقاتلة وغشوها بالجلود والخل والطين والادوية التى تمنع النار

من احراقها وأصلحوا الطرق لها وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات وزحفوا بها من العشرين فى ربيع الأول فأشرفت على السور وقاتل بها من عليه فانكشفوا وشرعوا فى طم خندق البلد فاشرف البلد على أن يملك عنوة وقهرا فأرسل أهل البلد الى صلاح الدين انسانا سبح فى البحر فأعلمه ما هم فيه من الضيق وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم فركب هو وعساكره وتقدم الى الفرنج وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما شغلهم عن مكاثرة البلد فافترق الفرنج فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل أهل عكا الا ان الأمر قد خف عمن بالبلد ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر وسئم الفريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلا ونهارا والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الابراج فانهم لم يتركوا حيلة الا عملوها فلم يفد ذلك ولم يغن عنهم شيأ وتابعوا رمى النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فأيقنوا بالبوار والهلاك فأتاهم الله بنصر من عنده وأذن فى احراق الابراج وكان سبب ذلك ان انسانا من أهل دمشق كان مولعا بجمع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم أباشرها بنفسى انما أشتهى معرفتها وكان بعكا لامر يريده الله فلما رأى الابراج قد نصبت على عكا شرع فى عمل ما يعرفه من الادوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شئ من الطين والخل وغيرهما فلما فرغ منها حضر عند الامير قراقوش وهو متولى الامور بعكا والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيقى أن يرمى فى المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الابراج ما أعطيه حتى أحرقه وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فازداد غيظا لقوله وحرد عليه فقال له قد بالغ أهل هذه الصناعة فى الرمى بالنفط وغيره فلم يفلحوا فقال له من حضر لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا أن نوافقه على قوله فأجابه الى ذلك وأمر المنجنيقى بامتثال أمره فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار فكان الفرنج اذا رأوا القدر لا يحرق شيأ يصيحون

و يرقصون و يلعبون على سطح البرج حتى علم ان الذى ألقاه قد تمكن من البرج والتصق به حتى اذا جاءته النار اشتعل سريعا ألقى قدرا مملوءة وجعل فيها النار فاشتعل البرج وألقى قدرا ثانية وثالثة فاضرمت النار فى نواحى البرج وأعجلت من فى طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيه وكان فيه من الزرديات والسلاح شئ كثير وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدور الاولى لا تعمل يحملهم على الطمأنينة وترك السعى فى الخلاص حتى عجل الله لهم النار فى الدنيا قبل الآخرة فلما احترق البرج الاول انتقل الى الثانى وقد هرب من فيه لخوفهم فاحرقه وكذلك الثالث وكان يوما مشهودا لم ير الناس مثله والمسلمون الذين مع صلاح الدين خارج البلد ينظرون و يفرحون وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحا بالنصر وخلاص المسلمين من القتل لانهم ليس فيهم أحد الا وله فى البلد اما نسيب واما صديق وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين فبذل له الاموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبة الفردة وقال انما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء الامنه وسيرت الكتب الى البلاد بالبشائر وأرسل صلاح الدين يطلب العساكر الشرقية فأول من أتاه صاحب سنجار بعساكره وديار الجزيرة ثم صاحب الموصل بعساكره ثم صاحب أربل بعساكره وكان كل منهم اذا وصل يتقدم الى الفرنج بعساكره و ينضم اليهم غيرهم و يقاتلونهم ثم ينزلون ووصل الاسطول من مصر فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا الى طريقه اسطولا يلقاه و يقاتله فركب صلاح الدين فى العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الاسطول ليتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا عن قصده بشئ فكان القتال بين الفريقين برا وبحرا وكان يوما مشهودا لم يؤرخ مثله وأخذ المسلمون من الفرنج مركبا فيه من الرجال والسلاح وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك الا أن القتل فى الفرنج كان أكثر منه فى المسلمين ووصل الاسطول الاسلامى سالما

﴿ ذكر وصول ملك الالمان الشام وموته ﴾

فى هذه السنة كان خروج ملك ألمان من بلاده والالمان نوع من الفرنج من أكثرهم عددا وأشدهم بأسا وكان قد أزعجه تملك المسلمين بيت المقدس فجمع عساكره وأزاح عللهم وسار عن بلاده وكان طريقه على القسطنطينية وكان ملك القسطنطينية عقد صلحا مع صلاح الدين وصار يكاتبه ويظهر له المودة فأرسل ملك الروم لصلاح الدين يخبره بقدوم ملك الالمان ويعده انه لا يمكنه من العبور فى بلاده فلما وصل ملك الالمان الى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه لكنه منع عنهم الميرة ولم يمكن أحدا من رعيته من حمل ما يريدونه اليهم فضاقت بهم الازواد والاقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية وساروا على بلاد الاسلام وهى مملكة الملك قلج أرسلان السلجوقى وكان من ملوك الاسلام فلما وصلوا الى أوائلها سار بهم المسلمون فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويأخذون ما قدروا عليه من أموالهم وكان الزمان شتاء والبرد فى تلك البلاد شديد والثلج متراكم فأهلكهم البرد والجوع والقتل والاخذ فلما قاربوا مدينة قونية خرج اليهم الملك قطب الدين بن قلج أرسلان السلجوقى ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد الى قونية فساروا حتى بلغوا انطاكية وكانوا نيفا وأربعين ألفا ووقع فيهم مرض ووباء فمات كثير منهم ودخل ملكهم فى نهر ليغتسل فغرق فجعلوا ابنه ملكا عليهم بدله ثم ساروا حتى وصلوا الى عكا فلما رأوا ما نالهم من المشقات أراد كثير منهم العود الى بلادهم فركبوا فى مراكب غرقت بهم ولم يبق منهم الا القليل ولما بلغ صلاح الدين اقبالهم استشار أصحابه فأشار كثير منهم عليه بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا فقال بل نقيم الى أن يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستلم من بعكا من عساكرنا لكنه سير بعض عساكره الى أعمال حلب ليكونوا من أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم وكان حال المسلمين كما قال الله تعالى اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون

بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * لكن كفى الله شرهم وأقل عددهم بما أصابهم من العوارض والبلايا فى طريقهم

﴿ ذكر واقعة للمسلمين والفرنج على عكا ﴾

وفى هذه السنة أعنى سنة ٥٨٦ فى العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم وتقدموا الى المسلمين وقصدوا نحو عسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أخو صلاح الدين فركب المصريون واصطفوا للقاء الفرنج فاقتتلوا اقتتالا شديدا فانحاز المصريون عنهم ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم فكر المصريون ورجعوا عاطفين عليهم فقاتلوهم من وسط خيامهم فأخرجوهم عنها وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا وكانوا متصلين كالنمل فلما انقطعت أمدادهم ألقوا بأيديهم وأخذتهم السيوف من كل ناحية فلم ينج منهم الا الشريد وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل ولما جرت عليهم هذه الحادثة خمدت جمرتهم ولانت عريكتهم فلما كان بعد يومين أتتهم أمداد فى البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له الكند هنرى ابن أخى ملك فرانسا لأبيه وابن أخى ملك انكلترا لأمه ووصل معه من الاموال شئ كثير يفوته الاحصاء فلما وصل جند الاجناد وبذل الاموال فعادت نفوسهم قوية واطمأنت وأخبرهم أن الامداد واصلة اليهم يتلو بعضها بعضا فتماسكوا وحفظوا اماكنهم ثم أظهروا أنهم يريدون الخروج الى لقاء المسلمين وقتالهم وكانت منزلة المسلمين قد أنتنت بريح القتلى فاختاروا الانتقال الى موضع يتسع فيه المجال فانتقلوا من مكانهم الى الخروبة فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة ثم ان الكند هنرى نصب منجنيقا ودبابات وعرادات للتوصل الى دخول عكا فخرج من بعكا من المسلمين فأخذوها وقتلوا عندها كثيرا من الفرنج ثم ان الكند هنرى بعد أخذ منجنيقاته أراد أن ينصب منجنيقا آخر فلم يتمكن من ذلك لان المسلمين الذين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمى من المنجنيق فعمل تلا من تراب بالبعد

من البلد فكان الفرنج ينقلون التل الى القرب من البعد بالتدريج ويستترون به فلما قرب الى البلد وصار بحيث يصل من عنده حجر المنجنيق نصبوا من ورائه منجنيقين وصار التل سترة لهما وكانت الميرة قد قلت بعكا فأرسل صلاح الدين الى الاسكندرية يأمرهم بانفاذ الاقوات واللحوم وغير ذلك فى المراكب الى عكا فتأخر انفاذها فسير الى نائبه بمدينة بيروت فى ذلك فسير بطسة عظيمة مملوءة من كل ما يريدونه وأمر من بها فلبسوا ملبس الفرنج وتشبهوا بهم فرفعوا عليها الصلبان فلما وصلوا الى عكا لم يشك الفرنج أنها لهم فلم يتعرضوا لها فلما حاذت مينا عكا أدخلها من بها ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقويت نفوسهم الى أن أتتهم الميرة من الاسكندرية وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر فى نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحى الاسكندرية وأخذ من معها ثم ان الفرنج وصلهم كتاب من البابا وهو كبيرهم الذى يصدرون عن أمره وكان قوله عندهم كقول النبيين لا يخالف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه وهو صاحب رومة الكبرى يأمرهم فى كتابه بملازمة ماهم بصدده ويعلمهم أنه قد أرسل الى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير الى نجدتهم برا وبحرا ويعلمه بوصول الامداد اليهم فازدادوا قوة وطمعا

﴿ ذكر خروج الفرنج من خنادقهم ﴾

لما تتابعت الامداد الى الفرنج وجند لهم الكندهرى جمعا كثيرا بالاموال التى وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها وخرجوا حادى عشر شوال من السنة المذكورة فى عدد كالرمل كثرة وكالنار جمرة فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين الى معيون وهو على ثلاثة فراسخ على عكا ولقى الفرنج على تعبية حسنة وكان أولاده الافضل على والظاهر غازى والظافر مما يلى القلب وأخوه العادل أبو بكر فى الميمنة ومعه عساكر مصر ومن انضم اليه وكان فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماه ومعز الدين صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه واتفق ان صلاح الدين أخذه مغص كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على

تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر اليهم فسار الفرنج شرقي نهر هناك حتى وصلوا الى رأس النهر فشاهدوا عساكر الاسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس فلما رأوا ذلك تحولوا الى غربي النهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضا وكان غرض الجالشية ان تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا أماكنهم وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخندقهم والجالشية في أكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم ولولا ذلك الالم الذي حدث بصلاح الدين لكانت هي الفصل ولله في كل شيء حكمة وله أمر هو بالغه ولا راد لما أراد فلما بلغ الفرنج خندقهم ولم يكن لهم بعدها ظهور زمنه عاد المسلمون الى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقا كثيرا وفي الثالث والعشرين من شوال أيضا كمن جماعة من المسلمين وتعرض جماعة أخرى من المسلمين للفرنج فخرج اليهم أربعمائة فارس فقاتلهم المسلمون شيأ من قتال وتطاردوا لهم وتبعهم الفرنج حتى جاوزوا الكمين فخرج من كان في الكمين من المسلمين عليهم فقتلوهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صوري فصبروا على هذا ولما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لانها لم تكن من المينا فسيروها الى صور لأنها كانت بأيديهم فانفتح الطريق الى عكا في البحر للمسلمين فأرسل أهلها الى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين فأمر صلاح الدين باقامة البدل وانفاذه اليها واخراج من فيها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم اليها وأخرج عوضهم فدخل اليها عشرون أميرا فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة

الى الذين خرجوا وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وانفاذهم فتفرق خلق كثير فانحسر الشتاء والأمر كذلك وعادت مراكب الفرنج الى عكا وانقطع الطريق الامن ساع يأتى بكتاب ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

﴿ ذكر وصول فليب ملك الفرنسيس ثم ملك انكلترا ﴾

فى هذه السنة أعنى سنة ٥٨٧ ثانى عشر ربيع الاول وصلت أمداد الافرنج فى البحر الى الفرنج الذين على عكا وكان أول من وصل منهم الملك فليب ملك الفرنسيس ومعه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوسهم وكان صلاح الدين يركب كل يوم ويقصد الفرنج يشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد وأرسل الى مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشوانى والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها فى البحر ليمنع الفرنج من وصول شئ من شوانيهم الى عكا ففعل ذلك صاحب بيروت وسير الشوانى فى البحر فصادفت خمسة مراكب للفرنج مملوءة رجالا من أصحاب ملك انكلترا الملقب بقلب الأسد المسمى دريكاردوس الاول وكان قد سيرهم بين يديه وتأخرهو بجزيرة قبرس ليملكها من ملك الروم لانها كانت بأيديهم فاقتتلت شوانى المسلمين مع مراكب انكلترا فغلبهم المسلمون واستظهروا عليهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وأما الفرنج الذين على عكا فانهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من موضعه الذى كان فيه ونزل قريبا من خنادق الفرنج مقابله لئلا يتعب العسكر كل يوم فى المجىء اليهم والعود عنهم فقرب منهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خنادقهم فكانوا يشتغلون بقتاله فيخف القتال عمن بالبلد ثم وصل ملك انكلترا ثالث عشر جمادى الاولى من السنة المذكورة سنة ٥٨٧ بعد ان استولى فى طريقه على جزيرة قبرس وأخذها بالمكر والخديعة من الروم فانه لما وصل اليها غدر بصاحبها وملكها فكان ذلك زيادة فى ملكهم وقوة للفرنج فلما فرغ منها سار عنها الى من بعكا من الفرنج فوصل اليهم فى خمس وعشرين قطعة كبار مملوءة

رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجلدا وصبرا وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها ولما وردت الاخبار بقدومه أمر صلاح الدين بتجهيز بطسة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والاقوات فتجهزت وسيرت من بيروت وفيها سبعمائة مقاتل فلقيها ملك انكلترا مصادفة فقاتلها وصبر من فيها على قتاله فلما أيسوا من الخلاص نزل مقدم من بها فخرقها خرقا واسعا لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع ما فيها وكانت عكا محتاجة الى رجال ثم ان الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج أن ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيرا من التراب مستطيلا وما زالوا يقربونه الى البلد ويقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف غلوة فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع ولا منع

﴿ ذكر ملك الفرنج عكا ﴾

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ سبع وثمانين وخمسمائة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا وكان أول وهن دخل على من في عكا أن الامير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الامراء كان هو أمثلهم وأكبرهم فخرج الى ملك الفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحوق بسلطانهم فلم يجبه الى ذلك فعاد علي بن أحمد الى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم ثم ان أميرين ممن كان بعكا لما رأيا ما فعلوا بالمشطوب وان الفرنج لم يجيبوا الى الامان اتخذوا الليل جملا وركبا في شيء صغير وخرجا سرا من أصحابهم ولحقا بعسكر المسلمين وخرج معهما جماعة فلما أصبح الناس وعلموا ذلك ازدادوا وهنا الى وهنهم وضعفا الى ضعفهم وأيقنوا بالعطب ثم ان الفرنج أرسلوا

لى صلاح الدين فى معنى تسليم البلد فأجابهم الى ذلك واشترط أن يطلق من أسراهم بعدد من فى البلد ليطلقوا هم من بعكا وان يسلم اليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فأرسل الى من بعكا من المسلمين ان يخرجوا من عكا يدا واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم أنه يتقدم الى تلك الجهة التى يخرجون منها بعسا كره فشرعوا فى ذلك واشتغلوا باستصحاب ما يملكونه فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما عزموا عليه من استصحاب ما يملكونه لظهوره فلما عجز الناس عن حفظ البلد وزحف اليهم الفرنج بحدهم وحديدهم فظهر من بالبلد على السور يحركون أعلامهم ليراها المسلمون الذين فى خارج البلد وكانت هى العلامة اذا اخترمهم أمر فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلبا منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو فى أولهم وكان الفرنج زحفوا عن خنادقهم ومالوا الى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا فى مقابلة من فى البلد من يقاتلهم فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضرا خرج الى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتى ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فأجابوه الى ذلك وحلفوا له عليه وأن يكون مدة تحصيله المال والاسرى الى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد اليهم ودخلوه سلما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل اليهم ما بذل لهم وراسلوا صلاح الدين فى إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع فى جمع المال فلما اجتمع عنده مائة ألف دينار جمع الامراء واستشارهم فأشاروا عليه بأن لا يرسل شيأ حتى يعاود يستحلفهم على اطلاق أصحابه وأن يضمن الداوية ذلك والداوية طائفة من الفرنج كان لهم

وفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية لا نحلف ولا نضمن لأنا نخاف غدر من عندنا وقال ملوك الفرنج اذا اسلمتم الينا المال والاسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيأ وأعاد الرسالة اليهم وقال نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصليب ونعطيكم رهنا على الباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء له فقالوا لا نحلف إنما ترسل الينا المائة ألف دينار التي حصلت والاسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد عندنا حتى يجئ باقي المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وانما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والاكراد ومن لا يعبأ به ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الاموال ويطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان الى ذلك فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا الى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون اليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم واذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف وهم خلق كثير واستبقوا الامراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه وسير الأسرى والصليب الى الشام وكان ملك الفرنسيس قد توجه قبل ذلك الى صور لترتيب أموره وبقي في عكا ملك انكلترا الى أن تم استيلاؤه عليها وغدر بالمسلمين وفعل بهم ما تقدم وارتحل الى عسقلان في عشر شعبان واستمرت عكا بأيديهم بعد استيلائهم عليها وبقيت عندهم مائة سنة وثلاثين الى سنة ستمائة وتسعين فافتتحها وانتزعها منهم السلطان الملك الاشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور قلاوون وسيأتي انه سار اليها بجيوشه وعساكره ونصب عليها المجانيق العظيمة وقاتله عليها أشد القتال الى أن ملكها وقتل من فيها من الفرنج وغنم منها أموالا لا تحصى وكان نزوله عليها في أوائل جمادى الاولى من السنة المذكورة أعني سنة ٦٩٠ وفتحها يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة * ومن

عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستولوا على من بها ثم قتلوهم فقدر الله عز وجل فى سابق علمه أنها تفتح فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة على يد صلاح الدين بن قلاوون فكان فتوحها فى مثل الشهر الذى ملكها فيه الفرنج وفى مثل اليوم الذى ملكوها فيه من الشهر ولقب السلطان الذى فتحها مثل لقب السلطان الذى أخذت منه اذ كل منهما يلقب صلاح الدين ولله فى كل شئ حكمة وكل شئ عنده بمقدار لا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص لاراد لما قضاه وقدره ثم فتح السلطان صلاح الدين قلاوون بقية البلدان التى كانت بيد الفرنج من أرض الشام وقطع دابرهم وطهرت أرض الشام وسواحلها منهم فلله الحمد على ذلك

﴿ ذكر رحيل الفرنج الى ناحية عسقلان ﴾

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من اصلاح أمر عكا رحلوا مستهل شعبان قاصدين عسقلان وكان توجههم من جهة حيفا مع شاطئ البر لا يفارقونه ومراكبهم تسايرهم فى البحر محاذية لهم فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى فى عسكره بالرحيل فساروا فضايقوا الفرنج فى مسيرهم وأرسلوا اليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة فلما وصل الفرنج حيفا نزلوا بها ونزل المسلمون قريبا منهم ثم ساروا الى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويقتلون من قدروا عليه منهم فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلا كثيرا ونزل الفرنج بها ونزل المسلمون قريبا منهم ولما نزلوا قيسارية خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم فأوقع بهم المسلمون فقتلوا منهم وأسروا ثم ساروا من قيسارية الى أرسوف وكان المسلمون قد سبقوهم اليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق فلما وصل الفرنج اليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة فألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فقتلوا كثيرا منهم فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة منهم على المسلمين حملة رجل واحد

فولوا منهزمين لا يلوى أحد على أحد والتجأ المنهزمون الى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج أنها هزيمة تبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون لكن كان بالقرب من المسلمين قطعة كثيرة الشجر فدخلها المسلمون فظن الفرنج أنها مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق ثم سار الفرنج الى يافا ولم يكن بها أحد من المسلمين فلكوها ثم سار صلاح الدين الى الرملة وجمع الامراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا قد رأيت ما كان منا بالامس واذا جاء الفرنج عسقلان ووقفنا فى وجوههم نصدهم عنها فهم لا شك يقاتلوننا فنزاح عنها وينزلون عليها فاذا كان ذلك عدنا الى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الامر علينا لان العدو قد قوى بأخذ عكا وما فيها من الاسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا ولم تطل المدة حتى نستدعيه هافلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس الى دخولها وحفظها فلم يجب أحد الى ذلك وقالوا إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار والا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا فلما رأى الأمر كذلك سار الى عسقلان وأمر بتخريبها فخربت تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة سنة ٥٨٧ وألقيت حجارتها فى البحر وهلك فيها من الاموال والذخائر التى للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره وعفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج فى قصدها مطمع ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا اليها وكان المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى لما كان بعكا أحس من ملك انكلترا الغدر به لبهلكه فمنه صور فهرب من عنده الى صور فحصنها وكان رجل الفرنج شجاعة ورأيا وكل هذه الحروب هو الذى أثارها فلما خربت عسقلان أرسل ملك انكلترا يقول له مثلك لا ينبغى أن يكون ملكا و يتقدم على الجيوش تسمع ان صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك انه قد شرع فى تخريبها كنت سرت اليه مجدا فرحلته وملكتها صفوا عفوا بغير قتال ولا حصار فانه ما خربها الا وهو عاجز عن حفظها وحق المسيح لو اننى معك كانت عسقلان بأيدينا

اليوم لم يخرب منها غير برج واحد وقد عمر الفرنج عسقلان فى المحرم سنة ٥٨٨ وملكوها ثم ان صلاح الدين لما خرب عسقلان مضى الى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد ثم سار صلاح الدين الى القدس وحصنها واعتبر مافيه من ذخائر وسلاح وقرر قواعده وأسبابه ومايحتاج اليه وعاد الى المخيم ثامن رمضان وفى مدة اقامة الفرنج بيافا خرج ملك انكلترا من معسكره ومعه نفر من عسكره فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالا شديدا وكاد ملك انكلترا يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل وفيها أيضا وقعت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج كان النصر فيها للمسلمين

﴿ ذكر رحيل الفرنج الى نطرون ﴾

لما رأى صلاح الدين ان الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها وشرعوا فى عمارتها رحل من منزلته الى نطرون ثالث عشر رمضان وخيم بها فراسله ملك انكلترا يطلب المهادنة فكانت الرسل تتردد الى الملك العادل أخى صلاح الدين فاستقرت القاعدة ان ملك انكلترا يزوج أخته من الملك العادل ويكون القدس ومابايدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل وتكون عكا ومابأيدى الفرنج من البلاد لاخت ملك انكلترا مضافا الى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها الاول فعرض العادل ذلك على أخيه صلاح الدين فاجاب الى ذلك فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان الى أخت ملك انكلترا وأنكروا عليها ذلك فامتنعت من الاجابة وكان الملك العادل فى مدة الخوض فى الصلح يجتمع فى بعض الاوقات مع ملك انكلترا ويتذاكران حديث الصلح وطلب من الملك العادل مرة أن يسمعه غناء المسلمين فاحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له فاستحسن ذلك ثم ان الصلح لم يتم بينهما لما امتنعت أخت ملك انكلترا ثم تبين أن ملك انجلترا كان يفعل ذلك خديعة ومكرا ثم ان الفرنج أظهروا العزم على قصد بيت المقدس فسار صلاح الدين الى الرملة ومعه العسكر وترك الاثقال فى نطرون وقرب من الفرنج وبقى عشرين يوما ينتظرهم فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين

مدة المقام عدة وقعات ينتصر فيها المسلمون على الفرنج وعاد صلاح الدين الى نطرون ورحل الفرنج من يافا الى الرملة ثالث ذى القعدة على عزم قصد بيت المقدس فقرب بعضهم من بعض وعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت فى العسكرين فلقوا من ذلك شدة شديدة وأقبل الشتاء وحالت الاحوال والأمطار بينهما

﴿ ذكر مسير صلاح الدين الى القدس ﴾

لما رأى صلاح الدين ان الشتاء قد هجم والامطار متتابعة والناس فيها فى ضنك وحرج ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر فى تعب دائم وكان كثير من العسكر قد طال عليهم البيكار فأذن لهم فى العبور الى بلادهم للاستراحة وسار هو الى بيت المقدس فيمن بقى معه فنزلوا جميعا داخل البلد وقدم اليه عسكر من مصر فقويت نفوس المسلمين بالقدس وسار الفرنج من نطرون ثالث ذى الحجة على قصد بيت المقدس فكانت بينهم وبين يزك المسلمين وقعات أسر المسلمون فى وقعة منها نيفا وخمسين فارسا من مشهورى الفرنج وشجعانهم وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره وتجديد مارث منه فأحكم الموضع الذى تملك البلد منه وأتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصل وسلم كل برج لامير يتولى عمله ثم ان الحجارة قلت عند العاملين فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل بنفسه على دابته من الا مكنة البعيدة فيقتدى به الأمراء والعسكر فكان يجتمع من العاملين فى اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام ثم ان الفرنج رجعوا الى الرملة فى العشرين من ذى الحجة وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل فلما بعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم ثم ان ملك انجلترا قال لمن معه من الفرنج الشاميين صوروا الى مدينة القدس فانى ما رأيتها فصوروها له فرأى الوادى يحيط بها ما عدا موضعا يسيرا من جهة الشمال فسأل عن الوادى وعن عمقه فأخبروه أنه عميق وعر المسلك فقال هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حيا وكلمة المسلمين مجتمعة لاننا ان نزلنا فى الجانب الذى يلى المدينة

بقيت سائر الجوانب غير محصورة فيدخل اليهم منها الرجال الذخائر وما يحتاجون اليه وان نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادى و بعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه و واقع احدى الطائفتين ولم يتمكن للطائفة الأخرى انجاد أصحابهم لانهم ان فارقوا مكانهم خرج من بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه وان تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم فالى أن يتخلصوا من الوادى ويلحقوا بهم قد فرغ صلاح الدين منهم هذا سوى ما يتعذر علينا من ايصال ما نحتاج اليه من العلوفات والأقوات فلما قال لهم ذلك علموا صدقه و رأوا قلة الميرة عندهم وما يجرى للجالبين لها من المسلمين فأشاروا عليه بالعود الى الرملة فعادوا خائبين خاسرين ثم دخلت سنة ٥٨٨ ثمان وثمانين وخمسمائة فعمر الفرنج عسقلان كما تقدم وجرى بينهم و بين المسلمين حين عمارتها قتال شديد وعدة وقائع فكان المسلمون تارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع عليهم الميرة وأخذوا منهم قوافل كبيرة وفى شهر ربيع من هذه السنة جعل صلاح الدين للباطنيين من الاسماعيلية عشرة آلاف دينار ان قتلوا ملك انكلترا أو المركيس صاحب صور فتمكنا من قتل المركيس صاحب صور فقتلاه ثم فتملك صور الكندى هنرى وتقدم أنه ابن أخت ملك الفرنسيس وابن أخت ملك انكلترا الامه وفى تاسع جمادى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ثم ساروا الى بيت المقدس وصلاح الدين فيه وكان سبب طمعهم ان صلاح الدين فرق كثيرا من عساكره لاجل الشتاء ليستريحوا فظنوا أنهم ينالون غرضهم فلما سمع صلاح الدين بقربهم منه فرق أبراج البلد على الامراء وسار الى الفرنج وكانوا على فرسخين من القدس فصب عليهم البلاء وتابع ارسال السرايا فعلموا أنهم اذا نازلوا القدس كان الشر اليهم أسرع والتسلط عليهم أمكن فرجعوا القهقرى وركب المسلمون أكتافهم بالرماح والسهام ولما بعد الفرنج عن يافا سير صلاح الدين سرية من عسكره اليها فقاربوها وكمنوا عندها فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم وقتلوا منهم واسروا

وغنموا وكان ذلك آخر جمادى الأولى وفى تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج خروج قفل كبير من مصر فسار الفرنج اليهم وأخذوا بعض القفل بنواحى الخليل وسلم البعض ثم ان الفرنج أيقنوا انهم لا طاقة لهم بالمسلمين اذا فارقوا البحر و بعدوا عنه فرجعوا الى عكا وأقاموا بها فلما علم صلاح الدين بذلك جمع العساكر وسار الى مدينة يافا وكانت بيد الفرنج فنازلها وقاتل من بها الى ان ملكها بالسيف عنوة فى عشرين من رجب وغنم ما فيها وقتل كثيرا وأسر كثيرا وكان بها أكثر الأموال التى غنموها من قفل مصر وتحصن من بقى من الفرنج بالقلعة فحاصرهم فجاءتهم نجدة من عكا ومعها ملك انكلترا فأخرج من بيافا من المسلمين وتتابع اليه المدد من عكا و برز الى ظاهر المدينة واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم اليه أحد فوقف بين الصفين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل وأكل ثم رجع الى يافا

﴿ ذكر الهدنة مع الفرنج ﴾

فى العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت هدنة بين المسلمين والفرنج لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وسببها ان ملك انكلترا لما رأى اجتماع العساكر وانه لا يمكنه مفارقته ساحل البحر وليس بالساحل بلد للمسلمين يطمع فيه وقد طالت غيبته عن بلاده فأرسل الى صلاح الدين فى الصلح فلم يجبه صلاح الدين بل طلب منه المصاف والحرب فاعاد الفرنجى رسله مرة بعد أخرى وأرسل الى الملك العادل أخى صلاح الدين فى تقرير الهدنة فأشار هو وجماعة من الأمراء بالاجابة الى الصلح وعرفوا صلاح الدين ما عند العساكر من الضجر والملل وما قد هلك من أسلحتهم ودوابهم ونفد من نفقاتهم وقالوا ان هذا الفرنجى انما طلب الصلح ليركب البحر و يعود الى بلاده فان تأخرت اجابته الى أن يجئ الشتاء و ينقطع الركوب فى البحر نحتاج الى البقاء هنا سنة أخرى فيعظم الضرر على المسلمين وأكثروا القول فى هذا المعنى فأجاب صلاح الدين حينئذ الى الصلح فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وتحالفوا على هذه القاعدة وكان فى جملة من حضر عند صلاح الدين من الفرنج باليان بن بارزان الذى كان صاحب الرملة ونابلس ومن

جملة ما قال لصلاح الدين ما عمل أحد فى الاسلام مثل ما عملت ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة فاننا أحصينا من خرج الينا فى البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف مقاتل ما عاد منهم الى بلادهم من كل عشرة واحد بعضهم قتلته أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق ولما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج فى زيارة بيت المقدس فزاروه وعادت كل طائفة الى بلادها ورجع ملك انكلترا الى بلاده وأقام بالساحل الشامى ملكا على الفرنج وعلى البلاد التى بأيديهم الكندهنرى وصار صلاح الدين الى القدس وصام به رمضان ثم سار الى دمشق فى شوال وفرح الناس به لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الاسلام وكانت هذه الهدنة من لطف الله بالمسلمين لأن الله لما علم قرب وفاة صلاح الدين قدر وقوع هذه الهدنة لانه لو توفى صلاح الدين فى مدة الحرب لازداد طمع الفرنج فى بلاد الاسلام وانتشر شرهم ولربما أنه لا يوجد بعده ما يقوم مقامه * وكانت وفاة صلاح الدين بدمشق فى السابع والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٩ تسع وثمانين وخمسمائة بعد أن مرض أياما وكان رحمه الله عالما صالحا حليما حسن الاخلاق متواضعا صبورا كثير المحاسن والافعال الجميلة عظيم الجهاد فى الكفار وفتوحاته تدل على ذلك وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة ولم يخلف دارا ولا عقارا ولم يوجد فى خزانته غير سبعة وأربعين درهما ودينار واحد صورى وكانت ولادته سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة فكان عمره قريبا من سبع وخمسين سنة وكان مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة وملكه الشام قريبا من تسع عشرة سنة وكان رحمه الله مشغوفا بالانفاق فى سبيل الله تعالى فكان اذا عقر أو جرح لاحد من العسكر فرس فى سبيل الله يعوضه مثله ويزيده فى عطائه وحسبوا ما وهبه من الخيل للحاضرين معه فى الجهاد فى مدة ثلاث سنين فكان اثنى عشر ألف رأس وكان كريما شديد الكرم كثير البذل للاموال لاسيما المجاهدين ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب لانسان من المجاهدين أو موعود بهبته وصاحبه ملازم فى طلبه وما حضر للقتال الا واستعار

فرسا يقاتل عليه فاذا نزل عنه جاء صاحبه وأخذه وكانت مجالسه حافلة بأهل العلم والدين والفضل يحب مناظرة العلماء بين يديه ويشاركهم فى المناظرة أحسن مشاركة فى المسائل الغامضة حتى صار لمداومة مجالسته للعلماء أعرف منهم بالاحكام الفرعية والادلة الشرعية وكان كثير الاكرام للعلماء متواضعا لهم مواظبا على الفرائض الخمس لم يؤخر صلاة عن وقتها ولا صلى الا فى جماعة وكان متوكلا على الله لا يفضل فى عزمه يوما على يوم وكان كثير التغافل عن سيآت خدمه وأتباعه وزلاتهم يسمع ما يكره ولا يتأثر به ولا يخبر بخطيئة من أخطأ منهم حتى ان بعض مماليكه رمى بعضا آخر بسرموزة فأخطأته ووقعت قريبا من السلطان وكادت تصيبه فالتفت الى الجهة الأخرى تغافلا عنها وصار يكلم من بجانبه وكان طاهر المجلس طاهر اللسان قال العماد الكاتب مات بموته الرجال وفات بفواته الافضال وغاضت الايادى وفاضت الأعادى وانقطعت الارزاق وادلهمت الآفاق وفجع الزمان ورزىء الاسلام وكانت مجالسه كلها مجالس الآخرة لانها اما فى اقامة عدل ينشره أو جهاد يجهز له أو سماع الاحاديث النبوية أو بر يوليه أو احسان يوصله الى ذوى الحاجات وأرباب الضرورات الى غير ذلك من أنواع البر وأبواب القربات مع ما انطوى عليه من السجايا الجليلة والاخلاق الطاهرة والحياء الذى لا مزيد عليه والسخاء الذى لا يلحق فيه وكان يهب الجزيل ولا يراه بل يرى الفضل لآخذه وكان دائم البشر والبشاشة لا يرد سائلا ولا يصد نائلا ولا يخجل قائلا ولا يخيب آملا سأل مرة بعض الأمراء عن تخلفه عن غزوة تخلف عنها فقد كر دينا عليه فاحضر الغرماء وتحمل الدين عن ذلك الامير وكان ذلك الدين اثنى عشر ألف دينار وكان كل مماليكه وخواصه وجميع أمرائه وأجناده يقتدون به فى أخلاقه وكرمه وحسن سجاياه فكانوا أعف من الزهاد وأكثر عبادة من العباد قال العماد الكاتب ورأى لى يوما دواة محلاة بشىء يسير من الفضة فانكرها فقلت له ان الامام أبا محمد الجوينى ذكر وجها فى جواز مثل ذلك فقال لى لا تتبع الرخص فلم أكتب بها بعد ذلك وكان

كثير الاوراد والاذكار وتلاوة القرآن أوقاته كلها مستغرقة بالعبادة علما وعملا قلبا وقالبا قد هجر لذة الدنيا وزينتها وأخرج من قلبه محبتها وبهجتها فكان كالاسير فى هذه الدار لا يؤمل بفك الاسر عنه الا فى دار القرار وكان لشدة حبه لسماع الحديث النبوى على قائله أفضل الصلاة والسلام يسمعها بين الصفين وسبب ذلك أنه قيل له انك يا مولانا سمعت الحديث فى جميع المواطن الشريفة الا بين الصفين حين القتال فأحضر جزأ من أجزاء الحديث وقرىء عليه هو وجنوده على ظهور الخيل بين الصفين يمشون تارة ويقفون أخرى والرؤس تندر والرؤس تقصر وواظب على ملازمة ذلك وتكراره فى كثير من مواقفه وكان ذلك من أسباب النصر العظيم والفتح المبين وكان رحمه الله شجاعا من أعظم الشجعان قوى النفس والقلب شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر حتى كان يقابل بالجمع القليل من جنده الجيوش الكثيرة من الفرنج مع ان نجدتهم كانت أيضا متواصلة وعساكرهم متواترة وهو مع ذلك لا يزداد الا قوة نفس وصبر ولقد وصل فى ليلة واحدة من الفرنج ما يزيد على سبعين مركبا عند محاربة عكا وصار بعض أتباعه يعدون تلك المراكب من بعد العصر الى غروب الشمس وكلها كانت مشحونة بعساكر الفرنج ويخبرونه بها وهو مع ذلك لا يزداد الا قوة نفس وشجاعة وشهامة قال القاضى ابن شداد ولما انعقد الصلح سألت بعض ملوك الفرنج وهو جالس بين يدى السلطان يوم انقطاع الصلح عن عدتهم فقال خمسمائة ألف قلت فكم هلك منكم فقال أما بالقتل فقريب من مائة ألف وأما بالموت والغرق فكثير لا نعلم عددهم وما رجع الى بلادهم الا القليل وكان رحمه الله اذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ويخرق صفوف العساكر من الميمنة والميسرة ويأمرهم بالتقدم تارة والوقوف تارة فى مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاورهم ليدبر الامر على ما يقتضيه الحال وكان رحمه الله كامل المعرفة بتدبير الحرب ومكايده وما استعظم عدوه قط ولا استكثره لشدة توكله على الله تعالى وقوة وثوقه به وكان رحمه الله تعتريه أمراض فى أيام منازلته للعدو فكان شديد الصبر

ولا يخل المرض بشيء مما يلزمه واعتراه أيام محاربة عكا دماميل كثيرة من وسطه الى ركبتيه بحيث انه لا يستطيع الجلوس فكان لم يزل متكئا على جنبيه وهو فى الخيمة وامتنع من الجلوس على الطعام مع من كان يجلس معهم لعجزه عن الجلوس فكان يأمر بالطعام أن يفرق بين الناس وهو مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى الظهر يطوف على الاطراف و يدبر أمر جيوشه صابرا على شدة الالم وقوة ضربان الدماميل فكانوا يتعجبون من شدة صبره فكان يقول لهم اذا ركبت يزول عنى ألمها حتى أنزل وهذه كرامة عظيمة أكرمه الله تعالى بها وكان رحمه الله اذا جاء الشتاء يعطى الجيش دستورا فيتفرقون ويبقى هو فى طائفة يسيرة من جنده فى مقابلة العدو أكثر ممن معه بأضعاف مضاعفة وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الله شديد القيام على المبتدعة والفلاسفة لا تأخذه فى الله لومة لائم وكان حسن العشرة نظيف الاخلاق جميل المحاضرة طيب المفاكهة حافظا لانساب العرب ووقائعهم عارفا بسيرهم وأحوالهم عالما بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث ان محاضره يستفيد منه ما لا يسمعه من غيره * ومن محاسن أخلاقه مع خدمه انه طلب الماء مرة فلم يحضر وعاود الطلب فى مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر فقال يا أصحابنا قد قتلنى العطش فأحضر الماء فشرب به ولم ينكر التوانى فى احضاره وكان مرة قد مرض مرضا شديدا أرجف عليه بالموت فلما برئ منه أدخل الحمام فكان الماء حارا فطلب ماء باردا فأحضره الذى يخدمه فسقط من الماء شيء على الارض فناله منه شيء فتألم له لضعفه ثم طلب البارد أيضا فأحضر فلما قارب به سقطت الطاسة على الارض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على أن قال للغلام ان كنت تريد قتلى فعرفنى فاعتذر اليه فسكت عنه * ومن كرمه أنه أخرج فى مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال وأما العين والثياب والسلاح فانه لا يدخل تحت الحصر ويكفى دليلا على كرمه انه لما مات لم يخلف فى خزائنه غير دينار واحد صورى وأربعين درهما ناصرية مع ان أولاده الذين خلفهم كانوا سبعة عشر ولدا وبنتا فلم يبال

بكونه لم يترك لهم مالا يرثونه بعده ولا خلف دارا ولا عقارا ولا ضيعة ولا بستانا
وذلك لشدة زهده فى الدنيا وقوة وثوقه بالله تعالى وتوكله عليه ولما انقضت دولة
العبيديين بمصر واستولى هو على مصر أخذ من ذخائرهم من سائر الانواع ما
يفوت الاحصاء ففرقه جميعه ولم يأخذ لنفسه شيأ ومن تواضعه رحمه الله أنه لم يتكبر
على أحد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين وكان يحضر عنده الفقراء
الصوفية ويعمل لهم السماع المعروف عند الصوفية فاذا قام أحدهم لتواجد يقوم
له فلا يقعد حتى يفرغ ذلك الفقير ولم يلبس قط شيأ مما ينكره الشرع ولما مرض
مرض الموت حضر عنده ليلة من تلك الليالى القاضى الفاضل وكان القاضى
الفاضل أعظم وزرائه وحضر أيضا بعض أولاده والعماد الكاتب قال العماد
فأجلسناه وأسندنا ظهره الى مخدة وأحضر ماء فاتر اليشرب به عقيب شراب يلين
الطبع فشرب به فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حره فغير وعرض عليه
ثانيا فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات سبحان الله
لا يمكن أحدا تعديل الماء قال العماد فخرجت أنا والقاضى الفاضل من عنده وقد
اشتدمنا البكاء لما شاهدناه من مرضه والقاضى الفاضل يقول انظر الى هذه
الأخلاق التى قد أشرف المسلمون على مفارقتها والله لو أن هذا بعض الناس كان
ضرب بالقدح رأس من أحضره وكان رحمه الله له امام راتب ملازم مواظب فان
غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم اذا عرفه متقيا متجنبا للاثم وكان يأخذ
بالشرع ويعطى به ولم يكن الى المنجم مصغيا ولم يزل لقوله ملغيا لا يتعيف ولا يتطير
ولا يتعين ولا يتصير بل اذا عزم توكل على الله فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على
زمان الا بتفضيل الشرع وما زال ناصرا للتوحيد وقامعا جميع أهل البدع
بالتبديد شافعى المذهب أصولا وفروعا معتقلا له معقولا ومسموعا يدنى أهل
التنزيه ويقصى أهل التشبيه وبديم استفادة فقه الفقيه واستفادة نباهة النبيه
ووجاهة الوجيه فالعالمون فى عدله والعالمون فى نصه والبلاد فى أمنه والعباد فى منه
وكان رحمه الله حسن العقيدة وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين

النيسابوري عقيدة تجمع جميع معتقد أهل السنة والجماعة فحفظها وكان يحفظها الصغار من أولاده وكان من القائمين بالليل للتهجد وكان يحب سماع القرآن العظيم ويشترط على من يتخذه اماما أن يكون عالما بعلوم القرآن العظيم متقنا لحفظه وكان رحمه الله خاشع القلب سريع الدمعة اذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمع عينه وكان شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الا في الجهاد لصدق وبر في يمينه ولقد هجر في محبة الجهاد الاهل والاولاد والوطن والمسكن وسائر الملاذ وقنع من الدنيا في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ذات ريح وكادت تقتله لما وقعت عليه ولا يزيده ذلك الا رغبة ومسابرة واهتماما ومناقبه رحمه الله كثيرة قد أفردت بالتأليف اللهم اجعل مقره جنات النعيم وأقر عينه بالنظر الى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين اجمع بيننا وبينه في دار كرامتك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهو مع ما جمع الله فيه من الصفات حسنة من حسنات السلطان محمود نور الدين بن زنكي فان السلطان محمود نور الدين هو الذي أقامه حتى صار من الكاملين ومن عباد الله المقربين (وقد) تقدم الوعد بذكر ترجمة للسلطان نور الدين المذكور عند ذكر وفاته سنة خمسمائة وتسع وستين وترجمته واسعة أفردت بالتأليف ولنذكر نبذة منها لعلنا ننال ببركة السلطانين أنواع التشريف وقد تقدم ان السلطان نور الدين هو ابن عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر كان جده آق سنقر من مماليك السلطان ملك شاه السلجوقي ولاه الولايات الجليلة ثم بعده ابنه عماد الدين زنكي ولي كثيرا من الولايات وفتح أعظم الفتوحات ثم صار الامر بعده لولده السلطان محمود نور الدين فكان له ولاية حلب والموصل وغيرهما من الممالك ففتح كثيرا من البلاد التي استولى عليها النصارى وبعث السلطان صلاح الدين الى مصر فانتزعها من أيدي العبيديين فما ذكروه في ترجمة السلطان نور الدين انه كان عالما فقيها على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه عابدا ورعا زاهدا فمن زهده

وورعه أنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا فى الذى يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت اليه زوجته الضيق فأعطاها ثلاثة دكاكين فى حمص كانت له يحصل له منها فى السنة نحو عشرين دينارا فاستقلتها فقال ليس لى الا هذا وجميع ما بيدى أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لاجلك وكان يصلى كثيرا بالليل وله فيه أوراد حسنة وكان كما قيل

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما أحسن المحراب فى المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه وسمع الحديث واسمعه طلبا للاجر من الله تعالى وأما عدله فانه لم يترك فى ممالكه على سعتها مكسا ولا عشورا بل أبطلها جميعها فى مصر والشام والجزيرة والموصل وكان الولاة قبله قد جاروا فى ذلك غاية الجور حتى وصلوا الى أنهم يأخذون فى المائة خمسة وأربعين فأبطل ذلك كله فبارك الله له فى الغنائم وفتح له الفتوحات حتى انتزع هو والسلطان صلاح الدين كثيرا من الممالك الشامية وغيرها من أيدى النصارى وكانوا قد استولوا عليها قريبا من مائة سنة وقد تقدم بيان ذلك بالاختصار وكان رحمه الله يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها وله فى ذلك أخبار عجيبة فمن ذلك أن بعض رعيته ادّعى عليه بدعوى غير صحيحة ولا ثابتة وشكاه على القاضى الذى أقامه هو لتنفيذ الاحكام الشرعية فاستدعاه القاضى فحضر مجلس الحكم وقال للقاضى انى قد جئت محاكما فاسلك معى مثل ما تسلكه مع غيرى وساوى خصمه فى المجلس وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال اشهدوا أنى قد وهبت لخصمى هذا كل الذى حاكمنى فيه وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندى وانما حضرت معه لئلا يظن أنى ظلمته فحيث ظهر أن الحق لى وهبته له وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان وهى درجة وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الازمنة وتفرق الكلمة والا فقد انقاد الى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر بن

الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ومن عدله انه لم يكن يعاقب العقوبة التى يعاقب بها الملوك فى هذه الاعصار على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم فان قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما كان يوجد فى غير ولايته وكان للسلطان نور الدين شيخ يحبه ويعتقده يقال له الشيخ عمر الملا ولقب بأمره بالملا لان الشيخ عمر المذكور كان يملى تنانير الجص بأجرة يتقوت منها فكان لا يأكل الا من كسب يده وذلك حلال وكان نازلا بالموصل وكان السلطان نور الدين يرسل اليه من حلب من يأتيه منه بشئ يفطر عليه فى رمضان يكون حلالا فكان الشيخ عمر الملا يرسل للسلطان نور الدين أكياسا فيها الفتيت والرقاق فكان نور الدين يفطر عليه وكان اذا قدم السلطان نور الدين الموصل لا يأكل الا من طعام الشيخ عمر الملا ويقبل قوله ويعمل باشارته ويأمر عماله بالموصل والجزيرة ان يعملوا بقول الشيخ عمر ويقبلوا اشارته لعلمه وصلاحه وديانته وورعه فاتفق أنه كثر الدعار وأرباب الفساد بالموصل والجزيرة فحضر العمال والنواب عند الشيخ عمر الملا وقالوا له انه قد كثر الدعار وأرباب الفساد ولا يستقيم الامر الا بشئ من السياسة كالقتل والصلب واذا أخذ مال انسان فى البرية من يجيء يشهد له فلو كتبت الى السلطان نور الدين أن يأذن لنا فى شئ من السياسة فوافقهم الشيخ عمر الملا وكتب للسلطان نور الدين يسأله فى أن يأذن لهم فى شئ من السياسة التى يمنع بها الدعار وأهل الفساد وقال اذا أخذ مال انسان فى البرية من يجيء يشهد له فقلب السلطان نور الدين كتابه وكتب له على ظهره ان الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم وأن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه كامل فيها ولو علم أن الشريعة تحتاج الى زيادة لاتمام المصلحة لشرعه فما لنا حاجة الى زيادة على ما شرعه الله تعالى فلما وصل الكتاب الى الشيخ عمر الملا جمع أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال انظروا الى كتاب الزاهد الى الملك وكتاب الملك الى الزاهد فعرفوا أن ما قاله السلطان نور الدين هو الصواب وان

الصلاح انما يكون بالعمل بالشريعة وكان السبب فى اسقاطه المكوسات ان زبره موفق الدين خالد بن القيسرانى رأى فى منامه انه يغسل ثيابه فقص ذلك عليه ففكر ساعة ثم أمر بكتابة اسقاط المكوسات وقال هذا تفسير منامك وكان فى تهجده يقول ارحم العشار المكاس وبعد أن أبطل ذلك طلب من الناس الذين أخذت منهم قبل ذلك أن يجعلوه فى حل وقال والله ما أخرجناها الا فى جهاد عدو الاسلام يعتذر بذلك اليهم عن أخذها منهم وكان رحمه الله لا يفعل شيأ من الاعمال الا بنية صالحة من ذلك أنه كان يخرج بالعساكر ويجرون الخيل فى صورة اللعب ويريد بذلك تمرين الخيل والعسكر على الكر والفر فكتب اليه الشيخ عمر ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة بينة فكتب اليه نور الدين والله ما يحملنى على ذلك اللهو واللعب وانما نحن فى ثغر والعدو قريب منا وبينما نحن جلوس اذ يقع صوت فنركب فى الطلب ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا اذ لا بد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على ادمان السير فى الطلب ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها فى الحرب فهذا والله الذى بعثنى على ذلك قال ابن الاثير فانظر الى هذا الملك العظيم العديم النظير الذى يقل فى أصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله فان من يجىء الى اللعب بنية صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات يقل فى العالم مثله وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيأ الا بنية صالحة وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين بعلمهم وكان رحمه الله كثير المطالعة للكتب الدينية متبعا للآثار النبوية مواظبا على الصلوات فى الجماعات عاكفا على قراءة القرآن حريصا على فعل الخير عفيف البطن والفرج مقتصدا فى الانفاق متحريا فى المطاعم والملابس لم تسمع منه كلمة فحش فى رضاه ولا فى ضجره وأشهى ما اليه كلمة حق يسمعها أو ارشاد الى سنة يتبعها قال ابن الاثير قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى زمننا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين

ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها واحسان يوليه وانعام يسديه فلو كان فى أمة لافتخرت به أما زهده وعبادته وعلمه فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين واذا أراد أخذ شيء من الاموال المرصدة لمصالح المسلمين أحضر الفقهاء واستفتاهم فى أخذ ما يحل له من ذلك فيأخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده الى غيره ألبتة ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ومنع من شرب الخمر و بيعها فى جميع بلاده ومن ادخالها الى بلد ما وكان يحد شاربها الحد الشرعى وكل الناس عنده فيه سواء وكان يصلى فيطيل الصلاة وله أوراد فى النهار فاذا جاء الليل وصلى العشاء ينام و يستيقظ نصف الليل و يقوم الى الوضوء والصلاة الى بكرة فيظهر و يشتغل بمهمات الدولة ومصالح المسلمين وأرسلت له زوجته تخبره بأن النفقة قلت عليها ولم يكفها ما كان قرره لها وطلبت منه الزيادة فتنكر واحمر وجهه وقال للرسول من أين أعطيها ما يكفيها والله لا أخوض النار فى هواها ان كانت تظن أن الذى بيدى من الاموال لى فبئس الظن انما هى أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق ان كان من عدو الاسلام وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ثم قال للرسول لى بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها اياها فلتأخذها وكان يحصل منها قدر قليل وذلك نحو عشرين دينارا وحكى أنه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده فوصفت له فلم يلتفت اليها وبينما هم معه فى حديثها اذ جاءه رجل صوفى فأمر له بها فقيل انها لا تصلح لهذا الرجل ولو أعطى غيرها كان أنفع له فقال اعطوها له ليبيعها و ينتفع بثمنها فانى أرجو أن أعوض عنها فى الآخرة فسلمت الى ذلك الصوفى فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة وقيل باعها فى همدان بألف دينار وكان الملوك قبله كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا حتى جاء الله

بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه وألزم بذلك أتباعه وذويه فاقتدى به عماله ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فان قال قائل كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى اليه الأموال الكثيرة فليذكر نبي الله سليمان عليه السلام فانه مع ملكه كان سيد الزاهدين فى زمانه ونبينا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام الى العراق وهو على الحقيقة سيد الزاهدين من جميع العالمين وانما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا * وأما عدله فانه كان أحسن الملوك سيرة وأعدلهم حكما فمن عدله أنه لم يترك فى بلد من بلاده ضريبة ولا مكسا ولا عشرا بل أطلقها رحمه الله جميعها فى بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه وكان المكس فى مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا وهذا لم تتسع له نفس غيره وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان القوى والضعيف عنده فى الحق سواء وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ولا يكل ذلك الى حاجب ولا أمير فلاجرم سار ذكره فى شرق الارض وغربها ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول نحن مضرون لها نمضى أوامرها حتى أنه دخل يوما الى خزانة المال فرأى فيها مالا أنكره فسأل عنه فقيل له ان القاضى كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا فقال ان هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال فى هذه الجهة شيء وأمر برده واعادته الى كمال الدين ليرده على صاحبه فأرسله متولى الخزانة الى كمال الدين فرده كمال الدين الى الخزانة وقال اذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عنى انه له فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب وقال ألم أقل لكم يعاد هذا المال الى أصحابه فذكروا له قول كمال الدين فرده اليه وقال للرسول قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال وأما أنا فرقبتى دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدى الله تعالى يعاد قولا واحدا * ومن عدله أيضا بعد موته وهو من أعجب ما يحكى أن إنسانا كان بدمشق غريبا

استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله تعالى فلما توفى تعدى بعض الاجناد على هذا الرجل فشكا فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكى وقد شق ثوبه وهو يقول يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصى وكلهم يبكى ويصيح فوصل الخبر الى صلاح الدين فقيل له احفظ البلد والرعية والا خرج عن يدك فأرسل الى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين والناس معه وطيب قلبه وأزاح ظلامته ووهبه شيأ أنصفه فبكى أشد من بكائه الأول فقال له صلاح الدين لم تبكى قال أبكى على سلطان عدل فينا بعد موته فقال صلاح الدين هذا هو الحق وكل ماترى فينا من عدل فنه تعلمناه ومن عدل نور الدين رحمه الله أنه بنى دارا للكشف سماها دار العدل فكان يجلس فيها لفصل الخصومات فى الاسبوع يومين وعنده القاضى والفقهاء وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية اليه فيهما فانه أصبر الناس فى الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا وأجودهم معرفة بأمور الاجناد وأحوالهم وبه كان يضرب المثل فى ذلك وكان الناس يقولون انهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كأنما خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل وكان اذا حضر الحرب أخذ قوسين وترسين وباشر القتال بنفسه وكان يقول طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابورى الفقيه الشافعى وهو يقول ذلك فقال له بالله لا تخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فانك عمادهم ولئن أصبت والعياذ بالله تعالى فى معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف وأخذت البلاد فقال له يا قطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا قبلى من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذى لا إله إلا هو وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى وأكثر ما ملكه من بلادهم بحسن تدبيره فى اعمال الحيل عليهم ومن جيد الرأى ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن فانه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله فى خدمته سفرا وحضرا وكان يقاتل به الافرنج وكان يقول إنما حملنى على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك وقلاعه منيعة

وليس لنا طريق اليها وهو يخرج منها اذا أراد فينال من بلاد الاسلام فاذا طلب انحجز فيها فلا يقدر عليه فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيأ من الاقطاع على سبيل التألف حتى أجاب الى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج * ولما توفى نور الدين وملك غيره وغير هذا الطريق ملك متولى الارمن بعد مليح كثيرا من بلاد الاسلام وحصونهم وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه وكان رحمه الله يكرم العلماء ويكثر الاحسان اليهم ويبالغ فى تعظيمهم حتى انه اذا دخل عليه الفقيه أو الصوفى أو الفقير يقوم له ويمشى بين يديه ويجلسه الى جانبه كأنه أقرب الناس اليه مع أنه كان له هيبة عظيمة فى قلوب الملوك والامراء وما كان أحد من الامراء يقدر أن يجلس فى مجلسه إلا بعد الاذن له فى ذلك وكان يكاتب العلماء بخط يده وينبسط معهم ولا يرد لهم قولا واذا أعطى أحدا من العلماء أو الفقراء شيأ يقول ان هؤلاء لهم فى بيت المال حق فاذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا وكان مجلسه كما روى فى صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حلم وحياء لا تنتهك فيه الحرم ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشاورة فى أمر الجهاد وقصد بلاد العدو لا يتعدى هذا وقد حضر الحافظ ابن عساكر مجلس صلاح الدين لما ملك دمشق فرأى فيه من اللغط وسوء الادب من الجالسين فيه مالا حدله فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدثين وقلة استماعه فقام وبقى مدة لا يحضر المجلس الصلاحى وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه فقال نزهت نفسى عن مجلسك فانى رأيته كبعض مجالس السوقة لا يستمع فيه إلى قائل ولا يرد فيه جواب متكلم وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل كأنما على رؤسنا الطير تعلوه الهيبة والوقار فاذا تكلم أنصتنا واذا تكلمنا استمع لنا فأمر صلاح الدين أصحابه أن لا يكون منهم ما جرت به عادتهم اذا حضر الحافظ ابن عساكر قال ابن الأثير فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله تعالى مضبوطة محفوظة وأما حفظ أصول الديانات فانه كان مراعيا لها لا يهملها

ولا يمكن أحدا من الناس من اظهار ما يخالف الحق ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته وكان يبالغ فى ذلك ويقول نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الاصل وحكى أن انسانا بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر النسك والزهد وقد كثر أتباعه وأظهر شيأ من التشبيه فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حمارا وأمر بصفعه فطيف به فى البلد جميعه ونودى عليه هذا جزاء من أظهر فى الدين البدع ثم نفاه الى حران فأقام بها الى أن مات وكان لنور الدين رحمه الله مجالس يقرأ فيها كتب الحديث مع جماعة من العلماء فمر به يوما أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج متقلدا سيفه وكان من عادة الجند أنهم يربطون سيوفهم بأوساطهم فلما سمع هذا الحديث أبطل ما كان عليه الجند وخرج من غد ذلك اليوم متقلدا سيفه فاقتدى به الجند وفعلوا مثل ما فعله فهذا يدل على أنه لم يفرط فى الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى كل سنة تبلغه عنه وأمر رحمه الله باسقاط ألقابه فى الدعاء له على المنبر وطلب من ابن القيسرانى أن يكتب له صورة ما ينبغى أن يدعى له به فكتب له اذا أراد الخطيب أن يدعو له يقول اللهم أصلح عبدك الفقير الى رحمتك الخاضع لهيبتك المعتصم بقوتك المجاهد فى سبيلك المرابط لاعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه مقصودى أن لا يكذب على المنبر انا نخل بكل ما يقال لا أفرح بما لا أعمل وكتب فى آخر الرقعة ثم تبدأ بالدعاء اللهم أره الحق اللهم أسعده اللهم انصره اللهم وفقه من هذا الجنس ودخل فى أيام نور الدين الى حلب تاجر موسر فمات بها وخلف ولدا صغيرا ومالا كثيرا فكتب بعض من كان بحلب الى نور الدين يذكر له أنه مات تاجر موسر وخلف ولدا صغيرا وخلف عشرين ألف دينار وحسن له أن يرفع المال الى الخزانة وينفق على الصغير شيأ يسيرا ويمسك الباقى الى الخزانة فكتب على رقعته أما الميت فرحمه الله وأما الولد فأنشأه الله وأما المال فثمره الله وأما الساعى فلعنه الله وكفى السلطان نور الدين منقبة ما

ذكره العلامة السيد السمهودي في تاريخ المدينة المسمى خلاصة الوفا في أخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم أن السلطان المذكور رأى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة يا محمود أنقذني من هذين الشخصين وهما شخصان أشقران تجاهه فاستحضر وزيره قبل الصبح فذكر ذلك له فقال هذا أمر حدث بالمدينة النبوية ليس له غيرك فتجهز بمقدار ألف راحلة وما يتبعها وسار حتى دخل المدينة على حين غفلة من أهلها ثم أمر بكتابة أسماء الناس ليتصدق عليهم وتصدق بأموال كثيرة ولا يعطي كل انسان الا بيده لينظر اليه رجاء أن يرى الشخصين الاشقرين اللذين أراه إياهما النبي صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق أحد ولم يشاهد فيمن حضر عنده الشخصين الاشقرين فسأل هل بقي أحد فقالوا لم يبق الا رجلان مجاوران من أهل الاندلس نازلان في الرباط الذي في قبلة حجرة النبي صلى الله عليه وسلم فجدوا في طلبهما حتى أحضرا وهما فلما رآهما قال للوزير هما هذان فسألهما عن حالهما فقالا جئنا للمجاورة فقال لهما أصدقاني وعاقبهما حتى أقرا أنهما من النصارى وأنهما وصلا لكي ينقلا من بالحجرة الشريفة باتفاق من ملوكهما ووجدهما قد حفرا الارض من تحت حائط المسجد القبلي لجهة الحجرة الشريفة ويجعلان التراب في بئر في الرباط وقيل كانا يجعلان التراب في محفظتيهما ويخرجان يلقيانه في الخارج فضرب أعناقهما عند الشباك الذي هو شرقي الحجرة خارج المسجد ثم أحرقهما بالنار وحفر خندقا حوالي الحجرة الشريفة وسكب فيه الرصاص والنحاس المذاب واستحفظه غاية الاستحفاظ ثم ركب السلطان نور الدين راجعا الى الشام وكان السلطان محمود المذكور موصوفا بكثير من الصفات الحميدة وقد اتسع ملكه وخطب له بالشام ومصر والحرمين واليمن ويذكرون اسمه بعد ذكر الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي وترجمته واسعة قد أفردت بالتأليف وفي هذا القدر كفاية وانما ذكرنا ترجمته وترجمة السلطان صلاح الدين لغرابة وجودهما في الزمن الذي كثر فيه جور الملوك والسلاطين ليعلم أنهما فتحا البلاد وانتزعاها من النصارى بالعدل

لا اسرافاً في بيت المال وليعلم أيضاً أن الخلفاء الراشدين انما فتحوا البلاد بالعدل في بيت المال وقد ذكر كثير من العلماء أن الدعاء مستجاب عند قبر السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين اللهم اجعل مقرهما جنات النعيم وأقر أعينهما بالنظر الى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين واجمع بيننا وبينهما في دار كرامتك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين اهـ (ولنرجع) الى تمام الكلام على ما كنا بصدده من ذكر الفتوحات فنقول بعد وفاة السلطان صلاح الدين وقع اختلاف كثير بين أولاده ليس هذا محل ذكره وصار ملكه مقسما بين أولاده وأخيه الملك العادل ثم تغلب أخوه عليهم فمنهم من انتزع الملك منه ومنهم من مات في ملكه ثم صفا الامر لاخيه فقسم الممالك بين أولاده كما سيأتي ذكره ولما مات صلاح الدين كان ملك مصر لولده الملك العزيز عثمان فجدد الهدنة من الفرنج وزاد في مدة الهدنة واستمر الامر الى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وكان الملك الافضل علي بن صلاح الدين ملك دمشق بعد وفاة أبيه فانتزعها منه أخوه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وجعل فيها عمه الملك العادل وأعطى الافضل صرخد وكان بمدينة بيروت أمير يعرف بأسامة فكان يرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج فاشتكى الفرنج من ذلك الى الملك العادل أخي صلاح الدين وكان بدمشق والى الملك العزيز بمصر فلم يمنعا أسامة من ذلك فأرسل الفرنج الى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون اليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون ان لم تنجدونا والا أخذ المسلمون البلاد فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة سنة ٥٩٣ وكان أكثرهم من ملك ألمان فلما سمع الملك العادل بذلك أرسل الى الملك العزيز بمصر يطلب العساكر وكذا من بقية الأطراف واجتمعوا على عين جالوت فأقاموا شهر رمضان وبعض شوال سنة ٥٩٣ ورحلوا الى يافا وملكوا المدينة وامتنع من بها بالقلعة التي بها فخرب المسلمون المدينة وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهرا بالسيف وأخذوا كل من بها أسرا وسبيا ووصل الفرنج من عكا الى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا فوصلهم الخبر بما وقع

فعادوا وعاد المسلمون الى عين جالوت فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت فعزم المسلمون على تخريب بيروت فسار اليها الملك العادل بجمع من العسكر فهدموا سور المدينة سابع ذى الحجة سنة ٥٩٣ وشرعوا فى تخريب دورها وتخريب القلعة فمنعهم أسامة من ذلك وتكفل بحفظها ورحل الفرنج من عكا الى صيدا وعاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا هم والفرنج بنواحى صيدا وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل وسار الفرنج سابع ذى الحجة سنة ٥٩٣ فوصلوا الى بيروت فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين فملكوها صفوا عفوا بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة فأرسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقى منها فان صلاح الدين كان قد خرب أكثرها وسافرت العساكر الاسلامية الى صور فقطعوا أشجارها وخربوا ما لها من قرى وأبراج فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت الى صور وأقاموا عليها ونزل المسلمون عند قلعة هونين ثم أتاهم الخبر ان الفرنج يريدون أن يحصروا حصن تبنين فسير العادل اليه عسكرا يحمونه ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبنين أول صفر سنة ٥٩٤ أربع وتسعين وخمسمائة وقاتلوا من به وجدوا فى القتال ونقبوه من جهاتهم فلما علم العادل بذلك أرسل الى الملك العزيز بمصر يطلب منه الحضور بنفسه فسار العزيز مجدا بمن معه من العساكر فلما سمع الفرنج بوصوله رحلوا الى عكا وعاد العزيز الى مصر وبقى العادل وترددت الرسول بينه وبين الفرنج وانعقد بينهم صلح وعاد العادل الى دمشق

﴿ ذكر ملك الفرنج القسطنطينية ﴾

فى سنة ستمائة ملك الفرنج مدينة القسطنطينية فى شعبان وانتزعوها من الروم وأزالوا ملك الروم عنها وكان سبب ذلك ان ملك الروم تزوج أخت ملك الفرنسيس وهو من أكبر ملوك الفرنج فرزق منها ولدا ذكرا وكان لملك الروم أخ فوثب الأخ على الملك فقبض عليه وملك البلاد منه وسمل عينيه وسجنه فهرب ولد الملك الى خاله ملك افرنسيس مستنصرا به على عمه فاتفق ذلك وقد اجتمع كثير

من الفرنج ليخرجوا الى بلاد الشام لاستنقاذ بيت المقدس فأخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصد الاصلاح الحال بينه و بين عمه ولم يكن له طمع فى سوى ذلك فلما وصلوا خرج عمه فى عساكر الروم محاربا لهم فوقع القتال بينهم فى ذى القعدة سنة ٥٩٩ تسع وتسعين وخمسمائة فانهزمت الروم ادخلوا البلد فدخل الفرنج معهم فهرب ملك الروم الى أطراف البلاد وقيل ون ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد وانما حصروه فيها وكان فى الروم من يريد الصبى فالقوا النار فى البلد فاشتغل الناس بذلك ففتحوا بابا من أبواب المدينة فدخلها الفرنج وخرج ملكها هاربا وجعل الفرنج الملك فى ذلك الصبى وليس له من الحكم شئ وأخرجوا أباه من السجن انما الفرنج هم الحكام فى البلد فثقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها وأخذوا أموال البيع ومافيها من ذهب وفضة وغير ذلك حتى ماعلى الصلبان وماهو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين وماعلى الاناجيل من ذلك أيضا فعظم ذلك على الروم وتحملوا منه خطبا عظيما فعمدوا الى ذلك الصبى الذى تملك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الأبواب واستحضروا الملك وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة ٦٠٠ ستمائة فاقام الفرنج بظاهره محاصرين للروم وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلا ونهارا وكان الروم قد ضعفوا ضعفا كثيرا فأرسلوا الى السلطان زكى الدين السلجوقى صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه فلم يجد الى ذلك سبيلا وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفا ولعظم البلد لايظهر أمرهم فتواطؤا هم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد وفتحوا الابواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيام وفتكوا بالروم قتلا ونهبا فأصبح الروم كلهم مابين قتيل أو فقير لا يملك شيأ ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التى تدعى أياصوفيا فجاء الفرنج اليها فخرج اليهم جماعة من القسيسين والاساقفة والرهبان بأيديهم الانجيل والصليب يتوسلون بها الى الفرنج ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا

الكنيسة وكان رؤساء الفرنج الذين ملكوا القسطنطينية ثلاثة ملوك دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية وفي مراكبه ركبوا الى القسطنطينية وكان شيخا أعمى اذا ركب تقاد فرسه والآخر يقال له المركيس وهو مقدم الافرنسيس والثالث يقال له كندافلند وهو أكثرهم عددا فلما استولوا على القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كندافلند فاعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فملكوه والله يؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء فلما خرجت القرعة ملكوه عليها وعلى ما يجاورها وجعلوا الدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة اقريطش وجزيرة رودس وغيرهما ويكون لمركيس الافرنسيس البلاد التي هي في الخليج مثل أزنيق ولازيق ولكن لم يحصل لاحد منهم شئ غير الذي أخذ القسطنطينية وأما الباقي فلم يسلم له من به من الروم بل دافعوا عما بايديهم وبقي لهم وأما البلاد التي كانت لملك القسطنطينية شرقي الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين السلجوقي ومن جملتها أزنيق فانه تغلب عليها بطريق كبير من بطارقة الروم اسمه كسكري وبقيت بيده ولم تزل القسطنطينية بأيدي الفرنج من هذا التاريخ الى سنة ستين وستمائة فتجمع الروم وقصدوها وقاتلوا الفرنج وانتزعوها منهم وعادت لملكهم ولما ملك الفرنج القسطنطينية في السنة المذكورة أعني سنة ٦٠٠ تقوى ملكهم بالشام فخرج كثير منهم من القسطنطينية في البحر الى الشام وأرسوا بعكا وعزموا على قصد بيت المقدس حرسه الله فلما استراحوا بعكا ساروا فنهبوا كثيرا من بلاد الاسلام بنواحي الاردن وسبوا وفتكوا في المسلمين وجاء أسطول منهم الى فوة من الديار المصرية فاستولوا عليها ونهبوها خمسة أيام وعساكر مصر في مقابلتهم وبينهم النيل ليس لهم وصول اليهم لانهم لم تكن لهم سفن وكان الملك العادل بدمشق فارسل في جمع العساكر من بلاد الشام ومصر فسار ونزل من القرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الاسلام ونزل الفرنج بمرج عكا وأغاروا على بعض الأطراف منها فأخذوا كل من بها ودام الأمر في اغارات بينهم وبين المسلمين

الى أن انقضت السنة ودخلت سنة احدى وستمائة فانعقد صلح بينهم و بين الملك العادل على ان دمشق وأعمالها ومابيد العادل من الشام يبقى له ونزل لهم عن كثير من المناصفات فى الرملة وغيرها وأعطاهم ناصرة وغيرها وسار نحو الديار المصرية فقصد الفرنج مدينة حماه فلقيهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقى الدين ابن أخى صلاح الدين شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم وكان فى قلة فهزموه الى البلد فخرج العامة الى قتال الفرنج فقتلوا منهم جماعة ثم عاد الفرنج الى عكا بعد أن انعقد صلح بينهم و بين صاحب حماه وفى سنة ٦٠٣ ثلاث وستمائة ملك غياث الدين السلجوقى أنطالية باللام مدينة للروم على ساحل البحر وهى غير انطاكية بالكاف وكان تملكه لها بعد قتال وحصار لأهلها ثم قتل من كان فيها من الفرنج

﴿ ذكر غارات الفرنج بالشام وحصن الاكراد ﴾

فى سنة ٦٠٤ أربع وستمائة كثر الفرنج الذين بطرابلس الشام وأكثروا الاغارة على بلد حمص وولايتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيرا فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه قوة ولا قدرة على دفعهم ومنعهم فاستنجد بالملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده أحد إلا الظاهر غازى فانه سير له عسكرا أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته ثم إن الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا فحاصرها وغار على أطرافها فصالحه صاحبها الفرنجى على قاعدة استقرت من اطلاق أسرى من المسلمين وغير ذلك ثم سار الى حمص ثم منها الى طرابلس وحاصر موضعا منها يسمى القليعات ثم ملكه صلحا وأطلق صاحبه وغنم مافيه من دواب وسلاح وخربه وتقدم الى طرابلس فنهب وأحرق وسبى وغنم وترددت الرسل بينه و بين الفرنج فى الصلح فلم يتم ودخل الشتاء فجعل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها وعاد الى دمشق فشتى بها وكان سبب خروج الملك العادل من مصر بالعساكر أن أهل قبرس الفرنج أخذوا عدة قطع من أسطول مصر وأسروا من فيها فأرسل العادل الى صاحب عكا فى رد ما أخذوه و يقول له نحن فى صلح فلم

غدر بأصحابنا فاعتذر بأن أهل قبرس ليس لى عليهم حكم وان مرجعهم الى الفرنج الذين بالقسطنطينية ثم ان أهل قبرس ساروا الى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم وتعذرت عليهم الاقوات وعاد حكم قبرس الى صاحب عكا فأعاد العادل مراسلته فلم ينفصل بينهما حال فسار بالعساكر وفعل بعكا ماذكرنا فأجابه حينئذ صاحب عكا الى ماطلب وأرسل الاسرى ثم لم تزل الوقائع تتوالى وتتتابع والصلح يتم تارة وينقطع أخرى الى أن دخلت سنة أربع عشرة وستمائة فحصلت وقائع شتى

﴿ ذكر ظهور الفرنج الى الشام ومسيرهم الى مصر وملكهم دمياط ﴾

كان من أول هذه الحادثة الى آخرها أربع سنين غير شهر وحاصلها أنه فى سنة أربع عشرة وستمائة وصلت امداد الفرنج فى البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج فى الغرب والشمال إلا أن المتولى لها كان صاحب رومية البابا لانه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة لايرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرهم وساءهم فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمى الفرنج وأمر كل ملوك الفرنج أن يسير بنفسه أو يرسل جيشا ففعلوا ما أمرهم فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام وكان الملك العادل بن أيوب بمصر فسار منها الى الشام فوصل الى الرملة ومنها الى لد وبرز وسار الفرنج من عكا ليقصدوه فسار العادل نحوهم فوصل الى نابلس عازما على أن يسبقهم الى أطراف البلاد مما يلى عكا ليحميها منهم فساروا اليه فسبقوه فنزل على بيسان من الاردن فتقدم الفرنج اليه فى شعبان عازمين على محاربته لعلمهم أنه فى قلة بالنسبة اليهم لأن عساكره كانت متفرقة فى البلاد فلما رأى الملك العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم فى الطائفة التى معه خوفا من هزيمة تكون عليه وكان حازما كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل الى البلاد فى تجمع العساكر فوصل الى مرج الصفر فنزل فيه وكان أهل بيسان وتلك الأعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا فلم يفارقوا بلادهم ظنا منهم أن الفرنج لا يقدمون عليه فلما أقدموا كان اقدامهم على غفلة من

الناس فلم يقدر على النجاة إلا القليل فأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة وغنموا شيأ كثيرا ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس وبثوا السرايا في القرى فوصلت الى خسفين ونوى وأطراف السواد ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها الى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي والاسرى ما لا يحصى كثرة سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا فأقاموا أياما واستراحوا فيها ثم جاؤا الى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنهبوا البلاد صيدا والشقيف وعادوا الى عكا وكان هذا من نصف رمضان الى العيد والذي سلم من تلك البلاد وكان مخفا قدر على النجاة ولما سار العادل الى مرج الصفر رأى رجلا في طريقه يحمل شيأ وهو يمشي تارة ويقعد تارة ويستريح فعدل العادل اليه وحده فقال له يا شيخ لا تعجل وارفق بنفسك فعرفه الرجل فقال يا سلطان المسلمين أنت لا تعجل فانا اذا رأيناك قد سرت الى بلادك وتركتنا مع الاعداء كيف لا نعجل قال ابن الاثير وبالجملة فالذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق من العساكر ولما نزل العادل على مرج الصفر سير ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق في قطعة صالحة من الجيش الى نابلس يمنع الفرنج عن بيت المقدس ولما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل بناها عن قريب فتقدموا اليها وحصروها وزحفوا اليها وصعدوا في جبلها حتى وصلوا الى سورها وكادوا يملكونه فاتفق أن بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوك الفرنج فعادوا عن القلعة وتركوها وقصدوا عكا وكان مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوما ولما فارقوا الطور أقاموا قريبا ثم ساروا في البحر الى ديار مصر فتوجه الملك المعظم الى قلعة الطور فخربها الى أن ألحقها بالأرض لانها قريبة من عكا يتعذر حفظها

﴿ ذكر حصر الفرنج دمياط الى أن ملكوها ﴾

لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا الى أن دخلت سنة خمس عشرة

وستمائة فساروا فى البحر الى دمياط فوصلوا فى صفر فأرسلوا على بر الجيزة بينهم
و بين دمياط النيل فان بعض النيل يصب فى البحر المالح عند دمياط وقد بنى
المسلمون فى النيل برجا كبيرا منيعا وجعل فيه سلاسل من حديد غلاظا ومدوها
فى النيل الى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أن تصعد فى
النيل الى ديار مصر ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو
لا يقدر أحد على منعها من أقاصى ديار مصر وأدانيها فلما نزل الفرنج على بر الجيزة
و بينهم و بين دمياط النيل بنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يمنعهم ممن يريدهم
وشرعوا فى قتال من بدمياط وعملوا آلات وأبراجا يزحفون بها فى المراكب الى
هذا البرج الذى للمسلمين فى النيل ليقاتلوا من فيه و يملكوه وكان البرج مشحونا
بالرجال وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل وهو صاحب دمياط و جميع
ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده
الى دمياط ليمنع العدو من العبور الى أرضها وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه
فلم يظفروا منهم بشىء وكسرت آلاتهم ومع هذا فهم ملازمون لقتاله فبقوا كذلك
أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ثم بعد ذلك ملكوا البرج فلما ملكوه قطعوا
السلاسل لتدخل بهم مراكبهم من البحر المالح فى النيل ويتحكموا فى البر فنصب
الملك الكامل عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل ثم
انهم قاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا كثيرا متتابعا حتى قطعوه فلما قطع أخذ الملك
الكامل عدة مراكب كبارا وملأها وخرقها وغرقها فى النيل فنعت المراكب
من سلوكه فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجا هناك يعرف بالازرق وكان النيل
يجرى عليه قديما فحفروا ذلك الخليج وعمقوه وأجروا الماء فيه الى البحر المالح
وأصعدوا مراكبهم فيه الى موضع يقال له بورة على أرض الجيزة أيضا مقابل المنزلة
التى كان فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك فانهم لم يكن لهم اليه طريق يقاتلونه
فيها وكانت دمياط تحجز بينهم و بينه فلما صاروا فى بورة حاذوه فقاتلوه فى الماء
وزحفوا عليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شىء لأن الميرة

والامداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فهم ممتنعون لا يصل اليهم أذى وأبوابها مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر فاتفق لما يريد الله عز وجل أن الملك العادل ولد الملك الكامل توفى بالشام فى جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة فلما جاء خبر وفاته لابنه الملك الكامل ضعفت نفوس الناس لان الملك العادل هو السلطان فى الحقيقة وأولاده وان كانوا ملوكا الا أنهم تحت حكمه والامر اليه وهو الذى ملكهم البلاد فاتفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدو وكان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له عماد الدين أحمد بن على ويعرف بابن المشطوب وهو من الاكراد الهكارية وهو أكبر أمير بمصر وله لفيف كثير وجميع الامراء ينقادون له ويطيعونه لاسيما الأكراد فاتفق هذا الامير مع غيره من الامراء ان يخلعوا الملك الكامل من الملك ويملكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليصير الحكم اليهم عليه وعلى البلاد فبلغ الخبر الملك الكامل ففارق المنزلة ليلا مع بعض أصحابه وسار الى قرية يقال لها أشموم طناح فنزل عندها فأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم فركب كل انسان منهم هواه ولم يقف الاخ على أخيه ولم يقدروا على أخذ شىء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم الا اليسير الذى يخف حمله وتركوا الباقى بحاله من ميرة وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ولحقوا بالكامل وأما الفرنج فانهم أصبحوا من الغد فلم يروا أحدا من المسلمين على شاطئ النيل كجارى عادتهم فبقوا لا يدرون ما الخبر واذ قد أتاهم من أخبرهم الخبر على حقيقته فعبروا حينئذ النيل الى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا ممانع وكان عبورهم فى العشرين من ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة فغنموا ما فى عسكر المسلمين فكان عظيما يعجز العادين وكان الملك الكامل قد فارق الديار المصرية لانه لم يثق بأحد من عسكره وكان الفرنج قد ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة فاتفق من لطف الله بالمسلمين أن الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس ابن الملك العادل بعد هذه الحركة بيومين وصل الى أخيه الكامل والناس فى أمر مريج فقوى به قلبه واشتد ظهره وثبت جنانه وأقام بمنزلته

وأخرجوا ابن المشطوب الى الشام فاتصل بالملك الاشرف موسى صاحب الجزيرة وديار بكر ابن الملك العادل ولم يمهل الله تعالى ابن المشطوب بل أخذه أخذة رابية فانه بعد اتصاله بالملك الاشرف والتحاقه بجنده وقعت منه خيانة فقبض عليه وحبسه الى أن مات ولما عبر الفرنج الى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الافساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج وكان أضر شيء على أهل دمياط انها لم يكن بها من العسكر أحد لان السلطان ومن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها فأتتهم هذه الحركة بغتة فلم يدخلها أحد من العسكر وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوها برا وبحرا وعملوا عليها خندقا يمنعهم ممن يريده من المسلمين وكانت هذه عادتهم وأداموا القتال واشتد الامر على أهلها وتعذرت عليهم الاقوات وغيرها وسئموا القتال وملازمته لان الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة ومع هذا صبروا صبرا لم يسمع بمثله وكثر القتل فيهم والجراح والموت والامراض ودام الحصار عليهم نحو ثمانية أشهر من أواخر ذى القعدة الى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة فعجز من بقى من أهلها عن الحفظ لقلتهم وتعذر القوت عندهم فسلموا البلد من هذا التاريخ بالامان فخرج منهم قوم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرقوا أيادى سبا

﴿ ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج ﴾

لما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها وبثوا السرايا فى كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون فجلا أهلها عنها وشرع الفرنج فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى انها بقيت لا تكاد ترام وأما الملك الكامل فانه أقام بالقرب منهم فى أطراف بلاده يحميها ولما سمع الفرنج فى بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا يهرعون من كل فج عميق وأصبحت دار هجرتهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق الى الشام فخرب بيت المقدس فى ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة وانما فعل ذلك لان

الناس كافة خافوا الفرنج وأشرف الاسلام وكافة أهله و بلاده على خطة الخسف
فى شرق الارض وغربها لان التتر أقبلوا من المشرق حتى وصلوا الى نواحى
العراق وأذربيجان وايران وغيرها وأقبل الفرنج من الغرب فملكوا مثل دمياط
فى الديار المصرية مع عدم الحصون المانعة بها من الاعداء وأشرف سائر البلاد
بمصر والشام على أن تملك وخافهم الناس كافة وصاروا يتوقعون البلاء صباحا
ومساء وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفا من العدو ولات حين مناص
والعدو قد أحاط بهم من كل جانب ولو مكنهم الملك الكامل من الجلاء لتركوا البلاد
خاوية على عروشها وانما منعوا منه فثبتوا وتابع الملك الكامل كتبه الى أخويه
الملك المعظم صاحب دمشق والملك الاشرف موسى صاحب الجزيرة وديار بكر
يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فان لم يمكن فيرسلان العساكر اليه
فسار الملك المعظم بنفسه الى الملك الاشرف فرآه مشغولا بما دهمه من اختلاف
الكلمة عليه وزوال الطاعة عن كثير ممن يطيعه فعذره وعاد عنه وبقى الامر
كذلك مع الفرنج الى سنة ثمان عشرة وستمائة ثم ان الملك الاشرف زال عنه
الخلاف ورجع الملوك الخارجون عن طاعته اليه واستقامت له الامور والملك
الكامل مقابل الفرنج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة علم الملك الكامل
زوال المانع للاشرف عن انجاده فأرسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق فسار
الملك الاشرف بعساكره الى دمشق ثم سار الى مصر وكان الفرنج قد ساروا عن
دمياط الفارس والراجل وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابله بينهما خليج من
النيل يسمونه بحر أشموم وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ الى عسكر المسلمين
وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية فلما سمع الملك الكامل
بقرب أخيه الملك الاشرف فرح بذلك فلما وصل الى مصر توجه اليه فلقيه
واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما لعل الله يحدث بذلك نصرا وظفرا وأما
الملك المعظم صاحب دمشق فانه سار الى دمياط ظنا منه ان أخويه وعسكريهما
قد نازلوا دمياط وقيل بل أخبر فى الطريق أن الفرنج قد توجهوا الى دمياط

فسابقهم اليها ليلقاهم من بين أيديهم وأخواه من خلفهم ولما اجتمع الاشرف بالكامل استقر الامر بينهما على التقدم الى الخليج من النيل يعرف ببحر المحلة فتقدموا اليه فقاتلوا الفرنج وازدادوا قرباً وتقدمت شوانى المسلمين من النيل وقاتلوا شوانى الفرنج فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الاموال والسلاح ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم والرسل مترددة بينهم وبين الفرنج فى تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون لهم تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع مافتحه صلاح الدين ماعدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب بيت المقدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم أمر وقالوا لابد من الكرك فبينما الامر فى هذا وهم يمتنعون فاضطر المسلمون الى قتالهم وكان الفرنج لاقتدارهم فى نفوسهم لم يستصحبوا معهم مايقوتهم عدة أيام ظنا منهم ان العساكر الاسلامية لاتقوم لهم ولاتقدر على مقابلتهم وان القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ماأرادوا من الميرة لامر يريده الله تعالى بهم فعبر طائفة من المسلمين الى الارض التى عليها الفرنج ففجروا النيل وخرقوا مواضع منه حتى خرج منه ماء كثير وسال كالبحر فركب الماء أكثر تلك الارض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق فنصب الملك الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشمون وعبر العساكر عليها فملك الطريق الذى يسلكه الفرنج ان أرادوا العود الى دمياط فلم يبق لهم خلاص واتفق فى تلك الحال انه وصل اليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه فوقع عليه شوانى المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمركب المذكور وما معه من الحراقات وأخذوها فلما رأى الفرنج ذلك سقط فى أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا الصواب بمفارقتهم دمياط فى أرض يجهلونها غداو عساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم فلما اشتد الامر على الفرنج

أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وأرادوا الزحف على المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود الى دمياط فرأوا ما أملوه بعيدا وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحال والمياه حولهم والوجه الذي يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون فلما تيقنوا انهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم وأن ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها وان المنايا قد كشرت لهم عن أنيابها ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وضل عنهم شيطانهم فراسلوا الملك الكامل يطلبون الامان ليسلموا دمياط بغير عوض فبينما المراسلات مترددة اذ أقبل جيش كبير له وهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج فاستشعروا واذا هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل اليهم وكان قد جعل طريقه على دمياط كما تقدم فاشتدت ظهور المسلمين وازداد الفرنج خذلانا ووهنا وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة والايمان سابع رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقامصتهم الى الملك الكامل والاشرف رهائن على تسليم دمياط وكان أولئك الملوك الذين صاروا رهائن كثيرين منهم فليب ملك الفرنسيس ونائب البابا صاحب رومية وملك عكا وكندريش وغيرهم وراسلوا قسوسهم ورهبانهم الى دمياط فى تسليمها فلم يمتنع من بها وسلموها الى المسلمين تاسع رجب المذكور وكان يوما مشهودا ومن العجب أن المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة فى البحر فلو سبقوا المسلمين اليها لامتنعوا من تسليمها ولكن سبقهم المسلمون ليقضى الله أمرا كان مفعولا ومما اتفق انه لما انعقد الصلح وحضر ملك الفرنسيس وملوك الفرنج عند الملك الكامل محمد وكان فى مجلس الكامل أخواه الملك المعظم عيسى والملك الاشرف موسى وكثير من ملوك الاسلام قام راجح الحلى وأنشد قصيدة بليغة تهنئة للملك الكامل محمد وفيها بيت ظريف وهو قوله .

أعباد عيسى ان عيسى وحزبه ❊ وموسى جميعا يخدمون محمدا

وأشار الى الملك المعظم عيسى والملك الاشرف موسى والملك الكامل محمد ولما أراد

ملوك الفرنج الحضور عند الملك الكامل طلبوا منه رهينة تكون عندهم فأرسل لهم ولده الملك الصالح أيوب وعمره خمس عشرة سنة ثم لما تم الصلح وتسلم المسلمون دمياط ارتحل ملك الفرنسيس فليب ومن معه من الملوك الى بلادهم وكانت مدة ملك فليب على الفرنسيس ثلاثا وأربعين سنة وهلك سنة ستمائة وعشرين هجرية ولما دخل المسلمون دمياط رأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصينا عظيما بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل اليها وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق الى نصابه ورده الى أربابه وأعطى المسلمين ظفرا لم يكن فى حسابهم فانهم كانت غاية أمانيهم ان يسلموا البلاد التى بالشام ليعيدوا لهم دمياط فرزقهم الله اعادة دمياط وبقيت البلاد التى بالشام بأيديهم على حالها فالله تعالى هو المحمود المشكور على ما أنعم به على الاسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو وكفاهم أيضا شر التتر كما سيأتى

﴿ ذكر وفاة الملك العادل التى تقدمت الاشارة اليها ﴾

قد تقدم أن الفرنج لما دخلت سنة خمس عشرة وستمائة ساروا فى البحر الى دمياط ووصلوها فى صفر وكان الملك العادل بالشام فى مرج الصفر ثم انتقل الى عالقين ومرض وتوفى سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ونقل الى دمشق ودفن بها وكان ابنه الملك الكامل أقامه هو ملكا فى مصر نيابة عنه وكان وقت وفاة أبيه مشتغلا بقتال الفرنج النازلين على دمياط كما تقدم وكان عمر الملك العادل لما توفى خمسا وسبعين سنة لان ولادته كانت سنة أربعين وخمسمائة وقيل ثمانية وثلاثين وخمسمائة وكان ملكا عظيما ذا رأى ومعرفة تامة قد حنكته التجارب حسن السيرة جميل الطوية وافر العقل حازما للامور صالحا محافظا على الصلوات فى أوقاتها متبعا لأرباب السنة مائلا الى العلماء حتى صنف له فخر الدين الرازى كتاب تأسيس التقديس وذكر اسمه فى خطبته وسيره اليه من بلاد خراسان وكان الملك العادل فى حياة أخيه صلاح الدين تابعا له تحت طاعته ينقله فى الولايات وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ وقع بينه وبين أولاد أخيه صلاح الدين أمور يطول الكلام بذكرها الى أن استقل بمملكة الديار المصرية

والشامية وكان استقلاله بمملكة الديار المصرية سنة ست وتسعين وخمسمائة واستقلاله بمملكة الديار الشامية سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وملك بلاد اليمن سنة اثنتي عشرة وستمائة وسير اليها ولد ولده الملك المسعود ابن الملك الكامل ثم ان الملك العادل لما انتزع الملك من أولاد أخيه صلاح الدين واستقل به قسم ممالكه بين أولاده وكان رجلا مسعودا وكذا أولاده لم يخلف أحد من الملوك أمثالهم في نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم ودانت لهم العباد وملكوا خيار البلاد وكان يتردد بينهم وينتقل اليهم من مملكة الى أخرى وكان بالغالب يصيف بالشام لاجل الفواكه والثلج والمياه الباردة ويشتي في الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد وعاش في أرغد عيش وكان يأكل كثيرا خارجا عن المعتاد حتى يقال كما في تاريخ ابن خلكان انه كان يأكل وحده خروفا لطيفا مشويا وخلف ستة عشر ولدا ذكرا غير البنات رحمه الله تعالى

﴿ ذكر خروج الفرنج الى الشام وعمارة صيدا وتملكهم بيت المقدس ﴾

لما توفي الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس ابن الملك العادل طمع الفرنج في الشام وكانت وفاة الملك المعظم سنة أربع وعشرين وستمائة في ذي القعدة وصار ملك دمشق لولده الناصر داود ثم انتزعها منه عمه الملك الكامل وأعطاه الكرك بدلا عن دمشق وبعد وفاة الملك المعظم خرج كثير من الفرنج من بلادهم القاصية الى بلادهم التي ملكوها في الشام عكا وصور وغيرهما فكثر جمعهم وكان معهم امبراطور الالمان واسمه فردريك وقيل بل هو صاحب جزيرة صقلية ومعنى الامبراطور بلغة الفرنج ملك الامراء فاستولوا على صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين فملكوها وعمروا سورها وكان خرابا وأزالوا عنها حكم المسلمين فعظمت شوكتهم وقوي طمعهم واستولى في طريقه على جزيرة قبرس وكانت عند ملك انكلترا ولما بلغ الملك الكامل أنهم يقصدون دمشق وبيت المقدس خرج بعساكره من مصر وترددت الرسل بينه وبين الامبراطور واستقرت القاعدة بينهما على الصلح ان المسلمين يسلمون للفرنج بيت المقدس

ومعه مواضع يسيرة من أعماله ويكون باقي البلاد للمسلمين مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وكان سور بيت المقدس قد خربه الملك المعظم كما تقدم فلما تسلم الفرنج بيت المقدس شرط عليهم عدم عمارة السور واستعظم المسلمون تملك الفرنج بيت المقدس وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه وكان تسلمهم إياه سنة ست وعشرين وستمائة وفي سنة ٦٢٨ ثمان وعشرين وستمائة انتهى تاريخ ابن الأثير المسمى بالكامل وتوفي مؤلفه سنة ثلاثين ببلاده الموصل وفي سنة ثمان وعشرين أيضا قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جبلة وهي من المدن المضافة الى حلب ودخلوا اليها وكانت حلب بيد شهاب الدين أتابك تابع الملك العزيز بن الظاهر غازي بن صلاح الدين وكان شهاب الدين الاتابك مملوكا للسلطان الظاهر غازي فلما بلغه دخول الفرنج مدينة جبلة سير اليهم العساكر فقاتلوا الفرنج وقتل كثيرا منهم وأخرجهم واسترد الاسرى والغنيمة * وفي سنة أربع وثلاثين وستمائة أغار الفرنج على ربض دير ساك وهي لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين وكثر فيهم القتل والاسر وعاد عسكر حلب بالاسرى ورؤوس الفرنج وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع * وفي سنة خمس وثلاثين توفي الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف موسى وكثر الاختلاف بين أولاد الملك الكامل وليس هذا محل ذكره وكان الملك الكامل من أعظم الملوك وله مشاركة في العلوم وملك مصر أربعين سنة عشرين نيابة عن أبيه وعشرين استقلالا وتوفي وعمره ستون سنة

﴿ ذكر استرجاع بيت المقدس للمسلمين ﴾

في سنة سبع وثلاثين وستمائة قصد الناصر داود بن الملك المعظم القدس وحاصرها وفتحها وكان الناصر داود بن الملك المعظم له ملك الكرك أعطاه إياه عمه الملك الكامل بعد أن انتزع منه دمشق كما تقدم فصار بيت المقدس له أيضا لما فتحه وتقدم أن تسليم بيت المقدس للافرنج كان سنة ست وعشرين فتكون مدة بقائه تحت أيديهم الى أن استرجعه الناصر داود احدى عشرة سنة ومن غريب الاتفاق ان

الناصر صلاح الدين استخلص بيت المقدس أولا والناصر داود استخلصه ثانيا ولذلك قال جمال الدين بن مطروح

المسجد الأقصى له آية * سارت فصارت مثلا سائرا
اذ قد غدا للكفر مستوطنا * أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا * وناصر طهره آخرا

* وفى سنة اثنتين وأربعين وقع اختلاف بين صاحب دمشق وهو الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل و بين ابن أخيه صاحب مصر وهو الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل وأدى ذلك الاختلاف الى القتال فلما كان القتال بينهما استعان صاحب دمشق بالفرنج الذين فى عكا ووعدهم بجزء من بلاد مصر فخرجت الفرنج بالفارس والراجل واجتمعوا بعسكر دمشق ووصل لقتالهم عسكر مصر مع ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح أيوب والتقى الفريقان بظاهر غزة فانهزم الفرنج وعسكر دمشق واستولى الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل و بيت المقدس انتزعه من الناصر داود ووصلت الاسرى والرؤس الى مصر ودقت بها البشائر عدة أيام ثم استولى الملك الصالح أيوب على دمشق سنة ثلاث وأربعين وستمائة وانتزعها من عمه الصالح اسماعيل بن الملك العادل * وفى سنة خمس وأربعين وستمائة فتح الملك الصالح عسقلان وطبرية بعسكر جهزه مع فخر الدين بن الشيخ وقد كان تسليمها للفرنج سنة احدى وأربعين وستمائة فاستمر نا الى الآن فقضتنا

﴿ ذكر ملك الفرنج دمياط مرة أخرى غير المرة السابقة ﴾

فى سنة سبع وأربعين وستمائة سار لويز ملك الفرنسيس فى خمسين ألفا وقصد دمياط وحاصرها ثم ملكها فى شهر صفر وكان ذلك فى مدة سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل فركب فى عصايب المسلمين لقتالهم فحاصرهم واستمر محاصرا لهم الى أن توفى فى شعبان وكان ولده توران شاه غائبا بحصن كيفا فقام بالامر شجرة الدر زوجة أبيه الملك الصالح الى أن حضر ابنه توران

شاه فقام مقام أبيه وتقدم الفرنج عن دمياط الى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين فى مستهل رمضان وقعة عظيمة ثم نزل الفرنج شرمساح ثم قربوا من المسلمين ثم كبسوا المسلمين على المنصورة ثم اشتد القتال بينهم وبين المسلمين برا وبحرا فكان النصر أخيرا للمسلمين بعد أن كان أولا للفرنج وكانت لهم مراكب كثيرة بالبحر وفى حسن المحاضرة للجلال السيوطى ان الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان مع عسكر المسلمين فقال بأعلى صوته مشيرا الى الريح ياريح خذيهم فجاءت ريح قوية على مراكب الفرنج فكسرتها وحصل الفتح والنصر للمسلمين وغرق أكثر الفرنج وصرخ صارخ فى المسلمين قائلا الحمد لله الذى أرانا فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم رجلا سخر الله له الريح وحمل المسلمون على الفرنج فردوهم على أعقابهم وأخذ المسلمون من مراكبهم اثنين وثلاثين مركبا منها تسع شوانى فضعف الفرنج لذلك وأرسلوا يطلبون القدس وبعض السواحل الشامية ويتركون دمياط فلم تقع الاجابة الى ذلك وكانوا قد فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط فان المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط اليهم فلم يبق لهم صبر على المقام فرحلوا متوجهين الى دمياط فركب المسلمون أكتافهم وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم الا القليل وبلغت عدة القتلى ثلاثين ألفا وانحاز ملكهم ومن معه من الملوك الى بلد هناك وطلبوا الامان فأمنهم الطواشى محسن الصالحى ثم أحيط عليهم وأحضروا الى المنصورة وقيد ملكهم وأركب على جمل وطيف به ثم حبس فى دار ابن لقمان ووكل به الطواشى صبيح ثم انعقد الصلح معه على تسليم دمياط وأن يطلق ويدفع ثمانمائة ألف دينار وقيل انه افتدى نفسه بقناطير من الذهب تبلغ سبعة ملايين فرنك فأطلق ورجع الى بلاده فلما وصلها أخذ فى الاستعداد وتودى الرجوع لحرب المسلمين فندم المسلمون على اطلاقه فأنشأ جمال الدين بن مطروح قصيدة كتبت وأرسلت اليه وأنشدها القاصد بين يديه وهو قائم منها قوله

قل للفرنسيس اذا جئته ۞ مقال صدق عن قول نصيح

أتيت مصرا تبتغي ملكها * تحسب أن الزمر ياطبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم * بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لايرى منهم * غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم ان أضمروا عودة * لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها * والقيد باق والطواشي صبيح

فلما سمع المقالة ذلت نفسه ونأى عن العودة الى مصر ثم أراد أن يأخذ ثاره من تونس لامر جرى بينه وبين ملكها وهو أبو عبدالله محمد بن أبي زكريا الحفصي الملقب بالمستنصر بالله (وحاصل) ما كان بينه وبين ملك الفرنسيس المذكور أنه جرى ذكره يوما عند المستنصر فهضم من جانبه وقال هو الذي أسره هؤلاء وأطلقوه وأشار الى بعض الاتراك الذين كانوا يخدمون بين يديه وكان قد استخدم منهم جماعة فبلغت مقالة المستنصر ملك الفرنسيس فحقد عليه وتجهز بجنوده يريد أخذ تونس وذلك سنة ثمان وستين وستمائة فسار ومعه ثلاثون ألفا وأساطيله ثلاثمائة بين كبار وصغار وحاصر تونس ستة أشهر فقال بعض أدباء تونس

يافرنسيس هذه أخت مصر * فتهيأ لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر * وطواشيك منكر ونكير

فقدر الله هلاك ملك الفرنسيس وهو محاصر تونس قيل أصابه سهم فقتله وقيل أصابه مرض الوباء فقتله وذلك سنة تسع وستين وستمائة وهلك كثير من جنده بالوباء وتملك بعده ابنه فعقد صلحا مع أهل تونس وارتحل عنهم وكفى الله شرهم وذكرنا قصة تونس قبل مجيء الموضع الذي ينبغي أن تذكر فيه أعني سنة تسع وستين لتتصل هذه القصة بالقصة السابقة لما بينهما من التناسب

﴿ ذكر خروج التتر وتملكهم بغداد وانقراض الدولة العباسية من بغداد ﴾

قال ابن خلدون ان التتر من شعوب الترك وان الترك كلهم من ولد كومر بن يافث ابن نوح عليه السلام ومساكنهم بلاد الصين مما وراء نهر سيحون وهم أمم كثيرة وسيحون نهر مما وراء النهر قريب خجند بعد سمرقند وهو في حدود بلاد الترك

ويطلق أيضا على نهر الهند وأما جيحون فهو نهر خوارزم وجيحان نهر بالشام ٭ وفي سنة ست وخمسين وستمائة كان استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية (وينبغي قبل ذلك) أن نذكر ابتداء أمر التتر وكيف كان خروجهم على أهل الاسلام ذكر كثير من المؤرخين ان حادثة التتر حادثة عظمى ومهيبة كبرى عمت الخلائق وخصت المسلمين بشدة بلائها فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله آدم عليه السلام الى وقت خروج التتر لم يبتل بمثلها لصدق فان التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولا مايدانيها ومن أعظم مايذكرون من الحوادث مافعله بختنصر ببني اسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس ومابيت المقدس بالنسبة الى ماخرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني اسرائيل ولعل الخلق لايرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج وأما الدجال فانه يبقي من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا أحدا بل قتلوا العلماء والصلحاء والزهاد والعباد والخواص والعوام والنساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح فان قوما خرجوا من أطراف الصين وعبروا نهر سيحون فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاسغون ثم منها الى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ماسنذكره ثم تعبر منهم طائفة الى خراسان فيفرغون منها ملكا وقتلا وتخريبا ونهبا ثم يتجاوزونها الى الري وهمذان وبلد الجبل ومافيه من البلاد الى حد العراق ثم يقصدون بلاد اذربيجان وأرمينية وغيرهما ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج الا الشريد النادر في أقل من سنة هذا مالم يسمع بمثله ثم لما فرغوا من اذربيجان وأرمينية ساروا الى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم وعبروا عندها الى بلد

اللان واللزك ومن كان هنالك من الامم المختلفة فاوسعوهم قتلا ونهبا وتخريبا ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون الى الغياض ورؤس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها ففعلوا هذا فى أسرع زمان لم يلبثوا الا بقدر مسيرهم لا غير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل ما فعل هؤلاء وأشد هذا ما لم يطرق الاسماع مثله فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على انه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة انما ملكها فى نحو عشر سنين ولم يقتل أحدا انما رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الارض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الارض أخلاقا وسيرة فى نحو سنة ولم يبت أحد من أهل البلاد التى يطرقونها الا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم اليه ثم انهم لا يحتاجون الى ميرة ومدد يأتيهم بل كان معهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير وأما دوابهم التى يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير فهم اذا نزلوا منزلا لا يحتاجون الى شئ من خارج وأما دياناتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيأ فانهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير والحشرات وبنى آدم ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لا يعرف أباه ولقد بلى الاسلام والمسلمون فى مدتهم بمصائب لم يبل بها أحد من الأمم فهؤلاء التتر قبحهم الله أقبلوا من المشرق ففعلوا الافعال التى يستعظمها كل من سمع بها وكانوا كلما ملكوا مدينة قتلوا العلماء والصلحاء والزهاد والعباد والخواص والعوام وخربوا الجوامع وأحرقوا المصاحف وفعلوا أشياء لم يسمع بمثلها وفى مدتهم أيضا كان خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب الى الشام ثم قصدوا ديار مصر وانتشرت الفتن فى ممالك الاسلام فانا لله وانا اليه راجعون قال ابن الاثير نسأل الله أن ييسر للاسلام والمسلمين نصرا من عنده فان الناصر والمعين والذاب عن الاسلام

معدوم قال تعالى (واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال) وهؤلاء التتر نوع من الترك ومساكنهم كانت جبال طمغاج من بلاد الصين وبينها وبين بلاد الاسلام ما يزيد على ستة أشهر ومملكة الصين متسعة دورها ستة أشهر وهي منقسمة ستة أجزاء كل جزء مسيرة شهر وعلى كل جزء ملك يقال له عندهم خان وواحد منهم رئيس على الجميع ولما انتهت الرياسة الى واحد منهم يقال له جنكز خان كان ابتداء خروجهم على بلاد الاسلام وذلك سنة ست عشرة وستمائة في خلافة الناصر لدين الله العباسي بن المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله بن المقتدي بأمر الله بن القائم بامر الله بن القادر بالله ابن اسحاق بن المقتدر بن المعتضد وكانت مدة خلافة الناصر ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر لأنه كانت ولايته الخلافة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ووفاته سنة ثنتين وعشرين وستمائة فكان أكثر فتنة التتر في مدته وكان سبب خروجهم ان ملكا من ملوك الاسلام كان مالكا لخراسان وما وراء النهر يقال له خوارزم شاه كان بينه وبينهم فتنة فاقتتلوا معه واتسع أمرهم حتى كان منهم ما كان وكان خوارزم شاه منتسبا الى شخص يقال له أنوش تكين وهو مملوك لبعض أمراء السلجوقية وكان حسن الطريقة فترقى الى أن صار مقدما مرجوعا اليه فولد له ابن يقال له محمد خوارزم شاه وانتشأ عارفا أديبا واشتهر عنه العقل وحسن التدبير فقدر الله ان وقعت فتنة في خوارزم سنة أربعمائة وتسعين وقتل أمير خوارزم وكانت تحت حكم السلاطين السلجوقية والخلفاء العباسية فولوا ملك خوارزم لمحمد خوارزم شاه ابن أنوشتكين ثم توارث الملك بنوه واتسع ملكهم وعظم أمرهم وصار كل ملك منهم يقال له خوارزم شاه ولم يزل ملكهم يقوى ويتسع حتى تغلبوا على الممالك وصار ملكهم من حد العراق الى تركستان وملكوا خراسان جميعه وغزنة وكابل وبعض الهند وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبل وبعض فارس فلم يزالوا يتوارثون الملك الى سنة خمسمائة وست وتسعين فكان الملك منهم في التاريخ المذكور لمحمد خوارزم شاه بن تكش بن أرسلان

ابن أطسن بن محمد خوارزم شاه بن أنوش تكين فاتسع ملكه غاية الاتساع حتى صار يتطلب تملك بغداد قال الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء في وصف خوارزم شاه المذكور انه أباد الملوك وأخذ الممالك وعزم على قصد الخليفة فلم يتهيأ له مدة وكان خوارزم شاه قسم ممالكه بين أولاده وكانوا أربعة وضرب لكل منهم نوبة مثل نوبته وكان تحته سبعة وعشرون ملكا تضرب نوبة لكل واحد منهم في أوقات الصلوات وانفرد هو بنوبة ذي القرنين تضرب وقت طلوع الشمس وغروبها وكانت سبعا وعشرين دبدابة والدبداب هو الطبل الكبير وكانت هذه السبع والعشرون من الذهب مرصعة بأنواع الجواهر فلما انتهى أمر ملكه الى هذا الحد احتقر أمر التتر سكان الصين وصار يغار بهم ويغير على بلادهم وهم أيضا يغازونه ويغيرون على بلاده ثم انعقد صلح بينهم وبينه ومهادنة وصار تجارهم يأتون الى بلاده ثم ان عامل خوارزم شاه على آخر مملكته مما يليهم كانت له قوة ومعه عشرون ألف فارس وكان خال خوارزم شاه فشرهت نفسه الى أموال التجار واتفق انه دخل في محل ملكه كثير من التجار والاتراك معهم أموال للتجار من التتر وأموال الملك التتر فكتب ذلك العامل الى خوارزم شاه يقول له ان هؤلاء القوم قد جاؤا بزي التجارة وما قصدهم الا التجسس وان أذنت لي فيهم قبضت عليهم فأذن له فقبض عليهم وأخذ أموالهم ثم وقعت مكاتبات بين ملك التتر وخوارزم شاه في اطلاقهم وكتب ملك التتر لخوارزم شاه يتهدده ان لم يطلقهم فغضب وأمر بقتلهم فقتلهم ذلك العامل وسير اليه ما كان معهم من الاموال وكان شيأ كثيرا ففرقه خوارزم شاه على تجار سمرقند وبخارى وأخذ منهم قيمة تملكهم فلما بلغ الخبر جنكز خان أرسل جماعة الى خوارزم شاه يتهدده ويقول أنت قتلت جماعتي فاستعد للحرب فاني واصل اليكم بجمع لا قبل لكم به فقتل خوارزم شاه كبير هؤلاء الجماعة وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم الى جنكز خان فقالوا له ان خوارزم شاه يقول لك انا سائر اليك ولو انك في آخر الدنيا حتى أنتقم منك وأفعل بك كما فعلت بأصحابك وتجهز خوارزم شاه وسار

بعد الرسول مبادر السبق خبره و يكبسهم وأدمن السير فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل الى بيوتهم فلم يرفيها الا النساء والصبيان والاطفال فأوقع بهم وغنم الجميع وسبى النساء والذرية وكان سبب غيبة الكفار أنهم ساروا لمقاتلة ملك من ملوك الترك فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا فلقيهم فى الطريق الخبر بما فعل خوارزم شاه بمخلفيهم فجدوا السير وأدركوه قبل أن يخرج من أرضهم وتصافوا للحرب واقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله ثلاثة أيام بلياليها وجرى الدم فى الارض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته وأحصى من قتل من المسلمين فكانوا عشرين ألفا وأما الكفار فلا يحصى من قتل منهم ثم رجع الكفار الى بلادهم ورجع المسلمون الى بخارى واستعدوا لمجيء جنكزخان اليهم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم

﴿تم الجزء الأول من الفتوحات الاسلاميه
ويليه الجزء الثاني أوله تملك جنكزخان بخارى﴾

﴿ فهرست الجزء الاول من الفتوحات الاسلامية ﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿ تمت ﴾